

الصرق الصوفية وروائها بالبلاط التونسية

تأليف

حسين الحاج يوسف

عبد الوهاب بوزفرو



مركز الموسيقى
العربية والمتوسطة

منشورات سوتيميديا

الصرق الصوفية وروائها بالبلاغة التونسية

تأليف

حسين الحاج يوسف
عبد الوهاب بورثرو

الطبعة الأولى: تونس 2023

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حقوق المؤلف والمترجم محفوظة

*** **

وزارة الشؤون الثقافية

مركز الموسيقى العربية والمتوسطية - النجمة الزهراء

العنوان : 8 نهج 2 مارس 1934، 2026، سيدي بوسعيد

الهاتف : 21671740102/+21671728975 الفاكس : 21671746490

البريد الإلكتروني: info@cmam.tn الموقع: www.cmam.tn

*** **

سوتيميديا للنشر والتوزيع

العنوان : ص ب 570 تونس - حشاد 1049 تونس

الهاتف : 00216 36341261 الجوال : 00216 25886601 الفاكس : 00216 32400756

@ contact@sotumedias.tn f www.facebook.com/sotumedias

** **

ر.د.م.ك

978-9938-61-072-7

سوتيميديا

الصق الصّوفية ورواها بالبلايا التونسية

لوحة الغلاف : صورة من عرض «هاج الغرام»
تظاهرة «صوفيات» المخصصة للتراث الصوفي التونسي
من 12 إلى 15 أفريل 2023 - النجمة الزهراء

مركز الموسيقى
العربية والمتوسطة



الصرق الصوفية وروائها بالبلاط التونسية

تأليف

حسين الحاج يوسف

عبد الوهاب بوزفرو

سوتيميديا

فهرس الكتاب

9.....	التقديم
15.....	من التصوف إلى الموسيقى
21.....	السماع والأصوات
33.....	تفاعلات الطرق الصوفية مع الموسيقى المحلية بتونس
41.....	جدلية الموسيقى والإنشاد الصوفي
61.....	التداوي بالموسيقى

النصرق الصوفية بتونس حسب التسلسل التاريخي

73.....	الجنيد شيخ الصوفية
79.....	الطريقة القادرية
99.....	نموذج من وظيفة قادرية خاصة بمدينة فنصة
105.....	فرقة الحوامد الصوفية بالمنشية (ولاية قبلي)
107.....	الطريقة الرفاعية
111.....	الطريقة المدينية (المدنية)
121.....	تفرع القادرية
125.....	الطريقة البوعلية
141.....	الحزامية فرع عن الطريقة البوعلية
151.....	الطريقة السنّية (السنانية)

155.....	الطريقة الشاذلية
175.....	الطريقة الجزولية
179.....	الطريقة العيساوية
209.....	الطريقة الزرّوقية
217.....	الطريقة السلامية (العروسية)
245.....	الطريقة الناصرية
249.....	الطريقة الشايّية
255.....	الطريقة الغريانية
259.....	الطريقة القشّاشية
263.....	الطريقة العوامرية
271.....	نموذج من سهرة في ليلة الجمعة بالزاوية
281.....	زيارة أحزاب العوامرية غير الصفاقسية
283.....	الطريقة الشطّية بمساكن
287.....	نموذج من سهرة شطّية
293.....	الطريقة العرّوزية
297.....	الطريقة الطيبية
305.....	الطريقة التهامية فرع عن الطريقة الطيبية
311.....	الطريقة العمّارية
315.....	ورد ليلة الأحد
316.....	ورد ليلة الاثنين
316.....	ورد ليلة الثلاثاء
316.....	ورد ليلة الأربعاء
316.....	ورد ليلة الخميس
316.....	ورد ليلة الجمعة
316.....	ورد ليلة السبت
321.....	الطريقة الخلوتية
329.....	الطريقة الرحمانية
339.....	الطريقة الحفّوظية فرع عن الطريقة الرحمانية
347.....	صورة من احتفالات حزب الحفّوظية

- 353..... الطريقة التيجانية
- 365..... الطريقة الدرقاوية
- 371..... الطريقة المدنية (الدرقاوية)
- 377..... مدينة النساء بالمنستير (مدينة ظافر)
- 395..... الطريقة العلاوية
- 401..... الطريقة المدنية (العلاوية)
- 413..... فرع المدنية: الطريقة الغوثية
- 419..... فرع المدنية: الطريقة الهادفية
- 425..... فرع الهادفية: الطريقة القاسمية
- 427..... طرق تسافر وطرق تهاجر
- 429..... الطريقة الساعدية
- 431..... الطريقة التّسوقية
- 449..... الطريقة النقشبندية
- 475..... أشباه طرق وعادات
- 477..... وجق دار شعبان الفهري
- 489..... عادة السيدة عائشة المنوبية
- 495..... العادة الخطابية
- 499..... نوبات الأولياء الصالحين من غير أصحاب الطرق
- 505..... أم الزين الجمالية
- 511..... طريقة أولاد الحشّان
- 513..... الطرق الزنجية
- 519..... أحزاب الفكاهة
- 521..... حزب الفليون
- 527..... حزب البلوط
- 533..... خاتمة
- 537..... قائمة المراجع والمصادر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

التقديم

عندما فاتحني الأستاذ حسين الحاج يوسف في موضوع هذا الكتاب كنت أتصوّر صعوبات جمّة ستعترضنا، ولكنني لم أكن أتصوّر أنها ستكون بمكان. فقد خيل إليّ أنّ الكتب والمنشورات حول هذا الموضوع متوقّرة، فقد كنت أرى في ارتيادي للمكتبات عناوين كثيرة لكتب الصوفية، وكنت لا أقرؤها نظرا لاهتمامي بميادين أخرى بعيدة عن التصوّف، فكانت معرفتي به معرفة سطحية كمعرفة عامّة الجمهور.

وسبق لي أن سجّلت ثلاث حصص من برنامج "مؤلف وكتاب" بإذاعة المنستير سنة 1979 مع الشيخ منور المدني مقدم الطريقة المدنية بقصيبة المديوني، بمناسبة نشر ديوان والده الشيخ محمّد المدني "أنيس المرید في التصوّف والتوحيد"، فقدّمنا فيها فكرة حول الممارسات الصوفية وخصوصا المواعيد والحضرات، وأثناء ذلك تعرّفت إلى العديد من ممارسات الصوفية غير المدنية، ولكن بقي الموضوع بالنسبة إليّ مجرد ظاهرة دينية واجتماعية جديرة بالدراسة ولكن ليست من أولويات اهتماماتي.

أن أدرس الصوفية من الناحية العقديّة لم يكن مما يثير اهتمامي، فإنّ أمثلة كثيرة كانت تنفّر مثلي ممّن يدّعي العقلانية والتبصّر أن يدخل في شطحات الصوفية،

ويفهم بدون تحييز محنة الحلاج، أمّا أن أخصّص دراسة للصوفية في موضوع الموسيقى، فهذا شيء بالنسبة إليّ، له من الطرافة ما يثير الاهتمام، خصوصا عندما أجد نفسي صحبة أستاذ جامعي في الموسيقى ومحاطا بدكتور في هذا الفنّ هو الدكتور محمد بن الهاشمي زين العابدين. إذن، لم يبق إلا أن أخوض المغامرة.

لعلّه من حسن حظّي، أو من حسن حظّ هذا الكتاب، أن كان الأستاذ حسين الحاج يوسف قد سبق أن قام بدراسات ميدانية وسفرات وجولات وتسجيلات مع إذاعة المنستير جابت أنحاء كامل الجمهورية تقريبا، ولم تترك شاردة ولا واردة إلاّ أحصتها. فلما عرض عليّ هذا العمل وجدت مشجعا على المساهمة في تأليف هذا الكتاب، حيث أنني لن أفقر إلى المادّة من ناحية، ولن أضلّ السبيل مع هذين الاختصاصيين، وسيتلخّص دوري في بعض البحوث الأدبية، وتحقيق بعض التراجم، والتأليف الأدبي، بينما ستكون للأستاذ حسين الناحية الفنية والعلمية، وستكون للدكتور الإحاطة والتصويب والتوجيه.

هكذا بدا العمل سهلا في الوهلة الأولى، لكنّ الصعوبات شرعت تخرج رؤوسها كالأفاعي من أجحارها، الواحدة بعد الأخرى كلما تقدّمتنا خطوة في التأليف، وكلّما قلنا: "ها..قد انتهينا!" يأتي من يقول: "وأنا أيضا جدير بالدراسة!" و"أنا أيضا جدير أن يُفرد لي فصل!" و"أنا مستقل، ولست فرعا من أصل!"، ولله درّ الكمبيوتر! لقد صبر هو الآخر على كلّ هذا، وساعدنا مساعدة كبيرة في سرعة تصنيف هذه الأشياء وتنظيمها وتصنيفها، دون أن يجعلنا نملّ أو ننسى شيئا في رحلة التنقيح والتغيير والتبديل والتنقيح والإضافة والتصحيح.

وفي أثناء ذلك كانت تعترضنا صعوبات جوهرية: الأولى: أنه ليس كلّ ما نحتاج إليه في دراستنا يمكن أن نجده في الكتب. ذلك أنّ أغلب هذه الكتب المتوقّرة درست الموضوع من الناحية التاريخية أو العقائدية أو غير ذلك، ولم نعرّ على من تطرّق للموضوع من الناحية الموسيقية، رغم وجود بعض الشذرات النادرة مبثوثة هنا أو هناك، اللهمّ إلاّ ما ذكر في بعض السفاين ولا عُنيّة فيه ولا شفاء لغيليل. فلا بدّ، إذن، من بحوث ميدانية وزيارات على عين المكان وتنقّل من بلدة إلى بلدة، وتصحيح بعض المعلومات من أفواه

أصحابها، بعد أن قدم العهد بالتسجيل الإذاعي والتلفزي، أو بدونه.

الثانية: أنّ ما نجده يفتقر إلى الموضوعية، حيث إته لا يطابق الواقع في بعض الأحيان، وإنّما هو تعبير عن انطباع الكاتب أو المؤلّف أكثر منه تصوير للواقع الصحيح.

الثالثة: غياب الموضوعية بين من يروون لك وهم متحمّسون للطريقة فيبالغون أحيانا لدرجات واضحة، وبين من يروون لك وهم من خصومها، فيبالغون أيضا في انتقادها والبحث عن مثالبها.

وهكذا كانت الصعوبة على واجهتين: الواجهة الأولى: الناحية العقديّة والدينيّة؛ والثانية: الناحية الفنيّة والموسيقيّة. أمّا الناحية الأولى، فقد أحجمنا عن القول فيها قولاً لا نرى أنفسنا أهلاً للخوض فيه، وأمّا الناحية الموسيقيّة العلميّة فإنّ صعوبة أيضا تعترضنا وهي إصدار حكم نزيه، وهذا يبدو صعبا جدّا، لأنّ الهدف الأساسي لدى كلّ الطرّق الصوفيّة ليس الموسيقى بل تطرية الذهن البشري وتأسيس النفس الإنسانيّة بالحضور في السباحات الروحيّة، والموسيقى مساعد على ذلك، فهي وسيلة وليست هدفا، فيكْتَفَى منها بما يبلّغ الحاجة. لذلك لم تكن لنا أحكام بقدر ما كان لنا محاولة تسجيل وتوثيق للواقع وإبداء ملاحظات لا نريد منها أن تكون أحكاما مطلقة على ذوق يحكمه الإحساس.

لكن الدراسة بيّنت أنّ الطرّق الصوفيّة كانت من أبرز الظواهر التي حافظت على التراث الموسيقي، من ناحية، ومن ناحية أخرى ربّما طعّمت هذه الطرّق بألحانها وسبحاتها موسيقى الطرب، فكانت هذه الأخيرة عالية عليها في كثير من الأحيان. ولعلّ ذلك من المستغرب، لكنّه يكوّن حقيقة تاريخيّة معروفة لدى أرباب الموسيقى بما حفظته هذه الطرّق ممّا يسمّونه مالوف الجد وكيف استطاع أهل مالوف الطرب الاستفادة منه لفنّهم.

إنّ الذي يستحضر أجواء الطرب التي تحدّثها وصلات المالوف في النفس وما تليّنه من المشاعر وما تسمو به في عالم بعيد عن الكون المادّي، لا يمكن مقارنتها بما تحمل كلمات هذه وصلات من معان لا تسمو هذا السموّ الذي نجده في الموسيقى، بينما

المستمع إلى الأناشيد الصوفية من المدائح والبحور دون الصنائع، يجد المناسبة بين هذه الألحان والكلمات التي صيغت لها بل ربّما يرى الألحان عاجزة عن بلوغ المعاني المطلوبة رغم الجهد والبحث الذي بذله المنشد أو الملحن.

وهنا يعترضنا معترض فيقول: كيف يستقيم عندكم: أنّ الموسيقى ليست هدفا عند الصوفية فيُكتفى منها بما يبلغ الحاجة، ثمّ تكون هي أرقى من المألوف الذي نعتبره من أرفع ما وصلت إليه موسيقانا؟

وهو سؤال وجيه، لكنه لا يغيّر من الواقع شيئا، فصحيح أن الطرق الصوفية لا تبحث عن الموسيقى على أنها فنّ مستظرف تحبّ أن تتقدّم فيه شوطا، وإنّما تعتبرها وسيلة من وسائل تخريج النفس البشرية من روتين حياتها العادية والسيح بها في ملكوت الروح حتّى ترتفع عن هذه المقاييس الماديّة؛ وتجتمع مخلوقات الله تعالى في صعيد واحد في الشوق والتوق والنزوع إلى الله في مقام يستوي فيه الإنسان بالحيوان والجماد، والمفاضلة بين هذه المخلوقات تكون بالقرب أكثر من حضرة الجليل الخالق العظيم. وحيث إن الموسيقى تمكّن النفس عن طريق الإيقاع والنغم من إحداث مثل هذا السموّ، كان التجاء الصوفية إليها، مثل التجائهم للتأمل والعزلة والتفكير الدائم وغير ذلك من الممارسات المعهودة لديهم، وهذا التسامي، وهذا السبح يجعلانهم يكتشفون من جملة ما يكتشفون مجاهل في النغم والإيقاع والموسيقى مما لا يبلغه من يبحث عنها بعينها بصفقتها مبحثاً أصلياً من فنّ الموسيقى. وللدهرنة على هذا ما زلت تجد من بين أصحاب الطرق الصوفية من يخلطون بين الأنغام ولا يكادون يعرفون شيئا عن الموسيقى، وهم مع ذلك يأتون بأشياء على السليقة تثير الاهتمام. أما الطرق التي اهتمت بالموسيقى فقد بلغت درجات من الرقي لا ننكر قيمتها أمام ما يروج من موسيقى في أوساطنا.

إنّ كتابنا هذا ليس إلاّ لبنة نضعها في صرح نأمل أن يتواصل بناؤه مع أبنائنا من طلبة مدارس الموسيقى ومعاهدها ومن غيرهم، خدمة لتراثنا وحضارتنا وبالتالي شخصيتنا التي يجب علينا جميعا أن نعمل على إبرازها وتمييزها كي نساهم المساهمة الفعّالة في التراث الإنساني نحو سعادة الإنسان. ولنا تساجيل لأغلب ماجاء في الكتاب

بالصوت، وفي بعض الحالات بالصوت والصورة معا. وقد تبيّن لنا أنّه بالإمكان إفراد كلّ طريقة بكتاب خاص يجمع ما لها من مدائح ونوبات وبحور وخصائص تميّزها عن أخواتها من الطرق.

وأخيرا يُسعدني وزميلي الأستاذ حسين الحاج يوسف أن نتقدّم بالشكر لكلّ من ساعدنا بأيّ طريقة كانت ولا نريد أن نخصّ أحدا، فالكلّ لهم الفضل في صدور هذا الكتاب.

عبد الوهاب بوزفرو

* ملاحظة: سوف نستعمل الحرف (ق) كما ينطق عندنا في تونس وهو نطق القاف البدوية أو النطق الفرنسي (gue) أو الجيم المصرية ولا علاقة له باستعمال آخر.

من التصوف إلى الموسيقى

إن كان من أهمّ قواعد الصوفية توطين النفس على قوّة الإرادة، والسلوك بها إلى ذات الله تعالى بالواسطة التدريجية، ولا يمكن ذلك إلا بتطهير النفس وكبح جماح الغرائز وترويضها على تحطّي مطالبها المادّية في سبيل الوصول إلى مبتغائها، فإن ذلك الوصول لا يمكن أن يكون إلا عن طريق شيخ يريك شخوصها، وسلوك الطريق التي خبرها، وأخذها عن غيره من شيوخه شيئا عن شيخ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وحيث إن سلوك هذه الطريق يستلزم من الطالب تكاليف ونُظما شديدة المؤنة وصعبة التحقيق لا تتأتّى للعموم من النَّاس، فإن انتشارها بين العامّة لا يمكن مجال من الأحوال أن يجعلها تحافظ على مسارها الصحيح ولا تنزلق في متاهات الخيالات والأوهام والتخلّي عن الحياة جريا وراء ما تصوّره تلك الخيالات، وهكذا تستحدث لها محدثات غير الطريقة الأصليّة، وتدخل فيها شعارات وأنظمة تحيد بها عن مسارها الصحيح، وربّما تصل بها إلى عكس المقصود تماما. فقد أصبحت الطرق الصوفية عموما تقتصر على المظاهر الاحتفالية، فصارت مجرد لقاءات أنس تُغنى فيها الألحان المطربة المرقصة وتُقدّم فيها الأناشيد الفنّية الرقيقة وتمجّد فيها أسماء الله لا بالخشوع

1 يقول روجيه أرنلدز في مقال له بالموسوعة (Universalis) الصادرة بفرنسا سنة 1997 بعنوان (المرابطة): "إن الفكرة الأساسية تتمثّل في أنه كي يمكن التوغل في طريق الصوفية (الطريقة) من الضروري أن يكون هناك قائد (شيخ) يجب الخضوع السليبي والكمال له والفتنة به ثقة عمياء، فذلك من أساس التعاليم التي تلقّاها هؤلاء الشيوخ، وكذلك ورعهم فهم أحباب الله المقدّسون، وهم ليسوا مجرد قادة روحيين بل وحماة زمينيين... وهكذا ظهر الترتيب التفاضلي الذي يختلف من مدرسة (صوفية) إلى أخرى، لكننا نجد في القمة غوثا (نجدة) الذي يتحمّل عن الناس شقاءهم، والقطب الذي تدور حوله إدارة شؤون العالم."

بل بالألحان المضبوطة النغمات على توقيع الآلات الموسيقية المختلفة انطلاقاً من الدف المربع البسيط وصولاً إلى الآلات الموسيقية الحديثة.

نشأ التصوّف بصفته فكرة زهدية عن طريق عدّة عوامل تمازجت فيما بينها كان المقصود منها نبذ الدنيا والتعلّق بالروحانيات والماورائيات والبحث عن سعادة الرّوح بعد أن عجز الجسد عن توفيرها في هذه الحياة الدنيا.

يقول أحمد أمين: "... ولأنّ الناس فقدوا الدّنيا، فتطلّعوا إلى الآخرة، ويتّسوا من العدالة الاجتماعية في الأرض فأملوها في السماء، ولم يجرؤوا أن يثوروا في وجوه الحكّام يطالبونهم بتحقيق العدل، فقمّنعوا بالسلامة وضعفت عقولهم عن تمييز الحقّ من الباطل وملؤوها بالخرافات والأوهام، ولم تتجرّد طبيعتهم من اللهو فأدخلوه في التّصوّف فكان فيه الغناء والموسيقى والرّقص وألعاب البهلوان، وعجزوا عن ربط المسببات بالأسباب فهُرّعوا إلى المتصوّفة يمنحونهم البركة ويستقضون منهم حوائجهم ويقرعون بهم أبواب السماء، فامتلأت البلاد بأرباب الطرق ومشايخ الصوفية ومدّعي الولاية".¹

تمازج هذه الأسباب فيما بينها أخرج الطرق الصوفية للناس على أنها نوع من التعويض الروحي عن الحرمان المادي والسياسي والاجتماعي، إذ أن ازدهار هذه الطرق تزامن مع فترات القلاقل السياسية التي داهمت الخلافة الإسلامية في أبعـد أصقاعها منذ القرن الثاني للهجرة أي القرن الثامن للميلاد.

تعتبر نشأة مجتمع الرباطات، عندما استتبّ أمر المسلمين على الشغور، بداية ظهور فكرة الانقطاع عن الناس قصد المراقبة والحراسة بما يحملان من مقاصد دينية وأمنية، ولكن بمجرد أن فقدت هذه المؤسسات دورها العسكري أخذت دوراً تعليمياً جديداً، تعضده الفتوحات الإسلامية ودخول عدّة ثقافات وفلسفات كالهندية والبوذية والزرادشتية والمناوية والبراهمانية والأفلاطونية وغيرها مما كان له تأثير في تطور الحركة الفكرية في البلاد الإسلامية، فكان ذلك ردّة فعل في وجه هذا الغزو الفكري.

مثل هذا التفكير يميل إلى الدين مباشرة، إذ يؤكد القرآن الكريم: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

1 أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، الجزء 4، ص 219.

كَسَبَتْ رَهِينَةً} المذثر 38. فهو يهتم بالفرد بصفته كائنا كاملا وليس عنصرا من مجموعة عناصر يذوب فيها ذوبان القطرة في البحر، فالمرء عالم وحده، له واجباته العينية التي لا ينوبه فيها ولا يتحمل تبعاتها عنه أحد، ومثل هذه الآية: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) الزخرف} تضع عدّة تساؤلات أمام المرء، وتجعله يتخذ موقفا من كل شيء، ولا ينساق وراء كل ناعق، حتى يشعر بالغرابة في هذا العالم، ويعضده الحديث الشريف: {كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ}.

هذا الإحساس بالغرابة عن هذه الدنيا والتشوق إلى الآخرة يولد حالة نفسية صادقة في زهدا ومواقفها من كل ما يطرأ على حياتها. ومثل هذا الفكر أبرز أئمة أمثال مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان من المتزهدين الراغبين عن المناصب الحكومية، وأمثال الحسن البصري وأصحابه وتلاميذه من المفكرين والمتزهدين، وحصول الحركات الفكرية والنزاعات الكلامية والفلسفة الإشراقية التي استولت على القرنين الثاني والثالث للهجرة، إضافة إلى انعزالية الفرد وغبته في خضم الحياة.

وقد وجد التياران (العلوية والخوارج) أرضا طيبة لدعوتها السياسية والدينية والصوفية في ربوع المغرب العربي الكبير، فترعرعت فيه أغلب الطرق التي لم تنزل جذورها إلى الآن، وقد ضاهت في ذلك ما راج من نفس الطفرة في الشرق العربي والإسلامي. فتنامي الصراع السياسي وما يعقبه من تفتت للمجتمع الإسلامي وبروز مظاهر الترف عند الفئة الحاكمة وحواشيها وظهور ما يسمى فقهاء البلاط كل هذه العناصر السياسية والثقافية والاجتماعية كان لها أثر كبير في رواج الفكر الصوفي كتعبير سلوكي رافض لتلك المظاهر والذي انطلق مع الحسن البصري وإبراهيم بن أدهم وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي والجنيد وغيرهم في كل الأصقاع الإسلامية. وهكذا برزت ثلّة من الناس ترى السلامة في الاعتزال عن الحياة العامّة والاهتمام بالمعاد والآخرة، وتوطن النفس على ذلك، وكانت هذه الثلّة خصوصا من العلماء والمثقفين الذين يشهد لهم العامّة بالفضل.

ثم، إنّ مجتمع الرباطات الزاهد الذي تبلورت معطياته في القرن الخامس للهجرة بتونس، بعد تأليف الحكّام للجيش النظامية، وتحلّي المرابطين عن دورهم العسكري، خلق حركة تزهد وتقسّف كانت تريد أن تسمو بالعلم والدين لتعمل على الوقوف أمام

مظاهر الترف المادي واستباحة المحرمات والتخلي عن الواجبات الدينية والتعبدية وأن تكون متنفسا للطبقات المسحوقة من عامة الناس، حيث يجدون ملاذا روحيا عند المرابطين كما كانوا يجدونه سابقا حمائيا وعسكريا.

ومع قيام دولة الحفصيين، تبلورت الحال وخرج الناس من الرباطات وانزواوا بالزوايا لتعلم القرآن والسنة والفقه وعلوم اللغة وأصول التصوف. وكان شيوخ ذلك الزمان من الزاهدين والناظرين أعمارهم لخدمة الدين يظهرهم بمظهر الزهد في الدنيا، ويرتفعون عن التمسح بأعتاب السلاطين وأصحاب الجاه، فاكتسبوا بذلك نوعا من القدسية والاحترام العظيم من تلاميذهم وطلبتهم وكذلك لدى عامة الناس. والناس يرمون بكل من يتحكم في حياتهم المادية، ويندفعون في حب واحترام وبذل الغالي والنفيس لمن يرونه مترفعا عما في أيديهم.

في هذا المجتمع المنكمش عن المساهمة في الحياة العامة، كان الشيخ المرّي يجذب على طلبته كما يجذب الأب على أبنائه حتى أصبح يسميهم أبناءه الروحيين، وكان يخاف عليهم أن ينحدروا في مزالق الغواية فينحرفوا عن طريق الهدى، فكان يعمل الفكرة ويتحرى ما يحصنهم من الانزلاق في الهاوي، ويدرس حالهم برفق وتبصر فيرى أنه يجب مراعاة حركية الشباب وميله للغناء وبعض اللهو، ترفيها وترويجا عن النفس حتى لا يصيبها الكلال، وهكذا سمح لهم ببعض الرقص والغناء في حضرته خوفا من الانزلاق في ما لا تحمد عقباه فيجرهم الشيطان إلى الغواية. قال ابن عربي "السماع كله بطر وما سمع الشيوخ إلا في اثنتين لاصلاح أبدانهم لعلا تنهك، ولإخوانهم حتى يلقوا إليهم الحق في قالب الباطل!"

سمح لهم بإنشاد المدائح والأغاني الدينية التي كانت في الأصل بسيطة وتعتمد تنغيمًا ساذجا لا يمت إلى الصناعة الغنائية بصله²، ثم أخذت تتطور حتى وصلت إلى درجة من الإتقان تبرّ أصحاب المهنة من المغنّين والمطربين، كما نجد في وصايا بعض المشايخ الحث على انتخاب الأصوات الرخيمة لأداء هذا السماع (أي الغناء) حتى يكون هو نفسه

1 محمد بن يوسف الكافي التونسي، الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية، الطبعة الأولى 1354هـ/1935م مطبعة حجازي بالقاهرة. ص121.

2 هو ما وقع انطلاقه من مسجد السبت بالقيروان أيام يحيى بن عمر، ومن رباط المنستير (معالم الإيمان، ج:2)

مرققا للنفوس وكاسرا لشوكة العناد واللجاج، ومضفيا رَوْحًا من السعادة على المريدين فيلمسون سعادة الحياة الروحية والدينية ويتطبّعون بذلك طباعا، بينما يهزّ بعضهم الوجد لتظهر لهم خوارق كما نقرؤها عن أبي يوسف الدهماني من متصوفة القرن السابع.

وتلتف العامّة المحرومة حول ما تنزع إليه النفوس من احترام للشيخ الديني المتوشح بالورع والخزقة والمترفع عن سفاسف الدنيا وزخرفها، من ناحية، ومن ميل إلى الغناء والمرح من جهة أخرى، فتجد المعادلة الصعبة حلّها في هذه الحضرات الصوفية، فالطريق إلى الله أسهل مما كان يتصوّر الرجل العائّي، إذ يكفي انتظامه في سلك إحدى الطرق، ليحصل على ما يريد: السند المادّي والروحي واليقين بشفاعه الشيخ، والمتعة بالغناء المباح والرقص المتاح، وربّما العيش من ريع الزوايا، فيلتمسون الاندماج بهذه الطرق بكل الوسائل، ويجدون أنفسهم في حماية شيخهم آمنين مطمئنّين، حتّى ترسّخت العقيدة في هذه الطرق، وأصبح الإنتساب إلى الشيخ والطريقة ضرورة مجتمعية وانتشرت مقولة: "إن من لا طريقة له فطريقته شيطانية".

وتمر العصور، وينغمس هؤلاء في تجميل خرجاتهم وتأنيق بزاتهم وتنميق ألحانهم وتنويع ألوانهم وتصحيح مقاماتهم وتدقيق نغماتهم حتّى إذا بلغنا القرن الحادي عشر للهجرة استتسر الناس الانضمام إلى هذه الطرق، ووجه الاهتمام من أرباب الدولة نفسها لتشييد الأضرحة والخلوات والقباب الضخمة، وتنافس الناس في زخرفة هذه الزوايا وتنوعوا في إنشاء وتقليد الألحان، وتميّز بعضهم عن بعض أفكارا وممارساتٍ وأشعارا وأزجالا وآلاتٍ حتّى أصبحت أناشيدهم تراثا موسيقيا قائم الذات له خصوصياته وميزاته وما يباين بينه وبين أنواع الموسيقى الأخرى المتداولة سواء لدى الخاصّة أو العامّة. يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه² "التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق": "أمّا طريقة التغيّي في مجالس الصوفية فقد بيّنها الأستاذ التفتازاني في مقال نشره في مجلّة المعرفة عدد يونية (جوان) سنة 1931 وهو يقول: إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر ب(لا إله إلاّ الله) وتعرف عندهم بالأرضية، ويأخذ

1 منهم الوزير مصطفى خزندار الذي شيّد مقاما على جبل التوبة المعروف بجبل الزلاج لأبي الحسن الشاذلي كما جدّد بناء عدّة مقامات أخرى.

2 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج.2، طبعة بيروت، ص 221.

"الرسيم" الذي هو رئيس المجلس في التدرّج بالذاكرين أثناءها من الراسـت "الرصد" إلى الدوكة إلى السيكاه إلى الجهرگاه (الجركاه) إلى الحجاز ثم الرهاوي فالكردي، فالبياقي فالصبا. وهنا تبدو مقدرة الرّئيس في نقل الذاكرين من نعمة إلى نعمة، كما تبدو مقدرة المنشدين في متابعتهم للأنغام والإنشاد. والغالب في الإنشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية...". ويقول: " وقد لاحظت أنّ مجالس الصوفية كانت تنقلب إلى مجالس فنية، فهي مجالس تعقد ظاهرا لذكر الله، والغرض منها الغناء، فقد كان في حي الحسين منزل تُقام فيه حضرة كلّ يوم ثلاثاء، وكان ذكر الله في الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة عجزة الدراويش، أمّا نظام المجلس فيقوم على فنّ الشيخ حسن الحويجي...". ويواصل: "وكنـت ألاحظ أن أهل ذلك المنزل يجعلون ليلة الحضرة ليلة قصف، فيجمعون خلانهم حول الموائد ويتندّرون بأطايب الأحاديث. وكان المستمعون يقترحون الأدوار على نحو ما كانوا يفعلون في حفلات الطرب والأنس...".

وهكذا برزت الدراسات المختلفة لتحديد ألوان كل طريقة ومميزاتها وما يربطها أو يخالف بها عن غيرها من الطرق الصوفية، وقد تأخذ طريقة شيئا عن أختها دون أن تحيد عن مسارها الأصلي المميّز.

هذا، ورغم اختلاط الطرق بعضها ببعض وأخذها عن بعضها البعض، فإنّ سامعا متمكنا يستطيع أن يميّز بين الأمداح التي يسمعاها فيرجع كل واحدة إلى طريقتها، كما تتميز المدائح في الألحان بألوان الطريقة المغربية أو الشرقية، واستعمال المقامات الموسيقية المناسبة لكل جهة من جهات العالم الإسلامي. والظاهر أننا في بداية هذا القرن الواحد والعشرين الميلادي الخامس عشر الهجري لا نتمكّن من أن نقول إلّا أن هذه الألوان الغنائية تمثل تراثا حضاريا أثر في تكويننا من حيث نشعر أو لا نشعر، وأصبح جزءا من شخصيتنا يميّزنا عن بقية شعوب العالم، ويعرّف بنا تعريفا مميّزا بين كل الأقطار سواء العربية أو الإسلامية أو العالمية بما يحمله هذا الإنشاد من بصمات تونسية في اللهجة والكلمات وفي لون الموسيقى والمقامات وفي طريقة الأداء المختلفة عن بقية الفرق في الأقطار الأخرى ولو كانت تنتمي إلى نفس الطريقة.

السَّماع والأصوات

(السَّماع) هو الغناء أو الترتُّم بالكلام على أنغام معينة وموازنين مضبوطة، ولعلّه في مصطلح الصوفية: مجموعة الأذكار والأوراد التي تتلى جماعياً، وعرفه الغزالي بقوله: "اعلم أنّ السَّماع هو أوّل الأمر، ويثمر السَّماع حالة في القلب تسمّى الوجد²، ويثمر الوجد تحريك الأطراف إمّا بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإمّا موزونة فتسمّى التصفيق والرّقص" فهو المصدر من سمع يسمع فسَمِيَ الغناء سماعاً من باب تسمية المفعول بمصدره فهو المسموع، والأصوات (جمع صوت) وهي تلك الموسيقى التي يضعها الموسيقيون فتقاس بالموازنين والأبعاد ليرتّب عليها التنغيم في الكلام، ونسُميها في وقتنا الحاضر اللحن. وهنا يختلف الوضع بين أقوال يقولها قائلها منعمة في أنغام ساذجة لا تنتمي للعلم والضبط بصلة، كالغناء الذي يقوله كل الناس ممن ليس لهم دراية بالألحان والموسيقى، أو ما يترنّم به شاعر الملحون من لحن بسيط يضفي بعض الجمال على الكلام الذي يلقيه في الحاضرين أو ما يردّده السّعفة³ مع الشاعر أو الغنّائي في حفلات الأعراس

1 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م، المجلد الثاني، ص 268.

2 الوجد حالة تحدث في النفس تجعلها في حالة سكر فتحملها على الرقص والصباح وتمزيق الثياب أحياناً وهي l'Extase.

3 السّعفة جمع سعيّف وهو المرّد الذي يصحب الشاعر فيردّد له الطالع من القصيدة عند بلوغ المكب، أو يلتفت المكب من الشاعر ليصله بالطالع، ويجد الشاعر وقتاً للتنفّس فهو كمن أسعفه بهذه الراحة. وقد يُعيد غصنا من الأغصان لإعطاء الفرصة للشاعر كي يتمكّن من باقي أغصان البيت.

البدوية والريفية، رغم أن الغتاية الآن يجيدون صناعة الألحان، فينشدون في الصالحي مثلا، وبين ما يضعه الملحنون العارفون بعلوم الأصوات والألحان والموسيقى من ضبط الأبعاد والدرجات والذبذبات إلى غير ذلك من تفاصيل هذا العلم. فما دخل السماع أو الألحان في أذكار الصوفية؟

لا يختلف اثنان في كون ذكر الله مطلوباً شرعاً، فقد جعله الله كبيراً في قوله تعالى: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) العنكبوت}، فهو يعلم إن كان ما تصنعونه لهواً وعبثاً، أو جدّاً وذكرًا، أو سياحة في ملكوت الروح، أو انغماساً في ملذّات الجسد. والله يعلم ما تصنعون بصلاتكم إن كانت نفاقاً أو صلاحاً، أي ما تسرون من وراء ما تصنعون سواء بالصلاة أو الذكر.

{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أكبر من ماذا؟ إذا أرسل اسم التفضيل دون تحديد فهو للإطلاق، فهو يعمّ كل ما يتصف بتلك الصفة، فقولنا: {الله أكبر} أي أنّ الله أكبر من كل شيء ولا شيء يضاهيه أو يشبهه في الكبر، فكبره الغاية التي ليس وراءها غاية. إذن، فذكر الله أكبر من الصلاة نفسها، لأنها بدون الذكر لا فائدة منها، وقد قال سبحانه وتعالى: {..وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) طه} فهو الغاية منها. ومثل هذا المعنى غرر ببعضهم فرأى أنّ الذكر يغنيه عن الصلاة فعظّمها.

هذا، وإن كانت الصلاة عبادة ظاهرة للعيان، إذ فيها تطهّر ظاهر وحركات مرئية محسوسة فالذكر يمكن أن يكون سرّاً لا يعلمه إلاّ الله، ومن ذلك كان أكبر لأنّ الإخلاص فيه أوكّد ولا مجال للنفاق فيه.

والذكر، كما نرى، عمل فردي يقوم به الإنسان خالياً، يستحضر فيه جلال الربوبية ويتنزّه فيه عن ذاته ليشهد المشاهد السننية، ويفرق في أذكاره ليصل إلى الوجد والتجلى والكشف، فتكون مراقبته لذاته باباً من أبواب التركيز والحضور، ثمّ يستمرّ الحضور حتّى يغيب الفكر عن كلّ شيء سوى المذكور، ثم يغيب الحس تماماً في الحضور وهو ما يسمّونه الغياب، ولهم درجات من ذلك تتدرّج بتدرّج الاستغراق في الذكر والمراقبة.

يقول أحمد أمين متحدثاً عن مقامات التصوف: "...ثمّ مقام الرضا والطمأنينة وراحة

النفس والسلام الروحي، ولذلك يستعينون على هذا المقام بالغناء والموسيقى والرقص وتكرار "لا إله إلا الله" أو "الله الله" إلى أن يكَلّ لسانه ويشعر أنه إنّما ينطق بقلبه...".

ويظهر أنه عندما تكوّنت الجماعات الصوفية في القرن الثاني عشر للميلاد/ القرن السادس للهجرة² ظهرت ملامح الغناء³ والرقص في هذه الطرق الصوفية، فمن الطبيعي أن يكون الذكر جماعة أفضل من الذكر الفردي إن توقّرت شروط مخصوصة، ولعلّ أوكد تلك الشروط خلوص النية في غشيان الجماعة، فيكون الملتحق بالجماعة إنّما متّجها إلى ذكر الله وإرادة القرب والتنصّل من متطلبات الجسد الفاني، أو أنه أقى للالتذاذ بالألحان دون اهتمام بأقوال الذكر فلا تعتبر هذه الأقوال عنده إلا محملا يحمل تلك الأنغام التي تصوّر له ما يتوق إليه من لذائذ جسدية قد تكون محرّمة أو تقود إلى الحرام. ولعله لذلك قال الإمام الجنيد: "السمع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فتركه أولى: الإخوان، والزمان، والمكان"⁴.

وبما أنّ الذكر لا يتأقّى جماعة إلاّ جهرا، ولا يصلح هذا الجهر إلا إذا انسجم الذاكرون في أبعاد الأصوات، وإلاّ كانت ضوضاء لا تليق بمجالس العقلاء، كان لزاما ضبط ذلك بموازين ومقاييس وأبعاد الأصوات طولا وقصرا وارتفاعا وانخفاضاً، فإذا ما ضبط الكلام على هذا النحو أصبح (سماعا) أي كلاما منغما. فإذا تنغمّ الكلام سرحت

1 أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الجزء 4، ص 160.

2 شارل-روبرت أجرون، الطوائف الإسلامية، مقال منشور بالموسوعة (أونيفرساليس) المنشورة بفرنسا سنة 1997.

3 يظهر أنّ معالم الغناء ظهرت قبل ذلك بكثير إذ أنّه ظهر في مسجد السبت بالقيروان ونكره يحيى بن عمر وهو من رجال القرن الثالث حيث توفي سنة 289 هـ (معالم الإيمان ج2، ص.ص 238-237) وجاكين الشابي ذكرت قبول السماع والرقص لدى الناس في القرن السادس ولم تجزم بانطلاقهما منه، ونصححه فهو في القرن الثالث من مسجد السبت بالقيروان ومن رباط المنستير.

تؤكّد جاكين الشابي في مقالها (الصوفية) المنشور بالموسوعة (أونيفرساليس) المنشورة بفرنسا سنة 1997 أن السماع والرقص لم يُقبلا لدى الجميع إلاّ انطلاقا من تكوين الطوائف التي حددت ظهورها بالقرن السادس للهجرة أي الثاني عشر للميلاد.

هو أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكتاني الأندلسي من أهل جيتان؛ نشأ بقرطبة ورحل منها وعداده في الإفريقيين. سكن القيروان ثم استوطن سوسة آخرها وبها قبره. سمع من سحنون وغيره. قال أبو بكر المالكي: كان يحيى بن عمر من أهل الصيام والقيام مجاب الدعوة له براهين وكان مقدّما في الحفظ. توفي في شهر ذي الحجة من سنة 289 هـ وهو ابن ست وسبعين سنة، ودفن بسوسة.

4 أحمد فريد المزيدي، الإمام الجنيد سيد الطائفتين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص 283.

النفوس في أجواء التخيل والأفهام، وتحركت من الطلاب الأجسام، فكان الاهتزاز ولو عند من وقرهم الاحترام. قال ابن الرومي: (خفيف)

وَأَرَى أَنْ مَعَشْرًا سَيَقُولُوا نَ سَخِيفٌ مِنَ الرَّجَالِ لَعُوبٌ
أَيْنَ مِنْهُ وَ أَيْنَ مَا يَدَّعِيهِ مِنْ عُلُومٍ لِحَامِلِيهَا قُطُوبٌ
وَلَعَمْرِي! إِنَّ الْحَكِيمَ وَفُورٌ وَلَعَمْرِي! إِنَّ الْكَرِيمَ طُرُوبٌ

ومن يحب أن تنزل نفسه عن منزلة الحكماء، فلا يبحث عن الزيادة في الوقار؟ ومن لا يعجبه ألا يتخلق بخلق الكرام، فيكون قلبه قاسيا كالحجر، لا يهزه نغم أو وتر؟ إلا أن يكون كريم الطبع، سخي الدمع، خفيف السمع، فيجمع بين صفتي الحكمة والكرم. وابن الرومي يرى أنه قد جمع الصفتين، فكان ما يرى عليه من طرب ليس طيشا ولا مجانة وإنما هو تلك الرقة التي تسمو إلى المعاني الدقيقة والمراتب الرقيقة بالثبات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه، وهكذا يمكن أن يجتمع بملقعة الذكر على هذا النحو الأصناف الثلاثة طالب الذكر وطالب الموسيقى وطالب اللذة ولا مميّز لأحد عن الآخر إلا الله سبحانه أو ما يفضح أثناء الوجد من أسرار، عندما ينهتك الإزار، ويكشف ما وراء الستار.

من هنا برزت إشكالية حرمة السماع وحليته، فإن كان حلالا فإلى أي مدى تمتد هذه الحلية، ومتى يكون حراما فعلاً بدون تردد. ونجد أنفسنا أمام مشكلة ثانية: إن كان السماع حراما أو حلالا هل يحرم قليله لأن كثيره يجرّ إلى حرام؟ مثله في ذلك مثل الخمر: {ما أسكر كثيره فقليله حرام}. يظهر أنّ المشكلة تعقدت ولم يقع طرحها حديثا بل هي من القضايا الموروثة، ولم يقع الفصل فيها بصفة مريحة من أحد، إذ كل من يحلّلون يستشهدون بأفعال بعض الصحابة، والحديث الذي ذكره للرسول صلى الله عليه وسلم في حلية السماع مخصوص بالعيد فهل يمكن تعميمه لغير العيد؟ لكننا نقرأ لسفيان بن سعيد الثوري في وصيته لبعض أصحابه: "...الثامنة: من رأيته من المريدين يسمع القصائد ويميل إلى الرهافة لا ترّجُ خيره. التاسعة: فقير لا تراه عند السماع حاضر القلب، فاعلم أنه حرم بركات ذلك لتشويش سرّه وتبديد

همته. والمراد بهذا السماع سماع القرآن وكلام القوم حيث لا يشوبه دقّ ولا شبّابة ولا نساء ولا شباب.¹

هذا وقد أطنب المحلّلون والمحرمون في الانحياز كلّ إلى رأيه، وكالعادة برزت المواقف التوفيقية فحرّمت ما كان مجونا وداعيا إلى الفجور، وأحلّت ما لم يخرج عن الذكر أو مدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو مدح الصالحين أو الحماسة، ثم دخلت الاستغاثة، فمنهم من يرى الاستغاثة نوعا من الوثنية والتوجّه لغير الله وهي مخالفة للعقيدة الإسلامية بصريح النص، ومنهم من لا يرى بأسا في ذلك متأولا آية أو حديثا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وإذا ذكر الغزالي² ما حكي عن ممشاد الدينوري³ أنّه قال: (رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في النوم فقلت: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا. فقال: ما أنكرُ منه شيئا، ولكن قل لهم يفتتحون بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن.) وعن ابن جريج أنّه كان يرخّص في السماع فقيل له: أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات لأنّه شبيهه باللغو، وقال الله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ (225) البقرة} فقد قال الإمام أبو الحسن الشاذلي: "استأذني بعض الفقراء في الحضور والسماع، فهممت بذلك فرأيت أستاذي رضي الله عنه وفي يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي يده اليسرى أوراق فيها مرجز⁴ وهو يقول لي كاللنتهر: تعدلون عن العلوم الزّكية إلى علوم ذوي الأهواء الرّدية، فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزّون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان، ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان. لئن لم ينه الظالم ليقلبنّ الله أرضه سماء وسماءه أرضا. قال: فأخذني منه حال بوجد وأنا أقول له: نعم! يا أستاذي، إلا أن التّفسّ أرضيّة، والروح سماوية. فقال لي: نعم! يا علي، إذا كانت الروح

1 محمد الغمري، قواعد الصوفية، تحقيق عبد الحميد حمدان، مكتبة مدبولي 2003، دارالصفوة للطباعة، القاهرة، ص 28.

2 الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م، ج2، ص 270.

3 ممشاد الدينوري متصوّف عاش في القرن الثالث وتوفي سنة تسع وتسعين ومائتين، وهو أحد تلاميذ الجنيد.

4 أي ديوان به أراجيز أي أناشيد في بحر الرجز.

بأ مطار العلوم دَارَةً، والتفّس بالأعمال الصالحة ثابتة فقد حصل الخير كله، وإذا كانت التفّس غالبية، والروح مغلوبة فقد حصل القحط والجذب، وانقلب الأمر وجاء الشّرّ كله. فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشّافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما، وقد أصاب الشّرّ من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحقّ أقبلوا عليه: {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا}.

ويذكر الغزالي² رواية عن أبي سعيد الخزاز³ قال: "كنت في دمشق، فرأيت في المنام كأنّ النبيء صلّى الله عليه وسلّم جاءني متكئاً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فجاء فوقف عليّ وأنا أقول شيئاً من الأصوات وأدقّ صدري، فقال: شرّ هذا أكثر من خيره".

أنت، هنا أمام ثلاثة مواقف، أحدها لم يربأس من السماع، وجملته بافتتاحه بالقرآن الكريم واختتامه به لعلّه يكون محفوظاً بين الافتتاح والاختتام، والثاني: يراه من اللغو ومما يتسامح فيه واللغو ليس من الجّد، وإتّما هو الهزل، لذلك عقب ذكره بتفصيل النّيّة، والثالث: كرهه بل نهى عنه نهياً، وجعله من العتب المحظّ بالكرامة وصرّح بكونه لغوا وعبثاً، وشرّاً.

والخبر الأول، يجزّنا إلى قضيّة عقائدية وأصولية في نفس الوقت، فنحن نعتقد أنّ كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحى يوحى، فهو لا يتكلّم عن الهوى، وكذلك نعتقد أنّ من رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام فقد رآه حقاً، لأنّ الشيطان لا يتمثّل به، فهل ينزل قول الدينوري في مرتبة الأحاديث المباشرة أو المرسلة، حيث إنّه روى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مباشرة ولم يذكر السند، وبذلك يكون كلام البقية أقلّ قيمة منه ويمكن الاعتماد عليه، فحيث إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم ينكر السماع وقد روي أنّه لم ينكره بجياته، وإتّما أمر بالافتتاح بالقرآن والاختتام بالقرآن رجاء أنّ لا يقع بينهما ما يكره القرآن، فلا دخل للحرمية في السماع إنّما تتدخل النيات فيما يقحم بين التلاوتين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هل لنا أن نثق

1 عبد الحلّيم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة: 1988، ص 117.

2 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م، ج 4، ص 509.

3 أبو سعيد الخراز من أهل بغداد صاحب ذي النون المصري والنباخي والسري السقطي وبشر الحافي وتوفي سنة 277هـ.

بالدينوري، أم أنه لا يتناولهُ التعديل والتجريح، وهل تُبنى الأديان على رؤى النائمين؟ وإن احتجَّ بعضنا برؤيا ممشاد الدينوري فلماذا لا يضع في اعتباره أيضا رؤيا أبي سعيد الخراز؟ غير أنّ ابن جريج نزل بالسماع إلى درجة اللغو، فهو من العبث، ومن المروءة الابتعاد عنه وعدم الاشتغال به، وإضاعة الوقت فيه، فليس من شيم الكرام أصحاب المروءة الاشتغال باللغو حتّى وإن سمحوا لأنفسهم بحضوره في أوقات متفرّقة من باب: {روحوا النفس ساعة بعد ساعة فإنّ النفوس إذا كُتت عميت}. قال الجنيد: "السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه." أي لم يبحث عنه.

ويأتي الخبر الثالث للزجر وبيان سبب ذلك أنه من الهوى: "فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزّون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان، ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعه تمايل الصبيان." فجعل من هذا الرقص والاهتزاز صفة انتقاص حيث عزّاه للصبيان، فالشيخ الوقور رغم ما قد يرى عليه من الانبساط لا يهتزّ أو لا يتمايل، بل يحافظ على وقاره واحترامه ويملك من نفسه ومن حركاته، كما نفى عمّن يمارسها إرادة الخير واكتساب المغفرة، وإذن، فهو الوجد والتفسخ والتهتك، فالقضية قد خرجت من الحلال والحرام وأصبحت: هل تليق بمقام صاحب المروءة والفضل، أو هي التهتك والتعريّ عمّا في النفس من... ومن... ومن...؟ "وقيل لأبي عبد الله القرشي: لِمَ منعت السماع؟ قال: لما فيه من المقاصد لغير الله². والظاهر، إذن، أن قضية السماع أخذت دورا هاما في تاريخ الحركة الصوفية، وكلّما ابتعد المريدون عن المعين الأصلي، واهتمّوا بالحضرات والمواعيد، كلّما افتتنوا في زينة أناشيدهم، وغاب عنهم ما الذي دفع أشياخهم الأوّل إلى ذلك، وإنما نقلوا عنهم المظهر فقط دون التعمّق في أسبابه وغاياته، حتّى أصبح من الممكن أن نجد من يمارس هذه الشطحات والسماع وهو لا يقوم بأقل ما يجب على المريد من صلوات أو تطهير نفس، بل ربّما يقوم بكل ما ينكره الشرع ويمجّه التدين.

1 أحمد فريد المزيدي، الإمام الجنيد سيد الطائفتين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص 283.

2 عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القبروان، المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر، الجزء 3، ص 216.

ذكر الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري في رسالته فصلا في آخر الكتاب يقرر فيه شروطا على المرید في السماع، ويجعله بالخصوص إما تلقائيا وإلا فهو لا يليق به، يقول: "وأما آداب المرید في السماع، فالمرید لا تسلم له الحركة في السماع بالاختيار ألبتة؛ فإن ورد عليه وارد حركة ولم يكن فيه فضل قوّة فبمقدار الغلبة يعذر، فإذا زالت الغلبة يجب عليه القعود والسكون، فإن استدام الحركة مُسْتَحْلِيًا للوجد من غير غلبة وضرورة لم يصحّ، فإن تعوّد ذلك يبقى متخلّفًا لا يُكاشف بشيء من الحقائق، فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه. وفي الجملة إنّ الحركة تأخذ من كل متحرّك وتنقص من حاله، مریدا كان أو شيخًا، إلا أن تكون إشارة من الوقت، أو غلبة تأخذه في التمييز".

ولعلنا نجد وضوحا أكثر مما قاله الشيخ أحمد الرفاعي في البرهان المؤيد: "لا تعملوا بالهوى، لا أقول لكم أيّ أكره السماع لتحقيقي في مقام سماع القول واتباع أحسنه، ولكن أقول لكم اني أكره السماع للفقراء القاصرين عن هذه المرتبة، لما فيها من البليات الموقعة في أشدّ الخطيئات"².

يقول الشيخ أبو العباس أحمد زروق: "ويقال إن الرقص إنما أحدثه أصحاب السامري لما التقوا بالعجل، وما ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم من التواجد عند إنشاد قوله: "لسعت حية الهوى كبدي" باطل، وكذلك الأحاديث التي يستشهدون بها في هذا النوع، وسئل مالك رحمه الله عن جماعة يأكلون كثيرا ويرقصون كثيرا وذُكر له أحوالهم فضحك ثم قال: أجمانين هم؟ ومن قال بجواز السماع فإنما قال ذلك عند توفّر شروطه الثلاثة التي هي وجود الزيادة به في الإيمان والنشاط في العبادة، الثاني السلامة مما ينكره ظاهر الشرع كالاتّباع مع النساء وسماعهن وإسماعهن مما يوجب تحريك الشهوة عندهنّ، وكذلك المرّد من الأحداث، الثالث أن لا يكون مقصودا على غير وضعه من غير رقص ولا صراخ ولا إساءة أدب في الذكر وغيره، مع كون ذلك مرّة في مدّة (أي ليس متواصلًا كل ليلة أو ليالي متتالية)، ولا يحضر مقتدى به إلاّ مخفياً والله تعالى أعلم. والصواب في هذا الزمان تركه لما فيه من مفساد، إذ أهله

1 أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1422هـ/2001م، ص 433.

2 أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، المكتبة الأدبية حلب، سوريا 2001م، ص 42.

اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، نسأل الله العافية.¹

- قال الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي: "وقال ابن عربي الحاتمي: السماع في هذا الزمان حرام لا يحلّ مطلقا ولا يقول به مسلم قال في شرح المباحث: وقد اتفق مشايخ المتأخرين من القوم على منع السماع لما حدث فيه من الفساد حتى قال الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى: السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم ولا يقْتَدَى بشيخ يعمل السماع أهـ وقال ابن عربي أيضا: السماع كلّه بَطْرٌ، يُقال بَطْرٌ كَأَشْرٍ إذا شَطَّ، وكَفُرٌ بالنعمة لا يصلح في هذا الوقت لأنه إنّما يُستعمل للتفكّه والتلذذ بسماعه لا غير، بخلاف من تقدّم عصرهم من كبار القوم ممن كان يستعمل السماع في مجلسه فذاك كان لأغراض صالحة وهي ما ذكرها المصنف رحمه الله تعالى بقوله: "وما سمع الشيوخ إلا لاثنين، أي لخصلتين حميدتين إحداهما لإصلاح أبدانهم لئلا تنتهك" بالعبادة وتضعف بالمداومة عليها فيحصل لهم النشاط بالسماع المباح، والثانية قوله: "ولإخوانهم حتى يُلقوا إليهم الحق في قالب الباطل" باعتبار أصله.²

قال أبو نصر عبد الرحمن بن السراج الطوسي: " والمراد فيما ذكرت: أن مقصود القوم في السماع الذي يسمعون من القرآن والقصائد والذكر وغير ذلك من أنواع الحكم ليس كلّه لحسن النعمة ولطيب اللحن والتنعّم والتلذذ بذلك، لأن الرّقة والهيجان والوجد كامن فيهم أيضا عند فقدان الأصوات والنعّمات، والسكون والهدوء كامن فيهم عند وجدان الأصوات والنعّمات فعلمنا أنّ المقصود في جميع ما يسمعون ما تصادف قلوبهم من خنس ما في قلوبهم من المواجيد والأذكار، فيقوى الوجد بما تصادفه بمشاكلته³. وأضاف ابن السراج الطوسي: " وقوم كرهوا ذلك (أي السماع) للمريدين والقاصدين والتائبين لعظم ما فيهم من الخطر إن استلذّوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحلّ عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنوا إلى شهواتهم ويتعرّضوا للفتنة في البليّة"⁴ وهكذا

1 أحمد زروق، كتاب مختصر النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، 1348هـ، ص 26.

2 محمد بن يوسف الكافي التونسي، الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية، الطبعة الأولى، 1354هـ/1935م، مطبعة حجازي بالقاهرة، ص 121.

3 أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف الاسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص 258.

4 المصدر نفسه.

كلّما بعدوا عن مهيع التصوّف الحقيقي انغمسوا في المظهر الاحتفالي والموسيقي، حتّى أصبحنا نجد ملحنين لهذه الأناشيد، ومن يضع لها نوتة ويهدّبها لتصلح غناء ويضبط لها أصول الرقصة وإخراجها كورغرافيا لتصير فرجة واحتفالا، أي أنها لم تعد وليدة الطبع والسليقة والشوق أو الوجد، بل عملا مضبوطا مطبوعا، وقد يُنكرُ شخصٌ رغم حفظه لعدد القصائد والبحور والسفائن لكونه لا يجيد طبع غنائه على الموازين والمقامات الموسيقية العلمية كما وقع لبعض مشايخ السلامة هذه الأيام.

وهكذا خلصت المواعيد والأناشيد الصوفية مباشرة إلى طرق موسيقية بحتة، كان منشؤها التصوّف، ولكنها بعدت ولم يبق من التصوف فيها سوى الشكل البسيط المتمثل في مدح الرسول أو الأولياء الصالحين والاستغاثة بهم عوض الغزل بالمحبة أو التغني بالخمرة في غناء المجون ولم لا يُتغنى بالخليلة والخمرة جهارا ويوضع ذلك تحت غطاء المجاز المرسل أو التورية أو الاستعارة المكنية أو التصريحية.

وأخيرا نجد أنفسنا أمام تراث موسيقي من نوع خاص يختلف عن التراث الذي يذكر الديار والمغاني ومجالس الطرب واللهو أو مواقف الغزل والغرام الإباحية أو شبه الإباحية بشيء لا يبتعد كثيرا في نظامه وتواجده ورقصه وحتّى في كلماته إلا بالتوريات والمجازات اللغوية التي عرف واضعوها كيف يجعلونها تحتل الوجهين ليقع قبولها من الطرفين، فيتواجد ذو الدين على فهم أنها خمرة روحية مجازية مثل ما هو ظاهر في قول ابن الفارض: (الطويل)

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ

باعتبار أن القرينة اللفظية "من قبل أن يُخلق الكرم" تفيد أن هذه المدامة ليست بنت العنب، كما يتواجد السكّير باللفظ الصريح بذلك والخفي تحت التورية في مفهوم المتديّن: (محزوء الرمل)

هَيَّا يَا خَمَارُ هَيَّا وَاسْقِنَا كَأْسَ الْحَمِيَّا

ولا نجد في اللغة معنى للحميا غير سَوْرَةِ السكر، فيمكن لعاشق الخمر أن لا يفهم إلا هذا المعنى الظاهر فيتواجد عليه حبا في سكره وخمره، ولا يلتفت إلى المعنى الخفي

وهو تلك الخمرة الروحية التي تسبب نشوة الاقتراب أو نشوة السبح في ملكوت الروح، فيحدث ذلك التباسا: (الكامل)

عَنِّي بِهِمْ حَادِي الْأَحْبَةِ فِي الدُّجَى فَأَطَارَ مِنْهُمْ أَنْفُسًا وَقُلُوبًا
فَأَرَادَ مَقْطُوعُ الْجَنَاحِ بُيُوتَهُ وَهُمْوَأَرَادُوا الْوَاحِدَ الْمَطْلُوبًا.

يقول "فويدو مدينة"² في كتابه (المنستير أرض من تونس): "إني أذكر عددا وافرا من هؤلاء الأولياء، أذكرهم بحركاتهم وهوسهم. فهذا يسألك سيجارة وقد ينتزعها من فمك إن لم تمنحها له، وآخر يمرّ حذوك ويدفعك، ولا حق لك في أن تفوه بكلمة، ولبعضهم موهبة الغطس في ماء يغلي دون خوف أو وجل مثل عباس، ذلك الذي أراه الآن ببصيرتي، لقد عاش في المنستير ومات مكرّما فكانت له قبة وزاوية.

إن الدراويش فقراء، لا يسعون إلى طلب الغنى من إشرقاتهم... هؤلاء المحرومون في حياتهم من كل مباح الحياة يجردون بعد الممات كل الاهتمام والكرم الشعبي³.

ولعلّ هذه النتيجة التي صوّرها فويدو مدينة عندما صوّر حالة بعض المجاذيب في عصره، والذين كان يُعتقد أنهم أولياء الله، بينما هم لا يتورّعون من الدخول إلى

1 أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، المكتبة الأدبية حلب، سوريا 2001م، ص41.

2 فويدو مدينة شاعر منستيري من أصل مالطي ولد بالمنستير في 25 جانفي 1887 أي يوم تأسست بلدية المنستير الذي كان أبوه فابريال من أبرز أعضائها وقد كان صناعيا كبيرا خصوصا في صناعة الزيت والتسوق به في الأسواق العالمية، وتحصل على الجائزة العالمية بمعرض نيويورك سنة 1922. فكانت حياة الشاعر بين أبويه حياة موسرة، وكان له منزل بجانب دار الشاعر عبد الله الزناد بالقراعية أمام جزيرة الميدة، وكان يستلهم البحر والأمواج في أشعاره باللغة الإيطالية، ويكتب باللغة الفرنسية وتوفي شاعرنا في 23 أكتوبر 1970 بتونس. له كتابات عديدة منها (Monastir terre de Tunisie) الصادر لأول مرة سنة 1940، كتبه في الأول بالإيطالية ثم ترجمه بنفسه صحبة الأستاذ: "ي. كرابري" للفرنسية ونشرته دار بوسلامة للنشر في الستينات من القرن العشرين، وترجمه إلى العربية الأستاذ المرحوم محمد صالح مزالي بمعية الأستاذ/الدكتور محمد البدوي تحت عنوان (المنستير أرض من تونس) وصدر عن دار المعارف بسوسة سنة 1999.

3 ذكر فويدو مدينة أحدهم وهو(سيدي عباس) في الصفحة 149 من النسخة الفرنسية و135 من النسخة العربية. وقد ذكر لي أحد الشيوخ الذين عاصروا الشيخ عباس وصادف أن عشت معه فترة من آخر عمره وقد كان حارز حمام، روى لي أنه كان يلقي هذا الدرويش كل صباح بالحمام يغتسل ويغسل دراهمه، وفي المساء يفاجئه ببعض الحانات، قال: فقلت له: أتدعي أنك ولي الله وأنت لا تتورّع من دخول الحانة وشرب الخمر وهي حرام؟ قال: فسكب لي كأسا (أوطلبها لي) على المصرف وأمرني بشربها، قال: فلم أتمكّن من رفضها وشربت، وإذا بها مشروب حلولى ليس فيه من الخمر شيء لا من رائحتها ولا من سورتها، ولم أذق في حياتي اللذّ وأشهى من ذلك المشروب. وقد عبّر هذا الشيخ راوي الخبر طويلا وتوفي بعد أن تجاوز التسعين من عمره في تسعينات القرن العشرين. ومثل هذا العمل ربما يوعز إلى الملامتية، والله أعلم.

الحانات وشرب الخمر على أعين الناس، رغم أنهم قد يكونون من الملامتية، لكن المظهر يسيء إلى سمعة التصوف، إذ بذلك يختلط الحابل بالنابل، ولا يمكن تمييز الحق من الباطل وهو التلبيس الذي يقع بسماع الغناء: يقول عبد الرحمن ابن الجوزي: "اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين: أحدهما: أنه يُلهي القلب عن التفكر في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته. والثاني: أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيقائها من جميع الشهوات الحسّية ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجدّات، ولا سبيل إلى كثرة المتجدّات من الحِلِّ، فلذلك يحثّ على الزنا. فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذّة الروح والزنا أكبر لذّات النفس، ولهذا جاء في الحديث: "الغناء رقية الزنا"¹ غير أن المصنّف في هذا الباب ذكر عديد الأخبار التي ينقض بعضها البعض، والظاهر أنه لم يستخلص شيئاً ثابتاً ويميل بمرجحات ومواقف للفقهاء الكبار أصحاب المذاهب إلى كراهته واعتباره من الذنوب.

وهكذا لا نتمكّن من إصدار حكم فقهي لأننا لسنا من أرباب هذا الفن، ومن أجل ذلك بنينا دراستنا على الظاهرة الموسيقية فقط، ولم نرد منها تفضيل طريقة على طريقة من حيث التصوف، وإثماً، إن جرى منّا تفضيل فهو من منظور موسيقيّ علميّ بحت.

1 أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1422هـ/2002م ص 229 وما بعدها.

فلاكلات الصرق الصوفية مع الموسيقى العلية بتونس

عندما وصلت أولى التعاليم الصوفية إلى تونس وجدت أرضية موسيقية أصيلة ومتطورة سواء لدى الأغلبية أو الفاطميين أو غيرهم، فقد قال المالكي¹: نزل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بسوسة، وفي إحدى الليالي سُمع عزف وهو، فتحير عبّاد القصر (أي قصر الرباط) واجتمعوا من الغد بالمسجد الجامع وتفاوضوا في هذه الإذابة التي لحقتهم من الأمير. وقال أحدهم: قوموا بنا إلى هذا الرجل! فقد أحدث علينا أمورا لا نعرفها ولا نصبر عليها! فإما أن يزيل عنا هذا الأمر والآ فنحن نخرج وأرض الله واسعة" وخاطبوه فانصاع إلى أمرهم وخرج إلى قصر له. وذكر المالكي أيضا قصة شبيهة بهذه مع أبي علي الحسن بن نصر السوسي المتوفي سنة 341هـ/952م وأحد الأمراء الفاطميين بقصر طارق بسوسة. من هنا نعرف أن هنالك تقاليد موسيقية سابقة لظهور الحركة الصوفية وربما قبل عباد الرباطات.

يقول الأستاذ محمد الحبيب²: والموسيقى التونسية التي نبعت في عهد سحيق من

1 المالكي، رياض النفوس، ج1، ص393. والمالكي هو أبو عبد الله أبو بكر بن عبد الله من جلة فقهاء المالكية بإفريقية رحل إلى مكة وسمع عنه البخاري ثم عاد إلى القيروان سنة 408 هـ وعاش الهزات العنيفة بين المالكية والشيعية ومن كتبه "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية"، وتوفي سنة 438هـ/1046م.

2 محمد الحبيب، تطور الإنتاج الموسيقي خلال القرنين الماضيين، مقال في كتاب "الإنتاج الموسيقي العربي قديما وحديثا" الصادر عن ملتقى خميس الترنا الملتئم ببزرت في نوفمبر سنة 1978، طبعة الدار التونسية للنشر.

الموسيقى اللوبية على عهد الحضارة القبصية، وأُسمت باسم الموسيقى البربرية فيما بعد التي احتكّت بموسيقى كريت والهكسوس وتأثرت بالموسيقى الفينيقية التي انحدرت من كنعان وسامر وبابل وأشور ومصر والكلدان، وعرفت موسيقى البلاد باسم الموسيقى القرطاجنية، ولم تلبث أن دخلت عليها الموسيقى الرومانية (موسيقى الأمة المتغلّبة) مع الموسيقى اليونانية التي فرضت آدابها وفنونها، ورأينا موسيقى بربرية مهذّبة أخذت من أطايب ما سبق على عهد ملك البربر يوبا الثاني نصير الآداب والفنون بشرشير. هذه الموسيقى التي حظيت بعناية التهذيب والاقْتباس لتخرج عن أسوار المدن ومراكز الحضارة. وبقيت موسيقى البادية على بساطتها في سلّم قصير النفس لم يتجاوز الخمسة مقامات تنشد على نفخ الشبّابة وقرع الطبل وعزف الثنبري ذي الوترين؛ والأمم لها أطوار في الازدهار والذبول والقوّة والضعف سنّة الله في خلقه."

لم يشدّ، إذن، المجتمع التونسي منذ القديم عن غيره من المجتمعات البشرية، فتكوّنت لديه موسيقى ككل الناس، وجاء الإسلام وانتشر في هذه الربوع كما انتشر في ربوع أقاصي آسيا ومجاهل إفريقيا، ولم يكن هذا الفتح استعماراً لاستعباد أهل البلاد وابتزاز خيراتها بعرق أبنائها كما رأينا بعد عصر النهضة الأوروبية، بل كان فتحاً للأفكار وتسامياً بالروح، فخرجت البشرية من ظلمات الجهل والظلم إلى نور الوحدانية والعدل، وانتشرت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ففصحت ألسن الناس، وتأدّبوا بمبادئ الإسلام، يقول الأستاذ الحبيب: "ومع الجيش الفاتح جاءت أغاني الفرسان المجوّدة والرمل الذي ابتكره ابن محرز وأهازيج العرب الحماسية، فتقبّلها أهل إفريقيا لما فيها من رجولة وما توحيه من نخوة وشهامة، فصادف ذلك قلباً خالياً فتمكّن، لأنها صفات فطّرت عليها ابن البلاد وتعشّقها. وما لبث الحال حتى شاعت الأصوات العربية المدنية والمكّيّة والمدمشقية والبغدادية بين الشباب والجواري، وترنمت بها أهالي الشمال الإفريقي جميعاً وتسابق الأثرياء لاقتناء الجواري المحسنات، وتذوّقت العامّة طرب الأنصار وقريش فأقبلت عليه. وجاء العصر العباسي الذي كمل فيه الغناء كما قال ابن خلدون، وتولّى إمارة إفريقيا آل المهلب، وبالأخص واسطة عقدهم يزيد بن حاتم المهلبّي المتوفّى سنة 155هـ/772م. وتذوّقت الألسن لذّة الآداب العربية وحضارتها وذاعت الفنون." ويواصل الأستاذ محمد الحبيب فيقول: "وذكر القاضي أحمد بن يوسف

التيفاشي الذي ذكر في كتابه المخصص للموسيقى أصواتا مطربة من العصر الأول راجت بالقيروان وأقبل عليها أهلها، ولم يأت القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد حتى تأسس حيّ للفنانين، وربط سميّ بربط النبابذة، واكتظت الستارات بالجواري المختارات، وفتحت دكاكين صنع آلات الطرب وراجت تجارتها. كما فُتحت دكاكين الطلائيين (الحلاقين والمزينين) مزيبي الوجوه والشعور، وقصدها الموسيقار الممتاز أستاذ الأجيال مؤنس البغدادى الذي عاش في العصرين الأغلبى والفاطمي وباشر تعليم الموسيقى في قصور العباسية والقيروان، ثم المهديّة، أكثر من ثلث قرن ولحن الأصوات الحسان وتخرّجت عليه أجيال. وقامت الدولة الصنهاجية بعد الفاطميين ولم تُنقص من اهتمامها بالموسيقى عمّن سبقها وبالأخص أيام المعزّين باديس وابنه تميم وحفيده يحيى ووزرائهم برامكة إفريقية: الحاجب عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر وأولاده وأبناء أخيه. ودوّنت أخبار الموسيقى في هذا العصر وكثرت التلاحين الإفريقية والأصوات المتقنة الصنعة والمجودون والمجودات، وذاع صيت الكثير من مشاهيرهم كمحمد بن عطية وعتيق وبشارة وواصل وعنيد وأبي الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني الشاعر المهندس وابنه عبد العزيز. وعرف في هذا العصر أو قبله إنشاد الجماعات الموحد (الپوليفونية) في الدّمن¹ والزوايا ووجد فنّ موسيقى صوفي في الأربطة والدمن، وفنّ موسيقى مطرب في القصور والبيوت والحفلات، وفن هلالي في البوادي.

وجد إذن ثلاثة أنواع من الموسيقى في هذا العهد، فنّ بدوى يعتمد على الأشعار العامية والأزجال البدوية على طريقة بني هلال وربما يصاحب بطل أو شباة، وفن يعزف بالآلات المتطورة ويلحن تلحينا للطرب في القصور والبيوت والحفلات، وفنّ ثالث صوفي وجد في الرباطات والزوايا والدّمن. ويظهر أن انطلاقا هذا الفنّ في تونس كانت من مسجد السبت في القيروان وهو معروف ويقع في الجهة الغربية من مقام الصاحب أبي زمعة البلوي. وهو مسجد بناه أبو محمد الأنصاري الزاهد وكان من المقيمين بالدمنة في أول القرن الثالث. وكان من عادة ملوك بني الأغلب زيارة الدمنة في رمضان والأعياد لمواساة مرضاها والتصدّق على الفقراء، وكان زيادة الله الأول يزور

1 الدمن جمع دمنة وهي المستشفى أو الحارة الخاصّة بمعالجة المجذومين وإقامتهم حتى لا يختلطوا بالناس خوف العدوى. وتعني الكلمة في الأصل الظلل وما تبقى من الآثار.

أبا محمد الأنصاري ويتبرك به. وظهرت في مسجد السبت هذا جماعة بعد وفاة الإمام سحنون يجتمعون في كل يوم سبت ويتناشدون فيه الأذكار والأشعار بالطريقة الصوفية فيذكرون فيها أهوال يوم القيامة وحالات الأولياء، ويركبون عليها ألحانا حزينة حتى إذا سمعها المتعبّدون ارتاحوا إليها وعملت فيهم ما تعمل المواعظ. كان الإنشاد في مسجد السبت عملاً مثيراً سماعه بالنغم والتطريب، وكان يحيى بن عمر دفين سوسة المتوفى سنة 289 هـ/901م يعتبر ذلك بدعة في الدين ويُنكره أيّما إنكار، مثلما كان الإمام سحنون يكره التطريب والتنغيم وينكره، ويرى الشيخ يحيى بن عمر أن يُهدم المسجد أنفع من بقاء هذه البدعة، وتصدّى له الصوفية وأذوه وشاغبوه في حلقات دروسه. ورد في معالم الإيمان²: " وكان مسجد السبت هذا يحضره الزّهاد والعبّاد، يقرأ فيه القارئ آية من كتاب الله عزّ وجلّ، وبعض حكايات الصالحين، وتُنشد فيه الأشعار، وهو الذي يسمّى عندنا اليوم بالرقائق. فكان يحيى بن عمر رأى أنّ هذا بدعة لم تكن في الزّمن الأوّل، فألّف تأليفاً في وجوب عدم حضوره، فكان لا يحضره وينهى عن حضوره وكان المشيخة في زمانه على خلافه، وتابعه على قوله أبو الحسن ابن القاسبي رحمه الله تعالى، وكان يقول: يا قوم، هذا القرآن يُتلى، والأحاديث النبويّة ولا متعظ، ويسمّع بيتاً من شعر فيبكي، هذا عجب! وتبعه تلميذه أبو عمران الفاسي رحمه الله تعالى على ذلك. هكذا سمعته من شيخنا أبي الفضل أبي القاسم بن أحمد البرزلي حفظه الله تعالى. قال المالكي: ويُقال: إنهم كانوا يخرجون منه يوم السبت فيبقى عليهم أثره إلى السبت الثاني، {قلت³ فما سُمي بمسجد السبت إلاّ لعمل الرقائق فيه كل سبت خاصّة، وهو الذي يُسمّى عندنا اليوم بمسجد العربي، سُمي به لأنّه كان يقوم به واسمه محمد وهو خارج القبروان بقرب تربة الشيخ أبي زمعة صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"

ويظهر أن العبيديين قد أهملوا الحصون والرباطات وجردوها من السلاح فتمحض

1 ذكره حسن حسني عبدالوهاب في كتابه (الإمام المازري) ص 80. وذكر أن ذلك وقع خلال القرون الثالث

والرابع والخامس، وأحال إلى (معالم الإيمان) للدباغ في الجزء 2 ص 73، والجزء 3 ص 27.

2 الدباغ، معالم الإيمان، نشر مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس سنة 1968، ج 2، ص 238.

3 الضمير يعود على ابن ناجي وهو أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى سنة 839 هـ، وهو الذي أكمل (كتاب معالم الإيمان) على صاحبه أبي يوسف عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي الدباغ المولود سنة 605 هـ والمتوفى سنة 609 هـ.

المرابطون للعبادة والذكر وممارسة ما يريد عليهم من فنون المعرفة بالله، ولعلّ المعارك التي نشبت بين أهل السنة وأهل الشيعة زادت في غربة هؤلاء المرابطين، وبذلك تحوّل رباط المنستير إلى أوّل زاوية بعد مسجد السبت فقامت فيه حلقات الذكر الجماعي مع الضرب على الصدور حتّى الإغماء! ويظهر أن أرضية الطريقة أخذت في التبلور في ظل النزاعات الصنهاجية مع الطوائف المعادية لها، وحيث مثل ذلك التناحر مصدر غم للمسلمين مع الهجمات المتتالية للنورمان، كان الملاذ في الرباطات والزوايا، فما سطعت شمس الحفصيين حتّى أصبحت الطريقة ظاهرة واضحة المعالم.

ويواصل الأستاذ محمد الحبيب فيقول: " وتأسست الدولة الحفصية بتونس سنة 626 هـ/932م فسارت على نفس المنهج ببعض تقشّف، ونشطت الرباطات: فكان رباط مرسى الجراح ورباط تونس ورباطات السواحل ورباطات الدواخل كلها مشغولة بالتلاوة والأذكار مع حراسة الشغور. وظهر المرقّي الشيخ محمد الظريف المتوفى سنة 787هـ دفين جبل المنار صاحب البديعية المشهورة التي ضمّنها ناعورة الطبوع الرائجة في عصره، والقاضي أحمد التيفاشي صاحب الموسوعة الموسيقية وأبو عبد الله محمد بن عميرة الذائع الصيت، والأمير محمد ابن الحسن آخر الملوك الحفصيين المخلوع سنة 932 هـ. وأثناء مدّة الحفصيين وفد على تونس جمع من الأندلس ونشروا موشحاتهم وأزجالهم وأدبهم وشعرهم. "

ومما ذكر ابن أبي دينار في شأن الحسن والد الأمير محمد: " وسمعت من الحاكي أنه قال: دخل عليه (أي الحسن والد الأمير محمد آخر الملوك المأخوذ سنة 980 هـ وهو بزاوية الجديدي) أولاد الشيخ عرفة (الشابّي) صاحب القيروان في بعض الأيام، وأتوه ببربط وهو عود الملهاة وقالوا له: نريد أن نسمعنا من غنائك بالعود، وألزموه ذلك استخفافا به، فأخذه وجسّه بيده، وقد كبر عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله، فأشدّهم البيت الشهير بين الناس: (الطويل)

وَكُنَّا أَسْوَدًا وَالرَّجَالَ تَهَابْنَا أَتَانَا زَمَانٌ فِيهِ نَحْشَى الْأَرَانِيَا

وألقى العود من يده وجهش بالبكاء في وجوههم، فخرجوا من بين يديه لا يدري أحد

أين يضع قدمه، فسبحان المعزّ وسبحان المذل.¹

وسقطت قرطبة في القرن الثامن وخرج أهلها لاجئين فتلقّتهم تلمسان وأوتهم فجلبوا لها من جملة ما جلبوا أغانيهم، وتوسع هؤلاء الأندلسيون في بقية المدن كندرومة ووهران، وبجاية التي سبقت بنشر تلاحين عبد العزيز بن أمية بن أبي الصلت الداني. ووصلوا إلى تونس واستقبلتهم جزيرة الوطن القبلي وغيرها من البلاد التونسية كالكاف وزغوان وسليمان وقلعة الأندلس وتونس وتستور، فنشروا فيها صناعاتهم ولهجتهم مثل استعمال النون في ضمير المتكلم المفرد (أنا نُحِبُّ، أحنأ نُحِبُّوا)، وكذلك فنونهم وموسيقاهم. وهكذا تأسست نوادي الفنانين التي عرفت بديار الطابع في عديد المدن المغاربية من ليبيا إلى المغرب الأقصى، وظهر في تونس الزجل الحضري والموشح والزجل الهلالي المهدب المعروف بالفونديو والغناء الزناداني. وأصبح التميّز واضحا بين غناء الولايم والأفراح المعدّ للتطريب من نوع الربوخ وغناء البوادي، وبين المدائح والأذكار وأناشيد التهجد في الأسحار بالجوامع والزوايا.

في هذا العصر الحفصي وفد على تونس أعلام كبار من الأدباء والفنانين وأئمة اللغة والعلوم والتصوف، وتواصل ذلك إلى العهد التركي وسقوط غرناطة عندما قدم إلى تونس وفود غفيرة من الأندلسيين (المورسكيين) أيام عثمان داي صاحب الميزان وذلك في حدود 1016 هـ فأسسوا مدنهم المعروفة بالجزيرة (الوطن القبلي) وغيرها ونشروا صناعاتهم وآدابهم وأغانيهم.

يقول الأستاذ الحبيب: "وظهر العالم الصوفي إمام جامع الزيتونة ووكيل أوقافه أبو الغيث القشّاش جدّ البكرتيين المتوفّي سنة 1037 هـ بمدائح العذبة وابتهالاته وحلقات ذكره كل يوم سبت والموسيقار الصوفي مصطفى البابلي المتوفّي سنة 1110 هـ والفنان أحمد بن حمودة السنان صاحب (حلية العروس) المتوفّي سنة 1144 هـ وكثير من المرتلين للقرآن المجيد. وتواردت على تونس الجوقات التركية بفنانيتها وآلات طربها، وعرف القانون بتونس من العهد التركي والآلات النحاسية لموسيقى الجيش². واهتمّ الناس بالموسيقى

1 ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة الأولى، مطبعة الدولة التونسية سنة 1286 هـ ص 158
2 وكانت هذه الموسيقى تدق بالطبول والزمر للخان وتسمى (النوبة) وكان القانون جاريا في آل عثمان أن يقوم السلطان على قدميه عند دقّ (النوبة). انظر المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار، ص 170.

وآلاتها واستلطفوا ما ورد عليهم من الألحان والأطباع والآلات حتى أصبح بعضها مضرب الأمثال، قال المفتي محمد بن عمر سعادة المنستيري المتوفى سنة 1171هـ/ 1757م من تقيظ لشرح التسهيل لعلي باشا[من البحر السريع]:

تُحِجُّ بَدْرَ التَّمِّ فِي ظَلَعَتِهِ وَتَسْلِبُ النَّاسِكَ فِي بُرْدَتِهِ
تَتَأَيَّجُ أَنْتَجَ عِشْقِي بِهَا لِلَّهُو مَيْلاً وَإِلَى صَبَوْتِهِ
وَرَدَّ مَيِّي عَنْفُوَانُ الصَّبَا بَعْدَ تَنَاسِيهِ، إِلَى جِدَّتِهِ
طَرِبْتُ مِنْ حُسْنِ حَدِيثِ لَهَا مَا أَطْرَبَ الْقَانُونَ فِي رَنَّتِهِ

وفي هذا العصر ظهر الأمير محمد بن مراد باي المتوفى سنة 1086هـ وهو من أصل إيطالي كبقية المراديين، وكان شديد العناية بالموسيقى مزج بينها وبين الموسيقى الإيطالية بتطعيم حاذق وتلاه رمضان باي المرادي الذي انقطع لها بسبب كَفِّ بصره مع رفيقيه في المحنة مزهود ومصطفى ابن عبد النبي²، وجلبت له أمته الإيطالية الأرغنون من إيطاليا وأول من عزف عليه مزهود رفيقه، وثلاثتهم قتلهم مراد بوبالة صبوا سنة 1110 هـ " كانت، إذن، الأرضية الموسيقية التي ترعرع فيها الإنشاد الصوفي بتونس خصبة، وكانت تتمثل في هذا التمازج العجيب الذي جعل لها طابعا مميزا، لذلك وجدت بعض الطرق تجاوبا مع المجتمع التونسي بينما توقفت طرق أخرى، أو وجد بعضها صعوبة في التمرکز بهذه الربوع. وتفاعلت الأنواع الثلاثة من الموسيقى: موسيقى الطرب وموسيقى البوادي

1 هو الشيخ محمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر بن قاسم المنستيري شهرسعادة، ولد سنة 1088هـ وتوفي سنة 1171 هـ أي عمر 83 سنة، تفقه على الشيخ محمد زيتونة المنستيري والشيخ الحجيح والشيخ الغماري وسعيد الشريف والشيخ الحجزوز، ورحل إلى مصر فاستكمل علومه لدى الشيخ إبراهيم الفيومي والشيخ الطولوني وغيرهما وأجازوه، دخل الأستانة واجتمع بأعلامها واستفاد منهم الكثير؛ ثم رجع إلى تونس وتصدر للتدريس وأفاد واستفاد. ثم تولى قضاء الجماعة بتونس سنة 1157 هـ وتقلب في عدّة وظائف (انظر ترجمته مفصلة في كتاب (المنستير عبر العصور) لعبد الله الزناد، مطبعة لابرانس، تونس، سنة 1987م).

2 مزهود من أصحاب رمضان باي بن مراد بن حمودة باشا وهو مغنّ: ذكره أحمد بن أبي الضياف في تحاف أهل الزمان بين صفحة 69 - 73، قال في ص: 73: "وأنتي (يعني مراد الثالث أبوبالة) بمزهود مغني عمّه ومصطفى بن عبد النبي وغيرهما من خواصّ عمّه، فألقى عليهم من العذاب ما لا تحتمله القوى الحيوانية، وأتاهم برأس عمه - صاحبهم رمضان باي- وأمرهم بتلقّفه بينهم تلقّف الكرة، وبلعنه وشتمه بكل قبيح، ثم أمرهم أن يُعَنُّوا لرأسه، كما كانوا يُعَنُّون له في حياته، وهو في أثناء ذلك يقطع من لحومهم القطعة بعد القطعة، يُبَاشِرُ ذلك بيده، أيّامًا. ثم سمل أعينهم بالنثار كماوقع له، ثم فقأ أعينهم بعد ذلك. ثم أفلحهم بالأغلال إلى آخر يوم من رمضان، فقطع رؤوسهم، وأرسلها مع جماعة من خدامه إلى دورهم، وأمرهم أن يأخذوا من أهلهم مالا ذا بالٍ على وجه البشارة وطاقوا برؤوسهم في الأسواق يطلبون البشارة من أهلها."

وموسيقى الجّد الصوفية وأخذ بعضها من بعض، كما تفاعلت الطرق الصوفية نفسها وأخذ بعضها من بعض.

جدلية الموسيقى والإنشاء الصوفي

في إحدى الجولات الميدانية، تمّ اللقاء مع السيد البشير الذيب أحد شيوخ العيساوية بالكاف، فسأله حسين الحاج يوسف عن كيفية عملهم في النوبة، فأجاب بما يفيد أنه ليس لهم نوبات فذلك يجده في المألوف، أمّا هم فلهم مدحات. ومن هذا الجواب نستشّف موقف بعض منشدي الطرق الصوفية من الطرق الموسيقية المنتشرة في البلاد. وقد يكون هذا الموقف حادًا في بعض الفترات وقد يكون لينا في فترات أخرى، ولكننا نلاحظ تلاقحًا ولو عفويًا بين المجالين، فإننا نجد العوامرية مثلاً لا يرون أيّ حرج في تسمية أناشيدهم بالنوبات كنوبة المغراوي ونوبة العروسي، وهناك في طرق أخرى من يسمّي النوبات بأسماء الأولياء: نوبة أم الزين مثلاً. وهكذا فإن الظاهر من هذا الاحتجاج: أنّه وقع خلط لدى بعضهم بين المجالين، فأنف هذا الشيخ من إلحاقه بالمطربين أو أرباب المجون حسب رأيه وترقّع بأنّه لا يهبط إلى معاني المألوف وذكر المغاني والليالي، بل إن ما لديه مدحات للرسول صلّى الله عليه وسلّم ويجب على سامعيه ألاّ يخلطوا بين الاثنين. ومن هنا نرى أنّ هذا الإنشاد الصوفي الذي استعمل آلات الطرب من نقر ونفخ واستعمال النحاس ولو في الصنوج فقط، والعزف والغناء على الطبوع المتداولة في المألوف والغناء التراثي والتقليدي، جعله يتشابه مع غناء

الطرب في ليالي القصف، فأكد الشيخ بجرارة على أنّ فنه يخالف ذلك وإن أطرب، لأنّه ينشد أمداحا للرسول صلى الله عليه وسلّم وأولياء الله تعالى، ولا يتغزّل بليل وبهند، أو يتلمّظ لخمرة مزهرة في كأس بلّورية. وهكذا نرى أن سبب هذا الاحتجاج هو اشتراك الطرق الصوفية وطرق الغناء والطرب في الطبوع والتبوع والمقامات الموسيقية، فما هو الطبع والمقام والنوبة، وما هو حظ الإنشاد الصوفي من كلّ ذلك؟

1. الطبع:

بادئ ذي بدء يمكن أن نطلق من نظرية راجت في العهود القديمة والوسطى، وهي نظرية التمازج بين الطباع البشرية وطيوع الموسيقى، حيث تبناها الكثيرون من الفلاسفة اليونانيين والعرب، كما نجد ذلك في الطرق الصوفية ونخصّ بالذكر تصريحات الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر صاحب الطريقة السلامية¹.

والأصل في تسمية "الطبع" كما أوردنا، هو محاولة ربط الطبوع الموسيقية بالطباع (الأمزجة) البشرية وتسمّى أيضا الأخلاط الأربعة وهي السوداء والبلغم والدّم والصفراء وقد اهتموا بهذا الموضوع بصورة مغرقة في الإغراب والمبالغة حتّى ليُخيّل للقارئ أحيانا أنّ الطبوع جاءت لخدمة حالة نفسية معيّنة أو تحرك شعورا محددا² إلى أن غدت أغلب مؤلفات هذا الفن تحمل من الأسماء ما ينمّ عن تشبّع مؤلّفيها بوجود علاقة محكمة ومتينة بين الطبوع الموسيقية والطباع البشرية، مثل "كشف القناع عن وجه تأثير الطبوع في الطباع" أو "ديوان الأمداح النبوية وذكر النغمات والطبوع وبيان تعلقها بالطبائع الأربعة" لأبي العباس بن محمد العربي أحضري. فذكر لكل طبع ما قابله من الموسيقى على هذا النحو: السوداء للذليل، والبلغم للزيدان، والدم للماية، والصفراء للمزوم.

ويبدو أن الربط بين الطبوع والطباع جاء ليعكس أصداء نظرية قديمة ترجع أصولها الأولى إلى عهد فلاسفة اليونان، ثم انتقلت إلى العرب من خلال ما ترجموه عنهم.

1 انظر التصريح في خاتمة كتابنا هذا، وكذلك في باب الطريقة السلامية من هذا الكتاب ص 175.

2 عبد العزيز بن عبد الجليل، الموسيقى الأندلسية والمغربية (فنون الأداء)، سلسلة عالم المعرفة عدد 129 الكويت.

ومن ثم شاعت في كتب فلاسفة الإسلام الأولين كالكندي¹ والفارابي² وابن سينا³، ولم ينحصر رواجها في أوساط محترفي الموسيقى والغناء بل تجاوزهم إلى أوساط المتصوّفة فأصبحت كتبهم حافلة بالحديث عن "المناسبة بين الألحان الموسيقية وبين النفوس"⁴.

يقول الفارابي "فقد تبين أنّ أصناف الألحان ثلاثة: أحدها الألحان المملّدة، والثاني الألحان الانفعالية، والثالث الألحان المخيّلة. والألحان الطبيعية للإنسان ما فعلت في الإنسان أحد هذه إمّا في الجميع وفي جميع الزّمان، وإمّا في الأكثر وأكثّر الزّمان، وأكثرها فعلا هي أكثر طبيعّة. والمملّدة منها تستعمل للراحات وفي كمال الرّاحات، والانفعالية تستعمل حيث يقصد بها حدوث الأفعال الكائنة عن انفعال أو حصول الأخلاق التابعة

1 أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي "فيلسوف العرب" المتوفّى سنة 252هـ/866م. فيكون قد عاش في عهد المأمون والمعتمد وشهد حركة الانطلاق الفكري.. واهتم بالفلسفة (أحنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص360). له رسالة عنوانها (رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الأشخاص العالية وتشابه التأليف).

2 أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ المعروف بالفارابي نسبة إلى فاراب وُلد نحو 257هـ/870م (من أب فارسي وأم تركية)... اشتغل بالقضاء في بلده قبل أن ينكبّ على دراسة الفلسفة... وصرّح بأنه يجيد سبعين لسانا... وذلك ظاهر في مؤلفاته لا سيما (كتاب الموسيقى الكبير). غادر فاراب قاصدا بغداد... لما تجاوز الأربعين من عمره وتلمذ على أبي بشر متى المتوفى سنة 328هـ/939م.. وكان لا يزيد تلميذه إلا بعشر سنين. درس الفارابي في بغداد المنطق ثم توجه إلى حرّان حيث تابع دراسته على يوحنا بن حيلان، وكان ذلك في خلافة المقتدر الذي رقي العرش سنة 295هـ/907م.. وكان يدرس النحو على أبي بكر بن السراج لقاء دروس في المنطق كان يلقاها عليه... وفي سنة 330هـ/941م انتقل إلى دمشق؛ ثم اتصل بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب فضمّه إلى علماء بلاطه واصطحبه في حملته على دمشق حيث توفي الفارابي سنة 339هـ/950م. وله من العمر ثمانون عاما. (حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص373).

3 الشيخ الرئيس أبو الحسن علي بن سينا "كان مولده سنة 370هـ/980م وكان والده من بلخ حلّ بخارى وتعاطى فيها الصرافة وقد تردد إلى قرية قريبة من بخارى تدعى أفشنة فتزوّج فيها من امرأة أنجبت له ولدين كان أبو علي بكرهما.. وظل مكبّا على دراسته يخوض في الرياضيات والطبيعيات والمنطق وعلوم ما بعد الطبيعة ويأخذ فن الطب عن أستاذ مسيحي اسمه عيسى بن يحيى. ولم يتجاوز السادسة عشرة حين طار له صيت واسع في الطب... واستهوتته الفلسفة إذذاك فخصّها بسنتين كاملتين من سني تحصيله... في السابعة عشرة من عمره أصيب نوح بن منصور سلطان بخارى بمرض عضال أعجز الأطباء فعالجه ابن سينا وشفاه، فقرّبه إليه وفتح له أبواب خزائنه... وما إن بلغ ابن سينا الحادية والعشرين حتى بدأ حياة الإنتاج... غادر ابن سينا (جرجان) وراح يضرب في الأرض حتى بلغ همدان وشفى أميرها شمس الدولة من مرض عضال فاستورزه... طلب إليه تلميذه الجوزجاني أن يضع كتابا شاملا في فلسفة أرسطو، فكتب قسم الطبيعيات من كتاب الشفاء (في الحكمة)، وتابع تأليف القانون (في الطب) وكان قد أتم الجزء الأوّل منه في جرجان... كانت حياة ابن سينا صاخبة حافلة بالعمل والتأليف، وحافلة باللهو والاستمتاع والسهر والجهد، فأصابه داء القولنج ولم يقوَ على معالجته فتوفّى به ودفن في همدان سنة 428هـ/1037م. وله من العمر ثمانية وخمسون عاما." (حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص441). وهو الذي ركّز مبدأ التداوي بالموسيقى الذي وقع لإحيائه أخيرا في أغلب بلدان العالم.

4 فصل ابن الخطيب، بعنوان: روضة التعريف بالحلب الشريف، من تحقيق الكتاني، الدار البيضاء، الجزء الأول ص 378 - 390.

لانفعال ماء، والمخيلات تستعمل حيث الأقاويل الشعرية وأنحاء من الخطبية، ومنافعها تابعة لمنافع الأقاويل الشعرية"

وجاء كذلك في رسائل إخوان الصفا مثل قولهم: "فإذا أُلِّفَت النغمات في الألحان المشاكلة لها واستعملت تلك الألحان في أوقات الليل والنهار المضادة طبيعتها طبيعة الأمراض الغالبة والعلل العارضة سكتتها وكسرت حدتها وخففت على المريض آلامه لأن الأشياء المتشاكلة في الطباع إذا كثرت واجتمعت قويت أفعالها وظهرت تأثيراتها وغلبت أضعافها. كما عرف الناس مثل ذلك في الحروب والخصومات، وقد تبين بما ذكرنا من حكمة الحكماء الموسيقيين المستعملين لها في الممارسات² في الأوقات المضادة لطبيعة الأمراض والأعراض والأعلال."

ونظم القاضي الشيخ عبد الواحد الونشريسي المتوفى بفاس سنة 955هـ/1584م ذلك في قصيدة نوردها للفائدة: (من بحر الطويل)

طَبَّاعُنَا] فِي عَالَمِ الْكَوْنِ أَرْبَعُ فِي مِثْلِهَا اضْرِبْ لِلطُّبُوعِ مُجَمَّلًا
فَأَوْلَهَا السَّوْدَاءُ وَالْأَرْضُ طَبَّعَهَا وَبِالْبَرْدِ ثُمَّ الْيُبْسِ قَدْ خَصَّهَا الْمَلَأَ
وَيَلْعَمُ طَبْعُ الْمَاءِ رَطْبٌ وَبَارِدٌ وَطَبْعُ الْهَوَا وَالْحَرِّ لِلدَّمِ قَدْ تَلَأَ
وَصَفْرَاءُ طَبْعُ النَّارِ يَحْرِقُ حَرُّهُ لِمَا فِيهِ مِنْ يُبْسٍ بِتَدْبِيرِ ذِي الْعَلَاءِ
فَتَنَعَمُ صَوْتِ الدَّيْلِ ثُمَّ فُرُوعِهِ يُحْرَكُ لِلْسَّوْدَاءِ، خُذَهَا مُرْتَلًا
عِرَاقٌ وَرَمْلُ الدَّيْلِ فَاصْغِ لِلْحَنِيهِ وَرَضْدٌ لَهُ فَارْضُدْهُ إِنْ كُنْتَ ذَا ابْتِلَاءِ
وَلِلْبَلْعَمِ الزَّيْدَانُ ثُمَّ اصْبَهَانُهُ حِجَازٌ زَوْرُكَنْدٌ فَخُذْهُ] كَمَا انْجَلَاءِ
وَعِشَافُهُ [قَدْ] فَاقَ وَاخْتَصَّ بِالْغِنَاءِ فَهِنَّ فُرُوعٌ حَمْسَةٌ بَعْدُ بِالْوَلَاءِ

1 أبو نصر الفارابي، الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة محمد أحمد الحنفي، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص 67.

2 المارستانات (جمع مارستان) وهي كلمة فارسية الأصل تطلق على المستشفى، ثم خصصها الاستعمال لمستشفى الأمراض العقلية.

3 ما بين [..] إضافة من عندنا لإقامة الوزن حيث نقلنا عن الدكتور صالح المهدي من كتابه الموسيقى العربية تاريخها وأدبها الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر وديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، ص 165.

وَمَا يَهُ حُسْنِ حُرْكَتِ لِدَوِي الدَّمَا بِرِضْدٍ وَذَيْلٍ وَالحُسَيْنِ الَّذِي حَلَا
 وَصَفْرَاءُ لِلْمَزْمُومِ فَانْسِبْ فُرُوعَهُ غَرِيبُ الحُسَيْنِ لِلطُّبُوعِ مُكْمَلَا
 وَزَادَ لَهُ طَبَعًا غَرِيبٌ مُحَرَّرٌ وَأَصْلٌ بِلَا فَرْعٍ، فَلَا تَكُ مُهِمَلَا
 وَصَلَّ وَسَلَّمْ فِي ابْتِدَائِكَ أَوَّلَا وَخَتَّمَا عَلَيَّ مَنْ لِلخَلَائِقِ أَرْسَلَا

ويبدو أنه بعد ظهور النظرية، وبعيدا عن إرادة الطرب للتسلية، كان الرهبان وبعض الفلاسفة يستعملون الغناء للتأثير في النفوس في اتجاه معين فيستعملون طريقة لإثارة الحمية وحماس الجنود تختلف عن محاولة إيقاظ الشعور الديني في الصلوات، وكذلك كانت القينة تتخير الأصوات لقضاء شأن سيدها، فلا تغنيه ألوانا شاجية في أوقات شجونه وأوجاعه، ولذلك نجد لهذه النظرية مبرراتها، بل ربّما وجها من وجوه الحقيقة.

وتأثر علم النفس الحديث نفسه بهذه الأصول في الأخلاط الأربعة فجعل من طباع الناس الطبع السوداوي (Mélancolique)، والطبع اللمفاوي (lymphatique) والطبع الدموي (Sanguin) والطبع الصفراوي (Colérique) وغير ذلك من تفصيلات الطباع الثمانية الكبرى التي يُرجع علماء النفس مختلف الطباع الإنسانية إليها. ولعلّ هذا الباب هو الذي ولجه الدكتور سليم عمار الطبيب النفساني الشهير ليصف بعض الأغاني تُسمع في وقت معين لبعض مرضاه، كما نصح البعض منهم بحضور حفلات العوامرية بسيدي عامر مثلا، وترك شهادة منه بالزاوية ما زالوا يحتفظون بها إلى الآن. ويقول حبيب حسان تومة في سياق تأثير المقام الموسيقي في السامع: "لقد أُجريت أخيرا دراسة لبعض الموسيقيين العرب العصريين كشفت أن هؤلاء تحالجهم مختلف المشاعر والأحاسيس عند سماعهم للمقام. فمقام الراست مثلا يولّد فيهم إحساسا بالفخر والقوّة والصحة الذهنية والفحولة، أمّا مقام البياتي فهو ترجمان لقوّة الفرح والأنوثة، ومقام السيكاه يزرع فيهم مشاعر الحبّ، أمّا مقام الحجاز فهو يجعلك تفكر في الصحراء وعالمها الرحب، أمّا مقام الصبا فيشعرك بالحزن وألم الفراق".¹

1 TOUMA (Habib Hassan), La Musique arabe, ed Buchet/Chastel, Paris 1977 p 57.

2. المقام:

واستبدل أهل شمال إفريقيا كلمة "طبع" بكلمة "مقام" في ما يروج من كلامهم فأينما من الصالح أيضا أن نعرّف بمصطلح "مقام" في الموسيقى العربية، ولعلها قيست على معنى الكلمة الأصلي في اللغة العربية وهو موضع الأقدام، ثم تحوّلت الكلمة "مقام" في أغلب البلاد العربية والإسلامية فصارت تستعمل للدلالة على مجموع السلالم الموسيقية التي وُضعت لكلّ منها أبعاد مخصوصة بين مختلف درجاتها لتحدث التأثير المطلوب.

ويُطلق في الجزيرة العربية اسم "الصوت" على المقام الموسيقي، وهذا هو التعبير القديم الوارد في كتب التراث. أما في المغرب العربي من طرابلس إلى الأندلس فالكلمة المستعملة هي "الطبع" بما في ذلك الإنشاد الصوفي، فيقال مثلا "طبع الزموم" على هذا المقام.

وتختلف الطبوع حتّى في البلاد المغاربية من بلد إلى بلد فمن الطبوع المغربية مثلا ما يوافق الطبوع التونسية مثل رصد الذيل والرصد والسيكاه ومجنب الذيل والحجاز المشرقي باسم الحجاز وهو الإصبعين، والذيل. ومنها ما يتفق في النغم ويختلف في الاسم مثل رمل المائة (الحسين) وانقلاب الرمل (حسين نيرز) وحمدان (جهرگاه) واصبهان (العراق) والاستهلال وهو داخل في رصد الذيل، وعراق العرب (السيكاه التونسية) ومزموم (جهارگاه مصور على درجة النوا) المشرقي الصغير (محير) والمشرقي (النوى) والعُشّاق (الإصبهان).

3- النوبة:

أمّا كلمة "النوبة" فيرجع استعمالها إلى العهود الأولى للنهضة الموسيقية العربية بالشرق ومن هناك انتقلت إلى المغرب مع الفاتحين ومن تلاهم من الموسيقيين الذين نزحوا إلى بلاد الأندلس. ويظهر أن هذه الكلمة قد تقلّبت في الإطلاق على عدّة معان، كعادة المصطلحات العلمية والفنيّة، قبل أن يستقرّ بها الفكر البشري على معنى قار.

ففي طورها الأول كانت تطلق على دور المغنيّ أو مجموعته في برنامج النشاط المقرر لسهرة أو مهرجان أو مجلس أنس عند أمير أو غير ذلك ممّا يقع فيه التناوب بين مختلف الأشخاص أو الفرق، مثلما ذكر الأصفهاني في الأغاني.

وفي الطور الثاني أصبحت كلمة "النوبة" تدل على جزء أو مقطع من الصوت الذي يرادف معناه الأغنية الموسيقية حسب الاستعمال الشرقي، فهي بهذا المعنى تناسب مفهوم الحركة الموسيقية باعتبارها جزءاً من المعزوفة الموسيقية السنفونية. أما في الطور الثالث فقد أصبحت تدلّ على إنتاج موسيقي كامل له مقوماته اللحنية والإيقاعية.

ويحزّر أن "النوبة" أصبح لها مفهوم علمي بعد تحوّل زرياب المتوفى سنة 243هـ/857م من بغداد عاصمة الخلافة العباسية إلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية، فدخلت كلمة (النوبة) معجم المصطلحات الموسيقية العربية، وتدرّج ضبط أطرها حتى أصبحت

1 هو أبو الحسن علي بن نافع، مولى المهدي العباسي [مختلف في تاريخ وفاته منهم من يراها سنة 230هـ/845م [تابعه الموسيقى في زمانه، أخذ الغناء عن إسحاق الموصلي. وله ذاكرة عجيبة حفظ أكثر من ألف أنشودة بالحناء؛ كان شاعراً مطبوعاً، عالماً ببعض الفنون من الطبيعي وغيره، عارفاً بأحوال الملوك، وسير الخلفاء ونوادير العلماء؛ اجتمعت فيه صفات التمداء؛ وكان حسن الصوت، وهو الذي جعل العود في خمسة أوتار وكانت أوتاره أربعة فأضاف إليها الوتر الأوسط الأحمر، وغنى به أمام الرشيد بحضرة أستاذه إسحاق، فأعجب به الرشيد وأكرمه غاية الإكرام، فركب أستاذه منه الغيرة وطلب منه مغادرة بغداد فخرج منها هارباً، وفي طريقه إلى الأندلس مرّ بمدينة القيروان، وذهب إلى بني الأغلب ودخل على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فاحتقره وعاب عليه لونه الأسود فغناه بأبيات عنتره الفوارس:

فَإِنْ تَسَكُّ أُمِّي غَرَابِيَّةً
مِنْ ابْنَاءِ حَمَامٍ بِهَا عِبْتَنِي
فَقَائِي لَطِيْفٌ بِيْبِضِ الظُّبَا
وَسُمُرُ الْعَوَالِي إِذَا جُنْتُنِي
وَلَوْلَا فِرَارُكَ يَوْمَ الْوَعَى
لَقُدْتُكَ فِي الْحَرْبِ أَوْ قُدْتُنِي

فغضب زيادة الله وأمر بصفع فقاه وإخراجه قاتلاً له: إن وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك. فجاز إلى الأندلس، ووفد على أميرها عبد الرحمن الثاني بن الحكم الأموي فبالغ في إكرامه وأعدق عليه نعماً لا تحصى وجعل له في كل شهر مائتي دينار واستغنى به عن سواه من الندماء والمغنين. وقد انتفعت الأندلس من مواهب هذا الفنان العبقري كثيراً. وجعل مضرب العود من قوادم النسر بعد أن كان يتخذ من الخشب، وأدخل في الغناء مقامات جديدة ووضع له قاعدة جديدة. ونزید على ذلك أنه وضع قواعد لتعليم الغناء للمبتدئين. فلقد كانت العادة قبل مجيء زرياب أن يُكرر اللحن حتى يتم التلميذ أخذه بتمامه. فوضع زرياب قاعدة قسم فيها العمل إلى ثلاثة أقسام: (1) يتعلّم التلميذ ميزان الشعر، ويقرأ الأشعار وهو ينقر على الدقّ ليدلّه على تفاصيل الميزان الغنائي فيعرف مواضع الحركات والسكون. (2) يأخذ التلميذ اللحن مبسّطاً ساذجاً مجرداً من كل زخرف. (3) يتعلّم التلميذ الزخرفة وتنسيق الضروب وما يتبعها، وبذلك يُجيد التلميذ اللحن بل قد يدخل فيه بعض التحسينات؛ وكان زرياب قد وضع الأسس لأوّل معهد موسيقي ظهر في البلاد العربية. وكذلك، وضع زرياب قواعد فحص الأصوات، فكان يجلس التلميذ على مقعد عالي ويطلب إليه أن يصيح بكل ما في صدره قائلاً "آه" ممدودة على درجات السلم الموسيقي. ومن هذه التجربة يعرف درجة صوت التلميذ ودرجة حسنه. وهناك شيثان جوهریان نقلهما زرياب من المشرق هما: (1) طريقة تطبيق الإيقاع الغنائي على الإيقاع الشعري. (2) طريقة الغناء على أصول النوبة الغنائية، ونعتقد أنّ هاتين الطريقتين هما اللتان أوجحتا إلى الشعراء والمغنين الذين أتوا بعد زرياب، باختراع الموشحات. (راجع في ذلك، منجد دار الشروق، والأعلام للزركلي ص: 703، والموشحات الأندلسية "لفؤاد رجائي، المقال المنشور في المجلة العربية العدد الثالث 1396 - 1397 المملكة العربية السعودية).

خاضعة للتعريفات والتقنيات العلمية كتعريف أحمد التيفاشي القفصي¹ في القرن السابع الهجري، إذ ورد فيه: إنها تقوم من نشيد واستهلال وعمل ومحرك وموشحة وزجل، وجميعها يتصرف في كل بحر من البحور أي أدوار الأغاني العربية². يقول التيفاشي: "كان غناء أهل الأندلس في القديم إما بطريقة النصارى، وإما بطريقة حداة العرب، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن قامت الدولة الأموية، وكانت مدة الحكم الرّبيضي فوّقدّ عليه من المشرق ومن إفريقية التونسية من يُحسن صنعة التلاحين المدنية، وأخذ الناس عنهم، إلى أن وقّد الإمام المقدّم في هذا الشأن علي بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحاق الموصلبي على الأمير عبدالرحمن الأوسط، فجاء بما لم تعهده الأسماع، واتخذ السلطان طريقته ونُسي غيرها، إلى أن جاء ابن باجة (Avenpace) الإمام الأعظم، فاعتكف مدة سنين مع جوارٍ مُحسّناتٍ، فهذب الاستهلال والعمل، ومنج غناء النصارى بغناء المشرق، وابتدع الأجدلا بالأندلس، وقد مال إليها طبع أهلها ورفضوا ما سواها، ثم جاء بعده ابن جودي وابن الحمارة وغيرهما فزادوا ألحانه تهذيباً، وابتدعوا ما قدروا عليه من الألحان المطربة، وكان خاتمة هذه الصناعة أبو الحسن بن الخاسر

1 أورد له حسن حسني عبد الوهاب ترجمة ضافية في كتابه "ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الثاني، الناشر مكتبة المنار تونس، 1966، ص 448" قال: "هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج القيسي شرف الدين، وينتسب إلى (تيفاش) الكائنة الآن بشمال عمالة قسنطينة من القطر الجزائري، ومولده بففصة من مدائن البلاد التونسية سنة 580هـ/1184م. وقرأ بمسقط رأسه حيث استقر أجداده وآبأوه من زمان بعيد.... وكان والده يوسف قاضياً بمسكينة، وانتقل أحمد في صغره إلى العاصمة تونس وقرأ بجامع الزيتونة... ثم سافر إلى الديار المصرية ودرس بها، وتفتّن على موقف الدين عبد اللطيف البغدادي الطبيب الطائر الصيت، وتحوّل إلى دمشق وقرأ على تاج الدين الكندي؛ ثم رجع إلى بلاده مملوء الوطاب، فولّاه أبو زكرياء الأكبر أول ملوك بني حفص خطة القضاء ببلده ففصة، وبعد حين ترك الوظيفة وقصد المشرق... فدخل العراق وبلاد فارس، ثم عاد إلى مصر واستقرّ نهائياً بالقاهرة في حدود سنة 630 هـ واختلط بالطبقة العالية من الرؤساء وأعيان العلماء والأدباء... ومن أصدقائه في مصر: جلال الدين مكرم ابن منظور الإفريقي والد مصنّف "لسان العرب"... وتوفّي شرف الدين التيفاشي بعده بمدة... وألف التيفاشي مصنّفات عديدة لم يصل إلينا منها إلا النزر القليل وفي مقدمتها "فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب"... و"الشفاء في الطب... وآخر للموسيقى والرّقص عند الشعوب المعروفة في وقته وأسماء: "متعة الأسماع في علم السماع". و"أزهار الأفكار في جواهر الأحجار"; وتوفّي بالقاهرة سنة 651هـ/1253م ودفن بمقبرة باب النصر". وهو معاصر لصفي الدين الأرموي ونصر الدين الطوسي. هذا وقد اعتنى المستشرقون بكتب التيفاشي الموسوعية من قديم فنشره الهولاندي راو (S.F.Rau) مع ترجمة إلى اللاتينية في مدينة أترخت بهولاندة سنة 1818م وله ترجمة في مكتبة ليبسيخ بالمانيا. والتيفاشي هو السابق بين علماء العربية إلى وضع موسوعة ضخمة يبلغ عدد أجزاءها أربعين كتاباً، فسبق بذلك أصحاب المعلمات مثل علي بن سعيد الغرناطي، والثوري وابن فضل الله العمري وصلاح الدين الصفدي والقلقشاندلي وغيرهم.

2 الدكتور صالح المهدي، الموسيقى العربية تاريخها وأدبها، ص 95.

الموسيقي، فإنه أدرك فيها علما وعملا ما لم يدركه أحد، وله في الموسيقى كتاب كبير في جملة أسفار، وكل تلحين سُمع بالأندلس والمغرب في شعر متأخر فهو من صنعته... إلخ¹.

وعُرِّفَت النوبة في كتاب "جامع الألمان" لعبد القادر بن غيبي المتوفى سنة 1435 م بأنها إحدى الصور الفنيّة الغنائية التي كانت في عهده واسعة الانتشار.

وعرّفها "دون فردناندو بلدراما مرتينيت" المستشرق الإسباني بأنها قطعة موسيقية كاملة مؤلفة من عدّة ألحان ونغمات، وهي بذلك تبدو كأنها مجموعة من الأغاني المستقلّة عن بعضها البعض رغم كونها كلها تتعلّق بموضوع واحد، فضُمّت إلى بعضها ووصلت إلينا مجهولة المؤلف، مثلما نجد ذلك في الكنائس والكاتدرائيات نتيجة جهود وأجيال متعاقبة².

أما سميحة الخولي فتقول: "إن النوبة الأندلسية تقابل في مفهومها الوصلة المعروفة في الشرق، وهي تمثّل نظاما خاصا في تتابع المقطوعات الغنائية والموسيقية أصبح تقليدا يتوارثه أبناء المغرب العربي باحترام عظيم"³.

ويقول صالح المهدي في السّفر الثالث من التراث الموسيقي التونسي ضمن نوبة الذيل: "إنّ النوبة في اللغة هي النياحة، وقد استعملت دلالة على الدورة المعيّنة بحيث تقول: "جاءت نوبتك" لمن جاء دوره."

ويرى المستشرق السكتلندي "هنري جورج فارمير"⁴ أن النوبة هي أعلى صورة فنيّة للموسيقى العربية وتشكّل أهمّ طبقة في التأليف، وهي موسيقى مجالس، ويعلل ذلك

1 حسن حسني عبد الوهاب، ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار تونس 1966، القسم الثاني، ص 453.

2 عن محاضرة المستشرق المذكور ألقاها بتطوان سنة 1955 تحت عنوان كُنّاش الحايك.

3 عن مجلة عالم الفكر، المجلد 6، العدد 1، أبريل وماي 1975، الكويت، ص 20.

4 هنري جورج فارمر مستشرق انجليزي ولد سنة 1882 في مدينة برّ (Birr) (بارسن تاون) من أعمال إيرلندا، انصرف في مقتبل حياته إلى صناعة الموسيقى ثم دخل جامعة فلاسفو، وبقى بها تلميذا (1919 - 1921) فاتجه نحو الموسيقى العربية اتجاها دراسة على أيدي المستشرقين، وأتقن العربية والفارسية وأصبح عضوا في الجمعية الملكية الآسيوية (Royal Asiatic Society) وهي جمعية علمية (1930 - 1933) ورأس الوفد الإنجليزي إلى مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1932، وعيّن أستاذا محاضرا في الموسيقى في جامعة فلاسفو سنة 1934. وصنّف عدّة كتب في الموسيقى العربية، منها "تاريخ الموسيقى العربية، تعريب جرجيس فتح الله المحامي من منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان".

بإمكانية قيامهم بالحفلات في نوبات معينة من اليوم أو بكونهم يتناوبون في العزف. ولسنا نعارضه في ذلك خصوصا إذا ما استحضرننا مجالس الطرب بقصور غرناطة والحمراء وإشبيلية وغيرها.

وفي عصرنا الحالي لا تستعمل هذه الكلمة إلا في بلدان المغرب العربي كاصطلاح فني على نوع معين من الطرب يرجع أصله إلى التراث الأندلسي، وهي في جميع تلك البلدان عبارة عن مجموعة من القطع الغنائية والموسيقية ملحّنة على مقام (طبع) واحد وعلى أوزان مختلفة لا يتجاوز عددها الخمسة¹.

ترتيب النوبة الأندلسية في المغرب الأقصى :

توجد بالمغرب الأقصى إحدى عشرة نوبة، كلّ واحدة بها قسم آلي وقسم غنائي:

القسم الآلي: ويتكوّن من مقدمات تحتضن ثلاثة أصناف من الموسيقى الآلية:

(1)- المشالية:

وهي افتتاح يتم خلاله تحقيق الانسجام بين الآلات في عزف النوبة، وهي موسيقى مرتجلة، ثمّ وقع ضبطها في نوعين: مشالية كبرى ومشالية صغرى من تقنين محمد الفاسي.

(2)- البُغية:

وهي معزوفة آلية تستهل بها النوبة وتتألّف من فواصل النوبة التي تقدّم لها. ولكل نوبة بغيتها تحدد خصائصها المقامية وطبيعة تركيب ألحانها.

(3)- التوشية:

وهي معزوفة آلية موقّعة يسير إيقاعها في الغالب وفق ميزان البسيط .

وتلعب التوشية دورها في التعريف بالنوبة، وتتألّف من ثلاث تواشي: تواشي النوبات وتواشي الموازين وتواشي الصناعات².

1 عثمان الكعك، الشيخ أحمد الوافي، نشر المعهد الرشدي 1982. تحقيق صالح المهدي ص 50 الهامش.

2 عبد العزيز بن عبد الجليل، الموسيقى الأندلسية (فنون الأداء)، سلسلة عالم المعرفة العدد 129 محرم 1409 /أيلول 1988.

القسم الغنائي:

ويكوّن من خمسة أوزان بين الواحد والواحد مصرف، وهي: البسيط، قائم ونصف، البطايحي، القدام، الدرج.

ويمكن الإتيان بأكثر من قطعة واحدة في كل وزن على أن يقع الإسراع في آخر كل قطعة استعدادا للتي تليها ويسمى حينئذ المصرف.

ترتيب النوبة الأندلسية بالجزائر:

يحتوي رصيد النوبات في الجزائر على اثنتي عشرة نوبة كاملة وأربع نوبات ناقصة وسبع نوبات تُعرف بـ(النقلبات).

القسم الآلي : ويتكوّن من أربعة أجزاء: مشالية وتواشي ثلاث: توشية، وتوشية الانصراف وتوشية الكمال، نوردها بالترتيب في أماكنها:

(1)- المشالية:

وتسمى أيضا تقعيدة أو مستخبر الصنعة، وهي عبارة عن معزوفة بدون إيقاع ينبّه بها المستمع إلى الطبع الذي سيُغنى، ويراقب فيها العازفون آلاتهم. وقديما كان يُعزف قبلها فاصل موسيقي غنائي (صوتي) بدون إيقاع يسمّى (الدائرة) يقع فيه ترديد كلمة (يا لالتي) بإيقاع حر تؤديها المجموعة قصد تهيئة أصواتها للغناء مركزة على أهم خاصيات الطبع. واضمحلت الآن هذه الطريقة ولم يبق منها إلا اثنتان (نوبة الذيل ونوبة الغريب).

(2)- التوشية: وهي فاصل موسيقي على الآلة موزون بميزان البسيط أو بشراف.

القسم الغنائي: ويتكوّن: من المصدر، ثم البطايحية، ثم الأدرج، ثم تعزف الفرقة:

(3)- توشية الانصراف: وهي عبارة عن فاصل آلي يتوسّط النوبة، إيقاعه من نوع الأعرج 8/5. ويرجع بعده إلى غناء الانصراف، ثم المخلص. وأخيرا تأتي:

(4)- توشية الكمال: وهي قطعة آلية تختتم بها النوبة. لم يبق منها حاليا سوى مثال

واحد بتلمسان، وهي توشية الكمال من نوبة الحسين!

ملاحظة: في القسم الغنائي للنوبة الجزائرية توجد معزوفة إيقاعية تسمى كرسى تقابل الفارغة في النوبة التونسية وتسبق المصدّرات والبطايجية والأدراج والانصرافات.

ترتيب النوبة في ليبيا: وتركب النوبة في ليبيا من مصدرّ أول ومصدرّ ثان، ومركز أول ومركز ثان، وبرول أول وبرول ثان، وخفيف وختم. وهي كلها وزن واحد يتغيّر اسمه كلما تغيّرت سرعته.

ملاحظة: تبنّت فرق العيساوية بليبيا النوبات الأندلسية وعثت بها مالوف الجدد، ولم يبق من المالوف لديهم إلا هذه الإيقاعات المذكورة آنفا.

النوبة التونسية: تنقسم النوبة التونسية إلى قسمين اثنين قسم آلي وقسم غنائي:

القسم الآلي: ويتكوّن من استفتاح (مصدرّ وطوق وسلسلة) وتوشية.

1- الاستفتاح: على إيقاع 4/2، وهو معزوفة موسيقية يعزفها كآفة أفراد الفرقة المصاحبة، وكانت في القديم عبارة عن هيكل موسيقي يرتجل عليه أحد العازفين ويتبعه بقية أفراد الفرقة، واضمحلت هذه الطريقة ولم يبق سوى ما ضُبط عند تأسيس الجمعية الرشيدية سنة 1934م².

2- المصدرّ: يتركّب من ثلاثة أوزان تسير من البطء إلى السرعة وهي: المصدرّ على إيقاع 4/6 ثم الطوق على إيقاع 4/3 ثم السلسلة على إيقاع 8/3.

القسم الغنائي: وينطلق بعزف قطعة موسيقية تسمى دخول الأبيات، وهي ذات إيقاعين وهما: البرول على إيقاع 4/2، والبطايجي على إيقاع 4/4. إثرها يشرع شيخ المنشدين في ارتجال غناء لبيتين من البحر الطويل في الغالب، ثم تأتي الفارغة وهي

1 جلول للس والحفناوي أمقران، الموشحات والأزجال الجزائرية، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، الجزء الأول.

2 الجمعية الرشيدية هي جمعية موسيقية تأسست سنة 1934 م وأخذت اسم محمد الرشيد بن حسين بن علي باي ثالث أمراء البيت الحسيني من ملوك تونس، مولود في 1710م وتوفي في 1759، وإليه يرجع الفضل في ترتيب نوبات المالوف التونسية على غرار الفواصل الموسيقي التركي، حيث ألف الفواصل الموسيقية التي تقع بين أجزاء النوبة ووضع المصدّرات والتوشيات. وأتم أميره محمد الأصرم تقنين الموسيقى التراثية وتنظيمها وضبطها بعده.

معزوفة موسيقية تسمى دخول البطايحية على إيقاع 4/2، وهي شبيهة في تركيبها بدخول الأبيات، يأتي بعد ذلك مباشرة دور المجموعة الصوتية في غناء بطايحي أو أكثر، وتُعزف فارغة البطايحي بين البطايحي والآخر.

(3) - التوشية: جرت العادة بأن تكون توشية النوبة خارجة عن مقامها وتابعة لمقام النوبة الموالية في الترتيب إشارة للجمهور إلى نوبة الحفل القادم.

عند الانتهاء، إذن، من غناء البطايحية تعزف الفرقة التوشية وهي معزوفة موسيقية تبدأ على وزن البرول إيقاع 4/2، ثم يرتجل أحد العازفين المهرة جملاً موسيقية على نفس الوزن، ثم تعود الفرقة وتدخل بعد ذلك في الجزء المؤلف على وزن البطايحي إيقاع 4/4. وعند الانتهاء منه يرتجل عازف العود استخباراً يتجول به في عدة طبوع ويخرج منها أحياناً إلى السواكت وهي موسيقى بعض الأغاني الشعبية، ويرتجل أحد الأصوات الحسنة أحياناً أبياتاً من الشعر الفصيح.

البراول: (جمع برول) ثم تعود الفرقة إلى عناصر النوبة لتغني البراول، وهي مجموعة من الموشحات أو الأزجال الأندلسية على وزن البرول المعروف بسرعته فيتم غناء برول أو أكثر.

الأدراج: (جمع: درج) بعد الانتهاء من غناء البراول، تدخل الفرقة الموسيقية في عزف لازمة الدرج، يأتي بعدها غناء درج أو أكثر على إيقاع 4/6.

الخفايف: (جمع خفيف) عند الانتهاء، تعزف الفرقة الموسيقية لازمة الخفايف (فارغة الخفيف) يعقبها غناء أحد الخفائف أو أكثر على إيقاع 4/6.

الأختام: وأخيراً تغني المجموعة ختماً أو أكثر على إيقاع 8/6، والختم يقابله الخلاص أو المخلص في الجزائر والقدام في المملكة المغربية، وكلماته تتناول في الغالب توحيد الله سبحانه وتعالى.

ترتيب النوبات في المألوف التونسي: وتترتب النوبات التونسية ترتيباً بطريقتي مخصوصة يلتزم الموسيقيون فيها تقديم نوبة الذيل أولاً (1) وفي اليوم الموالي يأتي دور نوبة العراق (2) وفي الذي يليه نوبة السيكاه (3) ثم الحسين (4) فالرصد (5) فرمل

المائة (6) ثم النوى (7) فالأصبعين (8) فراست الذيل (9) ثم الرمل (10) فالإصبعان (11) ثم المزموم (12) وأخيرا نوبة المائة (13). وقد جُمع ترتيب هذه النوبات في زجل تابع لنوبة النوى (دخول براول) فيما يلي نظمه:

يُجْرِّزُ الرِّبَابَ زُهَاوِي	بِالدَّيْلِ قَلْبِي كَاوِي
أَمَّا الْعِرَاقِ يُسَاوِي	سِيكِهِ مَعَ الْحَسِينِي
الرَّصْدُ وَرَمْلِ الْمَايَةِ	أَمَّا النَّوَى فِي غَايَةِ
الإِصْبَعَيْنِ ذَوَايَا	رَأَسْتِ الدَّيْلُ يَحْيِينِي
الرَّمْلُ حِينَ تُنْعَمُ	عَ الْأَصْبُهَانَ يَسْلَمُ
مَزْمُومٌ بِيَهُ نُتَمِّمُ	مَايَهُ فِي الْفَضْلِينِ

واخترعوا لكل نوبة أبياتا للتعريف بها:

فلنوبة الذيل [توشيح الرجز]

مِلْ فِي الْهُوَى مَيْلًا	فِي ظِلِّهِ الْمَمْدُودُ
أَمَّا تَرَى اللَّيْلَ	لِوَاوُهُ مَعْقُودُ
فَمُ جَرِّدِ الدَّيْلَ	عَلَى اسْتِمَاعِ الْعُودُ

ونوبة العراق [البحر الطويل]

أَلَا بِعِرَاقِ الْعُرْبِ يَا خَيْرَ مُنْشِدِ	بِحَقِّ الْهُوَى كُنْ لِي مُحْيِيًا وَمُنْشِدَا
فَدَيْتِكَ عَلَّانِي، أُرِيحُ مِنَ الْهُوَى	وَأَنْسُ غَرِيبًا لَمْ تَزَلْ لَهُ مُرْشِدَا

ونوبة السيكاه [البحر الطويل]

إِذَا مَا شَدَا شَادِ بِسِيكَةِ لِحْنُهُ	تَحْنُنْ لَهُ أَرْوَاحُ كُلِّ مُهَدَّبِ
فَنَعَمْتُهُ الْحَسَنَاءُ تُنْعِشُ مَنْ شَدَا	بِذِكْرِ النَّبِيِّ الْهَادِي الْحَبِيبِ الْمُقَرَّبِ

ونوبة الحسين [البحر الطويل]

أَيَا مَنْ حَكَى دَاوُودَ صَوْتًا وَيُوسُفَا جَمَالًا وَلُقْمَانَ الْحَكِيمَ بِحِكْمَتِهِ
سَلَبْتُ الْحَشَايَا بِالْحُسَيْنِ وَرِذَّتَنِي بِتَرْجِيْعِهِ شَوْقًا إِلَى حُسْنِ نَعْمَتِهِ

ونوبة الرصد [البحر الطويل]

أَيَا مُطْرِبًا بِالرَّصْدِ يَا مَنْ لَهُ صَبَا فُؤَادِي وَفِي قَلْبِي نَوَى قَدْ تَرْتَمَا
فَدَيْتُكَ إِذْ أَطْرَبْتَنِي بِنِغَامِهِ وَخَلَّفْتَنِي صَبًّا كَثِيْبًا مُتِيْمًا

ونوبة رمل المائة [البحر الطويل]

أَلَا عَنِّي يَا مُنْشِدِي رَمَلْ مَائِيَةً وَأَطْرِبْ عُقُولَ الْجَالِسِينَ ذَوِي الْفَضْلِ
وَدَعْ عَنكَ شُرْبَ الرَّاحِ وَاصْغِ لِلْحَنِهِ فَتَنْعَمْتَهُ تَحْكِي السُّلَاقَةَ فِي الْعَقْلِ

ونوبة النوى [البحر الطويل]

إِذَا سَعِدَتْ أَحْبَابُنَا وَشَقِينَا صَبْرْنَا عَلَى حُكْمِ الْهَوَى وَرَضِينَا
وَإِنْ جَيْشَ الْأَحْبَابِ جَيْشًا مِنَ النَّوَى بَنَيْنَا مِنَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ حُصُونَا

ونوبة الأصبعين (وهو في الجزائر: الزيدان، وفي المغرب: الحجاز الكبير) [من البحر الوافر]

أَلَا رَجَّعَ بِرَيْدَانٍ إِذَا مَا سَمِعْتَ، أَصَاحِ! أَصَوَاتِ الْحِسَانِ
وَدِرْ صِرْفَ الْمُدَامَةِ وَاسْقِنِيهَا فَيَمْنًا مَا لَهُ فِي الْحُسْنِ ثَانِي

ومن [البحر الخفيف]

اسْقِنِي نَحْمَةَ الدَّانِ فَإِنِّي فِي هَوَاهَا فَنِيْتُ.. صَاعَ شَبَابِي
وَأَنْشِدُنْ بِالْحِجَازِ يَا صَاحِ جَهْرًا فَغَرَامُهُ قَدْ أَطَالَ عَذَابِي

ونوبة راست الذيل [من البحر الطويل]

إِذَا كُنْتُ ذَا عَشْقٍ وَوَجِدٍ وَرِقَّةٍ عَلَيَّكَ بِرِصْدِ الذَّيْلِ كُنْ بِهِ مُنْشِدَا

فَنَعَمَتْهُ نُحْيِي الثُّفُوسَ وَتَشْتَفِي الصُّدُورَ وَتُضْفِي الْقُلُوبَ مِنَ الصَّدَا

ونوبة الإصبهان [من البحر الطويل]

أَيَا مَنْ إِذَا مَا رَنَّ هَمْتُ صَابَابَةً وَهَيَّجَ وَجْدِي وَاشْتِيَاقِي وَلَوْعَتِي
لَقَدْ هُلَّتْنِي بِالْأَصْبَهَانَ الَّذِي بِهِ شَدَّتْ حُورُ عَيْنِي فِي الْجَنَانِ وَرَنَّتِ

ونوبة المزموم [من البحر الطويل]

أَيَا مُنْشِدِي الْمَزْمُومَ لَا خَانَكَ الدَّهْرُ وَلَا حَامَ مَا تَحْمِيهِ عُسْرٌ وَلَا صَبْرٌ
وَلَا زِلْتِ فِي عِرْزٍ عَظِيمٍ وَرِفْعَةٍ يَعْمُّهَا التَّأْيِيدُ وَالْفَتْحُ وَالنَّصْرُ

ونوبة المائة [من البحر الطويل]

إِذَا أَصْفَرَ قُرْصَ الشَّمْسِ حِينَ فِرَاقِهَا فَكُنْ مُنْشِدًا لِلْمَايَةِ يَا أَخَا الْعَرَبِ
وَبَادِرٍ بِإِحْسَاءِ الْكُؤُوسِ وَنَزْهَنٍ عَيْوَنِكَ فِي تَوْبِ الْأَصِيلِ الْمُذْهَبِ

الفرق بين النوبة الأندلسية والموشحات الأندلسية: إننا عندما نتحدث في المغرب العربي عن الموسيقى الأندلسية، إنما نعني النوبات الأندلسية التي تتضمن وحدة الطبع مع الموازين الخاصة لكل بلد، ولا ندخل الموشحات في المفهوم المحلي لهذا اللون من الموسيقى، أما الموشحات الموسيقية الحديثة التي نظمها بعض الملحنين في المشرق والمغرب نعتقد أنها صنعت ولا تزال تُصنع على منوال ما يسمى بالموشحات الأندلسية المنتشرة في المشرق العربي. وهناك الكثير من رجال الموسيقى الأندلسية في المغرب العربي رفضوا هذا السؤال من أساسه في ندوة مكناس المغربية التي انعقدت في 23 ديسمبر 1977، وذلك لأنهم يُنكرون أن يمت الموشح الشرقي إلى الموسيقى الأندلسية بأي صلة، ويعتبرون تسميته ذاتها خطأ إن لم تكن تحاملا على هذه الموسيقى، وحثتهم في هذا خلو الموشح الشرقي من الخصائص اللحنية والإيقاعية التي تحدد طبع وموازين النوبات الأندلسية.

وقد فقد مالوف تونس أيضا الكثير من الخصائص اللحنية والإيقاعية للموسيقى الأندلسية منذ أن تسربت إليه بعض التغييرات تحت تأثير الموسيقى التركية، ومع ذلك فليس لأحد أن يُنكر صلته بالموسيقى الأندلسية الأصيلة. يقول الدكتور صالح المهدي:

"المالوف ليس بأندلسي خالص ولكنه لون من الموسيقى الأندلسية جلبه اللاجئون الأندلسيون معهم خاصة في هجرتهم الكبرى في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد، فانتشر في الحواضر التونسية، فتلقاها التونسيون بالحفظ والتهديب والتغيير، وألّفوا ولحنوا على غراره، ولو تعمق الباحثون في أصول فنّ المالوف لأدركوا أنّه يكاد يُصبح تونسيًا خالصا بما أدخل عليه الفنانون التونسيون من تغييرات وتجديد في كلماته وألحانه."

تأثر الموسيقى الصوفية بالنوبات أو المالوف: عندما قدمت الألحان الأندلسية إلى تونس، سرت سريان الدم في شرايين الطبقات الشعبية بفضل أوزانها وقرب لغتها من اللهجة الدارجة، فعلقت بالنفوس، والتصقت بالأذهان، فحُفظت كلماتها، وترددت ألحانها في البيوت والأسواق ومحلات الصناعة، ولم يقف انسيابها عند ذلك الحد، بل عمدت إلى الطرق الصوفية فصارت ألحانها تنشد في محافل الذكر والمناسبات الدينية، ويترنم بأنغامها الشعبية بغيّة التواجد، وقد وُضعت على إيقاعها كلمات موزونة في مدائح الأولياء والصالحين، وبهذه الطريقة غزا المالوف الطرق الصوفية كالعيساوية والقادرية والعوامرية والعزّوزية والعروسية، وغيرها من الطرق التي نشطت في القرون الميلادية السابع والثامن والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومازال بعضها ناشطا إلى الآن.

ويبدأ عمل هذه الفرق كما نعرف بقراءة فاتحة الكتاب، ثم يتلون تلاوات خاصة بهم، ثم بعد الذكر والتوسّل ينتقلون إلى أشعار صوفية كأشعار ابن الفارض والبوصيري وابن مرزوق، ويأخذون في إنشاد بعض الشيء من نوبات المالوف موقّعة بالنغرات والرق والدربوكة والبندير لضبط الإيقاع، ثم يأتي الإنشاد الخاص.

تأثر الموسيقى الصوفية بالتراث الشعبي: بالإضافة إلى ما ذكرنا من تأثير الطرق الصوفية بالنوبات الأندلسية، نلاحظ أنّ هذه الطرق، لما لها من احتكاك وثيق بالجماهير فتؤثر فيها وتتأثر بها، فإن هذا التأثير يسري إلى الموسيقى، ولذلك نجد الرقائق والصنائع في الطرق الصوفية، كما نلاحظ أنّ الكثير من المدائح ملحن على نمط الأغاني الفولكلورية (التراثية). والأغنية التراثية لا تعتمد في ألحانها على الطالع ثم البيت وإنما هي إعادة للحن الواحد من البداية إلى النهاية، فهو من نوع (الميلوديا) (Mélodie) يعاد لحن البيت

الواحد في كامل الأغنية ولا تكون لها خرجة في آخرها ما عدا ما نلاحظه من تسارع الوزن. وتلحن المدحات في هذا القالب الفولكلوري بالخصوص في النوبات التي تتغنى بالأولياء والصالحين.

والفولكلور كما صدر تعريفه في وثيقة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) الصادر عن اجتماع لجنة الخبراء الحكوميين الثانية المختصة بصون الفولكلور، المنعقد في دار اليونسكو للفترة 14 - 18 يناير/كانون الثاني 1985: هو: "الفولكلور (بالمعنى الواسع للثقافة التقليدية والشعبية) هو إبداع نابع من جماعة، وقائم على التقاليد تعبر عنه جماعة أو أفراد معترف بأنهم يصورون تطلعات المجتمع، وذلك بوصفه تعبيراً عن الذاتيّة الثقافية والاجتماعية لذلك المجتمع وتتناقل معانيه وقيمه شفهيّاً أو عن طريق المحاكاة أو بغير ذلك من الطرق. وتضمّ أشكاله فيما تضمّ، اللغة والأدب والموسيقى والرقص والألعاب والأساطير والطقوس والعادات والحرف والعمارة وغير ذلك من الفنون".¹

الفولكلور هو مجموعة التقاليد والأساطير والأغاني والممارسات الشعبية لبلد ما، هذا ما نجد في القاموس. وأول من اخترع هذا الاسم (الفولكلور) هو الألماني "يوهان جوتفريد فون هردر" (1744 - 1804م) عندما استعمل اصطلاح (فولكسليد) وهي كلمة ألمانية مركبة من كلمة (فولكس) الشعب وكلمة (ليد) أغنية، حين قام بدراسة الأغنية الشعبية بوطنه. ثم أصبحت الكلمة (فولكلور) على يد الباحث الإنفليزي "وليام جون تومز" الذي استعمل هذا الاصطلاح سنة 1846م وهو مركب من كلمة (فولك) وهي نفسها كلمة (فولكس) الألمانية وتعني الشعب، أمّا كلمة (لور) الإنفليزية فهي متعددة المعاني: علم، حكمة، معرفة تقليدية، معرفة مكتسبة عن طريق الدرس أو الخبرة، ومعتقد تقليدي، مجموعة من المعارف والتقاليد إلخ²...

وهكذا نفهم دخول النمط الشعبي في الإنشاد الصوفي، ذلك أنّ شيخ الطريقة

1 مقال بعنوان (اليونسكو وصون الفولكلور) صادر بمجلة الموسيقى العربية (جامعة الدول العربية) وهي مجلة تعنى بالموسيقى العدد 5 أكتوبر/تشرين الأول 1985، ص 62.
2 طارق حسون فريد، التراث الموسيقي والموروث الموسيقي، مجلة المأثورات الشعبية السنة الأولى العدد الرابع أكتوبر 1986 عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي: الدوحة - قطر، ص 49.

ومريديه ومحببيه يسعون لإكتساب حبّ الناس وميل العامّة والخاصّة إلى طرقهم رجاء إدخالهم في ملكوتهم ومسّهم بالرحمات المتوفرة في طريقتهم، ولذلك تجدهم يجتهدون في استعمال كلّ ما يمكنهم من تحقيق هذا الهدف، فهم يستعملون كل ما تعلقت به قلوب الناس وميوههم ومن بين ذلك الموسيقى نفسها ونوباتها وفنونها من تراثها وموروثها ومحدثها، باعتبار ما للموسيقى من تأثير على النفس وبذلك يمكن إشباع الأذن بالذكر والمدائح عوض الخلاعة والمجون. وقد نجحوا في ذلك بقدر ما. وسنجد في أثناء دراستنا للموسيقى الطرقية الكثير مما ذكرناه من نوبات وترتيب الأوزان والطبوع ما يجعلنا نعتقد أن الطرق الصوفية تمثّل فعلا مالوف الجّد في مقابل مالوف الطرب. ولا نعجب إن رأينا ابتكارات موسيقية لدى الصوفيين مما وعوه أو فعلوه.

اتخذت سهرة الإنشاد في تونس نظاما يشبه في هيكله نظام النوبة فقد ذكر لطفي المراهي في كتابه "الإنشاد الديني في العالم الإسلامي"¹ أن هنالك ترتيبا مخصوصا فيقسمها إلى ثلاثة أجزاء، فالجزء الأول للفاتحة والمولدية وتعطيرة، والجزء الثاني سلامية فينشد سلسلة الفزوع وبجر وشطحة وختم ثم عروبيات في مدح الأولياء، والجزء الثالث يفسح فيه المجال للقطع أو ما يسمى الصنايع وتنتهي السهرة بتصليات وكانت فرقة محمود عزيز تحافظ على هذا النسق.

1 لطفي المراهي، الإنشاد الديني في العالم الإسلامي، طبع أضواء للإشهار ص145.

التداوي بالموسيقى

بعد أن فقدت جلّ الطرق الصوفية فيضها الديني العقائدي ولم يبق فيها إلا هذا التراث الموسيقي، لا يمكننا إلا أن نتساءل، ما هو الشيء الذي ما زال يجلب فئات عديدة من الناس إلى هذه الطرق؟ وما الذي بقي منها حتى يبلغ هذه الأهمية الكبيرة التي تجذب الناس إليها؟ لماذا نرى العديد ممن بلغوا درجات من الثقافة العالية، والمعرفة العلمية العصرية يذهبون إلى الحضرات الصوفية، ويشاركون فيها بالإنشاد والرقص وقد يبذلون عليها وفيها بسخاء لا يُظهرون نظيرا له في مواقف حياتية أخرى؟ بل ما هي العلاقة بين فلان وبين نوبته التي يتأثر بها دون النوبات الأخرى؟ ولماذا نرى بعض الشيوخ الذين أثقلتهم السنون، يخفون بعد فترة من الاستماع وينطلقون في رقص عنيف لا يقوى عليه غير الشباب؟ هل يجرنا ذلك إلى ما قاله سابقا إخوان الصفا، وما تحاول بعض التجارب الطبية فيما يسمى (التداوي بالموسيقى: Musicothérapie) ؟

والتداوي بالموسيقى ليس شيئا غريبا عن الحضارة التونسية، وكان الأطباء يعرفون قيمة الموسيقى في تهدئة الأعصاب أو إثارتها، ومن أجل ذلك قامت الأميرة عزيزة عثمانة بتوقيف ريع كبير للإنفاق على مطربين كانوا يعزفون بمارستانها، فقد ذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتابه "ورقات": " فمن أوقاف الأميرة عزيزة عثمانة على هذه الدار [دار

1 حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، الناشر مكتبة المنار، تونس، 1966، القسم الثاني، ص 239.

الدرراوئش وهي المارستان الذي أحدثته بجومة العزّافين بتونس العاصمة] ريع معتبر يعرف بـ"حبس العود والرباب" رتّبته رحمها الله لجرّاية مطربين ماهرين بالآلات المشار إليها [وأهمها الأرثنو Organo] يقومون صباح كلّ يوم بدارالدرراوئش بعزف نوبة من الموسيقى المألوفة مدّة ساعتين، ترويضاً ولؤلؤك المصابين وتهديّة لأعصابهم المضطربة. ولا يخفى أن الطبّ العصري أثبت أنّ من أنجع الطرق لمعالجة المصابين بأعصابهم هي الألحان الموسيقية وما الفضل إلّا للمتقدّم.

يمكننا أن نستخلص، بعد هذه الدراسة، أنّ الجاذب الرئيسي المؤثر على التّاس هو الإيقاع في كامل هذه الطرق، وقد حاول القدامى الحفاظ على هذه الخاصية فلم يكن الاهتمام بالمحمل الذي ينقل هذا الإيقاع، وكان في المألوف مثلاً كلام بسيط، كما لم يكن الكلام في الطرق الصوفية كلاماً موزوناً على الطريقة العروضية أو حتى الموازين الشعرية في الأدب الشعبي، رغم معانيه العميقة ومراميه البعيدة في بعض الأحيان، وإتّما الكلمات تحمل ذكرى الألحان والإيقاعات عندما يحفظها الجيل الصاعد عن الجيل الذي قبله، وهكذا كان لا مناص من الرواية الشفوية، والأخذ عن الشيخ وتصحيح الأخذ عنه.

وتتداخل الروايات، فينسج الراوي على منوال شيخه الأبيات التي نسيها، أو يتخترع أبياتاً تتماشى مع الحال على نفس المنوال، فإن كان علم العروض محملاً قليل الجدوى في الحفاظ على الألحان، قبل اختراع النوتة، رغم أنّه كان طريقة ذكيّة جدّاً في الحفاظ على الإيقاع لما ينسج على منواله، إلّا أنّ دوائر الإيقاع الموسيقي المعزوفة على الآلات يمكن توارثها أباً عن جدّ كتوارث النوبات والطبوع، وعن طريقها توارث نفس التأثير في النفس، ذلك أن الإيقاع في آخر الأمر هو روح الأشياء كما صرّح به الشاعر الإفريقي الكبير "ليوبولد سيدار سنفور"، فقال في معرض حديثه عن الصورة :

Mais l'image n'exprime pas la réalité essentielle, la sous-réalité; elle ne parle pas à notre imagination et à notre coeur, elle ne provoque pas l'émotion (qui est l'accession à un état supérieur de connaissance... Elle est connaissance intégrale, car le sujet ému et l'objet émouvant sont unis dans une synthèse indissoluble.)
l'ébranlement de notre être, si elle n'est pas rythmée. Le rythme est consubstantiel

à l'image...La vérité poétique s'identifie, ici, à la vérité scientifique, pour qui l'être de l'être est énergie, c'est à dire rythme. Comme je le disais, le rythme, c'est l'architecture de l'être, le dynamisme interne qui lui donne forme, le système d'ondes qu'il émet à l'adresse des autres, l'expression pure de la force vitale. Le rythme, c'est le choc vibratoire, la force qui, à travers les sens, vous saisit à la racine de l'être¹.

" فالصورة الشعرية لا تعبر عن حقيقة الواقع الأدنى، فهي لا تخاطب خيالنا ولا قلوبنا ولا تحرك إحساسنا (الذي هو الدخول في وضع أرقى من المعرفة ... إته المعرفة الأصيلة، لأن الشخص المتأثر والشيء المؤثر اتحدا في تركيبة لا تقبل التفكيك) ولا تززع كياننا إن لم تكن موزونة، فالإيقاع توأم الصورة فلا تولد إلا معه وهنا تتحد الحقيقة الشعرية بالحقيقة العلمية التي تعتبر أن كيان الوجود هو الطاقة، أي الإيقاع. وكما سبق أن قلت فإن الإيقاع هو معمار الوجود والفعالية الداخلية التي تعطيه شكلا، ونظام الذبذبات التي يرسلها للآخرين هي التعبير الصافي لقوة الحياة، فالإيقاع هو تلك الرجة المتواترة، تلك القوة التي تأخذك عن طريق الحواس إلى جذور الوجود."

وهكذا نتأكد أن دنيانا هي دنيا الإيقاع، وأن الصورة لا يمكن أن توجد إلا مع الإيقاع ولا يمكن أن تبرز للوجود بدونه. وأنتم تلاحظون جيّدا كيف نتفاعل مع رقصات الصينيين والهنود مثلا ونحن لا نفهم كلامهم، في الحال أننا قد لا نتفاعل مع كلمات أغنية عربية لأنها بلهجة غير لهجتنا أو لم نتعود عليها.

وفي آخر الأمر لسنا نفهم كيف تستقيم الموسيقى بدون ذلك الضابط الإيقاعي الذي يسمو بالوجدان والروح إلى أعلى درجات الجذب والسمو والانسلاخ عن المادّة حتّى لكان الإيقاع أصبح مخدرا للأعصاب فتصبح طيّعة في كفّ الروح وتنسجم الأشياء مع بعضها البعض، وينهار سلّم المفاضلات ليربز التكامل والتناغم الوجودي تعبيرا عن الانتماء لهذا الكون والانصهار فيه والتوق إلى غايته الأخيرة والانجذاب الكلي إلى الغاية الكلية للوجود. وتلك لعمرى حالة الخمرة في شطحات الصوفية؛ فليست الصور الشعرية أو الكلمات هي التي فعلت فعل السحر فيهم، بقدر ما سحرهم إيقاع

1 Michel HUET, *Afrique Africaine*, Suisse, p.10.

البنديز، ودقّ الدفوف، أو الإيقاع الباطني فارتحل بهم إلى هذه العوالم التي تسمو على مقاييس المفاضلات المادّية في الحياة العادية، لذلك ليس من العجيب أن نجد في بعض الطرق من يداوي الصرعى وبعض الأمراض العصبية والنفسية بالرقص والإيقاع، بل ربّما لا نعجب من شيخ فان قد أثقلته السنون وضعفت حركته، كيف يتجاوز ضعفه ذاك وتأتيه قوّة من حيث لا ندري، فإذا به يخفّ طربا ويقوم للرقص كأنّه شابّ في ريعان شبابه.

يقول محمد العياشي في كتابه " نظرية إيقاع الشعر العربي ": "ولعلّ من أعظم مزايا الإيقاع وفوائده ماله من الأثر في معالجة الأمراض وتسكين الأوجاع وتصحيح الأبدان ومعالجتها بالشفاء لتمتّع بالعافية وتنعم بلذّة الحياة. واعلم أنّي لا أبالغ إذا قلت هذا، وسيحين الوقت الذي يعترف فيه العلم رسميا بما للإيقاع من التأثير والمفعول في ميدان الطب والتمريض، ومعالجة الأمراض بالإيقاع أمر قديم عريق في القدم عمدت إليه الشعوب البدائية وأحرزت فيه نتائج باهرة هي التي أقرته دعامة من أقوى دعائم الطبّ. وما تزال بعض الأقوام تعمل به إلى اليوم كالشامان المقيمين في بعض مناطق سيبيريا والذين هم قوم من السحرة يعالجون الأمراض بالإيقاع ويحققون في ذلك من النتائج ما يبعث على التّعجب والاندعاش".

ولنا أن نتساءل: لماذا يتدرّج العازفون في الطرق الصوفية من الأوزان الثقيلة إلى الأوزان الخفيفة، ومن الأطرائف الباردة إلى الأطرائف الساخنة، كما يتدرّج شيخ الإنشاد من مقام إلى آخر في الارتفاع حتّى يصل بالمنشدين إلى طبقة حادّة؟ هذا الارتفاع من الأدنى إلى الأعلى هو الذي يجرّ العاطفة إلى التسامي والوجد والدّوبان في نشوة الروح، وذلك ما صرّح به الغوث عبد السلام الأسمر حين قال: "عندما أسمعها تأخذني عاطفة جياشة وانفعال عظيم يجبرني على مفارقة الجماعة والذهاب إلى البستان المجاور فأتمشي لعدّة ساعات في فتنه وجذب صوفي لا يوصف. في السابق كنت فقيها ولم يكن لي أي ميل لهذه الأشعار ولا ما يغذّي روحها ولكن بمجرد أن بيّن لي شيخي الدوكالي مزاياها حتى وجدت نفسي في حالة فوق عادية وعرفت جمال النشوة وأصبح ميلي للطار ولأشعار الدينوري بلا حدود...".

وفعلا فإن العديد من القبائل الإفريقية تتعامل مع الأمر بكل هذه الأريحية مع ما يضيفه الرقص من عوالم سحرية تحرك كوامن النفس وتستجلي بواطن الكيان وتستخرج مدّخرات القوّة والطاقة الكامنة فيه لتتفاعل مع الحدث وتؤثر في الحاضر، وينصهر الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله في اللحظة. إنّه نوع من التعامل مع اللاوعي أو ما وراء الوعي في النفس الإنسانية. فما هو السرّ في الإيقاع؟.

إن هذا الإيقاع النفسي وتأثيره على المشاعر الإنسانية هو حقيقة الشعر وحقيقة التعبير، لأن الإنسان لا يخلو من أن يكون ذا موقف أمام الصور التي تتراءى له أو الواقع الذي يعيشه، وهذا الموقف انفعاليّ في الأصل، ولكي تصل هذه الصور إلى أغوار الإنسان وتتجاوز مجرّد وعيه يجب أن تتخذ شكل الإشعار العصبي، أي شكل الذبذبة الكهربائية، وكل ذبذبة إيقاع، فتتخذ هذه الانفعالات أوانا ما وصفها "سنغور" بالإيقاع لأنها في الواقع تتركب من الكلمات التي هي أصوات، ولهذا الأصوات جرس يقع من النفس موقع القبول أو النفور، وكذلك للمعاني جرس يقع بنفس الطريقة من النفس الإنسانية، فهي نوع من رقص النحل الراقى أو الذي بلغ درجة كبيرة من التجريد. هذا الإيقاع الذي هو في علم الأصوات ذبذبة يقع من الحواس موقعا سحريا يقودها إلى أعماق النفس الإنسانية، وتلك المجهل هي منهل الشاعر.

وعندما نصل إلى التحليل المادّي نجد أنّ الإيقاع هو وحدات زمنية مختلفة الأطول والامتداد تتكرر بنفس الطريقة فتحدث انسجاما، يقع من الأذن موقع القبول، فيحرك الجسم للرقص ويسرح الخيال من ربة المنطق والواقع إلى دنيا الخيال والأحلام، ويدخل المرء بها مرحلة الجذب، فينطلق أولا بالبهت ونوع من الدّهول ثم يرتقي إلى الانفعال وتوتر الأعصاب ثم التشنّج والتأهب إلى الانسجام مع الوحدة الوزنية بالاهتزاز الرفيق، ثم يدخل الإنسان في حال الانتشاء مما يجعله قابلا للأشياء بنوع من السمو والتسامح والانسجام مع مكّونات الموقع، ثم ينتقل إلى الغيبوبة الذهنية والاندماج الكامل في مختلف مكّونات الكون، فينصهر انصهارا في المسيرة الوجودية بعد أن كان يراقبها بالعقل كمن يراقبها من وراء ستار سميك من الزجاج.

هذه الخمرة تبرز كوامن الطاقات المخزونة في الجسم لوقت الحاجة، لذلك فإن المصاب بانكماش العضلات أو تقلص الأعصاب عندما يُشَلّ عن الحركة مثلا، يتم

تهييج الكوامن بواسطة الإيقاع فيسرى تيار ذلك في الأعضاء المرثخية أو العضلات المنكمشة فيطلقها فيقوم ذلك الأشل وينطلق كأنه صحيح معافي. ويلاحظ ذلك في طريقة العوامرية مثلا، أو في الطرق الزنجية كبنفة سيدي سعد. أو أن يصيب الإنسان انقباض نفسي وكبت للعواطف وتقليل لإمكانيات التنفيس فيطفو على الكيان حالة مرضية، فإذا حضر بعض هذه الحضرات ينطلق ذلك الانقباض إلى الانسراح، ومن هنا كانت الكلمة التي يرددها البوعلية: (كيف يدوخ يتسرح) أي عندما يغيب عن الوجود يذهب همّه وينشرح، ويقع التنفيس عن ذلك الكبت ويقع التعبير عن العواطف المكتومة كما رأينا في (التجانية) وغيرها، ولعلّ نفس الشيء يقع مع الشيوخ، فبرز الطاقات المخزونة في الجسم وينجلي ذلك الكابوس النفسي والاجتماعي الذي تحدته مظاهر الشيخوخة، فتتكشف نفس الشيخ وينقطع عن عادات الشباب مختارا تحت تأثير الوطأة الاجتماعية وخوفا من اتهامه بالتصايب، وعدم الاعتراف بسنّه، فالظاهر أن للشيخوخة عوارض نفسية واجتماعية أكثر منها مظاهر فيزيولوجية بحثة، ولو استطاع الشيخ تجاوز الكبت الاجتماعي والنفسي، لتمكّن من تجاوز الكثير من العجز البدني.

يورد راجي عنيت في كتابه (معجزات العلاج)¹ متحدثا عن الشامان "كان الشامان في أساسه عرّافا، تكشف له بصيرته التشخيص السليم للمرضى، ومتنبئا يرى المراحل القادمة لعلاج المرض أي كان ينظر إلى عمله باعتباره من إنجازات شخص يتمتع بما نسميه التنبؤ بالمستقبل، أو الشفافية. كانت هذه المواهب تأتيه في بعض الأحيان عفويا، ومن تلقاء نفسها. وفي أحيان أخرى، كان يحتاج إلى التركيز حتى يصل إلى حالة الغيبوبة أو التجلي، حيث يستطيع أن يرى ويسمع الإجابات عن أسئلته. وكان أيضا يسعى في بعض الأحيان إلى دفع المريض هو الآخر إلى حالة التجلي هذه حتى يطلق غرائزه من عقالها. وكان الشامان يحقق هذه الأهداف بالموسيقى والرقص والعقاقير، التي تأخذ المرضى خارج نفوسهم.

كان الأثر يختلف من شخص لآخر، إلا أن النمط العام كان دائما واحدا، التشنج وفقدان التحكم في الأعصاب، ثم حدوث الانفصال عن الجسد، والتحدث بأصوات

1 راجي عنيت، معجزات العلاج، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1413هـ/1993م، ص 28/29

غير الأصوات الطبيعية ثم السقوط في غيبوبة، يصبح كل من الجسم والعقل بعدها في حالة تجدد ونشاط.

أورد محمد العياشي في كتابه " نظرية إيقاع الشعر العربي " بالصفحة 107 مقالا صدر بإحدى الصحف: "قد يستبعد الإنسان إمكانية شفاء الشلل بواسطة الأنغام الموسيقية إذا ما سمع بهذا الخبر الغريب، ولكن هذا الأمر جدّي والعلاج بالموسيقى هو علاج جديد تمّ تطبيقه في ألمانيا الاتحادية للمرة الأولى في العالم، إذ أنه لم يسبق للأطباء أن استخدموا الموسيقى في معالجة الأمراض عدا الأمراض العقلية فقط، حتى الآن يوجد في هامبرغ أخصائيّ في الأمراض العصبية هو البروفسور "بيرند" الذي يقول بأنه من الممكن معالجة كلّ خلل عضويّ بواسطة الموسيقى إذا كان هذا الخلل صادرا عن الجهاز العصبي. وقد تمكّن فعلا من تأهيل المصابين بالشلل الجزئيّ بمعالجتهم بالأنغام الموسيقية المرحّة ذات الإيقاع السريع ... " وأورد أمثلة لمصابين تمّت معالجتهم وشفائهم بهذه الطريقة.

أمّا الدكتور أحمد مبارك من أندونيسيا فيقول: "من خصائص أعمال أصحاب الطرق الصوفية السعي في مصالح الناس، وخاصة خدمتهم في علاج النفس، ومن بينهم شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية في أندونيسيا اكتشف كيفية العلاج النفسي باستعمال طريقة الذكر في علاج مدمني الأدوية الممنوعة، وهذا العمل قرّب شيوخ الصوفية من رجال الحكومة لأن كثيرا من هؤلاء رجال أغنياء مدمنون لهذه الأدوية الممنوعة، وللطريقة النقشبندية عيادات لعلاج مدمني المخدرات سمّيت بعيادات (الإنابة) منتشرة في مدن أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وفي مدينة (مكين) شيخ من الطريقة النقشبندية طوّر كيفية علاج النفس باستعمال طريق الأوراد، وله عيادة تسمّى عيادة (التوكّل)"

ولعل من تأثيرات العقيدة في الحضرة، أو التأثير الفعلي للإيقاع الموسيقي أن تنفعل معه الطبيعة المادية في الانسان، فمما تميزت به الطريقة العامرية مثلا هذا الاستطباب، فقد روى لنا السيد "علية المقدم" وكان حاضرا بين عدد من المنشدين: أن امرأة مشلولة مقعدة جيء بها على كرسي متحرك وحضرت في الحضرة فبدأت بتحريك أصابعها ثم تحركت قليلا وساعدها بعض الحاضرين ثم أمسكت بسارية ووقفت على رجليها

وأخذت ترقص وترقص حتى عوفيت، وانفطر أهلها بالبكاء فرحا بشفائها، فكأنما حركت الإيقاعات ما كان كامنا في جسدها. وقد كان بتونس مارستان للسيدة عزيزة عثمانة حبّست عليه جرايات للمغنين يعزفون لمرضى الأعصاب فيهدؤون. هذا وقد تحدّث الدكتور المرحوم سليم عمّار طبيب الأعصاب والأمراض النفسية عن هذه الطريقة في بعض مداخلاته التلفزيونية، وكان رحمه الله يصف بعض الأغاني لمرضاه، ومنهم سيدي عامر بتاريخ 14 سبتمبر 1982 ما يلي: "إني الموقع أسفله الدكتور سليم عمّار أشهد أني انتقلت إلى زاوية سيدي عامر عدّة مرّات في مواسم ليالي الجمعة وقد شاهدت هناك كيفية علاج بعض المرضى المصابين بعلل نفسية وعصبية تكون شديدة الوطأة أحيانا بالرغم من مصدرها النفسي البسيط وشاهدت النتيجة الحسنة التي تحصل في مثل هذه الحالات بفضل الطريقة التقليدية المستعملة والتي تركز على النجاعة ومهارة المعالجين الذين يبدون خبرة مدهشة في هذا المجال وأخصّ منهم السادة منجي المقدم وأحمد بو عزّة اللذين امتازا بحكمتهما في تعاطي التبرّك. ويتسّى لنا بعد هذه الملاحظات أنّه يصبح من الفائدة أن يزور الأطباء النفسيّون بصفة منتظمة هذه الحفلات ويربطوا الصلة بالمعالجين التقليديين هناك بانسجام مع عيادات الأمراض النفسية التي أسهر عليها بالمستشفى الجهوي بسوسة ..."

إذن، ما زالت هذه الطرق تؤدّي دورا في المجتمع الذي تآصّلت فيه بقطع النظر عن تقدّمه المادّي في درب الحضارة أو تخلّفه عن ذلك الركب، فالواقع أنّ هذه المظاهر الثقافية هي عنوان حضارة ما، وما زالت تعبّر عن رأي اجتماعي وفلسفة حياة طالما أثرت على الحياة التونسية وطبعتها بطابع متميّز كان له تأثيره في تاريخ الأحداث لا يمكن إغفالها في الدراسات الأنثروبولوجية الذي يحاول العديد من علمائنا إخضاع مجتمعا العري الإسلامي لها، في إطار البحث عن وسائل النهوض الثقافي والاجتماعي وحتى العقدي والديني لما كان لهذه الطرق من التأثير الواضح في حياة الناس وطرق تفكيرهم. وإذا أدخلت على بعض هذه الطرق طوارئ من ضبط علمي أو صنائع مستحدثة، فإنّ ما بقي من التراث ما زال يؤثّر تأثيره المعهود منذ حياة الآباء والأجداد، ويمكن استغلاله وتطويره لحياتنا المعاصرة وتهذيب ما يجب تهذيبه، بالإضافة إلى ما أمكن توظيفه في

التنشيط السياحي كمنتوج ثقافي من تنظيم الملابس والرقصات والكورغرافيا التي أبرزت أخيرا جماعة "الحضرة" بقيادة سمير العفري الذي أخذ شذرات من أغلب الطرق ونظمها تنظيما كورغرافيا وتوزيعا موسيقيا وأدخل فيها العديد من الآلات غير التقليدية، وفي ذلك كله نوع من التأصيل للميزات التونسية عن بقية الشعوب رغم انتشار وسائل الإعلام وتقارب البلدان وتأثر الثقافات الواضح ببعضها البعض.

الصرق الصوفية بتونس
حسب التسلسل التاريخي

الجنيد شيخ الصوفية

يقول الصادق الرزفي في كتابه (الأغاني التونسية) في معرض حديثه عن الطريقة "الخلوتية": "هي طريقة تربية وسلوك وزهد وتقشف وعزلة واعتكاف وتجرد من متاع الدنيا وتصوّف بحت، أحدثها العارف بالله الإمام الجنيد المتوفى سنة 298 هـ رضي الله تعالى عنه¹." ويظهر أن هذا الاسم "الخلوتية" هو نسبة إلى محمد الخلوّاتي الفارسي² الذي تنسب إليه هذه الطريقة، وأن اسم "أبي القاسم الجنيد" لم يذكر فيها إلا لأنه هو أول من أحدث طريقة صوفية بالشكل المعروف وهو حلقة من حلقات سلسلة الاعتماد³ التي اعتمدها الطريقة "الخلوتية" حتّى أصبحت تعزى إليه. وإلاّ فطريقة الجنيد ليست الخلوتية التي خلفتها الرحمانية فيما بعد.

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 107.

2 كوبولاني وديبون، الطوائف الدينية الإسلامية: 189. *Algérie: les confréries religieuses musulmanes*. ص 369 - 375.

3 تنطلق سلسلة الخلوتية من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لقّن عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي لقّن الحسن البصري الذي لقّن الحبيب العجمي الذي لقّن داود الطائي الذي لقّن معروفا الكرخي الذي لقّن السري السقطي الذي لقّن أبا القاسم الجنيد مؤسس المدرسة الصوفية التي تفرعت عنها الطوائف الصوفية الأخرى، وهو الذي لقّن ممشاد الدينوري الذي لقّن محمد الدينوري الذي لقّن القاضي وجيه الدين الذي لقّن عمر البكري الذي لقّن أبا نجيب السهروردي الذي لقّن رئيس الصوفية الأبهري الذي لقّن محمدا النجشي الذي لقّن شهاب الدين الشيرازي الذي لقّن جلال الدين التبريزي الذي لقّن إبراهيم الكيلاني الذي لقّن محمدا الخلوّاتي الذي تنسب إليه الطريقة "الخلوتية" (المرجع السابق).

الشيخ المؤسس: رغم وجود التيار الصوفي منذ فترة قبل الجنييد بل منذ عهد الصحابة كأبي ذر الغفاري، مرورا بإبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية ومعروف الكرخي وديسر الحافي والحارث المحاسبي الأستاذ الكبير والفقهاء الحكيم والزاهد الورع مؤسس التحليل النفسي بطريقة المحاسبة، والسريّ السقطي خال الجنييد نفسه وأستاذه الذي أخذ عنه أصول التصوّف، فإنه يمكن أن نقول بكل ارتياح أن مؤسس الطريقة الصوفية الأولى هو أبو القاسم الجنييد بن محمد بن الجنييد البغدادي الخزاز، الصوفي الزاهد العالم بالدين، ولعلّ بروزه هو في إرجاع كلّ عمل صوفي إلى مستند من قرآن أو سنة. ولد ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة (297 هـ - 910 م)، أصل أبيه من نهاوند وكان يعرف بالزجاج القواريري نسبة لعمل القوارير¹.

وعرف الجنييد بالخرّاز لأنه كان يعمل الخز (الحرير). [تفقه على أبي ثور والشافعي وقيل أنه كان على مذهب سفيان الثوري]² وتلقّى العلوم الصوفية عن خاله السريّ السقطي³ [والحارث المحاسبي⁴. ومن أصحابه أبو العباس ابن سريج الفقيه الشافعي].

ويعدّ الجنييد سيد الطريقة الصوفية، فقد حجّ ثلاثين حجّة ماشيا. وأتباعه ومريدوه لا حصر لهم وهم منتشرون في جميع أنحاء العالم. قال أحد معاصريه: "مارأت عينايا

1 خير الدين الزركلي، الأعلام، المطبعة العربية بمصر، 1347هـ/1928م.

2 ماوضع بين معقنين[...]. هو إضافة من (الحقيقية التاريخية للتصوّف الإسلامي) لمحمد البهلي النبال، طبعة تونس 1965.

3 هو: أبو الحسن سريّ بن المغلس السقطي ولد ببغداد وتوفي بها سنة (251 هـ - 865م) من كبار الصوفية وهو أستاذ الجنييد وخاله. [كان تاجرا ببغداد فوقع حريق في السوق ونجا حانوته فحمد الله، ثم ندم أن أراد لنفسه خيرا من الناس فطفق يستغفر لأكثر من ثلاثين سنة] وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية وكان إمام البغداديين وشيخهم في زمانه، من كلامه: "من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز". من أقواله: إن "المحبين" يفوقون في النعيم تتابع موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وقد لامة ابن حنبل على تلك الأقوال. [كان كثيرا ما ينشد:

إِذَا مَا شَكُوتُ الْحُبَّ قَالَتْ: كَذَّبْتَنِي فَمَا لِي أَرَى الْأَعْضَاءَ مِثْلَكَ كَوَاسِيَا
فَلَا حُبَّ حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْحَشَا وَتَذْهَلُ حَتَّى مَا تُحْيِبُ الْمُنَادِيَا

(انظر: منجد دار الشروق، بيروت. وما بين [...] عن محمد النبال، الحقيقة التاريخية).

4 الحارث بن أسد المحاسبي من البصرة جمع علم الظاهر والباطن واشتهر بالمحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه كثيرا. تعفّف عن أخذ ميراثه من أبيه لأن أباه كان يقول بالقدر رغم شدة حاجته إلى المال. وقد طلب من أبيه تطبيق أمّه كراهة لمذهب القدرية. ألف عدّة كتب: منها كتاب "الوصايا" ومنها كتاب "رعاية حقوق الله"، وكان الجنييد من بعض تلاميذه. توفي سنة 243 هـ/857 م. (محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي. ص 62، وعن ترجمته في كتابه الوصايا).

مثله: الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. "وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. قال ابن الأثير في وصفه: "إمام الدنيا في زمانه" وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوّف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصنوعاً من العقائد الذميمة محميّ الأساس من شبه الغلاة، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي¹ أنّ الجنيد كان ينكر على الحلاج شطحاته وكان ممن يبغضونه، فنبهه الحلاج إلى شطحات أبي يزيد البسطامي، فأخذ الجنيد يؤوّل شطحات أبي يزيد، ولكنه اضطر إلى قول: "إنّ أبا يزيد - رحمه الله - مع عظم حاله وعُلوّ شأنه لم يخرج من حال البداية، ولم أسمع منه كلمة تدلّ على الكمال والنهاية."

وهكذا نعتقد أنّ مشكلة الشطحات الصوفية قد بدأت تظهر عند إبراهيم ابن أدهم ورابعة العدوية، ثم أخذت في التبلور مع الحلاج وأبي يزيد البسطامي وأبي بكر الشبلي المعاصرين للجنيد وأن انتقادات الجنيد وغيره للشطحات ربما كانت تقيّة لَمّا رأوا مصير الحلاج، وليس مأخذة فعلية، ولكننا نبرئ أبا القاسم عن مثل هذا الخداع فإن ما أقره الشيخ من رجوع للكتاب والسنة يرفع عنه هذا المأخذ.

أخبار الطريقة: يقول الصادق الرزفي (في الأغاني التونسية): "...وهذه الطريقة (ويقصد "الخلوتية") أوّل طريقة ظهرت في الإسلام، لذلك عدّوا الجنيد أوّل مبتكر للطرق وشارع لها. وأفراد هذه الطريقة بإقليمنا (تونس) قليلون جدّاً حتّى أنّ عددهم لا يكاد يُذكر، أمّا مبدؤها فهو موجود في عدّة طرق من حيث الأعمال التعبدية والأوراد وشروط التلمذة وتربية النفس إلى غير ذلك مما حضّ عليه علماء الباطن، ولا توجد بقطرنا زوايا مستقلّة بهذه الطريقة ولا جماعة مخصوصة."

ونضيف أنّ طريقة الجنيد كانت تدرّس في الفقه عند دراسة متن ابن عاشر وشروح ميارة (الدر الثمين) حيث يقول ابن عاشر في (المرشد المعين):

1 عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، سلسلة دراسات إسلامية، نشر وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت، توزيع دار القلم بيروت لبنان، ص 39 و40.

يَقُولُ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَاشِرٍ مُبْتَدِئًا بِاسْمِ الْإِلَهِ الْقَادِرِ
 صَلَّى وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَالْمُقْتَدِي
 وَبَعْدُ فَالْعَوْنُ مِنَ اللَّهِ الْمَجِيدِ فِي نَظْمِ أُنْبِيَاءِ لِلْأُمِّيِّ تُفِيدُ
 فِي عَقْدِ الْأَشْعَرِيِّ وَفَقْهِ مَالِكٍ وَفِي طَرِيقَةِ الْجَنِيدِ السَّالِكِ

فكانت الطريقة تتميماً لعقائد الأشعري وفقه مالك. وقد جعلوا الدين على ثلاثة أركان: عقيدة وشريعة وطريقة، فالعقيدة على مذهب الأشعري وتشمل ما يعتقدده الإنسان من أفكار أو حقائق، والفقهاء على مذهب مالك بن أنس وهو مجموعة القوانين والتراتب من واجبات ومحظورات، والطريقة هي التصوف على طريقة الجنيد، وليس الطريقة "الخلوتية" كما يعرف لدى أرباب الطرق، والطريقة هي مسلك يسلكه الإنسان ليصل به إلى الغاية المنشودة من كل هذا الاعتقاد والالتزام بالضوابط من أفعال وترك، ولم نجد من يقول بأنها غير الزهد ونبت ملذات الدنيا في سبيل الرقي بالنفس الإنسانية إلى الروحية الصرفة مروراً بمراحل يعرفها أهل التصوف. وهناك من يجعل له هذه الأركان: الإيمان والإسلام والإحسان، ولكن المشهور ما ذكرناه.

من كلامه: قال الجنيد: "طريقنا مضبوط بالكتاب والسنّة من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقتدى به." "ومن كلامه أيضاً: "الطرق مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ وَلَزِمَ طَرِيقَتَهُ فَإِنْ طُرِقَ الْخَيْرَاتُ كُلُّهَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ."

وسئل الجنيد: "ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون ولا يتحرّكون، بخلاف ما إذا سمعوا الرباعيات؟ قال: لأن القرآن كلّهُ أحكامٌ ومواعظٌ، كُتِّفُوا بِالْعَمَلِ بِهَا، وَمَنْ كُتِّفَ بِشَيْءٍ لَا يَطْرُبُ بِهِ، وَلَا كَذَلِكَ الرَّبَاعِيَّاتِ، فَإِنَّهَا كَلَامٌ جَنْسُهُمْ، وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، بِخِلَافِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ صَدَرَ عَنْ حَقٍّ فَلَا مَجَاسَنَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ."¹

ويظهر أن التصوف الطريقي ابتداءً من هنا بعد أن كان تصوّفاً نظرياً وعلمياً لم ينزل

1 أحمد فريد المزيدي، الإمام الجنيد سيد الطائفتين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص 285.

إلى مستوى الجمهور. ونفهم من التصوّف العلمي ما اهتدى إليه عالم بعد تبخّره في الفقه والأصول ولمس الحقائق العلمية والربانية بنور العلماء. ونفهم من التصوّف الطريقي هو أخذ العهد عن شيخ واتباع أوراده وأحزابه حتّى يأتي الفتح الرباني، سواء بالسلوك أو بالجذب. هذا وقد تقلّص التصوّف العلمي في القرون الأخيرة ولعلّ ذلك ابتداء من القرنين السادس والسابع للهجرة ليترك المجال للتصوّف الطريقي كي يزدهر ويعمّ كامل العالم الإسلامي.

وذكرنا هذه الطريقة لأنّها هي البداية التي عنها تفرّعت الطرق وتولّدت.

الطريقة القادرية

نسبة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني البغدادي

الشيخ المؤسس: هي طريقة صوفية أحدثها الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني الصديقي ابن أبي صالح موسى جنكي دوست بن الإمام عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض [أبوه الحسن بن الحسن بن علي وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي كرم الله وجهه] ابن الحسن المثنى [أي الثاني] ابن الحسن السبط [ابن البنت] ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأمه فاطمة بنت عبد الله الصومعي. ولد بقرية "بُشتير" من إقليم "جيلان"¹ (وراء طبرستان) سنة 470 أو 471 هـ/حوالي 1077م.

يروى عنه أنه كان لا يلتم ثدي أمه نهارة في رمضان، فإذا آن المغرب نهل ما يشاء. وهذه من كراماته التي ظهرت مبكرة، كما ينسب لعديد الأولياء كرامات مثل هذه منها ما نسبوه للقبط إبراهيم الدسوقي وسأتي الحديث عنه في بابه. ويظهر أن الشيخ عبد القادر تيمّم من جهة أبيه إذ أنه تربّى وترعرع في رعاية جدّه لأمه عبد الله الصومعي وكان إمام المسجد. فتلقّى علوم القرآن والحديث والسيرة ببلده ثم ارتحل إلى بغداد وعمره ثماني عشرة سنة للاستزادة من العلم، فزودته أمّه ببعض دنائير كان تركها

1 جيلان إقليم في إيران جنوبي بحر قزوين وقاعدته (رشت)، تعرف مناطقها الجبلية باسم (الديلم) وهو مناطق مستنقعات.

والده. وفي الطريق هاجم قافلته قطاع طرق استولوا على كل ما في القافلة، ولكن عبد القادر استطاع أن ينجو بصدقه، فقد صرّح لهم أن معه دنائير لكنهم لم يعثروا عليها، فلما أعيبتهم الحيلة وأظهرها لهم تاب زعيمهم على يديه وأمرهم أن يرجعوا كل ماغصبوه إلى أصحابه، بل ربّما صحبوه إلى غايته لحراسته من أشباههم!

وفي بغداد أخذ علم الفقه بفروعه وأصوله مذهبا وخلافا عن أبي الوفاء بن عقيل وأبي الخطاب الكلوداني وأبي الحسن بن يعلى الفراء وأبي سعد المخري، وأخذ الحديث عن أبي غالب الباقلاقي وأبي سعيد بن خنيش وأبي الغنائم الرّسي وأبي بكر التّمّار وأبي محمد السّراج وغيرهم، ودرس الأدب على يد أبي زكريا التبريزي، وتلقّى علم الكلام، ولكنه عزف عنه وعن مباحثه، وتعلّم التصوّف على يد أستاذه حمّاد الدبّاس وأبي سعد المخري، وبرع في أساليب الوعظ واشتهر وامتلت حلقته بآلاف المستمعين وبدا نجمه يظهر في عاصمة الثقافة والعلم.

وكان يأكل من عمل يده ككل هؤلاء المميّزين من العباد والصالحين ولا يحلو له خفض العيش، ولا ما ينهال به الناس على أمثاله من الهدايا والتقربات. وفُتِح له بفتح العارفين في بغداد بعد أن مرّ بسنين في العزلة في الفيافي والتقفش الذي هو سمة الزاهدين، ومرّ بحال الملامتية² ثم بمرحلة الجذب، ثم واقعة أستاذه الدباس. ولما فُتح عليه تصدّر للتدريس والفتوى ببغداد سنة 528 هـ، وأصبح واعظا بعدة أماكن بها، فازداد مريدوه حتّى أصبحوا جموعا لا عداد لها، وكان يوصي بالمحبة للغريب وبالتقفش. له من الآثار: "الفتح الرباني والفيض الرحماني" في التصوّف و"العُنية لطالبي طريق الحق". وتوفّي ببغداد سنة 561هـ/1166م³. ومن ألقاب الشيخ عبد القادر: باز الله الأشهب، والقطب

1 تروى نفس القصة عن أبي يزيد البسطامي الصوفي (انظر، طه عبد الرؤوف سعد، 300 قصة وقصة من قصص الصالحين والصالحات، مكتبة الصفا، القاهرة، 1420هـ/2000م، ص46).

2 الملامتية هم قوم أنحوا على أنفسهم باللائمة؛ والأصل عندهم ترك التزيّن للناس وإرضائهم سواء في الأخلاق أو الأفعال ولا يكثرثون بمدح الناس وذمهم بل يسترون حقائقهم [وأول من تكلم في أصولهم أبو صالح حمدون القصار المتوفّي سنة 271 هـ/884م ويقول: هم قوم أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتبوا عنهم محاسنهم فالخلق يلومونهم على ظواهرهم وهم يلومون أنفسهم على ما يعرفونه من باطن أنفسهم. وبذلك على حدّ قوله: أكرمهم الله بكشف الأسرار والإطلاع على المغيّبات (الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي لمحمد النبال، ص: 127)] (الملامتية وهم قوم طابت نفوسهم مع الله فلم يودّوا أن يطلع أحد على أعمالهم، فإذا رأى أحدهم أنّ أحدا اعتقد فيه خرب، أي ارتكب ما يذمّ به ظاهره من فعل وقول.. (عن أحمد خلف الله، إبراهيم الدسوقي، ص95).

3 يوسف زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1991م.

الربّاني، والهيكال الصمداني، ومصباح أهل الحقيقة، وسلطان الصالحين، وراعي الحمراء، وبودربالة، ولد أم الخير، ومصباح الظلام، وبوعلام، وفارس بغداد، إلخ...

ومما يُنسب له من أشعار: أشعار بها شطحات عجيبة لا تقلّ عجباً عن قول الحلاج الذي مات من أجله: مثلما يقول في تائيته التي مبدؤها [من البحر الطويل]:

نَظَرْتُ بِعَيْنِ الْفِكْرِ فِي حَانَ حَضْرَتِي حَيِّبًا تَجَلَّى لِلْقُلُوبِ فَحَتَّتْ
سَقَانِي بِكَأْسٍ مِنْ مُدَامَةٍ حُبُّهُ فَكَانَ مِنَ السَّاقِي خُمَارِي وَسُكَّرَتِي
حَتَّى يَقُول: ضَرِيحِي بَيْتُ اللَّهِ مَنْ جَاءَ زَارَهُ يُهْرُولُ لَهُ يُحْطَى بِعِزِّ وَرَفْعَةٍ

أيعقل أن يكون ضريح الشيخ بيتا من بيوت الله في الحال أن هناك من منع الصلاة في المدافن؟ إذن، فهو يقول: لا تزوروا ضريحي لأن بيت الله أو المسجد أولى فالذي يهرول للمسجد يحظى بالعزّ والرفعة، فذاك ضريحي لأني دفنت نفسي في بيت الله، أما قبر جسدي فلا أهمية له. وقوله:

وَأَمْرِي أَمْرُ اللَّهِ إِنْ قُلْتُ كُنْ يَكُنْ وَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَاحْكُمْ بِقُدْرَتِي

يظهر فيه نوع من الغلوّ أو الغرور وعقيدة وحدة الوجود أو الحلول، هذا هو الظاهر من النص، ويجب أن يؤوّل على: إنك أيها المريد، إن أردت أن تتبع أمري فلا أمر لي فإن الأمر لله ولا أتجرؤ أن أمرك بغير ما أمر الله فأمر الله هو أن تأتمر بأمر الله. فلا يمكن أن يكون أمره مثل أمر الله (كن فيكون) في الحال أن الله سبحانه وتعالى يقول: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} وأي قدرة له، والواجب عليه أن يتبرأ من حوله وقدرته؟ وكذلك القول في القصيدة التي مطلعها [من البحر الوافر]:

سَقَانِي الْحُبُّ كَأْسَاتِ الْوِصَالِ فَقُلْتُ لِخِمْرَتِي: نَحْوِي تَعَالِي²

فما أبعد ما تقرأ في هاتين القصيدتين عمّا تقرؤه في القصيدة المنظومة في أسماء الله الحسنى التي مطلعها [من البحر الطويل]:

1 الحاج إسماعيل سعيد القادري، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، طبعة المكتبة الشعبية بيروت-لبنان، ص 48.
2 الحاج إسماعيل سعيد القادري، الفيوضات الربانية، ص 50.

شَرَعْتُ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ مُبَسِّمًا
 وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
 وَأَرْسَلَ فِينَا أَحْمَدَ الْحَقِّ قَيِّدًا
 سَأَخْتِمُ بِالذِّكْرِ الْحَمِيدِ مُجْمَلًا
 تَنْتَرَهُ عَنِ حَصْرِ الْعُقُولِ تَكْمَلًا
 نَبِيًّا بِهِ قَامَ الْوُجُودُ وَقَدْ خَلَا
 إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَقَابِلِ رَجَائِي بِالرِّضَا عَنْكَ وَكَفَيْنِي
 أَغَيْتَ وَاشْفَيْنِي مِنْ دَاءِ نَفْسِي وَاهْدَيْنِي
 أَنَا الْقَادِرِيُّ الْحَسَنِيُّ عَبْدٌ لِقَادِرٍ
 وَأَصَلُّ عَلَى جَدِّي الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ
 مَعَ الْآلِ وَالْأَصْحَابِ جَمْعًا مُؤَيَّدًا
 صُرُوفَ زَمَانٍ صِرْتُ فِيهَا مُحْوَلًا
 إِلَى الْخَيْرِ وَأَصْلِحَ مَا بَعَثَنِي تَحَلَّلًا
 دُعَيْتُ بِمُحِي الدِّينِ فِي دَوْحَةِ الْعُلَا
 بِأَحْلَى سَلَامٍ فِي الْوُجُودِ وَأَكْمَلًا
 وَبَعْدُ فَحَمْدُ اللَّهِ خَتْمًا وَأَوْلَا

ففيها يظهر الإسلام والتسليم وتوحيد الخالق والخضوع له والتذلل له والاستعانة به دون سواه، ورغم نظام القصيدة الذي ظهر نموذجها في عصور متأخرة قليلاً عما نعهد في عصر الشيخ، فإننا لا نجد ما يضير أن تنسب للشيخ عبد القادر العارف بالله الذي لا نشك في صحته عقيدته، ولا نجد من يمنعنا من القول بانتحال بعض المريدين لهذه الأشعار فينسبها لشيخه عن خبث أو حسن نية.

ونرى إن صح لأحدهم قول غريب، على سامعه أن يبحث له عن تأويل صالح كما فعل الشيخ عبد القادر نفسه. فقد أورد الدكتور عبد الرحمن بدوي: "سئل (عبد القادر الكيلاني) عن قول أبي يزيد [البسطامي]: خُضْتُ بِحَجْرًا وَقَفَ الْأَنْبِيَاءُ بِسَاحِلِهِ - ما معناه؟ أجب: إن صح عنه فمعناه: وقفوا بساحله ليعبروا فيه من رأوا فيه أهلية العبور، ويمنعوا من ليس فيه أهلية له، وليدركوا من أشرف على الغرق، كما يتأخر الأفضل ليشفع في دخول الجنة ويدخل المفضول"¹.

1 المصدر السابق ص: 52.

2 عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، سلسلة دراسات إسلامية، نشر وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت، توزيع دار القلم بيروت لبنان، ص 31.

أخبار الطريقة: أخذ الجيلاني الطريقة عن شيخه حماد بن مسلم بن ددوه الدّباس الرّحبي المتوفى سنة 525 هـ وتنسب له عدّة كرامات، فقد رأى الدّباس أنه اصطاد بازيًا ففتح بابه فرأى عبد القادر الذي كان طلب من الله أن يسهّل له من يكشف له أحوالاً طرقتة وأشككت عليه، فحدس الدّباس أنه هو البازي، وسأله ماذا طلب؟ فلما سكت عبد القادر أغلق الدّباس في وجهه الباب بعنف، وأحس عبد القادر بأن ذلك الشيخ هو مطلوبه، فرجع إليه واسترضاه وصاحبه وأخذ عنه، وكشف الأستاذ لتلميذه ما أشكل عليه، وعلمه ممّا عنده.

أما من ألبسه الخرقة فهو أستاذه أبو سعد المخزّمي المتوفى سنة 513 هـ بعد أن سمع قرقرة بطن عبد القادر تتضوّر من الجوع - وقد بقي أيتامًا لا يأكل - وعبد القادر لا يهتمّ لذلك، فدعاه أن يأتيه إلى مدرسته، فأطعمه وأحسن إليه وأدخله في الطريقة وألبسه الخرقة، وتولّى عبد القادر أمر المدرسة المخزّمية سنة 521 ووسّعها سنة 528 حتى أصبحت تنسب إليه¹.

وأول من قام بإلباس الخرقة للمريدين هو أبو بكر دكّف بن جحدر الشبلي المتوفى سنة 320 هـ وهو معاصر لأبي القاسم الجنيد، وانتشر هذا الإجراء من بعد. أمّا قبله فلم يكن معروفًا كعلامة على دخول الطريق².

ويقول الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة 1143 هـ: " تلقى السيد عبد القادر خرقة العلم الإلهي والتحقيق من الشيخ الصالح أبي سعد المبارك بن علي المخزّمي البغدادي وهو تلقى عن شيخ الإسلام أبي الحسن علي بن محمد الهكّاري عن الشيخ أبي الفرج الطرسوسي عن أبي الفضل التميمي عن أبي بكر الشبلي المذكور أنفا عن أبي القاسم الجنيد عن سريّ السّقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن النبيء صلى الله عليه وسلّم³."

وقولنا (الخرقة) لا يدلّ بالضرورة على إلباس تلك المرقعة، بل هي عند البعض قطعة

1 يوسف زيدان: عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب.

2 المصدر السابق.

3 يوسف زيدان: عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، ص: 62.

نسيح تستعمل عمامة في بعض الحالات كما عند أصحاب الطريقة البدوية السطوحية. وإنما هي شهادة ببلوغ مرتبة في التصوّف، وليست الخرقَة إلا رمزا لها، أو أنها تقليد لقيادة الجماعة كالوشاح الذي يتناقلها أرباب المناصب في عصرنا عند تقليدهم إياها.

وانتشرت الطريقة القادرية من بغداد فعمت العالم الإسلامي كلّ تقريباً بدون استثناء، وكلّ الطرق الموجودة بعدها متفرعة عنها بما في ذلك التي تأسست في العراق ذاته.

والطريقة القادرية طريقة تسبيح وأوراد وأحزاب لها رصيد هائل من التآليف التي ألفها الأتباع زيادة عما تركه الشيخ عبد القادر نفسه أو ما انتحل باسمه. فقد دونوا أحزابه وأذكاره، وأضافوا إليها الكثير مما نجد خبره حتى في بلادنا. وانتشرت هذه الطريقة بالبلاد التونسية بمنزل بوزلفة على يد الشيخ "أبي الحسن علي ابن عمر المنزلي الشايب" دفين مدينة الفحص بجبهة زغوان [في أول القرن الثاني عشر للهجرة، فقد تلقى القادرية في الحجاز من الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، ورجع إلى تونس فظهر صلاحه واعتقده الأمير حمودة باشا الحسيني المتولي من سنة 1196 هـ/ 1781م إلى 1229 هـ/ 1813م، وتوفي الشيخ علي الشايب في بلده المنزل (منزل بوزلفة) بالطاعون بعد أن شرع في بناء الزاوية فأتمها الأمير حمودة باشا، وانتصب فيها للمشيخة تلميذه الأكبر محمد المعروف (بالإمام المنزلي) فكانت زاوية المنزل هي أول زاوية قادرية بتونس وصدّر فيها أمر من الأمير برعايتها وحصانتها حتى أنّ الأعوان لا يتعقبون مطلوباً دخلها. وتوفي شيخها الإمام المنزلي سنة 1248 هـ/ 1832م¹. قال الإمام المنزلي وهو الشيخ محمد بن مصطفى المنزلي القاضي المالكي بالجبهة في قبّة شيخه [من وزن بورجيلة]²:

قُبّة جَدِيدَة التُّورِي شَرِقُ فِيهَا سَيِّدِي ابْنُ أُمِّ الحَيْرِ نَابٌ عَلَيْهَا
نَابِ التَّايِبِ³ فِيهَا مِنَ البُنْيَانِ شَيْءٌ عَجَائِبِ
مَدْفُونٌ فِيهَا الشَّيْخُ بَابَا الشَّايِبِ هُوَ الَّذِي جَابِ الطَّرِيقَةَ لِيَهَا

1 ما بين [...] من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، لمحمد البهلي النبال ص 322.

2 القصيدة الكاملة بالسفينة القادرية، طبعة مكتبة المناربتونس، ص 271.

3 (ناب النايب) في الدارحة التونسية أي تيسر الحال، الذي ينوب أي ييسر هو الله فهو النايب أي الميسر. (جواب): جلب وأتى بالشيء.

*** **

خَضْرَا تَشْرُقُ يِرَالْعَفُو فِيهَا بُمَاهُ يَدْفَقُ
يَبْرِي الْكَلْبُ وَكُلُّ مَرَضٍ يَشْفَقُ وَالتَّفْسِ الْمُمْرَضَةَ يَبْرِيهَا

*** **

خَضْرَاهِي خُضُورِثَهَا فِي الشَّمْسِ عَمِلْتُ ضِيَّةَ
يُقْضِدُهَا أَهْلُ الصَّفَا وَالتِّيَّةِ حَتَّى بَائِي أَفْرِيقِيَّةَ يَاتِيهَا

*** **

خَضْرَا زِينَةَ نُجْبِي عَلَى الزِّيَارِ كَلَّ عَيْنِيَّةَ
مَنْ زَارَهَا مَدِيَانٌ يُخْلُصُ دِينَهُ أَسْرَارَ مُجِي الدِّينِ مَنْ يَخْصِيهَا

*** **

خَضْرَا صَمَّةَ مُوَلَاهَا نِدْهَةَ جَمِيعِ الْأُمَّةِ
مَوْلَى الْهَمَّةِ وَالتَّنَا وَالْحُرْمَةَ عَبْدُ الْقَادِرِ تِرْعُثُهُ يَحْمِيهَا

*** **

مِلَاقِبَّةَ خَضْرَا زُمُرِيَّةَ نُجْبِي الْكُرْبَةَ
مُوَلَاهَا شَيْخُ الْوَفَا بُو عَدْبَةَ شَيْخِ الْمَشَايخِ شُهْرُثُهُ تَكْفِيهَا

*** **

نُورَهَا يَثَلَالَا مُوَلَاهَا سُلْطَانَ كَلَّ عَمَالَةَ
عَبْدُ الْقَادِرِ فَارِسِ الْحَيَّالَةَ رَاكِبِ الْحُمْرَا مَالَهَا بِشَيْبَةَ

*** **

خَضْرَا شُهْرَةَ خُضُورِثَهَا فِي الشَّمْسِ عَمِلْتُ بُهْرَةَ
كَسَاهَا الرَّحْمَانُ سِرَّ وَوَهْرَةَ أَهْلِ الْخَيْرِ الْكُلِّ لَادُوا بِيهَا

فِيهَا ضَنَّاجِقُ الْمَذَهَبِ تَسْبِي عَقْلِ الْعَاشِقِ
فِيهَا رِيحَةٌ طَيِّبَةٌ لِلنَّاشِقِ وَالتَّفْسِ الْمِتْمَرِّضَةِ تَبْرِهَا

*** **

شَادِ انْتَاهَا قُبَّةٌ طَوِيلَةٌ فِي السَّمَاءِ مَا اعْلَاهَا
نَائِبٌ عَلَى زِيَارَتِهَا مُوَلَاهَا عَبْدُ الْقَادِرِ بَرَكَتُهُ تَحْمِيهَا

*** **

شُدَاهَا سَارِي عَنَبَرٌ وَمِسْكٌ وَزَيْدٌ عُوْدٌ قَمَارِي
وَالشَّيْئِمَةُ تَتَّبِعُ بِمَاهَا جَارِي تُسْقِي الْقُلُوبَ الْعَاطِشَةَ تَرْوِيهَا

*** **

عَبْدُ الْقَادِرِ مُوَلَى الشُّهُرَةِ وَالْعَلَامِ الظَّاهِرِ
سُلْطَانِ السَّادَاتِ وَالْأَكَابِرِ وَجَمِيعِ الصُّلَاحِ يُحْكَمُ فِيهَا

*** **

رَبِّ أَسْعَدُ وَاعْفِرْ دُنُوبَ الْمِنْزِلِي مُحَمَّدُ
مَا دَامَ فِي نَظْمِ الْمَدِيحِ مُجَدِّدُ اعْفِرْ رَبِّي سَيِّئَةَ وَامْحِيهَا

*** **

يَا وَحْدَانِي الْأُظْفُ بَيْنَا يَا عَظِيمِ الشَّانِ
وَالْأَلِ وَالْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ وَجَمَاعَتِنَا كُلِّهَا عَافِيهَا

*** **

تَمْ نَظَّمَايَ بِالْفَيْنِ صَلَاةَ الْمُصْطَفَى وَسَلَامِي
نُطَلِّبُ عَلَى رَبِّي يَكُونِ خُتَابِي عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ نَنْطِقُ بِبَيْهَا

ويمتد تأثير هذه الزاوية في كامل الشمال الشرقي بالبلاد التونسية إلى طرابلس، ويتفرع عنها زاوية بجزيرة وزاوية بصفاقس، وأخرى بقابس ولعلها التي أسسها الشيخ الحاج أحمد ابن الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي. ثم تفرعت عنها أيضا زاوية كبيرة بالكاف كان مقدمها ومؤسسها الشيخ الميزوني أو المازوني [المغربي المتوفى سنة 1296هـ/1878م] وقد ورثه فيها ابنه بالتبني قّدور، وتشعّ هذه الزاوية على كامل الشمال الغربي التونسي وتصل إلى قسنطينة وأجزاء من ولاية الجزائر، وزاوية الكاف هذه من أغنى الزوايا القادرية بتونس، كان بها جيش كبير من الطلبة يتلون القرآن ويتعلّمون العلوم الدينية والتصوّف، ويتوقف بها سنويا آلاف الحجاج، سواء للاستراحة والتزود أو لزيارة المقام، ومن هذه الزاوية يجيز الشيخ قّدور الميزوني من استأهل ليكون مقدّما لزاوية فرعية أو بعض فقراء الطائفة القادرية، فيكلفه بشؤون الإخوان في كل الحالات الشخصية والاجتماعية والدينية وبالسهر على مصالحهم الروحية والزمنية بكل الوسائل الممكنة والمتوفرة، كما يطلب من الإخوان احترامه وطاعته فيما يأمر به.

وأما الزاوية القادرية بنهج الديوان بتونس فقد أسسها شيخ الطريقة القادرية الحاج محمد المازوني المغربي المذكور أعلاه وهو دفين الزاوية القادرية بالكاف، وتمّ بناء زاوية نهج الديوان سنة 1266هـ وأوقف على رعايتها ورعاية شعائرها عدّة أوقاف منها موقوفات السادة: محمد بن مصطفى بيرم، وحمدة بطيخ، والشيخ محمد بن شعبان شيخ مشايخ الطريقة القادرية بالبلاد التونسية توفي سنة 1337هـ وبقيت المشيخة في ذريته².

ثم نجد زاوية نفطة التي أسسها الشيخ أبو بكر بن أحمد الشريف تلميذ الإمام المنزلي وقد وسعها الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي ويصل إشعاعها إلى أقصى الجنوب التونسي والجزائري إلى غدامس والغايط وعين صالح وتوات وتيديكالت، ويعترف بها الطوارق ولهم هم أنفسهم أتباع لها: منهم شيخ العابدين الذي ذرع بلاد الملثمين (الطوارق) طولا وعرضا وكان من دعاة القادرية المتحمسين وجرت على يديه الكثير من الكرامات.

ويرتبط قادرية نفطة بالسلسلة الروحية للشيخ علي بن عمّار المنزلي الشايب دفين

1 الإضافة بين [...] من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد البهلي النبال ص: 322.

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، هامش ص. 87.

مدينة الفحص بجهة زغوان وهو الذي كان داعية متحمسا لمذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذلك المؤسس للفروع التونسية حيث إنه هو الذي جلب الطريقة من بغداد، وهذه هي السلسلة كما يلي: محمد الكبير عن إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي عن أبي بكر بن أحمد الشريف عن محمد الإمام المنزلي عن علي بن عمّار المنزلي الشايب عن محمد بن عبد الكريم عن محمد الطاهر عن الوكيل المكي عن محمد الصديق عن محمد القاسم عن عبد الفتاح عن غريب الله عن داود البغداي عن عبد القادر الجيلاني.

ولما توفي الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي ورثه أبناءه التسعة فكان أكبرهم محمد الكبير شيخ الزاوية الأم بنفطة واعتمد (كلف) أخويه الهاشمي ومحمد الطيب بلقب (نائب) في الجنوب الجزائري، فأسس الهاشمي زاوية عميش بالواد ووثق الصلة مع السودان الغربي، وأما الطيب فاهتم بزاوية الرويسات قرب ورثلة واتسع إشعاعه إلى غرداية والأغواط بالجزائر، وذهب محمد الأزهر بزاوية الفصور بجهة الكاف، والحسين إلى جهة الغمار، وأخوهم علي إلى تبسة، ومحمد بو الايمان بسهان شعبة الواد، والحاج أحمد بقابس، وذهب محمد العربي على رأس زاوية ففصة وهو والد أبي القاسم الذي ألف قصائد كثيرة منها: [يَا ذُرْوَةَ الْمَعَالِي يَا أَبَا الْخَيْرِ] وهي من تلحين شيخ الطريقة القادرية حاليا محمد الزيتوني الضيرير.

وهكذا نرى أن الطريقة انتشرت في كامل التراب التونسي، وفاضت على خارجه من جهة الصحراء وحتى بالتراب الجزائري، وربما استقل بعض الزوايا عن الأم إذ نجد بدون أي ارتباط بهذه الزوايا الكبيرة الثلاث منزل بوزلفة والكاف ونفطة، عدة زوايا بالحاضرة وبباجة كزاوية سيدي ميلاد وهو داعية قادري.

وفي الجملة، لا تكاد توجد بالبلاد التونسية مدينة يحيط بها سور، ليس بها على الأقل زاوية قادرية، علاوة على ما هو موجود بالقري بكامل أرجاء البلاد، فيجتمع أتباع الطريقة بالزاوية أو المقام لتلاوة أذكارهم. وتعرف الزوايا القادرية بقبابها الكبيرة وأعلامها المرتفعة جدًا تنشر عليها رايات حمراء في المواسم والأعياد وحتى في الجمع، وهذه الرايات تكون غير مكتوبة أو مكتوبة في وسطها باللون الأبيض عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتارة تحتوي زواياها الأربع على أسماء الخلفاء الراشدين ومن

الوجه الآخر صورة سيف ذي ذؤابتين.

أما داخل الزاوية فكأنه مسجد مؤث بالمعلقات المكتوبة بالخط الثلثي وبالمفروشات والثريات والمباخر والشمعدانات والألوية وهي الصناجق أي الأعلام ذات الأشكال والألوان المتعددة، وربما وضعوا تابوتا أخضر كأن تحته قبر صاحب الزاوية وهو فارغ. وفي إحدى الغرف أو الأركان تجد أشباه الحراب والأمشاك أي قرب الماء ومحامل الألوية والثريات والمباخر، وغرفة تسمى (بيت السماط) يحفظون بها ما يرد من النذور طعاما أو زيتا أو شمعا أو غير ذلك، وغرفة أخرى يسمونها (بيت الحرير) وهي التي يرتبون فيها الصناجق بأعمدتها ومحاملها وبقية الأثاث¹.

أصول الطريقة: ترتكز القادرية² على الورد والحزب والحضرة فالورد كما صاغه الإمام الشيخ بنفسه يتركب على هذا النحو:

الورد الكبير:

1 - ذكر الحضرة.

2 - تلاوة المعقبات بعد الصلوات المفروضة وهي 100 مرة " أستغفر الله العظيم " 100 مرة "سبحان الله" 100 مرة "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه" و500 مرة " لا إله إلا الله". وقد يختص الخاصة بهذا الورد الكبير، أما العامة فلهم: الورد الصغير: ويكتفى فيه بذكر " لا إله إلا الله" 165 مرة.

ونقل محمد البهلي النبال (ورد) الجلالة للشيخ عبد القادر الجيلاني : هو أن تقرأ اسم الجلالة (الله) 166 مرة، وبعد القراءة تقسم عليها بهذا القسم وهو: "بسم الله الرحمان الرحيم اللهم إني أسألك بالألف القائم الذي ليس قبله سابق، وباللامين اللتين طمست بهما الأسرار وجعلتهما بين العقل والروح وأخذت عليهما العهد الوائق، وبالهاء المحيطة بالعوالم الجوامد والمتحركة والصوامت والنواطق..."³

ويختلف ورد زاوية نفطة عن ورد بغداد بصيغة أطول وواجبات أوكد.

1 من فم الشيخ محمد الزيتوني والنص يطابق ما جاء بالأغاني التونسية للصادق الرزفي، ص 109.

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، الكل بالفرنسية، ص 295 - 296.

3 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 104.

ورد نفطة: وهو كما يلي: عندما يقام الذكر بالحضرة يبدأ المقدم الذكر:

"بسم الله الرحمن الرحيم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم". وينطلق الإخوان (هكذا يسمى القادرية الأتباع) فيقولون: 100 مرة "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم الفاتحة، ثم يقول المقدم: "فاعلم أنه لا إله إلا الله" ويردد الإخوان: 100 مرة "لا إله إلا الله" ثم 100 "الله" ثم "أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله" ثم 100 مرّة "أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه" ثم 3 مرات "لا إله إلا الله" وينتهي الذكر بدعاء مخصوص بالظرف الذي يعيشونه. وعند نهاية الذكر تقع قراءة المعقبات، فإن كان الذكر جماعياً فإن المقدم يقرأ جانباً من كتاب "الغنية" للإمام عبد القادر أو جانباً من "السفينة" أو جانباً من "الفيض الرباني" للإمام عبد القادر أيضاً ولا يفسر المقدم من ذلك شيئاً بل يكتفي باختيار الفقرات المناسبة لحال الإخوان².

الحزب: وهو متكوّن من عدّة أدعية قرآنية، وقد تكون من مآثورات الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ودعاء قنوت الصلاة: "اللهمّ إنّنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونخضع لك ونخلع ونترك من يكفرك. اللهمّ إيتك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجدّ إن عذابك بالكافرين ملحق³".

ونضرب لذلك مثلاً بحزب الحمد كما أورده النيال:

"بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين حمداً يفوق ويعلو ويفضل حمد الحامدين رب الأولين والآخرين، حمداً يكون له رضى ولنا حفظاً وذخراً عند ربّ العالمين، الرحمان الرحيم الذي دحا الأقاليم واختار موسى الكليم وأحيى العظام وهي رميم وسقى نفسه الرحمان الرحيم فهما اسمان كريمان عظيمان جليلان رحيمان شريفان شفاء لكل سقيم ودواء لكلّ عليل وغنى لكلّ عديم. مالك يوم الدين، ليس له في الملك منازع ولا قرين ولا نظير ولا شريك ولا وزير ولا معين بل كنت قبل وجود العالمين أجمعين إحاطتنا من جميع الشياطين وسطوة السلاطين وعوننا على الأقربين والأبعدين ووجهتنا إلى الأجناس المختلفين. إيتاك نعبد الله بالإقدار ونعترف بالذنوب

1 القرآن الكريم. الآية 30 من سورة النمل.

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، (من ترجمتنا).

3 نقل دعاء القنوت عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، الذي أثبت بالعربية، ص 295 - 296.

والعجز والتقصير ونخجل من الذنوب ونستغفرك من جميع الذنوب والآثام ونشهد ألا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ونبيك وصفيك صلى الله عليه وسلم¹.

وللطريقة ثلاثة عشر اسما (من أسماء الله الحسنى) وجدت مكتوبة من تأليف الشيخ عبد القادر نفسه في كتابه (الطريق إلى الله) سبعة منها أصول وستة فروع، فالسبعة التي هي الأصول الأنفس السبعة، وكل اسم من السبعة له عدد وله توجه يُتلى بعد العدد، فالاسم الأول (لا إله إلا الله) النفس الأمانة، والثاني (الله) النفس اللوامة، والثالث (هو) النفس الملهمة، والرابع (حي) النفس المطمئنة، والخامس (واحد) النفس الراضية، والسادس (عزيز) النفس المرضية، والسابع (ودود) النفس الكاملة... أما.. أسماء الفروع وهي حق، قهار، قيوم، وهّاب، مهيمن، باسط (ويوصي بعدها فيقول): هذه الثلاثة عشر اسما وفيها اسم الله الأعظم والله بكل شيء عليم، فعليك يا أخي بالكم والحظر والإيداع في محله وملازمة التقوى والإخلاص تفوز بالمطالب العلية إن شاء الله تعالى².

وللطريقة أوراد يومية، وأوراد لكل صلاة، ووظيفة تقرأ كل صباح ومساء ثلاث مرات: "بسم الله الرحمن الرحيم. اللَّهُمَّ صَحًا صَحًا وَحًا بَجًا حَم لَا يُبْصِرُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ كِهَيْعَصْ حَمَعَسَقْ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ يَارَبُّ يَارَبُّ يَارَبُّ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ."

أما وظائف أتباع القادرية على ما ذكره الصادق الرزفي³ فتقسم إلى:

شيخ الزاوية: وهو الرئيس الذي يعطي العهد بالطريقة لمن يريد الدخول فيها ويقبل النذور ويولي كل واحد في وظيفته.

شيخ الحزب: يوليه شيخ الزاوية ويرأس حلقة الحزب والأذكار التي تُتلى في المواسم والجمع وغيرها من الاحتفالات، فيفتح بالمريدين القراءة ويختم بهم ويدعو إن تغيب

1 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي، ص 105.

2 الحاج إسماعيل سعيد القادري، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، ص 14 - 18.

3 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 110 - 112.

الشيخ الكبير، ويحافظ على ترتيب الحلقة.

شيخ الحضرة: الحضرة هي ذكر الله بصفة مكررة عقب الحزب، وشيخ الحضرة هو الذي يرتب حلقتها في الوقوف صفوفًا (وهم الراقصون أو الشطّاحة هكذا يسمّون في فرق أخرى) ويفتح ويختم بهم ذكر الله ويُطوّل ويُقصر ويخفّف، حسبما يقتضيه الظرف ويُنشد أثناء الذكر أو يأذن لمن ينشده، وتختص الحضرة بأناشيد تؤدّى بصوت واحد خفيف أو ثقيل بالتهويد (بالنطق من الصدر) أو الترخيم (بالنطق بتحنان واستعمال الأنف) أو الترجيع (هو في الأصل تكرار ما قيل بصوت يميل إلى الهبوط) فتشدد بشكل مرقص مطرب. وبالخصوص عند النشيد الخفيف ويرون أنّ ذلك يعين في الاستمرار في الذكر.

شيخ العمل: هو شيخ الششتري¹ أي الإنشاد ويجيزه شيخ الزاوية أو شيخ الطريقة

1 هي نسبة إلى (ششتري قرية من عمل وادي آش قرب غرناطة من الشرق) بالأندلس بلد الشيخ أبي الحسن علي النميري الششتري [الوشي الأندلسي] الصوفي ولد بها سنة 610 هـ 1213 م [أخذ الطريقة عن محيي الدين بن سراق الشاطبي من أصحاب السهروردي صاحب عوارف المعارف ثم] تتلمذ عن الشيخ ابن سبعين الأنصاري المتوفى سنة 675 هـ 1276 م⁽¹⁾ [اجتمع به في بجاية سنة 648 هـ، وتأثر بفلسفته]، وهو الذي عرف بأزجاله وتواشيحه في التصوف وتكوين الحلقات من أتباعه الفقراء وينسبون إليه الحمرة (من خميرة ششتري) يقول مشيراً إلى الوحدة: أرى طائلياً منّا الزيادة الحسنى بفكر رضى سهماً فعديّ به عُدناً

وَدَوَّقَ لِلحَلَالِجِ طَعْمَ الحَمَادِ
فَقَالَ: أَنَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى
شَرِئْتُ مَدَامَا كُلُّ مَنْ ذَاقَهَا عَنَى
تَقَدَّسَ فَلَئِمَاتٍ لِأُخَذَهُ عَنَى
فَقِيلَ: لَهُ أَرْجِعْ عَن مَقَالِكَ. قَالَ: لَا!
فَمَنْ كَانَ يَبْغِي السِّرَّ لِلجَانِبِ الَّذِي

[ويظهر أن الششتري قد استكمل صوفية الوحدة مع شيخه ابن سبعين قبل أن يفارقه ويذهب إلى الشرق. فقد تخلف الششتري بتونس] جاء إلى تونس من الأندلس قبل شيخه ابن سبعين واستوطن بقابس واجتمع به أبو إسحاق الورقاني وعبد الله الصنهاجي وهما من كبار الصوفية بها]، ثم ارتحل إلى الشرق حيث توفي سنة 668 هـ 1268م. وله ديوان شعر طبع بالإسكندرية سنة 1960 بتحقيق الدكتور سامي النشار. هذا وقد أطلق اسم الششتري على الطائر (الدف الذي به صنوج صغيرة). (الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص: 1110 لهامش، وما بين...) عن محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي). والششتري كان وزيراً وابن أمير فلماً أراد الدخول في طريق القوم خرج عن دنياه وطاف بالأسواق طواف المجاذيب (انظر التصوف الإسلامي لزي مبارك ص 124 بالهامش نقلاً عن شرح ابن عجيبة). (وفي الحقيقة التاريخية لمحمد البهلي النبال ص: 388: كان الششتري من كبار العلماء.. لما دخل طرابلس.. عرضوا عليه خطة القضاء فرفضها وتلغى بأناشيد وأزجاله في الشوارع والطرق فاستحرقوه ونسبوه إلى الجنون فذهب إلى السوق وأنشد: رَضِيَ المَتَمِّمُ فِي الهَوَى بِجُؤنِهِ حَلُوهُ يُفْسِي عَمْرَهُ بِفُنُونِهِ

لَا تَعْدِلُوهُ فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَدْلُكُمْ لَيْسَ السُّلُوْ عَنِ الهَوَى مِنْ دِينِهِ

ومن موشحاته قوله:

سَافِرٌ وَلَا تَجْرَعُ وَارْكَنِ إِلَيَّ
مُتٌ وَعَيْشٌ وَأَسْمَعُ كَيْ تَبْتَهِي حَيَّ
شَيْخُكَ بُرَيْكَ قَطْعًا كَيْفَ السُّلُوكِ
فَأَثْبِتْ عَسَى جَمْعًا يَنْفِي الشُّكُوكِ
وَقُلْ لِمَنْ يَرَى سِرَّ المُلُوكِ
يَقُفُّ لَكَ رَمَزَكَ شَيْئًا قَسِيًّا

أبو محمد عبدالحق بن سبعين المرسي الأندلسي (612 - 669/1215 - 1270م) يلقب بقطب الدين وينسب إلى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كان من كبار الصوفية، ومن يقول بوحدة الوجود، له علم وحكمة وبلاغة.. كان حميلاً ملكوي البرّة عزيز النفس قليل التصنع. وكان عالماً بالفلسفة اليونانية... سكن بجاية [شرقي الجزائر العاصمة]، وأقام بتونس مدة طويلة ومنها رحل إلى الحجاز وكانت له حظوة ومنزلة عند شريف مكة

ويكون عارفا بالطبوع والنعغات وأسمائها، وهو الذي يختار من بين الفقراء أولئك الذين لهم صوت رخيم أو إمكانيات صوتية معينة أو حفظ ليكون بهم جماعة العمل أو الششتارة، وهو الذي يعين لكل واحد منهم مكانه فلا يجيد عنه أبدا وهو الذي يرأس العازفين بطاره أو نغاراته ويقود الششتارة (المنشدين) في نوبات الغناء.

باش شاوش: ومعه عدة شواش مهمتهم السعي بين الأفراد والإعداد للحفلات أو الخرجات والإعلام لبقية الإخوان.

باش سقا: المكلف بسقاية الناس داخل الزاوية أو خارجها ومعه السقاؤون.
باش علام: يتقدم حاملي الأعلام (السنجقية).

طريقة العمل: من المعلوم أن أول من أدخل الموسيقى والرقص الإيقاعي في الحضرة القادرية هو شمس الدين بن الشيخ عبد القادر الجيلاني ثالث أبناء الشيخ وثالث خلفائه في رئاسة الطريقة والألتين الدف والناي لتعميق التأثير العصبي الذي يتعالى مع تلاوة الذكر فتعضد هذه الأصوات المنسجمة الحركات الحيوية لأعلى الجسد.

في الزاوية (الميعاد): عند الشروع في العمل والجماعة جلوس سواء بالزاوية أو بالمحل الذي يعملون فيه، يختار² شيخ العمل من الفقراء من يراه قادرا على العمل أكثر فيضعه في مكان مخصوص في الحلقة لا ينتقل عنه، وشيخ العمل هو الذي يباشر نقر الطار أو ضرب النغارات أو يكلف أحدا من تلاميذه، ويسمى الذي على يمينه كاهية الشيخ أو نائبه والذي على يساره هو المنشد الذي يترنم بالقصائد في الراحات التي تتخلل

في الأوان الذي دخل فيه التتار بغداد سنة 656 هـ. وهو الذي حمل شريف مكة على مبايعة المستنصر الحفصي أمير تونس بالخلافة الإسلامية، وتوفي بمكة سنة 669 هـ كان ملازما للبيت الحرام ومستلتما الاعتمار ويحج مع الحجاج كل عام. (عن محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 382).

تَبَقَى فَرِيدٌ عَضْرُكٌ فِي الْحَيِّ حَسْبِي

1 أبو محمد عبدالحق بن سبعين المرسي الأندلسي (612 - 669 هـ/ 1215 - 1270 م) يلقب بقطب الدين وينسب إلى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كان من كبار الصوفية، ومن يقول بوحدة الوجود، له علم وحكمة وبلاغة.. كان جميلا ملوكي البزة عزيز النفس قليل التصنع. وكان عالما بالفلسفة اليونانية...سكن بجاية [شرقي الجزائر العاصمة]، وأقام بتونس مدة طويلة ومنها رحل إلى الحجاز وكانت له حظوة ومنزلة عند شريف مكة في الأوان الذي دخل فيه التتار بغداد سنة 656 هـ. وهو الذي حمل شريف مكة على مبايعة المستنصر الحفصي أمير تونس بالخلافة الإسلامية، وتوفي بمكة سنة 669 هـ كان ملازما للبيت الحرام ومستلتما الاعتمار ويحج مع الحجاج كل عام. (عن محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 382).

2 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 110.

المدحات. فإذا تمّ لهم هذا النظام ينطلق شيخ الحزب في القراءة وتلاوة الحزب. ويظهر من المقارنة بالطرق الأخرى أنه يأتي بعدها الإنشاد والحضرة، فيندفع شيخ العمل في المديح وقد يساعده الكاهية أو بعض الأفراد فيتلقفون منه بعض الصوت ويتممون غصن المدحة ويردّدون طالعها مثال ذلك: ينشد الشيخ البيت التالي:

يَا شَيْخِي يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنْتَ سُلْطَانِ الْأَكَابِرِ
يَا مُوَلَى الْبُرْهَانِ الْحَاضِرِ أَعْطِينِي عَيْشَةَ هَيْئَةٍ

وإذا بالجماعة يتلقفونه فيقولون معه (أعطيني عيشة هنية) ثم يأتون بالطالع (الردة):

يَا أَسْخِي إِعْطِفْ عَلَيَّ يَا مُوَلَى الرَّثْبَةِ الْعَلِيَّةِ

وعندما ينتهي كل ذلك، يقوم شاوش السماط وييده قفة مملوءة أرغفة صغيرة فيوزعها على الحاضرين سواء كانوا من مريدي الزاوية أو المتفرجين، ثم يعيد الكرة عليهم فيأخذ من كل واحد قطعة صغيرة يرجعها إلى القفة ويسلمها إلى الباش شاوش، فيعشق الباش شاوش: "الْعَاشِقُ فِي التِّي صَلَّيُوا عَلَيْهِ، يَا مَاذَا تَرَبِّحُ وَتُنَالُ يَا عَبْدُ تُصَلِّيَ عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ - قَلْبِكَ عَامِرٍ يَا اللَّيْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ التِّي.. يَا سُلْطَانِ الصَّالِحِينَ يَا بَابَا عَبْدِ الْقَادِرِ.. سِرِّكَ حَاضِرُ يَا وَلَدَ امِّ الْحَيْرِ يَا بَابَا مُجِي الدِّينِ يَا جَيْلَانِي" ثم يشرع في الدلالة على ما في القفة فيقول: "تَرَبِّحُ وَتُسَعِدُ يَا اللَّيْ تُحَلِّظُ حُمَيْرَتِكَ مَعَ حُمَيْرَةِ الشَّيْخِ سَيِّدِي عَبْدِ الْقَادِرِ" ويقترح ثمنًا، وتستمر المزايدة إلى أن تقف على أحدهم، فيشتري الخميرة أي يتسلم

الققة بما فيها، ثم تقرأ الفاتحة بعد الدعاء له بالخير، وفي يوم "الميعاد" الموالي يأتي المشتري المذكور بالعدد المعين من الأرغفة!

الخرجات: ولا تخرج الجماعة القادرية بموكبها الرسمي إلا لأمر مهمّ، [والمهم عندي ليس بالضرورة كلهم عندهم] كزيارة ضريح أحد الأولياء أو وليمة ختان أو إيصال عريس إلى بيته أو تشييع حاج أو استقباله أو ختمة، وذلك عندما يصدر شيخ الزاوية الإذن للباش شاوش بالاستعداد، فينبه هذا الأخير بواسطة شواشه على جميع

1 نقل عن الصادق الرزفي، الأغاني التونسية.

الفقراء (المريدين) للحضور بالزاوية، فيتهيؤ الجميع من لباس وتعطيل الشغل، ويقع تفقد الآلات من نغارات وطيران ودفوف، ويتفقد الحرير: من صناجق وأعلام وكذلك آلة السقاء. ويخرج فقراء الزاوية بالمدايح والأعلام والحراب والطاسات من زاويتهم ويعودون إليها بعد كل عمل وهم في حالة حسنة من اللباس والنظام. أما لباسهم في الخرجة فهو المحصور أي المجرد عن لبس الجبّة والبرنس. وعليهم أكسية غالية الثمن متركبة من شاشية حمراء وكشطة (عمامة) مطروزة بالحرير وصدريّة وفرملة وغليلة كرمسود في الصيف أو ملف رصاصي شتاء، وسروال رؤى أكحل أو رمادي داكن. وعلى أكتافهم كبايط (معاطف) قصيرة بطربوش وأيدي (أكمام) تصل إلى المزمم ويكون لها شرابات من الحرير المفتول فتلا محكما وفي أوساطهم الشمالي (أحزمة) من الحرير الملون أو مناطق الجلد المطروزة بالذهب، وربما عصبوا على الكبايط تقارط (مناديل) الحرير الملونة¹.

ترتيب الخروج: يتقدّم الخرجة باش علاّم واقفا وسط مقدّمة صفين من العلامة (السنّاقية) يمينا وشمالا تاركين بينهما مسافة بين المترين والثلاثة ويبعد الواحد عن الآخر بنفس المقدار، وقد حملوا (السنّاق) في أوساطهم على محاملها المعلقة في رقابهم. وخلفهم على بعد مترين الباش سقا راكبا فرسا مزدانة اللجام والخرج بالرياحين والزهور وحمل عليه مشكا (قربة) كبيرا مملوء ماء، وخلف الباش سقا السقّاثون وأكثرهم من الشبان المراهقين قد لبسوا أحذية خفيفة حمراء، وشدوا المحارم الحريرية على الكبايط التي لبسوها، ويبد كل منهم طاسة من نحاس منقوشة نقشا حسنا قد شدّت بسلاسل رقيقة من نحاس أصفر، وزينت بالتور والزهور والرياحين وملئت ماء معظرا، فيجرون بينهم ألعابا من كّر وفرّ ويجيلون تلك الطاسات على رؤوسهم بخفة عجيبة بدون أن تراق منها قطرة ماء. ثم يأتي علاّم يحمل شبه لواء صغير معلقة فيه مبخرة من نحاس كبيرة كالطبق مشدودة لذلك اللواء بسلاسل وعشاق بيده حقة البخور فيضع البخور من حين إلى آخر ويُعشّق مثلما بيّنا سابقا. ومن ورائهم بعض الشوّاش يحملون الحراب الملوّنة بالأخضر والأحمر. وخلف هؤلاء كلّهم جماعة العمل ملتقّين صفوفًا حول شيخهم وبأيديهم البنادر والطيران والنغرات، وخلفهم شيخ الطريقة، وعلاّم يحمل على رأس

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 112.

الشيخ علما أخضر، فيشرعون في المديح بصفة ترسل وهزج قريب من الخفيف، ويسير الموكب إلى المحل المقصود على هذا المنوال¹.

عند الوصول إلى المحل المقصود، يكون الدخول بالعادة² وهي أن يدخلوا منشدين³:

بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَبِحَجَّهِ رَسُولِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ ذِي الْإِحْسَانِ * مَوْلَانَا عَظِيمِ الشَّانِ * سَأَلْنَاكَ بِالْعَدْنَانِ * سَيِّدَنَا رَسُولِ اللَّهِ

ولهم عادة أخرى:

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ دَائِمٌ رَبِّي

عَوْنِي وَحَسْبِي مَالِي سِوَاهُ

وعند الدخول ينشدون:

قَالَ رَبِّي فَأَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ

يَا إِلَهِي بِالْمُشَفِّعِ صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمُرْفَعِ

لَا تُخَيِّبْ يَا إِلَهِي كُلَّ مَنْ حَضَرَ وَيَسْمَعُ

أما العمل داخل المحل، فيفتح الشيخ بقراءة الفاتحة، ثم يدخلون في المديح بدون آلات بصفة تدريجية من التأنى إلى الحدّة، ثم يندفع الشيخ في المديح ويعاونه كاهيته أو الأفراد بالردّة.

ومن أمداهم [من وزن اللاحق وهو مخلع البسيط]:

يَا رَبَّنَا صَلِّ ثُمَّ سَلِّمْ عَلَى رَسُولِ حَوَى الْمَفَاخِرِ

شَوْقِي نَمَا وَالْعَرَامُ زَاهِرُ وَالدمع يجري من عَيْنِي زَاخِرُهُ

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 113.

2 العادة: نعمة يستعملونها أثناء المسير قرب الدخول للمحل المقصود، وهي نوع من الغناء الحاد بأوزان مخصوصة. المرجع السابق.

3 الرواية الآن شفوية من الشيخ محمد الزيتوني شيخ القادرية.

4 وردت في السفينة القادرية بلفظ: شَوْقِي نَمَا وَالْعَرَامُ وَأَفِرُ * وَالدمعُ مِنْ مُقَلَّقِ زَاخِرِ وَجَيْشِ صَبْرِي لَهُ أَنْهَرَامُ * وَالظَّرْفُ جُنْحُ اللَّيَالِي سَاهِرُ وَالْقَلْبُ قَدْ صَارَ ذَا اخْتِرَاقِ * يَبَارِ شَوْقِي لَدَى الضَّمَائِرِ لَهُ يَجْخِرُ الْوَرَى عَرَامُ عَنْ وَصْلِهِ لَمْ يَكُنْ بِصَابِرِ

ومن مديح العمل أيضا: [من تلميع الرمل]

يَا ابْنَ أُمِّ الْخَيْرِ صَلِّني * يَا ابْنَ أُمِّ الْخَيْرِ إِنِّي * شَائِقٌ بِاللَّهِ صَلِّني¹

ومدحة أخرى للشيخ المنزلي [من تلميع الرجز]:

الله الله رَبُّنَا * يَا مَنْ لِعَيْنِي سَاتِرٌ * سُلْطَانُ كُلِّ الْأَوْلِيَا * الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ

أَدْخَلَ حِمَاهُ لِاتَّخَفَ * اسْكُرْ وَعَنْ لَاتَّخَفَ * إِنْ رُمْتَ تَبْلُغَ الشَّرْفَ * بَادِرْ لِعَبْدِ الْقَادِرِ²

قادرية ففصة: هي فرقة بإشراف الشيخ عبد الرحمان الفزاني، لها عدة مدحات في مدح الشيخ عبد القادر بارتجال في مقام الراست الشرقي على إيقاع المربع التونسي [في البحر الكامل]:

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ وَالْآلِ وَالْأَصْحَابِ وَالْأَوْلَادِ

يَا رَا حِلِينِ إِلَى مَنِي بِالزَّادِ هَيَّجْتُمُو يَوْمَ الرَّحِيلِ فُوَادِي

سِرْتُمْ وَسَارَ دَلِيلُكُمْ يَا وَحْشَتِي الشُّوقُ أَقْلَقْتَنِي وَصَوْتُ الْحَادِي

أَحْرَقْتُمُو جَفَنِي الْمَنَامَ يَبُغِدْكُمْ يَا سَاكِنِينَ الْمُنْحَى وَالْوَادِي إلخ

ثم في مقام المزموم على إيقاع السعداوي مدحة (عَدَالَةٌ يَا عَدَالَةٌ) للشيخ عبد السلام الأسمر (وهي مدحة تغنيها جميع الطرق). ولها في لهجة العرضاوي على إيقاع المدور حوزي:

يَا رَاكِبَ اللَّيِّ رَاخَ هُجْرِنِي قَاصِدُ بَيْتِ اللَّهِ نُزُورِ الْعِدَّتَانِي

ثم مدحة أخرى في مقام السعداوي الصحراوي على إيقاع السعداوي:

يَا لَيْتَهُ بِالْوِصَالِ يَحْظِي لِكِي تُرَى عِنْدَهُ الْبَشَائِرِ

وهكذا حتى تمام الأربعين بيتا، ص 180 - 181.

1 في السفينة، ص 215 أتت على نظم التلميع:

يَا بَنَ أُمِّ الْخَيْرِ إِنِّي مُسْتَهَامٌ فَلْتَصِلِي

يَا بَنَ أُمِّ الْخَيْرِ إِنِّي شَائِقٌ بِاللَّهِ صَلِّني

أَنْتَ قَطْبٌ فِي الْبَرِّيَا أَنْتَ فَخْرٌ وَمَزَايَا

زَادَكَ اللَّهُ الْعَظَايَا دُونَ مَا كَيْلِ وَوَزِينِ

2 السفينة القادرية، ص 267.

يَابُويَا مَا جَاشَ عَبْدُ الْقَادِرِ * سُلْطَانُ كُلِّ الْأَوْلِيَاءِ * الشَّيْخُ سِرُّهُ حَاضِرُ

ثم مدحة أخرى في مقام السيكاه تبتدئ بارتجال قصيد (عروبي):

جَلُولُ يَا عَزْ دَهْرِي يَا زِينَتِي فِي حَيَاتِي

هَجَرْتَنِي طُولَ عُمْرِي وَالنُّومُ قَلَّلَ هَنَاتِي

ثم تأتي المدحة في مقام السيكاه على إيقاع دخول براول:

جِسْمِي فَنَى وَقَامَ صَبْرِي يَا الْأَيْمِي شُوفَ ذَاتِي

جِيلَانِي إِعْطَفَ عَلَيَّ يَا مُوَلَى الرَّثْبَةِ الْعَلِيَّةِ

شَيْخِي يَا بَحْرَ الْكَمَالِ أَنْتَ سُلْطَانُ الرَّجَالِ

كُنْ مَعِي فِي كُلِّ حَالٍ وَاحْمِنِي مَيْتًا وَحَيًّا

يَا شَيْخِي يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنْتَ سُلْطَانُ الْأَكَابِرِ

كُلُّ مَا تَرَانِي نَافِرُ يَا مُوَلَى النَّفْسِ الرَّكِيَّةِ

ثم مدحة أخرى في مقام السعداوي على إيقاع دخول براول:

حَيِّ بَاقِي صَلِّ يَا إِلَهِي عَلَى سَيِّدِ رُقِيَّةِ

ومدحة في مقام السيكاه وإيقاع دخول براول:

السَّلَامُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ وَالصَّلَاةُ عَلَى الْمُرْسَلِ

نموذج من وظيفته القادرية خاصة بمدينة ففصة¹

سبق أن ذكرنا أنّ الشيخ محمد العربي بن إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي، بعد وفاة أبيه وتولّي أخيه محمد الكبير أمر الزاوية الأم بنفطة، ذهب فجلس على رأس زاوية ففصة، ينشر الطريقة ويعلم الأتباع. ونذكر هنا نموذجا من الوظائف وهي الوظيفة المعمول بها في زاوية ففصة أتباع الشيخ محمد العربي.

1 - الدخول: أمام باب المحل بخمسة أمتار تقريبا، يدخلون بالعادة وتسمّى الدخول والمتداولة وهي مدحة:

(يَا ابْنَ خَيْرِ الْأَكْوَانِ * صَلِّ لِي لِلَّهِ * آه يَا جَيْلَانِي)²

نورٌ مَحْبُوبِي يُشْرِقُ * وَيَلُوحُ فِي الْمَشْرِقِ * وَبِهِ الْكَوْنُ يُشْرِقُ * فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ
قَدْ بَدَأَ نُورُ الْبُرْقِ * لِأَمْحَا نَحْوَ الشَّرْقِ * هَاجَ فِي قَلْبِي عَشْقِي * وَاعْتَرَّتْنِي أَشْجَانِي
قُلْتُ مِنْ قَرَطِ الْحُبِّ * صَلِّ فُوَادِي يَا حَبِّي * وَاشْفِ بِالْوَصْلِ قَلْبِي * يَا ابْنَ طَهِّ الْعَدْنَانِي

1 رواية الشيخ محمد الزيتوني الضرير الففصي. وقع الحديث الميداني مع حسين الحاج يوسف بتاريخ 4 مارس 1993.
2 أخذ النص من السفينة القادرية، ص 306.

جُد لي مِنْكَ بِالْوَصْلِ * يَا ابْنَ أَكْرَمِ الرُّسُلِ * يَا مُطَهَّرَ الْأَصْلِ * يَا شَيْخِي يَا جَيْلَانِي
ثم بعد الدخول إلى الدار تُقرأ الفاتحة وقوفاً، ويجلسون .

2- بعد الجلوس: توضع أمامهم مائدة بالشمع الموقود في القديم، أما الآن فأنوار الكهرباء
فتُقرأ الفاتحة من جديد، ثم الإخلاص ثلاث مرات (قل هو الله أحد) ثم المعوذتين (قل
أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) ثم الفاتحة، ثم قصيد جماعي ثم تأتي :

القصيدة الثائية للشيخ عبد القادر الجيلاني في طبع المزموم [من البحر الطويل]:

صَلَاتِي وَتَسْلِيمِي وَأَرْكَى تَحِيَّتِي عَلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْوِلَايَةِ وَقَدْ مَنَّ بِالْتَّصْرِيفِ فِي كُلِّ حَالَةٍ

ثم القصيدة الميمية في طبع النوى [من البحر الخفيف]:

يَا إِلَهِي عَلَى النَّبِيِّ دُمُ صَلَاتِي وَسَلَامِي عَلَى مُرُورِ الدَّوَامِ
طُفَّ بِحَنَانِي سَبْعًا وَلُدُّ بِدِمَامِي وَتَجَرَّدُ لِزُورَتِي كُلَّ عَامٍ²

وللقادرية مدحات في كل الطبوع التونسية.

مدحة: (يَا ذِرْوَةَ الْعَمَالِي يَا أَبَا الْخَيْرِ) من تلحين الشيخ محمد الزيتوني الضرير.

ثم مدحة (الْبَارُ بُلْبُلُ الْأَفْرَاحِ) في (السعداوي الصحراوي المعروف لدى أصحاب
الموسيقى الشعبية بالجندي)، وتتواصل السهرة، وتأتي الخمرة التي لا يقام بها إلا لأهل
الطريقة الخيوان (الإخوان بالعامية) فلا تقدم لغيرهم.

3 - أورااد الخمرة: ثلاث قصائد اثنتان من تأليف الشيخ الإمام المنزلي وواحدة
من تأليف الشيخ عبد القادر الجيلاني نفسه. فمن كلام المنزلي: القصيدة الأولى في
مِحْر سِيكَاهُ:

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ صَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
أَنَا دَيْتُ الْجَيْلَانِي مُوَلَّى الْعِنَايَةِ وَالْبُرْهَانِ

1 النص بعد تصحيحه من السفينة، ص 155، (حيث ذكر المنشد (جدي ونسبي، عوضا عن خير البرية).
2 السفينة القادرية، ص 158.

يَا سَيِّدِي لَا تَنْسَانِي اِكْشِفْ هُمُويِ وَالْأَحْرَانَ
يَا مُوَلَى السَّرِّ الثُّورَانِي يَا مُتَصَرِّفَ فِي الْأَكْوَانَ

الله الله

أَنَا سَقَانِي بِنِ مُوسَى عِنَايَتِي سَاكِنِ بَعْدَادًا
شَرْبَةَ هَنِيَّةٍ مَحْرُوسَةَ مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَا وَالْحُسَّادِ
يَا شَيْخِي يَا مُوَلَى الثَّغْرَةَ إِنْعِرْ عَلَيْنَا يَا صَدَّادًا
وَاحْمِينَا مِنْ كُلِّ مَضْرَّةٍ وَاجْلِي عَلَيْنَا ذَا الْأَنْكَادِ
يَا شَيْخِي دَاوِيْنِي نِيْرِي وَجُدْ لِي مِنْكَ بِالْأَمْدَادِ
وَكُنْ مَعَ جَمْعِ الْفُقَرَا وَاحْضِرْ مَعَانَا فِي الْمِيْعَادِ
وَاجْمِيْنَا رَاكِبَ عِ الْحُمْرَا أَنْتَ وَجَمِيْعِ الْأَسِيَادِ
إِلَهِيْتِي مِصْبَاحِ الْخُضْرَا سَيِّدِي بَقِيْ جَدِّ الْأَجْدَادِ
أَبِي سَعِيْدِ الْقَيْلُوبِي وَكُلِّ مَنْ يُسْكُنُ بَعْدَادًا

وأثناء أدوار الخمرة تقع الإشارة من مقدم الطريقة لإطفاء النور، فيذكرون اسم الجلالة وقوفاً، ويقع رقص مفرط يُعَشَّى به على بعض القوم فيفيقونه بقراءة الفاتحة في أذنه أو رشه بالماء وبعضهم بعزف نوبته (أي مدحته). وهكذا تنتهي السهرة بعد الخمرة بقصيدة القيام في المحيّر عراق [وهي من البحر الكامل ماعدا البيتين الأولين المشوْشي الوزن] بدون آلات يقول المقدم:

أَهْلُ الْبَصَائِرِ * سَادَتِي لَا مَحَالَةَ * لِعَبْدِ الْقَادِرِ * هَلْ رَأَيْتُمْ مِثَالَهُ؟²

1 السفينة القادرية، ص 286.

2 السفينة القادرية، ص 231، وهي قطعة بها 15 بيتاوهي:

أَهْلُ الْبَصَائِرِ سَادَتِي * لَا مَحَالَةَ لِعَبْدِ الْقَادِرِ فَهَلْ رَأَيْتُمْ مِثَالًا * وَهَلْ عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَكْبَارِ سَيِّدًا
يُشَابُهُ الْجِيلَانِي سِرًّا وَحَالًا * مَا فِي نَهَاهُ مَتَّانِعٌ. كَلًّا.. وَلَا * يَلْقَى الْمُخَالِفَ فِي عُلَاهُ مَقَالًا
مَا زَالَ يُخْتَرَقُ السُّطُورُ وَيَزْتَقِي * حَتَّى رَأَى عَرْشَ الْإِلَهِ تَعَالَى * طَافَتْ بِهِ الْأَمْلَاكُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
أَنْوَارُهُ قَدْ أَصْبَحَتْ تَتَلَاَلًا * عَمَّتْ مَنَاقِبُهُ الْأَفَاقَ وَلَمْ تَزَلْ * أَنْوَارُهَا بَيِّنَ النُّورِي تَتَلَاَلًا
دَانَتْ لَهُ السَّادَاتُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * مَدُّوا لَهُ أَعْنَاقَهُمْ إِنْجِلَالًا * دَلَّتْ لَهُ الْأَبَابُ فِي كُلِّ حَضْرَةٍ
وَمَلَأَ الْقُلُوبَ مَهَابَةً وَجَمَالًا * وَبَمَذْجِهِ حُلَّ الْمَجَالِسِ رُضْعَتٌ * وَتَلَبَّسَتْ مِنْهُ سَنَى وَجَمَالًا

ويظهر أن القصيدة نظمت في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم انتحلت لمدح عبد القادر الجيلاني.

هَلْ عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَكَابِرِ سَيِّدًا يُشَابِهُ الْجِيلَانِي سِرًّا وَحَالَةً
فَإِذَا بَسَطْتُمْ مَجْلِسًا فِي مَدْحِهِ قُومُوا عَلَى أَفْدَامِكُمْ إِجْلَالًا
ويقوم الناس ويأخذون البنادر ويقولون :

قُولُوا لَهُ يَا مُنِيَّةَ النَّفْسِ هَبْ لَنَا صِلْ وَبَلِّغْ مَقَاصِدًا وَأَمَالًا
رُدُّوا سَلَامِي لِلْإِمَامِ الْجِيلَانِي مَا سَارَرَكَبٌ إِلَى الْحُجَّازِ لِحَالَةٍ

وهذه الطريقة القادرية كبيرة وموسعة، ولها الوظيفة، ولها سفينة بها ما يقرب من المائة قصيدة وليست كلها جيدة الأوزان عروضاً.

عشية الجمعة: تقرأ الوظيفة بدون آلات وتشتمل على (1) الاستغفار و(2) التسبيح و(3) اسم الجلالة و(4) الصلاة على الرسول ثم (5) الأحزاب ومنها حزب الإشراف: أَشْرَقَ نُورُ اللَّهِ وَظَهَرَ.

يضيف الدكتور صالح المهدي أن القادرية قد ينشدون البردة بالصنائع (وهي أغان صوفية خارجة عن البردة) وكان أبرز شخصية في القادرية الشيخ عثمان شلبي، وكانت مجموعة منشدين ينشدون جانباً من المرزوقية ويغنون آهات من البشارف التونسية قبل الذكر، ولهم باش منشد له دور عند الذكر، فالمجموعة تقول: (هُو، هُو) ويخرج هو بقصيدة. وبصفة عامة لا تستعمل القادرية المألوف في إنشادها.

في الجنازات: كل ميت يخرج بالطريقة التي كان ينتمي إليها ففي ففصصة يخرج بالطريقة القادرية على هذا النحو:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ أُنْسِي فِي قَبْرِي

فَتَرَى أَوْلَاثَ الدُّوقِ عِنْدَ سَمَاعِهِ * يَتَمَايَلُونَ مِنَ الْعَرَامِ قُمَالِي * بِحَبَاتِكُمْ يَا سَادَتِي إِنْ كُنْتُمْ
مِنْ حَوَى شَوْقًا وَنَالَ امْتِنَالًا * وَإِذَا بَسَطْتُمْ مَجْلِسًا فِي مَدْحِهِ * قُومُوا عَلَى أَفْدَامِكُمْ إِجْلَالًا
قُولُوا لَهُ يَا مُنِيَّةَ النَّفْسِ هَبْ * وَصَلِّ وَبَلِّغْ مَقَاصِدًا وَأَمَالًا * فَعَلَيْكَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ نَجِيَّةً
نُسَيْدِي إِلَيْكَ مَسْرَّةً وَبِحَمَالًا * أَهْدِي سَلَامِي لِلْإِمَامِ الْجِيلَانِي * مَا سَدَّ رُكْبٌ لِلْحُجَّازِ رَحَالًا

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ مِفْتَاحُ الْجِنَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ مَعْدِنُ السَّرِّ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ الْكَوْكَبُ الدَّرِّي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ أَحْسَنُ الذُّخْرِ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ أَمْنِي فِي الْحَيَاةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا أُفْنِي عُمْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ أَنْسِي فِي الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ نُورِي فِي حَشْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا أَرْضِي رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا يُنْحَى وَزْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا أُعْطِيَ الْمُنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ عَزِي فِي دَهْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا أُعْطِيَ الرِّضَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا يَعْلُو قَدْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْمِينِي يَوْمَ الْجَزَاءِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا يَزْكُو أَمْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا أَلْقَى رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا يَسْمُو فَخْرِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هِيَ تَرَجِّحُ فِي الْمِيزَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا يُشْفَى ضُرِّي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُنَجِّنِي مِنَ الصَّرَاطِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُسَكِّنِي أَعْلَى قَصْرِي¹

وهي قصيدة طويلة على هذا النمط وهذه القافية تعد أربعين بيتا.

أما في الحاضرة فيقولون:

يَا أَهْلَ اللَّهِ * قَلْبِي بَعَاكُمْ * وَتَفُورُ بِكُمْ إِلَى اللَّهِ

في المولد: في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لا يقولون إلا القصائد النبوية.

في الأعياد: في الأعياد يجتمع قادية بلاد الجريد كلهم ويقصدون نفطة لزيارة مؤسس الطريقة بالجهة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي، وكما يؤدون زيارة إلى مقام أبي علي النفطي صاحب الطريقة العلوية (البوعلية).

1 السفينة القادرية، نشر مكتبة المنار تونس، بدون تاريخ، ص 274.

فرقة الحوامد الصوفية بالمنشية (ولاية قبلي)¹

في قرية المنشية من معتمدية سوق الأحد التي تقع في الجنوب الغربي للبلاد التونسية وهي نفازة القديمة الواقعة بين شط الفجيج وشط الجريد شمال ولاية قبلي على السفح الشمالي لجبل حلوص، عاش الشيخ حامد الشريف الحشاني في القرن التاسع للهجرة أي الخامس عشر للميلاد حيث أنشأ زاوية الحوامد التي ترجعها إشراق بوتوتة إلى الطريقة القادرية² معللة ذلك أن الفرقة تبدأ إنشادها بمدحة من تأليف الشيخ عبد القادر الجيلاني، ونحن إذ وافقناها على إرجاع الفرقة للطريقة القادرية فلسبب آخر وهو استعمال الآلات كما سيأتي في مقالنا "تفرع القادرية".

طريقة العمل: يتميز برنامج العمل في فرقة الحوامد بأن المدائح تصل إلى الثلاث والعشرين متنوعة المواضيع والأغراض من أهالي المنطقة ورغم طولها تؤديها الفرقة كاملة دون اختصار، في البداية تقوم بعزف يسمونه "النوبة" وهي فقرة إيقاعية متعددة الموازين وهي ضرورية للحضرة، ثم تنطلق الأمداح وتقع استراحة بين المدحة والأخرى، وبالإضافة إلى ذكر الشيخ حامد لا بد من الانتهاء بمدحات أخرى تتناول الأولياء مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني أو سيدي مرزوق التي ترجع إليه قبيلة المرازيث.

1 إشراق بوتوتة، فرقة الحوامد الصوفية بمنطقة المنشية (ولاية قبلي)، رسالة ختم الدروس الجامعية جامعة سوسة، المعهد العالي للموسيقى، السنة الجامعية 2005 - 2006.
2 المرجع السابق ص 20.

ومن أمثلة أمداحهم ما يبدوون به سهرتهم (من البحر الخفيف) وهي من كلام الشيخ المنلا:

يَا إِلَهِي عَلَى النَّبِيِّ دُمُ صَلَاتِي وَسَلَامِي عَلَى مُرُورِ الدَّوَامِ
طُفُّ بِحَنَانِي سَبْعًا وَلُدُّ بِذِمَامِي وَتَجَرَّدُ لِزُورِي كُلِّ عَامِ
أَنَا سِرُّ الْأَسْرَارِ مِنْ سِرِّ سِرِّ كَعْبَةُ رَاحَتِي وَبَسْطِي مُدَامِ

حتى يقول:

أَنَا عَبْدٌ لِقَادِرِ طَابَ وَقْتِي جَدِّي الْمُصْطَفَى شَفِيعُ الْأَنَامِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَعَلَى آلِهِ بِطُولِ الدَّوَامِ

ومن هذا القصيد استنتجت الأستاذة إشراق أن الفرقة قادرية.

ومن أمداحهم في شيخهم (في البورجيلة):

سَيِّدِي حَامِدُ يَا حَسَّانِي نَيْكَ نِنْدَهُ بِالْكَ تِنْسَانِي

**** **

سَيِّدِي حَامِدُ يَا بَابَايَا يَا رُوحِي وَعِزِّي وَغَلَايَا
إَفْرَعْ اثْعَنَّا اثْلَايَا يَا مُوَلَى السَّرِّ الرَّبَّانِي

الطريقة الرفاعية

تنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة 578 هـ

الشيخ المؤسس: هو أبو العباس أحمد الكبير بن علي بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي الحسيني¹ الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية، قدم أبوه من المغرب وسكن بالبطائح بقرية أم عبيدة فتزوج بأخت منصور البطائحي الحسيني الزاهد وكان مقرئاً إماماً، فرزق منها الشيخ أحمد وإخوته. ولد الشيخ أحمد في قرية "حسن" من أعمال "واسط" وهي محاذية لأم عبيدة بالعراق سنة 512هـ / 1118م، توفي أبوه ببغداد سنة 519هـ فكفله خاله منصور. وبعد حفظ القرآن الكريم، أدخله خاله منصور على الشيخ أبي الفضل الواسطي فتفقه بالفقه الشافعي وتأدب في "واسط"، وظل يطلب العلم حتى السابعة والعشرين من عمره فأجازه الشيخ علي الواسطي، وتصوّف فألبسه خاله المنصور الخرق²، وانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير، وحجّ سنة 555هـ فمما يذكر من كراماته ما أورده محمد درويش الحوت البيروتي: قال في معرض الحديث عن رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومن ذلك ما وقع لسيدنا الرفاعي رضي الله عنه حين زار النبي صلى الله عليه وسلم وأشد عند الحجرة

1 خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص51 و52.

2 أحمد بن علي الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، اعتنى به محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2000، ص، 10 - 13.

الشريفة البيتين المشهورين وهما [من البحر البسيط]:

فِي حَالَةِ الْبُغْدِ رُوجِي كُنْتُ أَرْسَلُهَا تُقْبَلُ الْأَرْضَ عَنِّي وَهِيَ نَائِبَتِي
وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ فَأَمْدُدُ يَمِينَكَ كَيْ تَحْطَى بِهَا شَفَتِي

فمثلت له اليد الشريفة وقبّلها، والخبر مشهور من قبّل الإمام المذكور¹. وحضر الواقعة الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حياة بن قيس الحرّاني، والشيخ عدّي بن مسافر الشامي وغيرهم كما نقل عنه أخبار مماثلة من الكرامات، هذا وقد صنّف كثيرون كتباً خاصة به وبطريقته وأتباعه منها كتاب (ربيع العاشقين) لعلي بن جمال الحداد و(ترياق المحبين) لتقي الدين الطوسي و(النفحة المسكية) للفاروق الواسطي و(خلاصة الإكسير) لعلي الواسطي و(العقود الجوهريّة) لأحمد عدّت الفاروق وغيرها.

وفي كتاب (عجائب واسط) لابن المهذب أن عدد خلفاء الرفاعي وخلفائهم بلغ مائة وثمانين ألفاً في حال حياته. وجمع بعض كلامه في رسالة سمّيت (رحيق الكوثر) وينسب إليه شعر.

وتوفي يوم الخميس وقت الظهر ثاني عشر جمادى الأولى سنة 578 هـ [1182 - 1183م] ولم يخلف عقباً، وأما العقب فلاخيه. ودفن بزاوريته بـ "أم عبيدة" بالبطائح بمحافظة البصرة بالعراق. وقبره إلى الآن محط رحال سالكي طريقته.

أخبار الطريقة: انتشرت الطريقة² في حياة الشيخ وعن طريق أحفاده (أي أحفاد أخيه) بكامل الشرق الأوسط فأسسوا بمصر مثلاً "العنانية" أتباع الشيخ عبد الوهاب العناني وبالعراق العربي "القرزونية" أتباع الشيخ عمر بن أبي الفرج القزروني، وبسوريا "الرفاعية-الصيدية" أتباع الشيخ حسن أفندي، ثم اجتمعت كلها تحت لواء الشيخ أبي الهدى المستشار الحميد للسلطان عبد الحميد فقد كان الشيخ أبو الهدى الحلبي الأصل متصرفاً في ممتلكات الشرفاء بالولايات ومدير الفرع السوري وقد اشتهر بأعماله التنجيمية وكتبه في الطريقة الرفاعية، ووصل إلى امتيازات سلطانية لدى السلطان

1 محمد درويش الحوت البيروتي، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، طبعة مصطفى الباي الحلبي بمصر، صفر سنة 1346 هـ، ص 295.

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 326.

العثماني مثل زميله الشيخ ظافر شيخ المدنية الدرقاوية وسياقي الحديث عنه، ومن هناك بدأ الشيخ أبو الهدى بالمناداة بالوحدة الإسلامية منذ 1882 م.

غير أن طريقة شطحهم أبعدهم عن الطبقة المثقفة، ووجدوا استجابة كبيرة في صفوف العامة. وشيئا فشيئا انتشرت هذه الطريقة المناوئة للقادرية بالعراق وسوريا وبالجزيرة العربية باليمن والحجاز ومكة والمدينة وبتركيا، ولكنها عندما وصلت إلى إفريقيا الشمالية اختلطت ممارساتها بالطريقة العيساوية فذابت فيها ولم تجد لها امتيازاً.

أصول الطريقة: ينادي أصحاب الطريقة حسب زعمهم بانسحاق شخصية الفرد وذوبانها عن طريق الممارسات الصوفية الشطحية، فذلك ما قذف الله في قلب أستاذهم. وبصرف النظر عن ذلك، فإن الشيخ أحمد الرفاعي يركز تعاليمه على السلسلة الصوفية كما يلي: أحمد الرفاعي عن أبي الفضل عن علي القاري عن أبي الفضل بن رباح الواسطي عن علام بن تركان عن أبي علي عن أحمد بن محمد الروضباري عن علي العجمي عن أبي بكر الشاقي عن ذول بن جحدر عن أبي القاسم الجنيد الخ... كما يرفع الشيخ الرفاعي سلسلته الروحية إلى أبي بكر الصديق عن طريق الشيخ يحيى إلى أنس بن مالك، أما عن شجرة نسبه فهي شجرة الشيخ عبد القادر الجيلاني عن طريق أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد بن يحيى الذي هاجر من بغداد إلى البصرة ليقوم بنقابة الشرفاء هناك.

طريقة العمل: لم تعد الطريقة لدى الرفاعية تلك السعادة اللطيفة لدى القادرية بل صارت انتشاء عظيماً يثير ممارسات واهتزازات عنيفة تترجم بصيحات وهتافات وانفلات من كل قيد في هياج وتوتر، فالرفاعية ليسوا متخمرين فقط بل هستيريين عند الذكر (لا إله إلا الله، الله، الله.. هو.. هو) فيقفون ويشكلون سلسلة بأن يضع كل واحد يديه على كتفي الذي أمامه فيتراكعون في كتلة واحدة إلى الخلف ثم إلى الأمام صائحين (أيارفاعي، أيارفاعي!) ويتهاك البعض سكرًا وجنونًا والبعض يرمون على الشعابن وعلى النيران المشتعلة والسكاكين والحناجر المحماة التي تعدّ للحلقة الأخيرة فيلحسون ويعضون بانتشاء عجيب حتى ينصبّ العرق انصبابًا وتجحظ العيون من

1 لعل ذلك ما يفسر ممارسات العيساوية المخالفة ظاهراً لتعاليم (الشيخ بن عيسى نفسه) فتكون من آثار الرفاعية التي هي الأخرى تظهر مخالفة لما اشتهر به الشيخ الرفاعي.

محاجرها وتُزبد الأفواه فيسقطون على الأرض في منظر مثير، وبعد لحظات يذرع الشيخ الغرفة فيفحص هؤلاء المرضى الواحد بعد الآخر فيتفل على جراحاتهم من ريقه ويقراً بعض الأدعية فيمكنهم من البرء وهم يؤكّدون أنه بعد يوم لن تجد أثراً لأي جراح¹.

يمتاز، إذن، أتباع الطريقة الرفاعية بالخرقة السوداء والكوفية المزركشة بنسيج غليظ، وهم في عملهم يأكلون الزجاج ويزردون الحشرات السامة ويتمرغون على الأشواك ويلعبون بالسيوف والحراب²، ويشبهون في ذلك العيساوية.

وذكرنا الرفاعية الذين يسمون بالدرأويش الصائحة لشبههم بالجباوية (السعدية) أتباع سعد الدين الجبائي المسمون بالدرأويش السائحة، وبالعيساوية من ناحية، ولتصوّرنا أن الممارسات العيساوية منقولة عنها بطريقة ما وبالخصوص رقصة الرفاعي، كما أورد كوبولاني وديبون التصريح بذلك في كتابهما، ولسنا بعيدين عن الصواب لو قلنا أن زاوية سيدي شيحة جعلت في الأصل لتبني هذه الممارسات من الطريقة العيساوية، بعد تأثرها بها.

وبالجملة فإنه يظهر أن الطريقة الرفاعية كما تمارس في هذه الأيام بسوريا تختلف عن كل ما كنا نقول، غير أن بقايا الإيقاع فيما نسمعه من أناشيدهم يدل دلالة واضحة على رواسب مما أوردناه، والله أعلم.

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 158.

2 كوبولاني، الطوائف...، ص 327.

الطريقة المدينية ﴿المدنية﴾

نسبة إلى الغوث أبي مدين شعيب بن حسن الأنصاري المدني المتوفى سنة 594 هـ/1197 م. وهي خلاف المدنية الدرقاوية التي سنذكرها فيما بعد، مع العلم أن هذه الأخيرة امتداد للأولى حيث أن الدرقاوية شاذلية وهذه تعدّ امتدادا لتعاليم الشيخ أبي مدين عن طريق تلميذه الشيخ عبد السلام بن مشيش أستاذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي. ويتلاقى نسبه للمدينة المنورة مع الشيخ محمد ابن حمزة المدني صاحب الطريقة المدنية الظاهرية التي تفرعت عن الدرقاوية مباشرة من الشيخ العربي الدرقاوي، فالاثنين ينتميان إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة، ومن جهة أخرى كانت المتأخرة امتدادا للأولى وهو من عجيب الموافقات. وسنرى ذلك عند الوصول إلى ذكر الدرقاوية.

الشيخ المؤسس: هو الشيخ شعيب أبو مدين بن حسن [الأندلسي البجائي] الأنصاري المدني ولد بإشبيلية سنة 520 هـ (1126 - 1127 م) وهناك من أرّخ لهذه الولادة بسنة 510 هـ/1116 م. [لم يتعلّم من القرآن إلا قليلا في صغره... واتّصل بالشيخ أبي يعزى¹ وأخذ عنه الطريق الصوفي. قال أبو مدين عن نفسه: (كنت بالأندلس يتيما فجعلني

1 هو الشيخ أبو يعزى يلنور بن سليمان المغربي المتوفى سنة 572 هـ/1176 م. كان أميا. أخذ عن أبي شعيب السارية المتوفى سنة 561 هـ/1165 م. وعن أبي الحسن بن حرزهم عن أبي بكر بن العربي عن الغزالي. وهو من برابرة المغرب وكلامه في الغالب باللغة البربرية وكثيرا ما كان ينقل حديثه بواسطة من يترجمه إلى اللغة العربية... أخذ عنه التصوف أبو مدين شعيب.

إخوتي راعيا لمواشيهم) ثم تخالف معهم ... وعبر البحر إلى طنجة ثم إلى سبتة فكان أجير الصيادين، ثم ذهب إلى مراكش ومنها إلى فاس فلازم جامعها وتعلم الوضوء والصلاة وجلس إلى حلقات الفقهاء والذاكرين. قال: (فلم أثبت على شيء إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي فسألتُ عنه فقيل لي هو أبو الحسن بن جرْزُهُم¹) فلازمه وأخذ عنه (السنن) لأبي عيسى الترمذي و(الرعاية) للحارث المحاسبي، وقال: "سمعت الناس يتكلمون عن كرامات أبي يعزى فذهبت إليه في جماعة لزيارته.

فلما وصلنا إلى جبل " برجان" ودخلنا على أبي يعزى، أقبل الشيخ على القوم دوني، فلما أحضر الطعام منعني من الأكل، وهكذا كان يمنعني من الأكل ثلاثة أيام. وقد أجهدني الجوع وفقدت بصري ومن الغد استدعاني وقال لي: اقرب يا أندلسي! فدنوت منه، فمسح بيده على عيني فأبصرت ومسح على صدري وقال: هذا سيكون له شأن عظيم"².

ويظهر أن هذا التصرف يمثل امتحانا للمريد حتى يختبر أستاذه طاقة تحمّله وصبره، فيعطيه على قدر ذلك ما يراه مناسباً له، ورأينا شبه هذا الإمتحان لدى الشيخ الدباس لتلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسنجده لدى الشيخ عبد الواحد الدوكالي مع تلميذه عبد السلام الفيتوري، وعند شاه النقشبند لدى أستاذه أمير كلال.

وأورد محمد البوهلي النبال في كتابه (الحقيقة التاريخية للتصوف ص 104): "واجتمع أبو مدين دفين تلمسان بالشيخ عبد القادر الجيلاني في مكة، ولبس الخرقة من يديه وأخذ طريقه، [ويقال أن أبا مدين قد استقر في تونس عند رجوعه من الحج وكان يجتمع في مسجد سوق السكاجين (مسجد أبي مدين) بالشيوخ: أبي يوسف الدهماني المتوفى سنة 621 هـ³، وعبد العزيز المهدي المتوفى سنة 621 هـ⁴، وأبي سعيد

1 هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم الفاسي المتوفى سنة 559 هـ / 1163م. من أهل فاس وانتقل إلى مراكش. أخذ التصوف وعلوم الشريعة عن عمّه أبي محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم؛ وعمه هذا رحل إلى الشرق وانقطع مدة بالشام ولقي هناك الإمام أبا حامد الغزالي، ثم عاد إلى فاس وتوفى بها. أما علي مترجمنا فمن شيوخه أبو الفضل النحوي التوزري بفاس وكان والده قد أوصاه به بزا. وكان جريئاً وشجاعاً، عاش في عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

2 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 204.

3 انظر ترجمته في كتابنا هذا (الطريقة البوعلية) ص 86 وما بعدها.

4 هو الشيخ عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي المتوفى سنة 621 هـ / 1224م، ذكره ونوه به الشيخ محي الدين بن عربي في (الفتوحات المكية) وكان يحضر دروسه. ومن تلاميذه الكثيرين أبو سعيد الباجي وهو الذي تولى غسله

الباجي المتوفى سنة 628 هـ¹، وأبي علي النفطي المتوفى سنة 610 هـ²، وأبي محمد صالح بن محمد بن عبد الخالق التونسي، والظاهر المزوعي المتوفى سنة 646 هـ³، وأبي عبد الله محمد الدبّاع⁴ والد صاحب (معالم الإيمان)، والشيخ جراح بن خميس. وفي المعالم أن عبد العزيز المهدي ومحمد الدبّاع والذهماني التحقوا به للزيارة وهو في بجاية⁵.

ويظهر أن التقاء الشيخ عبد القادر الجيلاني بالشيخ أبي مدين شعيب وإعجاب الأول بالثاني أدخل العديد من الباحثين في خطأ: تقول لطيفة الأخضر "وفعلا، فإن هذه الطريقة التي تنسب إلى سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلي أو الجيلاني ببغداد قد دخلت إلى تونس بصفة جدّ مبكرة عن طريق أبي مدين شعيب عند مروره بتونس راجعا إلى بجاية وذلك منذ القرن الثاني عشر ميلاديا⁶ ولكن أبا مدين لم يتلق

بعد وفاته وصلى عليه ولحده في قبره بمرسى جراح نسبة إلى سيدي جراح بن خميس دفن المرسي وكان أيضا من شيوخ ابن عربي. وكان قبر الشيخ عبدالعزيز بدون قبّة حتى شيدها حسين بن علي باي الحسيني. ويرى للشيخ عبد العزيز المهدي صلاة مباركة على الرسول الأعظم بدايتها: (اللهم صل على لوح رحمانيتك الذي كتبت فيه بقلم رحيميتك: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} (النيل ص 218).

1 هو الشيخ خلف بن يحي التميمي أبوسعيد الباجي نسبة إلى باجة القديمة من أحواز تونس العاصمة (قرب منوبة) كانت له صحبة بالشيخ أبي مروان البوني، واتصل بأبي مدين شعيب مثل الجماعة. وخرج من باجة إلى الحج سنة 603 هـ ومكث في مكة ثلاث سنين ومنها انتقل إلى الشام. ورجع إلى تونس سنة 606 هـ كان ملازما لمسجد شريط بباب البحر (لعله جامع المهراس) ثم اشتهر بين الناس بالصلاح والعبادة، واتصل به أبو الحسن الشاذلي ولازم مجلسه وطريقه، وأخذ عنه من المريدين أبو يوسف المحمدي وأبو محمد بن عبد السلام بن عيسى القرشي. وكان الشيخ أبو سعيد من تلاميذ الشيخ عبد العزيز المهدي وله اتصال متين به وبأبي مدين شعيب، وهو الذي تولى تجهيزه ودفنه. توفي شيخنا أبو سعيد سنة 628 هـ ودفن بجبل المنار حيث كان يتعبد مع أصحابه فبني مقامه وأسست ضاحية كاملة باسمه (سيدي بوسعيد). (انظر النيل: ص 224).

2 انظر في كتابنا هذا (الطريقة البوعلية).

3 هو الشيخ الطاهر المزوعي السافي المتوفى سنة 646 هـ/1248م أصله من عرب مزوغة وبلده قصورالساف بالساحل التونسي. انتقل إلى تونس ونشأ فيها ورافق أصحاب أبي مدين مثل محمد الدبّاع وأبي سعيد الباجي وعبد العزيز المهدي والذهماني وله سياحات؛ ورجع إلى قصور الساف في كبره وبقي بها إلى أن توفي. أخذ الطريق عن أبي مدين، وأبو مدين عن أبي يعزى وهو عن أبي الحسن بن حرزهم وهو عن أبي بكر بن العربي وهو عن الغزالي. ومن أحفاده الشيخ أبو الحسن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن علي عبد العزيز بن محمد بن الشيخ الطاهر المزوعي المولود بقصور الساف سنة 776 هـ/1374م أستاذ الشيخ علي الكراي أبي بغلة، ومن أحفاده أيضا الشيخ أبو الحسن علي المحجوب المتوفى سنة 953/1550م.

4 هو أبو عبدالله محمد بن علي الأنصاري الدبّاع المولود حوالي 540 هـ/1145م والمتوفى سنة 618 هـ/1221م، هو والد الشيخ عبد الرحمان الدبّاع صاحب كتاب (معالم الإيمان) كان عابدا فاضلا زاهدا من أهل الجدة والإجتهاد. وقد سمع من عديد الشيوخ آخرهم أبو مدين شعيب بن موسى الأندلسي مع بقية الأصحاب ودفن بمقبرة باب تونس بالقروان.

5 محمد البهلي النيل، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 104 وص 206.

6 لطيفة الأخضر، الإسلام الطريقي دراسة في موقعه من المجتمع من القضية الوطنية، دار سراس للنشر

طريقته على الشيخ عبد القادر بل على الشيخ أبي يعزى يلنور، وأن التصوف بالمغرب العربي متزامن مع التصوف الطريقي بالشرق، وطريقة أبي مدين تختلف اختلافا كبيرا في كل شيء عن الطريقة القادرية، ثم إن أبا مدين مرّ بتونس قبل رجوعه إلى بجاية التي لم يستقر بها فكانت وفاته بتلمسان. والقادرية لم تظهر بتونس إلا عن طريق الشيخ الشايب والشيخ المنزلي كما ذكرناه آنفا.

ويظهر أن لأبي مدين قبولاً لدى السلاطين: قال ابن عربي: " غضب السلطان على جماعة من العلماء خرجوا عليه ووقعوا فيه، فلما ظفر بهم أمر بقتلهم، فبلغ الخبر شيخنا أبا مدين رحمه الله وكان مرعي الجانب عند السلطان والخاصة والعامّة، فأخذ عصاه وخرج، فلما جاء دار السلطان أبصر القوم على تلك الحالة، فبكى. وأخبر السلطان بمكانه فتلقاه وقال: ما جاءنا بالشيخ في هذا الوقت؟ فقال: الشفاعة في هؤلاء. فقال السلطان: أو ما تعرف يا شيخ إساءتهم؟

فقال: وهل على المحسنين من سبيل؟ وهل الشفاعة إلا في أهل الكبائر من المسيئين؟ فاستعبر السلطان وعفا عن الجميع".

نشر أبو مدين شعيب مذهبه الروحاني في إشبيلية وقرطبة وبجاية، وتوفي بتلمسان سنة 594 هـ عن سن تناهز الأربع والسبعين سنة [وقيل خمس وثمانين وهو في طريقه من بجاية إلى مراکش وقد حمل مجلوباً بأمر سلطانها خليفة عبد المؤمن وقد أمر والي بجاية بإكرامه وحمله خير محل ودفن في تلمسان]. وأقيمت له قبة في "العباد" قرب تلمسان². وله زاوية جليلة بمدينة القدس الشريف ذكرت في كتاب (كنوز القدس)³.

"سئل ابن سبعين عن الغوث أبي مدين شعيب فقال: شعيب عبد عمل ونحن عبدة حضرة"⁴ وقال ابن عربي: "شيخنا أبو مدين الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء"⁵

بتونس أبريل 1993، ص 44.

1 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب، ص 270.

2 ترجمة ملخصة عن كبولاني، في الطوائف...، ص 443، والصادق الرزفي في (الأغاني التونسية) ص 127. وما بين [...] من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد البهلي النبال.

3 كنوز القدس الشريف، نشر منظمة المدن العربية 1403 هـ / 1983م، ص 386.

4 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 385.

5 المرجع السابق، ص 207.

ألف الشيخ أبو مدين عدّة كتب في تعاليم مذهبه. وله عدّة قصائد وموشحات دخلت في نطاق المألوف منها ذلك الموشح الذي أخذ شهرة كبيرة في تونس في مقام الإصبعين وهو:

أَنَا يَا مُدِيرَ الرَّاحِ أَفْتَانِي الْغَرَامُ
يَوْمَ نُرَاكُ نِرْتَاخُ يَا بَدْرَ السَّمَامِ

وكذلك قصيدته من البحر الخفيف:

لَسْتُ أَنْسَى الْأَحْبَابَ مَا دُمْتُ حَيًّا مُذْ تَأَوَّأْتُ لِلتَّوَى مَكَانًا قَصِيًّا

ومن أقواله رضي الله عنه: "من كان الأخذ أحبّ إليه من الإعطاء فما يشم للفقير رائحة" أي لا يفهم التصوّف أبدا. ويقول: "كلّ فقير لا يعرف زيادته ونقصه في كلّ نفيس فليس بفقير" ويقصد المراقبة المستمرة، ويقول: "نسيان الحق طرفة عَيْنِ خِيَانَةٍ" خيانة للعهد الصوفي، ولعله من الضروري الإطلاع على رأيه في التصوّف حتّى يفهم على أصله وحقيقته دون تحييز أو ميل لجانب دون آخر. "فقد ينقل بعض الدقائق الصوفية، كأن يروى أنّ أبا مدين سئل عن معنى الوصول فأجاب:

"إذا ذلك به عليك، كنت منه وإليه، وإذا أفناك عن الإحساس، كنت في حضرة الإيناس، وإذا كاشفك بحبه، لم تتلذذ إلاّ بقربه، وإذا غييبك عن شهودك، تجلّى لك من وجودك¹". فهذا يمكن أن نفهم رده عن اعتراض بعض الطلبة عليه في انجذابه الصوفي كما ذكره الشيخ محمد مخلوف² (من البحر الطويل):

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الْوُجْدِ أَهْلُهُ إِذَا لَمْ تَذُقْ مَعْنَى شَرَابِ الْهُوَى دَعْنَا
إِذَا اهْتَرَّتِ الْأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللَّقَا تَرَاقَصَتِ الْأَشْبَاحُ يَا جَاهِلَ الْمَعْنَى
أَمَا تَنْظُرُ الطَّيْرَ الْمُقْفَصَ يَا فَتَى إِذَا ذَكَرَ الْأَوْطَانَ حَنَّ إِلَى الْمَعْنَى
فَفَرَّجَ بِالتَّغْرِيدِ مَا بِفُؤَادِهِ فَتَضَطَّرِبُ الْأَعْضَاءَ فِي الْحِسِّ وَالْمَعْنَى
وَيَرْفُضُ فِي الْأَقْفَاصِ شَوْقًا إِلَى اللَّقَا فَيَهْتَرُّ أَرْبَابَ الْعُقُولِ إِذَا غَنَى

1 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب، ص 272.

2 النص كما ورد في مواهب الرحيم للشيخ محمد مخلوف، ص 143. طبعة طرابلس.

كَذَلِكَ أَرْوَاحُ الْمُجِيبِينَ يَا فَتَى تُهَزِّزُهَا الْأَشْوَاقُ لِلْعَالَمِ الْأَسْنَى
فِيَا حَادِي الْعُشَاقِ قُمْ وَاحِدٌ قَائِمًا وَرَمَّمْ لَنَا بِاسْمِ الْحَيِّبِ وَرَوْحَنَا
وَصُنْ سِرَّتَنَا فِي سُكْرِنَا عَنْ حَسُودِنَا وَإِنْ أَنْكَرْتَ عَيْنَاكَ شَيْئًا فَسَاحِحْنَا
فَإِنَّا إِذَا طَبْنَا وَطَابَتْ عُقُولُنَا وَخَامَرْنَا خَمْرُ الْغَرَامِ تَهَتَّكُنَا
فَلَمْ تَلْمِ السُّكْرَانَ فِي حَالِ سُكْرِهِ فَقَدْ رُفِعَ التَّكْلِيفُ فِي سُكْرِنَا عَنَّا

وهو تعبير شاعري يشعر السامع بالحب والوجد والفناء في ذات المحبوب، ولكن البيت الأخير يوهم بما لم نر أحدا من المدينة يتمسك به وهو سقوط التكليف الشرعية، وكما ترى فإن هذا الكلام لا يتعدى المعنى الشعري لهذا البيت، وهو أن يكون سقوط التكليف أي سقوط الوقار ومظهر الإجلال وليس سقوط التكليف الشرعية من صلاة وعبادة ثابتة بالكتاب والسنة، وقد يسقط الوقار من شدة الوجد وهو علامة من علامات كرم النفس: (وَإِنْ أَنْكَرْتَ عَيْنَاكَ شَيْئًا فَسَاحِحْنَا) لأن الكريم طروب كما قال ابن الرومي، وقد يصل بهم الجذب إلى أقوال يتوهم منها الحلول كما نلاحظه بينا في هذه القطعة من شعر شيخنا أبي مدين والتي ما زال ينشدها أتباع الطريقة المدنية الغوثية بزاوية سوسة¹. (من بحر الرمل):

أَيُّهَا الْحَاطِبُ مَعْنَى حُسْنِنَا مَهْرُنَا غَالٍ لِمَنْ يَحْطُبُنَا
جَسَدٌ مُضَى وَرُوحٌ لِلْعَنَا وَجُفُونَ لَا تَذُوقُ الْوَسْنَا
وَفُوَادٌ لَيْسَ فِيهِ عَيْرُنَا فَإِذَا مَا شِئْتَ أَدَّ الثَّمَنَا
وَإِنْ إِنْ شِئْتَ فَنَاءَ سَرْمَدًا فَالْقَنَا يُدْنِي إِلَى ذَاكَ الْفِنَا
وَإِخْلَعِ التَّعْلِينَ إِنْ جِئْتَ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي فِيهِ قُدْسَنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُنْخَلِعًا وَأَرِزْ لِمَا بَيْنَنَا مِنْ بَيْنَنَا
فَإِذَا مَا قِيلَ مَنْ تَهْوَى ؟ فَقُلْ "أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا"²

1 الهادي بوكمشة، كتاب الدليل لسالك السبيل، بدون ذكر دار طباعة ولا تاريخ.
2 هو صدر بيت للحلاج وهو: "أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا"

ولكن هذا الحلول لم نجد منه أثرا في فكر أحبائنا من أتباع هذه الطريقة، ولذلك فهو ليس الحلول الفعلي، وإنما هو انسحاق رغبات العاشق في هوى المعشوق حتى كأنه لا يوجد أو كأنه امتداد للمعشوق. ويشرح الأمر الشيخ أبو مدين شعيب ذلك في قصيدته اللامية (من البحر الكامل):

اللَّهُ قُلْ : وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى إِنَّ كُنْتَ مُرْتَادًا بُلُوعَ كَمَالِ
 قَالَ كُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنَّ حَقَّقْتَهُ عَدَمٌ، عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا لَوْلَاهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلَالِ
 مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاتِهِنْ ذَاتِهِ فَوْجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُنْ مُحَالِ
 فَالْعَارِفُونَ فَنَوُوا وَلَمَّا يَشْهَدُوا شَيْئًا سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
 وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكًا فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ
 فَالْمَحْ بِعَقْلِكَ أَوْ بِظَرْفِكَ هَلْ تَرَى شَيْئًا سِوَى فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ
 وَانظُرْ إِلَى عُلُوِّ الْوُجُودِ وَسُفْلِهِ نَظْرًا تَوَدُّهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ
 تَجِدُ الْجَمِيعَ يُبَشِّرُ نَحْوَ جَلَالِهِ بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالِ
 هُوَ مُمَسِّكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُلُوِّ إِلَى سُفْلٍ وَمُبْدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَالِ

وقال الشيخ محمد المدني شيخ الطريقة المدنية بقصيدة المديوني ومؤسسها بالقطر التونسي عندما زار قبر الشيخ الغوث أبي مدين سنة 1335 هجرية² (1) من بحر الرجز ولكنه لم يترك زحافا لم يستعمله بما في ذلك التكاوس:

أَيَا شُعَيْبُ أَقْبَلِنِّي فَأَنَا هُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَكُمْ بِالْمَدَنِيِّ
 قَدْ زُرْتُكَ يَا عَوْثُ حَيْثُ زُرْتَنِي عِنْدَ الْمَنَامِ وَأَنَا فِي مَسْكِنِي
 هَذَا الْجَزَاءُ مِنِّي حَقِيقَةً عَامَلْتُكَ كَمَا كُنْتَ عَامَلْتَنِي

1 أحمد العلاوي بن عليوة، المنح القدسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطريق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ص 30.

2 محمد المدني، أنيس المرید في التصوف والتوحيد، مطبعة الهلال، تونس، 2002، ص 55.

فُزِّرْتَنِي نَوْمًا وَلَكِنِ إِنِّي أَتَيْتُكَ يَقْظَةً بَبَدَنِي
 إِذْ حُتَّ لِي طِفْلًا صَغِيرًا حَاكِيًا عَيْسَى بِمَهْدٍ صَادِقًا كَلَّمْتَنِي
 وَهَذِهِ تَحِيَّةٌ أَهْدَيْتُهَا تَبَقَى تَدْوِيرُ عَيْتِي فِي الْأَلْسُنِ

أخبار الطريقة: انتشرت طريقة الشيخ أبي مدين بالجزائر والمغرب الأقصى وما زالت قبته التي قرب تلمسان محل احترام وتقدير من تلاميذه ومريديه الذين يسمون أنفسهم المدنية، إلا أنهم لم ينتظموا في جماعة متميزة، فهم علماء مشتغلون بنشر علوم أستاذهم الروحي، وليسوا من أولئك الصوفيين الذين يمارسون تلك الممارسات العجيبة، أو طريقة معينة في حضراتهم أو مواعيدهم.

أصول الطريقة: أتباع هذه المدينة "المدنية" على ما يظهر ناس مغرمون بالدراسة وجمع العلم والتزهد ونبذ الدنيا، ولا يعرف لهم عمل أو خرجات كبقية الطرق الصوفية الأخرى وهي التي تفرعت عنها الطريقة الشاذلية وعن هذه عدة طرق كلها تستند إلى الشاذلية ومنها أتت المدنيات المعروفة على الساحة الآن كمدنية ظافر ومدنية نساء المنستير والمدنية العلاوية بقصيبة المديوني وتفرعاتها.

طريقة العمل: هي طريقة جذب وزهد وتوكل وتقشف وكسر لشهوات النفس ومذاكرات. وأتباعها كثيرون، ولكل جماعة شيخ كما في الطرق الأخرى. ومنهم من أدخل المديح واستعمل الآلات وهو نادر (على ما أورد الرزفي في الأغاني) ومنهم من لم يستعملها. وغاية أمداحهم هي تشويقات تستعمل نشيدا بألحان لذيدة، فيجتمعون في الزاوية ويقرؤون الوظيفة وهم جلوس وربما تذاكروا المواعظ قبل ذلك ثم يقفون على شكل حلقة ويشرعون في ذكر اسم الله ثم يتدرجون في التخفيف حتى يصير الذكر بالصدر أعني بضمير الغائب "هو" ويكون الباعث على ذلك ما تحدته أنغام النشيد فيهم من الاهتزازات الروحية مثل:

طالع:

يَحَقِّ اللهُ رَجَالَ اللهِ أَعِينُونَا بِعَوْنِ اللهِ

بيت:

فَيَا أَبْدَالَ وَيَا أَقْطَابَ وَيَا أَنْجَابَ وَيَا أَحْبَابَ

أَجِيبُوا يَا ذَوِي الْأَلْبَابِ وَجُودُوا لِي بِعَوْنِ اللهِ

ومن أناشيدهم:

خُذُوا بِيَدِي وَيُعُونِي * إِلَى قَوْمٍ يَعِزُّونِي * وَإِنْ مَا صَحَّتْ الْبَيْعَةَ * عَسَى
أَسْيَادِي يَرُدُّونِي

خُذُوا بِيَدِي لِلْأَسْوَاقِ * وَدُورُوا بِيَا عَلَى الْعُشَّاقِ * وَقُولُوا ذَا الصَّبِيِّ مُشْتَاقِ * عَسَى
أَسْيَادِي يَرُدُّونِي

خُذُوا بِيَدِي لِلْأَبْوَابِ * وَدُورُوا بِيَا عَلَى الْأَصْحَابِ * وَقُولُوا ذَا الصَّبِيِّ مُصَابِ * عَسَى
أَسْيَادِي يَرُدُّونِي

وقد بلغنا أنّ لهم عملا الآن، وقد لحن الدكتور صالح المهدي ثلاثة موشحات من
تأليف الشيخ أبي مدين شعيب على طريقة جزائرية مغربية، وأنشدها أحمد وهي في
الجزائر، وهي موجودة بإذاعتها.

تفرّع القادرية

يمكننا انطلاقاً من أبي مدين شعيب، إن اعتبرنا أن طريقته قادرية على أساس أنه لبس الخرقة من يد السيد الجيلاني، أن نبدأ بمعاينة تفرّع الطريقة الصوفية إلى اتجاهين أساسيين، سوف نجد تباينهما في مستقبل الأيام، كما سنجد اتجاهها ثالثاً حاول الجمع بين السابقين. وسنصطلح على تسمية الإتجاه الأول بـ "القادرية" والثاني بـ "الشاذلية" والثالث بـ "الجامعة".

والإتجاهان الأوّان فكريان: الأوّل منهما: يهتمّ بالممارسات التطبيقية والرياضة الجسدية لبلوغ الهدف الأسمى من التوجّه الصوّفي، فهو يبحث عن تلك الحالة الوجدانية من الانتشاء التي يخرج فيها من المعهود إلى اللامعهود، ومن الحضور الزمني إلى الغياب الذهني، والاندماج في السبح حتّى ينسى نفسه، بينما يهتمّ الثاني بالتأمّل في الذات البشرية وعلاقتها بالله تعالى عن طريق الفكر والإلهام والذكر بالقلب واللسان في طريق الترقّي بالروح إلى المقامات السّنّية، فيبلغ ربما نفس الحالة الوجدانية التي يبلغها الآخر لكن بفكره دون حاجة إلى رياضة جسدية.

هذا الاختلاف من شأنه أن ينتج بمرور الزمن تبايناً بين الطريقتين، ومن ثمّ اختلافاً في النتائج واختلافاً في الوسائل.

أما اتجاه التأمل فنجده يرمى العلوم الدينية أصولاً وفقها وغيرها ويدعو إلى التبصر فيها ويجعلها ركيزة لعمله حتى أننا نجد الشاذلية مثلاً لا يأخذون العهد إلا من تتوقّر فيهم شروط من المستوى العلمي كالزروقية والجزولية، بينما نجد المهتمين بالممارسة العملية لا يشترطون ذلك في مرديهم، وقد نجد فيهم الأميمين والعارفين أمثال أبي يعزى شيخ أبي مدين، ومن ليس لهم أدنى معرفة بالفقه، فينتج عن ذلك الاهتمام بالمظهر الاحتفالي والإنشاد الموسيقي. بينما يرى الإتجاه الآخر ذلك أمراً يأتي في المرتبة الأخيرة من اهتماماته إذ أنه لا يأبه بمقام موسيقي ولا نعمة معينة، وإن وجد ذلك فعرضاً واثقافاً من أجل طبيعة الذكر الجماعي كي ينسجم على أقل ما يمكن ويخرج من دائرة الضوضاء.

ونحن إذ نذكر ذلك في هذا المقام رغم عدم ظهوره ظهوراً بيننا، فلأن بعض تلاميذ أبي مدين شعيب كان لهم سماع ويرغبون فيه أمثال أبي يوسف الدهماني² وربما أبي علي النفطي نفسه بينما أتباعه ممن يسمون أنفسهم "مدنية" لا يستعملون الآلات وإن استعملوا الأشعار والأدكار في تواجدهم ومذاكراتهم وخلواتهم واجتماعاتهم.

لم يأخذ أبو مدين استعمال الآلات عن أستاذه أبي يعزى ولا عبد القادر بنفسه ولا علمه لتلاميذه، ولكنه ربما لم ينههم عنه فقط، أو أنه كان لا يرى فيه بأساً، حيث إن بعض أشعاره وأزجاله كانت توشح تواسيح المألوف منها ذلك الموشح الذي أخذ شهرة كبيرة في تونس في مقام الإصبعين وهو:

أَنَا يَا مُدِيرَ الرَّاحِ أَفْنَانِي الْقَرَامِ
يَوْمَ نَرَاكَ نَزْرَاحِ يَا بَدْرَ السَّمَامِ

وقد يكون لحن بعد وفاته. كما لم يكن الشيخ عبد القادر الجيلاني نفسه ممن استعمل الآلات في حلقات الذكر، إذ أنه، كما أوردنا سابقاً، كان أوّل من أدخل الموسيقى

1 يمكن أن نمثل لذلك بالسندي الذي كان يجهل الفقه لكنه كان عارفاً بطريق الوصول إلى الله، وقد اجتمع بأبي يزيد البسطامي في الحج، فكان البسطامي يعلم السندي مناسك الحج والسندي يعلم أبا يزيد البسطامي طريق الوصول إلى الله (محمد البوهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 180)

2 ذكر في معالم الإيمان، الجزء 3 ص 213: "...إنّ الشيخ أبا عبد الله القرشي (بمصر) كان هجر السماع وحضوره، فلما وصل الشيخ أبو يوسف [الدهماني] رغب إليه في ذلك فأجابته إليه وصنع في منزله سماعاً لم يبق مشهور بمصر بالفضل إلا وحضره فلما طاب السماع أخذ الشيخ أبا يوسف وارداً حال فارتج عن الأرض حتى جلس على الهواء وهو مرتفع يطوف في زوايا البيت. قال أبو عبد الله القرطي: كآني أنظر إلى بياض قدميه في الهواء."

والرقص الإيقاعي في الحضرة القادرية هو شمس الدين ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني ثالث أبنائه وثالث خلفائه في رئاسة الطريقة¹. لذلك نطلق على كل الطرق التي تستعمل آلات مصاحبة للإنشاد: "القادرية".

وكنا أردنا أيضا أن أبا مدين شعيب قد اجتمع بالشيخ عبد القادر الجيلاني في مكنة، ولبس الخرقة من يديه، ورجع إلى إفريقية، فاجتمع به في تونس عبد العزيز المهدي وأبو علي النفطي والظاهر المزوغي وأبو يوسف الدهماني وأخذوا عنه².

ونجد في "معالم الإيمان" للدباغ: أن أبا يوسف الدهماني كان يحضر مجالس السماع³ وكان يقع له فيها أشياء عجيبة، ولعل ذلك من التأثير بالقادرية حيث إن أبا مدين شعيب لقنه إياها مع أصحابه.

غير أن الطريقة "المدنية" لا تستعمل الآلات وإن وجد فيها الرقص الإيقاعي أو ما يسمونه بالاهتزاز. وتمسك بهذه الطريقة الشيخ عبد السلام بن مشيش تلميذ الشيخ عبد الرحمان المدني الزيتان، إلا أنه أخذ كثيرا عن أبي مدين شعيب وهو أستاذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي كان لا يحب السماع فكيف بالآلات، وورث عنه ذلك الشيخ العربي الدرقاوي، ثم الشيخ محمد حسن المدني الذي أخذ عنه ابنه الشيخ ظافر المدني الذي أخذ عنه الشيخ محمد بوزفرو الحدي الذي أخذ عنه نساء المنستير من جهة، ومن جهة أخرى الشيخ أبو عزة المهاجي ثم الشيخ محمد بن قدور ثم الشيخ محمد البوزيدي وتلميذه الشيخ أحمد العلاوي والشيخ محمد المداني القصيبي والشيخ محمد بخوش وإسماعيل الهادي وأخيرا الشيخ الهادي بوكمشة والشيخين الفتحي السلامي وبلقاسم بلخيري وريثا الإسماعيلية. وحيث إن أبرز شيوخ هذا الإتجاه هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي أطلقنا على هذه الطريقة "الشاذلية"، فالشاذليون وإن كانوا في الأصل قادرية، إلا أنهم تمكنوا من تكوين مدرسة كاملة تميّزهم عن بقية الطرق الصوفية المعروفة في كامل العالم الإسلامي وخرج منها الطيبية والدرقاوية والمدنية والدسوقية وغيرها.

وهنا نلاحظ بروز ظاهرتين في الطرق الصوفية، فبينما تعتمد الطرق التي اصطالحنا

1 كبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 298.

2 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 104.

3 الدباغ، معالم الإيمان، ج 3 ص 219.

على تسميتها بالقادرية على الممارسات المادية والرقص المفرط الذي تتحرر عن طريقه الروح من قيود الجسد، نجد الطرق التي اصطلحنا على تسميتها بالشاذلية تعتمد على التأمل والمذاكرة وإن كانت لا تخلو في أعمال الذكر من الاهتزاز الإيقاعي، ولعلّ هذا ما يجعلها لا تزال محافظة على مظهرها المتزهد وتوهجها الصوفي إلى يوم الناس هذا، بينما نجد هالم ترقى الرقي الطبيعي في الناحية الموسيقية، بل لم يقع فيها تطوّر يمكن أخذه بعين الاعتبار، ولعلّ ما بدأته منذ أقل من عقد من الزمن الطريقة المدنية بقصبة المديوني من محاولة للضبط الموسيقي تتمثل في المحافظة على الطبقات الموسيقية والتسلسل النغمي مع احترام الطبع الموسيقية والمحافظة على الإيقاع الداخلي المصاحب للمدحات، سوف يرقى بهذه الطريقة إلى نوع من الموسيقى الذي لا يمكن التنبؤ به الآن، على أن تحافظ على الروح الصوفية التي ضحّت بعدد العقود بل والقرون للمحافظة عليها.

بين هذين الاتجاهين برز إتجاه توفيقى نجده واضحا في ممارسات الطريقة العيساوية مثلا، فهي تركز بالأساس على التخميرة المعروفة لدى الطوائف الشرقية المنحدرة من القادرية، ويؤلف بين هذه الطوائف وطوائف المغرب العربي عقيدة التوحيد وطريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتباعه، وهكذا وجدت الطريقة العيساوية، ثم العروسية والسلامية والقشاشية والعوامرية والشطية طريقتها المميزة، فهي تبتدئ بدون آلات في مدحات تشبه المدنية، ثم بدقّ الكف فقط مثلما قد نرى لدى البرهانية الدسوقية، أو تنتقل إلى المجرد مثلا، كما لدى العيساوية، وبعد ذلك تندفع بآلاتها وممارساتها إلى عمل آخر يختلف اختلافا بيّنا عما ابتدأت به.

وتقدّمت هذه الطرق بموسيقى الجدّ أيما تقدّم، ولعلّها في صعودها الفني انحدرت نوعا ما عن أصلها الصوفي، حتّى وصلنا إلى ما نراه اليوم من هذه الفرق التي بلغت درجات كبيرة في الرقي الموسيقي، واصطبغت بمظاهر فرجية كخرجات القادرية ورقصات الرفاعي في العيساوية مثلا، أو الممارسات الغربية التي نراها لدى العوامرية، والبعد نوعا ما عن التعبّد الصوفي والأحزاب والأوراد وما يميّز العمل الصوفي التعبدي عن المظاهر الاحتفالية والفرجية.

الطريقة البوعلية

نسبة إلى " أبي علي النفصى " المتوفى سنة 610 للهجرة / 1213 للميلاد

الشيخ المؤسس: هو أبو علي حسن النفطي عاش في أواخر القرن السادس [الثاني عشر للميلاد]، كان من أصحاب أبي مدين شعيب الأندلسي، و[كان يلبس القفطان فقال (عنه) أهل بلاده (المصري)]. وكان من مشاهير الصوفية سكن "سُدادة" من بلاد الجريد بالجنوب التونسي، وقاوم العقيدة الخارجية فيه وفي نفاضة، فسُمِّي بأبي علي السني حيث كان أكبر داعية لمذهب أهل السنة، وأول من ركّزه في تلك الجهة. وكان من أهل المعرفة والصلاح متحمسا لأهل السنة. وكان معظم سكان الجريد والجنوب التونسي من الخارجية، فلحماسه في مناهضتهم، كان يعرف عندهم بالسني¹.

ومما يؤثر أن أصل الشيخ من مكناس² قدم من المغرب ونزل بـ"عمدون" وأخذ علم التصوّف عن سيدي "أبي مدين شعيب الغوث"، ثم وجهه شيخه إلى القيروان، وشيخ القيروان وجهه إلى نفطة لمجاهدة الإباضيين فاستقر بها وحاربهم، ويروى أنهم هم الذين قتلوه هناك.

1 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 211.

2 رواية يقدمها الشيخ علي بوفرة شيخ الطريقة البوعلية بالحاضرة بحضور مجموعته والشيخ العروسي بن خميس التركي شيخ الطريقة السلامية.

ولم ينس التلميذ أستاذه، فكان أبو علي كلما لقي من سيمّر بتلمسان يوصيه بإبلاغ شيخه أبي مدين السلام حتى كان آخر مرة سنة 594 هـ سنة وفاة الشيخ أبي مدين وكان ذلك مع أبي عبد الله التّجيبّي.

وتوفي أبو علي السّني النّفطي سنة 610 هـ وضريحه معروف بسّداة قرب نفطة في رباط بنيت عليه قبّة وسط نخيل وماء جار.

لأبي علي رسالة مشهورة بعث بها إلى أبي يعقوب الطّريّ رأس الخوارج. وطّرة مدينة كانت في واحة قريبة من نفزاوة بالجنوب التونسي. وألف الحسن بن أحمد البجائي أحد معاصريه مناقبه في مؤلّف خاص¹.

وورد في معالم الإيمان²: "وقال الشيخ أبو يوسف [يعقوب الدهماني المتوفّي في غرة محرّم الحرام سنة 621 هـ]³ - منكرًا على أناس - ما يعرفني منهم أحد، إنّما كان يعرفني أخي أبو علي النّفطي رحمة الله عليه الذي أتى عندي مرّة، فأردت إقامته وأراد السّفْر، فكان بنفسه يخرج خارج البلد يطلب الرّفقة فلم يجد. فمكثنا قرب خمسة عشر يوما،

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 152 بالهامش.

2 الدباغ، معالم الإيمان، ج3 ص 219.

3 كانت له زاوية بجانب زاوية سيدي الهلالي في آخر (زقيق صالح) للداخل من جهة باب الدرب بجومة البلد بالمنستير، وبالزاوية بئر كانت تستعمل للتداوي وخصوصا للأطفال، فكانوا يزورونها مع الطفل المريض بأيّ داء فيغسلونه بمائها فيبرأ بزعمهم. هذا ما نقلناه عن بعض شيوخ المنستير الذين يعرفون الزاوية ومارسوا هذه الطريقة في التداوي، كما أخبرونا أن وعدتهم كانت الكسكس بالسّمك. والدهماني هو أبو يوسف يعقوب ولد بقرية تسمى المسروقين (وهي سيدي الهلالي حاليا بين القيروان وسوسة) ولد سنة 549 هـ، وهو أحد جماعة من أصحاب أبي مدين شعيب وهم أبو علي النّفطي وأبوسعيد الباجي وعبد العزيز المهدي والظاهر المزوغي السافي ومحمد الدباغ والد صاحب المعالم. رحل أبو يوسف إلى الشيخ أبي مدين بمدينة بجاية سنة 570 هـ وأخذ عنه كثيرا من آداب التّصوّف وسلوك الطريق وأجاز له الانتصاب إلى المشيخة. ورجع أبو يوسف متوجها إلى الحجّ في سنة 595 هـ وركب البحر مع زوجته وأولاده من المهديّة. وبعد ذلك رجع إلى القيروان على طريق فاس. واجتمع بأبي علي النّفطي بظاهر مدينة تونس في خباء واحد نحو أربعة أشهر من سنة 599 هـ وصارت العلاقة متينة بينهما. كما اجتمع بأبي محمد عبد العزيز المهدي. ومما كان يتغنّى به:

وَعَنَى لِي مَتَى قَلْبِي فَعَنَيْتُ لِمَا عَنَى
وَكُنَّا حَيْثَمَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثَمَا كُنَّا

وتوفي سنة 621 هـ، ودفن بجوار أبي الحسن الفاسي بالقيروان قرب باب تونس. ممن أخذ عليه السيدة مريم أم يحيى كانت تجتمع به عندما يتردد الشيخ على أصحابه بجهة المهديّة والمثاليث، وهي نازلة بالمنية (قرب جبنيانة) فكانت تهتدي بهديه وتجلس إليه ملتحفة، ولا ترفع كلامها بحضرتة ولا تنظر إليه فقبل عنها (أم يحيى خير من ألف لحية) راجع النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 223 - 224. كما روى الدباغ أن أبا يوسف كان يرباط برباط سقانس المنستير.

فلما لم يجد تفظن وقال لي: سألتك بالله اتركني أمشي. فقلت: وعولت؟ قال: نعم! فقلت له: أصلح حوائجك، واخرج خارج البلد تجد الرفقة الساعة تأتي تمشي معها. فخرجنا في الوقت، فإذا بعسكر مقبل إلى جهة سفره، فمشى مع العلامات (الرايات) والحيل آمنا مطمئنا". فكان بينهما محبة واحترام وتراسل واتحاد كبير، وقال الشيخ [أبو يوسف الدهماني]: "كنت أتمنى أن يجمعني الله عز وجل معه مدة في موضع، فقدّر أن مكثنا في خباء قرب أربعة أشهر في سنة فتح تونس حتى فُتحت. وكنا في تلك المدة نسأل الله عز وجل في حقن دماء المسلمين، فلطف الله بالحال وكان كذلك. فلما أراد الانصراف قال لي: رأيت فيك أربع خصال من خصال أهل الجنة: ما رأيتك في هذه المدة تمتخط ولا تتشاءب ولا تتمطى ولا تحتلم، فقلت: الحمد لله الذي أظهر لك نِعَمًا كنت غافلاً عن الشكر عليها".

وقالت أم عمر زوج الشيخ أبي يوسف [الدهماني]: "لما أتى إليه الشيخ أبو علي النفطي أدخله البيت ثم قال له: الآن ما مات سيدي ما دمت حياً. وأمر بغلاق الباب، وجعل يقول: أصلح² الباب حصل الرّيم خلف الحجاب!. وقال أبو عليّ لما أراد توديعه: ما ثمّ فرقة إنّما نحن واحد، ثمّ عطف عليه وتأوّه وأنشد يقول [من البحر الكامل]:

يَا هِنْدُ! إِنِّي قَدْ وَهَبْتُكَ مُهَجَّتِي فَنَعِيمُهَا وَعَدَانُهَا سَيَّانِ
كُنَّا نَخَافُكُمْ وَنَخْشَى هَجْرَكُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِنَا وَنَحْنُ اثْنَانِ
فَالْيَوْمَ رُوحٌ وَاحِدٌ لَّا غَيْرُهُ أَكْرَمُ رُوحٍ صَمَّهَا جَسَدَانِ

[و أرسل أبويعقوب الطرّي برسالة إلى أبي علي النفطي ينكر عليه صوفيته وربّما بدأها بتعريف الحكمة ونحو من ذلك، فردّ الشيخ أبو علي " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ:

أَمَا أَنْ مِنْ صُبْحِ الرَّشَادِ تَنْقَسُ وَحَتَّى مَتَى لَيْلُ الظَّلَامِ مُعْسَسُ

1 الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ص 219: ويعلق في معالم الإيمان بالهامش في هذا الموضوع بقوله: " كآته نزل أبا عليّ منزلة شيخه، واعتبره بنزوله عنده من شيوخه. وأبو علي هذا هو محبي السنة في الجريد ودفن ببلدة نفطة وتوفي رحمه الله سنة 610 كما في كتاب التّشوق. " وما بين [...] إضافة من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي للنيل. 2 أصلح الباب: أغلقه باحدى اللهجات التونسية. (وحُصّل): وقّع.

تُرَانِي أَرَى فَجَرَ الْهُدَى مُتَعَرِّضًا وَمَا لِي إِصْبَاحٌ وَلَا أَشْمَطُ حِنْدِسُ
وَمَا حَذْرِي إِلَّا شُعُوبٌ مُغْيِرَةٌ فَيَنْزِعُ لِلتَّزْحَالِ صَبٌّ مُعَرِّسُ

من شيبان الأبلّة إلى الخبر أبي يعقوب: أما بعد، فإنّ كتابك قد ورد مشتملا على ماهية العقل وحقيقته. وقد أفيئته وافيًا بمقصدك غير وافي بمقصدي، ولست ممن منيع عن الدرّ بالصّدْفِ واقتنى علومًا لم يؤمّر بها شرعًا، فاستغرقت فيها همته حتى زلت به قدم الغرور في مهواةٍ من التّلف. وكلّ ما تذروه رياح الموت فاهمة تقتضي تركه. وقد استشهدت بالحديث في التّظّر في تغيير الأسباب والتّرقّي منها إلى مُتسببها، فالأمر كما ذكرت، لكن ليست أسبابًا: هي ظلمات ثلاث، بل هي أسباب نورانية يُستدلّ على متنورها بمعرفة النفس. وهو مقام محمود، هو مقام المقرّبين الذين يُمزج من شرابهم الصرف لأصحاب اليمين. فالمقرّب من عرف نفسه موحدًا ربّه. وها هنا نظر لا يسلم إلا لمن سلم من رعونات البشرية والحظوظ التّفسانية، ويمكن الارتفاع إلى من عرف ربّه موحدًا لنفسه وقد منّ الله سبحانه بعلوم جليّة ربّانية محمّدية يعضدها الشرع ويشهد لها العقل السّليم الجامع بين الأصل والفرع

كالجمع والافتراق وخرق السبع الطباق وحقيقة البرزخين وما اشتملت عليه أرحام الأنثيين والتّرقّي من الأين إلى حيث لا أين، وكيفية الأرواح والأشباح وسكون الليل وانفلاق الصّباح واختلاف الألسن والأصوات ومنطق كلّ شيء وعجائب الآيات إلى غير ذلك ممّا لم يُلَفّ قطّ مسطرًا. وقد اضمحلّ الوجود وبطل دعواه وبرز المكنون على كلّ شيء، كلاً بل هو الله وأعرب بلسان ناطق فصيح غمزا أو رمزا. (هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزًا):

بَلْ لَوْ تَرَانَا وَالْأَحِبَّةُ بَيْنَنَا لَرَأَيْتَ غَزْلَانَا تَصِيدُ سَبَاعَا
بَلْ لَوْ تَرَى تِلْكَ الْبِقَاعَ وَحُسْنَهَا لَطَلَلْتَ بِالْحُسْنِ الْبَدِيعِ مُرَاعَا
شَوْقِي طِبَاعٌ وَاصْطَبَارِي كَلْفَةٌ وَأَرَى التَّكْلَفَ لَا يُزِيلُ طِبَاعَا

وكثيرا ما يشير إلى كتب حرام الوقوف لمطالعتها والوقوف عليها عقلا وشرعا، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وكفى

بهذا جمعا والحنيفية السمحة قد أشرق سراجها وغمر نورها وقهر سلطانها كل أشوس عاتي القلب ليس له تحقيق أهل الأصول ولا ترقيق أهل الوصول الهمج الرعاع الذين هم لكل ناعق أتباع قد أوثق الغي عقولهم فهم في ربهم يترددون. آفتي معرفتي، أرى الشر من ذوي التباهة قريب، وكأني بسيدي يقول: شبّ عمرو عن الطوق وما أحوجه في حقيقة الشر وحالة التصوّف إلى شيء من الدوق. وأعلم أنه لا تظهر حالة حسنة إلاّ بملازمة أصل صحيح، فإن كنت ممن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وأنان إلى الله بقلب سليم فما أنا أقبل قدميك فتتبع لما يوحي إليك، وإلاّ فاطور عني طومار الهديان ولا تتقعق لي: يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. ولما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار الكواكب، أشرق في الليل نور بهجته ولاح حتى طفأت المصباح (من بحر البسيط):

مَا زِلْتُ أَنْكِرُ أَيَّامِي وَأَعْرِفُهَا مَتَى اسْتَبَانَتْ فَلَا بَيْضَ وَلَا سُودَ
وَجَائِلٍ فِي بَحَارِ الْكُشْفِ مُحْتَبِطًا لَا الْقُرْبُ قُرْبٌ وَلَا الْإِبْعَادُ تَبْعِيدُ

جعلنا الله وإياكم من الموحددين المتبعين ولا جعلنا من الملحددين المتدعين. وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه [.

ولمّا تُوفِّي أبو علي سنة 610 هـ/1213م، قال الشيخ أبو يوسف يعقوب الدهماني: نُوحِي! أَخْلَى الدِّيارَ، وَأَيْتَمَ الصَّغارَ، وَلَا بَدَأَ أَنْ آخِذَ بِنَارِ أَخِي أَبِي عَلِيٍّ النَّفْطِيِّ! فذكر أن ابن النخيلي² سقاها السمّ، فكان من ابن النخيلي ما كان قبل موت الشيخ [أبي يوسف] رضي الله عنه.

أخبار الطريقة: هناك من يسمي هذه الطريقة العلوية، وهناك من يسميها العيلاوية وعرفت لدى البعض بالبوعلوية، ويرى "ديبون" و"كوبولاني"³ أن الطريقة فرع من القادرية

1 طومار: صحيفة. ومعنى الكلام: دعني من الهديان واطور هذه الصفحة.
2 يتضح من هذه الرواية أن قاتل أبي علي النفطي هو ابن النخيلي بالطريقة المذكورة.
3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 354.

كما يرى البعض أنها فرع من الطريقة السنوسية¹، وزاويتها الأم بنقطة، ولها عدة زوايا منتشرة بالبلاد التونسية بالحاضرة تونس وتوزر وقابس وصفاقس والقيروان والكاف، كما لها عدة زوايا بالقطر الجزائري، ففي قسنطينة وحدها يعدّ "كوبولاني" و"ديبون" أربع زوايا بستّة مقدّمين وأكثر من ثلاثمائة تابع، كما يوجد فرع أساسي في خنشلة (بين باتنة وتبسة) كان يديره في عهد كوبولاني المقدم عمّار بوخشم، وتوجد زاوية بعناية ومُسكّيانة وثالمة ووادي الشرف والسافية وبسكرة والواد، الكلّ بالجزائر.

ويقوم شيخ الزاوية العلوية بالجريد بزيارة سنوية لكل الزوايا العلوية الموجودة بالقطر التونسي والقطر الجزائري لجمع (الخميرة) أو (الصرة) كما يسمّيها البعض، وتتمثل في أموال أو حبوب أو متاع وبضائع أو غنم وحيوانات أو غير ذلك. وطبعا فإن مقدّمي هذه الزوايا يكونون قد جمعوا ذلك من قبل، فتركوا بعضه لزاويتهم وقدموا الباقي لشيخ الجريد. والشيخ حسب الظاهر يصرف منه على المدرسة والزردات والوافدين على الزاوية.

أصول الطريقة: يقول الصادق الرزقي: "والناس رغما عن اعتقادهم الكامل في علو درجة صاحبها وارتفاع مقامه في الصلاح تراهم راغبين عنها غير مقبلين عليها زاهدين في التمسك بعهدتها خصوصا الطبقة العليا والوسطى بالحاضرة، فالتمسكون بعهدتها الآن أكثرهم من الطبقة السفلى ورعاع القوم، أمّا أعمال القائمين بها فلا تجلّون من مبالغات وشعوذة واعتقادات ربما كان احتمال صحتّها صعبا على العقل، منها التحدّث مع الجنّ وتسخيرهم للأعمال البشرية، والتحدّث مع الروحانيين، والإخبار بالمغيبات على سبيل الحدس والتخمين"². وليس للطريقة أحزاب.

ولعل عدم تمسك الطبقات العليا والوسطى بالحاضرة أو من هذا حدوهم بهذه الطريقة، هو الذي ترك الدارس يتوقف عند أعمال أتباعها، ونسبتها إلى هذا الشيخ، إذ

1 الطريقة السنوسية هي فرع من الطريقة الحادرية أسسها سنة 1250هـ/1835م الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المجاهري المولود سنة 1206هـ/1791م، بدائرة مستغانم بالجزائر، وبعد طول ترحال وتجوّال وتصادم مع السلطة العلمية غادر زاويته بأبي قبيس بمكة المكرمة وقصد الجبل الأخضر بليبيا وأسس زاوية هناك، ثم انتقل إلى سيوة بالجغبوب وتوفي بها سنة 1859م، والطريقة السنوسية قليلة بتونس، ولكنها منتشرة في ليبيا بواحات المنشية والساحل وبغدامس ومازدة ومازرسان ومصراة. [آخر ملوك ليبيا (إدريس السنوسي الذي أطاح بملكه ثورة الفاتح من سبتمبر بقيادة معمر القذافي) ينتمي إليها] كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 544 و219.

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 152، وبالهامش.

أنه رغم صلاحه ومقامه الرفيع لم يتمسك بالانتماء إليه سوى الطبقات الدنيا، لذلك ليس من الغريب أن تجد في أعمال القائمين بهذه الطريقة ما يتنافى مع السنة التي كان الشيخ داعية لها.

ويظهر أن الطريقة تأسست بعد الشيخ أبي علي بقرون، ففي معالم الإيمان للدباع تُروى اتصالات وزيارات للشيخ أبي علي مع أبي يوسف يعقوب الدهماني، ورغم حضور الشيخ الدهماني حلقات السماع وصدور ما يجلب الاستغراب منه، لم يرو عن أبي علي شيء من ذلك، ومؤاخذة أبي يعقوب الطُّرِّي وإنكاره على أبي علي صوفيته حتى بعث إليه بالرسالة الشهيرة لا يقدح فيما قلنا، فتلاميذ أبي مدين لم نسمع عنهم ولا عن أعقابهم من استعمل آلات في السماع، رغم اشتهاه عند بعضهم، والمهم أن الممارسات الحالية أو المنقولة في (الأغاني) للصادق الرزفي لا يمكن أن تكون من أفعال رجل حارب الخوارج مظهرًا للسنة في أيام الصراع المذهبي بإفريقية، بل نعتقد جازمين أن ذلك ناتج عن تراكمات عصور من الانحطاط والجهل.

وربما سميت الطريقة العلوية لكون الانتساب إلى وليّ ما، هو الضامن لبقائها وجلب أتباع لها سواء أسسها الشيخ أو أُسست باسمه، وربما دخلت الممارسات العجيبة رويدا رويدا باسم الترفيه أو الاجتهاد في الطريقة، وعلى كلّ، فإن لها أتباعا ما زالوا إلى الآن يمارسون أعمالا غريبة لا تتماشى مع مذهب الشيخ أبي علي السني. ولها اثنتا عشرة زاوية²، منها زاوية سيدي بالعظام في نهج الحجامين بالباب الجديد من تونس العاصمة. كما لها زاوية بمدينة صفاقس لها شأن كبير وتقوم بزيارة سنوية لمقام سيدي عامر المزوغي، وسنذكر ذلك عند الحديث عن الطريقة العوامرية.

ويضارع هذه الطريقة طريقة سيدي عبد الملك السني³ (السنانية) في "ماونة" بالقطر الجزائري وسيدي المزهود وأحمد ميعاد بنفطة، وأحمد الغوث بتوزر، وسيدي سالم التباسي بجهة "طبرية"، وقد كان له أربعة عشر ولدا وزّعهم على كامل البلاد التونسية.

1 الدباع، معالم الإيمان، ج3.

2 كويولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 218.

3 عن الشيخ علي بوثرة شيخ الطريقة العلوية بتونس الحاضرة.

والطريقة العلوية هي مجموعة أمداح بها (حضرة) وبها (ثلمود) يقوم به "الحزامية" وهو من اختصاصهم. والكّل ينسب إلى أبي علي النفطي، والفرقة القائمة بالحضرة أو بالثلمود تسمى (فُقرة سيدي بوعلي)، والاختصاص يسمّى (مهنة)، فيقال: (الطريقة علوية والمهنة الثلمود) أو (الطريقة علوية والمهنة الحضرة).

ويروى لسيدي أبي علي كتاب يضمّ 120 مدحة، والظاهر أنّها منحولة ووضعها الأتباع، وإن كان يقول الشعر هو نفسه، ولكن الفارق واضح بين لغة العصرين.

أما الصادق الرزفي فيقول: "أما ترنماتهم وإيقاعاتهم فهي ضرب من الخلط وخبط لا تُفهم أحضرية هي أم بدوية، وربما فهم منها أحيانا ذكر لا إله إلا الله، أو اسم النبي صلى الله عليه وسلّم، أو اسم شيخهم.

والوظيفة عندهم كلام قصير فيه تصليات وترضيات ودعوات يؤدّون قراءتها بلحن فادح من حيث الاعراب، ثم يقرؤون الفاتحة ويشرعون في المديح على قرع الدفوف والثندي بصفة مزعجة [وهو عبارة عن وزن شبيه بالبرول المعروف في المألوف (على غاية من السرعة)] وفي أثناء ذلك يهب واحد أو أكثر صائحا بصفة غريبة فيأتي بحركات كبيرة في الرقص والتمطّط، ثم إذا أتموا النوبة يشرع المتخمر في التكلّم عن الغيب بلسان الجنّيّة التي في رأسه، ومن الغريب أنّ الجانّ الذّكر لا يسكن برؤوسهم، وربما قلّد كلاما أظهر فيه نفسه صغيرا في السادسة أو السابعة من عمره. وهؤلاء يربون شعورهم حتى تصير طويلة ويعبّرون عنها بالشوشة فيسدلونها أثناء الرقص، ويعتقد العامة أن الراقصين يغيبون عن الإحساس والأمور الدنيوية².

وللطريقة رتب وأشغال، ولا نقصد به الوظيفة مجموعة الأدعية التي تحتصّ بها كل طريقة عن غيرها:

1- الشيخ الذي يعطي العهد وله النظر في شؤون الزاوية ويسمّى (شيخ السجّادة). ويجب أن يكون من "الحزامية" وهو الذي يعطي الأذكار والأوراد وخدمة تسخير الجان وهو الذي يقود المجموعة بأكملها.

1 بحث ميداني قام به الأستاذ حسين الحاج يوسف في اتصال بجماعة الحزامية في مارس 2001.

2 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 153.

2 - شيخ العمل الذي يقود فرقة المدّاحين:

- الرّدّاة: وهم جماعة المريدين.

- الطّبّالة: وهم العازفون على آلات الإيقاع ويقدمهم باش طّبّال، الذين يحفظون القصائد والأطراق ويخدمون الميعاد يوم الجمعة.

- الشّطّاحة: وهم الذين يرقصون أثناء المديح.

- العدّادة: وهم الذين يجمعون الخميرة في العاشوراء بدون طبّالة.

- ومنهم الشباشيب: وهم نساء وأطفال يجمعون الأعطيات من الأحواش لأنهم يمكنهم دخول المنازل.

3 - الأتباع والمريدون: يهتمّون ويطوفون بالأحباب ويقفون معهم ويرافقونهم.

4 - الأحباب: هم ضيوف الفرقة الذين يأتون من خارج نفطة.

5- الزيّار: يكونون من الطلبة الجوّالة¹ وأبناء السبيل يأتون إلى نفطة لقراءة القرآن الكريم فتتكفل الزاوية بمأكلهم ومشربهم ومسكنهم. وللطريقة عدّة مواعيد منها:

الميعاد الأسبوعي: كل يوم جمعة (في توزر) وتقع فيه التخميرة على وزن المربع التونسي. وقد تدخل الحضرة امرأة مجذوبة بدون وعي منها، بالرغم من الجوّ الرّجالي.

الخميسية: هي حضرة تقام بمناسبة تداول نوبة ماء الري من سواقي ابن شباط التي يقع تركيبها يوم الخميس بعد العصر، فيتجمّع التّاس قرب مقام الولي الصالح سيدي نصير أي قبل الوصول إلى مقام الشيخ أبي علي، فيجتمع الناس هناك ويأخذون طريقهم بالذّكر إلى مقام الشيخ أبي علي:

بِاسْمِكَ يَا لَطِيفٌ * مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفٍ * وَعَلَيَّةِ التَّفْطِي

1 الطالب الجوّال هو شاب نذر نفسه لطلب العلم فكلما سمع بشيخ سافر إليه دون التفكير في زاد أو مأوى، فهو يأوي إلى مثل الزاوية العلوية فيجد القبول والغذاء والعلم. وصادفني أن تعرفت على بعضهم في آخر أيامه، فكانوا على حالة عجيبة.

فترد الجماعة:

الله الله الله حي

ثم يتقدّم أربعة أو خمسة من العدّاة (أي المغنين) فيهزّون الشيلة¹ (أي يشرعون في الغناء):

(في ها الشياخ * نُوصِلُ شَيْخِي * وَنُزُورُ الْمَقَامَ عَ الْأَوَّلِ مَا كَانَ مُنْكَرٌ * خَلَاصُ دِينِ غُلَّالِي)
 هذه الشيلة (المدحة) يعطونها جريدة² (بيت أو بيتين) على آخرها، وعندما تنتهي يشرع الوزّانة بالبنادر بضرب سخون³ في الأطراق الحامية، ويتحدّر الناس فهناك من يُصرع على (الطرُق)⁴

الأول وهنالك من يتباطأ فيُعاد له (طرُق) آخر. وتستمرّ هذه العادة كامل الصيف. الدورة: ويظهر أنها ليست الجولة التي يقوم بها شيخ الزاوية بالجريد للزوايا البعيدة، بل هي الجولة التي تجمع فيها الصدقات والتبرعات من المحبين للطريقة والمنتمين إليها، وتقع في أول الربيع في حدود الزاوية، فيقوم بها العدادة (المنشدون) لحزب سيدي أبي علي، فيجولون على الأحواش (المنازل)، ويجمعون (الخميرة) من قمح وشعير وتمر وسميد، ويبلغونها إلى الحزامية (الذين لهم الثلمود)، وهم يتكفلون بترتيبها كطحن ما يطحن وخبز ما يخبز إلى يوم عيد الفطر، فيلتي التاس بسوق الربع بنفطة حيث يجدون (أهل الثلمود) الذين يعملون (الأطراق) وصلات الغناء، وعندما يجتمع التاس ينحدرون إلى منطقة الحزامية في علقمة (حي بنفطة موضع سكنى طائفة الحزامية ومقر زاويتهم)، وعندما يصلون يوزّع على كل تلك الجموع خبزة خبزة من تلك الخميرة للبركة. كما وظّفوا على كل من يتزوج في سنته الأولى رفع أموال أو تمر أو قمح أو سميد للزاوية

1 الشيلة (اسم المرة من شال يشيل) أي رفع، وهو نوع من التقاف شيء قبل السقوط أو رفع شيء عن الأرض، وهي كذلك النجدة، وهي هنا كما هو مبين غناء مخصوص.

2 الجريدة في الأصل هي سعف النخل حيث له جانب أيسر وأيمن وبيت الشّعري المصراعين هو مثل الجريدة. والجريدة في الشعر هي (الدور) أي القطعة المتركة من أشطار تختم بمكب ترجع قافيته إلى نفس قافية الطالع وهو ما يستى أيضا البيت. (انظر محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر 1967، ص 87). ويقال (تجريدة: أي طائفة من الكلام "تبرادة Tirade".

3 الضرب السخون: الإيقاع السريع والحاد.

4 الطرق (بالقاف البدوية (gu)) هو المدحة الغنائية.

فيتقاسمون الأموال كأجر لهم، ويخزنون الطعام إلى وقت الحاجة لإطعام الزوّار. وكان للزاوية أحباس تنتفع بريعتها.

زرده¹ سيدي مزهود بنفطة: وتسمى (دخلة) سيدي مزهود وتأتيها كل الفرق الصوفية وبالخصوص الفرق العلوية والحزامية وبنقة سيدي مرزوق والسنية (نسبة إلى سيدي عبد الملك السّي من ماونة قرب عنابة بالجزائر)، والحفوظية (نسبة إلى سيدي عبد الحفيظ بن محمد وهي فرع من الرحمانية)، والتهامية والقوادرية والسلامية، فينحدر الجميع إلى سيدي مزهود وتبدأ الدخلة من سوق الربع بعد صلاة العصر.

في ليلة 27 رمضان: تنزل كل الفرق إلى مقام الشيخ أبي علي للقيام بحزب هناك، فتقع تلاوة البردة والهمزية في مقام سيدي سالم، ثم ينزل القراء والمؤدّبون بمقام سيدي أبي علي فيختمون القرآن الكريم، وبعد الختم تنطلق كل فرقة أو طريقة إلى محلّها لإكمال ذكر ليلة القدر بدون آلات، وييقون هكذا إلى الصباح، ويعيدونها بقية الليالي إلى صباح العيد فيقومون بما أسلفنا ذكره. والآن أصبحت هذه العادة رسمية وتحضرها السلطة.

في الأعياد: كل الطرق الموجود بكامل الجريد (توزر، دفاش، الحامة، الوديان، كريز. "المحاسن") تقبل على نفطة في عيد الأضحى، فيعملون الدخلة ويلتقون في وسط المدينة، ومنه ينحدرون إلى مقام سيدي أبي علي فيبيتون هناك. وفي السهرة يقام ثلمود وحضرة.

في غرة أكتوبر من كل سنة تقوم فرق نفطة بزيارة للولي الصالح سيدي بوهلال في مدينة كريز (محاسن) التي تبعد 36 كلم عن نفطة. وهكذا يتبادلون الزيارات.

طريقة العمل: يستعمل البوعلية من الآلات الدقّ (البندير) والقندي [ولعله سمي بذلك تشبيها له بحيوان القندي المعروف بتلك الجهات] أو القندوة ويسمى في الجريد

1 الزردة (كلمة تركية) وهي في الأصل الوليمة، ولكنها اتخذت شكل المهرجان الذي قد يدوم أياما تعرض فيه العروض التجارية كالأسواق والفرجوية كالمهرجانات، ويتلبس بشكل طريقي طقوسي حول أحد الأولياء، ويقع فيه ذبائح وإطعام. ومنه بالجمهورية عدّة زردات منها زرده سيدي المرزوق هذه وزرده سيدي مزهود وزرده سيدي علي بن عون وزرده سيدي علي بن نصر الله وغيرها. وتعتبر الزردات مواسم لقاء اجتماعي وثقافي وتجاري بالنسبة لسكان البادية وسكان الأرياف الجبلية بالخصوص، وقد يصفون عليه نوعا من القداسة، باعتبار انتمائه لأحد الأولياء الصالحين.

(تنفورة) وهو طبل صغير من الفخار كالهرم مجلد من قاعدته التي هي بين 53 و40 سنتيمتر وينقر عليه بعصوين صغيرتين أثناء المديح ويظهر أنّ هاتين العصوين من شجر التين مقوستين يقع تقويسهما منذ طراوة عودهما. وللطريقة أعلام وسناجق كالطرق الأخرى وخرجة شبيهة بخرجة القادرية والعيساوية.

ويشير "كوبولاني" إلى أنّ البوعلية (خدام سيدي بوعلي) يمارسون مثل الرفاعية ما يدهش المتفرج بممارساتهم الهستيرية فيرتمون مثل الرفاعية في اللهب وقد يحرقون أبدانهم بالمشاعل الموقودة!

أما وظيفتهم فكما ذكرناها آنفا نقلا عن الصادق الرزفي فهي كلمات قصيرة وتصليات وترضيات على بعض الصحابة، وأدعية يؤدونها بكثير من اللحن²، ثم يقرؤون الفاتحة ويشرعون في المديح على نقر الدفوف والفندي بسرعة البراول، فإذا أتوا التوبة يشرع المتخمر في الكلام عن الغيب بدعوى أن الجنّة التي في رأسه هي التي تقول.

وهي طريقة ذات ترنيمات وإيقاعات حاذة، وعند انتهاء النوبة يشرع المتخمر في التكلم بالغيب على لسان الجنّة، ويتخمر حتى يظن المتفرج أنهم يغيبون عن الإحساس والأمر الدنيوية.

يقول الشيخ بوثرة: تكون البداية بترحيبات إيقاعية على وزن البرول، ولهذا الطريقة سبع نوبات وسبع مدحات³، وأقرب طريقة لها من حيث العمل الطريقة العيساوية نسبة لسيدي محمد ابن عيسى، والعوامرية نسبة لسيدي عامر المزوغي. وتختص الطريقة بالتخميسات الإيقاعية وتسمى عندهم "المشكّل" وهي مستعملة أيضا عند العوامرية. غير أنّنا بعد البحث تبين لنا أنه إن كان العدد (7) صحيحا مع النوبات فإنه ليس كذلك مع المدحات، كما لاحظنا من خلال التساجيل أن الفرق شاسع في تونس العاصمة بين البوعلية (العلوية) والعيساوية في طريقة العمل، لا من حيث الأوزان ولا من

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 159.

2 اللحن هو الخطأ في اللغة العربية الفصحى نحو أوصرفا.

3 قام الشيخ علي بوثرة بتسجيلها مع فرقته بالمعهد الوطني للموسيقى والرقص سنة 1984؛ كما سجلها في الخمسينات قبل الاستقلال بالإذاعة الوطنية عن طريق الأستاذ المرحوم عبد الحميد بن علجية وقد نقلوها إلى فرنسا.

حيث الآلات. ويقول الشيخ بوثرة: إذا دخل علينا أثناء الإنشاد شطاح عوامري نغتي له نوبتين: النوبة الأولى:

(نَمْشِي زَايْر مَعَ الرَّيَّارِ * بَابَا عَامِرِ * إِنْ شَاءَ اللَّهُ يُكُونِ مَعَانَا)

و النوبة الثانية:

كِرَائِي وَعَامِرِ بَاغِي نَمْشِي لَهُ

وَنُزُورُ مَقَامَهُ نَبْرَى فِي لَيْلَةٍ

وماتم تسجيله بالحاضرة عن الشيخ علي بوثرة سنة 1984م مجموعة مدحات علوية (بوعلية) فينطلق الجماعة بارتجالات على الفندوة كالترحيب، ثم يشرعون في مجموعة الأمداح منها:

1- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ * الْأَمَّجْدُ بَابَا بُو قَاطِمَةَ

2- لَاحِقِي الضَّيْمِ

3- بِاسْمِ اللَّهِ نَبْدَا * نُنْظَمُ فِي الْأَشْعَارِ

عَارِي عَلَى سَيِّدِي الْعَالِي * بُو عَلِي التَّعَّارِ.

4- يَا رَبِّ يَا اللَّيِّ خُلِّفَتِ الْأَقْطَابِ.

5- يَا بُو عَلِي السُّنِّي يَا سُلْطَانِي.

6- شَيْخِي فِي نَفْطَةَ نَعَّارِ * بُو عَلِي مَالِكِ السُّلْطَانِ !

7- سُلْطَانُ نَفْطَةَ.

8- يَا بُو عَلِي يَا فَارِسِ اللَّجْمِيَّةِ * مَا نِي وَليدِكَ مَا تُنْجَلِي بِيَا !

9- دُخَيْلِي بِنِ عَدْنَانِي .

10- تَذْكَيرِ بَأُولِيَاءِ الْجَرِيدِ .

11- سَمَّيْتُ فِي الْكَلَامِ نُجْدَدُّ .

12- نَبِّدَا فِي الْكَلَامِ نَفَادِي .

13 - صَلَّىوْا عَلَيْهِ حَتَّى يَرْضَى .

14 - صَلَّى اللهُ عَلَى الْبَشِيرِ * صَاحِبِ الْوَجْهِ الْمُنِيرِ

15 - يَا الْمَاشِي سَلِّمْ عَلَى نَفْطَةَ .

16 - يَا عَلِيَّةَ * نَا تَرْجَاكَ طَلَّ عَلَيَّ * رَانِي وَوَلِيدِكَ مَا نُحْتَلِّي بِبِنَا !

أما النوبات العلوية فهي سبع كما قال الشيخ بوقرة وهي:

1 - مَوْلى نَفْطَةَ الشَّرِيف

2 - يَا رَافِدِ الثُّوم

3 - رَانِي نُنَادِي بِيكَ

4 - طَلَّيْتُ مِنْ مَرْقَبِ عَالِي * صِبْتُ رَجَالِي

5 - مَا زَالَ بَابَا عَلِيَّةَ

6 - عَلِيَّةَ مَوْلى الْمَقَامِ الزَّيْنِ

7 - بِاللَّهِ يَا الْمَاشِي تَرْبَحْ .

ويختتم عمل البوعلية في تونس بقطع (مدحات) في نوع العجمي كعمل أولاد سيدي مرزوق الشوشان: بَابَا عَلِيَّةَ صَلَّىوْا عَلَى مُحَمَّدٍ يَشْفَعُ فَيَا

أَهْ آه يَا بَابَا سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا بَابَا

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالْعَمَلَةَ عَلَى اللهُ

ومما يلاحظ في طريقة العمل العلوية بتونس أنهم يستعملون مقام السعداوي أو العرضاوي المرصع كما يقول أهل الجريد السعداوي الصحراوي، ومقام المزموم يطغى عليه الطابع الجزائري (الغربي) بالإضافة إلى مقام المحير عراق والحسين. وكثيرا ما يستعملون إيقاع السعداوي 12 من 8 .

علاوية (بوعلية) الكاف : بقيادة الشيخ رشيد بوعلاق شيخ زاوية العيلاوية بالكاف: في هذه الزاوية يغنون أغاني علوية (بوعلية) ويسمونها مدحات منها:

- 1 - في العرضاوي : نَبْدًا بِالْكَلامِ
 - 2 - في المحير عراق : الصَّلَاةُ الممَّجدة
 - 3 - في الإصبعين : دُخَيْلُكَ بن العدناني
 - 4 - في العرضاوي : اللهُ دَائِمٌ رَبِّي
 - 5 - في العرضاوي : لِأِلَهِ إِلاَّ اللهُ وَرُذُ الْمُؤْمِنِينَ
- ويستعملون مع آلاتهم الزكرة مثل فابس.

علوية(بوعلية) القيروان: بقيادة الشيخ عبد الحميد كركود، هؤلاء يُنشدون على غرار العوامرية والعيساوية في الأوزان والنوبات، فيبدؤون بالبطايجي عيساوي أوعوامري ويُنهون العمل بالدرّازي ؛ مثال ذلك: نوبة الأصبعين: (يا دُخَيْلُ بنِ عَدْنَانِي) وتنتهي بدرازي (مَرَحَبًا بِكُمْ يَا زِيَارَ).

مدحة ثانية: تبدأ باستخبار على الزكرة في مقام ولهجة وإيقاع السعداوي :

سَيِّدِي اِحْمَدُ مِيْعَاذُ نَعْرَةَ يَا مُوَلَى الزَّوَايَةِ

شَيْخِي يَا صَدَّادُ مُوَلَى الطُّبُولِ الدَّوَايَةِ

عَارِي عَلِي مِيْعَاذُ

ولها مجموعة من الأبيات في نفس اللحن.

علوية(بوعلية) فابس: من خاصيتهم أنهم يستعملون الزكرة في أمداهم، وهذا نموذج من سهرة بمقام أبي لبابة الأنصاري سنة 2002م :

المدحة الأولى: تنطلق بعروبي في لهجة العرضاوي :

صَلَاةُ النَّبِيِّ طَيِّبٌ فِي طَيِّبٍ صَلَاةُ النَّبِيِّ طَيِّبٌ صَافِي

صَلَاةَ النَّبِيِّ كَمَا الْمِسْكُ فِي الْحَبِيبِ وَيُظَهَرُ مَنْ كَانَ خَافِي

و تنطلق الأبيات بدون إيقاع في البيت الأول في مقام العرضاوي :

دَمْعِي سَكِيبٌ وَالتَّارُ فِي أَكْبَادِي

يَأْشُمَسُ الْمَغِيبُ سَلَّمَ عَلَى الْهَادِي

ثم ينطلق الإيقاع مع البيت الثاني في المربع التونسي وبدون زكرة.

المدحة الثانية: تكون بالزكرة في لهجة العرضاوي على إيقاع السعداوي، فتنتطق

أولا باستخبار على الزكرة، وعند الشروع في المدحة :

يَا الْمَاشِي خُذِ الثَّيْبَةَ وَسَلِّمْ لِي عَلَى بَابَا عَلِيَّةَ

فيؤدّي هذا المذهب (الطالع) بدون إيقاع ولا زكرة، ثم يأتي البيت الثاني فتنتطق

معه جميع الآلات وتصبح وصلة كاملة : ففي وزن البورجيلة :

يَا الْمَاشِي خُذِ الطَّرِيقَةَ وَادْخُلْ عَرَضَكَ بِالْحَقِيقَةِ

يَا الْمَاشِي خَذِ الثَّابُوتَةَ سَلِّمْ لِي عَلَى عَلِيَّةَ وَخُوتَهُ (إخوته)

وبين البيت والبيت يقوم الزكار بارتجالاات على آلة الزكرة في المقام الأصلي والمقامات

المجاورة له فيبرز مدى تحكّمه في آله ومدى إلمامه بالمقامات وهي نفس العادة التي

نجدها لدى العيساوية والعوامرية ويسمونها (السروح).

وتنتهي هذه المدحة بخرجة في نفس الإيقاع مع سرعة طفيفة :

هَيْه...هَيْه...هَيْه يَا بَابَا عَلِيَّةَ

هَيْه...هَيْه...هَيْه عَجَلْ بِالْحَيَّةِ

ويقع أثناء ذلك رقص مفرط ربّما يخرج عن المألوف. وللجماعة العديد من

المدحات الأخرى.

الحزامية فرع عن الطريقة البوعلية¹

يتفرّع عن الطريقة البوعلية عدّة فروع تمثّل وحدة متميّزة، لذلك تظهر في شكل فرق مستقلّة والحال أنّها كلها تنحدر من البوعلية وتنادي بـ"سيدي بوعلي". من هذه الفرق: الطائفة الحزامية التي هي فرع من الطريقة البوعلية نسبة إلى أولاد حزام.

الشيخ المؤسس: أسس هذه الطريقة الفرع الشيخ تارزي بن حزام، وشيخ الزاوية الحزامية هو الشيخ محمد سكندر.

يقال أن الشيخ أبا علي النفطي حارب الإباضية² ورکز السنّة بنفطة ونصره الحزامية وأيدوه وصاروا من أتباعه، فكأنهم حزامه، أي عندما ينادي الشيخ أبو علي: "يا حزامي!!" كناية عن عزمه على أمر يجيبه هؤلاء، فهم بمثابة حزامه الذي يحزم به الأمر.

1 بحث وقع القيام به في عطلة الربيع يوم 24 و25 مارس 2001م على عين المكان.
2 "الإباضية: إحدى الفرق التي تنسب إلى الخوارج.. تنسب إلى صاحبها عبد الله بن إباض ظهرت في مطلع القرن الثاني للهجرة بإفريقية (تونس) في عهد هشام بن عبد الملك الذي التزم بسياسة الشدّة في مطاردة الخوارج والشيعة. وأوّل داعية إباضي قدم فارًا من ملاحقيه إلى إفريقية (تونس) هو سلمة بن سعد.. فاختار الطرق الجبلية البعيدة عن الصحراء وعن السواحل وتمركز بـجبال نفوسة ونفزاوة الأهلة بالبربر.. والتف حوله الناس من سكان تلك النواحي نقمة على جور الولاة والحكام العرب، والتفوا حوله مستجيبين لدعوته حتّى أضحووا يمثلون قوّة ضاربة، وعلى يدهم تأسست الدولة الرستمية على طريق الشاب الإباضي عبد الرحمان بن رستم بتاهرت بعد انهيار الدولة الإباضية بطرابلس. وكانت أغلب البلاد التونسية في الجنوب والوسط تابعة لهذه الإمامة الإباضية وكان عمال الدولة الرستمية يقيمون أحكام الله في تلك البلاد نيابة عنها، واستمرّت كذلك إلى أن تغلّبت الدولة الشيعية فخربت تاهرت وانقرضت سلطتها. (عبد العزيز المجدوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر. 1395/ 1975 تونس، ص 104).

وخلافا لما يروج بين الناس، يقول الشيخ التابعي¹ إن الحزّامية أصلهم من أحواز فابس وليسوا من نفطة، والحزّامية هم أولاد عمر سكندر² الذي لا ينتسب بحال إلى الإسكندرية.

والحزّامية لم يقدموا مع الشيخ أبي علي السّني، فهذه الطائفة قدمت إلى نفطة قبله بقرنين. لكننا نلاحظ أن الشيخ التابعي يذكر سنة الأخماس (555 للهجرة) وهي السنة التي فتح عبد المؤمن

ابن علي الكومي الموحد في تونس، وهي ليست الواقعة التي حضرها أبو علي النفطي، وأبو يوسف الدهماني التي ذكرناها آنفا وهي سنة 599 هـ فلا غرابة والحزّامية متمركزون بالمكان قبل أبي علي أن ينصروه في معركته ضدّ الإباضية وكل الخوارج الذين كانوا في حرب مع الدولة الصنهاجية بالمهدية مع المعز بن باديس ثم ابنه تميم بن المعز ثم ولده يحيى ثم ولده علي وأخيرا ولده الحسن آخر ملوك الصنهاجيين، ثم جاء عبد المؤمن بن علي سنة الأخماس وقيل قبلها بسنة.

أخبار الطريقة: أتى بطريقة الحزّامية سيدي سالم بن علي وسيدي الطاهر ذهب وهو من الطواهرية، فهذان هما اللذان كونا هذه الطريقة وأعطيا بعض عملها اسم (الثلمود) ولها زاويتان قريبتان من بعضهما زاوية منهما كانت مدرسة ويقصدها بالخصوص الطلبة الجوّالة. والزوايا التابعة للحزّامية بنفطة هي: زاوية علثمة وهي التي ينشطون بها إلى الآن، وزاوية سيدي إبراهيم وزاوية سيدي المزهود.

أصول الطريقة: يعدّ أولاد حزام أصحاب الترجمة والثلمود والعدّة. وأهل الجريد يفرّقون بين (الحضرة) و(الثلمود) بدقّة فائقة.

فالحضرة: تتكوّن من ستّة إلى ثمانية أنفار وتقدّم فيها أغان وأمداح، فنصف الجماعة يزرعون (أي ينشدون) والبقية يردّدون (ردّادة).

1 هو الشيخ التابعي بن صالح بن الحاج عبد الرحمان معيزة من مواليد 1929م، درس بجامع الزيتونة وتحصل منه على شهادة العالمية، وهو الآن شيخ زاوية سيدي بو علي السّني بنفطة وإمام مسجدتها وشيخ القراء بها.
2 ذكره كوبولاني وجعله شيخ الزاوية الأساسية بنفطة وهي الزاوية المدفون بها الشيخ أبو علي، ومن كلامه يظهر أن الشيخ عامر السكندري معاصر لكوبولاني فنحن إذن في حدود 1890م ولعلّ عامرا هذا أحد أبناء الشيخ عمر السكندر وهذا ربما يذهب بنا إلى القول بمحاذة العمل الحزّامي. (كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص355).

والثلمود¹: يتكوّن من خمسة عشر إلى عشرين نفرا ونجد فيه (العُدّاة) الذين يحملون العُدّة: فيغنون الأطراق، والطبّالة: الذين ينقرون على البنادر والتنفورة، والشّواش: الذين يهتمون بالترتيبات، والشطّاحة: الراقصون.

والثلمود هو كلّ مكوّنات السهرة من عدّة وترجمة وأطراق، ويضاف إلى آتاه الزكرة بجانب التنفورة والبنادر. فيكون وصلة غنائية تبتدئ بالعدّة المذكورة أعلاه، ثم الترجمة ثم (الأطراق) الحامية والتخميرة وجلب الجاوي من الكانون أو المبخرة أو أي شيء، وعمل الكوشة (وهي الكانون الكبير المليء بأقباس النار الحامية) فيرقص به أحدهم وتتساقط جماره على الأرض فمنهم من يأكلها ومنهم من يدوسها حافي القدمين، وقد يتعرّى من ثيابه ويمرّر على جسمه العاري جريدة مشتعلة.

فالعدّة: نوع من الغناء وهو مجموعة (أطراق) جمع: (طرُق) بقاف بدوية "gu" وهي المدحة. وهذه العُدّة هي أسلوب في التآليف الموسيقي. فهناك العُدّة الرّحالي وتقدّم وقوفا. أمّا عدّة الثلمود فتؤدّى جلوسا وتبتدئ بالصلاة على النبيء وتنتهي كذلك بالصلاة على النبيء.

والترجمة: قد لا تعني هذه الكلمة شيئا مما نفهم من كلمة "الترجمة" وهي نقل كلام من لغة إلى أخرى، وإنما ترجع فقط للاستعمال العامي للكلمة يترجم عليّ: بمعنى يقول كلاما لا أفهمه أو أقوى من طاقتي، كما يقال أيضا لمن يقول كلاما كثيرا كالمنفجر غيظا. وهكذا يقال: بير يترجم بالماء أي به ماءٌ كثير، والترجمة في الطريقة الحزامية هي حوار بين اثنين بلغات مختلفة كالتركي والعجمي والسرياني (حسب زعمهم أو ادّعائهم)، وتتخلل هذا الحوار مشاهد تمثيلية تمتاز بمشادة كلامية بلهجة غير مفهومة كأن الممثلين في حالة خصام وينتهي الحوار بالعناق ثم تتلوه مدحة، وتتخللها أبيات تؤدّى بدون إيقاع على نوع العروبي في لهجة السعداوي.

الطرق: وجمعه "أطراق"² هو الوصلة الغنائية أو الطريق في الغناء الشعبي أو

1 الثلمود بالشاء الثلاثية، وهي كلمة غريبة نوعا ما، فالثلمود المعروف هو كتاب شريعة اليهود، ومعناه الأصلي (الدراسة) وتسمية هذا العمل الفني بهذا الاسم مما يثير الاستغراب.

2 محمد الطاهر اللطيفي، الشعر الشعبي التونسي، شعر وشعراء، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس 2004، ص: 54: "الطرُق: جمعه "أطراق" هو التغمّي ببيت أو بيتين من الشعر بارتفاع تدريجي للصوت إلى انتهاء مساحته مع انثناءات وتموجات في النبرات ترتفع وتنخفض لزيادة التطريب بحسب ما يوجد في الساحة من ألحان متداولة، ونحن نجد هذا النوع من الغناء في الذكر الصوفي وفي الأشعار المصاعغة على وزن العروبي أو الصالحي وغيره".

الموقف. والطرف الحامي هو السريع الإيقاع مثل الغربي أو الحمّاري فيرقصون عليه من الحزامية جماعة بالكوشة وهو كانون أو مبخرة تعجّ ببخور أو بدونه، فيقومون بما ذكرنا أعلاه.

طريقة العمل: يقال إن الطريقة البوعلية لم تكن فيها آلة (التنثورة) من قبل، ويقال إنّه لحدّ الآن يوجد بعض الشيوخ والعجائز لا يحبّذون هذه الآلة لحدّة صوتها الذي يمنعهم من سماع المديح والكلام كما ينبغي، ويقولون إن أتباع الطريقة البوعلية قدّوا طريقة السّنيّة في القرع على هذه الآلة.

ومن أمداحهم:

مدحة: (موالي الشّبّاشيب * اللّي يعرّفوا خصلاته)

مدحة: (عاشفة مغرّومة * ساب لهم حدّ * في ساكن الفرّجومة)

مدحة: (يا ساكن الفرّجومة)

مدحة: (وَحْشِكْ جَانِي * بَابَا سُلْطَانِي)

تخميرة: سَمِيَتْ وَأَمِنْتُ بِاللّهِ * وَكُثِرَ الصَّلَاةُ عَلَيَّ نَبِينَا

طرُق سُلْطَانِي (تخميرة): يَا عَلِيَّ الْأَقْدَارُ

مدحة:

نَادَيْتُ عَ الْأَجْوَادُ يَا أَحْبَابَ رَبِّي غِيُوثِي

سَيِّدِي أَحْمَدُ مِيْعَادُ يَا شَيْخَ يَا صَوَّ غِيُونِي

الثلمود: يبدأ عمل الثلمود بالصلاة على النبي بطرف:

فتقول المجموعة الأولى:

صَلَاةَ اللّهِ عَلَيْكَ أَلْفَ مَرَّةً حَيِّي رَسُـوَلِ اللّهِ

يَا شَارِقُ الْأَنْوَارِ يَا بِنَ عَبْدَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْكَ

فتقول المجموعة الثانية:

صَلُّوا عَلَيَّ الْعُرَابِيَّ الْهَاشِمِيَّ بِنِ خَلِيمِهِ

فتردّ المجموعة الأولى:

صَلَاةَ اللَّهِ عَلَيْكَ أَلْفَ مَرَّةٍ حَبِيبِي رَسُولِ اللَّهِ

يَا شَارِقُ الْأَنْوَارِ يَا بِنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ

فيكون الطرف هكذا جرائد جرائد (أي أبياتا أبياتا).

أنموذج من الترجمة: يخرج إثنان إلى الركح أحدهما مقدّم الطريقة نفسه وهو الذي يسأل والثاني: يمثل دور السرياني أو العجمي أو السوداني، وينطلق المشهد مثلا:

في الفصيح:

سؤال: باش داخل سوق السلطان؟ (السلطان هو سيدي بوعلي)

جواب: داخل بسم الله، والحمد لله، ونشتكي بتركي بجمرة السلطنة (وأحيانا يضيف) والله يحب المتوكلين.

باش تشتكي في ديوان السلطنة؟

— اشتكي بجمرة أبي علي السلطان. ادفع سؤال تاخذ جواب ولكل سؤال مقال.

— أين شباشيب سلطنة؟

— هاهم حاضرين في محل الديوان، كل حد يشتكي بما التغط اللسان.

— باش يرزم طبال الباي؟

— يروح بصلاة النبي نفّة نفّة، يدخل بحور عميق، يخلخل عقله

ويرعب جسمه ويفرج على قلب مهموم مغموم بهيلات ليه.

— زناد يفدح من زناد؟ (الكلام يلحق من السائل والمجيب يجيب على السليقة)

— اللَّهُمَّ عَمِّرْ الْأَشْبَاحَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا وَفَّقْتَ اللَّهَ.

— الدور على من؟

— ندور على الكعبة المحمدية نفعنا الله وإياكم ببركاته.

— كإس حزام دُكْمُنْ؟ (مشدود جيّدا)

— عامر بصلاة النبي متوكل على الله.

— باش تاتي كراط الباي؟

— تاتي الذهب كتار كتار، ترفع فاصيص مفصوص (أي كل ما يحمل من لغة

وكلام) باذن شباشيب بَيْلَارْ (أي كل واحد وماذا يقول) خدام السلطان.

— تاتي كراط الباي بعسكر حجدر؟

— كل حد في هواه. تفضل رواتب على الشبان تورق فرام خيوه سوي بما التّعظ

اللسان بجبد الهوا.

* في نوع المُشكَّل أي غير الفصيح:

— باش ينال المشتري؟ (المشتري هو المجذوب)

— ينال بخدمه وطاعات وبنية واعتقاد في الله ولرجال الله الصالحين (ينال بالذكر

والصلاة والعبادة فهذا الذي ينال به ويصل إلى سيدي بو علي النفطي . وهناك من يقول:

يُمِثِّي بُقْبَابٍ مِنْ ذَهَبٍ. ذَهَبٌ كِتَارٌ كِتَارٌ. يُمِثِّي خُطْوَةَ خُطْوَةٍ. كُلُّ خُطْوَةٍ بِذِكْرٍ وَأَلْفٌ

ذِكْرٌ.

* في نوع العجمي:

— خِدْمَتِكَ مَا يُرِيدَا (ma yourida) ؟

— بالعمل الصالح يريد ما يحبه.

— باش طبال روي (roi) ؟

— طبال الباي بَرَزْفِي يُهْدَى (youhda) (أي يَرَنُّ بِنَقَّةٍ هادئةٍ تدخل مباشرة في العقل)

* في نوع السرياني:

— باش تسيّر بخدمتك سيراليّ بيه ؟

— ينال بِخِدْمَةٍ تسيّر بَرَاكَاتٍ يُكْتَسَى سَرِّ بِهِ (أي ينال بها هيلات أبي علي السلطان وأسراره)

— بِحَقِّ تَعْتَنِيَانِ بِهِ ؟ (بأي شيء تعتني به)

— حَقًّا تَعْتَنِي بِأَوْرَادًا وَذِكْرًا وَهِيَلَاتٍ مُشْتَرَى

* في نوع السوداني:

— (المقدم يسأل بالسوداني) آي (Aïe) ديواني عجم سوداني سلياني خديماً لكُم بِكُم ؟

— (الرد بالسرياني) أكسننقى ساسيون استداري بما (Axining sasioun Astadari bima) (أنا حاضر في ديوان الهيلات بترتيب).

— باش يَكْسِنُ صَائِينَ طَا صَا يُورِي دَا ؟ (أي بماذا أنت داخل إلى هذا الديوان؟).

— بِحَقِّ يُرْتَصَادِرُ نَا فَيِدَا (navida) بهيلات يُرْتَجَا لِقَدْرِ الباي (داخل باسم الله والحمد لله).

ومما لا يخفى أن هذا الكلام لا ينتمي إلى أي لغة من اللغات المذكورة. وقد فسّر لنا ذلك مقدم الفرقة السيد الطيب بن محمد بن الطيب جراح من مواليد 8 مارس 1962، ويقول إنه أخذ الطريقة من الذين سبقوه.

وعند انتهاء الترجمة تأتي مجموعة من الأطراق، فتكون البداية بأطراق من نوع الحر، وهي التي تتغنى بالشيخ أبي علي، ثم تأتي الأطراق العجمي: السوداني والسرياني وسيدي

1 بحث ميداني على عين المكان قام به حسين الحاج يوسف بتاريخ 26 مارس 2001.

مرزوق، وينوعون أطرافاً أخرى منها التباسي والسناي على حدّ قول المقدم. وتأتي بعد ذلك أطراف عجمي سخون يتخمرون عليها ويرقصون، وتكون النهاية بِشيلة (الله الله الله) بالبندير، ثم يقع دعاء: (اللَّهُمَّ اعف عَنَّا واسترنا إلخ...) ثم يقرؤون فاتحة الكتاب. ومن أمداحهم:

(1) مولى نفضة الشريف، (2) سيدي عليّة ياساكن الفرجومة، (3) يَا مَاثِي سَلَّمْ غَلِي نفضة، (4) من هو مغروم ياخذ متي المعاني، (5) الله لا إله إلا الله وافي خصلاته. وجلّ هذه الأمداح في لهجتي السعداوي والعرضاوي.

أولاد سيدي مرزوق الشوشان: نسبة إلى سيدي مرزوق العجمي دفين نفضة، ويقال إنّه كان في خدمة الشيخ أبي علي إلى حين وفاته، وله زاوية هي مقر فرقة (البنقة) ومقدمها أحمد مادي الططاعة.

يستعمل أتباعه من الآلات (تنفورة) وطبلة تنقر بعضا مقوّسة (يقع تقويسها في شجرة تين وهي يانعة فتشدد على ذلك الشكل)، والبنادر وشكشكاة (وهي الشقاشق أي الصنوج التي تمسك في الكف)، وتسمى أطرافهم بالأطراف العجمية، وأكثر إيقاعات هذه الطريقة السطنبالي ومن أمداحها: (بَابَا غَلِيّه)،

و(بَابَا مَرْزُوقِ)،

و(بِيبي يَابِيبي * يَابِيبي السلام غَلِيك)،

و(بَابَا مَرْزُوقِ * حَدَّرْ لِلْسُوقِ * جَابْ قُضِيّه مَغْلُوقِ)،

أو (بَابَا غَلِيّه خَلْصَ وَحَلِي)،

أو (بَابَا مَنْصُورْ * وَنْجِيكِ نُزُورْ).

طريقة العمل: هناك من يلحق هذه الطريقة بالطريقة البوعلية، وهناك من يخرجها إلى الطرق الزنجية. وعلى كلّ فإنّه في شهر أوت من كل سنة تقام زردة في نفضة تتجمّع بها كلّ أتباع سيدي مرزوق من كامل الجمهورية، ويقولون أنهم يواصلون هذه الطريقة ويعلمونها لأولادهم.

تفوق مجموعة المّداحين (المغنين) العشرة أنفار ولهم شاوش يرقص ويجلب الجاوي بطريقة شعوبية، وتسمى الأغنية عندهم (مّداحة)، وعندهم الطرق (الحامي) أي الوزن الساخن الخاص بالتخميرة. وكل راقص يتخمر على (الطّرق) الخاص به. فتعزف الفرقة (طّرق) لكل متخمر. ويقولون: (كيف يدوخ يتسرح) أي عندما يغيب عن الوجود يذهب همّه وينسرح.

بجر عجمي (طّرق مرزوفي):

وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَسَلَّمْ يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ

الطريقة السنّية ﴿السنانية﴾

نسبة إلى الشيخ عبد الملّا السّني

الشيخ المؤسس: في بحث ميداني أجري مع رئيس الفرقة السنّية بتوزر السيد مبروك بوجناح صرّح لنا: أن الطريقة السنّية تنسب إلى الشيخ عبد الملك بن إبراهيم الأدهم السنّي الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر ميلادي (أي حوالي 1220) أي في الفترة التي ظهر فيها أبو علي النفطي تقريبا، وأصله من المغرب الأقصى وهو مدفون في (ماونة) قرب مدينة عنابة بالشمال الشرقي الجزائري.

أخبار الطريقة: صرّح لنا رئيس الفرقة الباش شاوش الآن في الزاوية الكبيرة بتوزر وهو السيد مبروك بوجناح المولود في 19 ماي 1966م، أنّ أصل الطريقة جزائرية من عنابة وقد اشتهرت بالجزائر والمغرب وتونس، وبلغت العراق في كربلاء وكردستان العراق واليمن.

وللطريقة عدّة زوايا بالجنوب الغربي التونسي أهمها توزر، وتسمى زاوية سيدي عبد السلام وهو من سلالة الشيخ عبد الملك، وهي الزاوية النشيطة برئاسة السيد مبروك بوجناح، وكذلك زوايا بالمحاسن (كريز) ودفاش وأولاد ماجد وسدادة حيث يوجد ضريح الشيخ أبي علي النفطي، ويقوم أفرادها سنويا بزيارة لحامّة الجريد وبقية الزوايا. ولهم في كلّ عام (زردتان) الأولى بعنابة والثانية بتبسة في الوسط الشرقي الجزائري على الحدود التونسية.

ويروى أن أحدا من سلالة الشيخ عبد الملك اسمه سيدي الأخضر ابن سيدي المبروك له عدّة كرامات وكان يزور باستمرار مريدي الطريقة بنفطة، فوقع تأليف مدحات تبرز خصاله وما قام به من أعمال لفائدة الطريقة، وعدّة قصائد تروي دخوله إلى نفطة. وتلقى هذه القصائد بدار أحمد العلوي وهو من أكابر نفطة.

من هذه المدحات:

جَاء وَمَا جَانَأَش يَا الْمَبْرُوكَ قَالُوا رَوْحٌ بِالرَّأْدِ مَا أَخْبَرَ نَأَشَ

مُنِينٌ جَانَأَ الْبَشَارِ يَا الْمَبْرُوكَ قَالَ الْمَبْرُوكُ رَاهُو فِي الْإِنْفَازِ

خَرَجْتُ نُسَاءً وَرَجَالَ حِينِ اللَّيِّ مُشِينَا رَاهُو رَوْحٌ مَا لُفِي تَأَشَ

من أصول الطريقة: لهذه الطريقة ما يناهز السبعين قصيدة، أما آلاتها ففي الجزائر: فصبة وبنادر بدون تنفورة، وفي تونس: بنادر و تنفورة بدون فصبة.

طريقة العمل: هناك طريقة عمل في الزوايا والمواسم الدينية كالحج والمولد وليلة 27 رمضان وغيرها فينطلقون ب:

1) قصائد توحيدية: أي قصائد في توحيد الله تعالى والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدح الشيخ عبد الملك السني، فيقرعون التنفورة والبنادر ويشرعون في المدحة الأولى:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ

صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَيْنِ الرَّحْمَةِ بِنُورِ اللَّهِ

وأخرى من تأليف المختار بن عبد الرحمان:

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دَائِمٌ بَاقِي

صَلُّوا عَلَى أَحْمَدَ مُحَمَّدَ سَيِّدِ أَسْيَادِي إلخ...

وبها قرابة العشرين بيتا تنتهي كما يلي:

إِعْفِزْ لِي يَا رَحْمَانَ لِيْ وَلِأُمِّي وَأَبِي

اسْمُهُ الْمُخْتَارُ يَشْعُرُ عَلَى جَمَلَةِ أَسْيَادِي

الحضرة: تنشد الفرقة ثلاث أو أربع مدحات:

(1) مدحات: وهي قصائد في تمجيد الله ورسوله ومدح بعض الأولياء مصحوبة بالنقر على البنادر والتنفورة، فيستفتحون بـ:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ زِيدُوا صَلَواتِ عَلَى النَّبِيِّ

(2) العدة: وهي مجموعة مدحات بدون آلات إيقاع، وتقع مثل ما عند الحزامية، وتختلف عنها في الكلمات وفي الألحان.

(3) الترجمة: للباش شاوش دور كبير فيها، فهو القادر على الكلام بالفصح أي المفهوم، وبالتركي أي غير المفهوم ويعرف تفسيره، وهو الذي يُرقص بقية الشطاحة، ويقوم بالترجمة على طريقة سؤال وجواب، فالباش شاوش يسأل والآخر يجيب سواء بالفصح أو التركي الذي يشمل عندهم كل اللغات غير المفهومة.

(4) العمّاري: هو الرقص الجدّابي، وهو رقص الجذبة، وهو نوع من الإيقاعات الراقصة جدّا، ونسبتها إلى عمّار يجعلنا نرجعها إلى الطريقة العمّارية، فحسب قول السيد مبروك بوجناح: الطريقة العمّارية هي من السنّية، وهذا الرقص شبيه بما في الطريقة العمّارية رقص بدون غناء.

(5) العجمي: نوع من المدحات العجمي المنسوبة إلى أولاد سيدي مرزوق الحرّ. يقال أن سيدي مرزوق الحر عمل مع سيدي عبد الملك السّني.

والرقص عندهم يُسمّى (الجدب) فيقع فيه رقص مفرط، ويعدّ تعبيرا عن محبتهم للشيخ. وتؤدّي الفرقة عملها بالبنادر كالثلمود الذي أدخلوا فيه التنفورة وفي الطريقة عموما.

الكريفة الشاذلية

نسبة إلى سيدي أبي الحسن علي الشاذلي المتوفى سنة 656 هـ / 1258م

الشيخ المؤسس: هو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن علي أبي بطالة بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس بن عمار بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وُلد بقرية "غمارة" القريبة من مدينة "سبتة" بالمغرب الأقصى حوالي 593هـ (1196 - 97م). درس ببلاده العلوم الدينية وسائل وغايات، وبرع فيها براعة كاملة، لكن نفسه تافت إلى إتمام العلوم الباطنية، وألحت عليه الرغبة، فسافر إلى بغداد والتقى بعلمائها، وكان قمتهم في نظره هو أبو الفتح الواسطي، فاجتمع به وأخذ ما عنده، ولكنه لم يجد طلبته لديه. وذات يوم قال له أحد الأولياء: "إنك تبحث عن القطب بالعراق مع أن القطب ببلادك ارجع لبلادك تجده" وعاد أبو الحسن إلى بلاده "غمارة" وعلم أن القطب الذي كان يسأل عنه يسكن برابطة (أي رباط) في رأس جبل "العلم"، قرب "تطوان" فقصده. ولما بلغ الجبل وجد به عينا فاغتسل وتزى بزى الفقراء، فإذا بالأستاذ نازل وعليه مرقعته يخاطبه كأنه عن سابق معرفة. هذا الشيخ هو عبد السلام بن مشيش الصوفي الشهير والغوث الرباني وريث الشيخ أبي مدين شعيب

1 محمد مخلوف يجعل هذه الولادة سنة 571 هجرية، شجرة النور الزكية، ص: 186.

الأنصاري¹. وصحب أبو الحسن أستاذه الجليل يغرف من مناهله ويتأدب بروحه، وعندما انتهت مدة الإقامة المقررة قال له الأستاذ: "يا علي! ارتحل إلى إفريقية (تونس)، واسكن بها بلدا تسمى "شاذلة" (وهي المرناقية حاليا)، فإن الله يسميك "الشاذلي" وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتي عليك بها من قبل السلطنة، وبعدها تنتقل إلى أرض المشرق وبها ترث القطابة².

ثم سافر أبو الحسن إلى جبل زغوان، وقد وطن نفسه أن يكون في محيط "شاذلة" لا في المدينة نفسها، وصحبه أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي فعاشا عيشة مجاهدة يقتاتان من نبات الأرض وأعشابها، وبلغ منهما الجهد مبلغا عظيما حتى رغب صاحبه في النزول إلى القرية والاستطعام بدل الحشائش، وصادف ذلك انتهاء المدة اللازمة لهذه الرياضة فجاءه الإذن بالسفر إلى تونس، فقصدها واتصل فيمن اتصل بهم بالشيخ أبي سعيد الباجي وهو على طريقة أبي مدين شعيب، فلازم مجلسه وطريقه.

والتقّ حول أبي الحسن جماعة من الفضلاء من بينهم أبو العزائم ماضي بن سلطان المسروقي³ تلميذه وخادمه المتوفى سنة 718 هـ وقبره بالزلاج.

واشتهر أبو الحسن وكثر مريدوه، فأثار ذلك حسد القاضي ابن البراء الذي خاف أن يُغلب على منصبه من هذا الفقيه الشهير ظنًا منه أن أبا الحسن طالب دنيا، فانتهاز فرصة انتساب الشيخ إلى الشرفاء ودس له لدى السلطان أبي زكرياء الحفصي⁴، حتى جمعه هذا

1 بلغ عبد السلام بن مشيش بداية القرن السابع للهجرة وعاش في جبل العلم الذي أصبح فيما بعد جبل مولاي عبد السلام وهو جبل موجود بالظهيرية الممتدة من تطوان إلى وادي الكوس. ويظهر أنه اتصل بالشيخ أبي مدين شعيب وأخذ عنه دون أن يكون شيخه الوحيد، ويتوقع أنه أخذ عنه الطريقة المدنية التي أورثها لتلميذه أبي الحسن الشاذلي] والشيخ عبد السلام من سلالة العائلة المالكة الشرفاء الأدارسة الذين التجأ بعضهم إلى هذه النواحي عند سقوط دولة الأدارسة وظهور الفاطميين، وبهذا المعنى فهو يمثل القومية البربرية. ووقع اغتياله سنة 625 هـ، على يد أحد دعاة الدجال أبو الطواجن، وأصبح مقامه مزارا لسكان جباله والجهة الغربية للريف المغربي. ترك الشيخ عبد السلام طريقته لتلميذه الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتباعه من بني عروس الذين ورثوا الشرف الديني دون السلطة الوراثية، فلم يكن لهم تأثير ظاهر على أجوارهم، ولم يكن بينهم وبين السلطان مشاحنات فهم معفون من الضرائب، لذلك فهم في سلام مع كل الأجوار إلا مع الأحماس الذين يعتبرون أنفسهم طلبية سيدي عبد السلام بن مشيش ويمتلكون التقديمية على الزاوية. (كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 444).

2 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988، ص 25.

3 المسروقي نسبة إلى "المسروقين" وهي قرية سيدي الهاني حاليا بين سوسة والقيروان.

4 هو أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مؤسس الدولة الحفصية بتونس سنة 626 هـ/1229 م وله عدة مآثر بها. وتوفي سنة 647 هـ/1249 م عن سن 49 سنة.

الأخير بكوكبة من العلماء والفقهاء للمناظرة بقصره، فبرّهم الشيخ وقهرهم، لكن السلطان أمسكه حبيسا، فطلب أبو الحسن وضوءًا وقام للصلاة وابتهل، وصادف في تلك اللحظة أن اشتكت محظية الأمير وجعا لم يلبث معها إلا لحظات وفارقت الدنيا، فاغتم الأمير غمًا شديدًا، وفي اضطراب المصيبة اشتعل حريق بالقصر. وفتح أبو عبد الله محمد اللحياني أخ الملك أبي زكرياء للنجدة، وكان محبًا لأبي الحسن، فلما وجده محبوسًا في القصر لام أخاه على حبسه وتدخل وخلصه من محنته، فأمر السلطان بإطلاق سراحه وإرجاعه إلى مكانه مكرّمًا.

ثم عزم أبو الحسن على الحجّ فأمر أصحابه، بالنقلة إلى المشرق قبل الأوان بمدّة، لأنّه نوى المكوث بمصر لفترة، لكن الوشاية من ابن البراء سبقته إلى السلطان، فما وصل إلى الإسكندرية إلا وقد أحيط به وبأصحابه، فبقي فيها أياما حبيس الإسكندرية، حتّى جاءت قبائل رأت فيه شيئا مهيبا فرجت منه أن يشفع لها لدى السلطان في طرح بعض الضرائب. فخرج أبو الحسن رغم العسس من الإسكندرية إلى القاهرة واتصل بالسلطان، ولكنّ السلطان هزئ به وأعلمه بوشاية ابن البراء، وأنه مطلوب القبض عليه، فأشار بيده إلى السلطان والتفت للخروج فشلت أعضاء الملك، وهناك فهموا أنه بريء وعلى بركة، فانكبوا عليه يرجون منه أن يفكّ السلطان مما نزل به ففعل، واستجاب السلطان لشفاعته وطرح تلك الضرائب عن تلك القبائل.

وأتّم الشيخ حجّه ثم رجع إلى تونس، فازدادت فتنة ابن البراء، وواصل مضايقته حتّى اضطرّ إلى الرجوع إلى مصر.

في هذه الأيام قدم إلى تونس الشاب أبو العباس المرسي¹ واستقر مجاورا لمقام

1 وُلد أبو العباس أحمد المرسي سنة 616 هـ/1219م. بمرسية من بلاد الأندلس. تعلّم القرآن وتفقه في الدين. قال: (كنت وأنا صبي عند المؤدّب جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال: الصوفي لا يسودّ بياضا. فقلت: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسودّ الصحائف بسواد الذنوب). ولما بلغ عمل في التجارة مع والده. وفي عام 640 هـ/1242م سافر إلى الحجّ ومعه أبواه وأخوه، ففرقت المركب في شاطئ بونة (عناية) تجارة الجزائر ولم ينج إلا المرسي وأخوه محمد، فسافرا إلى تونس واستقرا بها واتجه محمد إلى التجارة، أما أحمد فاتخذ من زاوية الفقيه محرز بن خلف مكانا للتدريس. وسمع بذكر أبي الحسن الشاذلي فقصده ولازمه ورافقه في السفر إلى الحجّ وإلى الديار المصرية، ولما كان الشيخ أبو الحسن بمحيطه خلا بأبي العباس وأوصاه بأشياء واختصّه بما اختصّه الله به من البركات، وقال لأصحابه: إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسي فإنّه الخليفة من بعدي. ولما قضى جهزه وصلى عليه ودفنه تلميذه أبو العباس وواصل طريقه إلى الحجّ متبعا وصية شيخه. أقام أبو العباس المرسي في الإسكندرية 43 سنة ينشر العلم ويهدّب النفوس بالقدوة الصالحة، وتوفي في 25 ذي القعدة سنة 685 هـ ودفن في الإسكندرية بمقبرة باب البحر.

الشيخ محرز بن خلف، فلما سمع بالشيخ أبي الحسن اجتمع به ولازمه إلى آخر عمره وخلفه في طريقته.

وجاء الإذن من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام بالانتقال إلى مصر: "يا علي! انتقل إلى الديار المصرية تُرَبِّي فيها أربعين صديقاً". فسافر الشيخ إلى مصر، وسكن بأحد أبراج السور بالإسكندرية أوقفه السلطان عليه وعلى ذريته من بعده، وتزوج هنالك وولد له أولاد منهم شهاب الدين أحمد وأبو الحسن علي ومحمد شرف الدين وبنات هي السيدة زينب وأختها عريفة الخير، وزالت المحن.

ويظهر أنّ أبا الحسن كان على صلة تامة بأصحابه في تونس، ويروى أنه رجع إليهم وسكن دارا داخل باب الجديد ببطحاء الشعرية، وذلك بسبب وفاة أبي زكرياء الحفصي سنة 647 هـ / 1246 م ومبايعة ابنه المستنصر وعمره لم يتجاوز 22 سنة، فكان الحل والعقد بيد عمّه محمد اللحياني.

إلا أنّ ثورة شَبَّت بين جند المستنصر وأنصار عمّه اللحياني سنة 648 هـ / 1250 م. قتل فيها الجند ابن العم ووالده محمد اللحياني الذي خَلَصَ الشيخ الشاذلي من يد ابن البراء والمملك أبي زكرياء، فرجع الشيخ أبو الحسن إلى مصر بعد فقد السند.

وزالت المحن بالنسبة إلى أبي الحسن في شخصه، لكن الإسلام ممتحن في بلاده، فقد حمل لويس التاسع ملك فرنسا حملة شعواء على مصر، واحتل دمياط وهو يحاول التوغّل في البلاد، والمملك الظاهر بيبرس لا يغمض له جفن وهو يهيء الجيوش، ويستعدّ للمواجهة دفاعا عن حوزة الوطن والدين.

ونادى نداء واجب الجهاد فخرج أبو الحسن، رغم كفاف بصره، لملاقاة العدو في معركة المنصورة، وكانت المعركة الفاصلة الحاسمة، وأنزل الله كتائب نصره، وبشّر الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبيبه أبا الحسن في المنام بانفراج الغمّة وانتصار الأمة.

واستمر الشيخ يدعو إلى الله عزّ وجلّ، وينشر طريقته في الآفاق، إلى أن كان شهر شوّال من سنة 656 هـ [1258م] أخذ في السفر إلى الأراضي المقدّسة للحج، فلما كان في "حميثة" من صحراء "عيذاب" وهي بين "قنا" و"القصير" جمع الشيخ أصحابه في إحدى

الأمسيات وأوصاهم بأشياء، وأوصاهم بمحزب البحر وقال لهم: "حَقِّظوه لأولادكم فإنّ فيه اسم الله الأعظم"¹. ثم خلا بأبي العباس المرسي رضي الله عنه وأوصاه بأشياء واختصّه بما خصّه الله به من بركات. ثم وجّه الحديث لأصحابه قائلا: "إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنّه الخليفة من بعدي، وسيكون له بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى"². وبات ليلته ذاكرة متوجها إلى الله فلما كان السحر أسلم الروح لخالقها، فلم يورث الطريقة لأحد أولاده وإنما ورّثها لصاحبه أبي العباس المرسي لما رآه فيه من أهلية لذلك، فالوراثة في هذه الأمور لا تكون بالنسب، وإنما بالاستعداد الروحي والاجتهاد في السلوك والانضباط لتعاليم الطريقة. رحم الله الجميع برحمته الواسعة.

وقام أبو العباس بتجهيز صاحبه وأستاذه وبعد ذلك أتمّ حجّه ورجع مستوطنا الإسكندرية التي خرج منها. ولعلّه من هنا، كما يقع دائما في كلّ الطرق الصوفية، دخلت سنة الإجازة والتوصية بالخلافة، ونورد هنا نص إجازة شاذلية كما وردت بلغتها الأصلية ونقلها "كوبولاني" و"ديبون" هكذا³:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من سبّح في كفه الحجر

إلى حضرة من يقف على خطنا هذا وينظره ويقرأه بلسانه وعين قلبه ويتأمل في معناه ويحصر مجراه وهو أنّ ولدنا الشافي وقرّة عيننا الكافي سيدي محمد بن سيدي الطاهر أصلا وفصلا أننا أذناه يعطي طريقتنا الشاذلية بعدما لقنته الاسم الأعظم، إذنا صريحا للكبير والصغير من الذكر والأنثى حرّا وعبدا. كما أذن لنا شيخنا في ذلك بإذن من الله ورسوله ولو كنت لست أهلا لذلك، فخرجوه يكون عيننا من عيوننا وأصلا من أصولنا نسبا واحتسابا، فمن تعلّق به تعلّق بنا ومن واصله واصلنا ومن أخذ عنه أخذ عنّا ومن حارمه فقد حارمنا⁴، ومن وقف في باب طريقتنا ودخل فيها يوما أو يومين فله سعادة الدارين كما قال إمامنا الشاذلي رضي الله عنه، ويبشّر أيضا بحياة قلبه

1 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، ص 41.

2 المرجع السابق، ص 42.

3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 450.

4 لعل الأصل فيها (حاربنا) فحارم من المشاركة في الحرم ولعله الجوار.

واستوطنانه¹ في وطنه وهو (عالم قُل) لأنها طريقة حيّة تسمع وترأ² وتتحرّك، وهي الناشئة من العوامل الداخلة عليها. والله ما دخلت على صميم أحد إلا هزّت عالمه ودكّت وجوده بإبداء موجوده³ وعتق رقبتة من النار بعد فتقه من رتقه والخروج من غفلاته. ومن أراد أن يجرب فليجرب، وفي التجريب علم الحقائق⁴ ومن بدّل أو غير في قوله، المعيارُ أمامه، فالله حسيبه وحسبه وهو وليّ الانتقام، نعم الوكيل، والسلام متأبدا واختتام (ا) على من هو منّا وإلينا في غيبه وشهادته. صحّ من كاتبه وراقمه رقيق جنابه وخادم إخوانه وأحاباه أبي القاسم بن الحاج اسعيد القرني نسبا الشاذلي طريقة، أخذت الذّكر والاسم وكنت مآذونا فيهما ونمكته لمن كان أهلا له بحول الله من شيخنا سيدي الحاج محمد بن خليفة وهو عن مشايخه من شيخ إلى شيخ إلى سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى سيدنا جبريل عن سيدنا رب العالمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. عام 1296 [هجريا الموافق لـ 1878 - 79م].

وتختم هذه الإجازة بطابع مستدير مكتوب على دائرته بالعربية "سيدي بالقاسم بن الحاج اسعيد الشيخ الطرقة الشذولية"، وبوسطه بالفرنسية (Sidi Belcacec; ben Saïd) وهو الشيخ أبو القاسم بن سعيد بوقشايبة مقدم زاوية "أدوغ" وغاباتها بسفح جبل الشعابة بالحزائر.

ومما يذكر من أخلاق أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنّه كان يأمر بالاعتدال ولا ينتقد زي الفقراء ولكنه لا يتورّع عن لبس اللّين من اللباس ما دام من المحسنين، كما لم يكن يتعمّد أكل الغليظ من الطعام ما دام شاكرا، وكان يركب الفاره من الجياد، ومن كلامه في ذلك: "لا تُسْرِف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، أو تنحلّ أعضاؤك لها، فترجع لمعانقتها، بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة⁵.

وكان رحمه الله، يحاول إلفات نظر الناس إلى أيام المواسم الروحية وأيام الحفلات

1 هكذا في الأصل دون قلب والصواب (استيطانه).

2 وترا بالمد والأصل بالقصر (وترى).

3 طبعا المقصود (موجده) اسم الفاعل وهو الله تعالى، وجريه وراء السجعة جعله يسقط في هذا الخطأ كما أخطأ في (ترا).

4 من هنا ومن غيره يفهم التفكير العلمي والمنهجي للطريقة ولعلّ هذا مما جعلها رائجة أكثر لدى المثقفين.

5 عبد الحلیم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية.

الدينية حتى تبقى حيّة في نفوسهم يحيونها بالذكر والعبادة ويحتفلون بها بأنواع الصدقات، فكان يركب فيها وتمشي أكابر الفقراء بين يديه وتنشر الأعلام على رأسه، وتُضرب الكاسات¹ بين يديه، فكان يهزّ الناس بذلك ويدعوهم إلى الخالق في ذلك الجو البهيج. وكان يقول: "ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والتخّالة، ولا برقيقة الصناعة وإنما بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}²" يقول ابن عطاء الله الإسكندري: "وكان الشيخ يكره المريد المتعطل ويكره أن يسأل تابعه الناس وقد كان جوادا بما يملك، كريما يكره البخل، ويحثّ على طرُق الأسباب³" وكان يعمل في الزراعة ويتخذ لها الوسائل الكافية، ويربّي الثيران للحرثة، فالغني الشاكر لدى الشاذلية خير من الفقير الصابر.

أما في خصوص السّماع فإن أبا الحسن الشاذلي من الذين لا يرون حضوره على رأي أستاذه عبد السلام بن مشيش وهو عنده من اللهو. قال الإمام أبو الحسن: "استأذني بعض الفقراء في الحضور والسّماع، فهمت بذلك، فرأيت أستاذي رضي الله عنه، وفي يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي يده اليسرى أوراق فيها مرجز⁴ وهو يقول لي كلمته: تعدلون عن العلوم الزّكية إلى علوم ذوي الأهواء الرّدية، فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان. لئن لم ينته الظالم ليقلبنّ الله أرضه سماء وسماءه أرضا. قال: فأخذني منه حال بوجد وأنا أقول له: نعم! يا أستاذي، إلا أن النفس أرضية، والروح سماوية. فقال لي: نعم! يا علي، إذا كانت الروح بأ مطار العلوم دارة، والتّفس بالأعمال الصالحة ثابتة فقد حصل الخير كله وإذا كانت النفس غالبية، والروح مغلوبية فقد حصل القحط والجذب، وانقلب الأمر وجاء الشرّ كلّه. فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشّافي، فلن تزال بخير ما

1 الكاسات: جمع كوس وهي آلة إيقاع من جنس الطبول.

2 عبد الحلیم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ص 45.

3 عبد الحلیم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ص 60.

4 المرجز كتاب فيه أرجوزات. أنظر التورية في مرجز (من الرّجز) وهو الإثم.

آثرتهما، وقد أصاب الشَّرَّ من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللِّغو أَعْرَضُوا عنه، وإذا سمعوا الحقَّ أَقْبَلُوا عليه {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا} 1.

قال الإمام البوصيري صاحب البردة المباركة المولود في 608 والمتوفى سنة 695 وهو من تلاميذ أبي العباس المرسي، (من البحر الكامل):

أَمَّا الْإِمَامُ الشَّاذِلِيُّ طَرِيقُهُ	فِي الْفَضْلِ وَاصِحَّةُ لِعَيْنِ الْمُهْتَدِي
فَانْقُلْ وَلَوْ قَدَمًا عَلَى آثَارِهِ	فَإِذَا فَعَلْتَ فَذَاكَ أَخْذٌ بِالْيَدِ
قُطِبَ الزَّمَانِ وَغَوُّهُ وَإِمَامُهُ	عَيْنُ الْوُجُودِ، لِسَانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ
سَادَ الرَّجَالَ فَقَصَّرَتْ عَنْ شَأْوِهِ	هِمَمُ الْمَارِبِ لِلْعَلَاءِ وَالسُّؤْدِدِ
أَوْ مَا مَرَزَتْ عَلَى مَكَانِ صَرِيحِهِ	وَشَمَمَتْ رِيحَ التَّدِّ مِنْ تُرْبِ نَدِي
وَوَجَدَتْ تَعْظِيمًا بِقَلْبِكَ لَوْ سَرَى	فِي جَلْمِدِ سَجَدَ الْوَرَى لِلْجَلْمِدِ
فَقُلِ السَّلَامَ عَلَيْكَ يَا بَحْرَ التَّدَى	الطَّايِي وَبَحْرَ الْعِلْمِ بَلْ وَالْمَرْشِدِ ²

أخبار الطريقة: الطريقة الشاذلية هي في الحقيقة طريقة المتصوف الشهير أبي القاسم الجنيد، نقلها إلى شمال إفريقيا الصوفي الشهير أبو مدين شعيب الإشبيلي الأندلسي، ونشرها بالمغرب أبرز تلاميذه الشيخ عبد السلام بن مشيش المعاصر للسلطان عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس دولة الموحدين وأحد أعوانه وتوسع في نشرها تلميذه ووريثه الروحي أبو الحسن الشاذلي، ويمكن القول بأن الطقوس التي تذكر لهذا المراتب (عبد السلام بن مشيش) تؤلف الخيط الرابط لوحدة هذه الجماهير المختلفة في جماعة دينية، فالكل يمشي تحت لوائه، ومهما يكن من أمر فإن الشيخ عبد السلام بن مشيش قد نقل البركة إلى تلميذه الشاذلي وأبنائه أي بني عروس فأصبحوا لا يكونون إلا طبقة من الأرستقراطية الدينية بدون سلطة وراثية، وليس لهم تسلط على القبائل المجاورة لمستقرهم، فهم في الغالب أثرياء قليلو اللجاج والمزاحمة لانزوائهم ومسالمتهم وهم لا ينساقون وراء أي من اهتمامات الناس، ويصفتهم شرفاء فهم معفون من عدة ضرائب.

1 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، ص 117.

2 المصدر السابق، ص 72.

وزعيم هذه الطريقة الأول هو أبو مدين شعيب الإشبيلي المدني من مشايخ السلوك بالقرن السادس¹.

هذا الانزواء والمسألة وعدم الانسياق وراء اهتمامات الناس كلّف الطريقة المحافظة على لهجتها المغربية، رغم الازدهار الذي عرفته بمصر، واتخذها الدكتور زكي مبارك مثلاً لتدعيم إحدى أفكاره في كتابة التصوف الإسلامي فقال: "وهنا مثل قريب يمكن الاستئناس به، وهو مثل نأخذه من الصوفية الذين يعيشون في مصر، فألفاظ الأحمدية غير ألفاظ الشاذلية، وإتّما كان ذلك لأن الأحمدية طال عهدهم بصحبة الفقراء في وادي النيل، أمّا الشاذلية فألفاظهم في الأصل مغربية، ولها خصائص لا يعرفها الأحمديون²".

وكانت الطريقة الشاذلية طريقة علم، فقد كان أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي لا يأخذان العهد إلا على من تبخر في علوم الشريعة وآلاتها بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة³. وقد كان أبو الحسن يقول: "لَا كَبِيرَةَ عِنْدَنَا أَكْبَرَ مِنْ اثْنَيْنِ: حَبِّ الدُّنْيَا بِالْإِيثَارِ، وَالْمَقَامِ عَلَى الْجَهْلِ بِالرِّضَا" لأن حبّ الدنيا أساس كلّ خطيئة، والمقام على الجهل أصل كلّ معصية⁴.

واشتهرت الطريقة بالنسبة إلى أبي الحسن الشاذلي ثالث المشايخ، وصحبه أربعون من الأبرار سلكوا طريقه وأفردت مناقبهم بالتصنيف ومنها "درة الأسرار وتحفة الأبرار" لمحمد الحميري ابن الصباغ طبعت بتونس سنة 1304 هـ، وسيدي علي الخطاب هو أول من تعرّف على أبي الحسن الشاذلي عند قدومه من المغرب ونزوله بـ"شاذلة" التي نسب إليها، وبعده اتصل بشيخه أبي سعيد الباجي تلميذ الشيخ أبي مدين شعيب. يقول الشيخ الشاذلي: "لما دخلت إلى تونس قصدت من فيها من المشايخ ولم أجد فيها من عرفني بما

1 هو الشيخ أبو مدين شعيب مؤسس المدينة السابق الذكر. عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 443.

2 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب، طبعة بيروت، ص 325.

3 عبد الحلّيم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988، ص 49.

4 نفس المصدر السابق، ص 50.

5 عبد الحلّيم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988. أورد النبال في الصفحة 230 من كتابه الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي: "قال الشاذلي: ثم أشار عليّ [الشيخ عبد السلام بن مشيش] بالانتقال إلى إفريقية وأسكن بلدا منها تسمى شاذلة. فانتقلت إليها ودخلت تونس، وبينما كنت في مصلى العيدين [وهو المصلى الذي أحدثه أبو زكريا الحفصي بنهج سيدي الزاوي قرب باب منارة] وجدت بها خطابا يبيع حملا من الحطب وظهر أنه من شاذلة فحملة إليها".

أنا كنتُ في حيرة منه إلا الشيخ الصالح أبا سعيد الباجي فإنه أخبرني بحالي قبل أن أبدية، وتكلم على سرِّي فعلمت أنه ولي الله ولازمته وانتفعت به كثيرا". وتوفي الشيخ علي الخطاب سنة 671 هـ ودفن بزوايته المعروفة قرب المرناقية وهي في المكان المسمى سابقا "شاذلة". وأوّل من تعرف به في شاذلة أبو محمد عبد الله الحبيبي رفيق الرياضة الأولى وهو المتوفى سنة 693 هـ ودفن قبلة الزلاج، والشيخ أبو حفص الجسوسي الذي كان من علماء الظاهر والباطن. ومن أصحاب الشيخ أبي الحسن أبو عبد الله الغماري المدفون بالقرب من المغارة توفي سنة 663 هـ، ومنهم أبو عبد الله محمد الجباس المتوفى سنة 664 هـ ودفن غربي الزلاج، ومنهم السيدة عائشة المنوبية المتوفاة سنة 665 هـ ودفنت بروضة السيجومي خارج شرف المركاض، ومنهم أبو عبد الله محمد القرافي المتوفى سنة 666 هـ والمدفون بشرف المركاض، ومنهم عبد الله الشريف المتوفى سنة 673 هـ وقبره قرب باب سيدي عبد الله بسور تونس، ومنهم حسن السيجومي توفي أواخر ربيع الأول سنة 674 هـ وقبره مشهور قرب سبخة السيجومي؛ وأبو الحسن علي الفرجاني المتوفى سنة 681 هـ ومقبرته خارج المركاض بتونس. ومنهم من هاجر معه إلى مصر وأولهم أبو العباس المرسي، والحاج محمد القرطبي كان يسكن خارج باب الجزيرة وتربة قبره جوفي جبل الزلاج وتوفي سنة 661 هـ، وأبو الحسن البجائي ومنهم من صحبه بمصر منهم الشيخ عبد الله الأسمر، والشرف البوني، وعبد الله اللقاني وعثمان البوريحي، وأمين الدين جبريل. كما تفرّعت عن طريقتة عدّة طرق كالجزولية (نسبة إلى الشيخ أبي عبد الله محمد الجزولي) والزروقية (نسبة إلى الشيخ أحمد زروق وهو تلميذ الشيخ الجزولي) واليوسفية (نسبة إلى أبي العباس أحمد بن يوسف في بني راشد من تازة بالمغرب) والغازية (نسبة إلى الشيخ أبي الحسن القاسم الغازي بوادي الذراع بالمغرب) والشيخية (نسبة إلى الشيخ عبد القادر ابن محمد من جماعة البويكرية الوافدين على تونس في القرن الرابع عشر الميلادي ثم انتقلوا إلى المغرب) والناصرية (نسبة إلى الشيخ محمد بن ناصر الذراعي) والشايبية (نسبة إلى الشيخ أحمد بن مخلوف الذراعي الشاذلي) والطيبية (نسبة إلى الشيخ الطيب الوزاني) والحنزلية (نسبة إلى الشيخ سعيد بن يوسف الحنزلي في بني مطير بفاس) والزبانية (نسبة إلى الشيخ الحاج محمد بن عبد الرحمان بن بوزيان بين تافيلالت وواحة الفقيه بالمغرب) والكرززية (نسبة إلى الشيخ أحمد بن

1 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، نشر وتوزيع مكتبة النجاح تونس 1965م، ص 231.

موسى الحساني مولاي الكرزاز بتوات) والدرقاوية (نسبة إلى الشيخ العربي الدرقاوي) والمدنيّة (نسبة إلى الشيخ محمد حسن بن حمزة المدني) والمكحالية (رماة البنادق بأقصى الجنوب الجزائري) والسعادية (التي هاجرت من تونس إلى ليبيا) والدسوقية (نسبة إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي) والبيومية (نسبة إلى سيدي علي البيومي) والشرنوبية (نسبة إلى الشيخ أحمد عرب الشرنوب) والبرهانية (نسبة إلى الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني) والسطوحية (المنسوبة إلى السيد أحمد بدوي) وغيرها في مختلف بلاد العالم الإسلامي¹.

وحفظ مذهب المدرسة الأم نقيًا في عدّة زاويا، فبركة أشهر الصوفيين بشمال إفريقيا هي أئمن نعم الله التي أنعم بها على دعاة المدرسة الشاذلية [بمصر]، حتى تفرعت كل تلك الفروع، ثم إنهم تكاثروا في كامل المغرب العربي والشام والحجاز وتركيا وأسسوا زاويا مستقلة يمكن اعتبارها مدارس حقيقية في الفلسفة والدين حيث تدرّس بها القواعد الأساسية للشاذلية التي يرجع لها الفضل في أصالتهم وتجدرهم².

قال الشيخ محمد المغربي³ من بحر الكامل:

الشَّاذِلِيَّةُ قَادِرِيَّةٌ وَفَتِيهِمْ قَدْ خُصَّصُوا بِحَقَائِقِ الْعُرْفَانِ
يَهْنِيهِمْ مَا قَدْ عَلَاهُمْ مِتَّةٌ مِنْ نُورِ مَعْرِفَةٍ وَعِلْمِ بَيَانِ
صَرَّحَ بِذِكْرِ فَضْلِهِمْ تَحْطَى بِمَا قَدْ شَاهَدُوا مِنْ فَضْلِهِ بِعَيَانِ

إذن، فالطائفة ليس لها زاوية أم ذات ترتيب خاص بأتم معنى الكلمة، فهي ممثلة بشيوخ محلّين دون روابط متينة بينهم، وقد حافظوا على التسمية الشاذلية، ومارسوا طقوسا متفقة مع ما نص عليه الإمام الشيخ أبي الحسن الشاذلي، إلا في بعض الجزئيات والتفاصيل التي يظهر أنها من اجتهادات الخلف.

ويقطع النظر عن المقام الذي شيده الوزير مصطفى خزندار على جبل التوبة المعروف بجبل الزلاّج لأبي الحسن الشاذلي⁴ وبقية البناءات الضخمة التي شيدها لتلطيفا

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 454

2 المرجع السابق، ص 445.

3 محمد مخلوف، مواهب الرحيم، طبعة طرابلس، ليبيا، ص 74.

4 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، هامش الصفحة 105.

للرأي العام الذي كان شديد الاعتقاد في أبي الحسن، توجد بتونس ثلاث زوايا بشيوخ مخصوصين يمثلون محور الحركة الشاذلية، وأهم هذه الزوايا تلك التي كان يديرها الشيخ ابن حسن إمام جامع باب الجزيرة بالحاضرة.

وهناك بعض الزوايا المنتشرة هنا وهناك من نواحي الجمهورية، وبعض المريدين الذين يفقدون الالتحام والترابط فيما بينهم، ولكن يجمعهم اسم الشاذلية والأوراد والأحزاب.

ولا شك أن هذه الزوايا ليس لها ارتباط واتصال ببعضها البعض، لما يظهر من استقلال بعضها عن بعض، لكنّ مذهب الشيخ الشاذلي الذي ضبطه العديد من تلاميذه وخصوصا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري أصبح نموذجا يحتذى ومثالا للجميع. إلا أنه كما أسلفنا أنجبت المدرسة الشاذلية الأم عدّة جماعات حقيقية منتشرة في كامل العالم الإسلامي حيث تتمتع بسمعة عالية واحترام كبير وتحتل مكانة مرموقة لدى الجميع.

أصول الطريقة: يقول "كوبولاني" "أنه لا توجد لدى الشاذلية خلوة ولا خانقاه ولا ممارسات صاخبة ولا شعوذات، فحياة السياحة² والتأمل بعميق الإيمان بالتوحيد وتعاليم التصوف أو العلوم الروحانية هي التي تقود المريد ليحيا مع الحقيقة الإلهية. تلك هي تعاليم الشهير أبي القاسم الجنيد التي جلبها إلى شمال إفريقيا الشيخ أبو مدين

1 هو تاج الدين أحمد بن عطاء الله الإسكندري المولود سنة 638 تقريبا والمتوفى سنة 709هـ/1309م، متصوف شاذلي من العلماء، له تصانيف عديدة منها "الحكم العطائية" في التصوف و"تاج العروس" في الوصايا والعظات، و"لطائف المنن في مناقب وأبي الحسن". (خير الدين الزركلي، الأعلام، الجزء الأول ص 161. وله أيضا "التنوير في أسقاط التدبير" و"القصود المجرد في معرفة الاسم المفرد" و"مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح".

2 السياحة: هي هجرة إلى الله تعالى بالتخلي عن حظوظ النفس والنزوع إلى الكمالات الثابتة. يقول محي الدين بن عربي في تفسيره للقرآن الكريم: "السائحون: ثم ساحوا إليه بالهجرة عن مقام الفطرة ورؤية الكمالات الثابتة، وتألّفهم واعتدادهم، وابتهاجهم بها في مفاوز الصفات، ومنازل السبحات" (محي الدين بن عربي، تفسير القرآن الكريم، دار الأندلس بيروت 1401 هـ/1981م، ص 511) ويراهم البيضاوي في تفسيره: "الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام: سياحة أمتي الصوم شبه بها من حيث أنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصّل بها إلى الإطلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد وطلب العلم" (عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل طبع المطبعة العثمانية سنة 1329هـ) ويقول ابن الخطيب في أوضح التفاسير: "السائحون: المجاهدون أو الصائمون، وذلك لأنّ الصائم تصفو روحه وتضعف شهوته وتنجلي قريحته، ويعتدل نظره، ويقلّ هواه، فيكون أقرب شها بالملائكة، فيسيح في ملكوت الله تعالى، ويتفكّر في خلق السموات والأرض... أو هم الجائلون بأفكارهم في ملك ربهم وتوحيده" ابن الخطيب، أوضح التفاسير، الطبعة 7، المطبعة المصرية، ص 242.

شعيب الأندلسي التي علمها وروجها أفضل تلاميذه عبد السلام بن مشيش المعاصر للسلطان عبد المؤمن بن علي وانتشرت في بقية إفريقيا والشرق وبالخصوص بالحجاز عن طريق تلميذهما ووريثهما سيدي أبي الحسن الشاذلي¹.

مذهب المدرسة الصوفية الشاذلية، إذن، معروف بروحانيته المصقّاة والتخلي عن ذات الشخص لله سبحانه، والصلاة في جميع الأوقات وفي كل الأماكن وفي كل الظروف والحالات كي يعيش المرء في اتصال دائم بربه، فتلك هي المتعة والنشوة الخالدة الدائمة، وليست تلك النشوة الناتجة عن التزهد أو التصوف بل تلك النشوة التي يضيفها الحب العميق لله، ذلك الحب الذي يبتعد بالمرء عن العالم ويثير فيه أحاسيس لا يمكن التعبير عنها.

وتستند هذه الطريقة إلى البركة التي أخذها الشيخ بالتسلسل كما أخذ أوراده بالتسلسل:

فالورد : يرويه أبو الحسن الشاذلي عن الشيخ عبد السلام بن مشيش عن عبد الرحمان المدني الزيات الحسني عن نُفيع الدين عن فخر الدين عن أبي الحسن علي الدقاق نور الدين عن أبي الحسن علي الناصري تاج الدين عن شمس الدين عن زين الدين عن إبراهيم أبي اسحاق البصري عن أبي القاسم أحمد المرواني عن سعيد الرباني عن محمد فتح الله السعود عن سيد الغزواني عن الشيخ جابر عن الحسن بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم عن جبريل عليه السلام من الله سبحانه وتعالى.

ولعله من المفيد نقل هذه الإجازة في الورد ترجمة عمّا ذكره "كوبولاني" بالصفحة 447. وتعزى إلى الشيخ الميسوم بن محمد بورقية أصيل الغريب بالجزائر المتوفى سنة 1883 م وبها ذكر للورد مفصلاً:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

نسمح لأخينا في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلّم سيدي عبد العزيز، بأن يقرأ ورد طريقة الشاذلية ويعطيه لمن يرغب فيه لذكر مشايخنا والاجتماع بهم، وأن يأخذ

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 443.

بيدهم في حقول الذكر كما ذكر في الحديث الشريف " يجمع الله الناس مع من يحبون"، أنا نفسي تلقيت الورد من شيخي العارف بالله سيدي عودة بن غلام الله الذي أخذه من شيخه شيخ الشريعة والدين مولاي العربي بن عطية، وهذا أخذه عن قطب رحاها وشمس ضحاها مولاي العربي بن أحمد رضي الله عنه.

ويتمثل الورد في التلاوة صباحا وبعد المغرب: 100 مرة "استغفر الله"، 100 مرة "اللهم صلّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم"، 100 مرة "لا إله إلا الله"، وأن يحضر على الأقل مرة في الأسبوع في الحضرة، وأن يداوم على التوبة وطلب المغفرة من الله والرجوع إليه صباحا مساء.

هذه الأعمال تمثل جزءا من واجبات من يرغبون في البركات الربانية. أما واجبات الذين يرغبون في حياة التأمل فهي أوسع.

عبد الله الفقير محمد الميسوم

أما تلميذ الشيخ الميسوم الشيخ أحمد بن أحمد فيجعل الورد على النحو التالي: 100 مرة "استغفر الله" و 100 مرة "اللهم صلّ على سيدنا محمد عبدك ونيبك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم" و 100 مرة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"، فتتلى هذه الأذكار الثلاثمائة إثر صلاة الفجر وإثر صلاة المغرب على أن يذكر باستمرار اسم "الله" وأن يستحضر صورة الأحرف الخمسة المكونة للاسم "الله" أي مراقبته بعين القلب كأنما يراه بعيني الرأس، أن يصوم الخميس والاثنين، وأن يقوم بصلاة الرواتب وهي أربع ركعات قبل الظهر، وأربع قبل العصر، وست بعد المغرب، وثلاث عشرة بالوتر في آخر الليل لمن يستطيع الاستيقاظ، وقبل النوم للذي لا يستطيع. وبعد العشاء والشفع والوتر يقرأ القرآن أو ما تيسر منه، ويتلو بالخصوص سورة الإخلاص في الوتر، كذلك القيام بثمان ركعات من الضحى.

أما البركة: فقد أخذها الشيخ أبو الحسن علي الشاذلي عن أبي عبد الله محمد بن علي بن حوازم عن أبي محمد صالح بن منذر عن الشيخ أبي مدين شعيب بن الحسن الأنصاري عن الشيخ أبي يعزى يلنور عن الشيخ أبي محمد عبد الجليل عن الشيخ أبي

1 كبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 449.

محمد بن عبد الله عن أبي سعيد عن الحسن النوري عن أبي القاسم الجنيدي عن السري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام من رب العزة سبحانه وتعالى¹.

هذا، ونشك في أن هذا الشيخ العالم النحرير اكتفى بما نقل عن أستاذه ولم يكن له هو نفسه تأليفات رغم أنه لم يكن مغرماً بالتدوين، فقد نقل ابن عطاء الله في لطائف المنن: "وقد بلغني عنه أنه قيل له: يا سيدي لم لا تضع كتباً في الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟ فقال رضي الله عنه: كُتبي أصحابي²، فنتصّر أنّه أملى أحزاباً أو أذكّاراً ولكنه لم يقصد بها التدوين، ولكن دونها أصحابه وذلك من آثاره طبعاً، وهي طريقة عمل بها علماء قبله وبعده منهم الشيخ المرحوم الفاضل ابن عاشور التونسي الذي لم يكتب بل كتب عنه تلاميذه، رغم أن والده الشيخ الطاهر من المؤلفين المبرزين.

ونورد هنا نصّ حزب البحر ليوضح للقارئ سرّ تخصيص الإمام الوصية به مع بقية أدعيته وأوراده وأحزابه منها حزب الفتح وحزب الآيات وحزب البر المعروف بالحزب الكبير وحزب الشيخ أبي الحسن الذي رواه ابن عطاء الله ولم يضع له اسماً:

حزب البحر³: بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم يا علي، يا عظيم، يا حلّيم، يا عليم، أنت ربّي، وعلمك حسبي، فنعم الربُّ ربّي، ونعم الحُسبُ حسبي، تنصر من تشاء وأنت العزيز الحكيم. نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الظنون والشكوك والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد ابْتُلِيَ المؤمنون وُزُلُوا زلزالاً شديداً وإذ يقولُ المُتَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا. فَتَبَتْنَا وانصرنا وسخّر لنا هذا البحر كما سخّرت البحر لموسى، وسخّرت النَّارَ لإبراهيم، وسخّرت الجبال والحديدَ لداوود، وسخّرت الريح والشياطين

1 نقل عن كبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 445-455.

2 تاج الدين أحمد ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه الشاذلي أبي الحسن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ. ص 6.

3 عبد الحلّيم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر، 1988، ص: وبالهامش: "يقول ابن عطاء الله السكندري عن حزب البحر والحزب الكبير الذي يسميه "وإذا جاءك" إنها سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما في البدو والحضر، وحزب البحر يُقرأ بعد العصر في التقاليد الشاذلية."

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

قال الشيخ منوها بحزب البحر من تأليفه: " لو كان عند أهل بغداد ما أخذها التتر ومن ذكره ودعائه رضي الله عنه: يَا اللَّهُ، يَانُورُ، يَا حَقُّ، يَا مَبِينُ، افْتَحْ قَلْبِي بِنُورِكَ وَعَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ، وَاحْفَظْنِي بِحِفْظِكَ، وَأَسْمِعْنِي مِنْكَ، وَفَهِّمْنِي عِنْدَكَ، وَبَصِّرْنِي بِكَ، وَسَبِّبْ لِي سَبَبًا مِنْ فَضْلِكَ، تَغْنِي بِي مِنَ الْفَقْرِ، وَتَعَزِّزْنِي بِهِ مِنَ الذَّلِّ، وَتَصْلِحْ لِي بِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَتُوصِلْنِي بِهِ إِلَى النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ فِي جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا نِعَمَ الْمَوْلَى وَيَا نِعَمَ النَّصِيرِ.

ومن نصائحه رضي الله عنه: " وإن أردت أن يداويك الله من تسعة وتسعين داء أسرها اللهم، فقل: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". وإن أردت أن تُوجر بما يصيبك من مصيبة فقل: "إنا لله وإنا إليه راجعون". وإن أردت أن يذهب همك ويقضى دينك فقل إذا أصبحت وإذا أمسيت: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعُجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ وَالْبَخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلْبَةِ الدِّينِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ". وإن أردت أن تُوفَّقَ للخشوع والخشوع، فاترك فضول النظر". وهي كما ترى نصائح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحيث لا بدّ أن تنظّم الجماعة على نحو معين، فقد عرف في تونس أن الأتباع كلهم تحت نظر شيخ يعبر عنه بالشيخ الكبير، وهو شيخ المغارة الشاذلية وله النظر على الزاوية ماديا وأديبا، وكان في العهد الحسيني يتولّى هذا الشأن بأمر عليّ من البايع كبقية الطرق الأخرى، ويتصرف في الربيع الواسع الذي يحصل من الأحباس التي أوقفها أهل الفضل عليها، ويأخذ الفتوحات والندور ويؤتي من يشاء الانتظام في سلك الطريقة، ويسند الوظائف التالية للأتباع القدامى والأكفاء، وهذه الوظائف كما ذكر في المراجع:

- رئاسة الإنشاد.
 - مشيخة تلاوة الأحزاب.
 - مشيخة القرآن.
 - مشيخة الذكر.
 - مشيخة حزب الليل.
 - مشيخة المسبعات.
 - نقابة المغارة السفلية.
 - قيادة المحركين.
- طريقة العمل: تنحصر أعمال هذه الطريقة في قراءة الأحزاب والأذكار التي هي من صوغ الشيخ الشاذلي وهي مطبوعة منتشرة انتشارا كبيرا، من ذلك قراءة حزب البحر إثر صلاة العصر.

وفي خلوة الشيخ الشاذلي بالزلاج خارج باب عليوة بحاضرة تونس، يذكر في صبيحة كل سبت علاوة على الأحزاب الاسم بالصدر والضمير أو بالتصريح، وتنقسم جموع هذه الطريقة إلى حزّابة وذكّارة بالنسبة إلى مجموعهم، فالذكّارة يكونون حلقة الذكر المؤلّفة ويقودهم شيخ الذكر.

ومن خصائص الذكّارة أنّهم عند العمل يتجرّدون من ثيابهم ويلبسون قميصا يسمّونه "بدنّ" من صوف ويتمنطقون بمنطقة من سعف التّخيل، وقد يُجرون أناشيد حلوة السماع أثناء ذكر الإسم من شأنها أن تزيد الذّاكر شوقا وطربا وانهماكا في الذّكر. ويذكر الدكتور صالح المهدي أنهم يبدؤون أولا بقراءة جماعية للقرآن الكريم وللأسف بدون مراعاة اللغة، ثم يأتي جماعة الحزّابة فيقرؤون حزبا أو اثنين بطريقتهم بدون غناء. وكان شيخهم الشيخ

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 126-127 والهامش.

محمد بن محمود المدرّس بجامع الزيتونة في مقام سيدي بلحسن (أبي الحسن).

أما المنشدون فكان هناك باش منشد ممتاز أدركه السيد صالح المهدي وكان مجوداً ممتازاً للقرآن الكريم وهو الشيخ محمد الغليونجي فكان له دور كبير. ويقوم المنشدون بإنشاد المدحات، والمرزوقية هم جماعة يغنون آهات: منهم الشاذلي خلاص وحميدة عجاج وعلي التريكي (شقيق المرحوم محمد التريكي) وكان مدرّساً بجامع الزيتونة ومعهم الطيب بن نصر الذي كان مزوالياً أمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (أي مدير تشريفات يبعد الناس أمامه في الطريق).

يقول السيد محمد الكحلاوي الصحفي أستاذ تاريخ المسرح بالمعهد الأعلى للموسيقى بسوسة: إنّ هنالك مهرجاناً باسم "مهرجان سيدي علي الخطّاب" يقام في الأسبوع الأخير من شهر ماي، فيشارك الزوّار من الفرق الصوفية في الأيام الأولى بما لديهم. وفي اليوم الأخير يقع تقديم أمداح "سيدي علي الخطّاب" ويختتم الكلّ بعمل الشاذلية وقراءة أحزابها. وبعد أسبوع من اختتام المهرجان ينطلق العمل الشاذلي كلّ مساء خميس بعد صلاة العصر حتّى الفجر. ويتوزّع هذا العمل على المقام الشاذلي ومقام سيدي ماضي بن سلطان الذي هو نموذج مصغّر منه بالإضافة إلى العمل الشاذلي الذي يقع طيلة السنة صباح كلّ سبت.

ويتواصل العمل الشاذلي لمدة أربعة عشر أسبوعاً تستغرق كامل فصل الصيف فتقع زيارة كلّ الطرق لمقام "أبي الحسن الشاذلي" بعد صلاة العصر من كلّ يوم خميس ابتداء من الأسبوع الأول بعد انتهاء "مهرجان سيدي علي الخطّاب".

الطريقة الجزولية

تعتبر الفرقة الجزولية فرعاً للشاذلية أسسها الشيخ أبو عبد الله محمد الجزولي

الشيخ المؤسس: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن سليمان بن سعيد بن يعلى بن يخلف بن موسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن عبد الله بن قندوز بن عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن حسن بن إسماعيل بن جعفر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثني بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وتحصل على لقبه (الجزولي) من مكان ولادته "جزولة" قرية بالسوس الأقصى، ويطلق عليه أيضاً (السملالي) نسبة إلى فرع قبيلته "سملالة". غادر مسقط رأسه وهو حديث السن إثر معارك دامية، ورحل إلى فاس لمزاولة تعلمه بجامع "الصفارين" حيث ما زالت الغرفة المخصصة له موجودة إلى اليوم. وبفاس التقى بالشيخ أحمد بن زروق مؤسس الطريقة الزروقية فكان هذا الأخير أحد تلاميذه.

كان حافظاً كثير المناقب، فقيهاً على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهو صاحب كتاب "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار" الذي يُعتبر الأساس للطريقة الجزولية كتبه بمدينة فاس. ويرى أنه استوحى فكرة كتابه من امرأة اعترضها بفاس تقوم بألعاب سحرية بهرت الناس بقدراتها العجيبة، وسألها فأعلمته أنها استقت فتناً من الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، وهكذا جاءت فكرة

تأليف كتابه: "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار"¹، وألّف كتاباً آخر في التصوّف، وحزب "سبحان الدائم" المشهور في الطريقة العيساوية.

ولم يتفق المؤلفون العرب في شأن الأحداث التي طبعت حياة مؤسس الجزولية، وهم أقل اتفاقاً حول تاريخ وفاته حيث يضعونها بين 869 هـ و 875 هـ، ففي حين يذكر أبو العباس أحمد بابا التنبكتي²: أن الشيخ الجزولي توفي في 16 ربيع الأول سنة 870 هـ أي سنة 1465م، ويؤكد الشيخ زروق هذا التاريخ، ونرى أبا العباس الفاسي يرجعه بدون أن يدقق إلى سنة 870 هـ، ونجد أبا العباس أحمد بن محمد القاضي ينص في كتاب "درة الحجال" على أن الشيخ الجزولي توفي في 16 ربيع الأول سنة 875 هـ، ويظهر هنا الإتفاق في اليوم دون السنة فكأنه خطأ ناسخ حيث تكتب الأرقام الهندية فتكون الخمسة مشابهة للصفر إن بولغ في تدويره. أما في "البدل المنزلة" لأبي العباس أحمد ابن علي السوسي البوسعيدي فإن هذه الوفاة وقعت بين 870 و 875 هـ، وهكذا يكون قد جمع التاريخين دون ترجيح أحدهما.

وُدفن الشيخ بـ"أفوغال" بالسوس ثم نُقل جثمانه في قصّة عجيبة إلى مراكش حيث أصبح ضريحه مزاراً عظيمة³. وألّف الشيخ محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي كتاباً في مناقبه سمّاه "ممتع الأسماع في التعريف بالشيخ الجزولي وما له من الأتباع".

وللإمام محمد الجزولي عدّة شيوخ وأهمهم شيخان هما محمد بن سليمان والشيخ محمد بن عبد الله الأمغر الصغير السهلي الذي كان يربط بالرباط المعروف بـ"تيتان الفاتر" بأزمور حيث يقال أن الشيخ محمد الجزولي التقى بمربيّه الأوّل ومرشده إلى الطريقة. وقيل: إنّ ذلك كان بـ"دوكالة" وبعد ذلك أقام الشيخ أربع عشرة سنة في خلوة بـ"أصفى" أو"الصافي" قبل العودة إلى "أفوغال" لنشر دعوته بكل نجاح، حتّى أصبح أتباعه أكثر من اثني عشر ألف تابع بجيادته منهم الشيخ أحمد زروق، وأحمد بن عمر

1 كويولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 455. وهذا ما يذكر أيضاً عن الشيخ محمد بن عيسى مؤسس العيساوية. راجع الترجمة في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، ص 264 عدد 970.

2 أحمد بن أحمد التكروري التنبكتي مؤرخ من أهل المغرب ولد سنة 963 هـ / 1556م وتوفي سنة 1032هـ/1623م له عدة كتب منها: نيل الابتهاج بتطريز الديباج في تراجم أعيان المالكية، وله مختصرات في العربية (الزركلي، الأعلام، ج 1 ص 30).

3 انظر الترجمة في كويولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 455- 457؛ ومحمد مخلوف في مواهب الرحيم وفي شجرة النور الزكية، ص 264

الحارثي المكناسي وعبد العزيز التبّاع وأبو عبد الله الصغير السهلي وهؤلاء الثلاثة هم شيوخ محمد بن عيسى صاحب الطريقة العيساوية.

وأقلق اجتماع كل هذا الجم الغفير والي المكان فطرد الشيخ منه، قبل الغزو الأوروبي بقليل.

ولم تطل حياة الطريقة بل ذابت في طرق أخرى أهمها العيساوية والطيبية. أمّا سلسلة المشايخ الذين وصلت عنهم الطريقة إلى الشيخ محمد الجزولي، فقد أخذها هذا الأخير عن شيخه محمد بن الأمغر الصغير عن أبي عثمان سعيد الهرتناني عن عبد الرحمان الرجراجي عن أبي الفضل الهندي عن (أنوس البدوي راعي الإبل) عن أبي العباس أحمد القرافي عن أبي العباس المُرسبي عن أبي عبد الله المغربي عن الشيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي. وذكر الشيخ السنوسي في اعتماداته. سلسلة الشيوخ الذين حافظوا على الجزولية الصرفة وواصلوا اتباعها وهم من الإمام الجزولي إلى أب الأمداد عبد العزيز ابن عبد الهادي الهرصار المدعو "طيبة" إلى أبي البقاء إلى عمّار بن عبد العزيز الخطابي الزرهوني إلى الشيخ المجدوب عبد الرحمان الوكيل إلى أبي المحاسن يوسف بن محمد الفاسي المتوفي سنة (986 هـ 1578م) إلى عبد الرحمان بن محمد الفاسي إلى أبي البركات عبد القادر الفاسي إلى محمد عبد الله الغزّي المدني، إلى الشيخ سيدي السندي إلى أبي العباس العرايشي أحد شيوخ الإمام السنوسي في بداية القرن التاسع عشر ميلادي.

وتطوّرت تعاليم الشيخ الجزولي عند علماء المغرب الأقصى حتّى أصبحت مدرسة فلسفية أكثر منها طائفة دينية ذات قواعد طقوسية. ويُعتبر الإمام محمد الجزولي شيخا في العلوم الروحانية وهو معروف ومبجّل مثل الشيخ الشاذلي نفسه، وبعض تلاميذه من واسع الإطلاع طوّروا مذهبه في ثلاث زوايا بفاس حيث يمكن للطبقات المتعلّمة والعقول القادرة على الفهم أن يستمعوا إلى قراءة كتاباته الخاصّة التي تطرق النظريات والمبادئ الأساسية للعلوم الباطنية¹.

وكان ذكرنا للجزولية لما لها من ارتباط بالطيبية والعيساوية ووجودهما في تونس.

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 455 - 457.

الكريفة العيسلوية

نسبة إلى سيدي محمد بن عيسو المكناسي
٤٠٠٠ مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى سنة ٩٥٥ هـ

الشيخ المؤسس¹: هو الشيخ محمد بن عيسى بن عامر بن عمر بن عمرو بن حريز ابن محروز بن عبد المؤمن بن عيسى أبي السباع بن إبراهيم بن هلال بن محمد بن يوسف بن أبي زيد بن عبد الرحمان بن سلام بن عبد العزيز بن عبد المؤمن أيضا بن زيد بن رمون بن زكرياء بن محمد بن عبد المجيد بن علي بن عبد الله بن عبد الله أيضا بن أحمد بن إدريس الأصغر باني مدينة فاس بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أصله من عرب سوس² ومنهم من يقول أنه سملالي، وسملالة قبيلة من جزولة، ومنهم من يقول سباعي من أولاد أبي السباع، وينسب إلى مكناسة الزيتون مسقط رأسه، كما لقبوه بالسفياني الأصل ثم بالمختاري إذ وُلد ونشأ فيهم سنة 872 هـ-1477 م. تربى بين أبوين صالحين تربية حسنة، وارتحل به أبوه إلى مدينة فاس بغية طلب

1 نص الترجمة مؤلف من مختصر الإمام الأجد للغزال، الطبعة الثانية سنة 1349 هـ بتونس. ومن كربولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 349 - 354.

2 نقول "عرب سوس" أي من الجنس العربي وليس من الجنس البربري السكان الأولين للمنطقة.

العلم وقراءة القرآن، فجدّ الطالب محمد بن عيسى حتّى فتح الله عليه، ثم إن والده رجع إلى قبيلة سفيان.

لما رجع الشيخ محمد إلى قبيلة سفيان، التقى بأول شيوخه أبي العباس أحمد بن عمر الحارثي المكناسي وكان من أصحاب الإمام القطب محمد بن سليمان الجزولي وأخذ عنه الطريق بالعهد والصحبة، وكان تقيًا ورعا صاحب كرامات، فلازمه الشيخ بن عيسى وأخذ عنه الطريق بالعهد والصحبة وقرأ عليه كتب التصوف وتربّي على يديه بالطريقة الجزولية إلى أن فتح الله عليه بالولاية. وقرب أجل الشيخ الحارثي ولم يكمل له الفتح فأمره بالذهاب إلى صاحب الوقت وهو آنذاك بمراكش وهو الشيخ عبد العزيز التّباع خليفة الشيخ القطب الجزولي، وتوفي الشيخ الحارثي في حدود العشر الأوائل بعد التسعمائة للهجرة ودفن بزواية خارج مكناسة الزيتون وقبره مزاراة عظيمة بجانب زاوية تلميذه الشيخ محمد بن عيسى.

وتوجّه التلميذ بعد وفاة أستاذه إلى مراكش للالتحاق بالشيخ التّباع، وكان له خبر عنه، فاستقبله استقبالًا حسنًا وذكره بشيخه أحمد الحارثي، وأتمّ له الفتح وجدّد له الأخذ، وهكذا دخل الشيخ ابن عيسى في الطريقة بالعهد، وصاحب أستاذه الجديد نحو الشهر وهو مقيم عنده لا يفارقه ليلا ولا نهارًا فلقّنه الذكر وأعطاه مفاتيح الطريقة من أحزاب وأوراد ووظائف، ولقّنه سرّ العهد وأمره بكتمانه والاحتفاظ عليه وقال له: "هو عهد الله لا عهدي ولا يعطى إلا من صدر إلى صدر"، وأذن له بالتصريف والجلوس لتربية المريدين وإرشادهم، فقبل الشيخ محمد بن عيسى ذلك شاكرًا لأستاذه، ثم حمد الله وأثنى عليه وطلب من الشيخ التّباع أن يأذن له في قراءة "دلائل الخيرات" فأجابه بأن الإذن في ذلك يجب أن يأخذه من كبير تلامذة الشيخ الجزولي وهو محمد بن محمد الصغير السهلي، لأن الإمام الجزولي خصّه به وأمره بالإذن للشيخ بن عيسى في قراءة "دلائل الخيرات" من قبل أن يولد، كما أمر الشيخ التّباع بإعطائه الخلافة الجزولية.

ثم اصطحب الشيخ بن عيسى شيخه التّباع في زيارة لقبر الشيخ الجزولي ليلا،

1 تعرضنا سابقا إلى أن أحد مشايخ القطب الجزولي هو الشيخ محمد بن الأمغر الصغير السهلي وهنا نجد أن أحد تلاميذه الذين وكلهم وخصّهم بكتابه "دلائل الخيرات" هو أبو عبد الله محمد الصغير السهلي، لذلك ذهبنا إلى أن السهلي الثاني يكون ابن الأول ليستقيم التسلسل المنطقي وهو الصحيح.

فذهبا ورأيا ما بهرهما من روائح المسك العطرة الخارجة من قبر الشيخ، وتقول الرواية أن الشيخ ابن عيسى التقى بالإمام الجزولي في عالم الخيال على ما ذكره الولي الصالح أبو مهدي الفجيجي وهو أحد تلاميذ الشيخ ابن عيسى.

ثم إن الشيخ ابن عيسى استأذن أستاذه في السفر إلى بلده مكناسة الزيتون فأذن له وأمره بملاقة الشيخ محمد الصغير السهلي وأكد ذلك. وتوفي الشيخ التباع سنة 914 هـ ودفن بزاويته داخل مراكش.

وجاز الشيخ ابن عيسى خندق الزيتون قرب وادي اللبن من أحواز مدينة فاس وهي بلد الشيخ السهلي وهو كبير تلاميذ الشيخ الجزولي، وفرح به وسأله عن شيخه التباع وأعطاه الطريق وأذن له في قراءة "دلائل الخيرات" له ولأتباعه، وتوفي الشيخ السهلي سنة 918 هـ وقبره ببلده وقد بنى عليه الشيخ عبد الله الغزواني روضة حافلة.

من هنا يتضح أن أساتذة الشيخ محمد بن عيسى هم الشيخ أبو العباس أحمد بن عمر الحارثي المتوفي حوالي 900 هجرية ونيّف، والقطب عبد العزيز التباع المتوفي سنة 914 هـ والشيخ محمد السهلي المتوفي سنة 918 هـ وهم ثلاثتهم أخذوا عن القطب الغوث أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي مؤلف "دلائل الخيرات". وبعد أن ارتوى الشيخ محمد بن عيسى من تلك العلوم رجع إلى بلده ومقره مكناسة الزيتون، وجلس للتربية والإرشاد والتفّ حوله المريدون وكثرت كراماته، حتّى أصبح له جيش من المريدين.

ويروي الشيخ عبد الرحمان الفاسي في كتابه "ابتهاج القلوب" أن الشيخ الإمام القطب سيدي محمد بن عيسى توفي سنة 933 هـ [1526م] ودفن بروضة زاويته من جهة الغرب خارج باب البراذعيين من مدينة مكناسة الزيتون. وقد أتاه في تلك السنة الولي الصالح أبو محمد عبد الرحمان المحجوب وأخذ عنه الطريق مباشرة بعد أن كان أخذه عن أبي الحسن الصنهاجي وأبي حفص عمر الخطاب وعن أعجوبة الدهر الشيخ أبي الرواين المحجوب تلميذ الشيخ محمد بن عيسى الذي تركت له الخلافة. وبمجرد وفاة أبي الرواين انتقلت الخلافة إلى ابن الإمام عيسى المهدي بالإذن الصريح من والده وكان قد أخذ عنه الطريق بالعهد والصحبة والإذن العام.

أخبار الطريقة: هي من الطرق الأكثر انتشارا بغرابة الممارسات التي يقوم بها

أتباعها وقد كانت موضوع العديد من الدراسات، هذا، وإن مرّت حياة الشيخ في رحلاته الطويلة شرقاً وغرباً، فإنه لما رجع إلى بلده وكان أهلها مبغضين من السلطان، جمعهم حوله وأصلح من شأنهم، فما كان من السلطان إلا أن ينحني أمام إنجازات الشيخ، ويغمره بالتشريفات والثروات ويعفي كل أهل منطقته من السخرة والضرائب.

ويقول كوبولاني أنه بعد اطلاع الشيخ محمّد على عدّة طرق صوفية لم يحافظ إلا على الممارسات السعدية¹ على الطريقة الشاذلية التي تعلمها عن أستاذه الشيخ أحمد الحارثي تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، فتعاليم العيساوية، إذن، تركز بالأساس على التخميرة المعروفة في الطوائف الشرقية المنحدرة من القادرية، ويؤلف بين هؤلاء ورجال شمال إفريقيا عقيدة التوحيد وطريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتباعه، ونجد أثر ذلك في مخطوطاتهم وكتبهم التي احتفظوا بها في الزوايا والتي ترتب لهم سلسلة الاعتماد الصوفية الأصيلة التي ليست سوى الشاذلية الجزولية عن طريق الشيخ أحمد الحارثي. غير أنه في عيون الجماهير لا يظهر إلا الممارسات الخارجية لأتباع الشيخ محمد بن عيسى المنقولة عن خوارق الولي بكل دقّة، تلك الممارسات التي تميّز طائفة العيساوية عن بقية الطوائف.

هذا ما يقوله "كوبولاني"، والراجح عندنا أن الممارسات الرفاعية أو السعدية لم تكن من عادات الشيخ محمد ولا من وصاياه، وإتّما دخلت فيما بعد وبالأخص في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، عند ازدهار الطرق وانتشار البناءات الفخيمة والزوايا العظيمة، سواء بتونس أو ببقية الوطن الإسلامي تحت النفوذ العثماني.

وآلت الرئاسة الروحية للطائفة، بعد أن تُركت لأبي الزواين المحجوب الخليفة المباشر للشيخ محمد بن عيسى، إلى عائلة الولي الشيخ كما ذكر، وبقيت بأيديهم إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر للميلاد بالزاوية الأم بمكناس، وكان شيخ الزمان إذًا

1 تنسب الطريقة السعدية إلى الشيخ سعد الدين الجباوي المتوفى بحلب سنة 736 هـ/1336م وهي طريقة تشبه الرفاعية، ويروي أن حياة الشيخ سعد كانت سلسلة من الطوائف، فقد كان في البدء زعيم عصاة بغابة حوران يقطع الطريق بين بغداد والبصرة رغم كونه من عائلة الشرفاء وتلاميذ الشيخ أحمد الرفاعي، وذات يوم رأى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره بالاستغفار والتوبة وأطعمه تمرة، فلما أفاق ترك الحراية وأخذ نفسه بالممارسات التعبدية الشاقة وزيار الأماكن المقدسة ومكث مدة بمكة ثم رجع إلى دمشق وأسس الطريقة السعدية أو الجباوية التي تركز أولاً على التلقي المباشر في النوم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وبالسلسلة الواصلة إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن طريق أبي القاسم الجنيد. (كوبولاني، الطوائف...، ص 329).

هو الحاج عبد الكبير وهو رجل مثقف وقد حاول الدفاع عن أصحاب الطريقة يعضده في ذلك مجلس أسسه الشيخ ابن عيسى بنفسه لتربية الأتباع الذين يصبحون لا يترددون في الاستشهاد في سبيله. ويتكوّن هذا المجلس من تسعة وثلاثين عضوا هم من أبناء هؤلاء المتحمسين الذين لا تقل بركتهم عن بركة أحفاد الشيخ بالنسب.

وإلى جانب ذلك بقيت زاوية مكناس إلى مطلع القرن العشرين أو بعده بقليل، مقرا لعدد كبير من المتفقدين العامين الذين يقومون بزيارات دورية وغير معلنة إلى الزوايا المبتوثة في مختلف بلاد الإسلام قصد الحفاظ على الانسجام الروحي لطوائفهم وممارسة سلطة زمنية على مقدّمهم بتلك الأصقاع.

وقد يستقلّ بعض أحفاد الشيخ ابن عيسى بسبب بعدهم عن الزاوية الأم بمكناس ولا يحافظون إلا على التعاليم المتصلة بضريح الشيخ، ورغم ذلك فإن الطائفة العيساوية تحافظ دائما على وحدة الإدارة في تلاحم روحي تعضده الأحداث وتطوّره من وجهة نظر سياسيّة إلى وكالة مخابرات لقصر السلطان، وذلك إلى عهد قريب (أي قبيل الحماية الفرنسية).

وبصرف النظر عن زاوية مكناس، فإن للطائفة عدة خانات بـ"زrhون" بالمغرب حيث يؤثّر بعض جماعاتهم على أهل السودان الغربي (السينغال والنيجر ونيجيريا وما جاورها)، وفي الجزائر انقسمت الطائفة إلى ثلاثة مراكز أحدها بالجزائر العاصمة وآخر بوهران والثالث يضمّ عبّابة وقسنطينة معا، واستطاعت الطائفة الصمود نوعا ما أمام السلامية بإقليم طرابلس، ولكنها ازدهرت في بنغازي بثلاث زوايا، ومرت مرّ الكرام على مصر، لكنها استطاعت الحصول على زاوية بمكة المكرمة كانت إلى نهاية القرن التاسع عشر ميلادي تحت قيادة الشيخ محمد الحفناوي القابسي خوجة باب السلام بالمسجد الحرام!

ويظهر أن الطريقة العيساوية تعتمد على الممارسات أكثر منها على التفكير فهي من الطرق المتفرعة عن القادرية، وعن التفكير الشاذلي من حيث التوحيد والأحزاب. وهي طريقة ليس لها حظ كبير في البوادي، أما في المدن بالجمهورية التونسية فإن لها

1 إلى هنا يقف النقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 354.

ثلاث زوايا بالحاضرة واثنتين بجزيرة جربة وواحدة بصفاقس وأخرى بسوسة وثالثة بقباس ورابعة بالكاف وخامسة ببنزرت وعدة خانات وزوايا فرعية وأماكن لقاء إذ لا تخلو قرية أو مدينة من جماعة أو جماعات متعددة الزوايا، ففي بلدة الساحلين مثلا نعد أكثر من ثمان فرق في هذه الأيام، وقد نقصت حاليا من المدن وبقي بعضها يحاولون تجديد الطريقة مثل جماعة بني خيار. وقد كانت في وقت من الأوقات محل اهتمام من رجال الدولة أنفسهم، فقد أسس الوزير مصطفى خزندار وراء جامع صاحب الطابع بالحلفاوين بتونس زاوية باسم الشيخ علي شيحة المتوفى سنة 1271 هـ وأنفق عليها أموالا طائلة وهي من أعظم وأفخر الزوايا من حيث السعة والزخرف والتأثيث.

ودخل في العيساوية شيء من طقوس الطريقة الرفاعية المنسوبة للشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة 578 هـ سواء مباشرة أو عن طريق السعدية الجباوية المتفرعة عن الرفاعية، فهم يأكلون الزجاج ويزددون الحشرات السامة ويتمرغون على ظلف الهندي (أوراق وجذوع صبار التين الشوكي) ويلعبون بالسيوف والحراب¹.

أصول الطريقة: يقول الشيخ محمد بن عيسى: "طريقتنا تتبع العلم بالعمل، والسنة تجمعنا والبدعة تفرقنا". ولعل هذه الكلمة تفسر الكثير من تصرفات العيساوية، فهي تعتمد كطريقة تعبدية على "حزب سبحان الدايم لا يزول"، وهو حزب ألفه القطب محمد بن سليمان الجزولي وأضاف إليه شيئا التلميذ محمد بن محمد الصغير السهلي وزميله الشيخ أبي العباس أحمد الحارثي وأقرهما الشيخ الجزولي على ذلك، فأخذ الشيخ ابن عيسى فيما أخذ وجعله من أوراده، وهو حزب يحتوي على عقائد التوحيد ثم التوسل بالأولياء الصالحين.

وللشيخ الجزولي والشيخ محمد بن عيسى أحزاب وأذكار أخرى منها "حزب الفلاح" يذكر بعد صلاة المغرب، ومنها "حزب الحمد"، ودعاء يسمى "الوظيفة الربانية" يقرأ بعد حزب الحمد، ومنها "حزب الإبريز" للشيخ بن عيسى و"الحزب الكبير" وقصائد شعرية كلها في التوسل أيضا. ولكن "حزب سبحان الدايم لا يزول" و"حزب الفلاح" يعتبران من شروط الطريقة والوصية بهما.

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، هامش الصفحة 106.

وفي نظام الطريقة بتونس الحاضرة توجد أربع وظائف:

1 - شيخ العمل : وهو القائد للفرقة في أشغالها.

2 - المقدم.

3 - شيخ الحضرة: وله شأن كبير فهو الذي يُخرج الحَضَّارة (الراقصين) بعد إعدادهم من لباس (البدن)² أي ذلك اللباس الصوفي الأبيض في شبه الكدرون دون بشمار (وهو الحاشية التي تزين أطراف الثوب في الأكمام والجيب أي فتحة الصدر)، فيخرجون تباعا واضعين أيديهم على أكتاف الذين أمامهم. ويهتم شيخ الحضرة برقصاتهم ويقودهم فيها منسقا حركاتهم مع شيخ العمل.

4 - باش شاوش: وهو المهتم بطلبات وحاجيات الحلقة.

كما هنالك بعض الوظائف الفرعية كباش سقا وباش علاّم.

طريقة العمل: لعلّ أهمّ ما يذكر للعيساوية هو هذا العمل الفتيّ الجديد الذي اخترعوه بالإضافة إلى حفظهم للنوبات الأندلسية وهو المجرّد:

المجرّد: لعله من أجل العقيدة الشاذلية ومحاولة التوفيق بينها وبين الغناء وقع اختراع المجرّد أي المجرّد من الآلات لا الإيقاعية ولا النفخية، ولكنه يوزن بالتصفيق (بضرب الأكف) يقدمه العيساوية حسب إيقاع مضبوط على جميع الطبوع التقليدية الموجودة بتونس وهو إيقاع 5 من 8 (فعولن). واشتهر هذا اللون في العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي وخرج من حلقات الذكر إلى بعض المقاهي بالعاصمة كمقهى السبت الذي يقع قرب مقام أبي الحسن الشاذلي بربوة الزلاج، ومقهى نهج السلاح قرب جامع صاحب الطابع بحي الحلفاوين بسيدي شيحة. وفي هذين المكانين صال فنّ المجرّد وجال وبلغ العنان، وتبع في ذلك عدّة مقاهي أخرى داخل البلاد منها على

1 المصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 117 - 126.

2 البدن (ويجمع على أبدان) هو ثوب من الصوف أو الكتان كما ذكر وهو لباس رجالي تونسي أو قيرواني منذ القرن الثالث للهجرة كما ذكر في معالم الإيمان ج 2 صفحة 266 في الحديث عن أبي بكر بن هذيل الذي كان يصنعها مع امرأته، وهو من سكان القبروان سمع من عيسى بن مسكين ويحي بن عمر أي عاش في القرن الثالث وتوفي سنة 299 هـ قتله الشيعة.

سبيل المثال بمدينة المنستير مقهى رحيم وسط السوق بالباب الغربي، وكذلك مقهى القبة بباب الدرب، ومقهى صالح لطيف.

ويحتوي كلام المجرّد على الذكر ومدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتوحيد الله عزّ وجلّ، والاستغانة بالأولياء الصالحين، وبالأخصّ ذكر وتمجيد القطب الرباني سيدي محمد بن عيسى المكناسي، ووقف فن المجرّد على طريقة عمل العيساوية، ولم يقع تطويره أو النسخ على منواله حتّى يبعد عن التّصوّف ويصبح فنا شعبيا تنفرد به تونس.

وهذه قطع من المجرّد :

يَا خَائِي زُرْتُ أَحْبَابِي ثَلَقَاوْنِي بِقَرْحَةٍ وَسُرُورِ

يَا خَائِي طَابَ سُرَائِي مَا بَيْنَنَا وَالْكَاسُ يُدُورُ

الْكَاسُ يُدُورُ الْكَاسِيْدُورُ الْحُمْرَةُ لِأَهْلِ الْحَقِيْقَةِ

يَا حَمَّازُ وَيَا عَمَّازُ اسْفِنَا حُمْرَةَ شَرِيْقَةِ

يَا سَتَّارُ وَيَا جَبَّارُ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْحَقِيْقَةِ

بِاسْمِ السَّدَائِمِ بِاسْمِ الدَّائِمِ * رَبِّي الْعَالِمِ عَالِمِ الْأَسْرَارِ * (ياوالدي)

يَغْفِرُ ذَنْبِي يُسْتُرُ عَيْبِي * هُوَ السَّتَّارُ هُوَ الْجَبَّارُ * (ياوالدي)

هَمَلْتُوْنِي خَلَّيْتُوْنِي * مِثْلِ اللَّيِّ لِأَعْنَدُهُ لِأَبُولِأُمِّ * (ياوالدي)

رَمَيْتُونِي وَ لَوَّحْتُونِي * فِي بَحْرٍ لَا نَعْرِفُ لَهُ عُمُومَ * (ياوالدي)

فِي هَذِي الدَّارِ فِي هَذِي الدَّارِ * فِي وَسْطِهَا حُسْنِ الْحَضْرَةِ * (ياوالدي)

فِي يَوْمِ الْعَيْدِ فِي ثَانِي الْعَيْدِ * الشَّيْخُ زَارُوهُ الْفُقَرَا * (ياوالدي)

يَا بَابَا الْحَاجِّ يَا بَابَا الْحَاجِّ * يَا شَيْخَ دَاوِيْبِي نَبْرَا * (ياوالدي)

3 الخمرة هنا لا تعني ولا تمت بصلة إلى بنت العنب، وإنما هي مصدر من (خمر) أي غطى، وهنا بمعنى غطى عليه كل المحسوسات وبقي في حضرة الروح، لذلك تتغير حاله ويظهر عليه ما يشبه السكر. وبقيّة التصوير من كأس وسقاية وغير ذلك من مقتضيات مجالس الخمر، ترشيح استعارة لإكمال الصورة المتخيّلة.

عَارِي عَلَى أَهْلِ اللَّهِ حَلَّائِينَ بَيَّانَ أَيْنَ رَجَالِ الصُّوفِيَّةِ
يَنَاسُ مَآرِيَتُوا سَيِّدِي بِمَقَامٍ فِي مَنَآيِ هَبْ عَلَيَّ

وللطريقة العيساوية جوانب إيجابية أخرى منها المحافظة على جانب كبير من التراث الغنائي في ظرف تقهقرت فيه الألحان الأندلسية، وبرزت بعض العادات والتقاليد البالية الموجودة التي ولدت الأفكار المعادية للفن وأهله من جرّاء ما لحق الحياة الفنيّة من ركود وظهور فنّ اليهود الهابط. ولعلّ من بعض ميزات الطريقة العيساوية وكذلك الطريقة العوامرية والبوعلية إيقاع "الدرّازي" حيث يقع فيه ما يسمّى "المشكّل" أو "الشبوك" وهو نوع من التنافس بين دربوكة ودف، يحاول كل عازف أن يُظهر براعته ويطيح بصاحبه فيختل توازن إيقاعه ويحجل بين الناس فيتحمّس العازفان، بينما يمسك بالميزان عازف ثالث على دفّ، ويتحمّس الجمهور ويكون بذلك فرجة رائقة.

ومن مواعيد العيساوية الشهيرة : عشية يوم الجمعة حيث يلتقي الناس بزاوية سيدي الحاري بتونس وكذلك في المساجد بعد صلاة الصبح فيقرؤون "حزب سبحان الدائم لا يزول": "سبحان الدائم لا يزول، سبحان الباقي لا يفنى، سبحان الله مولانا، إله عظيم مالك قدير، واحد قهار، عليم شهيد، سميع بصير، لطيف خبير، جليل جميل، معنا حاضر..." وينهونه بـ "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله اللهم أحيانا يا الله يا مولانا عليها، وأمنا يا الله يا مولانا عليها، وثبتنا يا الله يا مولانا عليها عند الشدايد والرجوع إليك يا الله يا مولانا عليها (3 مرات) اللهم آمين يا رب العالمين. الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله، ألف ألفي صلاةٍ وألف ألفي سلام عليك وعلى أصحابك يا أكرم الخلق عند الله" ورتبوا بعد هذا قراءة المنظومة الثائية للشيخ محمد بن عيسى عشية يوم الجمعة ثم يدعون: "يا خالقي، يا رازقي، يا ثقفي، يا أملي، أنت الرجاء، أنت الولي، أنت المجيب لمن دعا، أنت القديم الأزلي، اختم بخير العمل، عند حضور الأجل، بحرمة طه ويس وسورة المزمل (ثلاث مرات) بجاه خير الرُّسُل، محمد المفضّل، وآله وصحبه وجاه كلّ مُرسَلٍ" ثم يسكت القراء ويدعون الله سرّا وبعده هذا الدعاء: "اللهم يا دائم الفضل على البرية، ويا باسط اليدين بالرحمة والعطية، ويا صاحب المواهب السنية، صلّ على سيدنا محمد خير البرية، واستجب لنا

في هذه العشية (3مرات) ثم خواتيم سورة البقرة ثم: "إن الله وملائكته يُصلّون على النبي يا أيها الذين ءامنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما. اللَّهُمَّ صَلِّ أَفْضَلَ صَلَاتِكَ عَلَى أَسْعَدِ مَخْلُوقَاتِكَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ عَدَدَ مَعْلُومَاتِكَ وَمَدَادِ كَلِمَاتِكَ كُلِّمَا ذَكَرَكَ وَذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغُفَلَ عَن ذِكْرِكَ وَذَكَرَهُ الْغَافِلُونَ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

مثل هذه الممارسات اليومية تمسك الناس إلى الطريقة وإلى تلك المجالس بصورة عفوية وتلقائية، فيقبلون عليها بخشوع وأريحية كأنها واجب من الواجبات الدينية يأثم من يتركها أو يخرج عنها، أمّا في غير الأذكار والأحزاب بالمساجد أو الزاوية، فإن الطريقة العيساوية تختلف من منطقة إلى أخرى بالجمهورية التونسية فما تجده عند واحدة قد لا تجده عند الأخرى.

وبصفة عامّة يقسم جماعة العمل في العيساوية إلى صقّين يجلسان بوجوه متقابلة ويقف الزدر(الصدر= الحضرة أي الصف) متجها إلى شيخ العمل. وينطلق عمل العيساوية بقراءة الفاتحة، ثم "ورد القدوم" وبعض الأناشيد ثم مدحات عيساوي ثم ختماري، ثم ختم، ويقف شيخ الزدر متوسطا أفراده ويصففهم صفا أمام حلقة العمل قبالة الشيخ. والأصل أن يكون أفراد الصف حفاة لابسين المحسور أي خلعوا الجبائب والبرانيس فيردّدون ذكر الله بضمير الغائب (هو، هو، هو) بفرغرة وتهدّج متبعين في ذلك ما يصدر من حلقة العمل، ويتراكون بالتوازي أو بالتخالف حسب ما تقتضيه الأنعام أثناء المديح الذي تقوم به جماعة العمل. وتستعمل حلقة العمل الدفوف والنفارات والطار والزكرة وأحيانا يعوّضون الزكرة بالكرنيطة في مدينة بني خيار، أو القصبة في الشمال الغربي. وعند قرب النهاية يصبح الوقع سريعا ويترنم جماعة العمل ب(الختماري) الخفيف فيقف بعض أفراد الزدر بإشارة من شيخهم، فيخرجون ويتخمّرون وينزعجون فيقدّم لبعضهم زجاج فيأكله، وقد يأكلون العقارب ويتمرغون على الزجاج المهشم وينبطحون على المسامير الحادة فتكسر الصخر العظيمة على صدورهم أو رؤوسهم فلا يصيبهم منها أذى، وقد يلعبون بالحيات وقد يتمرغون على الأشواك، وقد يأكلون جمرات

أو يلحسون حديدا ساخنا محمرا، أو يدخلون مخايط في أشداقهم وجباههم وبطونهم. ويتخمر السياف وهو عاري الجسم فيمسك سيفه الحاد بعد إمراره على حبل متين فيقطعه لبيان حدّته، ثم يمرره على أجزاء من جسمه فلا يصاب بخدش وقد يضع حدّه على بطنه ويصعد شاوش أو شواش على ظهر السيف فلا ينغرس في بطن السياف، وقد يضعه على ودجه فلا يذبح. وقد قال لنا من لعب هذه الألعاب أنها التمارين والتدرّب الكثير ليصل إلى إتقان أعماله، ونفى أن يكون ذلك ببركة أو شيء من الغيب.

طريقة العمل ببني خيار: يكون الدخول دائما بالعادة ثم قراءة الفاتحة ثم مباشرة وصلات مالوف على وقع النغارات والدفوف. ثم تطرح الآلات ويأتي دور "ورد القدوم" وبعده مجموعة من المصدرات مثل: (قصدي أنظر إليك) في مقام العراق أو (محمد يا نبينا) في الحسين ثم تثقيلة أو تثقيلتين مجرّد، والمجرّد و"ورد القدوم" لا تستعمل فيهما الآلات بتاتا إلا ضرب الأكف في المجرّد فقط على إيقاع 5 من 8 وهو إيقاع تفعيلة (فعولن) مثل:

(مَاكِ الشَّيْخِ الْكَامِلِ وَأَنَا بِيكِ نُنَادِي)

(سَمِعْنَا عَنْكَ بَرْزَايِدَ وَالتَّاسِ نَقُولُ أَوْلَادِي)

ويفعلون ذلك لإطراب الناس وإسماعهم شيئا جيّدا تحضيرا لما بعده.

طريقة العمل بالحاضرة: يجلس شيخ العمل في مكانه وسط المنشدين وله كاهيتان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، يليهما باش شاوش من كل جهة. فيكون الدخول دائما بالعادة، وبعد الجلوس تُقرأ الفاتحة ويقع بعدها إنشاد مقطوعات من المالوف، ثم يشير شيخ العمل إشارة إلى أحد المنشدين في طرف الحلقة حيث مكانه الرسمي فيقصّد قصيدة يستحسن أن تكون في طبع الحسين على شكل عروبي، ثم تنشد المجموعة "ورد القدوم"، ثم مصدر، ثم تثقيلة أو تثقيلتين مجرّد من نفس طبع الحسين. فيكون "ورد القدوم" بدون آلات مأخوذا عن الطريقة الشاذلية، يخرج فيه الحَضَّارة فيرقصون، ويتفق شيخ الحضرة مع شيخ العمل بإشارة في كل تحويلة إيقاعية².

1 العادة: نعمة يستعملونها أثناء المسير قرب الدخول للمحل المقصود، وهي نوع من الغناء الحاد بأوزان مخصوصة.
2 نروي هنا نقلا عن الشيخ علي بوفرة شيخ الطريقة العلوية، والشيخ البشير الذيب من الكاف.

ومن إنشاء أبي بكر بن الهادي الشريف التونسي شيخ زاوية سيدي الحاري المتوفى في أواخر القرن الثالث عشر الهجري هذا البرول المشهور الذي يخدمونه في صنعة الأصبعين وكثيرا ما يستعملونه في تلقي حاج أو توديعه، ذكره الصادق الرزفي بالصفحة 124 من (الأغاني التونسية) :

رَدّة: يَا مُحَمَّدُ * بَحْرُمَتِكَ يَا مُحَمَّدُ * يَا مُحَمَّدُ * نُزُورُ لَيْتِيكَ نُسْعِدُ

بيت: سَيِّدُ الْأَبْرَارِ * يَكْفِينَا مِنْ هَوْلِ النَّارِ * هُوَ الْمُحْتَارُ * الصَّادِقِ الْوَعْدِ الْمُرَشَّدِ

بيت: هُوَ نُورِ الدَّاتِ * مَنْ أَنَاْنَا بِالصَّفَاتِ * عِنْدَ الْمَمَاتِ * يَحْضُرُ لِي طَةَ الْأَمْجَدِ

آخر بيت : بُوبَكْرٍ ضَعِيفٍ * يُنْسَبُ لِلْهَادِي الشَّرِيفِ * مَالَهُ تَصْرِيفٍ * ضَاعَتْ أَيَّامُهُ مُنْكَدٌ

طريقة العمل بسيدي بوسعيد: هي فرقة بقيادة الشيخ عبد الحميد عباس: يبدؤون بالفاتحة ثم البسملة في مقام المزموم مثلا، وهي عندهم مصدرات مثل: (يَا مَنْ لَا يَغْلِقُ بَابَهُ عَنْ سَائِلِهِ) فتبدأ بإيقاع بطيء ثم تسرع وتختتم بمدحة: (جَبُّوا النَّبِيَّ زَيْنَ الصَّفَاتِ) في إيقاع أسرع، ثم تأتي مجموعة من المصدرات في نفس الطبع فـ"ورد القدوم" ثم تثقيات مجردة ثم المدحات الخاصة بالآلات.

طريقة العمل بشيلي: يبدؤون بالفاتحة ثم النوبة وهي مدحة تسير على طريقة غناء المألوف يتباركون بها ويفتحون بها العرس أو الحفل ويختمون بها. ثم يقرؤون "حزب الفلاح" لسيدي ابن عيسى. ثم تبدأ الفرقة بمدحة: (يَا بِنَّ عَيْسَى يَا وَلِيَّ مِكْنَأَس) ولهم صف من الشَّوَأَش يرقصون، والنساء يرقصن في جناح آخر. والصف عندهم يسمى (العزوزي)، ثم يأتي دور (الشَّوَأِي) وهو يشبه ما نسميه في الساحل (الغربي) وهو رقص بالأمشاك (الإسفي والمخايط) والحديد، ثم بإشارة من مقدم الحضرة يقوم الغيَّاط (الزَّكَّار) باستخبار يشير إلى مدحة (الرفاعي) فيقوم المقدم ويلقي (شركة) طوقا في عنق راقص الرفاعي وهو راقص السيف، فتكون أوَّل رقصه، ثم رقصه (النعام) فيرقص صاحبها على الزجاج والحديد ويأكل العقارب، ثم مدحة (بوقبرين) في نغم يشبه الغربي،

1 بحث ميداني قام به حسين الحاج يوسف.

وتختم الرقصة بالحديد. ثم تأتي رقصة (الذيب) فيرقص صاحبها، وهو لا يطبق رؤية مدخن أو منتعل، فإن رأى حذاء ذهب إليه وافتكه من صاحبه وأكله. ثم تأتي رقصة الخرطيفة (الخطاف) فتستفتح بـ(بسم الله ومحمد رسول الله)، ثم رقصة الجمل فيتمرغ راقصها على الشوك ويأكل ظلف الهندي بأشواكه كالجمل، ثم مدحة الختام أي المألوف الذي بدؤوا به.

طريقة العمل بزرمدين: يقول السيد البشير البريقي شيخ الفرقة العيساوية بزرمدين أن العمل يختلف عندهم، فينطلق (الحزب) بعد العصر من الزاوية إلى دار الفرح وكذلك في الرجوع بالعادة، وغالبا ما تستعمل (نوبة الإصبعين) في ذلك، ومن أبياتها:

رَأَيْتُ طَهَ فِي مَنَامِي وَظَلَبْتُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ
المُصْطَفَى بَدْرَ الثَّمَامِ صَلُّوا عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ

هكذا في نغمة الإصبعين على إيقاع مربع تونسي، ويستمرّون إلى أن يصلوا إلى مكان جلوسهم، فيبدؤون عملهم بتلاوة سورة الفاتحة ثم مجرّد:

(نَاسِ الْمَقَامِ * جِيْنَاكُمُ زِيَارُ * لَا تُرُدُّونَا خَآيِبِينَ
نِمُشُوا لِلنَّبِيِّ * نَزْحَلُ دَارِ بَدَارُ * أَحْنَا وَاللِّي حَآضِرِينَ)
ثم تنشد بعض القطع الخفيفة مثل: (انزادِ التَّيِّبِي وَفَرِحْنَا بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ)
أو: (يَا كَعْبَةَ يَا بَيْتَ رَبِّي)

في انتظار تلاحق المدعويين. فإن اكتمل الجمع تبدأ الأوراد [الأشغال]:

الورد الأول: (في طبع الحسين صبا):

صَلُّوا عَلَى الْهَادِي صَلُّوا عَلَيْهِ شَوْقًا
عَزِّي وَإِنْشَادِي الْمُصْطَفَى حَقًّا
وَعَايَةَ مُرَادِي مِنْ حَوْضِهِ نُسْقَى

ثم تحويلة على إيقاع البطايحي:

يَا فَرَحْتِي يَا هَنَائِيَا أَنَا بَلَّغْتُ الْأَمَانِي
بِئْنَ عَيْسَى شَيْخِ الْعِنَايَةِ سَيِّدِي مِنْ كَأْسِهِ سَقَانِي

ثم تحويلة ثانية: وصلة مالوف على وزن دخول براول (من البحر المتقارب):

أَتَانِي رَمَانِي بِمَا أَرْتَضِي فَبِاللَّهِ يَا دَهْرُ لَا تَنْقُضِي
وَيَا لَيْلَةَ الْوُضَلِ عُودِي لَنَا لِأَنَّ الْحَبِيبَ عَلَيْنَا رَضِي

ثم يختم الورد بمجموعة من البراول في (مقام الحسين):

مَا يَبِيدُهُ قَضِيَّةٌ * أَلْعَبْدُ مُسَيِّكِنٌ * مَا لَهُ اخْتِيَارُ

ثم برول آخر: نَوَّرَ اللَّوْزُ * فَتَحَّ * وَجَبَ الْعِشْقُ عَلَيَّ

ثم برول آخر: إِمْلَأْ كَأْسِي * يَا حَبِّي * وَاسْقِنِي

وَإِذَا * شَرِبْتَهُ يَا رُوحِي * هَنِّئْنِي

ومن المعلوم أن هذه الوصلة تنشد بدون صف (أي بدون راقصين) إذ كل ما وقع كان في انتظار تكامل الجمع صفًا ومدعوين.

الورد الثاني: (في طبع السيكاه): يقوم ثلاثة شواش بإعداد الصف (أي جمع الراقصين) الذين يكونون حفاة مرتدين جبائب أو بلايز مدوّرة فيقول أحد الشواش الثلاثة: (الله) ويرد الصف وهم يتراكون (هو) أو (الدايم) لفترة زمنية قصيرة.

ثم يستخبر الزّگار في طبع السيكاه ويردّد (القصايدي) عربيا (موالا) مثل:

يَا نَاسَ كَيْفَاشْ نَعْمَلُ وَاللِّي هُوَيْتُهُ جُفَانِي

أو:

نَادِيَتْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَالْقَلْبُ هَايِمٌ يَدَايِي

جَلُولُ يَا قَارِسَ الْحَيْلِ وَاجِبٌ وَوَلِيدِكَ يُنَادِي

1 من قصيدة للشيخ المنزلي (انظر: السفينة القادرية، ص 252) [واجب وليدك ينادي]: أَجِبْ ابْنُكَ الَّذِي يُنَادِيكَ.

وعندها تنطلق المجموعة في إنشاد:

بِاسْمِ الْإِلَهِ نَبِّدَا رَبِّي الْعَمَالَةَ عَلَيْهِ
يَا عَاشِقِينَ مُحَمَّدَ زِيدُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ

ويأتي دور الصف الذي يضمّ ما لا يقل عن ثلاثين راقصاً أو أكثر ويشارك في طرفيه مجموعة من الأطفال لإعدادهم لحمل المشعل، فينطلق على إيقاع 4 من 8 فيستقيم واقفاً في الأوقات القوية (دم) وينحني في الأوقات الضعيفة (تك).

يَا هَلْ تَرَى يَا عُمْرِي الْأَرْكَابَ أَيْنَ رَحَلُوا
قَاصِدِينَ الْهَادِي سُورَ الْحَيْبِ وَمَحَلُّهُ

ثم، تحويلة (يتغير فيها الإيقاع) على إيقاع البطايجي 4 من 4 فيبتدئ عمله من الـ(دم) الأولى:

خَلُونِي بِاللَّهِ يَا نَاسَ * وَأَنَا مَا يَشْرِينِي * كَأَنَّ وَلِيَّ مُكْتَنَاسَ
صَلُّوْا عَلَيَّ مُحَمَّدَ صَلُّوْا عَلَيْهِ وَزِيدُوا
يَا مَنْ عَشَقَ مُحَمَّدَ يَا رَبَّ تَأْخُذْ بِيَدِهِ

ثم يأتي دخول براول سريع فيه ركز بالرجل على الأرض رمزا لسحق الشيطان، فيكون ختما على إيقاع 6 من 8:

سَاكِنِ مُكْتَنَاسَ [بَابَا مُحَمَّدَ] * دَاوِي وَوَلِيدِكَ * مَا فِيهَا بَاسَ

الورد الثالث: (في طبع المحير سيكاه) على نفس ترتيب إيقاعات الورد الثاني ونفس رقصة الصف لكن الزمن يطول هنا ليلتحق إلى حلبة الرقص كل من لم يرقص سابقاً فينطلق:

دَاخِلٌ لِلْحَضْرَةِ وَالشَّمْعُ مَرَكُوزُ

ولا صلة لها بالواجب أي الغرض. وتتمام العروبي:
يَا كَيْلَانِي * يَا هَاشِمِي الْمُخْتَارَ لَا تَنْسَانِي * يَا صَنْوَةَ أُمِّ الْخَيْرِ
يَا رَبَّانِي * يَا صَاحِبِ النَّصْرِيفِ فِي الدِّيْوَانِ * سَيِّدِي ابْنِ أُمِّ الْخَيْرِ

صَاحِبِ الْبِرْكَةِ بابا عَلِي عَزُورُ

دَاخِلٌ لِلْحَضْرَةِ وَالشَّمْعِ ضَاوِي

صَاحِبِ الْبِرْكَةِ سَيِّدِي بُورَاوِي

دَاخِلٌ لِلْحَضْرَةِ وَالشَّمْعِ يَنَالَا

صَاحِبِ الْبِرْكَةِ سَيِّدِي بُودِرْبَالَةَ

إلخ ... على إيقاع 4 من 8، ثم:

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ * وَفُقْرَةٌ بَيْنَ عَيْسَى * مِنْتَوَكِّلِينَ عَلَيَّ اللَّهُ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * لَا إِلَهَ إِلَّا الدَّائِمِ * وَفَضْلِكَ يَا رَبِّي * يَا بَاسِطَ كُلِّ نَعَائِمِ

ثم فزعة (بإيقاع سريع) دخول براول وبضرب الأرجل على الأرض في وزن 4 من 4:

هَيَّا يَا مَحْبُوبِي هَيَّا نَعْنِمُوا سَاعَةَ هَنِيَّةٍ

وَنُعْطِي لِلْحَمَارِ دَلْقِي وَالْقِيَابِ اللَّيِّ عَلَيَّ¹

ثم ختم بوزن 6 من 8:

يَا أَهْلَ سُوسَةَ * فَذَرُوا بُورَاوِي * وَأَعْطِيُوهُ * الْبَيْبَانَ وَالْمِفْتَاحَ²

وَالْأَيْرَمِيكُمُ * فِي بُحُورِ هَوَاوِي * وَإِذَا نَزُورُهُ * نَسِعِدْ وَنَرْتَاخْ

ويشترك الصف في التردد مع حلقة العمل، فيقول الصف (ياالله الله الله) بعد كل

غصن تقوله الحلقة: (الحلقة):

يَا دَائِمَ الْبَقَاءِ (الصف): يَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

أَغْنِنَا بِالْوُصُولِ يَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

يَا دَائِمَ الْبَقَاءِ أَغْنِنَا بِالْوُصُولِ

1 الدلق هو الحبة قبل أن (توضع لها تفاوريفها وعمارتها) تطرز.

2 أمر بالشفقة الكاملة والتسليم الكامل للشيخ، فهو يأمر أهل سوسة بالتسليم للولي الصالح بوراوي.

الشُّوقُ مَعَ اللَّقَاءِ وَحُبَّةٌ فِي الرَّسُولِ
لَا نَفْسٌ وَلَا هَوَى يَا مَنْ عَتَبَ يَزُولُ
يَا مَنْ شَرَبَ رَوَى مِنْ كَاسِهِمْ يَقُولُ
سُكَّانٌ فِي الْجَرِيدِ¹ يَهْتَى مَنْ زَارَهُمْ
عَنْ شَمْلِهِمْ بَعِيدُ صُعِبَتْ دِيَارُهُمْ

يَا سَيِّدِي بُوَسْعِيدُ * قَرِّبْ جَوَارَهُمُ الرِّكْبِ رَحْلٌ وَسَارُ * وَارْحَلْهَا يَا فَهِيمُ

رَحَلُوا مِنَ الدِّيَارِ وَأَنَا فِيهَا مُقِيمُ
وَخَلَّفُوا الصَّغَارَ وَالْأَهْلِي مَعَ الْحَرِيمِ
عَيِّطْتُ² بِالْجِهَارِ لِمَوْلَانَا الْكَرِيمِ
يَا خَالِقَ الثَّمَارِ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ
أَرْزُقْنَا بِالْبِغَارِ وَخَيْرِ مُسْتَدِيمِ

ثم بالدربوكة والصف دون بنادر وزكرة يقف أصحاب الحلقة لترديد مدحة فيردد
الصف (لا إله الا الله) في نفس اللحن:

يَبْدَا بِاسْمِ الْوَحْدَانِي فِي ذِكْرِهِ شِفَاءُ
نِمْدَحُ فِي الْعِدَّتَانِي طَهَ الْمُصْطَفَى
صَلِّ يَا مَنْ هُوَ حَاضِرُ عَلَي رَفِيعِ الشَّانِ
وَلَا تَكُنْ بِغَافِلُ عَنْ شَيْخِكَ يَا إِنْسَانَ
شَيْخِ الْحَقِيقَةِ الْكَامِلُ بِنِ عَيْسَى هُوَ السُّلْطَانُ

طالع: أَلْعَارِفِ الرَّبَّانِي * (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) * آ مِنْهَاجِ الصَّفَا

1 الجريد منطقة الجنوب الغربي التونسي بلاد الواحات ومنها نفطة وتوزر.
2 ناديت بصوت مرتفع.

نَعْتَزُّ بِالرِّضْوَانِي * (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) * فِي عَيْنِ الْمَعْرِفَةِ

رجوع:

هَذِي هِيَ الطَّرِيقَةُ يَا جَاهِلَ الصَّوَابِ
كُنْ وَاثِقٌ بِالْحَقِيقَةِ وَالسُّنَّةَ وَالْكِتَابِ
تُسْقَى خَمْرَةَ شَرِيقَةٍ مِنْ خَمْرَةِ الْأَقْطَابِ

طالع: أَنَا بَابَا سَقَانِي * (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) * ظَاهِرٌ وَمَا خَفَى

بِحِلَّتِهِ حَلَّانِي * (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) * وَزِدْتُ مَعْرِفَةَ

رجوع:

أَنَا بِنَ عَيْسَى الْعَرَبِيِّ سَاكِنَ مُكْنَائِسِ الْأَفْصَى
يَا شَيْخَ مَانِي مُغْبِي فِي كُلِّ بِلَادٍ لِي حِصَّةٌ
وَاقِفِ لِأَوْلَادِي حَرْبِي وَاللِّي يَعْرِضُ لِي نُقْصَهُ
يَا مُوَلَى الْقُبَّةِ الْحَضْرَةِ مِنْ بَعْدِ ثَبَانَ تِنَادِي
فِي كُلِّ عَشِيَّةِ حَضْرَةٍ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا أَوْلَادِي
تُجَلِّي عَلَيْهِمْ كَدْرَةٌ يَبْرَأُونَ مِنَ الْأَنْكَادِ
مَحَمَّدُ مُوَلَى الْحَضْرَةِ مِنْ تُونِسِ لِبَغْدَادِ

ثم يتغير الإيقاع فيصير (محواشي):

بِاسْمِكَ نَبْدَا يَا عَالِمَ بِحَالِي
كُنْ لِي سَنَدَةٌ لَا تَقْطَعْ أَمَالِي
اللَّهُ رَبِّي أَنْتَ الرَّبُّ الْأَعْلَى
اجْمَعْ لِي شَمْلِي فِي الْكُعْبَةِ السَّامِيَةِ

طالع:

اللَّهُ رَبِّي أَنْتَ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ
 وَخُذْ بِيَدِي يَا مُوَلَّى مَحَلِّ الْجُودِ
 يَا لَأَيْمِ الْإِخْوَانِ ظَنِّي رَأْيِكَ مَعْدُومِ
 بِنِ عَيْسَى سُلْطَانِ طَاعَتُهُ كُلُّ سُمُومِ
 وَأَنْظُرِي يَا إِنْسَانِ ذَلِكَ السِّرِّ الْمَعْلُومِ
 طالع (الصّف يتقدم ويتأخر):

بُكَرَةَ وَمَسَاءَ * (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) * حِزْبُهُ يَجَلِّي الْأَوْكَاسَ

بَابَا بِنِ عَيْسَى شَيْخِي بَجْرُهُ لَيْسَ يُقَاسُ
 رجوع: (في نعمة الحمدان):

صَلُّوا يَا حُضَّارَ عَلَيَّ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ
 الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارَ جَدِّ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ
 وَارْضُوا عَلَيَّ الْأَخْيَارَ وَأَصْحَابَهُ أَجْمَعِينَ

ورد الخمرة: وبه يُجتم عمل الحزب، فينطلق بعروبي:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدٌ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ مَعَاهُ
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَيِّدِي بِنِ عَيْسَى عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ

ثم على إيقاع محواشي:

صَلُّوا عَلَيَّ الْهَادِي صَلُّوا عَلَيَّ شَوْقًا
 عَزِّي وَإِنْشَادِي الْمُصْطَفَى حَقًّا
 وَغَايَةَ مُرَادِي مِنْ حَوْضِهِ نُسْقِي
 يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ فِي شِدَّةِ الْعَرْقَةِ

ثم (ورد الحمرة) على إيقاع المربع التونسي ولهجة السعداوي :

حَمْرِيَا حَمَّازُ * حَمْرَةَ شَادِلِيَّةَ * أَبَا بِنِ عَيْسَى * يَا مَا أَعَزَّهُ عَلَيَّ
 حَمْرِيَا حَمَّازُ * يَعْطِيكَ الْعَنَايَةَ * أَبَا بِنِ عَيْسَى * فِي الْحَضْرَةِ يُكُونُ مُعَايَ
 حَمْرِيَا حَمَّازُ * حَمْرَةَ الْوَجِيئِي * أَبَا بِنِ عَيْسَى * جَدُّهُ قُرَيْشِي
 حَمْرِيَا حَمَّازُ * حَمْرَةَ الصَّبُوحِ * أَبَا بِنِ عَيْسَى * هُوَ عَقْلِي وَرُوحِي

وهنا ينزل إلى الرقص كل من هو مجذوب على شيء، فيتشكك راقص الهندي بأشواك الظلف الطويلة والحادة حتى يصبح كالقنفذ، وينبطح راقص الزجاج على القوارير المهشمة، وقد يكون هؤلاء من المتفرجين.

في هذه الفترة من السهرة يأتي كل من أراد الدخول في الحزب بقصعة من البسيصة إلى دار الحفل، ويضعها في الحلقة فتقرأ عليها فاتحة الكتاب، ويقوم طفل صغير بيد بريئة فيديرها على الحاضرين، فيأخذ كل واحد منها إصبعاً أو إصبعين، وهكذا يصبح صاحبها قد دخل الطريق أو كما يقال: (نزل في حزب سيدي بن عيسى).

ويختتم الحفل بتلاوة الفاتحة وينتهي، فيخرج جماعة العمل بالعادة كما دخلوا ويرجعون إلى زاويتهم.

أما في الزواج مثلاً (وكذلك في الختان) فيكون الدخول بالعادة: (رأيت طه في منامي)، وصفته: أنه بعد صلاة العشاء يرجع العريس إلى منزله (وزوجته تحت الحباء في انتظاره) فإما أن يرجع من جامع مسجد أو من الزاوية العيساوية فيقف في صفه وتقرأ الفاتحة، ثم يستخبر الزكّار في المزموم ويدخلون في (ورد المزموم) على طول الطريق بين الدار والزاوية فيكون على إيقاع مربع تونسي 4 من 4 :

يَا إِلَهِي ظَلَبْتِكَ يَا عَفُورِ السَّيَّةِ يَا شَيْخِي بِنِ عَيْسَى إِعْطِفْ عَلَيَّ

بِاسْمِ اللَّهِ بُدَيْتُ * فِي مَبْدَايَ * ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَيَّ * عُمْدَتِي وَرَجَايَ

مُحَمَّدِ الْمَبْعُوثِ يَوْمَ لُقَايَ مِنْ حَرِّ صَهْدِ النَّارِ يَشْفَعُ فِيَّ

ثم تحويلة بطايحي :

يَأْمَنُ سِتْرُهُ مَسْدُولٌ	قَدْ رَفَعْتُ إِلَيْكَ رَاسِي
قَاصِدٌ بَابِكَ الْمُحْلُولُ	إِرْحَمْ عَبْدِكَ الْعَاصِي
حُبِّ النَّبِيِّ زَيْنِ الصَّفَاتِ	حَازِ الْكَرَامَةَ
مِنْ نُورِهِ الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ	فِي أَرْضِ رَامِهِ
وَكذَلِكَ يَشْفَعُ فِي الْعِبَادِ	يَوْمَ الْقِظْيَامَةِ
صَلُّوا عَلَى بَدْرِ الْبُدُورِ	أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ

وينتهي الشغل بنهاية هذا الختم:

هَيَّا يَا مَحْبُوبِي هَيَّا	نَغْنِمُوا سَاعَةَ هَزِيَّةِ
نَعْطِي لِلْحَمَارِ دَلْقِي	وَالثِّيَابِ الَّتِي عَلَيَّ
يَا مَكَّةَ لَوْ كُنْتُ تَرَحَّلِي	تُجَاوِرِينِي فِي الدَّارِ وَتَنْزِلِي
يَعُودِ الْحَجَّ حُدَايَ	أَهْ وَنَنَالُ مُرَادِي
الْهُوَى لِلْعَيْسَاوِيَّةِ	حُبُّهَا وَاجِبٌ عَلَيَّا

ورد النوى : يكون على إيقاع بطايحي:

مِسْكِينِ قَلْبِي بِالْهُوَى مُقَيِّدٌ	سَكْرَانَ مِنْ نَشْوَةِ الْغَرَامِ
مَنْ يَعْشَقُ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٌ	كَيْفَ يَهْنَأُ فِي الْفَرَشِ وَيَنَامُ
أَنَا الَّذِي سَحْتُ فِي اشْتِيَاقِي	طُولِ اللَّيَالِي عَلَى الدَّوَامِ
بِاللَّهِ يَا حَادِي التَّيَاقِ	إِحْمِلْنِي لِلْهَاشِمِيِّ الرَّسُولِ
الْمُصْطَفَى بَدْرِ التَّمَامِ	مَا زِلْتُ فِي مَدْحِهِ أَقُولُ
مَا زِلْتُ فِي مَدْحِهِ أُجَدِّدُ	طُولِ اللَّيَالِي عَلَى الدَّوَامِ

مَنْ يَعْشَقُ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٌ كَيْفَ يَهْنَأُ فِي الْفَرْشِ وَيَنْتَامُ

ثم (على وزن دخول براول) مجموعة براول من المألوف الأندلسي:

أَقْبَلَ زَمَانُ الْخِلَاعَةِ فَاسْتَقْبِلْ أَيَّامَ السُّرُورِ
أُمُّ الْحَسَنِ فِي الْخِلَاعَةِ فَازَتْ عَلَى جَمِيعِ الطُّيُورِ
الدُّنْيَا سَاعَةٌ سَاعَةٌ إِغْنِمِ زَمَانِكَ لَا يُمُورِ
إِغْنِمِ زَمَانِكَ بِوَاجِبِ إِزَةٌ وَتَهُ مَعَ الْحَيْبِ
بِالْكَوَيْثَةِ وَالرَّيَابِ وَالطَّارِ وَالنَّقْرِ الْعَجِيبِ
إِدْرِيَا مَنْ لَيْسَ يَدْرِي فَالْحُبُّ شَيْءٌ عَظِيمِ
أَنَا حَيْبِي فِي صَدْرِي فِي وَسْطِ قَلْبِي مُقِيمِ
مَوْلَايَ لَا تَفْضَحْ أَمْرِي مُحْيِي الْعِظَامِ الرَّمِيمِ
وَإِحْيَانِي مِنْ بَعْدِ أَنْ فَنَانِي وَسَقَانِي خَمْرًا عَتِيقِ
حَتَّى جَمِيعٌ مَنْ يَرَانِي يَقُولُ مُسِيكُنْ عَشِيقِ

وعلى هذا النظام نجد الحزب في زاوية قنطش والكنائس والمسعدين (عمادتين بمساكن) ولكن بمدحات مختلفة.

طريقة العمل بسوسة: حسب ما تؤدّيه فرقة عيساوية الشباب بقيادة مرشد براهيم:

(1) الدخول بالعادة: وعادة ما يكون بنوبة غربي مثال:

يَابْنَ عَيْسَى * وَاحْضَرِيَا سُلْطَانَ * خَبْرِكَ هَايَا سَيْدِي * شَايِدْ فِي الْأَوْطَانِ

(2) الفاتحة، وعمل التشتري، ففي مقام الحسين مثلا والآلات على الركب وهي

زكرة وبنادر ودربوكة:

صَلَاةٌ نَبِيْنَا فَائِدَةٌ فِيهَا الْبَرَكَةُ زَائِدَةٌ

الَّتِي يَا حَاضِرِينَ إِعْلَمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ

أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَوْجَبَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ

(3) نوبة الاستفتاح: تكون غالبا في الحسين:

بطايحي: بِكَ نَبِدا * يَا مَنْ لَا يَنْسَانَا * حَيَّ بَاقِي * رَبِّي مَوْلَانَا
تحويلة: مَالِي وَآلِي * غَيْرِكَ مَوْجُودٌ * فِي لِسَانِي * ذِكْرِكَ مَا اخْلَاهُ
يَا مَا اعَزَّكَ عِنْدَ الْمُرِيدِ يَا مُحَمَّدَ زَيْنِ الْحَائِمِ

وتنتهي بمجموعة من البراول.

وهذه نوبة المحيّر سيكاها:

مصدر:

يَا مُطْرِبَ الْإِخْوَانِ إِسْمَعْ مِنِّي ذَا الْمَقَالِ
حَقِّ الْبَيَانِ شَيْخِي مَا يَنْسَانِي
بْنِ عَيْسَى فَحَلِ الرَّجَالِ سِرُّهُ أَعْيَانِي
ظَاهِرِي فِي الْأَوْطَانِ قُطْبِ الزَّمَانِ
مَا يَخْفَى عَنِّ حَالِ مَدِّ الْكَاسِ اسْقَانِي
مِنْ خَمْرَةِ تُسِي الرَّجَالِ طُولِ الزَّمَانِ
بِهَائِتَا خِلَائِي فَاحِ السَّرِيَاتِصَالِ
وَالْحَقِّ بَبَانِ ثَوْبِ جَدِيدِ كَسَانِي

تحويلة: أَنَا قَلْبِي مَشْتَاقٌ لِلزِّيَارَةِ لِمَدِينَةِ مَكْنَسِ

فِي وَسْطِ الْحَضْرَةِ * نُشْرِبُ جَهَارَةً مِنْ * كَيْوَسِ اجْنَسِ
نُشْرِبُ شَرْبَةً * يَزِيَانُ حَالِي * مَا بَيْنَ الْإِخْوَانِ
نُظْرِبُ بِيهَا * وَنَزِيدُ الْعَادِي * فِي وَسْطِ الدِّيْوَانِ

يَا بَابَا مُحَمَّد * يَا راس مَالِي * يَا مَكْسِي الْعَرِيَانُ
يَا ضَنْوَةَ الْأَشْرَاف * يَا عَزَّ مَالِي * يَا رَاوِي الْعَطَشَانُ
(درازي، سيكاه):

إِذَا نُحْمَرُ مَا نُوجِدُ رَاحَةَ * يَا بَابَا يَا بَابَا
وَيَزِيدُ وَجِدِ الْمَحْبُوبِ عَلَيَّ * يَا بَابَا يَا بَابَا
نَا دَمْعِي سَيَّالَةَ طَمَّاحَةَ * يَا بَابَا يَا بَابَا
فُوقِ الْخُدُودِ مُصَوَّبَةَ مِذْرِيَّةَ * يَا بَابَا يَا بَابَا
أَهْلِي الْمَحَبَّةَ يَعْرِفُوا مَا بَيْنَهُ * يَا بَابَا يَا بَابَا
لُورِيثَ مَا رَايْتُ وَأَنَا نَائِمٌ * يَا بَابَا يَا بَابَا
رَايْتُ فِي الْجَنَّةِ زُرُوقَ عَوَالِمٍ * يَا بَابَا يَا بَابَا
يَتَحَدَّثُوا بِشُعَايِلٍ وَمَعَانِي * يَا بَابَا يَا بَابَا
مِنْ وَحْشِهِمْ نَاصَارَ قَلْبِي فَانِي * يَا بَابَا يَا بَابَا
برول سريع:

يَا بَابَا حَسَّ الطُّبُولِ تُنْقَمَرُ * يَا بَابَا يَا بَابَا
وَالسَّنَكَّةَ زَادَتْ عَلَيَّ مَا بَيْنَهُ * يَا بَابَا يَا بَابَا
قُلْتُ لَهُمْ غَلَّاشُ هَذَا الْعُسْكَرُ * يَا بَابَا يَا بَابَا
قَالُوا لِي زِيَارَ بَابَا رَقِيَّةَ * يَا بَابَا يَا بَابَا
كَانَ انْتُمْ أَوْلَادُ بَابَا قَاسِمٍ * يَا بَابَا يَا بَابَا
حَتَّى أَحْنَا أَوْلَادَ صَافِي التِّيَّةَ * يَا بَابَا يَا بَابَا

ومثل ذلك العمل ما يتم بمساكن والمنستير والمهدية وأغلب مدن الساحل.

وينتهي العمل بمدينة المهديّة دائماً بإيقاع مخصوص يتدرّج من البطيء إلى السّريع ويُسمّى (المطاشية).

طريقة العمل بصفاقس: في ليلة الاثنين من الأسبوع الأول من فصل الشتاء تبدأ الطائفة العيساوية عملها بمدينة صفاقس بعد صلاة العشاء، فتجتمع كامل الفرقة في شكل حلقة مستطيلة لأداء الحزب الكبير ثم المتسبعات (وهي تلاوة سبع مرّات لكل من فاتحة الكتاب والسور الآتية: التّاس والفلق والإخلاص والكافرون وآية الكرسي) ثم يقرؤون حديث الشيخ محمّد بن عيسى.

وبعد ذلك تنتصب الحضرة العيساوية وتتركب من جماعة الفرقة والمنشدین وجماعة الحضرة (أي الخماري) وتبتدئ أوّلاً بنوبة الذيل التي تتكوّن من البطايجية ومجموعة من البراول، وعند الانتهاء من هذه النوبة يشرعون في نوبات الخماري وهو أن يسلم الشّواش للمتخمرين (السلاح) السيوف والحراّب وظلف الهندي وغير ذلك من الممارسات الرفاعية والسعدية العجيبة.

وفي ليلة الاثنين الموالية يكون العمل على نفس الطريقة، وتكون البداية بنوبة العراق حسب الترتيب الفتيّ العام للنوبات التقليدية بالمولف التونسي. وهكذا يكون العمل كل ليلة إثنين مدّة ثلاثة عشر أسبوعاً فتكون الفرقة قد استوتف جميع النوبات المذكورة، وتعود من أوّل إلى نهاية الرّبيع حين ينتهي عمل الزاوية بأداء زيارة إلى ضريح وليّ خارج مدينة صفاقس مثل سيدي بوعكّازين، أو سيدي أحمد بوعبسة، أو صيد عقارب¹.

طريقة العمل بالكاف: يسمّى العمل عندهم (مدحة) وليس النوبة لأن النوبة لا توجد إلا في المألوف عندهم، وذلك لأنّ جل نوبات المألوف أتت بها طريقة العيساوية إلى تونس. ثم يأتي دور المدحات، فيبدوون في الاستفتاح بـ"ورد القدوم" والمصدّر والمجرد.

يأتي الاستفتاح في (الذيل) مثلاً:

يَا مُصْطَفَى عَرَامِكَ قَدْ مَرَّقَ الْكَبْدُ
الشُّرْبُ مِنْ مَدَامِكَ يَبْرِي مِنَ الْكَمْدُ

1 عن علي الحشيشة، السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس، صفاقس: 2000، ص 17.

إلى أن يأتي دور البراول فيبدأ بطيئا: (يَا أَهْيَلِ الْحَمَى قَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكُمْ)

وهو من مالوف الجداء، ثم تختتم ببرول سريع في الذيل أيضا:

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى بَدِيعِ الْجَمَالِ وَبِحَجْرِ الْوَفَا
وَصَلِّ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي الصَّادِقُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ
صَلَاةً تَدُومُ وَتَبْلُغُ إِلَيْهِ بَعْدَ اللَّيَالِي وَطُولِ الدَّوَامِ)

وصلة أخرى في طبع المزموم:

(يَا مَنْ سِتْرُهُ مَسْبُورٌ إِلَيْكَ رَفَعْتُ رَاسِي
قَاصِدًا بِأَبْكَ الْمَحْلُولِ إِرْحَمْ عُيْبِيكَ عَاصِي)

ثم مجموعة من البراول تنتهي:

(سَلَبْتُ لَيْلِي * مَيِّ الْعَقْل * قُلْتُ يَا لَيْلِي * اِرْحَمِي الْقَتْلِي)

ورد القدوم عن جماعة باجة: نقل الأستاذ حسين الحاج يوسف² عن الشيخ محمد بديرة وعمره 85 سنة برفقة السيد بلقاسم بريك الذي يرد عليه اللازمة وهو آنذاك المسؤول المالي والإداري بمندوبية الثقافة بباجة.

عَظَّمَ عَظْمَ مَنْ لَا يَنَامُ وَاحِدٌ فِي مُلْكِهِ بَاقِي
لَا تَجْعَلْ فِينَا يَا اللَّهُ لَا مَحْرُومٌ وَلَا شَاقِي
عَظَّمَ عَظْمَ مَنْ لَا يَنَامُ فِي قَلْبِي زَادَ حُلَاوَةَ
يَا مَوْلَايَ بْنَ عَيْسَى الْحَبِيبِ يَا سُلْطَانَ الْعَيْسَاوِي
عَظَّمَ عَظْمَ مَنْ لَا يَنَامُ فِي قَلْبِي زَادَ مُحَبَّةَ
يَا مَوْلَايَ بْنَ عَيْسَى الْحَبِيبِ شَيْخِي يَا عِزَّ الطُّلْبَةِ

1 يقسمون المألوف إلى جد وهزل: فمالوف الجدم ما اختص بمدحات الصوفية وغيرها، ومالوف الهزل: ما فيه ذكر الخلاعة والمجون والغرام.

2 حديث مباشر أجراه الأستاذ حسين بلحاج يوسف مع الشيخ محمد بديرة بتاريخ 25 نوفمبر 1994 بباجة.

يَاخُوتِي مَا نَيْشِي غَرِيبٌ أَهْلِي فِي كُلِّ أَوْطَانٍ (ي)
 شَقُّ الصَّحْرَاءِ وَشَقُّ الْحَرِيدِ شَقُّ بِلَادِ السُّودَانِ (ي)
 طَاوَعَهَا شَيْخِي مِنْ بَعِيدٍ جَابَهَا حُرَّةٌ وَ حُورَانِي

طريقة العمل بتستور من ولاية باجة: يبدأ العمل بتلاوة من القرآن الكريم ثم تأتي قراءة الأحزاب (حزب سبحان الدائم لا يزول، وحزب الفلاح) ثم دلائل الخيرات للشيخ الجزولي ثم ينتقلون إلى المدائح والأذكار والقصائد، فتبدأ الفرقة بمجرد ألفه الشيخ عمر الشريف من مشايخ سيدي الحاري بالقلالين بتونس العاصمة والدليل على تأليفه له أنه يذكر اسمه في آخر الأبيات، وهو:

هَيْهَاتَ نَزُرُوا شَيْخَنَا يَا فَفْرَا شَيْخِي بِنِ عَيْسَى اللَّيِّ يُشَوْفُهُ يَبْرَى

فيذكرون عدّة مشايخ من تونس العاصمة ثم من خارجها ... ثم على وزن البرول:

كَيْفَ نَعْمَلُ يَا سَيْدِي مِنْ فِرَاقِ الْأَحْبَابِ

ثم ورد القдом: تتخلله تثقيات مجرّد ومصدرات (قصائد دينية).

وعندما يدخلون الميعاد يبدؤون بـ:

جَيْنَاكُمْ زِيَارُ يَا أَهْلَ الطَّرِيقَةِ الزَّيْنَةِ

طريقة العمل بمدينة قابس: يبدأ العمل بتلاوة حزب الفلاح ثم الرقايق: أي مجموعة من الأغاني التراثية (صنایع) يذكر فيها كلام عن الشيخ بن عيسى تؤدّى موزونة على إيقاع الدفوف الموضوعة على رُكْب العازفين وتبدأ من البطيء إلى السريع، مصحوبة بألة (الكلارينات)، ثم يأتي دور البندير وبقية الآلات، وهذا يمهّدون به الجوّ قبل النوبات والعمل العادي بالزّكرة. ثم يُشرع في المبيتة (السهرة) فتنتقل بـ:

(1) - نوبة الاستفتاح.

(2) - مصدر يخرج معه الصف وشاوشان أحدهما يهيم أصحاب الصف ويخرجهم

1 حديث مباشر أجراه الأستاذ حسين بلحاج يوسف مع الشيخ حمادي المانسي قصد الله شيخ الطريقة العيساوية والمالوف بتستور بتاريخ 02 ديسمبر 1994.

والآخر يقول (ذَائِمٌ حَيٌّ).

(3) - وتأتي رقصة الرفاعي فيقفز ويقوم بحركات بهلوانية.

(4) - ورقصة العزّوزي: فيرقص بالأمشاك (المخايط) يرشقها في أشداه وفي جبهته وفي بطنه.

(5) - ورقصة الغريي: ويتمرّغ الراقص على الأشواك وظلف الهندي.

(6) - ورقصة الجمالي: وهما راقصان متقابلان يقدمان حركات منسجمة ومتناسقة.

طريقة العمل بالفطار (جهة ففصة): يقام الحفل في العادة بين العصر والمغرب، لكنّ الانطلاقة تكون قبل العصر من الزاوية بمثابة الإعلان عن الحفل، وبعد صلاة العصر تخرج الفرقة من الزاوية مثل الحزب، وتقوم بنوبة تتواصل إلى منزل المختون مثلاً. عند الوصول يستنّ شاوش الأثاث الآلات خارج المنزل وتدخل الفرقة بالنوبة الإيقاعية. وعندما يجلس أعضاء الفرقة يشرعون في قراءة الفاتحة ثم نصيب من "حزب سبحان الدايم لا يزول"، ثم الأحزاب الكبير والصغير والفلاح، ومن الطريف أن ينشد حزب "سبحان الدايم لا يزول" لحظة الختان إذ أن العملية تعتبر مقدّسة، ثم يتقدّم شيخ الصف فيقرأ الفاتحة من جديد بصوت عال، ثم ينادي:

يَا ابْنَ عَيْسَى يَا وُلِيَّ مُكْنَأَسْ سَلِّكْ يَا ابْنَ عَيْسَى لَا تُكْأَسْ

أَحْضَرِيَا نَعَّازْ يَا مَوْلَانَا أَحْضَرْ

ويقف الصفّ (الصدر) حفاة بدون جبايب أمام حلقة العمل ويذكرون بصوت واحد (هو.. هو.. هو..). ويتبعون حركة شيخ الصف الذي قد يخرج منه ليأتي برقصه أو حركة كي يراها الصفّ ويتبّعها أو بالتصفيق والغرغرة في ذكر الاسم الأعظم وذلك كلما سمع في المديح ذكر الرسول صلى الله عليه وسلّم أو ذكر وليّ صالح.

طريقة العمل بفريانة: العمل بفريانة بدون زكرة ولا قصبه، فيستعملون البنادر والتغارات فقط دون دربوكة وهو غناء مدحات فقط.

طريقة العمل بالمناطق المتاخمة للجزائر بالشمال الغريي: يكون العمل فيها على

آلة القصبة والدفوف فقط، ولكنهم يلعبون ألعابا كثيرة بالنيران، مثلا يُشعلون نارا عظيمة في (عربة) ويحمون فيها رفشا من حديد حتى يحمر ويمسح الراقص به صلغته فلا يحترق، وغير ذلك من الألعاب.

طريقة العمل بطرابلس: يقول الدكتور صالح المهدي أن أصحاب الطريقة أدخلوا في العمل القانون والأدوار المصرية، والذي أدخل هذا النوع هو محمد شاكر المرابط وكانوا يسمّونه الشيخ الفافو لأنه يشبه (الفافونة Wagon) عربة القطار أي تجد عنده كلّ شيء. ويذكر الدكتور صالح المهدي أنه اصطحب الحاج محمد الكريكشي إلى الزوايا وجلبوا المشايخ بعد المصالحة بينهم وبين الإذاعة التي كانوا غاضبين عليها لأنها أهملت شأنهم ولم تعتن بهم. ويذكر الدكتور أنه جلب معه جماعة من ليبيا إلى تونس للدراسة في معهدها من بينهم حسن العربي ومحمد فرشان.

الصريفة الزرقية

نسبة إلى أحمد الشاذلية وهو الشيخ زروق أبو العباس أحمد
بن أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي

الشيخ المؤسس: هو أبو العباس [أو أبو الفضل شهاب الدين] أحمد بن أحمد بن محمد
ابن عيسى البرنوسي الفاسي الشاذلي، فهو برنوسي نسبة إلى البرانس القريبة من فاس
أي هو من عرب المغرب، ولُقّب بـ"زروق" لأن أحد أجداده كان أزرق العينين.

وُلد يوم الخميس عند طلوع الشمس في 18 (أو 22) محرم الحرام سنة 846 هـ
[1442م]، وتوفيت أمّه في اليوم الثالث من ولادته، وتبعها أبوه بعد خمسة أيام والتحق
بهما عمّه بالقرب، فما أتى عليه السابع إلا وهو فاقد السند إلا الله تعالى. عاش في
كفالة جدّته لأمه الفقيهة "أم البنين" حتى بلغ العشر سنين فحفظ القرآن الكريم،
وتعلّم صناعة الخرز ليعيش منها، ولما بلغ السادسة عشرة انتقل إلى سكنى فاس
وتلقّى بها العلوم الشرعية واللغوية، فانتظم في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة
العنانية معاً، وهما أكبر مؤسستين تعليميتين بفاس في ذلك العصر، ف"أخذ عن أئمة
المشرق والمغرب منهم: حلولو، والمشدالي، والرّصاع والسنوسي [مؤلف التوحيد] والشيخ
الجزولي والمجاصي والقوري والنور السنهوري وابن زكري وابن المواز والولي التازي وابن
التونسي وعبد الرحمان الثعالبي وأحمد الحباك والمواصي والخروي الكبير وهو عن الأبي"،
وسليمان وابن مرزوق والديمي والسخاوي وابن زين الدين والزهروني ونور الدين يحيى

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 267 رقم 988.

الحريزي وابن الشاوي والمغيري والمكناسي والمغيري والمرياحي والشاوي والحميدي وابن الأفلح وابن زكرياء وابن عباس الشرقي والرضا نور الدين يحيى الحريزي من شيوخ الفقه المالكية، وأخذ علوم الباطن والتصوّف على عدّة مشايخ آخرين منهم الشيخ أحمد بن عقبة اليموني وأحمد ابن عبد الله الجزائري ويحيى العيدلي ومحمد بن عبد الله الزيتوني وابن الحسين وابن يحيى السراج، والسراج نفسه والغرابلي والغراز والشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب الطريقة الجزولية، والتازي وابن علي ابن عروس والحمامي والفيلاي واللمطي والعبدوسي وابن إبراهيم والأستاذ بن سعيد الجزولي وغيرهم¹.

ثم شرع في الرحلة بعد طول الإقامة بفاس، فانتقل إلى بجاية وأخذ في نشر علومه على الطريقة الشاذلية، ورحل إلى المشرق العربي سنة 873 هـ وقضى ثلاث عشرة سنة متنقلا بين موطنه الأوّل فاس وأقطار المغرب العربي ومصر والحجاز يستزيد من العلم لنفسه وينشره ويعلمه لغيره ويحجّ البيت الحرام، إلى أن ألقى عصا الترحال بمصراتة بعد طول التجوال سنة 886 هـ حيث طاب له فيها المقام وقضى فيها بقية الأيام، فتزوّج من أهلها بامرأة اسمها "أمة الجليل" بنت أحمد بن زكرياء الغلياني المصري، فأنجبت له ابنتين سمّى أولهما أحمد أبا الفضل وسمّى الثاني أحمد أبا العبّاس وبنّتا سمّاهما عائشة.

وأخذ عنه " من لا يعدّ كثرة منهم الخطاب الكبير والخروي الصغير والشمس والناصر اللقانيان وسفين وطاهر بن زيان القسنطيني والولي الشعراي والقطب أبو الحسن البكري"².

له تآليف عديدة من يطّلع عليها يعرف له قدره، منها: تسعة وعشرون شرحا على "الحكم العطائية" لابن عطاء الله الاسكندري، وشرحان على "حزب البحر" للإمام الشاذلي، وشرح على "الحزب الكبير"، وشرح على مشكلاته، وشرح "قطع الششتري"، وشرح على "أسماء الله الحسنى"، و"قواعد التصوف"، و"عدّة المرید الصادق" وهو كتاب كبير جليل، وتعليق على "البخاري"، وشرحان على "الرسالة"، وشرح على "رشاد" ابن عسكر، وشرح على "مختصر خليل"، و"القرطبية"، و"الوغلبيسية"، و"الغافقية"، وشرح

1 كربولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 458.

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 267 رقم 988.

"العقيدة القدسية" للغزالي، وشرح "الحقائق والدقائق" للمقري وشرح "المراسد في التصوّف" لشيخه ابن عقبة و"إغاثة المسكين على طريق الفتح والتمكين"، و"النصح الأنفع"، و"النصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية" [وعمل عليها الشيخ محمد بن يوسف الكافي شرحا ضافيا بعنوان "الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية" نشرته مطبعة حجازي بالقاهرة سنة 1345هـ/1935م]، وجزء في علم الحديث ورسائل كثيرة لأصحابه فيها مواعظ وحكم وآداب وغير ذلك مما هو كثير. وكان يميل إلى الاختصار مع تحريرات وتحقيقات قلّ أن توجد لغيره، وقد عرّف بنفسه وبأحواله وشيوخه في كتابته، وله وظيفة تسمى "سفينة النجا لمن إلى الله التجأ"، وقد شرحها الشيخ أبو زيد العياشي¹ في كتابه: "الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية"، و"كتاب الأُنس" ألفه سنة 888 هـ، وبه 600 بيت وشرحه محمّد بن علي الحرّوي، وكتاب "الجنتّة العاصمة من البدع في السنّة"،

من أقواله المأثورة عليه قوله: "كلّ من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوّف"².

وتوفّي [يوم الاثنين 10 صفر] سنة 899 هـ [1494م] ودفن في مصرّاة ذات الرمال (تاقيران) من أطراف برقة³.

أخبار الطريقة: كوّن تلاميذ الشيخ زروق الكثيرون جماعة تحت اسم الشاذلية- الزروقية. ويقول كوبولاني أن تعاليمهم لا تقدّم أي ميزة ظاهرة عن الطريقة الأمّ وهي التعاليم التي ورد بعضها للشيخ زروق في "كتاب كفاية المحتاج" للشيخ أحمد بابا التنبكتي⁴.

1 هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمّد بن عبد الله بن محمّد بن أبي بكر العياشي ابن أخ العياشي الذي ألف كتاب "الرحلة" المشهور.

2 أحمد زروق، قواعد التصوّف، تحقيق الشيخ عثمان الحويمدي، المطابع الموحّدة شارع عبد الرحمن عزام، تونس، الطبعة الأولى 1407/1987.

3 أبو زيد العياشي، الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية، المطبوع ذيل مواهب الرحيم للشيخ محمد مخلوف. ص: 265.

4 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 458. والتنبكتي هو أبو العباس بابا أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي (مالي) ولد سنة 963 هـ/1555م وتوفي سنة 1036 هـ/1626م وترك سلسلة من العلماء بتنبكتو. وهو يقدّم مثالا رائعا للعلوم المنتشرة في عصره في تلك المدينة حيث كان يملك مكتبة تضم ألفا وستمائة كتاب وترك كتبها منها "نبيل الابتهاج بتطريز الديباج" في تراجم المالكية وله حواش ومختصرات تقارب عدتها الأربعين أكثرها في الفقه والحديث والعربية. (خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 1 ص 30).

ويقول "كوبولاني: انتشرت الطريقة، إذن، عن طريق تلاميذ الشيخ زروق ومنهم الشيخ عبدالسلام الأسمر صاحب الطريقة السلامية، ولكنه رغم صلاحه وغزارة علمه لم تمثل الطائفة المنضوية تحت اسمه إلا تنظيماً بدائياً، إذ بقيت آراؤه لدى الطوائف المثقفة ولم تتمكن من النزول إلى العامة الذين لا يحتفظون عن الشيخ إلا بذكرى شاحبة. ولعلها من الطرق التي اندثرت بهذا السبب. وللطريقة زاوية أم بأولاد طريف بمنطقة البرواغية بجهة الجزائر، ولها أتباع بالمغرب من زكارة وهوارة الذين يعتبرون أنفسهم خدماً للشيخ زروق، ولا تكاد الطريقة تعرف بجهة طرابلس وبقية البلاد الإسلامية.

وهذا مما يُستغرب من "كوبولاني"، إذ أنّ الشيخ لما أن استقرّ بمصراتة في البلدة التي تُسمّى الآن باسمه وتحتضن منارته العلمية، أخذ يعقد مجالس العلم، ويلتقّ حوله الطلبة والمريدون، فوضع بذلك حجر الأساس للزاوية الزروقية التي كانت آنذاك تتكوّن من جامع الجمعة العتيق الذي بُني قبل مجيء الشيخ زروق وُسّي باسمه فيما بعد، ومن الخلوة التي بناها الشيخ زروق خلف هذا الجامع بالإضافة إلى الجابية التي أهداها له أحد سكان المنطقة وهي تحوي رفاتة الآن. وبعد وفاة الشيخ بعشرين سنة بنى أحد أتباعه مسجداً بجانب ضريحه تحوّل فيما بعد إلى ما يعرف الآن بزاوية سيدي أحمد زروق، وهي تتكوّن من مسجد جامع وضريح الشيخ زروق ومكتبة تراثية ومدرسة للعلوم الشرعية وعدد من كتاتيب تحفيظ القرآن، وعدة حلقات للدروس الحرّة في الشريعة واللغة العربية.

أصول الطريقة: يقول "كوبولاني"² إن أتباع الطريقة الزروقية يعتمدون في مبادئهم الصوفية على الطريقة الشاذلية الأم، ولكن سمعة شيخهم تقدّم لهم تفوّقاً على بقية الطوائف الشاذلية الأخرى فهم يعيشون على سمعة الإمام زروق وكتاباتة الشهيرة لدى المثقفين المسلمين حيث يعتبرونه من أكابر العلماء بإفريقيا الشمالية.

والزروقية طريقة صوفية سنّية مغربية يتفق مؤرّخو الطرق على إلحاقها بالطريقة الشاذلية، وعلى أنها فرع منها، وعلى أنّ الشيخ أحمد زروق كان شاذلياً صرفاً، إلا أننا نرى

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 459.

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 458.

أنه تأثر بأراء الطرق الأخرى، فكانت الزرّوقية مزيجاً من هذه الطرق في إطار الشاذلية، وقد كان الشيخ زرّوق على صلة دائمة بفرعي الشاذلية الوفاية والجزولية، وكذلك على صلة بالجهتية والعروسية والسهورودية، وهذا ما يوحى باستقلاله عن كلّ من سبقوه وتحرّره من الارتباط بطريقة معيّنة مما تركه قادراً على إنشاء طريقة خاصّة به، وهو يدافع دفاعاً مستميتاً عن تنوّع الطرق إلى الله، فكلّ يسلك السبيل التي يجدها أسير له بحسب ما يتناسب مع طبيعته وقدراته، لكنه في الآن نفسه كان معترضاً بل محارباً لمن يدّعي الصوفية بدون شروطها، وجعلهم من المفسدين الذين تجب محاربتهم وهم أولئك الذين يسيئون للدين والتصوف من الذين يعتمدون لجلب الجماهير على الخوارق للعداات.

يقول الشيخ أحمد زرّوق: " أصول طريقتنا خمسة أشياء: (1) تقوى الله في السرّ والعلانية (2) وإتباع السنّة في الأقوال والأفعال (3) والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار (4) والرضا عن الله في القليل والكثير (5) والرجوع إلى الله في السراء والضراء. وتحقيق السنّة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكّل، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر واللجوء إليه في السراء والضراء.

وأصول ذلك كله خمسة: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة، فمن علت همته ارتفعت مرتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمة، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن نفذت عزمته دامت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها، ومن شكرها استوجب المزيد من النعم.

وأصول المعاملة خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ الذين أقامهم الحق سبحانه والإخوان للتبرك، وترك الرخص والتأويلات للتحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، وإتھام النفس في كلّ شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب والغلط. فطلب العلم آفته الإحداث سنّاً أو عقلاً أو ديناً مما لا يرجع لأصل ولا قاعدة، ومن آفات المحبّة الاغترار والفضول. وآفة ترك الرخص والتأويلات والشفقة على النفس. وآفة ضبط الأوقات اتّساع النظر في العمل بالفضائل. وآفة اتھام النفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها.

وأصول ما تُداوى به النفس خمسة أشياء: تخفيف المعدة بقلّة الطعام، واللجوء إلى الله في كل ما يعرض عند عروضة، والفرار مما يُخشى وقوع الأمر المتوقع منه، ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم بخلوة وانجماع، وصحبة من يدلّ على الله أو على أمر الله وهو معدوم. وقد رأيت فقراء هذا الوقت قد ابتلوا بخمسة أشياء: إثارة الجهل على العلم، والاعتزاز بكلّ ناعق، والتّهون في الأمور، والتعزّز بالطريق، واستعجال الفتح دون شروطه، فابتلوا بخمسة أشياء: إثارة البدعة على السنّة، واتباع أهل الباطل دون أهل الحقّ، والعمل بالهوى في كلّ أمر أو جُلّ الأمور، وطلب الثّرات دون الحقائق، وظهور الدعوى دون تصديق، فظفروا لذلك بخمسة أشياء: الوسوسة في العبادات، والاسترسال مع العادات، والاجتماع في عموم الأوقات واستمالة الوجوه بحسب الإمكان، والاعتزاز في ذلك بوقائع القوم وذكر أحوالهم. وكلّ من ادعى حالاً مع الله ثمّ ظهرت منه إحدى خمس فهو كذاب أو مسلوب: إرسال الجوارح في معيّة الله، والتّصنّع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، والوقية في أهل الله وعدم احترام مسلم".

وإنما ذكرنا هذه الطريقة لأن بعض الطرق الموجودة إلى الآن ما زالت تتوارث بقايا منها كالأذكار والوظيفة وبعض الكتب والعظات.

الوظيفة الزروقية: وهي وظيفة الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد زروق: "أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَاللَّهِمَّ إِلَهَ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَمْ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَعَدَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِهِ الْمَصِيرُ، اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،

1 انظر، كتاب: أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي 1995 الجماهيرية الليبية، ص: 581.

أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلُّ أَمَّنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَبِالسَّمَلَةِ وَسُورَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْخِ وَالْبِسْمَلَةِ وَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ (ثَلَاثًا) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ (ثَلَاثًا ثَلَاثًا) مَعَ تَكَرُّرِ الْبِسْمَلَةِ ثُمَّ تَشْرَعُ فِي الدُّعَاءِ وَهُوَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا لَا أَعْلَمُ (ثَلَاثًا) اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَخْلِ وَالْحَبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلْبَةِ الدِّينِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ (ثَلَاثًا) اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ (ثَلَاثًا). اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ (ثَلَاثًا) اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتَ أَبَوِي وَبِعَمَّتِكَ عَلِيٍّ وَأَبَوِي وَبِذَنبِي فَاعْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ (ثَلَاثًا)، اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْكَ فِي نِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَسَتَرْتُ فَاثِمَةً عَلَيَّ نِعْمَتِكَ وَعَافِيَتِكَ وَسَتَرْتَ لِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ (ثَلَاثًا). اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فَالْحَمْدُ وَالْحَمْدُ لَكَ الشُّكْرُ (ثَلَاثًا)، يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ (ثَلَاثًا)، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا (ثَلَاثًا). سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرَضَى نَفْسَهُ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمَدَادَ كَلِمَاتِهِ (ثَلَاثًا). أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (ثَلَاثًا)، بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (ثَلَاثًا). أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (ثَلَاثًا)، وَبِالسَّمَلَةِ ثُمَّ تَضَعُ يَدَكَ عَلَى رَأْسِكَ وَتَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ (ثَلَاثًا) تَحَصَّنْتَ بِذِي الْعِزَّةِ وَالْجَبْرُوتِ وَاعْتَصَمْتَ بِرَبِّ الْمَلَكُوتِ وَتَوَكَّلْتَ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَصْرَفَ عَنِّي الْأَذَى إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (ثَلَاثًا مِنْ قَوْلِهِ أَصْرَفَ إِلَى قَدِيرٍ). ثُمَّ تَقْرَأُ الْبِسْمَلَةَ وَسُورَةَ قُرَيْشٍ (مَرَّةً) ثُمَّ تَقُولُ: اللَّهُمَّ كَمَا أَطَعْتَهُمْ فَأَطَعْنَا وَكَمَا أَمَنْتَهُمْ فَأَمَّنَّا وَاجْعَلْنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ (مَرَّةً) سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا

إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك (ثلاثا) أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه (ثلاثا). اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا (ثلاثا). ثم تقول: عدد ما أحاط به علمك وخط به قلمك وأحصاه كتابك والرضا على ساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن الصحابة أجمعين وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ثم تقول: لا إله إلا الله (مائة مرة) وأزيد إن شئت إلى الألف ثم تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. ثم تقول: ثبتنا يا رب بقولها (ثلاثا) وانفعنا يا رب بفضلها (ثلاثا) واجعلنا من خيار أهلها (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) أصبحنا في حماك يا مولانا، أمسينا في رضاك يا مولانا (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) لا إله إلا أنت لا أحد ربنا يا مجعنا اغفر ذنوبنا (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما بقي بجرمة الأبرار يا عالم الأسرار (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) يا عالم السرّ منّا لا تكشف السرّ عنّا (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين يا مولانا يا مجيب، من يرجوك لا يجيب، اقض حاجتنا قريب، يا حاضرًا لا يغيب (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد (عشرا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) ثم تقول: وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (مرة) والبسملة والفاحة (ثلاثا) إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليمًا عدد الشفع والوتر وكلمات ربنا الثمّات المباركات (ثلاثا) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (مرة) وهو حسبنا ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين".

الصرقة السلامية ﴿العروسية﴾

نسبة إلى الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري. وقد تسمى (العروسية) نسبة إلى الشيخ أحمد بن عروس؛ لأن الشيخ الأسمر صرح بأخذها عنه، عن طريق

1 الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الدايم الشهير بابن عروس بن عبد القادر التميمي الهواري المتوفى سنة 868 هـ / 1463 ميلادية) وله من العمر 90 سنة. من أشهر مشايخ العهد الحفصي، وقد بنى له السلطان محمد المنتصر الحفصي زاوية في تونس سنة 838 هـ (1434 ميلادية) قرب جامع الزيتونة. سمي بابن عروس نسبة إلى جده عبد الدايم حيث تزوج أبوه عبد القادر ولم يمكث مع عروسه إلا ساعة وغاب غيبة لم يظهر بعدها، فلقبوا عبد الدايم الذي طال عمره بابن عروس. وفي الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد البهلي النبال: "ولد بقرية المراتين بوادي الرمل من الوطن القبلي وظهر عليه الجذب من صغره فكان أهل قريته ينادونه يا مرابط. فر عن أهله قبل البلوغ وجاء تونس وأوى إلى زاوية بلوح القراءة ثم انتقل منها إلى الزاوية التي بالسواري وكان شيخها عبد الرحمان بن البناء. وكان ملازما للتردد على مقام سيدي محرز بن خلف وخدم نشارا للخشب (بدار العود) وخدم بالتزويج خارج باب سوقة وعمل في فرن بقصيبة بنزرت. وذهب إليه بعض أقرابه لإرجاعه فامتنع، ومنها انتقل إلى باجة ولازم باب جامعها. وكان لا يتسول ويأكل المنبوذ من الخضار وغيرها. وانتقل إلى ميللة وجلس فيها لتأديب الصبيان. ثم انتقل إلى الجزائر وأقام بمقام الشيخ أبي مدين شعيب بتلمسان ودخل مدينة فاس ووصل إلى مراكش وانتقل إلى مدينة سبتة وهي محتلة من التصاري، ورجع إلى تونس على طريق عتابة. كان ملازما للصلاة بجامع الزيتونة والوضوء بمبضاة السلطان أبي عثمان (وهي المجاورة للمدرسة الخلدونية بالعطارين) وكان يسكن بالفندق الذي نقضه أبو عبد الله المنتصر وأقام به للشيخ زاوية ليسكنها فسكنها وقضى فيها مايقرب من ثلاثين سنة وتوفي سنة 868 هـ وبناء الزاوية كان في 838 هـ / 20 أكتوبر 1434 م. وقد كثر إقبال النسوة على زيارة الشيخ حتى تفاقم الأمر فأمر قاضي القضاة بتونس بغلاق الزاوية فأغلقوا أبوابها حينئذ. وكان النقيب المكلف بالزاوية ابن أخ الشيخ. وللزاوية وشيخها مكانة عند الأمراء الحفصيين فقد لازمها أبو محمد الحسن ابن الأمير إسماعيل بن أبي العباس أحمد. ومن أتباع الشيخ ابن عروس عبد السلام الأسمر... وأحمد زروق نفسه. وينسبون لابن عروس بعض أناشيد وأزجال منها:

(يَارَبِّ وَأَنْتَ رَحْمَاتِي * لَأَلِي سَدِّ غَيْرِ بَابِي * مِنْ النَّارِ نَجِّي أَعْضَايَا * وَأَسْأَلُ عَلَى حُجَابِكَ) وكذلك: (نَفِثْلُ عِمَامَةٍ مِنَ الْمَاءِ * وَنَشِدْهَا شَدَّ مَائِلٍ * وَنَعْمَلُ مِنَ التَّلْجِ مِصْبَاحَ * إِذَا حُمَاتِ الْفَوَائِلِ) وكذلك: (الذُّنْيَا مَلَّتْهَا دِلَاعَةٌ * يَتَكَرَّرُ مِثْلَ الدَّلَاعِ * مَاذَا لِحْفُوهَا طَمَّاعَةٌ * زَمَاتُهُمْ فِي بَيْرْمَالِهِ قَاعٌ) وكذلك: (جَمِيعَ الْبِلَادِ شَوَّلَتْ * حَتَّى لَسِبْتَهُ الْخَصِينَةَ * أَنَا مِثْلُ بَنْزُرْتِ مَارِيثَ * الْوَادِ فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ)

شيخه عبد الواحد الدوكالي. ويرجعها الغير إلى القادرية، ويظهر أن هذه الأخيرة هي الأصل الذي ترجع له بقية الطرق جميعاً. غير أن محمد البوهلي النبال يجعلها وسطاً بين العروسية والشاذلية. ولعل ذلك يظهر فيما روينا عن الشيخ محمد مخلوف من تصريحه بكونه شاذلياً وكتابته عن الشيخ الأسمر، ومنه نفهم مدى اختلاط الطريقتين في ما نراه من ممارسات السلامية.

الشيخ المؤسس: تنسب الطريقة السلامية إلى الشيخ عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن محمد بن حميد بن عمران بن محي بن سليمان بن سالم بن خليفة بن نوفل السعيد المغربي المخزوني القريشي الملقب بأبي مرزوق المشهور الأسمر الفيتوري المتوفى بحسنة (طرابلس) سنة 981 هـ. أما مولده فيذكر الشيخ مخلوف أنه ولد ليلة الثاني عشر من ربيع الأنور سنة 880 هـ [1475م] أي ليلة المولد النبوي الشريف بزيلطن.

ويروون أن والده سليم كان صاحب كرامات وإشارات رغم كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لكنه يتكلم كلاماً بليغاً على معاني الكتاب والسنة، وكان يرد الغلط على القارئ، فتحيّر في أمره العلماء، وقيل أن من كراماته أنه اطلع على زوجته سليمة قبل ولادتها، فكان كلما قيل له: تزوج! يقول: "...حتى تنزاد أم عبد السلام" وإذّك لم يبن أبوها بأمها بعد.

وأمه هي السيدة سليمة الشهيرة بعبّادة بنت الشيخ الصالح عبد الرحمان الدرعي بن عبد الواحد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن علي بن سعد بن محمد بن أبي عبد الله بن الشيخ عبد السلام بن مشيش. قيل أنها ولدت ببلاد "درعة" يوم عيد الفطر لذلك لقبوها "عبّادة"، وظهر لأبيها أن لا يزوجها إلا لسيدي سليم بأرض طرابلس، فكثرت خطابها، لكنه ردّهم وهو يقول: "مالي وتزوجها لكم ولو بوزنها ياقوتا، وسيظهر زوجها إن شاء الله من طرابلس شريف نسبه من آل محمد صلى الله عليه وسلم." فلما أحلّ الله الكتاب حملها أبوها إلى أرض طرابلس وعندما وصل إلى "عوسجة" تلقاه سليم ومعه القاضي والشهود فزوجها له والدها بعقد وصدّاق. ورحل بها سليم إلى الزاوية الغربية وبني بها فلم تلد له غير عبد السلام. وعاشت 110 سنين ودفنت بالحجرة المدفون بها

سيدي عمران جدّ الشيخ، وهكذا لقبت بـ"الدرعية" نسبة إلى درعة.

وتيتّم الصبي عبد السلام وهو ابن سنتين وشهرين، فكفله عمّه أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري واعتنى بتربيته ووضعه في مدرسة قرآنية فحفظ القرآن الكريم وتجويده ولم يتجاوز بعد السابعة، وتعلم عن عمه علوم العربية والمنطق والتوحيد والفقه والشعر. ثم انتقل إلى مدينة مسلاتة كي يتّخذ له شيخا بأمر من عمّه، فتعلّم على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي "مختصر خليل" و"الرسالة" و"الحكم" والتوحيد وأصول التصوّف، وبقي عنده سبع سنين، وصبر معه على تمارين قاسية في قوّة التحمّل والطاعة الخالصة، وأصبح فقيها محافظا للسنة، وفي تلك الفترة ظهرت عليه بوادر التصوف، وربما وقعت له كرامات، وتعرّف على عدّة شيوخ بارزين في مختلف المعارف منهم الشيخ فتح الله أبو راس القيرواني الذي شفّع له عند شيخه الدوكالي لما أراد معاقبته بسبب ما أظهر من الجذب ونقر البندير، ولكن الشيخين انجذبا عندما أذنا لهذا التلميذ أن ينشد ويعزف.

ولما فرغ من الدراسة على يد الشيخ الدوكالي وبقيّة شيوخه، رجع إلى أمّه، وقد كفّ بصرها بزليطن، فبقي معها يعبد الله حتى وافاها الأجل، فسافر الشاب عبد السلام إلى زيارة الأولياء على ما جرت به العادة، ثم توجه إلى جبل زغوان وأقام به مدّة يتعبّد كما هي العادة بعد أبي الحسن الشاذلي. وفي ذلك يقول:

أَنَا تُرْكِي جَبَلِ زَغَوَانَ مَرَقَبٌ وَمَشَوِّفٌ وَعَالِي
وَأَنَا نَظِيرُ وَادِي مِلْيَانَ إِذَا احْتَمَلَ فِي اللَّيَالِي
وَأَنَا سَيْفٌ مُوَلَايَ حَسَانَ فِي يَوْمِ نُسُوقِ الْمَشَالِي
وَأَنَا دِرْعٌ مُوَلَايَ عُثْمَانَ إِذَا تُرَاكُمُوا بِالْعَوَالِي
وَأَنَا بَيْنَ عَرُوسِ اللَّيِّ كَان تُعَاثُ بِهِ الرَّجَالِي

ثم رجع إلى زليطن، وكثر حسّاده وأعداؤه ورموه بالزندقة ونفوه منها مرات عديدة إلى تاورغاء ومصراتة، فتعسف عليه الأحامد البغاة وأطردوه من قريتهم فقال فيهم:

يَا اللَّهُ يَا وَاحِدَ يَا مُحْيِيَ الْعَبْدِ بَعْدَ الْمَمَاتِ
شُقُّ وَطَنِ الْأَحَامِدِ حَتَّى يَبْقَى عَلَى ثَلَاثِ شَطِيَّاتِ
وَاجْعَلْ وَكْرَهُمْ بَايِدَ يَا رَبِّ يَا قَابِلِ الدَّعَاوَاتِ
نَبَاتٌ لَيْلِي كَامِدَ مِمَّا جَرَى لِي، وَبِي حَرَكَاتِ
دَمْعِي يَهِيلُ بَدَايِدَ وَطَنِ السَّاحِلِ دَالُوا عَلَيْهِ أَرْفَاتِ

وخرج منها هاربا إلى طرابلس وأقام بمسجد الناقة فكثرت تلاميذه، يأخذون عنه العلم، وكان يستعمل لهم السماع وهو الحضرة، وذاع صيته، فرماه حساده بالزندقة وشكوا به إلى الوالي فالزمه بالخروج فقال (من بحر الوافر):

إِذَا ظَلَمَ الْأَمِيرُ وَكَاتَبَاهُ وَعَمَّ الْحُسُدُ فِي كُلِّ الْبِلَادِ
وَقَاضِي الْحُكْمِ تَاهَ فِي هَوَاهُ وَأَظْهَرَ بِالْفُجُورِ وَبِالْعِنَادِ
فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِكُلِّ فَقِيرٍ مِنْ قَاضِي الْبِلَادِ
أَقُولُ .. أَقُولُ: يَا يَا وَحِشَتَاهُ فَلَا يُخْلُو الْفَقِيرُ مِنَ التَّكَادِ
مِنَ الْبُلْقَاءِ يَا أَحْيَى خَرَجْنَا وَكُلُّ مُقِيمٍ يَرْحَلُ بِاعْتِيَادِ

وخرج إلى جبل غريان جنوب غربي طرابلس فمكث هناك بكهف يسمى (تكيرة) فتألبت عليه القبائل وطارده ما خلا أولاد سيدي ساعد وأولاد بوسلامة فإنهم عاضدوه وحموه، فقال هذا القسم متألما:

أَقْلَبَاهُ يَفُورُ مِ الْهَمِّ وَشَدِيدِ الْبُلِيَّةِ
أَنَا جَبَالِي مَفْهُورُ نَبِي دُمُوعِي سَخِيَّةِ
نُجْضُ كَمَا الْمَكْسُورُ أَلْطَفُ يَا مُوَلَايَ بِيَّهِ
مِ الْفِتْنَةِ وَالرُّرُورُ مَا نُرْقُدُ لَيْلَةَ هُنِيَّةِ

1 وهو مشابه لما قاله أحدهم: إِذَا خَانَ الْأَمِيرُ وَكَاتَبَاهُ وَقَاضِي الْأَرْضِ دَاهَنَ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ لِلْأَمِيرِ وَكَاتِبَيْهِ وَقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

نُصِبَ دُمُوعِي ذُرُورٌ مِنْ حَاسِدٍ جَارٍ عَلَيَّه
 مَزْجُورٌ وَمَقْهُورٌ عِدْوَايَا نَكْرُوا عَلَيَّه
 مِثْلَ فُرَيْدِ نُدُورٌ مِتْحَحِيرٍ نَارِي قُويَّة
 مَعْبُورٌ وَمَكْدُورٌ طَرْدُونِي مِنْ غَيْرِ سَيَّة
 مَنَسِي أَنَا مَقْهُورٌ لَا مِنَّهُ يَفْرَعُ لِيَّه
 يَا هَلْ تُرَانِي مَسْحُورٌ وَالْأَدْعُوَّةُ وَالْأَدِيَّه
 عُدْتُ كَمَا الزَّرْزُورُ مَن رَانِي حَامَ عَلَيَّه

وانتقل هاربا إلى عدّة أماكن حتى أقام بقلعة سوف الحين سبع سنين، وكان يقول
 متصبرا :

الصَّبْرُ مُرِّيْبِي الْإِنْسَانُ وَالْمُرِيْرَجَعُ حُلَاوِي
 صَبْرْتُ صَبْرُ أَيُّوبَ وَلُقْمَانَ وَعُغْلِبْتُ نَفْسِ الشَّهَاوِي
 وَقَالَ أَيضًا : صَبْرْتُ صَبْرُ أُولِي الْعَزْمِ الْإِنْبِيَاءِ السَّادَاتِ الْأَخْيَارِ
 إِلَى أَنْ فُقْتُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ بِسِرِّ الْإِلَآهِ حَقِّي وَجَهَارِ
 اللَّيِّ صَبْرٌ رَاهُو نَالِ الْحِلْمِ وَمَنْ لَا صَبْرَ لَا نَالَ اسْرَارِ
 مَطْرُودٌ مِنْ حِزْبِ الْقَوْمِ مَحْسُوبٌ مِنْ نَاسِ أَشْرَارِ

غير أن الحسد لحق به في هذه القلعة، أيضا فسعى به مناوؤوه إلى الوالي، فخرج
 منها عائدا إلى تاورغاء ثم مصراتة، وأخيرا استقر به المقام بزليطن قرية الفواتير¹ أبناء
 عشيرته وبنى بها الزاوية الموجودة إلى اليوم. ورابط بزايوته إلى أن وافاه الأجل في شهر

1 كثيرا ما يلقب الشيخ عبد السلام بالفيتور والفيتوري والجمع فواتير المشهورين بالرقص والتخميرة، والأصل
 في ذلك أن الجد السابع وهو خليفة الملقب بالفيتور عندما كان صبيا قامت معركة تناحرت فيها قبيلته مع قبيلة
 أولاد سعيد الخزومي فخافت عليه أمه من القتل فخبأته في دهليز معصرة زيتون بها الفيتورة (بقايا الزيتون
 بعد عصره) فلما كبر صار مشهورا بالفيتور وأطلق الاسم على كامل العشيرة. (عن مواهب الرحيم للشيخ محمد
 مخلوف ص75، 76)

رمضان سنة 981 هجرية (1573 ميلادية) ودفن بزاويته. وقد بلغ درجة القطب (الغوث) القادر على الإحاطة بشؤون العالم في معتقدتهم والحارق للحواجز المادية، وبقي أربعين سنة بهذه الدرجة.

أخبار الطريقة: اشتهر الشيخ عبد السلام في إقليم طرابلس وتونس بورعه الشديد ومعارفه الشاسعة في علوم الباطن، وكان صاحب إلهامات وكرامات جلبت إليه الجماهير ولكنها جلبت إليه المصائب. كانت إلهاماته ورؤاه نتيجة لاتباعه المستمر للشيخ الورعين الصالحين ممن اشتهروا بتونس وغربي ليبيا. هؤلاء الرجال المتميزون المشهورون هم الذين ألهموه تلك الأفكار الفخيمة والآراء العظيمة التي تميّز فكره، (وهذه هي القطبانية أو الغوثة)، وهكذا كان يستقي من فضائلهم ويبلغ للناس كلماتهم الشريفة ونصائحهم الثمينة. وفي تأملاته وربما خمراته العنيفة التي عادة ما يرى غارقا فيها تنكشف له الأسرار الروحانية فينقل ذلك إلى أتباعه وأصحابه. وهكذا اشتهر ببعد النظر، ورؤية حتى المستقبل إذ أنه تنبأ بموت ابنه فقال هذا القسم المثلث:

الْأَمْرُ لِلَّهِ الرَّحْمَانِ * قُولُوا لِعِمْرَانَ * لَا بُدَّ مَا يُنْفَتَلُ بَعْدِي
وَيَظَلُّ دَمَكُ يَا عِمْرَانَ * يَجْرِي عُذْرَانِ * مَا لَأَهْ يَا لَوْعَةَ كَيْدِي
وَتُظَلُّ يَا شَرْجَةَ الْأَذْهَانَ * مُرْمِي عَزْيَانَ * مَسْبُولُ مَا بَيْنِ الْوُثْدِي
مَا يُقْتَلُونَكَ إِلَّا الْعِدْوَانَ * وَأَنْتِ مُظْمَانِ * مِنْ بَعْدِ تَكْتِيفِ وَقَيْدِي
يَا صَيْدُ فِي يَوْمِ الْمَيْدَانِ * يَا بَنِي عِمْرَانَ * الصَّبْرُ لِلَّهِ يَا وَلَدِي
مِنْ غَمْرَتِكَ قَلْبِي دَهْشَانَ * مِثْلَ السُّكْرَانَ * الدَّمْعُ يَسْكِبُ عَنْ خَدِّي
وَنُبَاتُ يَا كَيْدِي سَهْرَانَ * دَمْعِي سَكْبَانَ * يَا صَيْدُ عَصْرِكَ يَا وَلَدِي

فالأحداث المستقبلية بالنسبة إليه لا سرّ لها. ومن البديهي في نظر الجموع أن يمتلك الدواء لهذه الآلام المستقبلية ما دام يمتلك القدرة العجيبة على معرفتها. وهكذا وصلت شهرته إلى أصقاع شرق إفريقيا والسودان الشرقي حيث انتشرت أخبار كراماته، وهرع آلاف المريدين إليه لبلوغ رضا العلي القدير بواسطته. فنصب زاوية بزليطن

وهي إحدى الواحات البحرية بولاية طرابلس، وأصبحت هذه الزاوية العظيمة ضريحه، وتؤوي عديد الزيار الذين يأتون يوميا براً وبحراً لزيارته.

وعلى غرار كل المؤسسين لمثل هذه الطوائف الدينية فإنه لا يخفي اعتماده على طريقة قد عُرفت من قبله بالبلاد التونسية، والتي لم يكن هو نفسه إلا مواصلاً لها. هذه الطريقة هي التي تتبعها طائفة العروسية التي أسسها [الشيخ الشهير والصوفي الخطير أبو العباس أحمد بن سالم بن عبد السلام بن أبي بكر بن عروس التميمي الهروي بن رواحة بن شعبة بن كنانة بن قتادة بن الفضل بن العباس بن عمر بن عبد الله بن عبد القادر بن سعيد الشريف الهاشمي القرشي المتوفى بتونس حوالي 864 - 865 للهجرة (1460 ميلادية)].¹

وكان الأسمر هو المنظم للطائفة العروسية وهو الذي حوّل المذاهب الروحية إلى ممارسات تطبيقية تصل إلى حدود التخمية، فقد صرّح هو نفسه بمنطلقاته: "إن طريقنا هي العروسية وقد وصلت إلينا عن طريق شيخنا الشيخ سيدي عبد الواحد الدوكالي [المغربي القرشي المتوفى في سن 130 في القرن العاشر الهجري] عن الشيخ سيدي فتح الله بن المرابط سعيد أبي راس القيرواني المتوفى والمدفون [ببرنو من أرض] السودان عن الشيخ الإمام أبو العباس أحمد [الساحلي مولدا وهو المعروف] بأبي تليس القيرواني المتوفى بالقيروان والمدفون بجامع الزيتونة بها عن الشيخ أبي راوي [الفحل عبد الله بن علي القلعي مولدا واللواتي نسباً] المدفون بسوسة عن الفقيه الإمام علامة العلماء [الغوث الأعظم] الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر العروسي الهراوي التميمي التومي حامي الطرابلسية، عن الشيخ سيدي فتح الله العجمي التومي المتوفى في شوال سنة 847 هـ بتونس وقبره من الجلاز²، عن الشيخ ناصر الدين العوضي عن الشيخ نظام الدين الخالدي عن الشيخ فريد الدين الشاكر الغناجي عن الشيخ معين الدين الحبشي عن الشيخ عثمان الهراوي عن الحاج الشريف الزندي عن القطب المورود بن بوسيف بن محمد بن سمعان الحبشي عن ابنه محمد، وابن الأخر سمعان وخاله محمد

1 هي رواية ديبون وكوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص. 339 - 349.

2 من هنا ينطلق الخلاف بين رواية الشيخ مخلوف في مواهب الرحيم وبين (ديبون وكوبولاني) في الطوائف الدينية الإسلامية، وما بين [...] إضافة من الشيخ مخلوف لنص (ديبون وكوبولاني).

بن أحمد وابنه أبي إسحاق الشامي الشيخ ممشاد الدينوري البصيري المرشد عن ابراهيم بن عظام، عن الفضيل ابن عياض، عن عبد الواحد بن زيد، عن كامل بن زيد، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن محمد (صلى الله عليه وسلم) عن جبريل (عليه السلام) عن الله (تعالى).

هذه السلسلة هي سلسلة الصالحين الذين تناقلوا الورد إلى مولانا أبي العباس أحمد بن عبد الله العروسي، ولكن هذا الشيخ نال أيضا البركة من شيخه فتح الله العجمي الذي يلحق مذهبهم بمذاهب الشاذلية بواسطة الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد المجاهدي عن أبي النجاة سالم العنابي عن الشيخ سليمان الجزار عن الشيخ القسنطيني عن الشيخ أبي علي الحفياني عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الكبير الشاذلي، فطريقتنا، إذن، هي طريقة العروسية التي أخذنا منها الورد، أي الذي نقوم به الآن وهي طريقة لاحقة بطريقة الشاذلية التي أخذنا منها الشيخ العروسي البركة المأخوذة عن أشهر الصوفية .".

لكن الشيخ الأسمر يعتمد في تعاليمه على الهيئات المعروفة بالأصول والتطبيقات التي أكدها في الوصية (وصية في قرابة 300 صفحة مطبوعة في طرابلس) تمثل طائفة مماثلة في بعض الأمور لما عند الهيئات الصوفية الأخرى.

أما الأذكار أو الحضرة فيظهر أنها منقولة عن القادرية، وبطول صيغها تُحدث في الأتباع الهيجان مثل الأذكار في الهيئات المشابهة، فهذه الأناشيد الموقعة والموسيقى المصاحبة والابتهالات الحارة المهيجة التي يقوم بها شيخ الطائفة وترديدها من قبل الحاضرين في نفس الوقت يثيرها القرع على الدفوف، فيقومون بنفث اللهب ويخترقون الحرائق العظيمة، أو يقومون بممارسات أخرى تعطيهم طابعا خاصا ليس له نظير إلا لدى دراويش الرفاعية والسعدية والبوعلية والعيساوية وبعض الآخرين المهتاجين من نفس الفصيلة. ومن جهة أخرى فإن الاعتماد على تلاميذ الشيخ العروسي يمكنهم أن يحسبوا طائفتهم فرعا من الشاذلية، فإن عملهم الذي أملاه الشيخ عبد السلام الأسمر يرتبهم ضمن طوائف القادرية. وهذه هي الوظيفة أو ذكر الحضرة كما وقع تقديمه لفقراء العروسية ويعمل به في أهم الزوايا:

الوظيفة السلامية: [أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى
الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. الفاتحة (3 مرات)
الإخلاص (3) الفلق (3) الناس (3) وبعدها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله
والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (3) فضل من الله ونعمة، شكر من
الله ورحمة، والحمد لله على التوفيق ونستغفر الله في كل تقصير غفرانك ربنا وإليك
المصير نعم المولى ونعم النصير (3) سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب (3) سبحانك ما
عبدناك حق عبادتك سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي دائم لا يموت بيده الخير وهو على
كل شيء قدير (3) وإليه النشور (صباحا) وإليه المصير (مساء) لا إله إلا الله الملك الحق
المبين، لا إله إلا الله الملك الحق المتين، لا إله إلا الله الملك الحق اليقين، لا إله إلا الله أرحم
الراحمين، لا إله إلا الله أكرم الأكرمين. لا إله إلا الله حبيب التوابين. لا إله إلا الله غياث
المستغيثين، لا إله إلا الله أبدا حقا، لا إله إلا الله إيمانا وصدقا، لا إله إلا الله تلطفا ورفقا،
لا إله إلا الله تعبدا ورقا، لا إله إلا الله القوي الجبار، لا إله إلا الله الواحد القهار، لا إله
إلا الله الحليم الستار، لا إله إلا الله العزيز الغفار. لا إله إلا الله هورب كل شيء، لا إله إلا
الله هو قبل كل شيء، لا إله إلا الله هو بعد كل شيء، لا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى ويموت
كل شيء، لا إله إلا الله المعبود في كل مكان لا إله إلا الله المعبود في كل زمان، لا إله إلا الله
المذكور بكل لسان، لا إله إلا الله المعروف بالإحسان، لا إله إلا الله الحليم المنان، لا إله
إلا الله العزيز الرحمان، لا إله إلا الله العظيم السلطان، لا إله إلا الله كل يوم هو في شان،
لا إله إلا الله صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده.
لا إله إلا الله له النعمة وله الفضل وله الثناء وله الإحسان. لا إله إلا الله لا نعبد إلا إياه
مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء
عليم ليس كمثل شيء وهو السميع البصير (حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم
النصير) (3) لا إله إلا الله (11) لا إله إلا الله (23) لا إله إلا الله (33) لا إله إلا الله (33)
الله الله، الله الله. الله الله (100) الله الله الله (ختم الوظيفة) أشهد أن لا إله إلا الله
وأشهد أن محمدا رسول الله (3) اللهم أحيينا عليها وأممتنا عليها وانفعنا بها عند الشدائد
والحاجة إليها يا رب العالمين يا الله (3) اللهم أحيينا سعداء وأممتنا شهداء ولا تخالف بنا

عن طريق الهدى يا رب العالمين يا الله (3) ثم دعاء ثم: أجب دعانا الله يا مولانا أجب دعانا وارحمنا يا الله. أجب دعانا الله يا مولانا أجب دعانا وأجرنا يا الله. أجب دعانا الله يا مولانا أجب دعانا واسترنا يا الله. أجب دعانا الله يا مولانا أجب دعانا واحفظنا يا الله، أجب دعانا الله يا مولانا أجب دعانا ولا تفضحنا يا الله. صلوات دائمت طيبات على محمد (3) سلام دائم طيب على محمد (3) تحيات زاكيات طيبات على محمد (3) يا ذا الجلال والإكرام يا الله اختم لنا بالإسلام يا الله (3) يا ذا الجلال والإكرام والعزة القاهرة ثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة (3) آمين آمين آمين يا رب العالمين (3) وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (الفاحة) (3) إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما: اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما (3) سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين [انتهت الوظيفة].!

وبعد تلاوة الورد جماعةً، يُنشد الفقراء الأشعار الصوفية التي تركها شيوخهم كما أوصى الشيخ عبد السلام الأسمر: "تقربا إلى الله واتباعا لنظامنا من كانوا منكم حسان الصوت وطبيي الحنجرة يقفون ينشدون ويوقعون كلمات شيوخ العروسية".

ويضيف الشيخ عبد السلام: "... قال شيخنا الدوكالي: إنه من الضروري أن يكون النقيب لسنا فصيحا ذا صوت عذب رخيم قادرا على تعميق حب الله ورسوله لدى المستمعين، ومن بين أشعار ساداتنا أشعار شيخنا المشاد الدينوري التي هي الأجل والأندر..."، ويواصل الشيخ الأسمر قائلا: "عندما أسمعها تأخذني عاطفة جياشة وانفعال عظيم يجبرني على مفارقة الجماعة والذهاب إلى البستان المجاور فأتمشي لعدة ساعات في فتنه وجذب صوفي لا يوصف. في السابق، كنت فقيها ولم يكن لي أي ميل لهذه الأشعار ولا ما يغدّي روحها ولكن بمجرد أن بين لي شيخي الدوكالي مزاياها حتى وجدت نفسي في حالة فوق عادية وعرفت جمال النشوة وأصبح ميلي للطار ولأشعار الدينوري بلا حدود... أيها الإخوة: إن هذه الأشعار شهيرة وأغلبها يتغنى بأشرف المغاربة التي ينشدونها في أعياد المولد من أعلى صوامع مساجدهم؛ والذين لا يعتقدون

في فضائلها الفذة ولا يتبعون وصايانا ووصايا الشيوخ سيظمؤون في هذه الدنيا وفي الآخرة ولا يروون أبدا ولو شربوا أشهى رحيق!"¹

وقد عثر "كوبولاني" ورفيقه على مخطوط لديوان كامل بهذه الأشعار الصوفية التي تستجيب لجميع الأذواق وبحسب كل الظروف والمناسبات، وقال: إن بها تحاميد وتسابيح شيوخ الإسلام وشيوخ العروسية ومنها ما يتغنى بخصايل الشيخ العروسي وخصايل مجدد الطريقة الشيخ الأسمر، وهنالك حتى مجادلات ومقارعات للعلماء الذين يحاربون مذاهب الصوفية، كما هنالك أشعار ضد اليهود والنصارى الذين يجب قطع أي صلة بهم وعدم النظر إلى وجوههم ولا الجلوس معهم، وذكر "كوبولاني" ورفيقه أن نضالا كبيرا قام بين علماء طرابلس وتونس وأعضاء هذه الجمعية العروسية الذين يتهمون بالبدعة والهرطقة.

أصول الطريقة: يظهر أن الأصل في هذه الطريقة التشجيع على العلم، وأن المجادلات والنزاعات التي كانت مع العلماء، هي في التفريق بين ممارسات الفقه وممارسات الذوق التي تميز الطوائف الصوفية، وبها بعض ما ينافي ظاهر النصوص من رقص وغناء وغير ذلك، وقد تعرض لها الشيخ أبو مدين شعيب مؤسس الطريقة المدنية كما رأينا سابقا، ولا ينازع أحد في أن الشيوخ الأصليين للطرق لا يعترفون إلا بمن حصل نصيبا لا بأس به من العلم كما رأينا في الشاذلية وهكذا نجد من محور الشيخ عبد السلام معالجة لهذه المسألة، وإبداء رأيه فيها، فمن جهة يشير على مريده بطلب العلم ولكنّه يؤكد على الأخلاق، ويرجو من الفقهاء التفهم لحال المتصوّف مثل قوله في هذا القسم:

الصَّبْرُ وَاجِبٌ يَا فُقْرًا	كَذَا الصَّمْتُ رَأَهُ فِيهِ مُزِيَّةٌ
يَا مُبْتَلَىٰ إِصْبِرْ تَبْرًا	وَاصْمْتُ وَسَامَحَ بِالثِّيَّةِ
مَاذَا يُصِيرُ وَمَاذَا يَجْرَى	لِلْعَبْدِ بَعْدَ أَنْ يَتَهَيَّأَ
إِنْ كُنْتَ يَا صَاحِ تَقْرًا	وَتَسْمَعُ كَلَامَ الصُّوفِيَّةِ
أَعْرَضَ عَنِ النَّفْسِ الْعَرًّا	هَاكَ اللَّئِيمَةَ الْمُخْزِيَّةِ

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف...، ص 339 - 349 (نحن نترجم).

وَأَصُمْتُ لَسَانِكَ عَنْ هَدْرَةٍ لَا تُكْمِرُ الْهَدْرَ وَرَئِيهِ
 وَشَكَّمُ غَرِيزَةَ الْهَدْرَةِ نَفْسِ الْبَلَاوِي الْبِدْعِيَّةِ
 وَأَخْلَصُ أَعْمَالِكَ لِتَدْرَا بُحْسِنِ الْعَقِيدَةَ وَالتَّيَّةِ
 وَادْخُلْ مَعَانَا لِلْحَضْرَةِ تَنْجَحُ وَتُظْهِرُ بِضْوِيَّةِ
 وَكِي شِعْرِي يَا ابْنَ الْعَرَا عَلَى الْعَقِيدَةِ السَّنُوسِيَّةِ¹
 صَحَّحَ إِيْمَانِكَ وَأَقْرَأَ فِي النَّحْوِ وَكَذَا الْأَلْفِيَّةِ
 وَأَحْفَظُ مَوَازِينَ الشُّعْرَا وَعِلْمِ الْعَرُوضِ بِالْكُلِّيَّةِ
 وَمُخْتَصِرِ خَلِيلٍ وَأَشْرَاحِهِ وَالشُّحْفَةَ [زَيْدٍ] اللَّامِيَّةِ²
 وَشَكَّمُ غَرِيزَةَ الْمُقْبَاحَةِ نَفْسِ الشَّهَاوِي الْغَرِيَّةِ
 الصَّمْتُ رَاهُو الرَّاحَةِ وَالصَّبْرَ أَصْلَ الْجُمْلِيَّةِ
 سَبْعَةَ آلَافٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الصَّمْتِ قَالُوا السُّنِّيَّةِ
 وَإِذَا وَجِبَ نُطْقُكَ فَاصْدَعْ وَالصَّمْتُ مَرَاتٍ رُزِيَّةِ
 مَحَلَّ الْكَلَامِ انْطِقْ وَاصْدَعْ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ بِالتَّيَّةِ

1 العقيدة السنوسية كانت تدرّس في جامع الزيتونة.

2 ما بين [.] أضيفناه لاستقامة الوزن. وقد ذكر الشيخ في هذه الأبيات "العقيدة السنوسية" وقد كانت تدرس بجامع الزيتونة مع "اللفية بن مالك" لمحمد بن مالك في النحو و"مختصر خليل" في الفقه "تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام" المعروف بـ"العاصمية" للقاضي محمد بن عاصم الغرناطي. واللامية هي "لامية الزقاق" أو الزقاقية التي ألفها القاضي علي بن قاسم بن محمد التجيبي الفاسي المشهور بالزقاق، وقد أخذ عن أبي عبد الله القوري والإمام المواق وغيرهما من شيوخ فاس وسافر إلى غرناطة وأخذ بها وتوفي عن سن عالية في شوال سنة عشر وتسعمائة للهجرة له تفتن في علوم عديدة وألف منظومة في القواعد وتقييد على مختصر خليل ولامية في الأحكام المعروفة بالزقاقية أو "لامية الزقاق" وهي قصيدة لامية من البحر الطويل تضم نيف وستين ومائتي بيت، من شراحها الشيخ التاودي ومطلعها:

ثنائي على المولى أقدم أولاً * ولكن لا أحصي ثناء، فذو العُلا،
 تعالى كما أثنى (عليه) وبعده * على أحمد الهادي صلاتي على الولا؛
 وآله والزوجات والصحب ثم من * تلاهم بإحسان إلى يوم الإبتلاء؛
 وبعد فمن في الدين فُقه مجتبي * مُرادُ به خير وللرشد أهلاً.

وقد تكون لامية بن الوردی (اغترل ذكر الأغاني والغزل * وقل الفصل وجانب من هزل) أو لامية العرب للشنفری (أقيموا بني أمي صدور مطيكم * فإني إلى قوم سواكم لأميل).

بَالِكْ تُنْكَرُ وَتُشَنِّعُ بِكَلَامِ مَا لَيْلُهُ زِيَّةٌ
وَالْتَفْسُ حَوَانَةٌ تَفْرَعُ فَأَتْرُكُ هَوَاهَا الْمِدْعِيَّةُ
فَرَوْضُ بُقْلِيكَ لِلْأَجْمَعِ أَهْلُ الْجِنَانِ الْعَلِيَّةِ
يَا فِئْتِيهِ سَلِّمْ وَاسْمَعْ لَا تَتَعَرَّضْ لِلصُّوفِيَّةِ

وهكذا نجد هذا الحل الذي اقترحه الشيخ لكف النزاع دون التراجع عن الدفاع المستميت عن الطريقة، ولعل ذلك ما جعل أهل السنة يوصون بعدم التدخل في أعمال الصوفية في غير مفهوم، ولكن بالتسليم لهم فيما هم عليه دون تشنيع.

والطريقة معروفة بالبحور والشطحات وهي طريقة ذكر، وشيخ العمل بها يقال له "الزمزام" وأصحابه "الزمزامة" وغالب ألقابهم طرابلسية في لهجة "الحامدي" (نسبة إلى الأحامد) وهي مثل "العرضاوي" (نسبة إلى الأعراض) لهجة خاصة في شمال ليبيا وجنوب تونس.

وأصول الطريقة هي مجموعة في سفائن (سفينة) تشتمل على التراث المدون من جملة أدعية تضمنتها أحزاب الشيخ ووظائفه وبحوره:

فالحزب: هو مجموعة الأدعية التي يؤلفها أحد الشيوخ البارزين مثل سيدي عبد السلام الذي له أربعة أحزاب: الحزب الكبير وحزب الخوف وحزب الطمس وأشهرها حزب الفلاح.

والوظيفة: هي ما يقدر من عمل وتكون نصا نثريا يحتوي على تلاوة بعض السور من القرآن الكريم وتسابيح وأدعية واعتراف بعظمة الله.

والبحر: هو أشعار بالملحون تدور حول الوعظ والتنفير من ملذات الدنيا ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتوسل به وبالأنبياء والأولياء وطلب العفو والمغفرة وذكر الله وتمجيده وتوحيده وذكر فضائل شيخ الطريقة. وتتضمن كذلك أدعية على الظلمة والتصابي والوجد والهيام والعشق والوصف والحماسة واستنهاض الهمم والشكوى والتفجع. والأشعار المنسوبة إلى الشيخ عبد السلام الأسمر تسمى بحورا وما قاله سواه

فهي إما مجور أو صنائع.

طريقة العمل: في أول أمرهم كانوا يقومون بعملهم وقوفا على نقر الدفوف مع ترتيب معين، ثم دخلت على ذلك تحسينات بمدينة القيروان بإدخال الطار والنفارات وصارت طريقة العمل جلوسا، كما كانوا في القيروان يجعلون في الحلقة أطفالا صغارا لإحداث الأصوات الحادة النسائية قصد إحداث تأثير حسن للسامعين من جهة ولتمرين هؤلاء الأطفال ليأخذوا المشعل من بعدهم. وتنقسم العناصر الفنية للطريقة السلامية على قسمين:

قسم غير غنائي: تلاوة الفاتحة وقراءة أحد الأحزاب بدون ألحان ومنها حزب الفلاح والوظيفة.

القسم الغنائي: ينطلق من:

السلسلة الذهبية في بحر الرجز على طبع الحسين ومطلعها:

يَقُولُ رَاجِي الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ عَبْدُ السَّلَامِ بْنِ سُلَيْمِ الْفَاقِي
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَاجْتَبَانَا

فيذكر سلسلة إسناده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وينهيها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التَّامُّ عَلَى الْعَدْنَانِي سَيِّدِ الْأَنَامِ
مَا عَرَدَتْ قُمْرِيَّةٌ بِكَيْيَّةٍ وَصَدَحَتْ بِصَوْتِهَا عَشِيَّةً
قَدِ انْتَهَتْ مَنْظُومَةٌ عَلَى الْمُرَادِ أَنْبِيَاءُهَا سَبَعٌ وَتَسْعِينَ خُذْ بِالْعَدَادِ

وقد أتمّ نظمها كما ذكر في أحد الأبيات في شهر شعبان من سنة 979، ويظهر من ذلك أن القصيدة وإن كانت موزونة فإن صاحبها لا يحترم البحر إن ضاق به عن إتمام المراد فنراه يزيد حسب الحاجة كالبيت الأخير مثلا أو البيت الذي ضمنه التاريخ وهو:

فِي شَهْرِ شَعْبَانَ تَمَّامٌ نَظْمُهَا فِي عَامِ 979 فَكُنْ مُنْتَبَهَا

ويقال إن واضع ألحان السلسلة هو الشيخ محمد بن سليمان وهناك من يعزوها إلى الشيخ حمدة التركي والأرجح هو الأول، وأحيانا تنشده ضمن السلسلة الذهبية كتطريز لها (الهلالو) (في مقام الرهاوي) وهي:

وَهَلَّلُوا وَكَبَّرُوا تَكْبِيرًا صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ كَثِيرًا

ثم تأتي سلسلة الفزوع وهي في الاستغاثة بالأولياء الصالحين وهي فسيم يشتمل على ثمانمائة بيت يبدأ بطبع الذيل ثم يدخل في عدة طبوع تتناغم مع الذيل ثم يرجع إلى الذيل: ومنها:

يَا طَيِّبِ الْأَنْفَاسِ بِالدَّوَاءِ دَاوِينِي

يَا مُثَبِّتِ الْأَعْرَاسِ ثَبِّتْنِي عَلَى دِينِي

بُحْرْمَةُ طَيِّبِ الْأَنْفَاسِ يَا كَرِيمَ أَهْدِينِي

.....

يَا مُهَوِّنَ الْأَسْبَابِ الْعَفْوِ يَا رَبِّي

ويتخلل فصول السلسلة: ارتجال بعض القصائد، ثم ينشدون أختام سلسلة الفزوع ومنها:

نَعْرَةَ يَا سَيِّدِي الْفَاسِي مَا تَفَرَّغْ لِي الرَّجَالَةَ

بَابَا عِمْرَانَ وَسَائِي سُورَ يَعْدُونِي دَالَةَ

يَذْهَبُ عَنِّي الْوَسْوَاسِ وَهُوَ النَّفْسِ الْخِتَالَةَ

ثم تأتي التصليية: يقوم المنشدون بترديد (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ) مع قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على لحن بسيط وسريع يتركب من درجتين ثم تُتلى الفاتحة ثم يأتي إنشاد البحور فبحور طرابلسي على الطريقة الليبية وحامدي على طريقة قبيلة الحواميد، والسفاين على ما ذكره السادة شيخ السلامة بقربة الشيخ يدعس والصادق الرزفي في (الأغاني التونسية) ومحمد مخلوف في (تنقيح روضة الأزهار) وعمارة بشير شيخ السلامة بالمنستير وكذلك الشيخ العروسي بن خميس التركي

ومحمد الزيتوني الضرير الففصي.

ثم تأتي البحور والشطحات والأختام والتهليلات. والبحر هو الشعر الذي قاله الشيخ عبد السلام الأسمر وكذلك بعض البحور من تأليف أتباعه وقد جمعوها في سفارين منها سفينة البحور التي طبعها على العسلي على ذمته بتونس العاصمة.

ثم الصنایع: وهي قصائد أو كلمات توضع على لحن معروف من الألحان المتداولة سواء من الأغاني أو الموشحات، ويقول الشيخ عز الدين بن محمود السلامي أن الصنایع ابتكرها في الأصل جماعة بنزرت السّلاميين. والصنایع باب مفتوح للاجتهد لدى كل فرقة، فتأخذ لحناً من الألحان الطربية المنتشرة بالساحة الفتيّة، وتنسج عليه كلمات مثل:

(يا كحلا يا بنت عتي ما أحلاك الله ينصر سيدي سعد باباك)

فتصبح:

(يا كعبة يا بيت ربي ما ابهاك يرحم سيدنا الخليل اللي بناك)

القوالب اللحنية: لحنّت أغلب البحور السلامية في الطبع التونسي أو اللهجات التراثية المحليّة كالحامدي والطرابلسي والعرضاوي والصالحى والمحيرّ عراق والمحير سيكاه والسعداوي، والبحور التي لحنّت في اللهجات الشعبية أكثر بكثير من التي لحنّت في الطبع التقليديّة التي لحنّ عليها المألوف غير ما هو موجود بالسلسلة الذهبية أو سلسلة الفروع.

أما الإيقاعات: فأهم إيقاع تقليدي هو دخول براول 4من 4 كما في (صلّى عليك ربي) و(أهلا وسهلا). وأهم إيقاع شعبي هو إيقاع سعداوي 12 من 8 كما في بحور (يا بن مراد) (يا سيدي منصور) (يا لائي في شوق المحبوب) و(قلبي ما يحب اللّوآص)، و(باسم الكريم عظيم الشان). ويشتمل الهيكل اللحنى في بحور السلامية على جملة موسيقية رئيسية ينشدها شيخ الفرقة ويعيدها المنشدون ثم تعاد مختلف أبيات البحر بتصريف بسيط وارتجال موزون، كما هناك بعض البحور الخالية من التريديّة وتسمّى المشاركة فينشدها عدّة أفراد كبحر (بالله يا خيالة).

الشطحة: هي مقطوعة تنشد مباشرة بعد البحر على إيقاع أسرع أي إذا كان البحر

في وزن السعداوي تكون الشطحة في وزن البرول (أي من 12 من 8 إلى 2 من 4).

الختم: هو مقطوعة تلي الشطحة على إيقاع برول سريع أي أسرع من الشطحة حتى يمكن أن تكون 2 من 4.

التهليلة: جملة موسيقية بسيطة في إيقاع سريع (برول أو ختم) تنشد على اسم الجلالة. وكلمة تهليلة مشتقة من اسم (الله) وتسمى أيضا جدبة: (جذبة) وهي أسرع مقطوعة في الوصلة. ويوكل تحديد مضمون الحفل إلى الزمام (شيخ العمل المسؤول الفني على جماعة المنشدين).

البحور: مكتوبة باللهجة العامية التونسية أو الطرابلسية في نوع القسيم والقسيم المثلث والموقف والمسند والملزومة¹.

الرقص: هناك بعض السلاميين من يتخمر أثناء الإنشاد وهو نادر جدًا ويقول الصادق الرزفي:.... لكنّ الذين يرقصون يعمدون إلى خلع ثيابهم ويبقون بأجساد عارية إلا من السراويل والحبة على اللحم فيأخذ الراقص لفة من الحلفاء فيشعلها ويدخلها تحت جبّته ويرقص رقصا مفرطا في حالة جنون ولا يحترق لا هو ولا الحبة وقد يلحس قطعاً حديدية محماة، وقد يلحسها ويكوي بها بعض المرضى، وقد يحرقون الجريد، ولكل نوع من الرقص نوبة خاصّة من الغناء.

وحكى لنا الشيخ عمارة بشير شيخ السلامية بالمنستير، وصححنا عنه لدى السيد ناجي الزغيدي المقيّد، كما أرشدنا إلى جماعة حضروا الحفل منهم الشيخ محمد بسباس والمرحوم عبد السلام حليلة وهما من شيوخ السلامية وغيرهما: أنه لما كان شابًا يافعا لعب مرّة كثيرا وإثرها مرض مرضا عضالا طال به أشهرًا، فهزل وتوقع أهله موته، وأقبل إلى الزاوية السلامية بجيهم حومة الطرابلسية بالمنستير، أحد الفواتير من زليطن،

1 القسيم في الشعر الشعبي هو قصيد بمصراعين أشطاره الأولى متحدة القافية وليس له طالع ولا مكب. وهو زيادة في إحكام الزجل الموحد القافية في العجز. والقسيم المثلث يتركب من ثلاثة أغصان الأوسط فيها مفطوف (ناقص) ويتحد الأول والثاني في القافية ويخالفهما الثالث الذي يكون متحدا مع ثالث الأغصان في البيت الموالي. والموقف مربع ثلاثة أشطاره الأولى متحدة القافية والرابع مختلف ويتحد مع الرابع في البيت الموالي. والمسند، سداسي الأغصان، والملزومة لها طالع من غصنين إلى أربعة وأبيات مربعة أو مسدسة تنتهي بمكب وهو قافية الطالع للرجوع. وهذه مجرد أشكال أما مضامينها فلها تراكيب خاصة من حيث الأغراض والتخلصات.

فأقيمت حضرة، قال: "فأخذني أخي الأكبر للترويح عن النفس وطمعا أن أجد رقية عند هذا الفيتوري، قال: فقام أحدهم ينقر البندير وهذا الفيتوري وراءه في شطح عجيب، ثم أخرج سكيننا طول نصله يصل إلى نصف الذراع أو يفوق فغرسه في بطنه ثم تقدم إلى الشيخ العمدة وكان رجلا قويا بدينا، قال: فأخذ الشيخ مقبض السكين وجذب ليقبله من مكانه فما استطاع لذلك سبيلا وسقط على الأرض من الإعياء، قال: ثم أخذ مفتولا وهي قطعة نسيج تطوى كالعصا وتُشرب الزيت قال: فأشعلها وأخذ يبتلعها وقد رأيت حلقه يضيء من داخل، قال: ثم حمّاه حديدة حتى احمرّت فأخذ يلحسها بلسانه وفمه وصوت النشيش يطبق الأذان ولم يحترق لسانه، وجرب ذلك على أحد الحاضرين¹. قال: فقدموني له، فأضجعي على ظهري ونزع ثيابي وأخذ يمص جلدي بفمه من جهة بطني وسرتي، ويتفل دما عبيطا بلغ قرابة الربع لتر حتى أخرج حصة كأنها قطعة حلوى، قال: فلما رجعت إلى المنزل وكأني نشطت من عقال، جربت النوم على جنبي الذي كان يؤلمني، فلم يؤلمني فانتفضت به انتفاضا فلم يؤلمني، فصحت في الظلمة معلما أي بأبي برئت، فخافت المسكينة أن يكونوا فعلوا بي شيئا، فأوقدت السراج وجعلت تقلّبي وتفتحصني فلم تجد ما يريب، فأطفأنا السراج ونمنا وها أنا أمامك قد بلغت الشيخوخة وأنا صحيح معافى". وما كان لنا أن نصدّق مثل هذا، ولكن تواتر الرواية يجعلك لا تشك في صحّة الخبر، بعد التصحيح لدى من حضر.

وهناك طريقتان في العمل:

في الميعاد بالزاوية: تكون البداية بالسلسلة الذهبية كما صرح به الشيخ عمارة بشير وذكره الأستاذ الفتحي زغندة، ثم يتخلّص منها إلى سلسلة الفزوع، ثم بعض الارتجال، ثم يقع ختم سلسلة الفزوع، ثم إنشاد التصليّة ثم يدخل في البحور والشطحات والأختام والتهليلات. فمن هذه البحور بحر:

(يَا شَيْخِي الْأَسْمَرَ يَا ابْنَ الدُّرْعِيَّةِ نَادَيْتُكَ تَحْضُرُ تَأْخُذُ بِيَدَيَّ)

أو: (أَنَا عُرُوسِي بَحْرِي زَلَالَهُ عَطَانِي رَيِّي جَلَالَهُ)

1 ذكر كوبولاني أن السلامية بطرابلس مثل العيساوية بالمغرب والبوعلية بتونس يمارسون ألعاب الرفاعية (الطوائف...)، ص 159).

أو: (أنا الأسمر سري ظاهر) وأنا سقاني بو الأسترار
 أنا غروسي بحري زاخر يا ويح من جاني الثيار
 أو: (يا بن غروس ماك غوث الأنام * بحر اللثام * مولى المكارم والحجر وظام)
 أو: (يا بن غروس شكيت لك با حوالي * عاري عليك * راني قليل الوالي

*** **

يا بن غروس شكيت لك تحميني يا ندهة المضيم كون عويني
 نبغيك يا سيد الرجال تحميني وتسقي فقيرك من شراب زلاي

*** **

يا بن غروس شكيت لك تضرني ما صبت في المخلوق من يعذرنني
 حالي مكدر والزمان فهزني والدمع يسكب على الحدود همالي

*** **

يا عالم الأسرار ثوب علي توبة نضوحه باهية ونقية
 وافض الحقوق اللي بقات علي من رحمتك يا واسع الأفضال

صلوا على المختار بابا الزهرا والال والأصحاب أهل النضرة
 على قد ما قطعوا رقاب الكفرة بمدح النبي نزي المقام العالي

وفي نهاية السهرة يقول شيخ الحضرة (الحنمة) في نوع الموقف :

شرفتمونا يا كرام أترتموا هذا المقام

أبقاكم رب الأنام ممتعين بالتعم

ويردد الحاضرون (أمين أمين أمين) وتنشد هذه الأبيات التالية في طبع (المائة) وهو

آخر الطبوع في ترتيب المقامات التونسية في ترتيب الإنشاد، ويكون الوقت آنذاك قد طلع الصباح فيقول أحد المنشدين:

الصَّبَاحُ أَنْشَرَ أَعْلَامَهُ وَبَدَا لَوْنُهُ شَرِيقُ
سَادَتِي ائْبُقُوا بِالسَّلَامَةِ وَالْهَنَا وَالْعَافِيَةِ

وفي النهاية يردد الحاضرون ثلاث مرات: (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله). في المنازل: تكون البداية بالعادة (بسم الله (7 مرات)، والحمد لله (7مرات) وبجاء رسول الله)، وعند الدخول إلى المنزل (قال ربِّي فادخلوها بسلام آميناً) ثم تذكر الجماعة في طبقة (قرار) (الله دايم حي) وينطلق أحد المنشدين في طبقة (جواب) بتقصيد عدّة أبيات مثل (العروبيات أي مواويل) من شكل:

يَا لَأَيْمِي بَطَّلِي اللُّومُ حَايَّرْتُ عَلَيَّ الْمَوَاجِعُ
وَأَنَا بَجْبَبِ النَّيِّ مَعْرُومُ هَيْهَاتَ مَا نَيْشُ رَاجِعُ

أو:

يَا رَبِّي أَنْتِ رَجَايَا وَلَا لِي سُنْدٌ غَيْرَ بَابِكِ
مِنَ النَّارِ تُنَجِّي عَضَايَا وَتُسَبِّلُ عَلَيَّ حُجَابَكَ

ثم ينشدون: (الله الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله الملك الحق المبين، لا إله إلا الله أرحم الراحمين)

لحد هذه الأبيات لا يزالون وقوفاً، ثم تقرأ الفاتحة وقوفاً ويجلسون.

وروي لنا أنه قبل سنة 1950م، كانوا يجعلون نصف الليل الأول للمولدية وتعطيراتها والموشحات، والنصف الثاني للبحور والشطحات أي دخول آلات الإيقاع إلى مطلع الفجر.

1 في الأغاني للصادق الرزفي نجد ختم نوبة المائة ص 238 تذكر البيت عل هذا الشكل:
ختم: بيت: الصَّبَاحُ أَنْشَرَ أَعْلَامَهُ * وَبَدَا لَوْنُهُ شَرِيقُ * وَالظَّلَامُ جَرَّدُ حُسَامِهِ * زَادَ فِي قَلْبِي حَرِيقُ
والمليخ جَدَّدُ غَرَامِهِ حَدَّهُ بِحُكِّي الْعَقِيقِ
طالع: المَلِيخُ فِي حَدِّ سَامِهِ * كَالْمُسُوكِ الْعَالِيَةِ * سَادَتِي ائْبُقُوا بِالسَّلَامَةِ * وَالْهَنَا وَالْعَافِيَةِ

وعندما يجلسون يقرؤون الفاتحة، ثم ينشدون المولدية (مولد البرزنجي) وتتخللها تعطيرة الشيخ الفران في مقام البياتي: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ) فينفلت المنشد عن طريقها ليقول توشيحاً أو قصيدة أو صنعة ويحوم ويحوم ثم يرجع إلى المولدية لإتمامها. وأصبحت المولدية الآن تنشد التعطيرات في الطبوع التونسية منذ 1970 م.

أما الجاري به العمل الآن، فقد انفرط عقد هذا النظام وأصبح المنطلق هو قراءة الفاتحة ثم التخلّص مباشرة إلى بعض البحور ثم الدخول في الصنائع وهي ابتكارات على تلاحين الغناء غير الصوفي الموجود في الساحة الغنائية، وينطلق ذلك من الإيقاعات الهادئة إلى الإيقاعات الأسرع، ولعل الغرض الوحيد هو تمكين الناس من فرصة الرقص والتنفيس الوجداني عن كوابت النفس، فيكون بذلك تنفيسا لها.

في الجنائز: بعد غسل الميت وتلاوة القرآن عليه وهو بفراشه قبل الخروج به يدخل جماعة السلامية أو القراء أنفسهم إن اتبعوا الطريقة، فيبدؤون بهذه القطعة من حزب التوسّل للإمام أبي الحسن الشاذلي بتغيير البيت الثالث²، وهي من البحر الكامل مع ترديدة (الله الله اللّهُمَّ صل عليه) عند كل شطر على نفس قريب من المحيّر سيكاه:

(اللَّهُ عَظَّمَ قَدْرَ جَاهِ مُحَمَّدٍ وَأَنَالَهُ فَضْلًا لَدَيْهِ عَظِيمًا

فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ قَالَ لِحَلْقِهِ صَلَّى عَلَيهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

وَإِذَا سَمِعْتُمْ ذِكْرَهُ فِي مَجْلِسٍ صَلَّى عَلَيهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

ثم هذه الأبيات من البحر الطويل : وقد يقولونها في نغمة العراق:

لَكَ الْحَمْدُ يَا مُسْتَوْجِبَ الْحَمْدِ دَائِمًا عَلَى كُلِّ حَالٍ حَمْدٌ فَإِنْ لِدَائِمِ

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ تَسْبِيحٌ شَاكِرٍ لِمَعْرُوفِكَ الْمَعْرُوفِ يَا دَا الْمَرَا حِمِ

إِلَهِي بِحَقِّ الْمُصْطَفَى اغْفِرْ ذُنُوبَنَا وَخَفِّفْ عَنِ الْعَاصِيْنَ ثِقْلَ الْمَائِمِ

فَجُودِكَ مَوْجُودٌ وَقَضْلُكَ دَائِمٌ وَأَنْتَ الَّذِي يُرْجَى لِكَشْفِ الْعَظَائِمِ

1 ننقل هنا ما نسمعه مباشرة من قرّاء مدينة المنستير وفرقهم السلامية.

2 البيت الثالث في أصله: (يَا أَيُّهَا الرَّاجِينَ مِنْهُ شَفَاعَةٌ صَلَّى عَلَيهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا)

أوهذين البيتين في العراق أيضا:

لَوَكَّانَتِ الدُّنْيَا تَدْوُمُ لَأَهْلِهَا لَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ حَيًّا وَبَاقِيَا
لَكِنَّهَا تَفْتَى وَيَفْتَى نَعِيمُهَا وَلَا يَبْقَى لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى

ثم ينشد هذا البيت:

شَفِيعُ المُذْنِبِينَ * صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى الهَادِي نَبِينَا * خِتَامُ الأنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ

ثم يدخلون في بحر أو اثنين مثل هذا المسدس الأليف في مقام الرهاوي¹:

يَا عَافِلِينَ عَنِ ذِكْرِ القَوْلِ
صَلُّوا اجْمَعِينَ عَلَى الرَّسُولِ
طَهَّ نَبِينَا تَاجَ العُدُولِ

*** **

أَنَا رَحْمَةً شَفِيعُ الأُمَّةِ
خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمَّه مَكْحَلٌ مَخْتُونُ
قَلْبِهِ وَجِسْمِهِ مِ الكَوْتَرِ مَغْسُولِ

*** **

بَدْرُ البِدَايَةِ مَوْلَى العَنَايَةِ
مَبْعُوثِ نُهَايَةِ آخِرِ مَرْسُولِ
قَبْلَ البِدَايَةِ إِسْمُهُ مَنْزُولِ

*** **

تَوْبَةَ العَاصِي فِي حُسْنِ خُلَاصِ
صَايِحِ وَمَاسِي بِهَا مَشْغُولِ

1 المسدس الأليف ما ترتبت أبياته على ترتيب حروف الهجاء وهي ترتب على نحو، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ط، ظ، ل، م، ن، ص، ض، ع، غ، ف، ق، س، ش، هـ، و، لا، ي) لا كما هو متعارف اليوم عندنا.

أَحْمَدُ خَلَاصِي يَوْمَ الْوُحُولِ

*** **

ثَبَّتْ لِسْتَانِي عِنْدَ النَّزْعَانِ
بِاسْمِ الْوَحْدَانِي نُنْطَقُ بِالْقَوْلِ
آخِرُ خَتْمَانِي وَأَنَا مَسْبُولِ

*** **

جَاؤَنِي أَحْبَابِي الْأَمْلاكَ اصْحَابِي
تَقْرَأُ كِتَابِي عِنْدَ الْحُلُولِ
نَلْبِسُ ثِيَابِي بَعْدَ الْعُسُولِ

*** **

حُفْرَةَ مَا اشْيَيْنَهَا لَاهَرَبَةَ مِنْهَا
نُموْتُ وَنُسَكُنُهَا آشِ الْمَفْعُولِ؟
نَفْسِي نِدْفِينَهَا فَرَضًا هُوَ الْأَوْلُ

*** **

خَايِفٌ مِنْ قَبْرِي خَايِرٌ فِي أَمْرِي
يَا قَلَّةَ صَبْرِي سَاقِ الْمَرْحُولِ
عَازِمٌ مَا نِدْرِي أَيَّنَ النَّزُولِ

*** **

دَارُوا لِي نَاسِي فِي حُسْنِ لُبَاسِي
قَاصِدُ الْأَرْمَاسِ وَأَنَا تَحْمُولِ
لِلْقَبْرِ قِيَاسِي عُرْضًا وَظُولِ

*** **

ذَكُرُوا مَوْلَانَا قَصِدُوا الْجِبَانَةَ
سَارُوا بِكُهَانَةِ وَالِدَمْعِ هُطُولُ
صَلَاؤًا وَرَأَانَا عَاصِي وَمَقْبُولُ

*** **

رَوَّحْتَ لِلْحَدِيدِ وَسَكُنْتَ وَحْدِي
جَاهِي وَجُهْدِي مَيِّ مَعَزُولُ
عَبِيدِكَ مُبْدِي فَقِيرَ مَذْلُولُ

*** **

رَاهُوا ذُنْيَاهُمْ نَاسِينَ قُرْبَاهُمْ
مِنْ بَعْدِ بُكَاهُمْ لِشَمَامِ الْحَوْلُ
اللَّهُ نَسَاهُمْ حُسْنَى الْجُهُولُ

*** **

طُولِ الزَّمَانِ تَفَى الْأَكْوَانِ
الْإِنْسِ مَعَ الْجَانِ مَا يَبْقَى زُولُ
حَتَّى الشَّيْطَانِ آخِرَ مَقْتُولُ

*** **

ظَاوِي جَبِينَهُ أَحْمَدُ نَبِينَنَا
هُوَ يَشْفَعُ فِيْنَا فِي يَوْمِ الْهَوْلِ
مِنْ حَوْضِهِ يَرْوِينَا مَاءً زُلُولُ

الخ... ثم بحر آخر مثل:

وَيَا مَا لَيْسَنَا مِنْ لُبَاسِ زَهِيْفٍ	يَا مَا سَكُنَّا مِنْ مَسَاكِنِ عَالِيَةِ
وَمَاذَا عَدَيْتَنَا مِنْ رَبِيعٍ وَصِيْفٍ	وَيَا مَا كَسِبْنَا مِنْ مَخَازِنِ مَالِيَةِ
مِنْ بَعْدِ الْعَلَّةِ فِي عَقَابِ خَرِيْفٍ	حَالِ بِنَادِمٍ فِي مَثِيْلِ الدَّالِيَةِ
وَمَا كَانَ فِيهَا قُوِي صَارِ ضَعِيْفٍ	تُزْعِمُ الأَوْرَاقُ وَصَارَتْ جَالِيَةِ
الْإِنْسَانَ فِيهَا فِي مَثِيْلِ الضَّيْفِ	أَفْ عَلَى الدُّنْيَا الْمُسْوَمَةِ الْفَانِيَةِ
وَاقْدَمِ عَلَى رَبِّكَ بُوْجِهِ نَظِيْفٍ	إِخْدِمِ لِلدَّارِ الدَّائِمَةِ الْمُتَسَوِّلِيَةِ
وَقُصُورِ وَخَلَاعَاتِ وَتَكَالِيْفِ	حُورِ الْعِيْنِ مَعْمَرَةَ وَمُتَجَالِيَةِ
وَنُحْتِمِ بِالصَّلَاةِ عَلَى الشَّرِيْفِ	هَذِي مَعَانِي كَمَا الْجَوَاهِرِ عَالِيَةِ

ثم يختمون بهذا البحر في إيقاع سريع:

أَنَا خَاطِرِي حَيْرَانِي	يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ الْبَشَرِ
وَجَاوِنِي الْمَلَكَانِ	كَيْفَ حَالِي حِينَ دُخُولِي لِلْقَبْرِ
عَنْكَ يَا سُلْطَنِي	يَسْأَلَانِ هَكَذَا صَحَّ الْخَبْرُ
وَإِنِطْفِئُ بِالْبَيَانِ	يَا خَالِقِي أَحْفَظْ لِسَانِي مِنْ كُلِّ شَرِّ
وَكُلُّ شَيْءٍ قَانِي	يَشْهَدُ بِأَنَّ اللَّهَ بَاقِي مُسْتَمِرُّ
أَرْسَلَهُ الْوَحْدَانِي	وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ خَيْرُ الْبَشَرِ
دَلِيلُهُ قُرْآنِي	صَادَقَ مُصَدِّقٌ بِالِدَلِيلِ مُشْتَهَرُ

يَوْمَ الْعَرَقِ طَوْفَانِي	إِرْحَمْ خَدِيمِكَ يَا سَيِّدِي مِنَ الْكَدَرِ
فِعْلَهَا بِالْبَيَانِ	يَوْمَ تَلْقَى كُلُّ نَفْسٍ مُخْتَضِرُ

مَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَيُطِيعَ سَيِّدَ الْبَشَرِ فَارْ يَا الْإِخْوَانِي
 مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ الْكَرِيمَ الْمُقْتَدِرَ يُجَارِيهِ بِالْإِحْسَانِ
 مَنْ يُحِبُّ الْمُصْطَفَى يَا مَنْ حَضَرَ يُجَاوِرُهُ فِي الْجَنَانِ
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا خَيْرَ الْبَشَرِ الْمَالِكِ الْوَحْدَانِي

إلخ.... ثم يقرؤون الوظيفة حتى يختموها بقول أحدهم (ختمت يا بن عروس ختمت)
 وقد يأتون بعدها بألفية أي ألف (لا إله إلا الله) حتى يأتي وقت خروج الجنازة، فتخرج
 ويضعونها في باحة الدار أو أمامها فتقرأ الحاضرة بعد ذكر الجلالة (الله الله لا إله إلا الله)
 يقول الشيخ: من البحر البسيط في طبع النوى ارتجالاً في شكل العروبي فيقول الصدر
 ويردّ الجماعة بالعجز في نفس الطبع:

إِنِّي عَلَى الْعَهْدِ لَا أَنْسَاكُمْ أَبَدًا وَكَيْفَ أَنْسَاكُمْ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ
 أَوْرُثْتُمُونِي بِجَمِيلٍ لَسْتُ أَنْكِرُهُ مَا دُمْتُ حَيًّا فَلَا أَنْسَى بِجَمِيلِكُمْ
 وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ فِي الْجِسْمِ جَارِحَةٌ إِلَّا وَفِيهَا لِطُولِ الدَّهْرِ ذِكْرُكُمْ
 عَيْنَ الزَّمَانِ أَصَابْتَنِي بِنَظَرَتِهَا وَمَنْ يَأْتِيكُمْ خَلَاصًا مِنْ عَيْنِ الزَّمَانِ
 حَالَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ كَمَا حَالَ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ الْقَبْرُ

ثم من مجزوء الكامل في طبع النوى أيضا:

أَلْمَوْتُ أَفَنَى مَنْ مَضَى وَالْمَوْتُ يُفْنِي مَنْ بَقِيَ
 وَالْمَوْتُ يَجْمَعُ فِي التَّرَى بَيْنَ الْمُنْعَمِ وَالشَّقِيِّ
 وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْجَزَا فَمَا سَبَقَتْ تَلْتَقِي
 يَا مَنْ أَسَا فِيمَا مَضَى كُنْ مُحْسِنًا فِيمَا بَقِيَ
 وَاعْمَلْ لِتَفْسِكَ صَالِحًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَلْتَقِي

ثم من الكامل التام كذلك في طبع النوى:

أَمْسَيْتَ صَيِّفَ اللَّهِ فِي دَارِ الْبَقَا وَعَلَى الْمُلُوكِ ضِيَاةَ الضِّيْفَانِ

هُمْ يُكْرِمُونَ النَّاسَ عِنْدَ نُزُولِهِمْ كَيْفَ التَّزْيِيلِ بِسَاحَةِ الرَّحْمَانِ
مَا تَمَّ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ مَخْلُودٌ إِلَّا إِلَهُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَاثِي
أَفْنَى الْخَلَائِقِ كُلِّهَا سُبْحَانَهُ وَلَمْ يَزَلْ فِي مُلْكِهِ وَحْدَانِي

وهي أبيات شعرية مختلفة الأوزان، في ذكر الموت وتختتم هذه الحاضرة بالدعاء للميت وأواخر سورة الحشر: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.. إلخ.. الخ السورة). وذكروا لي أن الجنازة كانت تتبع بنوع من الأذكار من جملتها:

رَحْمَانُ يَا رَحْمَانُ هَذَا عَبْدُكَ وَالْيَوْمُ يَا رَحْمَانُ طَالِبُ فَضْلِكَ

ثم حذف ذلك وأصبح موكب الجنازة يمشي صامتا إلى المقبرة، ولم أعر على من يذكر لي تلك الأذكار بدقة.

الطريقة الناصرية

نسبة إلى صاحب الكرامات محمد بن الناصر الدرعي

الشيخ المؤسس: هو العالم الرباني الشهير محمد بن الناصر الدرعي¹، كان داعية متحمّساً للتعالم الروحية الشاذلية، وقد انتشرت عن طريق أستاذه الروحي الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الذي يرجع انتماءه الصوفي إلى طريق عبد الله بن الحسن الرضي وعلي بن عبد الله أحمد ابن علي الحاج الدرعي وأبي سالم التازي، وذاع صيت هذه الشخصية الدينية ذات الولاية والكرامات الخارقة في كامل الجنوب المغربي والسودان الغربي، واعترفت به كل الطوائف الفرعية للشاذلية كأستاذ كامل لا مثيل له صاحب المناقب والكرامات التي تساهم في إسعاد أتباع. وتوفي محمد بن الناصر الدرعي بتمغروت بوادي الذراع وترك ذرية كثيرة وآلاف الأتباع.

أخبار الطريقة: هي إحدى الطوائف الهامة التي أسسها تلاميذ الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، وقد التف أتباعها حول ضريح أستاذهم الشيخ محمد بن الناصر الدرعي، وأسّسوا زوايا باسمه حيث أصبحت زاوية تمغروت الزاوية الأم للطريقة وشعت بأنوارها على كامل المملكة المغربية والجزائر وتونس، ومن ورثة شيخ الناصرية نجد عدّة رجال مشهورين في الحركة التجارية من "أغادير" إلى "التوات" إلى "تنبكتو" حيث تجد القوافل لديهم المساعدة وحسن الضيافة والحماية وحتى الوساطة مع القبائل الصحراوية كالطوارق وغيرهم.

1 نقل عن كربولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص. 467.

أما في البلاد التونسية فقد ذكر الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز في الكتاب الباشي¹ في معرض حديثه عن مناقب الأمير أبي الحسن الباشا علي بن حسين بن علي باي المتوج في 14 جمادى الثانية 1172هـ/1759م مانصه: "...مع ما التزمه من الأوراد والأذكار وغير ذلك، وله في ذلك أسانيد وإجازات عن الشيخ، فقد أخذ ورد الإمام العلامة سيدي أحمد بن الناصر الدرعي عن الشيخ سيدي عبد الحفيظ الزواوي بن دوابلاده الخنفي، وهو يرويه عن صاحبه سيدي أحمد بن ناصر رحمه الله تعالى. وقد أجازته [أي الباشا علي بن حسين باي] الشيخ سيدي عبد الحفيظ عن سيد أحمد بن ناصر بسنده المعروف في الطريقة، ولنذكره تبركا به فنقول: روى سيدي أحمد بن ناصر عن سيدي محمد بن ناصر، عن سيدي عبد الله بن حسين القباب عن سيدي أحمد بن علي الخزرجي عن سيدي أبي القاسم التازي عن سيدي علي بن عبد الله الفيلاي عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني، عن سيدي أحمد زروق عن سيدي أحمد بن عقبة الحضري عن سيدي علي القرافي عن سيدي أحمد بن عطاء الله عن سيدي أبي العباس المرسي عن سيدي أبي الحسن الشاذلي عن سيدي عبد السلام بن مشيش عن سيدي عبد الرحمان العطار... إلخ... ثم وردت عليه [أي الباشا علي بن حسين باي] إجازة من الشيخ العلامة الفاضل سيدي يوسف بن محمد بن محمد (أيضا) بن ناصر ابن أخي أحمد بن ناصر القائم مقامه الآن فسح الله في أجله... ويستمر في ذكر الأسانيد حتى يقول: ولولا خوف الإطالة لتتبعنا الأسانيد كلها حتى تكون دفترنا عظيما. ولكن حسنا التبرك بذكر هؤلاء فقد أجازونا والحمد لله في العلوم الإسلامية معقولا ومنقولا حديثا وتفسيرا نحو وتصريفا وأدبا وعروضا وتوقيتا وتوحيدا وتعديلا ومصافحة ومشابكة ومناولة ومعانقة وضيافة بالماء والتمر والحديث المسلسل أول كل شيء في المجلس، وبقراءة سورة "الصف" وقراءة سورة "ألم نشرح" واليمنى على الصدر واليسرى أسفلها وبجميع ما ذكرت أجزت السيد علي باي ابن حسين باي كما أجازني أسياسي في جميعه، وبكل ما تصح روايته من مسموع ومقروء وتقييد، وأذنت له في تلقين الذكر لمن أراد من أولاده وعياله، وزدته في ورده أحد عشر ألفا من (بالطيف.. يا لطيف) كل يوم وأذنت

1 الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة 1202هـ/1788م، الكتاب الباشي، تحقيق الشيخ ماضور طبع الدار التونسية للنشر 1970، الجزء الأول، ص 206.

له في قراءة المُسَبَّعات العشر عند كلّ طلوع شمس وغروبها وحزب النووي وحزب البحر والوظيفة الزروقية والصلاة المشيخية مؤكّدا عليه في الإقبال على الله والتوكل عليه والاعتصام بحبله، موقنا أن الله تعالى لم يخلقنا في الدنيا إلاّ لنعبر إلى الآخرة عليها. وأوصيته بالغرباء وبالاقتصاص من القراء للجماء فإنّك مسؤول عن رعيتك فأعدّ لسؤالك ما استطعت، فإنّ سائلك لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء والله يردّكم ويحفظكم ويتولّى بمرّته أموركم ويأخذ بأيديكم ويُعزّكم ويدفع عنكم كل سوء آمين. وفي أربع وعشرين من صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف كتب عبيد الله تعالى عن فرط هول نسال الله العفو والعافية يوسف بن محمد بن محمد (أيضا) بن ناصر تاب الله عليه. آمين. انتهى." ويذكر المؤلف أنّ هذا البايع كان يتواضع لكلّ من ينتمي إلى الطريقة ويقول (هو أخي في الطريقة الناصرية). وكانت هنالك زوايا ناصرية، ولعلّ واحدة منها كانت بالمنستير بحي الربط، وما زالت إلى الآن تسمّى (الناصرية) وقد استعملها الجنرال أحمد زروق مخزنا لما اجتباها من أهل البلد من أموال عند نكته للمنستير في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي قبيل الاحتلال الفرنسي.

ويظهر أنّ الطريقة الناصرية أقدم من هذا البايع بكثير، إذ يرجع نشرها إلى الشيخ أحمد بن مخلوف الذي تم تكليفه بذلك وهو من سلالة سيدي محمد بن الناصر الدرعي وهو أن يذهب إلى تونس لنشر الطريقة الناصرية¹. وسيأتي خبره في الحديث عن الشايبة. أصول الطريقة: يظهر أنّ الطريقة الناصرية طريقة شاذلية، ولم نعثر على عمل لها، ولعلّه الذي ورثته الشايبة والغريانية.

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 481-484.

الصريفة الشايبة

نسبة إلى الشايبة آخر مكنينة من مكن الساحل التونسي جنوباً

شيوخ التأسيس: هم: محمد بن عبد العاطف وساعده في ذلك ابنه مسعود فأسسوا زاوية في جبل ششار وهي زاوية سيدي مسعود الشابي، ووسعا نطاق عمل الطائفة في مناطق خنشلة وتبسة ووادي سوف بالقطر الجزائري، وأسسوا عدّة مساجد وجوامع. ثم تتالى أبناء مسعود بجبل ششار، وهم علي وأحمد الصغير وبن جدو بورثعة وسيدي رمضان وابنه سي عمار الذي غادر ششار إلى توزر وأسس هناك الزاوية الشايبة التي سميت "بيت الشريعة"، وورث السيد عمّار روحيا الحاج أحمد سيدي بن جدو مدير الطائفة مع نائبه العام ابن أخيه الحاج محمد بن الحاج إبراهيم بن الحاج أحمد.

وشيخ الطريقة الأكبر هو أحمد بن مخلوف الشابي المولود في 803 والمتوفى سنة 887هـ/1482م وهو صاحب كتاب "الفتح المنير"، ويظهر أنّه من ذرية سيدي نعمون. نشأ ببلدة الشايبة ومنها انتقل إلى تونس طالبا للعلم في زمن الشيخ الرصاع¹ قاضي القضاة بتونس ومكث بها أعواما يطلب العلم وكان يتردد على الولي الصالح أحمد بن عروس في حياته حتّى اعتدى الشيخ بن مخلوف مرّة على عون للسلطان فلما عرف الشيخ ابن عروس ذلك، تغير على تلميذه وقال له: حلفت أنّ الذي فعل هذا لا يُعاشرني. فغادر الشيخ أحمد بن مخلوف شيخه، وجاء إلى الساحل ليلتحق بشيخ آخر من الصوفية

1 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 240 و ص 280. والشيخ الرصاع توفي سنة 894هـ/1488م.

فوجد بقصور الساف سيدي علي المحجوب¹ فاستخدمه وكلفه بغراسة الأشجار ببستانه واستمرّ الشيخ ابن مخلوف يعمل لذلك إلى أن أثمر غرسه، وهنا بدأت الكرامات في الظهور، وتمّ له الفتح فأشار عليه شيخه سيدي علي المحجوب بالذهاب إلى القيروان وأذن له في العهد، وقال له: "شيخك يأتيك إلى القيروان". فانتقل الشيخ أحمد بن مخلوف إلى القيروان وأقام بجامع الدوّاز، وكان فقيرا يتجرّد ظاهرا وباطنا، ثم صار إمام هذا الجامع، ثم مؤدّبا بمكتب قريب منه، ثم تزوّج (أم العز)

فانجب ستّة ذكور وهم محمد الكبير والشيخ عرفة (ملك القيروان في أواخر الدولة الحفصية)² وأبو الفضل وأبو الطيّب وأبو الكرم (بوبكر) وأبو السعود وآخر لم يذكر اسمه والأخيرة سماها (أم العز) إذ توفيت أمّها فأطلقوا اسمها عليها، ولم يتزوّج بعدها.

قيل له: "الناس يسوّنونك ! فقال: على أي شيء؟ فما زدت شيئا أسبُّ من أجله فالكتاب كتاب الله، والسنة سنة رسول الله، والطريق للجنيد، والواهب سيدي عبد الوهّاب الهندي والمصافحة سيدي علي المحجوب، وحزب البحر للشاذلي، والوظيفة ليحيى بن عقيبة إلاّ أعوذ بكلمات الله التامّات". وتوفي سنة 887هـ / 1482م. ودفن بمقام الشيخ عبدالله بن أبي زيد بالقيروان.³

أخبار الطريقة: يذكر "كوبولاني" أنه في القرن الحادي عشر للهجرة تم تكليف الشيخ أحمد بن مخلوف وهو من سلالة سيدي محمد بن الناصر الدرعي أن يذهب إلى تونس لنشر الطريقة الناصرية⁴. وبعد تجوال وسياحة طويلة استقر بالشّابة⁵ وهي مدينة

1 هو الشيخ أبو الحسن علي المحجوب ولد بقصور الساف سنة 876هـ وجده الشيخ سيدي طاهر المزوغي المتوفّي سنة 646هـ دفين قصور الساف، والمزوغي من أصحاب أبي مدين شعيب الغوث وأقران أبي علي النفطي وعبد العزيز المهدي وأبي سعيد الباجي، أخذ علي المحجوب عن أبي علي السّمّاط والشيخ عبد الغني المزوغي وعنه أخذ علي الكراي بويغيلة. وسُمّي المحجوب لملازمته الحجاب وانقطاعه للعبادة. أخذ الطريق عن سيدي علوان بن سعيد الذي قبره مشهور غربي قصور الساف وعن محمد بن جابر: يقال أنه استشهد في جهاد الإسبان عند هجومهم على المهديّة سنة 957هـ/1550م. لكن التاريخ يحتاج إلى تحرُّر أكثر (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، لمحمد النبال، ص 228 و320).

2 لطيفة الأخضر، الإسلام الطريقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، سراس للنشر تونس أفريل 1993ص28.

3 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص.ص 280-286.

4 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص 481-484.

5 الشّابة وتسمى أيضا "الصبيّة" مدينة تقع في أقصى منطقة الساحل التونسي بين المهديّة وصفاقس بها زاويتان الأولى باسم الولي: عبد الله المراكشي، وهي على شاطئ البحر وعليها نقيب اسمه عبد الله العجمي، وبها حزب

من الساحل التونسي بين المهديّة وصفاقس. ومن هناك أعطي اسم "الشايّ" لأعضاء هذه العائلة ثم أصبح اسما للطائفة.

والواقع أن خبرا كهذا يتعارض مع ما نرى من أن هذا الشيخ نشأ بالشابّة ودرس بتونس كما أن التاريخ يختلف فبينما نجد الشيخ على رواية النيّال وجد بأوائل القرن العاشر يذكر كوبولاني القرن الحادي عشر وأن نكبة الشايية وقعت في ذلك القرن، فربما كان أحد بنيه الذين شرّدوا للجزائر ومنها خرج أحدهم للبحث عن وسيلة للرجوع إلى الجريد ويذكر كوبولاني أنّ شيخهم قد ساهم في استتباب الأمر للفرنسيين إبان احتلال البلاد وتحصل جزاء له على صنيعه تسميته فايدا على بيت الشريعة.

بعد أن توفّي الشيخ أحمد بن مخلوف الشايّ مؤسس الطريقة الشايّية بالقيروان خلفه ابنه عرفة الشايّ المتوفى سنة 949هـ وهو الذي قام ضد الحفصيين لتواطئهم مع الإسبان وإبراهم معاهدة أوت 1535م. فجمع الشيخ عرفة الجموع من مريديه وأتباعه للوقوف في وجه الغزاة والحكم العميل، وانضم إليه العديد من القبائل والأعراب منها قبيلة الحناشّة، ووجد دعما من قرى الساحل ومدنه، ورأت فيه المخلص من الحكم العميل ومن الإسبان ومن قراصنة الأتراك، وانتصر الشيخ في معركة باطن القرن في سبتمبر 1535، وأخرج الأتراك من القيروان، وهكذا أصبحت الطريقة الشايّية سيّدة البلاد وصار شيخها يدعى في مراسلات الإسبان "ملك القيروان"، وجمع المنهزم فلول جيشه واستنجد بجنود الإسبان واقتحم معركة نكراء ضد الشايّية بمنزل حرب لكنه انهزم في 12 نوفمبر 1540م. وانحاز الكثير من جيشه لعرفة الشايي وغرق العديد من الجنود الإسبان بالسبخة¹.

وواصل أحفاد هذا الولي الصالح نشر طريقتهم بصفتها موروثا تركه الأجداد، واستقر بعضهم بالقيروان حيث أسس الشيخ أحمد مخلوف بحياته زاوية، وجاء من بعده فبنوا لها فروعاً بتوزر والبرارشة وتبسة، كما لهم زاوية بصفاقس². ومن هذه الزوايا نشروا

له سناجق وخرجات في حفلات الختان والحج. والثانية باسم الولي (سيدي نعمون) موجودة بوسط المدينة بجانب السوق وبها نقيب اسمه: الهادي الخموسي (الحلو). ويذكر الكثيرون أنّ جدّ الشايّية الشيخ (سيدي نعمون) دفن ببلد الشابّة.

1 لطفي عزيز، الساحلين، نقوش عربية، الطبعة الأولى 1998. تونس.

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 218.

تعاليمهم في مناطق بني صالح، وكان الأكثر حماساً لخلافة الشيخ أحمد بن مخلوف ابنه بدر الدين الذي يوجد ضريحه بـ"قبرية" من أحواز تبسة، وترك عدّة ورثة عرفوا بأولياء بدر الدين وبلغ أحدهم وهو أبو معيزة محمد الطاهر ابن الحاج الراعي منصب القيادة (منصب العمل على جهة ترايبية) بقسنطينة.

من شيوخ الطريقة الشايبة نذكر: أحمد بن مخلوف ومحمد الكبير والشيخ عرفة ومحمد المسعود ومن الكتب المؤلفة في التصوّف "الفتح المنير في التعريف بالطريقة الشايبة وما يُربّي به الفقير" ألّفه الشيخ محمد المسعود المتوفى سنة 1029هـ.

وطارد الأتراك (محلّة درغوث باشا) الشايبة وقتلوا زعيمهم محمد بنور بن الشيخ محمد المسعود وشردوهم إلى الجهة الغربية ويظهر أنهم استعانوا بالغريانية عليهم في معركة حاسمة بالساحلين بالقرب من المنستير ولعلّ ذلك مرتبط برابط ما مع شيخ الرباط محمد بن أبي زيد المنستيري الذي كان غريانيا. وبعد مدّة دخل الشاييون بلاد الجريد بضاحية خاصّة من مدينة توزر حيث هم الآن يعيشون، واشتهر

منهم أبو القاسم الشايبي الشاعر التونسي الكبير¹.

أصول الطريقة: هي طريقة عائلة من الأولياء تمارس الطقوس الناصرية بدون أن يكون لها ارتباط بها، وهي في الأصل شاذلية، وتطورت إلى الناصرية إلا أنّ القواعد التي يعلمها السادة لأتباعهم تميّز بالرقم سبعين (70) الذي يدخل في ممارساتهم التعبدية.

وهذا نموذج من إجازة مقدم:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

سلمنا مكتوبنا هذا بين يدي أختينا في الله ليشهد أننا أجزنا له إعطاء الطريقة الشايبة لكل من يطلبها. وعليه أن يعمل على توجيه الأتباع للحصول عليها وهي إجازة كاملة عامة ورسومية منتقلة بدون انقطاع من شيخ إلى شيخ ونحن نجيزه بنفس الطريقة التي أجزنا بها والدنا نفعنا الله به. أما الطريقة فتشتمل على السبعينية ... والذين لا يقدرّون على القيام بذلك من النساء والأطفال يرددون بعد صلاة الفجر 100 مرة

1 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 280-286.

(أستغفر الله) و100 مرّة (لا إله إلا الله) و100 مرة (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله) وهذا يكون لهم عوضاً عن السبعينية، ولتكونوا في عون الله وحمايته، والسلام من الفقير إلى ربه الرحيم عبده أحمد بن عمار بن رمضان الشابي شيخ بيت الشريعة أعانه الله أمين وحرر في 4 جمادى الثانية 1279 هـ [سبتمبر 1862م].

طريقة العمل: لم نعثر للشايبية على عمل سماع، غير أننا عندما نربط الأحداث نجد أن أولاد الشيخ عرفة كان لهم مزهر قدّموه للملك المخلوع الحسن الحفصي، مما يدلّ على أن الشايبين لهم اهتمام بالموسيقى إلى جانب طريقتهم الصوفية، ثم نجد في الأخبار أن الشيخ عامر المزوغي مؤسس الطريقة العوامرية كان له اتّصال بهم وقد شارك في حربهم ضدّ الإسبان، كما اتّصل بزواية الجديدي، نذهب إلى أنّه تأثر من قريب ومن بعيد بالطريقة الشايبية أو الناصرية، على أن أصل عمله يعتمد على القشاشية.

الهرطقة الغريانية

تنسب إلى الشيخ أبو سمير عميبك بن يعيش الغرياني¹
المتوفى سنة 805 هـ وهو تلميذ المؤسس

الشيخ المؤسس: هو "أبو عبد الله محمد بن عبد الله السبائي عرف الجديدي القيرواني، الشيخ الإمام الفقيه العالم من أكابر الصالحين مجاب الدعوة كثير الكرامات، أخذ عن القاضي أبي عبد الله بن فندار عرف عظوم البخاري² وغيره، له مدرسة بالقيروان مقصودة لقراءة القرآن والعلوم وغالب علماء القيروان وغيرها قرأوا بها، وانتفع به خلائق كالشيخ الفرثوري الصفاقسي³ وعبد العزيز العياشي الطلبي⁴ والشيخ

1 نسبة إلى غريان مدينة بالقطر الليبي ومركز محافظة .

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص259، عدد950: "أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى بن فندار القيرواني عرف بعظوم من بيت معروف الفضل والتحلي بالوقار، الإمام الفقيه العالم المحصل المؤلف المتقن، أخذ عن البرزلي والزعي وغيرهما له تأليف في الفقه منها: مواهب العرفان، والمباني اليقينية، ومرشد الحكام. كان بالحساسة سنة 889هـ"

3 عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، الجزء الرابع، طبع ونشر المكتبة العتيقة لصاحبها علي العسلي بتونس، ص240. "...وكذلك الشيخ أبو بكر الفرثوري بصفاقس كان من تلاميذه (أي تلاميذ الجديدي) وقرأ العلم بالقيروان على شيخنا الشيببي وسلك طريق الشيخ الجديدي في زاويته ففيها خلق كثير من الناس وزاد بأنه يعمل الميعاد في مسجد الشيخ أبي الحسن علي الربيعي المعروف باللخمي لأنه فقيه عراف موفق للجواب."

4 عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع ونشر المكتبة العتيقة لصاحبها علي العسلي بتونس، الجزء الرابع، ص240. "...وكذلك الشيخ أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ الصالح عياش ذكره قبل هذا من خواص الشيخ أيضا (أي الجديدي) ومن فقراء زاويته. وهو بزوايته بطبلية من عمل المهدي في خير كبير وناس يقرؤون القرآن ويأكلون عليه، وكثيرا ما يُعين زاوية شيخه الجديدي بالطعام الكثير وخصوصا عند الحاجة. وكل من يرد عليه من جميع الناس يُضيفه ويحلف له ولو كانت محلة السلطان وعربها يقوم بها وكل ما يكتب للسلطان غالب الحال تقضى فيه الحاجة، وكل من يهرب إليه من قواد السلطان وشيوخ العرب وصل الأمان ويكتب فيهم فيجيء الجواب بما يريد."

الصالح محمد بن أبي زيد الناظر على قصر المنستير، توفي المترجم له بمكة وقام مقامه خليفته الشيخ الصالح الشهير الذكر عبيد بن يعيش الغرياني المتوفى سنة 805 هـ²، وفي معرض الحديث عن أبي بكر الفرثوري يقول "النَّيَال" من تلاميذ محمد الجديدي المتوفى سنة 786 هـ/ 1384م المؤسس للزاوية الغريانية بمدينة القيروان وتوفي بمكة ولم يترك ولدا ولا أهلا، فانصب فيها خادمه الشيخ عبيد بن يعيش الغرياني وأصبحت الزاوية تسمى بالزاوية الغريانية، ومن أصحاب الجديدي أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ عيَّاش صاحب الزاوية المعروفة بطبلبة، وهو حسنة من حسنات الشيخ الجديدي.³ وذكر في "معالم الإيمان"⁴ أن الشيخ كان يحفظ بعض القرآن وانه ربيّ يتيماً الأب، وأول ما اجتمعت عليه الفقراء لقراءة القرآن بزاوية الشيخ أبي الحسن علي العوني، ثم انتقل إلى زوايا أخرى حتى استقر في زاويته التي اشتراها. وكان، رغم أنه يطلب للفقراء بنفسه على أبواب الديار بين المغرب والعشاء بالحلّاب في يده، فإنه كان لا يأكل مما يأتي للفقراء، وإنما يأكل من الذي يأتيه لنفسه، وينفق الباقي للفقراء وأصحابه. ومشى الشيخ الجديدي إلى المنستير ومعه الحاج عيسى المغربي وإسماعيل بن أحمد الشرفي وبها تلميذه الشيخ محمد بن أبي زيد المنستيري ناظر قصر الرباط، كما سعى بالصلح في فتنة

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 246 عدد 886: "أبو عبد الله محمد بن أبي زيد المنستيري الفقيه العمدة الشيخ الصالح القدوة، أدرك ابن عرفة وطبقته، وأخذ عن الشيخ الجديدي القيرواني وانتفع به وسلك في قصر المنستير طريقته ابتداء وانتهاء، وعنده بالقصر من التلامذة ما يربو عن المائة وحصل النفع به واشتهر ذكره وكانت الأرزاق تأتي إليهم من نواحي إفريقية كالجزيرة (الوطن القبلي) والقيروان وقفصة وتوزر ونفزاوة ونفطة وقابس، وعنه ابنه أحمد. وقبره بالقصر معروف. لم أف على وفاته" [أقول: وقد كانت له قبة في ساحة القصر أزيلت إثر ترميم القصر وتهيئته للعمل الثقافي، وهو رحمه الله الذي حبس هنشير بن منصور بعمل المهديّة "على ولده الشيخ الفقيه العدل المعتقد البركة سيدي أحمد وعلى عقبه وعقب عقبه ما تناسلوا وامتدّت فروعهم في الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وعلى فقراء القصر الكبير في بلد الرباط المنستير المقيمين به لتعليم القرآن العظيم وستة نبينا محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين بتاريخ أوائل صفر الحير عام خمسة وعشرين وثمانمائة بشهادة عدلين ممن سلف من عدول المنستير.. (الوثيقة رسم حبس مع صدور فتوى عدلية بتاريخ أواخر رمضان سنة ستة وثمانين ومائة وألف).]

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 258 عدد 944: "أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي زيد المنستيري الفقيه العالم الشيخ الصالح، أخذ عن والده وقام مقامه بشؤون قصر المنستير، توفي سنة 869 هـ ودفن بمقبرة المنستير قريبا من شاطئ البحر عليه بناء حفييل، ولما خُيّي عليه من البحر نُقِلَ لموضع آخر بالمقبرة وبني عليه بناء حفييل أما البناء الأول فأخذه البحر بعد النقل ولم يبق منه أثر، وكان الذي تولى نقله الشيخ محمد القزّاح المساكني سنة 1310 هـ" [أقول: وقد أدمج هذا البناء بروضة آل بورقيبة حاليا].

3 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 314.

4 عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع ونشر المكتبة العتيقة تونس، الجزء 4، ص 226 - 241.

وقعت بين البقالطة وطبلبة فكانت سببا في اجتماع شيوخ الساحل به. ولما عزم على السفر إلى الحج دعا خادمه الشيخ عبيد الغرياني، وكلفه بالزاوية فأبى، وبعد إلحاح قبل الشيخ الغرياني التقديم وذهب الشيخ الجديد وحج ثلاث حجج.

ولما مرض الشيخ الجديد تزوج امرأة وأعطاه من جملة نقدها خاتمه، ومات بعد ثلاثة أيام ولم يصبها، وأبت أن تبيع الخاتم المذكور لمن سأها ذلك التماسا لبركة الشيخ، وكان آنئذ مجاورا بمكة، وتوفي بها أوائل سنة 787هـ.

أخبار الطريقة: ذكر في "معالم الإيمان" أن الزاوية بناها الحاج مبارك الهيشري²، ويروى أن الشيخ أبا سمير عبيد بن يعيش الغرياني هو الذي أشار على الشيخ الجديد بشرائها عن رؤيا رآها، وأصبح للزاوية شأن حتى أن من يحمي بها يجد الأمان ولو كان السلطان خلفه، وتخرج منها علماء وأكابر منهم الفقيه أبو علي حسن بن عبد الله اللواتي وأبو الحسن علي بن عقبة الوسلاتي قاضي المنستير، كما كان يقصدها الناس من أقصى المغرب. وانتشرت الطريقة بالمنستير على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي زيد صاحب قصر الرباط بالمنستير واجتمع له ما يفوق المائة فقير، وله من الرباع ما يفي بالنفقة عليهم، كما انتشرت بصفاقس على يد الشيخ أبي بكر الفرثوري وكان يعمل

1 هو أبو سمير عبيد بن يعيش الغرياني [المتوفى سنة 805 دفين الزاوية الغريانية بالقيروان]. كان يرعى غنما لوالده فباعها، فعزم عبيد على السفر للمنستير، فاستأذن في ذلك والده فأذن له وودعه من طرابلس. قال: "جئت من جبل غريان لقصر المنستير، وكان فيه الشيخ عمر بن محفوظ الغرياني، فأقمت عنده أزيد من عام، فرأيت في منامي كأنّ قائلا يقول لي: ما يفتح الله عليك إلا على يد سيدي محمد الجديد." فلما ورد الجديد على قصر المنستير مشى الشيخ عبيد في صحبته، فخدمه وتقدم على زاويته بعده فسميت الزاوية الغريانية. كان يحفظ بعض القرآن، وكان شيخا فاضلا نفاعا لخلق الله وكان لا يهتم للدنيا ولا حتى لطعامه، وكان يخدم شيخه خدمة الملوك لملكه، ولما عرض عليه الجديد نيابته في الزاوية وهو على أهبة السفر للحج امتنع الشيخ عبيد، قال يحكي عن نفسه: "لما هربت من التقديم عليها غاية الهروب قال [أي الشيخ الجديد] لي: يا عبيد، أنا ما تقدمك على عمارتها وإنما تقدمك على حلها وغلقها فإن جاءك أحد ففتحها له وإلا غلقتها، وأنا إن كنت نيبي فيها صالحة فحالها يزيد على ما هي عليه الآن، وإن كانت نيبي هولا نأكل بها فأنا مشى حالي بها [بالعامية: أي تيسرت حالي بها] ومشيت [مضيت] عنها. فسهل عليّ ذلك وقبلت التقديم، ففيها اليوم مائة وخمسون [إنسانا صغارا وكبارا بين طلبة يتعلمون العلم وقراء يقرؤون القرآن وهم الأكثر، ومائة نفس عيالات الرجال الذين يخدمون الزاوية دخلا وخرجا]. وتوسط في الصلح بين أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز وأخيه عمر بصفاقس، وكان الشيخ يخدم زيتونا للفقراء بغابة سفاية نحو سبعة عشر ميلا من القيروان لما أرسل إليه أمير المؤمنين أبو فارس طالبا الدعاء في حملته على توزر، فأرسل إليه المطلوب مكتوبا بسواد القدر وكان النصر لأبي فارس وتوفي الشيخ عبيد عام 805هـ ودفن بالزاوية.

2 عبد الرحمن الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع ونشر المكتبة العتيقة تونس، الجزء الرابع، ص 227.

الميعاد في مسجد الشيخ علي اللخمي. وبالمهدية على يد الشيخ عبد العزيز بن عياش وغيرهم. وكان للطريقة الغريانية وزاويتها نفوذ كبير بالساحل التونسي، فأعانت درغوث باشا في تشتيت شمل الشابين المتملكين بالقيروان " وملكت الأملاك الشاسعة بمنطقة الساحل وربما أرض الساحلين أيضا خاصة وأن هذه الأرض كانت تتبع إداريا سنجق القيروان مركز الطريقة الغريانية"¹.

أصول الطريقة: للطريقة الغريانية عادة اسمها الميعاد وهي قراءة التفسير وإلقاء المواعظ على الناس وأخبار الصالحين، ويظهر أنه كان للطريقة سماع غير أنه لم يصلنا عنه شيء.

1 لطفي عزيز، الساحلين، نقوش عربية، الطبعة الأولى 1998، ص 18 وما بعدها.

الصريقة القشاشية

تنسب إلى الشيخ أبي الغيث القشاش ويصغر أنها اضمحلت
وخلفتها البكرية والعوامرية

الشيخ المؤسس: هو الشيخ أبو الغيث بن محمد القشاش المتوفى بتونس سنة 1031هـ/
1621م، وكلمة القشاش تعني بائع الثياب القديمة. كان والده محمد القشاش من حفاظ
كلام الله وصاحب اعتقاد في الصوفية، وكان على علاقة صداقة وتلمذة مع سيدي
معاوية وكان يزوره بدخلة المعاوين بالوطن القبلي، وأثناء هذه الزيارات قال له سيدي
معاوية: [أبشر يا قشاش سيخرج من صلبك ولد تفخر به تونس] فكان كذلك. وكان
الوالد إذذاك إماما خطيبا بجامع باب البحر بالحاضرة فرزق بولد فسماه (أبا الغيث)
وذلك سنة 959هـ/1551م. ولما كبر الولد تعلّم علمي الظاهر والباطن على يد شيخه محمد
الجديدي² تزوّج ابنة عمّه وفارقها، ثم تزوّج ثانية "حيزية بنت الكشباطي" وكانت لا

1 هو سيدي معاوية الشارف له زاوية في دخلة المعاوين بالوطن القبلي. وكان الشيخ محمد القشاش والد أبي الغيث
يزوره ويحضر حفلات الزاوية عنده، فهو من رجال القرن العاشر، خلفه بعد موته ابنة أبو الحسن علي وخلف
الأخير ابناً اسمه الحاج بلحسن المعروف بشيخ الركب وشيخ الركب هذا أنجب الحاج عبد الله والحاج داود
والحاج حسين والحاج محمد. ومن أولاد الحاج عبد الله محمد الأصغر وحسين هو والد سيدي داود. وفي القرن
الثاني عشر بلغت الزاوية أوجها في الثروة والكسب وأصبحت تملك الأراضي الفلاحية الشاسعة بجهاات منزل
حر والمداية ومنزل تميم وقرية. (عن محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 278).
2 الشيخ محمد الجديدي أستاذ الشيخ القشاش من رجال الدولة الحفصية في آخر يوم من أيامها في عهد
السلطان محمد بن الحسن آخر الحفصيين سنة 981هـ، وقد عاشت هذه الدولة 378 سنة أي منذ 603 هـ، فسبحان
الحي الدائم. والشيخ الجديدي هو الذي افتك نساء وأطفال الحمامات من أيدي الإسبان سنة 980هـ، عندما
داهموا المدينة، كما استعمله القائد علي بن أبي زيد في تحرير التاس ضد الإسبان والحاكم الحفصي محمدين
الحسن الذي انقضت على يديه الدولة. ولما توفي الشيخ الجديدي دفن بزوايته التي تقع على بعد 20 كيلومترا
غرب مدينة الحمامات. وهو ليس الجديدي مؤسس الغريانية.

تتلاءم مع طبيعته الصوفية والدينية فقد كانت تركب الخيل دون احتجاج، فلم تعاشره وواصلت ركوب الخيل وهي سافرة وخرجت عن طوعه فطلّقها، وبقي الشيخ غير مكترث بها بدون زوجة، ثم تزوّج عُلجبة من العلوج الوافدين إلى تونس من الخارج اشتراها بـ500 دينار فكانت أم أولاده بعد أن أسلمت سنة 1006هـ، وولدت له بنتا سماها "أم هانئ"، وصاهر محمد تاج العارفين البكري شيخ البكرية فزوّجه ابنته "أم هانئ"، وكان وكان مسكنه وزاويته قرب سوق البلاط.

يروى عن الشيخ القشاش أنه كان ماهرا في التفسير والحديث والأصول وكان في شهور رجب وشعبان ورمضان يعقد مجلسا لقراءة التفسير البخاري وكان يرغب في تحصيل نسخ متعددة من البخاري (ويظهر أنّ ذلك طبيعي بما أنّ حلقتة تهتمّ بقراءة البخاري) وجمع نحو ألف نسخة منها، كما جمع عدّة نظائر من كتب أخرى حفلت بها خزائنه، وفيه يقول شيخ الإسلام يحيى بن زكرياء مقرظا إجازة أجاز بها الشيخ القشاش أحد خلفائه إلى بلاد الروم:

أَبُو الْعَيْثِ عَيْثُ الْمُسْتَعِيثِينَ كَلِّمَهُمْ بِهَمَّتِهِ نَالَ الْوَرَى فَكَأْسِرِهِمْ
فَهَمَّتُهُ الْعَلْيَاءُ عَيْثُ بِهِ ارْتَوَى رِيَاضُ أَمَانِ اللَّأْمِذِينَ بِأَسْرِهِمْ²

ويظهر أنّ من أتباعه كان جماعة من الملامتية فقد روى "محمد النيال": (وفي حياة الشيخ القشاش خرج من زاويته جماعة من المريدين عراة مكشوفي العورات ومروا بسوق البلاط وغيره على حالة الكشف بما أزعج الناس وقبض إليهم أعوان السلطان فأذبهم السلطان وجلدهم الأعوان. والمفهوم من ذلك أنهم كانوا على مذهب الملامة.³)

واحتجب الشيخ طيلة الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من عمره ولم يخرج من حجبتة حتى توفي، وكانت تقوم بأمور الزاوية ابنته "أم هانئ".

الطريقة وأخبارها: زاوية القشاش قرب سوق البلاط بنهج سيدي التينجي تعقد فيها مجالس الشيخ لقراءة التفسير وشرح جامع البخاري، ويظهر أنّ الزاوية القشاشية تقلصت مساحتها الكبيرة لتقسيمات عقارية متتالية حتى أصبحت مكوّنة من جزء

1 محمد النيال يجعله (علي تاج العارفين) ويكنيه بأبي الحسن وينعته بكل ما نعت به محمد. انظر ص 303.

2 انظر ترجمة أبي العيث القشاش في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص 275 عدد 1122.

3 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 129.

صغير به مدخل ومخزن زمن الاحتلال، والآن أصبحت سوق الحشايش الطّبية ومسجد الإشبيلي بسوق البلاط.

يقول "محمد النبال" في الصفحة 344] وفي مناقب القشاش قائمة تنص على ما وضع القشاش عليه يده من أوقاف جامع الزيتونة ومعظم الجوامع والزوايا والهناشير وتصرف فيها إثر انقراض الدولة الحفصية وبعد القضاء على الاحتلال الإسباني وانتصاب الحكم التركي ودخول الجالية الأندلسية الأمر الذي جلب لزواية القشاش ثراء لا نظير له، ثم انتقل منها إلى زاوية أخرى جديدة هي الزاوية البكرية. وفيما بعد ذلك وقبل أن يتوقّر العمران في البلاد التونسية استسهل أمراء البلاد أن يقطعوا للزوايا الإقطاعات الواسعة من الأراضي ويحبسوها لتقوم بتعليم الصبيان والأميين تعليما دينيا وعربيا، وإصلاح الزاوية وتوفير مرافقها وإقراء الصادر والوارد مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأمر الذي كان متعدّرا على الحكومات وقتئذٍ القيام به في البوادي فأوكوه إلى شيوخ الزوايا، وشيوخ الزوايا تفرّغوا لهذه المهنة بدون أن تتوقّر في أغلبيتهم الكفاءة¹. وحيث إن ورثة الشيخ القشاش كانوا من آل البكري فقد انتقل الكل إلى الزاوية البكرية².

والزاوية البكرية تنسب إلى عائلة الشيخ أبي بكر الأكبر دفين المنهلة ونسبهم جميعا يتصل بالإمام عثمان ابن عفان الخليفة الثالث رضي الله عنه. وكانت زاويتهم قائمة بتونس ولا تعتبر امتدادا للقشاشية إلا لأن محمد تاج العارفين البكري المتوفى سنة 1037 هـ تزوج بأمة هانئ كريمة الشيخ القشاش صاحب الزاوية العتيقة الغنية بوفرة أحباسها وأملاكها حيث إن الشيخ القشاش لم يترك ولدا إلا أم هانئ فألت الزاوية القشاشية وتوابعها وأملاكها إلى الزاوية البكرية.

وكان الشيخ محمد تاج العارفين إماما خطيبا بجامع الزيتونة وبقيت الخطابة في بيته بين بنيه مائة وثلاثة وسبعين عاما [وعدها محمد النبال ثلاثا وتسعين] وقد وليها بإشارة من شيخه الرصاع وتوارثها أعقابه حتى انتقلت منهم إلى الأشراف وأولهم حسن بن عبد الكبير الشريف المتوفى سنة 1234 هـ. وكانت للشيخ محمد تاج العارفين مراسلات مع صديقه عبد الكريم الفكون إحداها مؤرخة في سنة 1037 هـ، فيما أن تكون سنة

1 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي.

2 من حديث مع السيد الهاشمي بن عامر من أحفاد الشيخ عامر المزوغي وداره ببلدة سيدي عامر.

وفاته وإما أن اعتمدها المترجمون لتأريخ وفاته وترك من الولد ابنه أبا بكر من زوجته أم هانئ ابنة أبي الغيث القشاش الذي انتقلت إليه ثروة جدّه المادية والروحية.

[وفي مناقب القشاش قائمة في المساجد والزوايا التي أصلحها أو جدّدها أبو الغيث القشاش من ريع الموقوفات التي استبدّ بالتصرّف فيها كان من بينها زاوية الشيخ قاسم الزليجي].¹ ويذكر التاريخ أنّ الشيخ القشاش كان نزيها في هذا التصرّف، وقد وقعت محاسبته من لجنة بالجامع الأعظم فوجدوه أمينا قد نمت الثروة وصرفها في مصارفها الصحيحة دون زيف.

طريقة العمل فيها: يقول الأستاذ الحبيب: " وظهر العالم الصوفي إمام جامع الزيتونة ووكيل أوقافه أبو الغيث القشاش جدّ البكرين المتوفى سنة 1037 هـ بمدائح العذبة وابتهالاته وحلقات ذكره كل يوم سبت "².

كان يعقد، إذن، بالزاوية القشاشية مجالس للقراءة والتفسير والذكر، كما يعقد عملا للمستمعين بالششتري والرباب والقصب من بعد العصر إلى المغرب. وأخذت طرق عديدة عمل الششتري على القشاشية منها العيساوية والسلامية³. ويظهر أنّ السماع بالششتري من الفن الأندلسي المعروف بالمولف، وأنّ زاوية القشاش كانت أولى الزوايا بتونس التي عملها المألوف الأندلسي قبل زاوية سيدي علي عزّوز والزاوية العيساوية، مع العلم أنّ زاوية القشاش كانت مأوى المهاجرين الأندلسيين، وأن الششتري صوفي أندلسي يقول الشعر والتواشيح والمواويل وكان يُنشدّها في الأسواق بالرباب في رحلته إلى الشرق. وكان الشيخ محمد الظريف صوفيا أيضا، وله قصيدة ضمنها أسماء طبوع الموسيقى والأغاني التونسية وهو أسبق من القشاش فقد توفي سنة 787 هجري، ومعنى هذا أن تونس استعملت الفن الأندلسي بالتأثر بالمهاجرين الأندلسيين في أول القرن السابع أي في الهجرة الأولى⁴.

1 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص. 275.

2 محمد الحبيب، تطور الإنتاج الموسيقي خلال القرنين الماضيين، مقال في كتاب: (الإنتاج الموسيقي العربي قديما وحديثا) الصادر عن ملتقى خميس الترّان الملتئم ببزرت في نوفمبر 1978 طبع الدار التونسية للنشر.

3 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 151 بالهامش.

4 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 291.

الصريقة العوامرية

نسبة إلى سيدي عامر المزوغني

دفن ببلدة سيدي عامر المتوفى سنة 1040هـ/1630م

الشيخ المؤسس: هو الشيخ أبو شامة عامر بن الشيخ سالم المزوغني (من "مزوغة" قرية بالمغرب)، وُلد ببلدة "الساحلين" سنة 920 للهجرة أي 1514 م وعاش مائة وعشرين عاما حيث توفي في 1040 هـ/1630 م، ووالدته "ريانة" بنت الشيخ "نصر الشارف" دفن ببلدة الساحلين وبالمقام نفسه دفن الشيخ سالم المذكور.

وينحدر الشيخ سالم من سلالة إدريس الأكبر من المملكة المغربية، وبالساحلين تزوج بابنة الشيخ نصر الشارف، وتوفي قبل ولادة ابنه "عامر" بشهرين، فترقى الطفل عند جدّه نصر الشارف فحفظ القرآن الكريم على يديه وكذلك علوم الدين، ثم تحوّل إلى مدينة سوسة ليواصل تعلّمه بها، ومنها رحل إلى تونس حيث أخذ القشاشية، ويقدر ذلك في حوالي سنة 1001 هـ.

وكان الشيخ عامر المزوغني هو وتاج العارفين البكري من أخصّ تلاميذ الشيخ أبي الغيث القشاش المتوفى سنة 1031 هـ. وأخذ عن شيخه يحيى الشعرائي وعبد الرحمان الجوهري الأدعية، وعن شيخه معروش الطريقة الشاذلية الجزولية.

1 اعتمدنا على التواريخ التي أمدنا بها الشيخ عليّة المقدم من وثيقة رسمية وأعرضنا عما أورده غيره من جعل سنة الميلاد 929 وسنة الوفاة 1049.

وكان من أخص أصدقاء الشيخ عامر المزوغي: الشيخ عبد الرحمان الجندولي دفين المنستير ومقامه على حافة الطريق السياحية من الناحية الشرقية للمقبرة، والشيخ منصور بيزيد دفين القراعية على حافة غار السعود بمدخل ميناء الكحلية، والمرأة الصالحة عائشة الفتحية التي مقامها بالمقبرة قرب مقام سيدي عمر مخلوف بمقبرة المنستير، وخصوصا الشيخ عمر الشطي بمساكن وهؤلاء هم المعاصرون للشيخ المري أبي شامة عامر المزوغي¹. ولا غرو أن يكون الشيخ عامر وأصحابه ممن شاركوا في الحرب ضد الاحتلال الإسباني الذي شهدته بالخصوص منطقة الساحل والوقائع التي وقعت بالدخيلة والساحلين التي شهدت عدّة تقلّبات ذكرناها في مواضعها، فهم مرابطون والجهاد جزء من نشاطهم.

ومما رواه المرحوم الشيخ المنجي بن عبد القادر المقدم حفيظ الزاوية وهو والد الشيخ عليّة المقدّم حاليا أن الشيخ عامر شارك في الثورة التي قام بها الشيخ عرفة الشابي بجبهة القيروان وتعرف بمعركة الدخيلة² ضد الاحتلال الإسباني.

ورحل الشيخ عامر من تونس الحاضرة إلى الوطن القبلي بزاوية الجديدي، ثم قام بزيارات عديدة إلى الكاف وتالة وسيدي بوزيد وثقصة والجنوب، ومكث في جربة بزاوية الشيخ إبراهيم الجميني³ مدة، ثم رجع إلى صفاقس حيث تعرّف على عدد من رجال الدين قدّموا له كلّ خير وصار محلّ تبجيل واحترام، وعاش عند أولاد "العش" قرابة الأربعين سنة لم يلق منهم إلاّ كلّ خير. ثم رجع إلى الساحلين حيث استقر به المقام، وأسس زاويته بهنشير الوحيشي وهي بلدة سيدي عامر حاليا.

ترك الشيخ عامر ابنا هو "نصر" وابنتين هما "حليمة" و"خديجة" تزوجتا بالساحلين، ويظهر أن الذي ورث عنه الطريقة هو ابنه نصر الذي كان له خمسة أبناء والابنة "رقية" المدفونة في بهو زاوية سيدي عامر جدّها.

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية (التتمة)، ص 198.
2 يظهر أن هذه المعركة هي التي وقعت في أيام القائد الإسباني (درّيا) قبيل قدوم الأتراك في نهاية الدولة الحفصية وهي في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر هجريًا وقد شاركت فيها بلدة الساحلين مشاركة كبيرة. و"الدخيلة" هي خليج بين المنستير والساحلين به واحة نخيل أول واحة تعترض الذهاب من تونس إلى بلاد الجريد. وكانت المنستير في تلك العهود تعتبر الضاحية البحرية للقيروان ومحرسها.
3 الشيخ الجميني توفي سنة 1034 هـ/ 1623م وهو من رجال الفقه والتصوّف، ساح في البلاد كثيرا ودخل إلى القاهرة وأخذ عن شيوخها ثم رجع إلى جربة وتوفي بها (محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 324، عدد 1268)

وأقدم أمر عَليّ لِمُقَدِّم هو الأمر الذي به أخذ الشيخ "أحمد بن نصر بن عامر المزوغي" التقديم على الزاوية وهو مؤرخ بأواخر جمادى الثانية 1114 هـ، من مراد الثالث آخر البايات المراديين في حدود 1700 ميلادية، ثم تجدد الأمر من إبراهيم الشريف باشا باي داي الذي قتل مراد الثالث وتولّى الملك بعده وخلفه حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية.

الطريقة وأخبارها: أسست الزاوية سنة 1553م في العهد الحفصي وأتمّها فيما بعد السيد أحمد بن الطاهر سنة 1215 هـ. وحيث إن الطريقة انطلقت في البداية من صفاقس، أصبحت الزاوية محطّة للقوافل الصفاقسية الذاهبة والراجعة من الحاضرة، فلا بدّ من الراحة بالزاوية والاستجمام بها قبل مواصلة الطريق، ومن ثمّ تكوّنت الأحزاب العوامرية بصفاقس.

ويروى أن أهل سوسة كانوا يأتون إلى الزيارة، وعلى رأسهم سيدي "أحمد الميلي" كل ليلة جمعة، ويقولون شيئا من الطريقة الجزولية والأدعية التي أخذها الشيخ عامر المزوغي عن مشايخه، وأسسوا حوشا ومسجدا وغرفة. وسمع أهل القيروان والفراشيش وصفاقس فكانت الزيارات تتوالى وتكوّنت الأحزاب.

ويظهر أنه إثر الثورة على الإسبان وقع إكرام الشيخ "أبوشامة سيدي عامر بن سالم المزوغي" فحبّس عليه الداي عدّة أحباس منها حبس بن مراد (أحد ملوك الدولة المرادية) وكذلك إبراهيم الشريف باشا باي داي وبعض بايات الدولة الحسينية، كما للزاوية أحباس بفقصة والقلعة الجرداء ومنزل كامل وقرقنة وصفاقس وعوسجة وهنشير الصغير قرب الكنايس (وهي قرية من معتمدية مساكين) وثرعة الساحلين وما يفوق العشرين ألف عود زيتون.

وللطريقة عدّة زوايا بالبلاد التونسية فهناك بالحاضرة زاوية بنهج سيدي علي عزّوز وأخرى بنهج الجزيرة، وزوايا بسوسة وواحدة بالقيروان وخمس زوايا بصفاقس. ويقول الكسراوي أن الزوايا النشيطة بصفاقس هي زاوية سيدي عبّاس الجديدي، وهي أقدم معلم للعوامرية بالمدينة، وقد نزل بها الشيخ عامر نفسه في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وزاوية سيدي الخافي، وزاوية سيدي سلامة، وزاوية سيدي السبتي، وزاوية

المرابطة "للاً مسعودة". كما هنالك زاوية مجربة، وأخرى بتستور، وواحدة بالمكئين، وكذلك بالمنستير وغيرها من مدن الجمهورية.

أصول الطريقة: ربما ترجع هذه الطريقة (العوامرية) إلى عهد مراد الثالث أبي بالة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي أوائل القرن الثاني عشر للهجرة، ويظهر أن الطريقة مأخوذة من القشاشية التي اضمحلت. ويقال عندنا للطريقة العامرية "العوامرية" ولتابع الطريقة "عوامري" ولعلها أخذت من جمع عامر "عوامر" فأتى اسم التابع من الجمع "عوامري" فأصبح الجماعة "عوامرية". وهي طريقة الولي الصالح هذا الشيخ سيدي "عامر المزوغي".

يقول الصادق الرزفي في كتابه الأغاني التونسية: "ولا أعرف لهذه الطريقة حزبا خاصا ولا أذكارا خاصة، إلا بعض أدعية وتصليات يقرؤها بعضهم قبل الشروع في المديح. أما جماعتها فهي قليلة عندنا بحيث إن انتشارها في ولاية قسنطينة من عمالة الجزائر أكثر بكثير من هذا الإقليم.... وهي في جل أعمالها مشابهة لما عليه طريقة سيدي [أبي علي النفطي]".

هذا ويظهر أن الصادق الرزفي اختلطت عليه الأمور فاشتبهت عليه العوامرية بطريقة أخرى، فالشيخ "عامر المزوغي" لم يسافر إلى القطر الجزائري وربما وقع اشتباه بين هذه الطريقة والطريقة العمّارية المنتشرة بقسنطينة وهي قليلة بتونس إلا في جهة الكاف حيث إنها مأخوذة عن سيدي المزوني، إلا أن السيد الهاشمي بن عامر يقول: إن الجماعة العوامرية موجودة بقسنطينة، وكانت تشبه الشاذلية وتطابقها في جماعة العمل، إلا أن العوامرية تزيد آلة الفصبة. وقد يبدو هذا معقولا إلا أن الزاوية الأم هي زاوية سيدي عامر بالساحل التونسي. أما تشابه عملها بعمل البوعلية فهذا معروف، فهنالك فرقة بوعلية تنظم سنويا زيارة إلى مقام سيدي عامر كما أن البوعلية عندما يأتيهم عوامري يغنون له (طرُقًا) خاصًا، ولكن التشابه لا يعقل أن يجرّ إلى هذا الاشتباه.

ويقوم بشؤون العوامرية مقدّم يدير أعمال الزاوية من أناشيد وحضرات ويسمى بأمر عليّ من الباي، وله دار يتوارثها المقدمون أبا عن جد. وهناك عدّة مقدّمين صفاقسيين منهم الحاج محمّد بركية وعبدالسلام بركية والمختار الفخفاخ والحاج يوسف الجميني

والشيخ السلاحي ومحمود سيّالة والشيخ داود. ومن رياس البندير: محمود بن طار وأحمد بن حسنة والحبيب المدلل وحسن شرف الدين. ومن الزكّارة: محمد بوديّة والمختار النيفر وحسن بوطار ومحمد الشريف وطاجينة وهو أقدمهم. أما بسيدي عامر، فأشهر الزكّارة السيد عمر ثوير، وكذلك عبد السلام مخلوف من المنستير، والمختار سلامة من قصبية المديوني وهو مدرّس الزكّرة بمعهد الموسيقى بسوسة وعازف بالفرقة القومية للفنون الشعبية. أما في رياسة البندير فنجد المرحوم محمد الزرّي من سوسة وعمر البرقاوي من المنستير والمنجي المقدم وابنه عليّة بسيدي عامر.

هذا وقد قام الشيخ "الشحي الصفاقي" بجمع السفينة الخاصّة بالعوامرية فجمع فيها كل النوبات التقليدية.

طريقة العمل فيها: أكبر أيام الطريقة العوامرية هي يوم عرفة وليلة عيد الأضحى، إذ تقع زيارات كبيرة من كآقة أنحاء الجمهورية ومن عدد كبير من الأحزاب ويقوم احتفال كبير جدّا، وهذا العمل متواصل إلى الآن. أما ليلة الميعاد فهي ليلة الجمعة.

يقول المرحوم المنجي المقدم شيخ الطريقة العوامرية بسيدي عامر: "كان لدينا طبع اسمه: "طبع عبد المومن" ولكن لطول المدّة لم أعد أستحضره، ولدينا أيضا نوبة: "العشيران"، ولّمّا سألتُ عنها المرحوم محمد بوديّة قال إنها تُشبه: "الحسين" على درجة (1a) في طبقة منخفضة. ولّمّا سألت عنها بعض الموسيقيين من تونس أجابوني - بعد أن استخبرت لهم من الأوّل - إن هذا الطبع هو: "طبع العراق". ويقول سليم داود مقدم فرقة العوامرية بصفاقس: "الغربي بصفاقس يدخل (بكوّشا) أي أنّ نوبات الغربي تكون بآلات دون كلمات، فالإيقاع يسبق خلافا لما في الساحل حيث يكون البدء بالكلام. فبصفاقس يبقون حوالي خمس دقائق يعزفون فقط على وزن المربع التونسي 4 من 4، وإذا شرعنا في الكلام يصير الميزان على إيقاع الوحدة، وينتهي الغربي بميزان الجربي".

وتبتدئ النوبة العوامرية بإيقاع المصدر وهو ما يقابله المصمودي، ثم تحويلة ثم تثليثة إيقاعية ثم الدخول في البراويل فتتدرّج من البطء إلى السرعة المفرطة، وتمتاز طريقة العوامرية بنوبتين أساسيتين:

1 - نوبة المغراوي: ويقابلها من المقامات التقليدية التونسية مقام الحسين نيرز، وخاصيته كثرة الاعتماد على درجة الراسـت (دو) مثل:

اللّٰهُ اللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ	وَأَشْ خُلَافِ اللّٰهُ يُدْكَارُ
اللّٰهُ اللّٰهُ وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ	وَبَعْدِ صَلَاتِي عَلَى النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ
أَلْمُصْطَفَى شَارِقِ الْأَنْوَارِ	أَرْضُوا عَلَى الصَّحَابَةِ الْأَخْيَارِ
مَا مَقْصِدِي إِلَّا نَزُورِ الْقُبَّةِ	بَابَا عَامِرِ يَا مُلِيحِ النَّسْبَةِ
دَاوِينِي بِدَوَاكٍ وَكُنْ لِي سَنَدَةً	دَاوِينِي بِدَوَاكٍ يَا سُلْطَانِي
يَا مُحَمَّدُ الشُّوقُ لِيكَ دَعَانِي	بُوشَامَةَ اللَّيِّ سِرِّهِ رَبَّانِي
مَا مَقْصِدِي إِلَّا نَزُورِ الْعَايَةِ	بَابَا عَامِرِ يَا مُلِيحِ الصَّايَا
دَاوِينِي بِدَوَاكٍ يُزُولُ عَنِّي دَايَا	دَاوِينِي بِدَوَاكٍ يَا سُلْطَانِي
يَا مُحَمَّدُ الشُّوقُ لِيكَ دَعَانِي	بُوشَامَةَ اللَّيِّ سِرِّهِ رَبَّانِي
بَابَا عَامِرِ يَا وَلِيَّ يَا صَالِحِ	مَا بَيْنَ جَمْعِ النَّاسِ سِرِّكَ وَاصْحِ
بِيكَ يَا سُلْطَانِي قَلْبِي فَارِحِ	يَا نَدَهَةَ الْمُصَابِ بَيْنِ اخْوَانِي
يَا مُحَمَّدُ الشُّوقُ لِيكَ دَعَانِي	بُوشَامَةَ اللَّيِّ سِرِّهِ رَبَّانِي
بَابَا عَامِرِ فِي حَيَاتِهِ ثَكَلَمُ	قَالَ: لِلْفُقْرَاءِ لَيْسَ يُسَلَّمُ
يَا رَبِّ جِيزْهُمْ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ	وَاعْفِرْ لَهُمْ يَا وَاسِعَ الْعُفْرَانِ
يَا مُحَمَّدُ الشُّوقُ لِيكَ دَعَانِي	بُوشَامَةَ اللَّيِّ سِرِّهِ رَبَّانِي

ثم تختتم نوبة المغراوي بدرّازي:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ	وَالْعَمَالَةُ عَلَى اللّٰهُ
يَا أَهْلَ السِّرِّ الرَّبَّانِي	بِاللّٰهِ غَيْثُوا مَنْ نَادَاكُمْ

حُبُّكُمْ هَيْطَ نِيرَانِي قَلْبِي مِتَوَّعٌ بِهَوَاكُمْ
 يَا سَيَادِي سَيِّدِ الْأُمَّةِ التِّي صَلَّيُوا عَلَيْهِ
 الْقَمَرِ زَرَقْتَ مِنْ كُمَّه وَالتُّجُومِ تُسَبِّحُ لِيَه
 يَا سَيَادِي دَلَّلْتُونِي وَالدَّلَالَ عَلَيَّ ضَعِيبُ
 وَمِنْ يَوْمِ فَارَقْتُونِي لَا وَجِدْتُ لَدَايَا طَيِّبُ
 بَابَا عَامِرٍ فِي الْحَمَادَةِ هُوَ وَأَوْلَادَهُ
 شَيْلَةَ يَا بَابَا حُنَيْنِي يَا قُطْبَ الصُّالَاحِ
 وَاللِّي يَزُورِكُ يَا مَزُورِي يَبْرِي مِنَ الْأَجْرَاحِ

2 - نوبة العروسي: ويقابلها مقام السيكاة التونسية التقليدية مع استعمال لهجة المحير سيكاة في عقدها الثاني صعودا ونزولا. وقد يسبقها قصيد مرتجل في طبع السيكاة بلهجة خاصة:

(نَادَيْتُ وَالْقَلْبَ وَاعِي وَدُمُوعَ عَيْنِي سُخِيْفَةَ
 وَنَبَاتَ عَيْنِي تُرَاجِي فِي الشَّيْخِ مَوْلَى الْوُظَيْفَةَ
 يَا لِيُدْرِي تِنْفَعْشِي سَاعِيكَ عَابِرَ عَلَيَّ حَمْرًا خَفِيْفَةَ)

فعلى إيقاع الوحدة في مقام السيكاة التونسية:

(مِنِ الْبُعْدِ تُبَانُ * يَا قُبَّةَ سَيِّدِي * الشُّوقِ دُعَانِي

حَافِي عِرْيَانُ يَا قُبَّةَ سَيِّدِي

سِرِّكَ جَبَّادُ * حَضْرَةَ مَنْصُوبَةَ * فِي كُلِّ بِلَادُ * يَا بَابَا عَامِرُ

سِرِّكَ نَبْغِيَه * وَقَلِيلِ الْوَالِي * عَلَاشْ تَحْلِيَه * يَا بَابَا عَامِرُ

الشبوك: من عمل العوامرية ما يسمونه "الشبوك" أو "المشكل" وهو أن يرتجل الزكَّار مخاطبا بذلك عازف البندير والدربوكة كأنه يوقع بينهما ليتشابكا (لذلك سمِّي:

"الشبوك" فتارة يلتفت إلى هذا كأته يكلمه فينفع ذلك العازف ويوقع على بنديره أو دربوكته ارتجالات يبرز فيها براعته وتحكمه في آله، ثم يلتفت الزكّار إلى العازف الآخر فيخاطبه كأنه يوغر صدره فينفع وينطلق في الارتجال كما فعل خصمه، وهكذا يظهر كلّ واحد منهما مدى تحكّمه في الارتجالات دون إضاعة الميزان الأصلي. وفي حين يقوم هؤلاء بهذا "الشبوك" تجد بقية ضباط الميزان محافظين على الأرضية الإيقاعية الأصلية التي هي في وزن الدرّازي. والملاحظ أنه عند انتهاء عمل "الشبوك" لا يقع الرجوع إلى الإنشاد، وهكذا تنتهي النوبة. وعلى غرار ذلك يقع العمل في فرق العيساوية بالساحل ولدى طائفة البوعلية بأقلّ حدّة.

نموذج من سهرة في ليلة الجمعة بالزاوية¹

بعد الجلوس في شكل دائرة ينطلق الجماعة بتلاوة فاتحة الكتاب ثم يأتون بجانب
طفيف من الشاذلية: (بِسْمِ اللَّهِ * وَبِاللَّهِ * وَبِحَاجَةِ رَسُولِ اللَّهِ * بِسْمِ اللَّهِ سَمِينًا)

ثم يدخلون مباشرة في الشاذلية: (زُخِرْفَتْ جَنَّةٌ عَدْنٌ بُعِثَتْ لِلْمُتَّقِينَ

قَالَ رَبِّي فَأَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ)

ثم يدخلون مباشرة في مدح الرسول مدحة مجردة من الآلات على غرار الشاذلية
والمدينة تؤدى بالصوت على إيقاع 6من 8 بطيء في طبع المزموم بعنوان:

(يَارَبِّي بِفَضْلِكَ بَلِّغْ لِي مُرَادِي

زُورَةَ لَتَيْيِّكَ وَالْعَشْرَةَ أَسْيَادِي

شَوْقِي لِرَسُولِكَ سَاكِنِ فُؤَادِي)

ثم ينطلق الحزب بالنوبات فيأتون بها على غرار ما هو موجود في المألوف التونسي.

1 مباشر من فم أصحاب الطريقة وعلى رأسهم المقدم عليه وأخوه عمر في زيارة للزاوية يوم الجمعة 13 سبتمبر
(2002م)

النوبة الأولى: نوبة الحسين، فتكون البداية بمصدر:

(يَا زِيَارِ الْكَعْبَةِ مَهْلًا يَا سَادَاتِي
فَإِنِّي بِالْمَحَبَّةِ فِي لَيْلَةٍ مُرَادِي
ثُمَّ إِيْقَاعِ بَطَايِحِي بَطِيءٍ: أَدْعُوكَ رَبِّي تَقْبِيلَ عَلَيْنَا
بِزِيَارَةِ السَّادَةِ الصَّالِحِينَ

ثم بطايحي أسرع من الذي قبله [من منهوك الرمل]:

(يَا بُوْشَامَةَ جُدِّي بِالْعِظَا وَالْفَضْلِ
عَامِرٍ يَا سُلْطَانِي إِهْوَانِي وَارْعَانِي
مَدْحُكَ الْحَقَّانِي أَمِّنْ لِي عَمَلِي)

ثم تحويلة (برول) [من مجزوء الرمل] في وزن 2 من 4:

(شَوْشَ الْعَلَامُ عَقْلِي حِينَ نَادَى لِلزِّيَارَةِ
قُلْتُ يَا عَلَامُ مَهْلًا وَعَسَى نُعْطِي الْبِشَارَةَ)

ثم يأتي بعده دخول براول 4 من 4:

(بِسْمِ الْكَرِيمِ نَبْدَا التَّنْظَامِ سُبْحَانَهُ نِعْمَ الْمُجِيبِ
صَلُّوا عَلَى خَيْرِ الْأَنْبَاءِ الْمُصْطَفَى طَهَ الْحَبِيبِ
اللَّهُ يُرْزُقُنِي الصَّبْرَ عَنْ شَيْخِي عَامِرِ الْوَلِيِّ)

ثم يأتي برول: (يَا حَلِيمُ انْهَضْ وَقُمْ لِلصَّبَاحِ)

ثم برول: (لَا صَبْتُ لِلْوَصْلِ حِيلَةَ شَيْلُونِي يَا أَهْلَ الْفَضِيلَةِ
قَصْدِي لَوَيْلَةَ بَلْبَلِي¹ فَارْتِ عَلَى كُلِّ لَيْلَةٍ)

ثم برول: (مَا أَحَلَى الصَّلَاةَ عَلَى الْحَبِيبِ الْهَاشِمِيِّ خَيْرَ الْوَرَى

1 ليلي هذه ليست فتاة بل يقصدون بها الكعبة المشرفة.

وَدِتَّقَرَّبَ لِلْمُجِيبِ وَنَعَايْنُهُ لَمَّا سَرَى
ثم برول سريع: (يَا وَلِدُ أُمِّ الْخَيْرِ تَأْخُذُ بِيَدَيَا
سَهْلٌ لِي الْأَوْعَارُ فِي كُلِّ ثِنْيَةٍ)

أصله لحن الدرج من نوبة الحسين في المألوف الذي هو:

(قُلْتُ يَا حَبِيَّ تَلَطَّفْ وَتَعَطَّفْ بِالْمَزَارِ
أَنْتَ شِبْهُ الظِّيِّ الْأَهْيَفِ وَأَنْتَ تَسْحَرُ بِالْأَنْظَارِ)

وتكون النهاية على إيقاع الختم: (بِسْمِ اللَّهِ نَبْدًا)

وصلة في الغريي: في البداية يقوم الزكار باستخبار في لهجة الغريي الذي هو مزيج بين مقامي المزموم والنوى بشكل مؤثر جدًا، ثم تدخل الآلات في النوبة بالعادة في مقام طبع الحسين وتنتهي بإيقاع درّازي بمدحة:

(بُو شَامَةَ نُوبِ عَلِيًّا وَاحْضَرِ يَا لَلْأَرْقِيَّةِ)

وأحيانا مدحة مثل: (الْقَلْبُ شَاهِي لِقَاكَ قَصْدِي نُزُورِكَ وَنَرَاكَ

رَبِّ الْخَلَائِقِ اعْطَاكَ نُورَ مِنَ اللَّهِ شَرِيقِ)

ثم يأتي ميزان خفيف وتختتم الوصلة بإيقاعات سريعة على وزن البرول. أحيانا تُؤدَّى:

وصلة ثانية في الغريي (مثل الشغل في صفاقس) أو غريي آخر بالعادة من طبع

السيكاه:

(عَقْلِي شَاشٌ لِرُجَالِ الْحَمَادَةِ وَاللِّي يَزُورُهُمْ يَبْلُغُ مُرَادَهُ

يَا عُشَّاقِ الْحَزْبِ قَلْبِي شَوْقٌ دَمْعَ الْعَيْنِ عَ الْخُدَّيْنِ يَحْرَقُ)

ثم درّازي في السيكاه:

(يَا لَلَّتِي يَا غَرْبِيَّةِ احْضَرِي وَاعْطِفِي عَلَيَّ

يَا لَلَّتِي يَا شَوْشَانَةَ احْضَرِي وَكُونِي مَعَانَا

يَا عَامِرُ يَا سُلْطَانِي أَحْضِرْ لِي دِيمَا وَارْعَانِي
يَابْنَئِيَّةُ الْأَجْوَادُ أَحْضِرْ لِي فِي كُلِّ مِعَادُ

وصلة الثالثة على إيقاع المدور حوزي في طبع الحسين:

(مَزُوعِي يَا سُلْطَانُ إِمْلَأْ لِي كَيْسَانِي
بِحَاةِ الْهَادِي الْعَدْنَانُ شَيْخِي مَا تَنْسَانِي)

ثم تقع تحويلة في إيقاع الدرازي سريع في طبع المحير عراق:

(يَا عَامِرُ يَا شَيْخُ يَا سُلْطَانِي بُو شَامَةَ وَاعْطِفْ عَلَيَّا)

أو مدحة (عَدَّالَةٌ يَا عَدَّالَةٌ) في طبع النوى وإيقاع 6 من 8 بطيء يشبه إيقاع
العلاجي في الموسيقى الشعبية التونسية: (عَدَّالَةٌ يَا عَدَّالَةٌ يَا عَدَّالَيْنِ الْمَيْلُ

مَا تَعْدِلُونَا لِي مَيْلِي حَمَلِي عَلَيَّ ثَقِيلٌ¹

آه آه يَا بَابَا * آه آه يَا سَيِّدِي * آه آه بُو شَامَةَ

هَمَّالَةٌ يَا هَمَّالَةٌ صُبِّ الدَّمُوعُ دَبَّالَةٌ

عَلَى فَارِسِ الْحَيَّالَةِ اللَّيِّ ظَهَرَ فِي اللَّيْلِ

آه آه يَا بَابَا * آه آه يَا سَيِّدِي * آه آه بُو شَامَةَ

وتختتم بدرازي من نفس الطبع:

يَا عَامِرُ يَا قُرْشِي سَهَّلْ لِي لَيْكُ الْخَطَى نِمَشِي

بِاسْمِ الْإِلَهِ بُدَيْثُ وَعَلَى الْهَادِي الْمُصْطَفَى صَلَّيْتُ

مَوْلَى الْحَرَمِ وَالْبَيْتِ يَشْفَعُ فِي يَوْمِ اللَّقَاءِ وَحَدَهُ

يَا عَامِرُ يَا قُرْشِي..)

1 هو قسيم مربع منسوب للشيخ عبد السلام الأسمر مؤسس الطريقة السلامية، ومذكور في السفينة القادرية، ص 339.

وتوجد عديد النوبات في كل الطبوع التونسية الأصيلة على غرار هذا الترتيب المذكور في نوبة الحسين مثل:

(يَا وَيْلِي بُوشَامَة * وَاللِّي يَزُورُكَ * يَبْرَى سَقَامَه) في طبع المحيّر عراق .

أو: (بَابَا الْمُرُوعِي أَنْتَ صَنِي عَيَانِي) في لهجة العرضاوي .

وعادة ما يقوم الزكّار، أثناء المحاسبة (اللازمة الموسيقية التي تأتي بين الأبيات) بارتجالات في نفس المقام المتغنى به أو المقامات المجاورة فيبرز فيها مقدرته ومعرفته بالطبوع، ويسمى هذا الارتجال "السروح" ثم يرجع إلى نفس اللحن الأصلي الذي هو بصدد عزفه. ويكون مثل هذا في العوامرية وكذلك في البوعلية والعيساوية وحتى العمارية، من هنا نستخلص أن الطريقة العوامرية من أرقى الطرق موسيقى ومن أعمقها جذورا في التراث التونسي ومن أبدعها فتّا، وقد لا يضاهيها في ذلك إلا العيساوية التي تأخذ منها وتعطيها في كثير من المدحات.

أمّا الرقص في العوامرية فهو منفرد إذ ليس لهم صف مثلما رأينا عند العيساوية، إلاّ في شطحة فريدة في "الشاذلية" حين يرقص الجميع معا.

وكان الراقصون يربّون شوشة أي خصلة من الشعر في وسط الرأس يُرسلونها عند الرقص، فتضيف للمشهد نوعا من الزينة، ويقوم هذا الراقص المنفرد بصرخ الكنبر أو اجتلاب الجاوي أو إخراج الثقيل (الرصاص) من جوفه. فيقصّد أحد المنشدين في نوبة العروسي، ويقوم الراقص باستفراغ حبات الرصاص من فمه فترنّ في البندير الذي بيده ويديرها فيه، وعندما تنتهي نوبته يقوم بشربها كما يشرب حبات دواء. أو يقوم أحد المنشدين بمدحات في الغربي فيجلب راقص آخر الجاوي من سارية أمامه أو جدار أو من الهواء ويرمي به في الكانون المشتعلة جمراته فيتصاعد البخور ويشمه الحاضرون، أو يصرخ آخر بالكنبر (وهو إطلاق البارود)، وقد روي لنا في ذلك أعاجيب يصعب تصديقها لو لم تشاهد عيانا.

الزيارات: أصبحت زاوية سيدي عامر كما أسلفنا مزارا لأحزاب العوامرية، فمن صفاقس خمسة أحزاب عوامرية، وحزب الطريقة البوعلية التابعة لسيدي بوعلي

السّي دفين نفطة وقد اتفقوا في وثيقة عدلية عن تعيين كل حزب لأسبوعه بعد انتهاء أيام الحسوم¹.

وأصبحت هذه الأحزاب ترتيبات خاصة بهذه الزيارات فهي تقام في دخول الربيع بصفة دورية حيث إنهم يكونون قد جمعوا محاصيل الزيتون وتيسرت أحوالهم فكأنهم، مع الفارق، يؤدّون زكاتهم بزيارة

شيخهم. ويقوم كل حزب، قبل الخروج من "صفاقس" باستعراض وإعلان لأولاد الزاوية بالرحيل فيأتون بوعائدهم إلى مقرّهم من قمح وشعير وزيت وفاكهة وشريحة التين والأفاويه والقرنيط المجفّف والبخور والنقود والغنم وغير ذلك، فتلتئم قافلة مهمة مؤلفة من عرباتهم وكرارطهم أمام الزاوية فيحملون تلك البضاعة، وفي يوم الخميس يخرجون بين راكب وماش، ويسير الراكب في طريق مخصوص هو طريق الشاطئ إلى مدينة "جبنيانة" فينزلون بها ويبيتون بزاوية سيدي "أبي إسحاق"² الأب الروحي لجبنيانة و يقيمون بها حضرة. وفي الصباح الباكر يواصلون طريقهم إلى "قصور الساف" فينزلون على زاوية سيدي "علي محجوب"³ ويعترضهم أبناء الزاوية فيقرؤون فاتحة الكتاب على

1 أمّنا السيد عليّة المقدم بوثيقة عدلية مؤرخة في 01 محرم الحرام سنة 1280 هـ، أي سنة 1872 م تقريبا تنازل فيها الشيخ الحاج علي المهيري عن أسبوع حزبه الأول وأخذ عوضا عنه الأسبوع الخامس فأصبحت الجمعة الثانية بعد الحسوم لحزب الشيخ الحاج محمود سيالة والجمعة الثالثة لحزب الشيخ أحمد بن علي الرقيق والجمعة الرابعة لحزب الشيخ عامر بن عبد اللطيف السلامي والجمعة الخامسة عوضا عن الأولى لحزب الشيخ علي المهيري.

2 أبو إسحاق الجبنياني هو ثاني اثنين في الشهرة بالعلم في الربوع التونسية مع الإمام سحنون. هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي بن سالم البكري ولد سنة 280 هـ/893م وكان أبوه أحمد واليا لبني الأغلب على الخراج وكان جدّه قاضيا على مدينة صفاقس وأسس رباط المحرس، وكان ثريا يملك قرية جبنيانة بما فيها، وله رباعات كثيرة بمدينة صفاقس، وكان هذا الجد من أصحاب سحنون ويتأخى مع ابنه محمد فقد أرضعته أم محمد. شبّ أبو إسحاق في انهيار الدولة الأغلبية وتحكّم بني عبّيد الذين صادروا والده وانتزعوا أملاكه. درس أبو إسحاق بجبنيانة على العابد بن عاصم، ولم يلبث أن دخل قلبه وعظّ أستاذه وانخلع من الدنيا ولبس عباءة الصوف وهرب عن والده. فبحثوا عنه فوجدوه بعد مدّة بسوسة يعجن الطين بالأجرة. فلما خاطبوه قال: قولوا لوالدي: أكنت تظنّ أنّه يخرج من ظهرك من يطلب الحلال؟ ... وبقي أبو إسحاق بتونس ينتقل من بلد إلى بلد ويعمل لكسب قوته من عمل يده. ثمّ أدّى فريضة الحجّ في سنة 314 هـ واجتمع هناك بوالده. ثمّ رجع إلى تونس ودخل القيروان وأخذ العلم عن أبي بكر اللباد فكان يأتيه من حين إلى حين ومعه جرادق من دقيق الشعير يفطر على واحدة كلّ ليلة ويأتي إلى بئر روطة فيشرب من مائها، ثمّ يأخذ عن أبي عبد الرحمن حمود بن سهل الفقيه الزاهد لو هو سيدي سهل قرب حمام سوسة وله زاوية وقبة مشهورة [ولأبي إسحاق إجازة من عيسى بن مسكين. وله نوادر كثيرة تدلّ على علم وذكاء وورع. وتوفي أبو إسحاق سنة 369 هـ وهو في التسعين من عمره وترك سبعة أبناء ودُفن قريبا من قرية جبنيانة بجهة الشرق وعلى قبره قبة ومقامه بها مشهور. (النيال، ص 176 - 181).

3 انظر ترجمته عند ذكر الشابية في كتابنا هذا.

ضريح السيد علي محجوب ويريجون قليلا دون المبيت ويواصلون طريقهم إلى "طبلبة" فيبيتون بها ويقيمون حضرة في مقام سيدي "علي شبيل"¹.

وفي الصباح الباكر يواصلون طريقهم إلى "الساحلين" فيذهبون مباشرة إلى سيدي "نصر الشارف" فيريجون بالمقام وعند العصر يخرجون قاصدين سيدي "عامر بوشامة" فيخرج لهم حزب سيدي عامر ويلتقي الجمعان بـ"وادي الغدير" في وسط الطريق وسناجقهم مزرية وغناؤهم يتعالى فينشد حزب صفاقس:

جِيْنَاكُم جِيْنَاكُم وَفُصَدْنَا جِمَاكُم
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ لَأَجِينَا زُرْنَاكُم

فيردد حزب سيدي عامر: أَهْلًا وَسَهْلًا بِالزَّائِرِينَا
وَإِحْنًا بِقُلُوبِنَا جَاوِنَا لِيَدِينَا

فإذا التقى الفريقان، سلّموا على بعضهم البعض سلاما حارًا، ثم يتحد الحزبان في نوبة واحدة:

أَدْعُوكَ رَبِّي تَقْبِلُ عَلَيْنَا
بِزِيَارَةِ السَّادَةِ الصَّالِحِينَ

ويكون هكذا يوم الرجوع بهذه النوبة أيضا، ويكون مجيئهم يوم السبت فيبيتون ليلتها ويوم الأحد صباحا يقومون بزيارة مقام الشيخ سيدي عامر، ومن هنالك يبدأ المهرجان، فيمكثون أسبوعا أو ستة أيام بالتدقيق.

الليلة الأولى: وهي يوم الأحد ليلة الاثنين، يقوم حزب صفاقس بجولة في البلدة للتعريف بأنفسهم، فيبدؤون بنوبة أمام دار المقدم، ثم يجولون في البلدة، وتقع الزيارة (ويودعون أيضا بالجولة) وكل عرش من أحفاد الشيخ الخمسة أولاد نصر يخصص شخصين أحدهما يهتم بالغداء وهو كسكسي ولحم، والآخر بالعشاء ويكون ملوخية

1 الشيخ علي شبيل هو دفين طبلبة وصاحب زاويتها المشهورة، يظهر أن أصله مغربي نزح أسلافه من إسبيلية، ومن المغرب انتقل إلى تونس واستوطن طبلبة في آخر القرن العاشر حوالي 972 هـ أو بداية القرن الحادي عشر (النيال، ص 318).

تيمّناً بالخصب ومرقة، وفي الصباح تقدم قصاع العصيدة والفطائر، أما المقدم وجماعته فيأتيهم سهمهم في مثرذ خاص إلى حجرة المقدم. وهكذا يومياً حتى يوم الإربعاء يخدم أولاد الزاوية أضيافهم.

يوم الخميس: يستدعي مقدم حزب صفاقس أولاد سيدي عامر الذين يتولون تقديم السهرة والحضرة، فينطلقون منذ الصباح بالشاذلية وبقية الأحزاب في مقام للأرقية، وفي المساء يقومون بعدة ألعاب وتسليات بحزب أو فرقة وترية أو على آلة الكرنيطة في مصاحبة الأغاني العتيقة وهنا كل عازف أو قوَال يظهر مقدرته في انشراح وانبساط، وفي الليل ينصبون الحزب فيقوم بنوبات ومدحات وغربي ورقص وجاوي وكنبر وغير ذلك.

يوم الجمعة: يقوم أهل سيدي عامر بإفطار الضيوف وإهدائهم عشر قصاع من الكسكسي واللحم، ويرجع وفد صفاقس بجولة في البلدة كما أسلفنا ونوبة:

أَدْعُوكَ رَبِّي تَقْبَلْ عَلَيْنَا بِزِيَارَةِ السَّادَةِ الصَّالِحِينَ

ويخصص يوم السبت للتنظيف استعداداً لاستقبال الحزب الموالي يوم الأحد بنفس الطريقة وهكذا تمر خمسة الأحزاب العوامرية وحزب العلوية (البوعلية).

وذكر علي الحشيشة في كتابه (السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس) مسلماً معاكساً لما ذكرناه فجعل مسلك الذهاب مسلك الإياب مع تغييرات طفيفة¹. وبعد التحقق من أصحاب الشأن تأكد لدينا مذهبنا نحن إليه. على كل نواصل مسلكنا، ففي طريق الرجوع لا يتقابل الحزبان القادم والراجع، إذ أن الراجعين يمرّون على بلدة "المصدور" لزيارة سيدي "المائل" فيغتسلون بماء البئر التي في الزاوية، ويتداوون من الصفراء، ويمرون بمدينة "جمّال" لزيارة السيدة "أمّ الزين" الجمّالية². وفيها نوبة نذكر منها:

اللِّي لَيَعُهُ الْعَرَامُ مِثْلِي أَنَا مَقْهُورُ

فِي حُبِّ السُّلْطَانِ شَيْخِي بُوَشَامَةَ

قَصْدِي يَا الْإِخْوَانَ نِعْنَى لِيهِ نُزُورُ

1 علي الحشيشة؛ السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس؛ مطبعة سوجيك صفاقس 2000.
2 هي أمّ الزين البوهلية بنت ميلاد سعيد الجمالي (راجع آخر كتابنا هذا)

وَنَبَاتِ حَاطِي بِالْهَنَا وَالسَّلَامَةِ

يَا مَاثِي لِلشَّيْخِ اخْتَمَ عَلَى الْمَضُورِ

تُظْهِرُ لِيكَ الْقُبَّةَ فِي مَثِيلِ حَمَامَةِ

وَاللِّي زَارَهَا عَلَى اللَّهِ يَبْرِي سَقَامَهُ

أما نوبة أم الزين كما تنشدّها فرقة عليّة المقدم بسيدي عامر فهي على النحو التالي: تبدأ النوبة باستخبار في مقام العرضاوي تؤدّيّه آلة الزكرة، ثم يقوم أحد المريدين من ذوي الأصوات الحسنة فيؤدّي عروبي (ياسيدة حرمك منور) ثم يعيد الزكّار ما قاله المنشد، ثم يدخل المنشدون والآلات في إنشاد الردة (يا للاً مريض عليل ننادي على أمّ الزين) ثم تُعنى الأبيات في مقام العرضاوي مطرزة بخرجات في مقام الحسين، وتتوالى الأبيات والخرجات. أمّا الإيقاع فهو في البونوّارة، ويتواصل مع شيء من السرعة في خطوته، وتختتم النوبة بمدحة: (أول ما نبداً باسم الله ورسول الله نمدخ في مقامك يا لللاً) في وزن الدرّازي وطبع الحسين.

(عروبي عرضاوي) يَا سَيِّدَةَ حَرْمِكَ مَنْوَرٌ بِالذِّكْرِ وَحُسْنِ الْمَعَانِي

يَا سَيِّدَةَ قَلْبِي مَغَيَّرُ نَبِيغِيكَ تُنظِرُ لِحَالِي

(بيت في العرضاوي) يَا لَلَّامُ مَرِيضٌ عَلَيْكَ اللَّوْمُ وَاحْضَرُ يَا أُمَّ الزَّيْنِ

يَا لَلَّامُ نَبِداً بِاسْمِ اللَّهِ نُنْظِمُ فِي الْحِلَّةِ

يَا لَلَّامُ بُجَاهِ رَسُولِ اللَّهِ وَاحْضَرُ يَا أُمَّ الزَّيْنِ

(بيت آخر في العرضاوي) يَا لَلَّامُ يَا ابْنَيْتِي جَمَّالُ يَا أُمَّ سَبْعَةَ مَحَالِ

يَا لَلَّامُ مَرِيضٌ فِي الْحَالِ وَاحْضَرُ يَا أُمَّ الزَّيْنِ

(خرجة في الحسين) يَا لَلَّامُ جِيْنَاكِ اللَّيْلَةَ فِي لَيْلَةِ جُمُعَةٍ وَفَضِيلَةَ

يَا أُمَّ الزَّيْنِ عَلَيْكَ الْعَمِيلَةَ وَاحْضَرُ يَا ابْنَيْتِي جَمَّالُ

(خرجة أخرى في الحسين) نُدْخُلُ مِنْ بَابِ الْفُرْجَانِي وَنُشُوفُ الْقُبَّةَ بِعَيَانِي

مُؤَلَاةَ السَّرِّ الرَّبَّانِي بِالسَّرِّ وَالْبُرْهَانِ
 (ثم يرجع عرضاوي) بِالْإِكِّ تِنْسَانِي يَا لَلَّامِ الزَّيْنِ
 بِالْإِكِّ تِنْسَانِي وَأَنَا مَا نِنْسَاكَ
 عَلَى طُولِ زَمَانِي وَأَحْضَرُ يَا أُمَّ الزَّيْنِ
 لَلَّامِ الْمُحْبُوبَةِ حَضْرَةَ وَبِنَادِرِ
 قُبَّةِ مَنْصُوبَةِ عَلَى رَاسِ أُمَّ الزَّيْنِ

عَجَّلْ بِالنَّوْبَةِ * وَأَنَا مَا نِنْسَاكَ * عَلَى طُولِ زَمَانِي

(ثم في مقام السيكاه) لَلَّامِ وَعَجَّلْ بِالْحَيَّةِ تَأْيِهَةَ يَا بُوَهْلِيَّةِ

مَجْدُوبَةَ بَيْنَ حَضَارِي

مَنْصُوبَةَ لَا يُزُورُكَ شَبْشُوبِ

دَاءِ فُلَيْبِي * وَمَا بِيَا * يَا لَلَّامِ وَعَجَّلْ

بِنْتِ بِلَادِي * يَا مُؤَلَاةَ * الْمَدْفَعِ صَادِي

يَا لَلَّامِ سَأَلْتِكَ بِالْهَادِي وَعَلَيْلِكَ سَالِمِ بِالْحَيْرِ

وتختتم النوبة بهذه المدحة (في طبع الحسين ووزن الدرّازي)

أَوَّلُ مَا نَبِّدَا بِسْمِ اللَّهِ * وَرُسُـوَلِ اللَّهِ * نِمْدَحُ فِي مَقَامِكَ يَا لَلَّامِ

يَا أُمَّ الزَّيْنِ مَعْرُوفِكَ لِلَّهِ * يَا سَعِيدِيَّةَ * عَجَّلْ بِالْوَصْلِ يَا جَمَّالِيَّةَ

قُدَّامَ دَارِكَ نَصُبُوا الْمُحَلَّةَ * آه يَا لَلَّامِ * طَبَّالَ يَضْرِبُ زُكْرَةَ وَرَنَّةَ

يَا أُمَّ الزَّيْنِ مَعْرُوفِكَ لِلَّهِ * يَا سَعِيدِيَّةَ * عَجَّلْ بِالْوَصْلِ يَا جَمَّالِيَّةَ

آه يَا لَلَّامِ خَبْرِكَ شَادُ * مِنْ تُونِسَ حَتَّى لُبْعَادَا * يَا لَلَّامِ عَظَاكِ الْجُودِ

سِرِّ وَكَـوْنِيَّةَ * سَافِرُ مَعَانَا * وَخُودُ الْقَنِِيَّةِ

زيارات أحزاب العوامرية غير الصفاقسية

أحزاب المكنين: تقع زيارة أحزاب" المكنين " في آخر الصيف وأول الخريف فيتم استدعاء وتشويق، ويأتي المریدون بالبطيخ والفخار والهدايا الأخرى من قمح وشعير وغير ذلك، فيصلون إلى سيدي " نصر الشارف"، ثم يبلغون الهدايا إلى أولاد الزاوية، وكان آخر هذه الأحزاب حزب " بو فيلة" وحزب " الحاج عبد الله بن خليدية"، ويكون الحزب ليلة الجمعة فيبيتون هناك ويرجعون من غد إلى بلدهم.

حزب الغرابة: يأتي هذا الحزب من "القلعة الجرداء (الخصبة)" وهداياهم هي (البرشني) أي الجدي، وتستعمل فرقتهم الفصبة والبنادر على غرار أولاد بوغانم (قرب تالة)، فيغنون مدحات للأولياء والصالحين، وزيارتهم خفيفة، فيزورون شيخهم "محمد بن خليفة" المدفون ببجيرة سيدي عامر (والبحيرة هي الأرض المزروعة).

حزب سوسة: يشوق لزيارة سيدي عامر في النصف الثاني من رمضان فيأتي أصحابه إلى الزاوية كما يأتونها صباح عيد الفطر.

حزب القيروان: حزب شقرون وحزب فرفالة يأتیان مرّة في السنة، فيبيت الجماعة ثم يرجعون من حيث أتوا.

الصريقة الشَّصِيَّة بمساكن

نسبة إلى سيدي عمر الشَّصِي المتوفى سنة 1065هـ/1652م

الشيخ المؤسس: عمر بن أحمد بن عمر بن علي الزاهد (الأعمى) الحسيني. وسمي "الشَّصِي" لأنه كان يتشظط على الناس (أي يزوي عنهم) ومن هذا الانزواء أتى لقب "الشَّصِي" عاش ولازم الشيخ "عامر المزوغي" وكانا رفيقين. يُروى أن الشيخ "عمر الشَّصِي" ساح صحبة الشيخ "عامر المزوغي" فمرا بقبيلة، فأهداهما رئيسها قطيعا من الغنم، فلمَّا أرادا الدخول إلى "مساكن" قال له: "سوق...سوق يا عامر! الدقة (الوخزة) لي والشائدة ليك، لو نروح بيها، أولادي يتقاتلوا عليها". وتوفي في حدود سنة 1065هـ/1652م، وترك من التلاميذ المشهورين محمد بن فرج المشهور بالمالوف، ورؤوف الزرلي في العيساوية والبشير وصالح الشاهد اللذين أخذوا عنه الشَّصِيَّة وهي نوبة (ألف بُكْرَة مِنْ عَقَابِ اللَّيْلِ) التي تنتهي بدخول براول.

ولسوء الحظ، عندما زرنا المقام كان عشية يوم الجمعة، فوجدنا سوقا منتصبة في فناء المقام ليس بها إلا النساء، فسألنا عن ذلك، فقيل: إن البلدية نصبت فيه سوقا يوم الجمعة، ولمَّا كثرت الاختلاط وظهرت بوادر غريبة، طلب أهل الزاوية من السلط البلدية جعلها سوقا خاصة بالنساء، فأجابتهم إلى ذلك وبعثت أعوان تراتيبها للمراقبة.

أخبار الطريقة: من أوّل ما اتفق الشيخان على اقتسام البركة أصبحت الوعائد

غنما وثيرانا وغيرها تأتي إلى سيدي عامر، ولكن لا بد من زيارة الشيخ الشطي وإلا فالزيارة غير مقبولة" هكذا يصرّح الشيخ محمد شبيل الشطي في حديث معه أجريناه عشية يوم الجمعة 20 سبتمبر 2002 م بمقر الفرقة بمساكن، أما الآن فيقود الفرقة هذا الشيخ محمد شبيل بن أحمد بن بلقاسم بن عثمان الشطي المولود حوالي 1917م، في صباه حفظ جانبا من القرآن الكريم في بلده ودرس بجامع الزيتونة المعمور. وكان منذ نشأته الأولى مغرما بالغناء الصوفي والإيقاع حتى فاض فنه على يدي والده الذي عاش إلى التسعين، وكان الشيخ محمد شبيل من عائلة فلاحين أبا عن جدّ، وقد تقلّد أمر مشيخة الطريقة العامرية بزاوية سيدي عمر الشطي بأمر عليّ مؤخّ في 1949م، ويظهر أن ذلك كان بعد وفاة والده، وتكوّنت الفرقة الشطية الحالية منذ 1930م. والشيخ محمد شبيل متألم من حظّه لدى السلط الشقافية، رغم شهادته التقدير العديدة المزيّنة لجدار النادي مع الصور التذكارية، ويرى أنّ الشباب غير مقبل على هذا التراث، بل يجري وراء الدرهم والدينار، ولو لم يقف السادة محمد الأكلح وخليفة الأكلح وابنه أحمد الزكّار إلى جانبه لما استطاع تكوين الفرقة، وقد كانوا لا يطلبون أجرا إنما يعملون بما يسمّونه (البدنة) أي الطعام من كسكسي ولحم، وكانوا عندما يدخلون دارا تتحجّب النساء، ويمنع الاختلاط. أما الآن حسب قوله فقد اختلطت الأمور وأصبح الشباب لا يبحث إلا عن النقود.

أصول الطريقة: أتباع هذه الطريقة يصرّحون أنهم ليست لديهم أرصدة من أغان أو سفائن تقليدية ماعدا ما يسمّى الشطية أو نوبة سيدي الشطي، فهم يأخذون من كل شيء بطرف، ويميلون إلى العوامرية في أغلب أعمالهم، وهكذا فإنّ آلاتهم تتمثّل في البندير والدربوكة والزكرة، وقد يضيفون إليها النغارات إن كانوا جالسين. أمّا الميعاد الأصلي فهو يوم الجمعة وهو مجعول للتمارين والإشهار.

طريقة العمل: كانوا يستهلّون بالعادة، ثم قراءة الفاتحة ثمّ الدعاء (اللهمّ أطعم من أطعمنا واسق من سقانا إلخ...)، ثم يشرعون في النوبات وفي كل نوبة يذكرون الشطي:

فمن نوبة راست الذيل:

(زَادَ شَوْقِي وَقَدْ حَلَآ لِي وَمَدَّحِي يَطِيبُ)

وهو خاص بنوبة الشطي، أو ممّا يُبدأُ به السهرة من نوبة راست الذيل أيضا: (قَدْ هِئْتُ) أو مصدر (أنا الذي قد هِئْتُ)

ومن نوبة العراق: (قَصْدِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ * وَنُشَاهِدُ مَقَامَهُ * وَنُصَلِّيْ عَلَيْهِ)
 ومن نوبة الإصبعين: (يَا جَاهِلًا هَذِي الْأُمُورُ إِسْمَحْ لَنَا فِيمَا مَضَى)
 ومن نوبة السيكاه: نَدْعُوكَ يَا رَبِّي تَقْبِيلَ عَلَيْنَا
 بِزِيَارَةِ السَّادَةِ الصَّالِحِينَ

أو يذكرون:

(اللَّهُ، يَا أَهْلَ اللَّهِ قَلْبِي بَعَاكُمْ وَالْفَوْزَةَ بِيَكُمْ إِلَى اللَّهِ)
 (يَا فَرَحْتِي يَا هَنَائِي أَنَا بَلَعْتُ الْأَمَانِي)
 الشَّطِّي شَيْخُ الْعِنَايَةِ بَابًا مِنْ كَأْسِهِ سَقَانِي
 سِيدِي سَقَانِي الْمُدَامَةَ مِنْ خَمْرِهِ طَيِّبِ الْأَنْفَاسِ
 شَاهَدْتُ بِهَا الْكِرَامَةَ وَإُنْجَلْتُ عَنِّي الْأَوْكَاسِ

و نوبة خاصة محير عراق: (يَا خَيْلَ سِيرُوا)

أو نوبة الشطي في المحير عراق: (أَلْفُ بُكْرَةٍ مِنْ عِقَابِ اللَّيْلِ)

أو نوبة الحسين: (كُلُّ مَنْ يَهْوَى الرَّسُولَ)

أو نوبة المغراوي: (اللَّهُ اللَّهُ * لَا إِلَهَ * إِلَّا اللَّهُ)

وَمَقْصِدِي أَيْ نُزُورِ الْقُبَّةِ وَبَابَا الشَّطِّي يَرْحَمُ اللَّيَّ جَابَهُ

أو نوبة المزموم: (بِاسْمِ الْإِلَهِ بَدِيثِ وَعَلَى النَّبِيِّ صَلَّيْتُ)

ودرازي محير سيكاه:

(آه يَا وُلِيَّ * يَا سِيدِي الشَّطِّي * يَرْحَمُ اللَّيَّ جَابَهُ)

وعلى لحن (يا ناس جرت لي غرايب) في مقام الحسين:

يَا فَرَحَتِي يَا هِنَايَ أَنَا بَلَّغْتُ الْأَمَانِي

الشَّطِّي شَيْخُ الْعِنَايَةِ أَبَا مِنْ كَأْسِهِ سَقَانِي

ومن النوى: (طَيِّبُ الْمَنَازِل).

وقد يختمون بنوبة (أم الزين).

كذلك يذكرون مدحة سيدي الدهمول أو مدحة سيدي الحذيري: (يَا زَائِرِينَ)
وَنُوبَ (نوبات) أُخْرَى تَتَغَنَّيُ بِالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

رواح العريس:

في الليلة التي تلي صباح العرس يجددون للعريس سهرة ثانية يقع فيها الكثير من
الظرف والفكاهة، وكذلك في الطهور.

نموذج من سهرة شطية

وافانا رئيس الفرقة الشطية السيد حبيب الشطي بنموذج من سهرة شطية، علق قبل ذكره بأن للشطية علاقة أكثر متانة بالعوامرية (من بقية الطرق الأخرى)، "بمقارنة أحزاب طريقتي العوامرية والشطية نلاحظ تشابها في المعاني والأداء". ثم يواصل قائلا: "تبدأ السهرة بالدخلة وتسمى العادة وفيما يلي نصها:

بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ * وَبِحَاوِ رَسُولِ اللَّهِ * بِسْمِ اللَّهِ سَمَّيْنَا * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
 زُخْرِفَتْ جَنَاتُ عَدْنِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
 قَالَ رَبِّي فَأَدْخُلْوَهَا * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * بِسَلَامٍ آمَنِينَ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
 يَا إِلَهِي بِالْمُشَفَّعِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمُرَفَّعِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
 لَا تُخَيِّبْ يَا إِلَهِي * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * كُلٌّ مَنْ حَضَرَ وَيَسْمَعُ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
 شَيْخُنَا سَيِّحُ الْكَمَالِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * الشَّطِّي فَحُلُ الرَّجَالِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
 يَسْقِينَا حَمْرَةَ زُلَالِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * بَاهِيَةَ تُصْلِحُ أَحْوَالِي * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

اللَّهُ يَا أَهْلَ اللَّهِ قَلْبِي بَعَاكُمْ وَالْفَوْزُ بِكُمْ إِلَى اللَّهِ
 اللَّهُ وَالشَّطِّي شَيْخُ الْعِنَايَةِ بَابَا بِيكَا سَقَانِي
 سَيِّدِي سَقَانِي الْمُدَامَةَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعَصَّرِ النَّاسُ
 وَحَفَظْتُ سِرَّ الْمُدَامَةِ حَتَّى ثَوَّلَعْتُ بِالْكَاسِ
 شَاهَدْتُ بِهَا الْكِرَامَةَ وَأُنَجَلْتُ عَنِّي الْأَوْكَاسِ
 بِاسْمِكَ نَبْدَا نَبْدَا يَا عَالِمَ بِيحَالِي
 أَزِلِ الشَّدَّةَ الشَّدَّةَ لَا تَقْطَعْ أَمَالِي
 كُنْ لِي سَنَدَةَ سَنَدَةَ فِي يَوْمِ الرُّحَالِ
 كُنْ لِي نَصِيرًا كُنْ لِي نَصِيرًا لِأَحْوَالِ الْإِبَالِ
 بَابَا الشَّطِّي * شَيْخِي شَيْءُ اللَّهِ * شَائِسِ الْحَاظِرِ * لِمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ...

وتعتبر العادة بمثابة المقدمة التي يفتتح بها الحفل الديني الخاص بالطريقة الشطية. ويليهما القسم الغنائي والإيقاعي فتقدم الفرقة نوبة في مقام راسد الذيل ووزن خفيف عوامري وهي:

قَدْ هَمْتُ مَاذَا مَا بِالْوَجْدِ * يَا سَيِّدِي * وَأَعْدِرُ جُنُونِي
 وَالذَّمْعُ سَالَ مِنْ عَيْنِي * يَا سَيِّدِي * جَرَّحَ جُفُونِي
 وَأَنْظُرُ لِي أَنَا وَمَنْ حَوْلِي * يَا سَيِّدِي * وَأَحْضُرُ يَا شَطِّي
 شَيْخُ الْوَفَاءِ * الْوَفَاءُ يَا اللَّهُ * شَيْخُ الْوَفَاءِ الشَّطِّي
 نُورُهُ وَتَسْنِينِي * يَا سَيِّدِي * وَأَحْضُرُ يَا شَطِّي
 يَا فَرَحَتِي يَا هِنَايَ * أَنَا بَلَّغْتُ الْأَمَانِي * أَنَا بَلَّغْتُ الْأَمَانِي
 وَالشَّطِّي شَيْخُ الْعِنَايَةِ * بَابَا بِيكَا سَقَانِي * بَابَا بِيكَا سَقَانِي
 سَيِّدِي سَقَانِي الْمُدَامَةَ * مِنْ خَيْرِ مَا تَعَصَّرِ النَّاسُ * مِنْ خَيْرِ مَا تَعَصَّرِ النَّاسُ

شَاهَدْتُ بِهَا الْكِرَامَةَ * وَانْجَلَّتْ عَنِّي الْأَوْكَاسُ * وَانْجَلَّتْ عَنِّي الْأَوْكَاسُ
 الْعَرَامُ هَزَّنِي حَيَّرَ ذَلِيلِي * الْعَرَامُ هَزَّنِي حَيَّرَ ذَلِيلِي * آه يَا شَيْخ
 مَا وَجِدْتُمْ مَنْ يَغْذِرُنِي * كَانِ اللَّيِّ حَبُّهُ بِغَرَامِهِ مُعِينِي * آه يَا شَيْخ
 وَالْعَرَامُ يُحَيِّرُ حَيَّرَ ذَلِيلِي * وَالْعَرَامُ يُحَيِّرُ حَيَّرَ ذَلِيلِي * آه يَا شَيْخ
 وَالْعَرَامُ يُحَيِّرُ صَبْرِي * مُوَلَايَ خَالِقِي حَيَّرَ ذَلِيلِي * آه يَا شَيْخ
 وَالْعَرَامُ حَيَّرَنِي حَيَّرَ ذَلِيلِي * وَالْعَرَامُ حَيَّرَنِي حَيَّرَ ذَلِيلِي * آه يَا شَيْخ
 وَالْعَرَامُ حَيَّرَنِي صَبْرِي * مُوَلَايَ خَالِقِي صَبَّرَنِي * آه يَا شَيْخ

أَقْبَلَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ نِيَّاتِ الْوَدَاعِ
 وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ
 أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ
 مَرْحَبًا أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ يَا بَدْرَ الْبُدُورِ

يَا وُلِيَّ يَا بَابَا * سَيِّدِي الشَّطِّي * يَا وُلِيَّ يَا بَابَا * سَيِّدِي الشَّطِّي * وَاللَّهِ
 دَائِمٌ حَيٌّ

يَا وُلِيَّ يَا بَابَا * وَاللِّي يُزُورِكُ * يَنْبَلِغُ مُرَادُهُ * سَيِّدِي الشَّطِّي * وَاللَّهِ
 دَائِمٌ حَيٌّ

يَا وُلِيَّ يَا سَيِّدِي * بَابَا الشَّطِّي * يَا وُلِيَّ يَا سَيِّدِي * بَابَا الشَّطِّي * وَاللَّهِ
 دَائِمٌ حَيٌّ

يَا وُلِيَّ يَا سَيِّدِي * يَا مَنْ هَدَرَ دَمَهُ * تَأْخُذُ تَأْخُذُ بِيَدِي * بَابَا الشَّطِّي * وَاللَّهِ
 دَائِمٌ حَيٌّ

يَا وُلِيَّ يَا صَالِحَ * بَابَا الشَّطِّي * يَا وُلِيَّ يَا صَالِحَ * بَابَا الشَّطِّي * وَاللَّهِ
 دَائِمٌ حَيٌّ

يَا وُلِيَّ يَا صَالِحَ * لَبَيْتُ جَمْعِكَ * يَا سِرِّكَ فَاوُخَ * بَابَا الشَّطِّي * وَاللَّهِ
 دَائِمٌ حَيٌّ

نَادَيْتُ عَلَىٰ مَحْبُوبَةٍ * يَا سَاكِنَةَ مَثُوبَةٍ * رَبِّي عِظَاكِ الثُّوبَةِ * وَاعْمَلْ
عَلَيَّ جَمِيلٌ

نَادَيْتُ رُجَالَ الصَّبْرَةِ * دَاوِي الْمَرِيضَ يَبْرَى * بِنَجَاهِ عَالِي الْقُدْرَةِ * وَاعْمَلْ
عَلَيَّ جَمِيلٌ

نَادَيْتُ رُجَالَ السَّاحِلِ * وَخَلَّصَ سَيِّدِي الْوَاحِلِ * وَبِنَجَاهِ سَيِّدِي الرَّاحِلِ * وَاعْمَلْ
عَلَيَّ جَمِيلٌ

نَادَيْتُ يَا بُرَاوِي * مُوَلَّى الْقِنْدِيلِ الصَّاوِي * وَالسَّطِّي عِظَانِي الْجَاوِي * وَاعْمَلْ
عَلَيَّ جَمِيلٌ

برول:

رَبِّي جَمَعْنَا بِالسَّلَامِ * اللَّهُ اللَّهُ * فِي أَرْضِ الْفَيَافِي وَالْقِفَارِ * اللَّهُ اللَّهُ * فِي أَرْضِ
الْفَيَافِي وَالْقِفَارِ * اللَّهُ اللَّهُ

كُنَّا جَمِيعٌ مُجْتَمِعِينَ * اللَّهُ اللَّهُ * نِتَنَّا وَوَلُّوا كُبُوسَ الْعِظَاتِ * اللَّهُ اللَّهُ * نِتَنَّا وَوَلُّوا
كُبُوسَ الْعِظَاتِ * اللَّهُ اللَّهُ

بَعْدَ الْبِعَادِ صِرْنَا هِيَامَ * اللَّهُ اللَّهُ * نِتَفَكَّرُوا بَعْدَ الدِّيَارِ * اللَّهُ اللَّهُ * نِتَفَكَّرُوا
بَعْدَ الدِّيَارِ * اللَّهُ اللَّهُ

وَالظَّيْرُ عَنِّي فِي السَّحَرِ * اللَّهُ اللَّهُ * يُنْشِدُ عَلَى نَعْمِ الْوَتَرِ * اللَّهُ اللَّهُ * يُنْشِدُ عَلَى
نَعْمِ الْوَتَرِ * اللَّهُ اللَّهُ

يَصِيحُ فِي جُنْحِ الدُّجَى * اللَّهُ اللَّهُ * مَا بَيْنَ دَوْحَاتِ الشَّجَرِ * اللَّهُ اللَّهُ * مَا بَيْنَ دَوْحَاتِ
الشَّجَرِ * اللَّهُ اللَّهُ

يَا لَأَيِّمِ الْإِخْوَانَ يَا لَلِي رَأْيِكَ مَعْدُومِ

أَنْظُرِي يَا إِنْسَانَ هَذَا السِّرُّ الْمَعْلُومِ

شَطِّي يَا سُلْطَانَ طَاعَتُهُ كُلُّ سُمُومِ

بُكْرَة وَمَسَاء حِرْبُهُ يُجَلِّي الْأَوْكَاسُ
بَابَا الشُّطِّي شَيْخِي مُوَلَّى الْبِلَادْ....

بعد هذه النوبة تقوم الفرقة بإذشاد نوبة ثانية في مقام الأصبعين ووزن خفيف عوامري وهي كالآتي:

(رَأَيْتُ طَهَ فِي مَنَائِي وَطَلَبْتُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ).

وتليها نوبة في مقام الحسين "نزاد النبي وفرحنا بيه".

ويأتي بعد ذلك دور الإستعراض والرقصات البهلوانية، وذلك من خلال رقصة "بوسعدية" على إيقاع عجمي ونوبة "هات السوداء" في مقام العجم أو نوبة "سيدي بو لبابة" في مقام السيكا.

إثره يأتي دور الاستعراض الثاني لشطّاح "الصرارفي"، ويقوم هذا الأخير بأداء رقصات مختلفة باستعمال القلال والصرارف (السلامل)¹.

وتعود الفرقة للإذشاد والإيقاع بأداء نوبة في مقام العرضاوي: "أم الزين الجمالية". كما تقوم الفرقة ببعض الأوزان والنغمات الشعبية الفولكلورية.

وتختتم عملها بالتعليلة في مقام محيّر عراق ووزن مدوّر حوزي: (ظَهْرًا يَا مُظَهَّرُ) أو (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

مع ملاحظة اختلاف البرنامج من سهرة إلى أخرى حيث تمتلك الفرقة عديد النوبات ونذكر منها:

- نوبة الحسين: (كِرَائِي وَعَالِمِ قَصْدِي نِمَشِي لَهُ وَتُزُورُ مَقَامُهُ نِبْرَى فِي لَيْلَةٍ)
- نوبة السيكا: (عَقْلِي شَاشْ لِرَجَالِ الْحَمَادَةِ وَاللِّي يُزُورُهُمْ يَبْلُغُ مَرَادَهُ)
- نوبة العرضاوي: (أَنَا دَمْعِي سَيَّالٌ يَسْكُبُ عَلَى الْأَرْكَابِ)

¹ اشتهر بها الراقص الشهير محرز المساكني ثم جاء بعده آخرون لم يبلغوا شهرته وبراعته.

- نوبة المزموم: (بِاسْمِ الْإِلَهِ بَدِيتُ)
- نوبة المغراوي عروسي: (اللَّهُ اللهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)
- نوبة الغربي وهي عديدة¹.

1 طريقة العمل الخاصة بالشطية هي مزيج من الطريقتين العوامرية والعیساوية.

الصريقة العزّوية

نسبة إلى الولي الصالح سيدي علي عزّوز عفيفي بلدة زغوان

الشيخ المؤسس: هو الشيخ علي عزّوز وُلد بفاس من المغرب الأقصى وحجّ مرتين وسكن بلد زغوان، وتوفي بها سنة 1117هـ، لكن الشيخ مخلوف جعل هذه الوفاة سنة 1122هـ. أخذ الطريق عن الشيخ أبي القاسم بن اللوشة [وهو الذي أشار عليه بالرحيل إلى تونس لبثّ علمه الباطني في أهلها]. وهو أستاذ الشيخ محمد زيتونة المنستيري². انزل بزغوان (بعد الحج) واشترى دارا لسكناه والتفّ به أتباع. وكان في بداية أمره يجمع الخطب من الغابة بنفسه لطبخ طعام أتباعه. وكان له ميعاد للذكر وقد حضر ميعاده الأمير (المرادي) محمد باشا الحفصي³ في جولة كانت له بزغوان وتلقّى منه إشارات اعتقد منها صلاحه فبنى له بجانب مسكنه زاويته المعروفة بزغوان وبها قبره [.

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 325. وما بين [...] إضافة من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد النبال ص. 298 و 299.

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 324. هو محمد زيتونة المنستيري ولد سنة 1081هـ وتوفي في 5 شوال 1138 وكانت له مواقف جريئة وكان مستشارا للباي حسين بن علي وهو الذي شيع جنازته رفعها بنفسه.

3 أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الثاني، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963، ص. 36. وما بعدها، الأمير محمد باشا الحفصي هو ابن حمودة باشا المرادي، عقد له أبوه على القيروان وسوسة والمنستير و صفاقس، ولما لم يل الأمر بعد أخيه مراد الثاني، وقع منه حسد لابني أخيه محمد وعلي فأغرى بينهما وغرقت البلاد في حروب طاحنة.

ويقول السيد عمر البواب: إنه في زمن الحملة الصليبية للويس التاسع على تونس، جمع الولي الصالح أبو الحسن الشاذلي أولياء الزمان مثل سيدي علي الخطاب وسيدي بوسعيد والسيدة المنوبية بمكان بزغوان أطلق عليه اسم (بوڤبرين) للنظر في التصدي لهذه الهجمة الشرسة¹. ومن ذلك العهد أصبح لزغوان حنين من هؤلاء الأولياء كما كان الصالحون يزورون المكان تبركا بأثر الصالحين من قبلهم، فكان سيدي علي عزّوز ممن يتردّدون على زيارة زغوان، واحترقه الثاس في أوّل عهدهم وعاملوه معاملة المجانين وطردوه، وكانوا من مزارعي التفاح، فدعا عليهم بقوله (يعطيكم الأرياح وقت التفاح) وصادف أن فسدت ثمارهم، فاكتشفوا أنّه ولي صالح فأحبّوه وبجّلوه، حتّى عيّن من الوفد الذي بعثه الباي للتفاوض مع الجزائريين حول الحدود فوق الاتفاق العجيب.

وتبعاً لذلك صار كلّ باي لا بدّ أن ينحر فدية لسيدي علي عزّوز تتمثل في ثور أو اثنين وآخرهم محمد الأمين بن الحبيب باي آخر البايات الحسينيين قبل إعلان الجمهورية في 25 جويلية 1957. فلما توفي الشيخ أرسل الباي أخاه للقيام بتجهيزه وإقامة جنازته بالعاصمة، لكنه لقي معارضة شديدة من أهالي زغوان، وحينئذ أمر الباي بدفنه بمكانه المعروف الآن بزغوان وبناء زاوية ومسجد.

أخبار الطريقة: من المعروف أن جلّ سكان زغوان أندلسيون في الأصل وهم الذين جلبوا معهم تقاليدهم ومالوفهم. فكانوا كل يوم بعد صلاة العشاء لا بدّ لهم من نصب الميعاد وغناء نوبة أو نوبتين من المألوف بأحد منازلهم. فلما بُنيت زاوية سيدي علي عزّوز، أقاموا عادة جديدة وهي نصب ميعاد بعد صلاة الجمعة بالزاوية، فيجتمعون للحديث في شؤونهم، ثم يخطمون جلساتهم بنوبة أو نوبتين من المألوف. وصار أهالي فاس يزورون مقام سيدي علي عزّوز في طريقهم إلى الحجّ فيجلبون أغنامهم معهم ويقيمون الولاثم، فجلبوا معهم البندير والنغارات وألّفوا الأغاني في مدح الشيخ، فحفظها أهالي زغوان، وهكذا انطلقت الطريقة وتكوّنت، وانتشر مريدو سيدي علي عزّوز في كل مكان، ولا تزال زاويته قائمة الذات إلى حد الآن بتونس العاصمة وكانت معهداً لتعليم المألوف لمدة طويلة.

1 قصّة مشابهة للتي وقعت في مصر في الحملة الصليبية وخروج أبي الحسن إلى الحرب مع الظاهر بيبرس. وفي الخبر تضارب حيث إن أبي سعيد الباجي أقدم من أبي الحسن الشاذلي فالثاني يكون تابعاً للأول وليس العكس.

أصول الطريقة: للطريقة أحزاب وأذكار قليلة وهي طريقة جدّ وهدوء وأعمالها مشابهة لأعمال القادرية من جميع الجهات¹. وهي طريقة لا نجد لها زوايا إلا في تونس الحاضرة وبنزرت وزغوان، وليس لها آلات إلا البنادر والنغارات.

طريقة العمل: كل الطرق الصوفية الموجودة بتونس العاصمة تقوم بزيارة لسيدي علي عزّوز سنويًا إكرامًا له وللمكان الذي كان يجتمع فيه سيدي أبو الحسن الشاذلي بأصحابه الأربعين وتدخل هذه الفرق لمقام سيدي علي عزّوز بالعادة.

وفي تصريح للسيد رشيد عباس مقدّم الفرقة العزّوزيّة بزغوان أنه فيما عدا ذلك، ينصب ميعاد فرقة العزّوزية بالزاوية كل يوم جمعة بعد صلاة العشاء بحضور كل المولعين من أهالي زغوان أو الوافدين عليها، فيبدأون مثلًا، بالدخلة وهي مدحة تقام بمناسبة المواسم والأعياد الدينية مثل 27 رجب أو 51 شعبان أو 27 رمضان وهي:

(بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَبِحَاجَةِ رَسُولِ اللَّهِ)

(بِسْمِ اللَّهِ سَمِينًا)

أو: (عروبي) (بِنِ عَزُّوزِ شَيْخِ الْكَمَالِ سَقَانِي شُرْبِ الزُّلْأَلِ)

أو: (عروبي) (عَزُّوزُ نَا لِيكَ مَنَسُوبُ مَحْسُوبُ نَا مِنْ أَوْلَادِكَ)

بالله يا صاحبِ الثُّورِ غِثْنِي بِجُرْمَةِ أَجْدَادِكَ)

أو: (عروبي) (لَا حَابَ مَنْ يَعْشِقُ الزَّيْنِ وَلَا حَابَ سَعِيهِ خُسَارَةَ)

مَحْنَتِي فِي كَامِلِ الْعَيْنِ عَزُّوزُ مَوْلَى الدَّبَارَةِ)

ثم تنشد مدحات تمجّد مناقب الشيخ مثل:

(هَيَّا نَزُّورُ شَيْخَنَا يَا فُفْرًا سِيدِي عَلِي عَزُّوزُ نُشَوْفُهُ نِيْرِي)

أو: (جِيْتُوا زِيَارَ نُورُوحِ مَعَاكُمْ لِمَدِينَتِنَا زَغْوَانُ يَا لِلَّهِ)

ثم تنشد نوبات من المألوف التونسي.

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 154.

الطريقة الصيبية

منسوبة إلى الشيخ الصيب بن محمد الوزاني
في المغرب الأقصى المتوفى سنة 1181هـ

الشيخ المؤسس : أسس الطريقة في الأصل الشيخ مولاي عبد الله الشريف بن إبراهيم بعد أن انسلخ عن الجزولية التي أخذ منها الكثير، ثم جاء حفيده الشيخ الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف بن إبراهيم الوزاني دفين المغرب الأقصى المتوفى سنة 1181 هـ [وقد ناف عن الثمانين فيكون مولده بين 1101 و 1102 هـ] فأتمها وأكمل تنظيمها ومنحها اسمه².

أخبار الطريقة : بعد أن أتم الشيخ عبد الله دروسه بزاوية (دار العلم)³ وهي زاوية أسسها إدريس لتعليم الأشراف الناشرين للتعاليم الإسلامية في المغرب، أسس بوژان⁴ (دار الأمان) إثر رؤيا رأى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم. ويظهر أن مولاي عبد الله أسسها لمعاوضة دولة السلطان المغربي وهو إدريسي مثل الشيخ عبد الله. [وعندما توفي الشيخ ورثه حفيده الطيب المذكور فلما توفي ورثه ابنه أحمد المتوفى سنة 1196 هـ وورثه ابنه أبو الحسن المتوفى سنة 1226 هـ فخلفه ابنه العربي المتوفى سنة 1266 هـ ثم ابنه عبد السلام المتوفى سنة 1310 هـ]⁵

1 إضافة من شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 135 - 136.

3 كويولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 484 - 492.

4 وزان مدينة صغيرة على سفح جبل وزان أو جبل بوعلال تبعد 150 كيلومترا جنوب غربي طنجة.

5 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 355 عدد 1418 و 1419.

وأخذت تحيط بالزاوية بعض المساكن حتى أصبحت مركزاً هاماً نظراً للمآثر التي أحاط بها السلاطين مؤسسها إلى درجة أن أصبحت وزّان مركزاً مرموقاً يؤثر في قرارات بلاط فاس تبعاً لمشاعر قادة الزاوية، وأصبح سكّان وزّان من أتباعها ويعتبرون أنفسهم المتحررين من أي قيد أزاء السلطان. وانتشر نفوذ الزاوية على ما يحيط بها من ممتلكات الأشراف حتى أن قضاءهم يرجع إلى محكمة الأشراف التابعة للزاوية والتي لا تحكم على الوزانية فقط بل على كل من يسكن بالمنطقة. غير أن الطيبة لا يخلطون بسهولة ما هو ديني بما هو سياسي، وهكذا تنقسم امتيازات الشرفاء فيرجعون في الروحانيات إلى مولاي العربي بن عبد السلام بن الحاج العربي الذي قاد الجماعة إلى حدود سنة 1892م والذي قدم من المغرب إلى الجزائر لإعادة ربط علاقات الصداقة القديمة التي تلاشت، وقد دخل تحت الحماية الفرنسية، ويرجعون في القيادة السياسية إلى السيد محمد بن عبد السلام المتوفى في 29 أكتوبر 1895 بعد أن ولى ابنه كلّ مسؤولياته. وهذا ما يفسّر قوّة نفوذ الطيبة في مناطقها، فعندما تراجع هذا النفوذ لفائدة الدراواية فسره الشريف عبد السلام: "لو أن رجلاً يملك بستانا بعيداً عنه ولا يتمكن من مراقبته فإن الأعشاب الخبيثة ستغطيه بينما لو كان يتعهده ويصلحه كل سنة، فإنه يجده مليئاً بالخضر والغلّال". ولعل هذه بداية تراجع الطيبة واندثارها. ومن المعلوم أن مؤسس الدراواية أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الجمل الحسني الإدريسي الفاسي أخذ عن الشيخ الطيّب الوزّاني.

أما بتونس فقد انتشرت الجماعة الطيبية بالحاضرة من جموع التوات المغاربة النازحين إلى تونس، إلا أن انتشارها لم يتوسع، وأتباعها بالعاصمة لهم جماعات متعددة ولها زوايا خاصّة تقام فيها أذكار الشيخ ومدائح². وآخر شيوخها كان الشيخ الطاهر الزهّار وكان يحضر في سيدي علي الخطاب وفي السيدة المنوبية وهو قائم مع الجماعة، وكانت زاويتهم في نهج الحجامين.

وتنطلق السلسلة الروحية للطيبية من الملاك جبريل عليه السلام إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى الحسن إلى أبي عبد الله جابر

1 كربولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 14 (المقدمة).

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 135 - 136.

بن عبد الله الأنصاري إلى أبي سعيد الرضواني إلى أبي محمد فتح السعود إلى سعد إلى أبي محمد سعيد المخزوم إلى أبي القاسم المرواني إلى أبي إسحاق إبراهيم البصري إلى زين الدين محمد القزويني إلى شمس الدين التركماني إلى تاج الدين محمد إلى نور الدين أبي الحسن علي إلى فخر الدين إلى تقي الدين الفقير إلى أبي زيد المدني إلى عبد السلام بن مشيش إلى أبي الحسن الشاذلي إلى أبي العباس المرسي إلى تاج الدين بن عطاء الله إلى أبي عبد الله المغربي إلى أبي الحسن الحنفي إلى أنوس البدوي إلى أبي الفضل الهندي إلى عبد الرحمان الرجراجي إلى أبي عثمان الهرتاني إلى أبي عبد الله محمد الأغر الشريف إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر سليمان الجزولي إلى عبد العزيز التباع إلى عبد الله الرضواني إلى محمد الطالب إلى عيسى حسن المساب إلى علي بن أحمد إلى مولاي عبد الله إبراهيم الشريف إلى مولاي محمد إلى مولاي الطيّب إلى السيد أحمد إلى السيد الحاج العربي إلى السيد عبد السلام¹.

أصول الطريقة : للطريقة الطيّبة أذكار كلها توحيد وصلوات على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن خصوصياتها عدم استعمال الآلات، ومن هنا هي تنتمي للشاذلية، وهو تأكيد لما وجد في السلسلة الروحية، وجزولية أيضا فقد أخذت عن شيوخ الجزولية بالضبط كالعيساوية. ومديح الطيبية يجري من وقوف بلهجة وأنغام خاصة امتاز بها أصحابها عن غيرهم. قال الأستاذ عثمان الكعك²:

1 كربولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 484 - 492.

2 عثمان الكعك، الشيخ أحمد الوافي، نشر المعهد الرشيد للموسيقى التونسية، 1982، ص 47. والشيخ هو أحمد بن حميدة الوافي أصل عائلته من الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس في عهد عثمان داي (1018 هـ/1613م) واستوطن أهلهم في حومة حوانيت عاشور بزقة الوافي، وبها ولد الشيخ أحمد في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي في عائلة بلدية فلاحية علمية تصوفية. كان أبوه حميدة (باش برداجي) في جامع الزيتونة (أي شيخ إنشاد البردة) وهي أعلى خطة فنية في التلاحين الدينية والمدائح والمبايت، إذ أنه يشرف على تعليم الألحان المتعلقة بالمدائح من بردة وهمزية ومعراجية ومولدية. وكانت أم أحمد تجيد المالوف كما تجيده اختاه حلومة الوافي زوج الحاج الشاذلي التميمي أمين العطارين، وشلبية الوافي زوج خميس حديدان شيخ المبايت في طبرية. درس بكتاب حوانيت عاشور فحفظ به تلاحين البردة والهمزية، وسلبت ليل، وغيرها من التلاحين التي يتعلمها الأطفال وكان يحضر مبايت سيدي معاوية، ويمشي مع والده إلى جامع الزيتونة فيشارك في أعمال البردة وغيرها من المدائح. حفظ القرآن الكريم وبعض التجويد والمتون والمدائح ثم انتقل إلى جامع الزيتونة فتابع دروسه إلى أن تخرّج منه في اللغة والأدب والعلوم الإسلامية. وكان يتعلم بالتوازي الموسيقى على ساقسلي رئيس طاقم الموسيقى النحاسية العصرية فأخذ عنه ضبط الألحان بالأساليب الأوروبية. وبوجوده بحومة حوانيت عاشور القريبة من الحارة الإسرائيلية وجد نفسه قريبا من الحارة الإسرائيلية فكان على صلة بالفن اليهودي المنتشر بسيدي مردوم وهو فن مختلف الطبقات من المالوف إلى الفن الشعبي التونسي اليهودي القائم على الرباب والجرانة والمزود والزكرة والدربوكة فأخذ الشيخ أحمد أصول هذا الفن ولا سيما الرباب عن زعيمه وقتئذ إبراهيم تبستي.

"وأحضر مع والدي مباتت الطيبية بنهج باب سعدون بين سوق أولاد بوزيد ودرائب المشاكة فأجد خالي هناك أيضا (وهو الشيخ أحمد الوافي). وقد تعلمت عن جدتي الكثير من مدائح الطيبية التي تحتاج إلى درس لأهميتها. منها :

مَوْلَايَ الطَّيِّبُ سَاكِنٌ وَرَّانٍ (ي)
أَحْضَرُ لَاتَغْيِبُ بِأَلِكْ تَنْسَانِي

أو الأنشودة (المدحة) الأخرى التي تعلم الأطفال الحساب والتوحيد والتاريخ :

الصَّلَاةُ عَلَيْكَ * يَازِينَ العِمَامَةَ * يَا شَفِيعَ الخَلْقِ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُوَ وَاحِدٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * وَاحِدٌ هُوَ اللهُ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمَا اثْنَيْنِ * يَازِينَ العِمَامَةَ * آدَمَ وَحَاوَاءَ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ ثَلَاثَةٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * أَصْحَابِ الرِّوَضَةِ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ أَرْبَعَةٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * أَرْبَعَةَ كُتُبِ اللهِ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ خَمْسَةٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * خَمْسَ صَلَوَاتٍ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ سِتَّةٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * سِتَّةَ أَيَّامِ الخَلْقِ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ سَبْعَةٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * سَبْعَ سَمَآوَاتٍ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ ثَمَانِيَةٌ * يَازِينَ العِمَامَةَ * ثَمَانِيَةَ العُرُشِ * فِي يَوْمِ القِيَامَةِ

واهتم الشيخ أحمد الوافي بالموسيقى الزنجية أصواتا وألحانا وأغاني فولكلورية. واتجه الشيخ أحمد إلى مطالعة كتب الموسيقى، فبدأ بالقديمة منها، ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ودرسه ككتاب موسيقى. وكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي الذي فتح به مغاليق الأغاني، ورسائل إخوان الصفا والموسيقى الكبير للفارابي وكتب ابن سينا وكتب يعقوب الكندي، ثم اتجه إلى كتب القرون الوسطى كمقدمة ابن خلدون وسفينة الملك للخفاجي وكتاب نفع الطيب لأحمد المقرئ التلمساني وهو المعلمة الكبرى للموشحات والأزجال والموسيقى الأندلسية. ثم اتصل بالبارون ديرلنجي من 1914 إلى 1921 وأمدّه البارون بجميع المساعدات وبجلبه الإخصائين في الفن العربي من الأوروبيين مثل روس فارمر، والبارون كارادي فو، فتوصل الشيخ الوافي إلى إعادة الهيكل الموسيقي للفن التونسي. واستقر في آخر أيامه بجبل المنار (ضاحية أبي سعيد) ليكون أقرب إلى البارون ديرلنجي فيعتمد على مكتبته الموسيقية الضخمة، فكان يتردد على قصر محسن وصحن سيدي أبي سعيد الباجي في عمل العيساوية، أو المولدية، أو جمع أبي الحسن الشاذلي وأخرجت التزاوير لعيساوية أريانة أوسيدي الحارثي أوسيدي داود أويذهب في مساء الأربعاء إلى المرسى ليحضر عيساوية سيدي صالح. وتوفي وهو ساكن بدار بلوم وهو علوق يقع أمام دار الأصرم الكبرى التي وضعها البارون ديرلنجي تحت تصرفه، في مصيف 1921م ودفن بمقبرة سيدي الجبالي قرب الناظور.

يَا مَنْ هُمْ تِسْعَةَ * يَازِينَ الْعِمَامَةَ * زَوْجَاتِ الرَّسُولِ * فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ عَشْرَةَ * يَازِينَ الْعِمَامَةَ * أَصْحَابِ الرَّسُولِ * فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ أَحْدَاش * يَازِينَ الْعِمَامَةَ * إِخْوَةُ يُوسُفَ * فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ أَثْنَأَش * يَازِينَ الْعِمَامَةَ * عُدَدُ الشُّهُورِ * فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ
يَا مَنْ هُمْ سِتِّينَ * يَازِينَ الْعِمَامَةَ * أَحْزَابِ الْفُرْقَانِ * فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ

طريقة العمل : يقول الدكتور محمود فطاط: "...وحضرة الطيبية بتميمون عاصمة
قوار في أقصى الجنوب(الجزائري) حيث توجد رقصة آلة الشرفابو النحاسية بمصاحبة
الطبل الكبير(دندون) وذلك خلال حضرة ينتهي إليها زواج المنطقة". وهو تصريح
لا يتفق مع أصول الطيبية الشاذلية حيث أنهم لا يستعملون آلات في عملهم. ونحن نورد
قول الدكتور في هذا المقام بكلّ احتراز. فقد يكون وجود هذه الحضرة الزنحية بجانب
الحضرة الطيبة اتفاقا بتميمون دون أن يكون بينهما أي صلة.

ويذكر الصادق الرزفي في الأغاني التونسية، بالصفحة 135: أن وظائف الطيبية نظام
مائل للقادرية والعيساوية، ويسمّون الشيخ "مقدّما". أما خرجاتهم فتزيد على الزوايا
الأخرى بأن يتجمّع نفر عديد من أتباع الطريقة علاوة على العلامة وأصحاب العمل،
فيكون كلّ من هؤلاء حاملا مكحلة فيتماشون صفوفًا أمام جماعة العمل بنظام تام،
والأعلام تحفّق على رؤوسهم. وبعد المشي حصّة زمنية يقفون فيكونون حلقة ويشحنون
بنادقهم بالبارود ويظلمون يجولون حول الحلقة بشكل يمثل أن تلك الحلقة تجول حول
نفسها، وهؤلاء كلهم توات، فيرقصون رقصا خفيفا متماثلا وهم يقولون: " البارود ليه
مواليه والكاذب يلعن بوه" أو يقولون: " يعيش فاطمة بنتي، أعطاتنا الكسكسي والمكاحل
حاضرين" ثم يطلقون النار دفعة واحدة ويجرون هذه العملية مرارا ثم يسرون.

ويذكر صالح المهدي أنه كان يحضر جماعة من أصل جزائري بلباس جزائري
(فندورة وشاش) ويقومون بالحضرة في الزاوية بنهج الحجامين بالعاصمة.

من مدجهم : مَوْلَايَ الطَّيِّبِ عِزَّ الإِخْوَانِ
 أَحْضَرُ لَا تُغِيبُ سَاكِنَ وَرَّانَ
 وكذلك : مُتَاعَ اللَّهِ لِي يَا مَوَالِيَ الدِّيَارِ
 ضَيْفَ اللَّهِ لِي جِنَاكُمُ زِيَارِ

ومن المديح الذي يقولون في عملهم:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ يَا رَبِّي صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
 اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِ أَسْيَادِي اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِ أَسْيَادِي

بِسْمِ اللَّهِ الْعَالِي * ذِي الْجَلَالِ * عَلَيْكَ أَتَّكَلِي * وَاعْتِمَادِي
 أَرْكِي التَّحِيَّةَ * عَلَى نَبِيِّ * خَيْرِ الْبَرِيَّةِ * عَلَيْهِ إِنْشَادِي
 عَلَى النَّبِيِّ الْمَاجِي * عَلَيْهِ أَمْدَاجِي * بِهِ تُزُولُ أَجْرَاجِي * وَالْأَنْكَادِ
 بِالنَّبِيِّ الْقُرْشِيِّ * نُورِ الْعَرْشِ * بِهِ أَضْوَاتِ شَمْسِ * فِي الْبِلَادِ
 ومن أمداحهم أيضا :

جَارِثُ الْأَشْوَاقِ يَا أَحْبَابِي قَلْبِي مُشْتَاقٌ يَا أَحْبَابِي

أَوَّلُ تَعْرِيفٍ وَالْإِنْعَامِ حُسْنِ التَّصْنِيفِ فِي الْكَلَامِ
 أَهْلِ التَّصْرِيفِ وَهُمْ وَدَادِي عَلَى الْإِطْلَاقِ يَا أَحْبَابِي

بِاسْمِ الْمَجِيدِ فِي الْمُلْكَ وَحَدُّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ لَا مَنْ يَضِدُّهُ
 مَا لَهُ تَحْدِيدُ رَبِّ الْعِبَادِ هُوَ الْخَلَّاقُ يَا أَحْبَابِي
 أَتْرُكُ الْأَدْنَاءَ وَأَخْطِي النَّمِيمَةَ مَا بَيْنَ النَّاسِ حَاجَةٌ عَظِيمَةٌ

تَبَقُّ لَا بَأْسَ لَا مَنْ تُعَادِي كَثِيرَ الرَّفَاقِ يَا أَحْبَابِي

لَا تُرْقُدُ نَوْمَ بَايْتِ نَحْمَمٍ قَلْبِي مَهْمُومٌ وَالرَّبُّ يَعْلِمُ
بَأَكْبَرِ مَضْيُومٍ جَلُّوا فَيَادِي بِالِاسْتِحْقَاقِ يَا أَحْبَابِي

صَلِّ وَصُومْ وَخَافِ رَيِّ الْحَيِّ الْقَيُّومِ عَقَّارِ ذَنْبِي
وِظْرِيكَ اللُّومَ خَلِيئَةَ غَادِي وَاخْطِ التَّفَاقُ يَا أَحْبَابِي

صَلَاةِ الْمُخْتَارِ صَاحِبِ الشَّفَاعَةِ عَدَدِ الْأَمْطَارِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
الْهُوشِ وَالْأَطْيَارِ مِنْ غَيْرِ عَدَادِ رَاقِ الْبُرَاقِ يَا أَحْبَابِي

نَحْتِمُ بِصَلَاتِي عَلَى نَبِينَا شَفِيعِ الْعُصَاةِ وَالْمُذْنِبِينَ
مَوْلَى الْآيَاتِ طَهَ الْهَادِي نُورِ الْأَفَاقِ يَا أَحْبَابِي

ويظهر مما أوردنا أن الطريقة الطيبية في الأصل شاذلية ليس لها آلات، ثم دخلت الآلات للرقص وإظهار أن الطريقة لا تختلف في الطرب عن الطرق الأخرى للفرجة وجلب الناس كالزنج، وتشبهها بالطرق التي هي من أصل قادري.

الصريقة التهامية فرع عن الصريقة الصيبية

نسبة إلى مولاي التهامي ابن عبد السلام بن الحاج العربي بن أحمد بن مولاي الطيّب الوزّاني الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري أي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي. وهو ثالث إخوة خمسة، إذ أن مولاي عبد السلام بن الحاج العربي الوزّاني كان له خمسة أبناء: ثلاثة منهم أشقاء وهم مولاي العربي بن عبد السلام بن الحاج العربي الذي قاد الجماعة الطيبية حتى سنة 1892م. الثاني مولاي محمد والد مولاي أحمد بن محمد ابن عبد السلام بن الحاج العربي الوزّاني قائد الجماعة الزمّني وهو المتوفى في 29 أكتوبر 1895م، وأخوه علي. والثالث هو مولاي التهامي الذي لم يرد ذكره في الطيّبية إلا في شجرة النسب. وها هو مستقلّ بفرع باسمه الخاص. والابنان الباقيان لمولاي عبد السلام هما من زوجته الإنكليزية وهما مولاي علي ومولاي أحمد. ولم يكن لهما ذكر في الطريقة إلا الانتماء للعائلة، ولعلّ دورهما كان سياسيا خفيا وليس صوفيا ظاهرا.

أخبار الطريقة : يظهر أنّ الطريقة الطيبية، لما فقدت نفوذها وخلفتها الجماعة الدرقاوية، وجدت ككلّ الفرق الصوفية ملاذا في مدينة نفطة وتوارت باسم "التهامية" عن أعين الفرنسيين والإنكليز في ذلك الوقت، فدخلت الجريد التونسي عن طريق عائلة

(بوراس)، وركز دعائها بمدينة نفطة الولي الصالح (سيدي الحاج)، ووجدت صدى كبيرا في عرش (بني يزيد). وقد تكون الزوايا التهامية بتونس والقيروان وتوزر كلها انطلقت من نفطة. وتبعها لاضمحلال الأم اضمحلّ الفرع "التهامية" حتى قيض الله له الشيخ المريد محمد السعدي فلمّ شتات المريدين وبعث الطريقة من جديد في فرقته الحالية، وأخذ يدرّبها على الإنشاد.

أصول الطريقة: التهامية كبقية الطرق الصوفية طريقة تربية، ومقرها الديني الذي ترجع إليه هو المعروف بسيدي الحاج، وهو عبارة عن مسجد وروضة قرآنية عريقة أسست لتربية النشء، ويعتبر سكان الحي من الكهول والشيخوخة مريدين وأتباعا لهذه الطريقة. وللتهايمي أو المريد ورد يومي صباح مساء من استغفار (100 مرة) وتسبيح (100 مرّة) وتصلية (أي صلاة على النبيء): (100 مرة) وأمّية (أي: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ) (100 مرّة).

طريقة العمل: تتميز التهامية بأمداحها وأذكارها المتعددة الأغراض ففيها التعليمي من توحيد وغيره، وفيها الصلاة على النبيء ومدح شيوخها، وفيها الوعظ والدعوة إلى الاستقامة والزهد وهي في ذلك لا تختلف عن الدرقاوية أو الرحمانية، ولكنها ذات علاقة وطيدة بالشاذلية ولها حلقة ذكر تسمى "الشاذلية". وألحانها بسيطة يغلب عليها الطابع الغربي، وكالشاذلية لا تستعمل الآلات بل تعتمد على الأداء الصوتي والجماعي ولها في ذلك أربع مراحل هامة:

1 - أثناء الحركة من الزاوية إلى مكان السهرة : تكون الحركة منظمة صفوفًا كما رأينا في الطيّبية، ومرتبّة بالسن الأكبر فالأصغر، وتمشي الكوكبة بتؤدة تحفّها الشموع أو القناديل وهي تردد هذا الذكر:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَوَحَّدَ يَا غَافِلُ

2 - عند الدخول: يقف الجميع في حلقة كبيرة وسط فناء الدار أو الزاوية ويسلمون على أهل المكان:

اللَّهُ * سَلَامٌ عَلَیْكُمْ * اللَّهُ * وَرَحْمَةُ اللَّهِ

الله * تقبلوا من جاكم * الله * زايركم الله
 الله * يا مرحبا بكم * الله * يامن جانا الله
 الله * مولانا يجازيكم * الله * المقصود هو الله
 يسقينا ويسقيكم الله من حوض العذائي
 يسقينا ويسقيكم الله من حوض رسول الله

3 - أثناء السهرة : تفتح السهرة بالفاحة، يليها قصائد يرددها المريدون بالتناوب
 مثل هذا القصيد في التوحيد :

الله الله الله لا إله إلا الله
 باسم الله وبالله جلّ والحمد لله
 والصلاة دائماً عنك يا رسول الله

هو الساس المشيد * ببيان بلا ساس يفسد * من لا يعرفنا يبعد * لا يطلع
 ببيان علاه

واجب على العاقل * الجايز والمستحيل * في حق الله الجليل * فرض على
 المؤمن يقرأه

المقلد قالوا فيه * لا هو مؤمن بإيمانه * ولا هو كافر بكفره * غافل
 والتقليد عماء

نقتنع بالمحمودات * على نهج المحمولات * أنا جايب وزن الأبيات * لا يشكل على
 من يقرأه

طالع آخر : ولعل من الطريف فيه تضمين تاريخ نظم القصيدة وهو وسط شعبان
 1294 هـ أي في أواخر القرن التاسع عشر :

لا إله إلا الله ربي واحد لا ثاني

خَبْرِي لِلَّهِ يَا رَبِّي * الْوَحْشُ رَنَّ عَلَى قَلْبِي * عَلَى شَيْخِي الْمُرِّي * الطَّيِّبُ سَاكِنٌ وَرَّانٌ
 ذَاكَ هُوَ مُنَايَا * بِهِ يُقْبَلُ دُعَايَا * وَهُوَ نِقْمَةٌ لِأَعْدَايَا * وَأَهْلِي الشَّرِّ وَالْعَصِيانِ
 هُوَ عَزِّي وَفَخْرِي * هُوَ كَنْزِي وَذَخْرِي * فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ * سِرُّهُ ظَاهِرٌ عِيَانٌ
 قَدْ قَالَ بِلِسَانِهِ * يَا سَعَادَةَ مَنْ جَانَا * وَجَارَ لِدَارِ الضَّمَانَةِ * تُحْرَمُ عَنْهُ التَّيْرَانُ
 وَفِي يَوْمِ الْحِسَابِ * يَنْبَجِي مِنَ الْعَذَابِ * وَيُسْقَى بِشَرَابِ * مِنْ عَسَلِ الْوُدْيَانِ
 نَظَّمْتَ هَذَا الْقَصِيدَ * فِي نَظْمِهَا جَدِيدَ * يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُفِيدَ * فِي وَسْطِ شَعْبَانَ
 عَامَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ * وَأَلْفٍ وَمِائَتَيْنِ * يَا مَنْ هُوَ وَفَاطِمَةُ * إِحْسَبُهَا فِي الْعَدَّانِ
 وَأَغْفِرْ لِي وَالِدَيَّ * وَالْمُسْلِمِينَ كُلِّيَّةَ * وَمَنْ حَاضِرٌ إِلَيَّ * يَسْمَعُ فِي الْأَوْزَانِ
 رَبِّ صَلِّ وَبِحَبْلِ * عَلَى الْهَادِي مُحَمَّدَ * هُوَ الْفَرَشِيُّ الْأَمْجَدُ * نَسَبُهُ مِنْ عَدْنَانَ

4 - في ختام السهرة : على إثر القصائد تقوم حلقة الذكر المعروفة بالشاذلية لذكر اسم الجلالة (900) مرة (الله) يُذكر بأنساق متصاعدة من البطيء إلى السريع وخلالها يقوم منشد من المجموعة لإنشاد بعض أذكار الصوفية المعروفة مثل : (أَنْتُمْ فُرُوضِي وَنَفْلِي أَنْتُمْ حَدِيثِي وَشُغْلِي

يَا قِبْلَتِي فِي صَلَاتِي إِذَا وَقَفْتُ أَصْلِي¹

شَرِبْنَا مِنْ كَأْسِ الْهُوَى جِهَارًا،

وَصِرْنَا بَعْدَ شُرْبِهِ حَيَارَى،

دَعَا نَا الْحَالُ وَالْكَاسَاتُ تَجَلَّى

حَسِبْنَا أَنَّ فِي الْكَاسَاتِ نَارًا،

فَمِمَّا مَنْ يَعِيشُ عَلَى وُضُوءٍ،

وَمِمَّا مَنْ يَعِيشُ عَلَى ظَهَارَةٍ،

1 البيتان لابن الفارض.

وَمِمَّا مَنْ يَعِيشُ عَلَىٰ عُلُومِ

وَقُرْآنٍ وَذِكْرِ افْتِكَارًا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

وتتميّز التهامية بما يُعرَفُ به (الدلالة) وهي عبارة عن مزاد يتزايد خلاله المریدون على عدد معلوم من صلاة النبي. ويفتتح هذا المزاد بأن يقوم أحد المریدين فيقول: (الْفَائِدَةُ وَالْعَائِدَةُ وَالْبَرْكََةُ الزَّائِدَةُ بَابِ اللَّهِ فَتَحَ الْكَرِيمِ) ويتزايد كل واحد من المجموعة إلى أن يُرسي المزاد على أحدهم وعليه إتمام ذكره تلك الليلة. وتختتم السهرة بالفاتحة وبهذه الصيغة ثلاث مرّات :

مَنْ دَخَلَ حَضْرَتِنَا يَبْرَى وَيُرُوحُ قَلْبُهُ مُسْتَمِينٌ

مَنْ جَانَا نَحَاسٌ يَرْجَعُ فُضَّةً سَيِّدِي رَسُولِ اللَّهِ هُوَ الضَّامِنُ

مَنْ دَخَلَ حَضْرَتِنَا يَبْرَى وَيُرُوحُ قَلْبُهُ مُسْتَمِينٌ

مَنْ جَانَا نَحَاسٌ يَرْجَعُ نُقْرَةً (أي ذهب) سَيِّدِي رَسُولِ اللَّهِ هُوَ الضَّامِنُ.

وهذه قطعة تبرز سلسلة التهامية :

سَأَلْتِكَ بِحَاجَةِ أَشْيَاخِكَ وَأَجْدَادِكَ وَأَشْبَالِكَ

وَكُلِّ وَلِيٍّ صَالِحٍ عَارِفِ الْمَسَالِكِ

يَا مُوَلَّيَّ عَبْدَ اللَّهِ الشَّرِيفِ الْحُسَيْنَاوِيَّ

وَأَبُو الطَّيِّبِ الْمُنْسِكِ² نُورِ الْوَجْهِ ضَاوِي

يَا سَيِّدِي بَيْكَ نُبَاهِي الْأَهْلِ وَالْحَيْرَانَ

التَّهَامِيَّ³ بَحْرَهُ زَاخِرُ طَافِحِ مِلْيَانَ

1 هو الحد الأول مؤسس الطيبية بعد الانسلاخ من الجزولية.

2 أبو الطيب : هو الطيب بن محمد بن عبد الله المنسوبة إليه الطريقة الطيبية

3 التهامي : صاحبنا مؤسس الطريقة التهامية وهو ابن عبد السلام.

يَا شَيْخِي عَبْدَ السَّلَامِ يَا سَاكِنَ وَرَّانُ
 يَا صَاحِبَ التَّصْرِيفِ الْكَائِنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ
 بِجَاهِ أَبِيكَ الْعَرَبِيِّ¹ صَاحِبِ الْمَرَآيَا
 أَنْظِرْ لِي بَعَيْنِ الرَّحْمَةِ يُسْتَجَابُ دُعَايَا

¹ العربي: هو والد الشيخ عبد السلام وجدّ الشيخ التهامي.

الصريقة العمارية

نسبة إلى سيدي عمار بوسنة¹

الشيخ المؤسس : تنتسب الطائفة العمارية إلى سيدي عمار أبي سنّة صاحب الكرامات وخوارق العادات الشهير المولود حوالي 1123 هجرية (1712 م) بزماله بن مراد من مقاطعة وادي الزناتي بالجزائر. وهو أصيل أسرة ولي منتسبة إلى مقدّم القادرية.

أحيط سيدي عمار بوسنة بهالة من الاحترام والتقدير منذ ولادته تبعا لتنبؤ بعض أتباع سيدي عبد القادر الجيلاني بمجيئه إلى الدنيا وتحقيق وقوعه بوصفه من أكبر المتحمسين لنشر طريقته. وقضى عمار كلّ شبابه في الجبال المجاورة غارقا في عزله يعيش مع السباع الضارية والوحوش الكاسرة عرضة لتقلبات الطقس والبؤس والتكشف إلى أن أنغمس في التصوف وأصبح درويشا متصوّفا بآتم معنى الكلمة. ولم يلبث أن ظهرت على يديه عدّة خوارق وكرامات فتجمّعت حوله فرقة لا يستهان بها من الفقراء الذين أقاموا قبره عند وفاته بـ(بوحمام) قبيلة بني فايد بجهة نشاية، وأقاموا عليه قبة أصبحت فيما بعد الزاوية الأم للجماعة.

الطريقة وأخبارها : يذكر "كوبولاني" أن سيدي عمار بوسنة انطلق سنة 1715م في

1 نترجم بتصريف عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ابتداء من ص 356.

إحياء طريقة الحشّاشين بجهة فالمة، وهي دعوى تتعارض مع ما أثبتته من سنة ميلاد الشيخ، فلا يعقل أن يكون الشيخ عمّار بوسنة يمارس هذه الطريقة وهو ابن ثلاث سنين. ويواصل "كوبولاني" فيذكر أن الشيخ عمّار كان يقدم "الكيف" لأتباعه، وهو مخدّر شبيه بالبُنج لدى الهندوس ودرأويش آسيا الوسطى [الذي يأخذونه من نبات القنب، ويظهر أن الكيف لدى العمّارية هو نبات التكروري] فيبلغون به درجة الانتشاء، ويعتقد العامّة والمرضى أنفسهم أنّ ذلك المخدّر هو تبغ مقدّس أعطيت مزاياه العجيبة للشيخ عمّار في رؤاه العديدة، وتحت تأثير موسيقى الفُصبة والبندير والرقص يصل فقراء سيدي عمار إلى درجة من الانتشاء تقف معها شعورهم وتتفتّح أعينهم واسعة ويتسمّرون وترتخي أعصابهم، وبمساعدة ذلك التبغ يسقطون في تشنجات عصبية على هتافات المتفرجين وزغاريد النساء. لكن يظهر أنّ ممارسات طريقة "سيدي عمّار" لم تنطلق إلا حوالي 1815 ميلادية، أي مائة سنة بعد تاريخ كوبولاني، ففي تلك الفترة قدم إلى مدينة الجزائر زنجي من متساكني مكناس هو الحاج مبارك

المغربي البخاري² سليل عائلة المرابطين البخاريين، واشتغل إسكافياً لمُدّة، ثمّ واصل طريقه إلى مكة المكرمة. وكان كعادة الحجاج يزور الزوايا التي تعترضه في طريقه فيعتنى بالنزول في هذه الأماكن المقدّسة للتزوّد بقوى جديدة من راحة وزاد والجلوس إلى حلقات العلم، فلفت انتباهه ببوحمام التوقير والاحترام الذي يُبديه السكّان لسيدي عمّار بوسنة، ولاحظ غياب الانسجام بين أتباع هذا الولي. وهكذا قرّر أن ينهي رحلته لكي يؤلّف جمعية من هذه العناصر المتفرقة ويستقرّ بمقام الولي. وسرعان ما انتشر عنه الخبر بكرمه وإخلاصه وتفانيه وأصبح له عدّة أتباع وأعلن نفسه الخديم الورع لسيدي عمّار بوسنة. وتبعاً لتوسّلاته الملحة وتضرعائه الخالصة تحصّل من الوكيل على الشرف العظيم المتمثّل في حمل الماء على ظهره من عين تبعد عن الضريح مسافة كيلومتر كامل لسقاية الحجيج. هذا التفاني والإخلاص مكّناه من عديد الامتيازات من بينها

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 160.

2 الحاج مبارك المغربي البخاري من سلالة السودان الذين جلبهم من المغرب إلى مكناس السلطان مولاي إسماعيل، والذين وُضعوا تحت رعاية الولي سيدي البخاري وكوّنوا هذا الحرس السوداني الخاص بالسلطان دون أي صلة بالرعية الأهالي من العرب أو البربر، والذي أصبح قوّة عظيمة لسلطين المغرب. وعاش الشيخ مبارك 110 سنين وهذا العمر الطويل استغله الأتباع في مآربهم المادّية. انظر ترجمته لدى كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية في الهامش ص 356.

مراقبة الولايم (الزرد)¹ التي يقدهما المؤمنون مرّتين في السنة على شرف أبي سنّة.

وأكسبه هذا التعلّق بالولي مكانة في نظر الأصحاب، غير أن دهشتم كانت عظيمة عندما علموا سنة 1820 ميلادية أن هذا الزنجي المغربي تحصّل على كرامة الخوارق وأنّه يهيئ نفسه لمواصلة ما بدأه سيدهم، فأقبلوا عليه جماعات إلى بوحام مصحوبين بالأحباء المتحمسين من القطر الجزائري والقطر التونسي. وبعد أن قدّموا أصحابهم من أجل ثيران قطعانهم طلبوا من سيدي الحاج مبارك أن يُطلعهم على التجليات التي أظهرها له سيدهم؛ واستمعوا بكامل الخشوع إلى خبر الرؤى التي كشفها سيدي الحاج مبارك، تلك الكشوفات التي أمدهم بالبرهان القاطع على حقيقة تصوّفه وعزيمته القوية ورقبته النافذة من القدرة الربانية الخالصة التي تلقاها بإرادة سيدي عمّار.

وقوبلت تصرّجاته بالابتهاج وأعلنوه (خديم سيدي عمّار بوسنة). لكن طموحه لم يقف عند هذا الحدّ

فاختار أكثر مستمعيه حماسا له وطاف بهم كامل القطر الجزائري والقطر التونسي وجزءا كبيرا من طرابلس.

وخلافا للأساليب المستعملة قبله، نصّب في كلّ من المراكز الهامة التي زارها، فقيرا من الموالين له وخلع عليه لقب (خليفة) ومهمته انتداب المريدين. هذه المراكز التي أصبحت أماكن للدعاية وقع اختيارها بكلّ عناية: تارة في غرفة متواضعة يتم تسوغها في الأماكن الأكثر ازدحاما وترددا في المدن الرئيسية بالجزائر أو تونس، وتارة يأمر ببناء كوخ (قروي) في مكان محترم حيث يقدّم الخلفاء الضيافة الحسنة للمسلمين الذين يتوقّفون عندهم وحيث يتفرغون إلى ممارساتهم.

في سنة 1830 قام سيدي الحاج مبارك بحجته الأولى، ومكنته هذه الحجة من الالتقاء بعدّة دراويش من الشرق الذين يعتبرونه من رجال الدين الأكثر تأثيرا. وعند رجوعه أعاد من جديد تطوافه وجولاته بأذكار سيدي عمّار والتي أضاف إليها في سبيل الدعاية

1 زرد جمع زُرْدَة : وهي الزلمية، وهي كلمة تركية وتطلق الآن باسم أحد الأولياء (زردة سيدي مزهود) (زردة سيدي علي بن خليفة) وهي أيام سوق واحتفالات تقام وتدبح فيها الذبائح ويطعم فيها الناس، ويقام ببعض الاستعراضات الفنية، وتقع فيها عدّة فوائد اجتماعية واقتصادية وحتّى ثقافية، فهي في الحقيقة سوق لتبادل كل ما يمكن تبادله.

له بعض آيات القرآن التي نقلها عن أذكار الطائفة العيساوية التي أصبح لها مقدا. في سنة 1836 ميلادية قدّم بعض خدمات للبعثة الفرنسية الأولى لمقاطعة قسنطينة، وجزّته على ذلك حتّى تكسب حياده بأن قام اللواء يوسف ببناء زاوية وقبة له على بعد بعض الكيلومترات من فالمة على سفح جبل ماونة، وعرفت هذه الزاوية بعين الدفلة وأصبحت فيما بعد محل إقامة العادي. من 1840 إلى 1870 ظهر سيدي الحاج مبارك بالإضافة إلى حماسه الديني بأنه سياسي ماهر.

حجّ ثمانى مرات، وفي كلّ مرّة يرجع بإجلال وإكبار عظيم من أتباعه الذين يتزايدون يوما بعد يوم. وارتحل إلى المغرب مسقط رأسه ودرس ذكر الحنزلية بالزاوية الأم بدادس وتحصل على إجازة المقدم من أكبر شيوخ الزاوية مولاي إدريس. هذه الشهرة التي تحصل عليها جعلت أتباعه المتعصبين له والمتحمسين لتنبؤاته وأقواله يرفعونه عند رجوعه على الأعناق رفع الانتصار من فالمة إلى بوحمام في غضون شهر ماي 1876 م. في تلك الفترة طلب من السلطات أن يبني حجرة بضريح سيدي عمار بوسنة حيث نوى أن يستقر، ولكن السلطات رفضت طلبه لأسباب سياسية. وعندما رجع إلى بوحمام كانت السلطة بيده دون غيره، وأخذ الوكيل يقدّم له هدايا وقرابين الأتباع وهو يعتني بصيانة المقام.

وطلب منه معارضوه من أتباع سيدي عمار بوسنة الذين كانوا يعترفون بخصائمه ولكنهم رفضوا إعطائه قسطا من الزيارة التي يقوم بها الزائرون كما يقع في كلّ التنظيمات الدينية عن طريق امتحان عسير، وطلبوا منه الورد واعترفوا له برئاسة الجماعة وهكذا تأسس هذا التنظيم سنة 1882 م.

أصول الطريقة : للعمّارية زاوية بتونس الحاضرة (على ما ذكره كوبولاني) وفرع أم بالكاف ويعدّون عدّة فقراء بالبلاد التونسية التي يذرعونها في كل اتجاه. فبداية من سنة 1882 م تاريخ تنظيم هذه الطريقة أي بعد البعثة الفرنسية إلى تونس وقع تأليف الذكر برعاية الشيخ سيدي الميزوني بالكاف الذي رأى في جماعة سيدي عمار بوسنة نواة لفرقة فرعية من القادرية التي هو من أهم مقدميها. واتبع سيدي الحاج مبارك نصائح سيدي الميزوني، وبما أنه كان أميا بالكامل كان مجبرا على إملاء الذكر على بعض خدامه

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 219.

الورعين الذي أصبح صهرا لابنه ورئيسا لطلبة الطائفة. وحُفظ هذا الذكر للأتباع الذين يمتلكون الصفات الأساسية لبلوغ درجة المقدم.

الذكر: لا يمتد تسلسل الشيوخ في هذه الطائفة بعيدا. فسيدي الحاج مبارك رئيس الطائفة لا تمتد سلسلته الصوفية إلا إلى سيدي عمار بوسنة الذي هو نفسه تحت الرعاية الربانية. ويدعي بعض العلماء المنتمين إلى الطائفة منذ 1882 م أن سيدي عمار بوسنة لم يكن إلا قادريا متحمسا، ويضيفون إلى إجازة تقديمهم السلسلة الصوفية لسيدي عبد القادر الجيلاني رغم رأي سيدي الحاج مبارك المخالف

صفة الذكر: الحمد لله وحده ولا يدوم إلا سبحانه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الحبيب محمد

وهذه تقديم الطريقة الواضح والأمور الصالح طريق سيدي عمار أبي سنة نفعنا الله وإياكم بأمثاله أمين. وقد أخذها عليه سيدي الرباني الكوكب النوراني الولي الصالح القطب الواضح سيدي الحاج مبارك بن محمد المغربي البخاري وقد أخذها عليه سيدي الطاهر بن علي بن غربية الهنداوي وهو يذكرها في كل ليلة ونهارا وهو يعبد الله سبحانه ولا إله غيره.¹

الأوراد: ويأتي بعده الورد الذي ليس فيه شيء خصوصي غير تمجيد الله الذي نجده في كل جملة. فالعبارات التي استخرجت في الغالب من القرآن الكريم تتشابه مع ما نجده عند القادرية والعيساوية. ويفضّل الليل على النهار تبعا لتعاليم الشاذلية وتوابعها الذين يرون أن الصلاة بالليل أشدّ وطنا من النهار وأقرب للاستجابة.

ورد ليلة الأحد

يذكر فيها (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) خمسمائة مرّة، فإن خلصها صلى أربعين ركعة لله. انتهت.

ورد ليلة الاثنين

يذكر فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ستمائة مرّة، فإن

1 نقلناها هكذا بأخطائها كما جاءت لدى كويولاني الذي نبّه إلى هذه الأخطاء دون تدارك.

خَلَّصَهَا صَلَّى خَمْسِينَ رُكْعَةً وَهَلَّلَ بِالْقُرْآنِ بَعْضَ آيَاتِهِ. انْتَهَتْ.

ورد ليلة الثلاثاء

يذكر فيها (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. اللَّهُمَّ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ أَعِزَّنَا يَا اللَّهُ أَعِزَّنَا يَا اللَّهُ) سَبْعُمِائَةَ مَرَّةٍ، فَإِنْ خَلَّصَهَا صَلَّى خَمْسِينَ رُكْعَةً وَنَقَلَ بِالْقُرْآنِ. انْتَهَتْ.

ورد ليلة الأربعاء

يذكر فيها (الحمد لله رب العالمين إلى آخرها) خَمْسُمِائَةَ مَرَّةٍ، فَإِنْ أتمَّهَا صَلَّى أَرْبَعِينَ رُكْعَةً وَنَقَلَ بِالْقُرْآنِ. انْتَهَتْ.

ورد ليلة الخميس

يذكر فيها (لا إله إلا الله، لا غالب إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله عيسى روح الله. لا إله إلا الله موسى كليم الله. لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله. لا إله إلا الله محمد حبيب الله وخير خلق الله. ويس إلى آخرها) سَبْعُمِائَةَ مَرَّةٍ، فَإِنْ خَلَّصَهَا صَلَّى خَمْسِينَ رُكْعَةً وَنَقَلَ بِالْقُرْآنِ. انْتَهَتْ.

ورد ليلة الجمعة

يذكر فيها (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم) سَبْعِينَ مَرَّةً، فَإِنْ أتمَّهَا صَلَّى ثَلَاثِينَ رُكْعَةً وَنَقَلَ بِالْقُرْآنِ. انْتَهَتْ.

ورد ليلة السبت

يذكر فيها (سور طه ويس والملك إلى آخرها) وَيَصَلِّي عَشْرِينَ رُكْعَةً وَيُنَقِّلُ بِالْقُرْآنِ. انْتَهَتْ.

وهذه طريقة الإسلام من عند مصباح الظلام شيخ الطريقة وإمام الحقيقة سيدنا وسندنا ومن على الله ثم عليه اعتمدنا سيدي عمّار أبي سنّة نفعنا الله به. آمين. وهذه

إجازة الطاهر بن علي ابن غربية صانه الله. آمين. أوصيكم يا إخوان عليكم بطاعة الرحمن واذكروا الله وحده ولا تطيعوا غيره واذكروا الورد القايم في كل وقت ونهارا والله محيب لمن دعا إليه. اذكروا: إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر. وورد الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى آخره، والسلام المؤمن المهيم إلى آخرها. والله على كل شيء قدير، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. في كل دبر الصلوات الخمس انتهت مؤلفة من الشيخ عمار أبي سنة بحمد الله).

وأخيرا تأتي الوصايا الأخيرة التي توصي المريدين بتلاوة سور من القرآن الكريم في أي وقت من اليوم. وعندما يتمكّن الأتباع من تعليم الذكر يتحصلون على لقب مقدم ويكلفون بإدارة زاوية. وعلاوة على ذلك يتأكد أن يكونوا تابعين وقدموا لمدة سنوات عديدة الدليل على تعلّمهم وتحمسهم للطريقة. ويقع التبريك عادة بالزاوية الأم بحضور أبرز المستحقين من الطائفة، فيوضع المترشح في حالة خشوع أمام الشيخ يستمع إلى واجباته الجديدة بينما يقوم أحد الطلبة بتدوينها بصحيفة تكون هي الإجازة. ثمّ يقدم المترشح آيات الولاء والطاعة ويتحصّل علاوة على الذكر على سنجق سيدي عمار بوسنة والشارة المقدسة التي يجب أن تحفظ بكل عناية وخشوع بالزاوية التي سيقوم بإدارتها. ولا يُطلب أي ضمان من الفقراء فهم في الغالب متعصبون بوعي أو بدون وعي تحت الإدارة المباشرة للمقدّم الذي لا يجد احترامه لدى العلماء بينما يحظى لدى العوام بكل تقدير.

تنقسم الطائفة إلى ثلاثة فروع على رأس كل واحد منها شيوخ مستقلون: مقام سيدي عمار بوسنة الكائن ببوحماس قبيلة بني فايد (نشماية) بإدارة سيدي الحاج مبارك عين دفلة بفالملة، بالنسبة إلى قسنطينة والجزائر، وزاوية أدوق بالقبائل المقامة لذكرى الشيخ أحمد بن بلقاسم وزاوية الكاف (تونس) التي كان يديرها سيدي رمضان الكلاعي، وزاوية أخرى بالندنان.

وتنطبق هذه المعلومات على أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كما ذكرها "كوبولاني" و"ديبون"، أما في أيامنا هذه فالحديث قلّ عن هذه الطائفة ولم نجد منها سوى فرقة أو فرقتين بالجمهورية التونسية.

وفي حديث لصالح المهدي¹ أعلم أنّ للعمّارية زاوية "سيدي عمّار" وتوجد بنهج الرابطة، وقال: "وكنّت أحضر، ولهم آلات فُصبة وأحيانا فُصبتين وبنادر ومجموعة بالفنادر² وشاش ويشطحون بالأكتاف وكلّ جمعة لهم ميعاد".

أما الآن فمقدّم فرقة العمّارية بالهدّاج (وهي قرية تبعد حوالي ثلاثة عشر كيلومترا عن مطماطة الجديدة بولاية فابس)، هو السيد عمر بن أحمد فظوش من مواليد 18 جويلية 1951 وهو يصرّح في حديث معه أنّ هذه الفرقة لا تعمل إلا الأعمال الخيرية ذات الصبغة الدينية أو العقائدية في مبيئاتها. وللعمّارية زاوية "سيدي عمّار" بالهدّاج وقد تستدعيهم بعض الزوايا الأخرى فيقومون بحفلات الختان أو خروج الحاج أو رجوعه من البقاع المقدّسة، ويخرجون لدورة المطهر (جولة المختون) ولكنهم لا يخرجون للأعراس فهم لا يعتبرونها دينية، ولا يقومون بسهرات ولا استقبالات.

طريقة العمل: يذكر "كوبولاني" أنّ الشيخ عمّار بوسّة هو الذي أحيا طريقة شيوخ الجبل فأعاد طريقة الحشاشين في فالمة فكان يثير في أتباعه النشوة بمدّمهم بـ"الكيف" وهو نوع من المخدّر مثل "البنج" لدى الهندوس ودراويش آسيا الوسطى. وعن طريق أصوات القصبّة والبندير والرقص يندفع فقراء العمّارية فتقف شعورهم وتحتفظ أعينهم ويتسرّون وتتشنّج أعصابهم بتدخين هذا التبغ السحري فيتساقطون طرحي تحت تصفيق الجماهير وزغرودة النسوة المعجبات بهذه الفرقة³.

وما وصلنا أيضا من عملهم هو الاحتفال بتسمية مقدميهم كما ذكره "كوبولاني" ورفيقه وهو أنّ يقع احتفال كبير عندما يقع انتداب فقير أو أكثر، فيفسح المقدم والطلبة والآخرين مكانا للخلفاء المكلفين بمراقبة الإختبارات الصوفية التي يخضع

1 حديث أجراه الأستاذ حسين الحاج يوسف مع الدكتور يوم الاثنين 17 فيفري 2003.

2 الفنادر جمع فنّادورة (بالجيم المصرية gu) وهو لباس خارجي بين الجبة والجلباب مشهور كثيرا بالجزائر والغرب التونسي.

3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 160.

لها المترشحون. فإن حكم بأهليتهم لممارسة ما يجب على الأعضاء العاملين بالطريقة، يغطيهم الشيخ بالتناوب بسنق "سيدي عمّار بوسّنة" كما يعزف المنشدون الفصبة والبندير. ويتلقون فيما بعد تسمياتهم بمراكزهم وتبعاً لاجتهادهم الذي يسجلونه في الطريقة الصوفية يرتقون باقتدار إلى الخلافة. وفي حديث للشيخ رجباً مقدم فرقة الطريقة العمّارية السابق ببلدة الهدّاج، يذكر الشيخ أن الطريقة نقلها إلى منطقتهم الشيخ عياد الذي أخذها عن الشيخ الحاج مبارك البخاري من فالة وآلاتها زرنة وثلاثة أو أربعة بنادر وشقاشق (وليس لهم دربوكة ولاغيرها)

ويلبس أعضاء الفرقة اللباس التونسي الأصيل الجبّة والشاشية وملحفة على الرأس أو عمامة، بينما يلبس الراقصون فندورة جزائرية وعمامة بيضاء على الرأس بذؤابة متدلّية إلى الخلف على النمط الجزائري، ويستعملون الصّف في رقصهم فيكونونه من ثمانية إلى عشرة ومعهم شاشوش.

ويمتاز رقصهم بارتعاش الكتفين على الطريقة الجزائرية فإن اختمر أحد أخذه راقصان وأخرجاه من الصّف ثم رجعا.

أمّا ما يقومون به في المنازل فهم يدخلونها بقرع البنادر ونفخ الزكرة دون غناء، وعندما يدخلون يقرؤون فاتحة الكتاب ويشرعون في قراءة الأحزاب، فيعملون حزب (اللطيف) عند المرض وحزب (الفلاح) من الطريقة العيساوية. ويروي الشيخ عمر فطوش نفس رواية سابقه، أنّ الذي أتاهم بهذه الطريقة هو الشيخ عياد الذي أخذها مباشرة عن الشيخ مبارك البخاري من فالة.

ثمّ يشرعون في الأمداح بالبنادر والزكرة وهي أمداح في جلّها قادية مثل :

أزّكي صلّاة الله الدّائم

آه آه يَا بُوي بُوي مَا جاشي عَبْد الْقَادِرْ

سُلْطَانِ كُلِّ الْأَوْلِيَاءِ وَالشَّيْخِ سِرُّهُ حَاضِرْ

مَا جاشي قُطْبِ الحُضْرَةِ مُوَلَّى الإِشَارَةِ الحُضْرَا

جَلُولُ مَوْلَى النَّعْرَةِ مِنْ نَسْلِ طَهَ الظَّاهِرِ
يَا شَيْخِي هَبْ لِي نُصْرَةَ مَوْلَايَ عَبْدِ الْقَادِرِ¹

ثم يقومون بأمداح من العيساوية، فهم يعتقدون أنّ الشيخ عمّار بوسنة تلميذ من تلاميذ الشيخ بن عيسى ومن أتباع الجزولية.

الحضرة: يقدمون فيها أورادا من مدحات العيساوية مصحوبة برقصات الصّف وهو رقص جزائري بحت بلباس جزائري (فندورة وعمامة) ويعتمد ارتعاش الأكتاف، ومن هذه المدحات.

يَا لَطِيفًا لَمْ تَزَلْ الطُّفَّ بِنَا فِي مَانَزَلْ
وهي تُؤدّى مدحة بالصف (أي بالرقص).

الرقص: لهم عدّة رقصات منها:

رقصة المنجل: يحمّي في النارحتي يحمّر ثمّ يلحق باللسان.
رقصة العقرب.

رقصة الأمشاك: وهي الإبر أو الأشافى التي يُشكّ بها البدن في الحنك أو البطن أو غير ذلك من الأماكن.

رقصة النقة: وهو نوع من السعوط يقدم لمن أراد ذلك في غمرة الرقص.

ثمّ يأتي عزف على البنادر والزكرة من نوع الغربي ثمّ العمّاري (وهو مثل الدرّازي) ينتهي به الحفل بدون غناء وتكون معزوفات راقصة مثلما رأينا لدى طريقة الشيخ عبد الملك السّني. ثمّ يأتي إيقاع جربي ينتهي بالعجمي مصحوبا بالرقص دون غناء.

وهذه النهاية بالعجمي (أي بالإيقاع الزنجي) وهو رقص الجذب، توجهنا للاعتقاد بأنها من محدثات الشيخ مبارك البخاري لأنه زنجي وهو ينسبه إلى شيخه عمّار بوسنة لحثّ الراقصين، والمعروف عن الزوج محبة عظيمة في الشيخ مبارك.

1 هو مطلع قصيدة من تأليف الشيخ محمد الإمام المنزلي تتركب من 18 بيت مسدسة، هكذا جاءت في السفينة القادرية، نشر مكتبة المنار، تونس.

الطريقة الخلوئية

نسبة إلى محمد الخلوئي الفارسي الأصل

الشيخ المؤسس : الطريقة الخلوئية تنسب إلى الفارسي محمد الخلوئي الذي عاش فيما يظهر في القرن الثامن للهجرة أي القرن الرابع عشر للميلاد، وظهرت طريقته في تبريز من أذربيجان الإيراني، وسمي "الخلوئي" لأنه كان كثير الخلوة والعزلة، وقد أخذ عن شيخه إبراهيم الكيلاني عن جلال الدين التبريزي عن شهاب الدين الشيرازي عن محمد النجاشي عن الأبهري عن أبي نجيب السهروردي عن عمر البكري عن القاضي وجيه الدين عن محمد الدينوري عن ممشاد الدينوري عن أبي القاسم الجنيد عن السري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن الحبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب. ويُقال إن الخلوئي كان من أتباع الطريقة السهروردية، وأخذ التصوف عن إبراهيم الزاهد، ثم استقل بطريقته، وتفرغ لجمع الأتباع وتعليم المريدين.

" ولكن إن كان صانع المعجزات هذا هو بطريقة ما مؤسس هذه الطائفة، وإن صلحت ممارساته كأساس للنظريات من الوجهة الأصلية للخلوتية، فإن تلميذه عمر الخلوئي المتوفى بقيصرية [من مدن آسيا الصغرى (تركيا حالياً)] (سنة 800 للهجرة 1397

1 ذكرت لطيفة الأخضر في كتابها "الإسلام الطرقي" نشر دار سراس في الصفحة 46، أن عمر الخلوئي تلقى تكوينه عن أستاذه محمد الفارسي، وتولدت عن الخلوئية منذ 1397م طرق عديدة كانت الرحمانية آخرها.

- 1398 للميلاد) الذي يجب اعتباره المؤسس الواقعي للطائفة. ففي الشرق يعزى لهذا الأخير الفضل في التأسيس، وفي بعض المؤلفات الخاصة بالفروع المنبثقة عن الخلوتية، يقدم بصفته المنظم للتعاليم التقليدية التي مع الممارسات الانتشائية الخاصة بالفارسي محمد، تميّز نظريات مدرسته.¹ وخلفه على ذلك بيرم الخلوتي وعز الدين الخلوتي وبدر الدين الخيالي ويحيى الشرواني ومحمد الأرنجاي وشلي سلطان وخير التوكادي وشعبان القسطلاني وإسماعيل الجوروني المدفون بالقدس وسيدي علي أفندي كاناباش الذي أعطى اسمه الطائفة البكرية ومصطفى أفندي وخلفائه إلى سيدي البكري الخ.....

الخلوتي وأشهرهم عمر الخلوتي، ومحمد الخلوتي². وقيل إنها طريقة تركية ازدهرت في مصر إبان القرنين الثاني عشر والثالث من الهجرة، وتُنسب في مصر إلى الشيخ مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة 1162هـ.

أخبار الطريقة : يذكر "كوبولاني" أن هذه الطريقة تطورت بعد قرن من انتشار الطريقة القادرية فهي إذن من القرن السابع الهجري³، وتوقفت في القرن الثاني عشر عندما انحلت تماما، ولم يبق منها سوى شذرات مثل التي بتونس والمنستير. وانتشرت الطريقة الخلوتية بشكل أساسي في مصر، ولها وجود في الأردن بزعامة الشيخ حسني الشريف، رئيس جمعية دار الإيمان. أما في فلسطين فنجد الطريقة الخلوتية القاسمية، ومن مؤسساتها كلية القواسمي في منطقة باقة الغربية.

من فروعها في مصر: الشراوية، المحمدية، الجنيدية، السمانية، الضيفية، العمرانية القبيسية، المغازية، الهراوية الحفنية، الروائية، الصاوية، المسلمية، العلوانية، الدومية، القصيبة الغنيمية، القاياتية، البكرية، نسبة إلى محمد كوبلاي البكري، الهاشمية، الجودية، البهوتية، المصلحية، الدمرداشية.

أما فروعها في تركيا: فهي: الجراحية. الاغتباشية. لعشاقية. النيازية. السنبلية. الشمسية. الكلثنية. الشجاعية.

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 370.

2 يرجح أنه محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتي، وهو من أئمة الصوفية في خراسان في القرن العاشر الهجري، نشأ في بيت المقدس، ولكنه رحل منذ صغره إلى أقطار أخرى كثيرة ليبشر بدعوته، وتوفى في مصر سنة 986 هـ.

3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 369.

أما بتونس وبالأخص المنستير، فنجد في وثيقة حبس الحاج حسين نويرة مؤرخة في 1205هـ [1790م] لدى العدلين عبد الله أبي عبده ومحمد محلة والتي بين أيدينا نسخة مؤرخة في 1242هـ [1826م] وهي التي أدرجها السيد محمد الحبيب نويرة في كتابه "وثائق حول مدينة المنستير" ما نصه: "... وما فضل [من ريع الحبس موضوع الوثيقة] نصفه لأهل الطريقة الخلوتية المنسوبة للشيخ سيدي محمود الكردي نفعنا الله تعالى به آمين، الدّاكرين الله تعالى بالخلوة التي بالمسجد المذكور [وهو مسجد نويرة بالربط من مدينة المنستير] ولمن جاء زائرا من أهل الطريقة المذكورة المنتسب إليها حقّا، فيأكل من ذلك مدّة إقامته بالمنستير وملازمته للذكر بالخلوة المذكورة مؤونة معتادة وكذلك علف دابّته، والنصف الثاني لأهل الطريقة المذكورة بمدينة تونس المحروسة، يصرف ذلك في سباط عقب الذكر على نظر شيخهم".¹

ويقول الصادق الرزفي: "وأفراد هذه الطريقة بإقليمنا قليلون جدّا حتّى أن عددهم لا يكاد يذكر، أما مبدؤها فهو موجود بعدّة طرق من حيث الأعمال التعبديّة والأوراد وشروط التلمذة وتربية النفس إلى غير ذلك ممّا حصّ عليه علماء الباطن، ولا توجد بقطرنا زوايا مستقلّة بهذه الطريقة ولا جماعة مخصوصة".

أصول الطريقة: يقول الصادق الرزفي في كتابه الأغاني التونسية "الخلوتية طريقة تربية وسلوك وزهد وتقشف وعزلة واعتكاف وتجرد من متاع الدنيا وتصوّف بحت".² وتذكر مصادر الطريقة أن منهجها هو التطبيق العملي للشرع قولاً وعملاً وأخلاقاً، وذلك بإصلاح ظاهر السالك وباطنه، وذلك بصحبة الشيخ الوارث المرّي الذي لا يكتفي بتعليم مريده أمور دينه بصورة نظرية بحتة، وإنما يأخذ بيده لتطبيق أحكام الشرع عملياً: فيثني عليه إذا أحسن، وينبهه إذا زلّ، ويتفقده إذا غاب، ويذكره إذا نسي، ويزيّ قلبه إذا قسا ويحفزه إذا فتر، ويحنو عليه، ويحبه محبة الوالد لولده، قاصداً بذلك وجه الله تعالى، وبذلك يكتسب المريد الصفات الحميدة، ومعرفة الله، ويداوي عيوب وآفات نفسه.

1 محمد الحبيب نويرة، وثائق حول مدينة المنستير، مطبعة فرشيو المنستير، 14 أفريل 2011. ص 29.
2 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص. 106 و 107.

وللطريقة الخلوتية أركان سبعة هي: الحب والامتثال والذكر والفكر والصمت والعزلة (الخلوة) والصوم (الجوع). وأصول هذه الأركان في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة آلِه وأصحابه والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين، كما أن للطريقة أورادا يومية راتبه وأورادا اختيارية يتم تلقاها وتلقينها من الشيخ المرشد لتكون زادا للسالكين في طريقهم إلى الله.

وتشبه طقوس الانضمام إلى الطريقة الخلوتية غيرها في باقي الطرق الصوفية الأخرى فصورة البيعة عند مشايخ الطريقة الخلوتية أن يجلس الشيخ جاثيا على ركبتيه والمريد أمامه كذلك، ثم يضع الشيخ يده اليمنى في يد المريد اليمنى ثم يضع الشيخ يده اليسرى بين كتفي المريد ويقرأ هو والمريد الفاتحة ثلاث مرات، ثم يقول الشيخ والمريد يردّد خلفه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله ومن الله وإلى الله وعلى ملة الصادق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه لا أنقض عقدها أبداً، والله على ما أقول وكيل. رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وبشيخك شيخاً ودليلاً إلى الله تعالى. عاهدتك بالله العظيم على أن الطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا، والله على ما أقول وكيل.

ثم يقول الشيخ للمريد: أغمض عينيك واسمع مني: لا إله إلا الله ثلاث مرات، ثم قل أنت لا إله إلا الله ثلاث مرات وأنا أسمع .. بعد فراغهما يقول الشيخ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [10 سورة الفتح]. وعند الذكر في الخلوة المتمثل في قول "لا إله إلا الله" لا بد من ذكر الأسماء العشرة: هو، الحق، الحي، القهار، الوهاب، الفتاح، الواحد، الأحد، الصمد، القيوم.

ومن أهم رموزها: مصطفى كمال الدين البكري الذي دخلت الخلوتية مصر على يده وأحمد بن محمد العدوي، الشهير بأبي البركات الدردير ومحمد الحفناوي.

طريقة العمل: تنقسم الطريقة إلى أبواب يقع تتبعها في العمل التلقيني وهي 1- باب

السند. 2- باب مراتب الطريق. 3- باب التلقين. 4- باب الأركان والأصول. 5- باب الذكر. 6- باب أداب المرید. 7- باب الخلوة. 8- باب تدريج الأسماء. 9- باب أداب النقباء. ولهم توصية توضح طريقة العمل، في لون الفسيم المربع تنشد إنشادا وهي :

يا داخلا في الزمرة	تبغي فتح البصيرة
إياك ترك الحضرة	صباحا وماسيا
هي صيدك العزيز	هي كنزك الإبريز
كلام الله العزيز	حض عنها نبيا
لازموها يا إخوان	تبلغوا بها الرضوان
تمنحكم الغفران	تقيكم البلايا
هي حصنه الحصين	من دخله أمين
من عذابه المهين	في الآخرة والدينا
تستديروا حلقة	تذكروا متفقة
من ثماني رفقة	والأقل لا شيا
إلى ثلاث عشر	لا كراهة تحضر
فهو الحد المشتهر	إلى ما لا نهاية
زولوا اعوجاجكم	وسدوا فرجتكم
وغلقوا بابكم	تاركين للدينا
وادخلوها فقراء	ساكنين وقرا
طالبين الحضور	تذكرون ثلاثا مايا
فأول مدها	والثاني وسطها
والثالث قصّرها	هكذا مرويّا

اذا كنت في الأول حرك رأسك وتمايل
 كأنك تخايل دائرة قلبيا
 تصعد بها من يمين نفسك يا مسكين
 تنزل بها باليقين في الجهة اليساريا
 وإذا كنت في الثاني حرك قلبك غيزاني
 وإلا رأسك ضرباني علويا وسفليا
 وأعلم يا أخي المطلوب وضع الاسم في القلوب
 يحصل به المرغوب نوره والناريا
 فناره تخليا من رذائل كليا
 ونوره تحليا بالفضائل مروية
 خذوا مني ذا التفصيل يا مردين التحصيل
 إذا رتمتم التطويل زيدوا على الثلاثمايا
 إن لم تبلغوا المراد في الأول يا زهاد
 وأردتم الإمداد
 إن وفيتم فاسكنوا كطيور حضنوا
 وأرجوا ما تلقنوا واردا من مولايا
 حضوا عنها يا إخوان هي روضة الجنان
 خصوصا في ذا الزمان كثرت فيه الأهويا
 شروطها يا مسكين عدها قالوا عشرين
 أدبات الذاكرين نص عنها الصوفية

خمس قالوا قبلها	اثني عشر معها
ثلاثة بعدها	هكذا قد رويها
أولها توبة	ثانيها طهارة
ثالثها سكوت	تجعل ذكرك قلبيا
رابعها الاستمداد	بهمة شيخك يا مراد
خامس ذلك الاستمداد	تراه من نبيا
جلوسك أولها	في طهارة نقية
ثاني تضع راحتك	يا أخي في ركبتك
ثالث محل ذكرك	بخبره بالجافية
رابع لا تلبس حرام	خامس مكان الظلام
غمض عينيك يا غلام	خيل صورة شيخيا
ثامن قصدك يا مراد	سولسانك والفؤاد
تاسع اخلص تستعاد	من الشرك والريا
عشرها الجلالة	اختارها أهل الملا
لا مثلها في الجلا	في الأسماء الكليا
حادي عشر الاستحضار	معنى ذكرك المختار
الاستغناء والافتقار	خذ معنى الألوهيا
وفي حالة الأذكار	فرغ ذهنك من الأغيار
وأكتف بما يذكر	عند أهل التربية
لا معبود إلا الله	لا مطلوب إلا الله

لا موجود سوى الله هكذا مرويا
 فالأول للمبتدى والمتوسط يحادي
 والأخر سندي قالوا للمنتهيا
 ثاني عاشريا سالك إنف عَيْرًا من قلبك
 سوى هو وشيخك رفيقك في التربية
 فهذه معه وثلاث بعده
 سكونك خشوعك وارتقاب الجانيا
 والثاني هو الازمام نفسك يا غلام
 من ثلاث إلى التمام همّتك العليا
 والثالث شرب الماء منعه العلماء
 بعد ذكرك الأسماء مطفيا للناريا
 تمت هذه الأدبات عشرين قالوا السادات

أما الحضرة فيجلسون في حلقة كما وجد في الوصية أعلاه وينشد أحدهم (الرسيم)
 بينما الآخرون يقولون أرضية بـ(لا إله إلا الله) بميزان بطيء وهم يتمايلون، ثم يسرع
 الايقاع فإذا بلغ حدًا معينًا وقفوا للتراجع والتمايل، والألحان أغلبها تكتسي الصبغة
 التركية.

ومن تفرعات الخلوتية نجد الرحمانية والتيجانية اللتين كان لهما رواج بتونس.

الصريقة الرحمانية

هي من فروع الطريقة الخلوئية المشرقية¹. ويذكر الصادق الرزفي في الصفحة 129 من (الأغاني التونسية) فيقول: "هذه الطريقة منسوبة للولي الصالح الشيخ سيدي أحمد زروق الهروي المتوفى سنة 899 هـ ولها شأن عظيم وأتباع كثيرون بالقطر التونسي، وجماعاتها متعددة أشهرهم (دار أبي حجر بالكاف) التي تعرف بزواية سيدي علي بن عيسى، وجماعة (الشيخ محمد الصالح) بعمل باجة، وجماعة (الشيخ محمود بن عبد الحفيظ بالحاضرة) .." وفي هامش الأغاني التونسية للصادق الرزفي صفحة 106: "والرحمانية فرع من فروع الطريقة الخلوئية المشرقية أسسها محمد بن عبد الرحمان الزواوي (بوفيرين) المتوفى سنة 1208هـ/1793م، ومن فروعها الزاوية البشيرية بتونس التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242 هـ وزوايا متعددة بجهاات الجمهورية."

1 راجع كتابنا هذا بالهامش عن سلسلة إستاند الخلوئية، ص51. وتذكر لطيفة الأخضر في كتابها "الإسلام الطريقي" نشر دار سراس في الصفحة 46 أن عمر الخلوياي تلقى تكوينه عن أستاذه محمد الفارسي وتولدت عن الخلوئية منذ 1397م طرق عديدة كانت الرحمانية آخرها. "فعلى هذا الأساس نحن نحاول استخلاص المنهجية في التأملات المرتكزة على تقنيات التأمل التي طوّرتها الرحمانية التي تركز على المبادئ التأسيسية للخلوئية التي رأّت النور في تبريز في أذربيجان الإيراني حوالي نهاية القرن الرابع عشر الميلادي قبل أن تنتشر خصوصا نحو الغرب والجنوب الغربي في اتجاه الأناضول وحتى أبعد من ذلك نحو الجنوب الشرقي لأوروبا، وسوريا، ومصر، والسودان حتى جبال القبائل بالجزائر". عن الأترنيت، الخلوئية.

الشيخ المؤسس: [يقول الشيخ مصطفى باش تارزي القسنطيني في شرحه للمنظومة الرحمانية المسماة بالمنح الربانية: إن هذه الطريقة الخلوتية لم يكن لها ذكر بالأرض المغربية، وإنما أتى بها الشيخ خاتمة المرتين وواسطة عقد الأيمة العارفين أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمان القجطولي الزاوي الأزهري مجاورة حين رحل من وطنه إلى مصر قاصداً تحصيل علم الشريعة والحقيقة، فجاور بالجامع الأزهر مستقراً برواق المغاربة. ولازم علامة زمانه أبا عبد الله سيدي محمد بن سالم الحفناوي فلقنه الأسماء السبعة وسلك على يده. ثم وجهه إلى ناحية السودان لنشر الأوراد ونفع العباد. وبعد مدة أمره بالرجوع إلى مصر فرجع وألبسه الخرقة وأمره أن يرجع إلى وطنه فامتثل، وذهب إلى وطنه واستقر بجبل "جرجرة" جبل بناحية الجزائر بينه وبينها مسافة قريبة من مائة كيلومتر في وطن يسمّى "قجطولة" من أرض "زاووة"، وأذن له في التربية والتعليم خلق الله ما هم مطالبون به من أمور الدين. فأخذ عنه جم غفير، وسلك على يده خلق كثير واشتهر في الأقطار ذكره وكثر أتباعه وحزبه.]¹

إذن، أسس الطريقة محمد بن عبد الرحمان القجطولي الجرجري الأزهري المولود حوالي 1126 - 1133 هـ / 1715 - 1728 م، بـ"آيت اسماعيل" وكان أحسن تلاميذ الشيخ الحفناوي². طاف ببلاد السودان داعية ومبشراً كما طاف جزءاً من الهند والحجاز وتركيا، ناشراً في كل مكان مبادئ معلمه الروحي ومبشراً بها. ثم رجع إلى مسقط رأسه حوالي سنة 1183 هـ وقد سبقته أنبأؤه وشهرته التي طبقت الأفاق وأخبار خوارقه وعلومه الباطنية وفضائله العجيبة التي تنسب إلى أتباع المدرسة الخلوتية، وجلبت له تنبؤاته حماس الجماهير، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح مسكنه في "آيت اسماعيل" مقراً لوكالة إعلام ينطلق منها الأتباع إلى عشائر منطقة القبائل الجزائرية لنشر محامد أستاذهم الذي منّت عليهم به العناية الإلهية.

وقام الشيخ بزيارة مدينة الجزائر وأحوالها، وفي كل مكان كانت تعاليمه وخوارقه تجلب له إعجاب الجماهير واحترامهم، فلا حسد طوائف الأولياء الصالحين ولا فتاوي العلماء في تحريك نظام الحكم التركي للتصدى له، استطاعت إيقاف هذا الزحف.

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص. 336 و337

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص. 382 - 413.

واندفع سكان "جرجرة" في تأييد صاحب البركات الشيخ محمد بن عبد الرحمان وجعله وليهم القومي. وفجأة اختطفته يد المنون سنة 1208هـ [1793- 1794] في الوقت الذي كانت طائفته في أوج تطورها. هذه الوفاة أثارت العديد من البيانات من أتباع الشيخ محمد بن عبد الرحمان، وقام أهل السهل يؤدون واجب الزيارة إلى جبال "جرجرة" وأصبح ضريح الولي مكان لقاء الجماهير القبائلية التي أظهرت عدوانية وشراسة ضد النظام القائم. وتوجس الأتراك من ذلك شراً، وكى يتمكنوا من مراقبة الإخوان الرحمانية أخرجوا جثة الشيخ التي دفنت بطريقة غير محكمة في "آيت اسماعيل" ونقلوها إلى "الحامة" وهكذا أصبح للشيخ قبران فسمي "بو فبرين"، وأصبح للطائفة الرحمانية زاويتان رئيستان الأولى بـ"آيت اسماعيل" بـ"جرجرة" والثانية بـ"الحامة" قرب "الجزائر". ويعتقد أتباع الرحمانية في وجود جثة وليهم المفضل في القبرين في نفس الوقت.

أخبار الطريقة: انتشرت هذه الطريقة الرحمانية على ما يظهر في عدة أماكن حيث إن لها مسالك خاصة في أساليب الذكر والمديح ترجع كلها إلى مدار واحد للطريقة وهو الزهد والورع. إلا أن زاوية "جرجرة" تعتبر دائماً هي الرئيسية في ترتيب الطائفة الرحمانية، وقد شهد للمديرين الذين تداولوا عليها بأنهم محل بركة سيدي محمد بن عبد الرحمان (بو فبرين) نفسه بمجرد حصولهم على قيادة الطائفة، ويروي محمد البهلي النبال: [عين الشيخ محمد بن عبد الرحمان خليفة له في قسنطينة الشيخ مصطفى بن عبد الرحمان باش تارزي، وعن هذا الأخير أخذ الطريق الشيخ محمد بن عزوز بجهة بسكرة. ولما احتلت فرنسا بسكرة سنة 1843م التحق محمد بن عزوز بنفطة بعد أن أسس أصحابه بنواحي الجزائر خمس زوايا من بينها زاوية الشيخ علي بن عمر بطولقا¹، ثم تولّى مشيخة الزاوية المركزية بجرجرة الشيخ المغربي "علي بن عيسى" [المتوفى سنة 1252هـ] وهو الذي تنسب إليه (دار أبي حجر بالكاف) وقد وقعت تسميته بحياة الشيخ المؤسس وهو الذي واصل منذ 1794 م إلى 1836 عمل أستاذه [وعن الشيخ بن عيسى أخذ الشيخ بلحسن اليوسفي الدهماني]². ثم يأتي الشيخ "بلقاسم بن عبد الحفيظ" أصيل "معتقة"، ثم المغربي "الحاج البشير المغربي" [1836- 1837] [وقد كان صديقاً مخلصاً للأمير عبد القادر الجزائري

1 طولقا: واحة في الجزائر بولاية الأوراس، بها زاوية رحمانية شهيرة.
2 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 338.

والتحق به وخلف الزاوية للسيدة خديجة أرملة الشيخ بن عيسى، وإلى هذه الفروع ترجع الزوايا الرحمانية بتونس كزاوية سيدي البشير التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242 هـ الذي يرجع للشيخ الحاج البشير المغربي هو ينسب إلى سيدي عبد السلام بن مشيش المغربي شيخ أبي الحسن الشاذلي^[1]، ثم "محمد بن بلقاسم آيت عنان" أصيل "زمنزر" [1843 - 1844] ثم "الحاج عمار" [1843 - 1857] ثم "محمد الجحدي"، فهؤلاء هم الذين تداولوا على رأس الطائفة والذين اعترفت بهم عشائر التل والقبائل قبل أن يظهر الأستاذ الأعظم للطائفة وهو سيدي "محمد مزيام الحداد" حامل لواء انتفاضة سنة 1871 حيث أغلقت زاوية "جرجرة" بأمر من سلطات الاستعمار الفرنسي، وزج بالشيخ في السجن، وبينما هو في سجنه هدمت زاويته بـ"صدوق" وصودرت أملاك الطائفة لفائدة الاحتلال الفرنسي. وقام ابنه الشيخ "عزيز" بدوره في الانتفاضة، فقد كان محركها وروحها، ولكنه المسكين قبض عليه بعد والده ونُفي إلى كاليدونيا الجديدة، فاستطاع أن يفرّ ويستقر بـ"جدة". ومرض مرضاً عضالاً اضطره إلى تقديم اعتذاراته للسلط الاستعمارية وطلب الرحمة فقبلت توبته، وخففت عقوبته، وسمحت له بالقدوم إلى باريس سنة 1895 للعلاج، فتوفي بها بعد إقامة قصيرة ودفن بقسنطينة. وهكذا فقدت الطائفة انسجامها واستقل فروعها عن الأم فلم يعد يجمعهم إلا التسمية ووحدة الأوراد. ورغم الجهود التي بذلها الشيخ "عزيز" من "جدة" لم يبق معه إلا بعض المقدمين بزاوية "جرجرة" وبعض الإخوان ممن يريدون الحصول على البركة من معينها الاعتراف بابنه "صالح" الذي حمل لواء الطائفة بمجرد حصوله على وظيف إداري. وفي إجازة سلمها الشيخ "عزيز" نجد الفكر الذي حرّك هذا الرجل الديني في وصاياه لأتباعه: بعد المقدمة المعهودة وطلب الشيخ الدعاء من الأتباع كما يدعو هو لهم:

"... قد [أجزنا] لحامل الإجازة سي محمد بن عمارة ابننا ليس من صلبننا ولكن بالصحة وما أجدّه في قلبي نحوه وهو الذي وافق عليه شيخنا .. لذلك أجزته أن يعطي أوراد الرحمانية لكل من يأتي راغباً في الدخول في طريقتنا أو يطلبها مباشرة فيعلم الأسماء السبعة² للتلميذ الذي يقدم علامات على تعلقه بالطريقة ويبرز من الفضل أنه أهل لها،

1 المرجع السابق.

2 الأسماء السبعة هي بعض أسماء الله الحسنى تصاحب حالات نفسية في طريق الرحمانية وهي: [لا إله إلا الله] تكون النفس في حالة الميل والنزوع إلى الله، ثم [الله] تكون النفس فيه لؤامة، ثم [هو] تكون النفس

وعلى سي محمد بن عمارة أن ينقل هذه التعاليم كما أخذها هو نفسه عن الشيخ، وليهده الله إلى الطريق السوي، وليستعمله في هداية غيره، ولينوره ويجعل منه نبراسا منورا لغيره ويهده إلى طريق الجنة ويهد به، وليعلمه أكثر وأكثر من تعاليم طريقنا ولينشرها بتدريسه، فمن خاطبه للدخول في طريقنا كمن خاطب المرحوم الشيخ ابن الحداد الذي مات بعيدا عن أهله. وأوصيكم وأوصي نفسي وأوصي حامل هذه الإجازة بالثبات على طاعة الله وخشيته والحفاظ بأمانة على ورد الطريقة وإظهار الخشوع، ولا يرجو الاعتماد إلا على السلام إذ هو أحسن طريق لله دون عقبات، وهو الذي يمكن من مضاعفة الحسنات، وليس عندي ما أضيف ولكن هذا يكفي لكل رجل جدي عارف وحبیب لله. من عزيز بن الشيخ بن الحداد المُبعد عن أهله حفظه الله."

وانتشرت هذه الطريقة بتونس وطرابلس والقاهرة وجدة، ومن أهم الزوايا بتونس زاوية نفطة التي أسسها مصطفى بن محمد بن عزوز، فقد أثرت شخصية الشيخ في الناس وأصبح الإخوان الرحمانية يرسلون إليه أبناءهم ويأتونهم أنفسهم للاستفادة من نصحهم وعلومهم. ومن زواياهم بالعاصمة زاوية سيدي البشير التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242هـ ونسبه يتصل بالشيخ عبد السلام بن مشيش شيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي. وهو يرجع للشيخ الحاج البشير المغربي الذي

تولّى مشيخة زاوية جرجرة (زواية) وزاوية الشيخ علي بن عيسى بالكاف وهو خليفة الشيخ ابن عبد الرحمان عن زاوية جرجرة، وعن الشيخ بن عيسى هذا أخذ الشيخ بلحسن اليوسفي. ومن فروع الرحمانية أيضا بتونس زاوية عين الصابون أسسها الشيخ محمد الصالح العمراني، وزاوية القسطلي بباجة وزاوية بن عزوز بن نفطة أسسها الشيخ مصطفى بن عزوز وكانت وفاته في 1282هـ/1865م ودفن بزوايته بن نفطة، والشيخ محمد بن عزوز المهاجر صاحب زاوية طولقة من ولاية بسكرة بالجزائر، ومن فروع

في هذه الحالة مُلهمة، ثم [الحق] وتكون النفس في هذه الحالة مطمئنة، ثم [الحي] وتكون النفس في هذه الحالة راضية، ثم [الباعث] وتكون النفس في هذه الحالة مرضية، ثم [القاهر] وتكون النفس في هذه الحالة كاملة. (عن كبولاني). ولا تختلف هذه الأسماء عما نجد عند القادرية إلا في الاسم السادس وهو [القيوم] عوضا عن [الباعث] (عن الفيوضات الربانية لإسماعيل سعيد القادري).

1 ذكر محمد مخلوف في شجرة النور الزكية أن الشيخ الجليل إبراهيم الرياحي شيخ التجانية التقاه وأعجب بشخصيته وامتدحه بشعره (انظر الشجرة ص 286).

هذه الزاوية بتونس زاوية ابن عبد الملك بسليانة وزاوية الحاج مبارك بتالة وزاوية أخرى بالفصرين (محمد البهلي النيّال ص. 338 و339) وانسلخ فرع الرحمانية بنفطة عن الجزائر، وأصبح طائفة مميزة يسميها الأهالي رحمانية-عزوزية، وتفرّعت عنها زاوية في مدينة تالة بناها مع مسجد المصلح سيدي الحاج مبارك بن محمد العلوي المذكور آنفاً، وأصله من دشرة أولاد غيدة التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن مدينة تالة شمالاً في اتجاه الكاف. ويقومون الآن باحتفالاً بهم بكل المناسبات الدينية وبالخصوص السابع والعشرين من رمضان، وتسمّى الآن زاوية بن عزّوز، وهكذا فإنّ الطريقة في تونس كما في بنغازي أو المدينة المنورة تكون ممثلة بمقدم أو ببعض الأتباع الذين يعدون بالمئات لا يعرفون إلا عن طريق الشيخ أبي النخبة مصطفى بن محمد عزوز¹ الذي أدخل الطريقة إلى القطر التونسي وبثّها في العروش الذين قبلوها لسهولتها وبساطتها، وهو الذي عهد قبل أن يستقر بنفطة إلى الشيخ علي ابن عمر كامل المصالح الروحية لأتباعه وأكد له ذلك قبل موته، لكن الواقع أن ابنيه المكي والأزهري هما وحدهما الماسكين بربع زاوية نفطة وفروعها.

أما في "خنقة سيدي ناجي" بالجزائر، فإن مقدّم الشيخ بن عزوز، هو عبد الحفيظ بن محمد الذي ورث أجداده في زاوية "خنقة سيدي ناجي" عندما انتدب لتعليم مبادئ الرحمانية هناك.

وعند وفاة شيخه لم يعترف بسلطة علي بن عمر، وتحمل الورثة دائماً رئاسة زاوية نفطة، غير أنهم في خصام دائم مع زاوية "طولقة" فلم يتمكنوا من الحفاظ على ناموس الأجداد.

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 391 عدد 1563: "أبو النخبة مصطفى بن محمد عزوز العالم الولي العارف بالله الفقيه التقى الصوفي مع صلاح ودين متين من بيت علم وفضل وزاويتهم بصحراء سوف شهيرة دخل هذا الولي القطر التونسي وبثّ الطريقة الرحمانية الخلوتية في العروش. وطريقته لا تشديد فيها إلا من أراد التّوغل في السلوك، يأمر الناس بأداء فريضة الصلاة وذكر (لا إله إلا الله) بقدر الإمكان. وطار صيته وظهرت كرامته سيما في الجهة الغربية بنفطة. وصار له أتباع كثيرون. أخذ عن علي بن عمر صاحب زاوية طولقة وهو عن الشيخ محمد عزّوز وهو عن الشيخ محمد الأزهري الزواوي وهو عن الشيخ محمد الحنفي المصري الخلوتي. وأخذ عنه الكثير منهم ابنه المكي، وانتفع به وورث سرّه. وكان المشير أحمد باشا يعتقد ويعظم شأنه. ومنّ الله به على هذا القطر بإطفاء نار فتنة تأججت بإفريقية تُعرف بفتنة علي بن غذاهم الواقعة سنة 1280 هـ [1864م] لأجل مغرم الاثنين والسبعين وضمن للناس الأمان وطوّع العاصي .. وتوفي في ذي الحجة سنة 1282 هـ."

وقام أحدهم وهو محمود بن عبد الحفيظ بن محمد وانتصب في تونس الحاضرة مبتعدا عن الخصام وأسس هنالك زاوية. وبلغت الرحمانية درجة التقدّم على سائر الطرق الصوفية في عهد الاستعمار الفرنسي بتونس الحاضرة، فقد وصف محمد بن الخوجة في (الرحلة الفليارية)¹ مضمار استعراض الوفود بالقصر السعيد للرئيس الفرنسي فيليار الذي زار تونس سنة 1911م للاحتفال بمرور ثلاثين سنة على الاحتلال الفرنسي: "وكان التختروان² منمّقا مزركشا ومزدانا بالأعلام والأبسطة الحربية والرياش الفاخرة على أجمل شكل يخطر بالبال، وكان إلى يسار التختروان نحو الألف رجل من مشايخ ونباء وشوآش وسقاية وإخوان ومريدي الطرق القادرية والشاذلية والعيساوية والتجانية والرحمانية وغيرها وبين أيديهم مباخرهم ورشاشاتهم وسناجق زواياهم وطبولهم ونغراتهم وبقية الآلات الخاصة بهم، فكان لمجموعهم منظر في بابه غريب، وقد تجمّع حذوهم خلائق لا تُحصى من أعيان أهالي الحاضرة ... ثم وقع الشروع في الاستعراض فمرّ في طليعة القوم وفود الحاضرة يتقدمهم شيخ المدينة، وأعقبهم في المرور عامل الأحواز يتبعه وفود عمله، ثم جموع طرق الذكر يتقدمهم الشريف السيد محمد البشيرى شيخ مشايخ الطريقة الرحمانية، ثم جموع الطوائف الجزائرية، ثم أعيان الطائفة الإسرائيلية ..."³.

وأسس أخوه الآخر محمد الأزهرى بن عبد الحفيظ بن محمد زاوية صغيرة بـ"خيران" بدائرة "خنشلة" بالجزائر وترك لابنيه رئاسة زاوية "خنفة سيدي ناجي" فهما نائبان لزاوية نفطة.

وبغض النظر عن كل ذلك فإن فروع الرحمانية بـ"نفطة" و"خنفة سيدي ناجي" لهما عدة خانات (زوايا) بالحاضرة (زاوية عين الصابون) أسّسها الشيخ محمد الصالح العمراني وزاوية القسطلّي بباجة وزاوية ابن عبد الملك بسليانة، وزاوية الحاج مبارك بتالة، وزاوية فُضوم بالثصرين وتوزر وتمغزة والقيروان وأتباع في بني غازي وجنوب طرابلس وغدامس والمدينة المنورة ويبقى الفرع الحقيقي للرحمانية الصحراوية هو فرع "طولقة" الذي أسّسه الشيخ علي بن عمر، وكان الرّباط الذي يديره خليفته علي بن عثمان بكل حكمة أحد أهم مراكز الطائفة، وأوراده هي نفسها أوراد زاوية نفطة التي تحدثنا

1 محمد بن الخوجة، كتاب (الرحلة الفليارية بالملكة التونسية)، طبع المطبعة الرسمية العربية سنة 1330هـ/1912م، تونس.

2 التختروان: هو المنصة الشرفية العالية للرئيس، والكلمة من أصل تركي.

3 محمد بن الخوجة، الرحلة الفليارية بالملكة التونسية، ص 75.

عنها أنفا والتي تعترف بالسلطة الروحية للشيخ علي بن عثمان.

أصول الطريقة : قال الشيخ باش تارزي القسنطيني :

يَا مَنْ تُرِيدُ الشَّقَاءَ وَاتَّبَاعَ الْمُصْطَفَى

ادْخُلْ طَرِيقَ الْوَفَاءِ طَرِيقَ الْخُلُوتِيَا

فهي طريقة تحث على الورع والزهد وسلوك طريق الآخرة، وأهمها القيام بالمفروضات والانهماك في ذكر (لا إله إلا الله). وفي البيت تذكير بالخلوتية التي تنتسب إليها الطريقة. ويفهم ذلك من نص الإجازة الذي سلمه الشيخ علي بن عثمان الطولقي إلى أحد المقدمين والتي تعتبر مثالا لكل زوايا الرحمانية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله كثيرا كثيرا كثيرا

من خديم شيخه علي بن عثمان بن علي بن عمر الطولقي إلى كافة أحبائنا وإخواننا الواقفين على جوابنا هذا، السلام والرحمة والبركة، أما بعد فإني أذنت وأجزت إجازة تامة شاملة للحامل المنور الصالح العامل الحاذق الأديب العارف بربه ولدنا قلبا لا صلبا سيدي : ... أن يعطي أورد طريقتنا الخلوتية المتصل سندها إلى خير البرية صلى الله عليه وسلم، وصفة التلقين هو أن يمسك إبهام يمين الطالب ويقول له غمض عينيك واسمع إليّ وتبني: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، أستغفر الله تبنا لله ولرسوله. اللهم يا رب اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما بقي. ثم تقول: اسكت، وتقول وحدك: لا إله إلا الله ثلاثا ثم يقولها هو ثلاثا، تأخذ الفاتحة لكما وللنبي والشيخ المري، ثم تأمره بطاعة الله ورسوله ويذكر بعد صلاة الصبح ثلاثمائة (لا إله إلا الله) وإن زدتم فحسن، ومن عصر يوم الخميس إلى عصر يوم الجمعة الصلاة الشاذلية وهي: (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) ما يسر الله وبعد عصر يوم الجمعة اختم بالأمي وهي: (اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم) ثمانين مرة، يغفر الله لقاتلها ذنب ثمانين سنة. ومن أخذ عنه كأنما أخذ عنا، وعليكم بطاعته ومداومة الحضرة صباحا ومساء مجتمعين ليحصل المدد النبوي منه صلى الله عليه وسلم، وعليكم بمخاواة بعضكم بعضا، وعليكم أيضا بالصبر والتسليم لخلق الله

1 هكذا وجدناها وهكذا نقلها بأمانة، ولعلها تحريف للمصدر مؤاخاة من أخي يؤاخي مؤاخاة.

وتعاونوا على البر والتقوى وجدّوا واجتهدوا في ذكرهم لتدخلوا في حزب الطريقة المنوّرة فإنّ من دخلها دخل في حزب وضمانة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، ومن دخلها كمن دخل دخل سفينة نوح وكمن دخل مقام إبراهيم، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [للشيخ رحمه الله]: طريقتك هذه كسفينة نوح من دخلها نجا ومقام إبراهيم من دخله كان آمنا وببشارة المصطفى للمشايخ جيلا بعد جيل ولم تنقطع إلى الآن وهو زمان التاريخ وذلك في شهر الله جماد الأول بعد ما مضى منه ثمانية وعشرون يوما سنة 1302 والسلام من المذكور أعلاه.

طريقة العمل : وظائفهم ثلاث في الأساس:

1- الشيخ : وهو الذي يتولّى شؤون الجماعات المتعددة، وهو الذي يعطي الإجازات في ولاية المقدمين ويولي القدّاش وكذلك شيوخ العمل والشواش ويعطي العهد بالطريقة للمنخرطين الجدد ويقبل النذور التي تصل إلى الزاوية.

2- المقدم : وهو الذي يتولى شؤون الجماعة، وربما أولى شيخ العمل، ومن خصائصه إعطاء العهد بالطريقة.

3 - القدّاش : وهو وظيف خاص يعطيه الشيخ لمن يظهر خدمة زائدة في إحدى الزوايا.

4 - شيخ العمل.

5 - الباش شواش : هاتان الوظيفتان أحدثتا تقليدا للطرق الأخرى.

وكان عمل الجماعة منحصرا في ذكر (لا إله إلا الله) فأحدثوا المديح وأدخلوا فيها نقر الطّار والنّقرات والدفوف وألّفوا لها مدائح شبيهة بمدائح القادرية.

وكانت للزاوية البشيرية التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242 هـ خرجة تسمى (خرجة زاوية) عبارة عن استعراض عسكري بالأعلام يمينا وشمالا ووراءهم جماعة أخرى بالحراب وتعزف فيه الموسيقى ويطلق البارود.

الصريقة الحفوضية

فرع عن الصريقة الرحمانية

نسبة إلى سيدي عبد الحفيظ بن محمد

الشيخ المؤسس : هو الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الذي ورث أجداده في زاوية "خنفة سيدي ناجي" عندما انتدب لتعليم مبادئ الرحمانية هناك. أما ناشر الطريقة الحفوضية بالقطر التونسي فيظهر أنه تلميذ الشيخ عبد الحفيظ الشيخ التارزي بن محمد بن عزّوز وابني الشيخ عبد الحفيظ محمود بتونس العاصمة والحفناوي بتوزر.

أخبار الطريقة : يقول السيد أمين بن عبد الكريم بن عزّوز أستاذ الفيزياء بكلية العلوم بالمنستير، وهو من سلالة شيخ الطريقة الحفوضية: إن هذه الأخيرة واحدة من فروع الطريقة العزّوزية - الرحمانية، وتنسب إلى الولي الصالح الشيخ عبد الحفيظ الخنفي الذي تسلّم الولاية من يد شيخه محمد بن عزّوز البرجي. وهي طريقة قادمة من القطر الجزائري، وانتشرت في البلاد التونسية خاصة عن طريق ابني الشيخ عبد الحفيظ: محمود والحفناوي وعن طريق تلميذه الشيخ التارزي بن عزّوز وهو ابن الشيخ محمد بن عزّوز، وقد نشر هذا الأخير الطريقة الحفوضية بنقطة قبل أن ينتقل بها إلى المدينة المنورة وذلك سنة 1883م.

واستقر الشيخ محمود بن عبد الحفيظ بحاضرة تونس، وزاويته قائمة إلى اليوم وهي زاوية سيدي محمود. أما الشيخ الحفناوي بن عبد الحفيظ فقد أقام زاوية بتوزر بمنطقة أولاد الهادف وهي زاوية سيدي الحفناوي.

وحوالي 1919م رجع الشيخ عبد الكريم بن عزّوز إلى نفطة بعد رحلة طويلة قريبة من الثلاثين سنة قضاها بين "جدة" وسوريا "حلب" بسبب مناهضة الاستعمار الفرنسي، واستقرّ الشيخ من جديد وأقام الزاوية الحفوطية المعروفة بزاوية سيدي عبد الكريم بن عزّوز بمنطقة "الباموة"، مع العلم أنّ بمدينة نفطة توجد زاوية عزوزية أخرى مشهورة وهي زاوية الشيخ مصطفى بن عزّوز، وهو عم الشيخ عبد الكريم. ويظهر أنه كان هنالك تعاون وتقاسم للأدوار بين هذه الفرق والزوايا، إذ يروي السيد أمين أنّ الهدايا كانت عندما ترد على الشيخ التارزي يقول: ارفعوها إلى مصطفى (أي مصطفى بن عزوز) فهو الذي في حاجة إليها، وقد كان في تلك الآونة بصدد إقامة رباط للمقاومة إلى جهة الغرب من مدينة نفطة، بينما كان الشيخ التارزي ينزل بالجهة الشرقية داخل البلد، وهذا يدلّ على التفاهم بين الطريقتين العزوزية والحفوطية وتقاسم الأدوار بينهما حيث إنهما ينتميان معا للطائفة الرحمانية.

أصول الطريقة : أكبر ميزة تمتاز بها الطريقة الحفوطية هو إدخالها لتجديدات في الإنشاد الديني على مستوى الكلمات والألحان والآلات، وهذا ما يفسّر الشهرة والصيت اللذين حظيت بهما هذه الفرقة بالجهة. فبينما حافظت أحزاب الحفوطية بتوزر وتونس على طابعها الغربي (الجزائري) فإن حزب الحفوطية بنفطة أدخل ألحانا شرقية على القصائد المتداولة على نمط المألوف التونسي والقيّدا الحلبية وذلك منذ بداية القرن العشرين.

من أشهر مشائخ حزب الحفوطية الشيخ التارزي بن عزّوز وتنسب إليه العديد من القصائد الصوفية التي تُنشد إلى الآن، وقد كان أديبا متميزا يرتجل القصائد ويسجع

1 القِدَد أو القُدود الحلبية: جمع (قَد) وهو السير (الشريط) من الجلد كالخيط، والجمع (قِدَد)؛ قال طرفه بن العبد "وَأِنْ شِئْتُ لَمْ تُزَقِلْ وَإِنْ شِئْتُ أَرْقَلْتُ * مَحَافَةَ مَلُوءِي مِنَ الْقِدِّ مُحْصِدًا أَي السوط من الجلد، أو قُدود جمع قَد: وهو قوام الإنسان، أو (قَد) بمعنى (قدر) ويظهر أن المعنى الأخير هو الذي ينضبط مع هذا اللون من الغناء. والقُدود الحلبية هي أغان قديمة ضاع نصها الأصلي ووضع بدلا منه شعر أو زجل بل (قَد) الوزن تماما لهذا سمي (قَدًا) فجمعه بعضهم على (قُدود) وبعضهم على (قِدَد). وذلك لأن اللحن في الأغنية أثبت من الكلام، فالكلام قد يضيع ولكنّ اللحن يبقى فتركب عليه كلمات أخرى ويبقى هو ثابتا محافظا على روح واضعه الأول. فهذه القُدود، إذن، هي شبه صنایع على ألحان تراثية مجهولة المدخّن كالأغاني الشعبية.

الأسجاع ويلحنها لتؤديها المجموعة المتكوّنة من منشدين ومريدين.

وتميّز حزب الحفوظية في عهد الشيخ عبد الكريم بالطابع الشرقي، فقد قضى الشيخ فترة تفوق الثلاثين سنة بالمدينة المنورة، وكان مقرثا في الحرم النبوي الشريف ويدرّس القراءات، كما استقرّ فترة من الزمن بسوريا في مدينة حلب مما جعله يضيف قصائد¹ وألحانا شرقية جديدة على نمط الموشح²، كما أنّه أعاد تلحين الكثير من القصائد الموروثة، فأصبحت تكتسي رونقا خاصا وهي تنشد إلى الآن.

وازدهرت في عهد هذا الشيخ فرقة الحفوظية حيث أدّت أدوارها³ وأناشيدها الدينية البديعة والمتقنة بالإعتماد على آلات البندير والنغارات والتشتري، وكذلك أدخلت آلة البيانو عن طريق الشيخ المكي بن عبد الكريم بن عزّوز، وورثه ابنه عبد الحفيظ في هذا العرف ثمّ ابنه الآخر المكي. كان الشيخ المكي بن عزّوز من أبرز مشائخ حزب الحفوظية، خلّف والده عبد الكريم إثر وفاته سنة 1926م. وكان أديبا يُدرّس البلاغة واللغة العربية بنفطة وله ديوان شعر مخطوط في مدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم وآل بيته، وألّف كذلك في الموشح وأثرى رصيد الحفوظية بالعديد من القصائد، وتميّز خاصّة بإدخال آلة البيانو وهي عملية منفردة النظير وغير معهودة لدى الطرق الصوفية في ذلك الوقت، فقد

1 قصائد جمع قصيدة وهي في الغناء العربي تعتبر من أرقى أنواع الغناء لرقى القصيدة الفصيحة وعلوّ شأنها، وهي القصيدة العمودية موحّدة القافية من صدور وأعجاز، فعلى الملحن اختيار الشعر من ناحية ثمّ التّفنن في توقيعهما من ناحية، وتوقّع في الغالب على ميزان المصمودي الصغير والكبير.

2 الموشح أو الموشحة هي كلمات موزونة على الأوزان الشعرية المعروفة لكنها عوض أن تتكوّن من السماطين الصدور والأعجاز تتركّب من طالع وأبيات والأبيات تتركّب من أغصان تترتّب فيها القوافي ترتيبا يخرّعه الشاعر لنفسه طبقا لعدد الأغصان وترتيب المكّبات إن وجد المكب، وتغلب على الموشح اللغة العربية الفصحى وهو من ابتكار الأندلسيين. والقليل من الموشحات يكون في العامية وقد يمزج بين اللهجتين وربما مع لغة أجنبية كالإسبانية مثلا. وتكون مواضيعه غالبا في الغزل ووصف الرياض ومجالس الأأس أو في الوجد والهيام كما لدى الصوفية.

3 الأدوار جمع دور وهونوع من الزجل المصري يشبه الموشح إلا أنه بالعامية ويتألف عادة من مذهب (طالع) وأغصان والأغصان تسمّى أدوارا أيضا، والدور الأخير يسمّى (القفلة). ويلحن الدور في إيقاع المصمودي الكبير وقليل ما يكون في غير المصمودي، وقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. المرردون يسمّون المذهبية وهم جماعة من ذوي الأصوات الحسنة لا يتجاوزون الأربعة أنفار، ووظيفتهم في الدور ترديد الأهات وبعض الجمل القصيرة من الدور. وأخيرا ابتكر المصريون طريقة جديدة للدور هي أن يرّد المغنّي ألفاظ القسم الثاني أي الأدوار دون الطالع بارتجال في ألحان مختلفة من شأنها أن تبرز تفنن وبراعة وتسلطن المغني وتزيد السامعين طربا، وقد يردد المذهبية معه أحد هذه الألحان. والأهات جمع أهة تتخلل الدور بعد الفصل الأول وهي المغنّي بكلمة (أه) وهي موزونة بميزان الدور يرددها المغنّي الرئيسي ويتبعه المذهبية. وتأتي هذه الأهات في الغالب بعد الإنتهاء من غناء الفصل الأول وقبل قفلة الدور، ومحيّتها عند القفلة يكون بصورة مختصرة إذا كان بانتهاء الدور.

كان كثير التردد على مقهى المراتب بالعاصمة تونس حيث تعلّم العزف على هذه الآلة ودرس المقامات التونسية، هذا مارواه الفنان خميس الترنا للشيخ عبد الكريم بن الشيخ المكي عندما التحق هذا الأخير بالرشيدية في بداية الستينات من القرن العشرين الميلادي. واكتسبت الحفّوظية في عهد الشيخ المكي شعبية كبيرة ومن المأثور أنّ عدد المحبّين المرّدين إلى جانب الفرقة الرسمية يتجاوز في عديد المرّات المائة نفر، وذلك تبعاً لما أدخلته في عملها من تجديد.

طريقة العمل : كتب لنا السيد لطفي الحفصي أحد المولعين بهذه الطريقة ف جاء في رسالته: "ازدهرت هذه الفرقة (أي الحفّوظية) حتّى أدّت أدوارها وأناشيدها الدينية البديعة والمتقنة بالاعتماد على آلات موسيقية متطورة كـ"البيانو"، أمّا الآلات الأخرى كالطار والبندير والنقارات والتشتري فهي تستعمل إلى اليوم. وهذه الفرقة لها نشاط كباقي الفرق الطرقية بنفطة في المواسم الدينية كالأحتفال بالمولد النبوي الشريف أو ليلة القدر أو بالأعراس والأختان وتحيي خلالها سهراتها الرائعة والرائقة بمختلف الألحان والأوزان، وتتميّز بنوعية خاصّة تعرف بالقصيد الغربي الخاص بالجنوب الجزائري.

وعادة ما تبدأ السهرة أو الميعاد بالتداولة قبل الدخول إلى وسط الدّار أو الزاوية مكان السهرة أو بعده فينشدون وقفا حتى تنتهي، ثمّ يجلسون في حلقة يتصدرها الشيخ وحوله المريدون والمنشدون؛ وتفتح السهرة بقراءة الفاتحة وكذلك في سائر السهرات أو في المولد الذي تسرد فيه المولدية (مولد البرزنجي) وإثر كل تعطيرة تنشد قصائد نبوية مثل :

بَدَأْنَا بِاسْمِ اللَّهِ * وَبِصَلَاةِ اللَّهِ * عَلَى رَسُولِ اللَّهِ * وَآلِهِ الْأَبْرَارِ
قُمْ وَامْتَدِّحْ يَا صَاحُ * وَجَدِّدِ الْأَفْرَاحُ * سَعْدُ السُّعُودِ لَاحُ * بِمَوْلِدِ الْمُخْتَارِ
يَا مُطْرِبَ الْجُلَاسِ * قَدْ زَالَ عَنكَ الْبَاسُ * قُمْ طَيِّبِ الْأَنْفَاسِ * بِقِصَّةِ الْمُخْتَارِ
وكذلك قصائد أخرى مثل :

(يَا أَمِنَةَ بُشْرَاكِ سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكِ
بِحَمْلِكَ بِمُحَمَّدٍ رَبُّ السَّمَاءِ هُنَاكَ)

أو : (نور الأثام ساطع المَحْيَا) وكلها قصائد معروفة في كتب المولدية. وعلى إثر سرد قصة المولد النبوي الشريف تبدأ المجموعة بقصائد نبوية أخرى تنطلق بها السهرة بالبندير ومختلف الآلات الأخرى، ويكون الشيخ أو المقدم يقود الفرقة قارعا النقارات أو بضابط الإيقاع التشتري، ويتخلل هذه القصائد أو الأدوار مقاطع من المتداولة أو النوبات المعروفة بها الفرقة، مثل :

الله الله لا إله إلا الله الواحد الوحداني

بن عزوز وبي الله من سيرة سقاني

ويتكرر هذا المقطع عن طريق المنشد تارة والمجموعة تارة أخرى، ويكون الإيقاع خلال ذلك حادًا بالبندير والطار تقودهما النقارات، ويضفي التشتري رنة وزخرفة تطرب لها الأسماع، وهذا ما يميّز هذه الفرقة مما جعل صيتها ذائعا في نفطة وخارجها، فهي تنتقل لإحياء السهرات في العائلات العزوزية المقيمة بالبلدة أو خارجها مثل سبيطة والكاف وتونس العاصمة. أما أشهر المقامات الشرقية التي تستخدمها الحفوضية فمقام النهاوند والقودود الحلبية بالإضافة إلى المقامات التونسية كالحسين والمزوم، هذا مع طابعها الغربي الجزائري المميز، مما يجعلها من أثرى الفرق ألحانا وأوزانا، وكذلك لها العديد من البحور والقصائد التي ألفها مشائخها مثل التارزي بن عزوز والمكي بن عبد الكريم، أو بعض مرديها، التي أثرت المخزون الثقافي العظيم لمدينة نفطة التي تزخر بالفرق الصوفية التي تتميز كل واحدة منها بميزات خاصة. ولا تزال هذه الفرقة العريقة تنشط وتشبب عناصرها الذين يأخذون عن مشائخها ويطورون ويجددون وينوعون في الألحان والموازين".

ومما ينشد قصيد تفتتح به السهرة: فينشد المنشد تارة بيتا في القرار وتارة في الجواب، وتردد المجموعة هذا البيت الأول :

صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ * صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ * صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ * الْهَاشِمِيُّ الْمُرْشِدُ

بِسْمِ اللَّهِ نَبِّدَا النَّظَامَ * سُبْحَانَهُ هُوَ السَّلَامُ * مُصَلِّيًا عَلَى الْإِمَامِ * سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ

ثم تبديلة في إيقاع خفيف :

هُوَ الْبَشِيرُ هُوَ النَّذِيرُ * هُوَ السَّرَاجُ هُوَ الْمُنِيرُ * هُوَ الشَّفِيعُ يَوْمَ الْهَجِيرِ * يَوْمَ الْحِسَابِ مُحَمَّدٌ
هُوَ سِرَاجُ الْأَوْلِيَاءِ * هُوَ تَقِيُّ الْأَتْقِيَاءِ * هُوَ صَفِيُّ الْأَصْفِيَاءِ * سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ

ثم برول واختتام :

مِنْ بَعْدِ تَشْرِيفِ الرَّسُولِ * اِرْضُوا عَلَى صَحْبِهِ الْعُدُولِ * مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ * أَقُولُ
سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ

قَالَ اللَّهُ يَا جَاوَادُ * اغْفِرْ لِي يَا رَبَّ الْعِبَادِ * بِجَاهِ سَاكِنِ الْأَبْعَادِ *

.....

أو مثل قصيد الشيخ التارزي في الغري وهو يتميز عادة بالطول ويكون إما ملحونا أو بالفصحى وغالبا ما يمتزج فيراوح بين العربية الفصحى واللهجة المحلية المتداولة ويتميز كذلك بتعدد التبديلات والألحان فيكون شبه دور يغطي معظم السهرة الحفوية :

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ * الدَّائِمُ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ * الصَّلَاةُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الْكَرِيمِ * الرَّبِّ الرَّحِيمِ * سُبْحَانَ الْقَدِيمِ * لَا رَبَّ سِوَاهُ

يَا رَبِّ يَا رَحِيمِ * سَخَّرَ لِي النَّدِيمِ * بِشَرَابِ عَظِيمِ * يَرْوِي قَلْبَ تَاهُ

حتى يقول :

كَمْ جَنَيْتُ وَكَمْ * مِنْ ذَنْبٍ سَمَمَ * قَلْبِي يَا ذَا التَّعَمِّ * إِشْفِهِ مِنْ دَاهِ

تُكْرَمُ بِالْكَرَمِ * وَبِأَهْلِ الْهَمَمِ * اجْعَلْنِي مُنْتَظَمٍ * فِي حِزْبِكَ يَا اللَّهُ

لَوْ بِي عَلَى الْحَبِيبِ * حَقُوظُ النَّجِيبِ * شَيْخِي أَنْتَ قَرِيبُ * مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ

وهكذا إلى تمام السبعة والخمسين بيتا.

ومن إنشادهم على شكل الموشح :

تَسِيمُ الوَصْلِ هَبَّ عَلَى التَّدَامِي فَأَسْكَرَهُمْ وَمَاشَرِبُوا المُدَامَا
وَمَالَتْ مِنْهُمُ الأَعْنَاقُ مَيْلًا لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُلِئَتْ غَرَامَا
وَأَيَّظَ فِي الدُّجَى مَنْ كَانَ نَامَا وَلَمَّا شَاهَدُوا السَّاقِي تَجَلَّى
وَقَالَ لَهُمْ: عِبَادِي الا تَنَامُوا! يَنَالُ الوَصْلَ مَنْ هَجَرَ المَنَامَا

وينشدون كذلك المتداولة الحفوظية المعروفة بنوبة الحجاج في ميزان المربع التونسي، وهي للشيخ عبد الرحيم البرعي [في البحر الكامل]: فيبدؤون بهذه اللازمة :

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ وَالآلِ وَالأَصْحَابِ وَالأَوْلَادِ

فيردها الرّدادة بينما ينشد المنشد الأبيات :

يَا رَاحِلِينَ إِلَى مَنَى بِالرَّزَادِ شَوْفُ—تُمُوا يَوْمَ الرَّحِيلِ فُوَادِي¹
سِرْتُمْ وَسَارَدَلِيلُكُمْ يَا وَحْشِي الشَّوْقُ أَقْلَقَنِي وَصَوْتُ الحَادِي
لِلَّهِ مَا أَحَلَى الوُفُوفَ عَلَى مَنَى فِي يَوْمِ عِيدِ أَشْرَفِ الأَعْيَادِ
وَيُقَالُ لِي جَدُّ يَا عُبَيْدُ إِلَى السَّرَى عَرَقاتُ تَجَلَّى وَكُلُّ قَلْبٍ صَادِي
مَنْ نَالَ مِنْ عَرَقاتِ غَرْضِ عَشِيَّةِ نَالَ السُّرُورَ وَنَالَ كُلُّ مُرَادِ
فَانظُرْ إِلَى الحُجَّاجِ عِنْدَ نُفُورِهِمْ بَاتُوا بِمُزْدَلِقَاتِ ذَاكَ الوَادِي
وَرَمُوا الحِجَارَةَ ثُمَّ قَصَّوْا شُغُورَهُمْ لَبَسُوا المَخِيطَ لِصِحَّةِ الأَجْسَادِ
ضَحُّوا ضَحَايَاهُمْ وَسَالَ تَجْمِيعُهَا وَأَنَا مِنَ الشَّوْقِ دَبَّحْتُ فُوَادِي
يَا حَادِي الأَضْعَانِ فِي عَسَقِ الدُّجَى جَدُّ العَسِيسُ فَعَنَّ لِي يَا حَادِي
وَتَدَكَّرُوا عِنْدَ الطَّوْفِ مُتَمِيمًا صَبًّا بَرَاهُ الشَّوْقِ بِالإِبْعَادِ

1 القصيد للشيخ عبد الرحيم البرعي ولكن نظام الأبيات وقع بتصرف وكذلك بعض العبارات وهو منشور بديوان الشيخ أحمد العلاوي، ص 77 مطبعة الشحي تونس 1407هـ/1986م

فَإِذَا وَصَلْتُمْ نَحْوَ طَيْبَةَ بَلَّغُوا مِنِّي السَّلَامَ إِلَى الرَّسُولِ الْهَادِي

تبديلة: (برول خفيف واختتام)

يَا رَبِّ أَنْتَ وَصَلْتَهُمْ وَقَطَعْتَنِي فَبِحَقِّهِمْ يَا رَبِّ حُلِّ قِيَادِي

النَّاسُ قَدْ حَجُّوا وَقَدْ بَلَّغُوا الْمَنِي وَأَنَا حَجَجْتَ وَمَا بَلَّغْتُ مُرَادِي

الْمُصْطَفَى عَالِي الْجَنَابِ مُحَمَّدٍ خَيْرُ الْوَرَى مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي

فَعَلَيْهِ مِنْ عَبْدٍ الرَّجِيمِ تَحِيَّةٌ مَا سَارَ رُكْبٌ أَوْ تَرَّتْ حَادِي

صورة من احتفالات حزب الحفوضية

كما رواها لنا الأستاذ أمين بن عزوز

للحفوضية حركة متميزة في الحياة الثقافية بالجهة ولها نشاط مثل باقي الفرق الطرقية بنقطة في المواسم الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف أو ليلة القدر أو بالأعراس. ونورد هنا نموذجا للاحتفال بعيد الفطر: إثر صلاة العيد مباشرة بجامع محمد بن نصر يقف المصلون متحلّقين في رحاب الجامع ويشرعون في إنشاد قصيدة البردة بلحن متعارف (من وضع الإخوان) ويخرجون منشدين إلى أن يصلوا إلى زاوية الشيخ عبد الكريم حيث يجتمعون القصيدة ويتناولون القهوة، ثم ينصرفون. ثم يأتي حزب الدرقاوية ومقرها في علقمة بجامع سيدي علي بن السيارى إلى الزاوية فينشدون:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ * يَا بَآبِي دَارِ الْعُرُوزِ * عَلَّاشِ تَعَلَّيْهَا

لَوْتَبْنِي فِيهَا قُصُورُ * تِرْحَلُ وَتُحَلِّيْهَا

ثم يتحولون إلى أضرحة المشايخ للترحم على أزواحهم، فيتلون فاتحة الكتاب، ثم يستأنفون نشيدهم عائدين من حيث أتوا.

بعد ذلك يأتي دور حزب الحفوضية أو الإخوان، فيترنمون بقصيد للشيخ التارزي في مدح شيخه عبد الحفيظ والذي طالعه:

اللَّهُ اللَّهُ * وَصَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ * وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ
بِاسْمِكَ نُنْظِمُ * وَنِشْكِي أحوَالِي لِلمُلهِم * حَقًّا بَدْرِ التَّمَامِ

ثم يقومون بجولة منشدين نشيد "السير" وهو "متداولة" في طريقهم إلى منازل الشيخ، فيصطقون في ثلاثة أو أربعة صفوف وتكون الدفوف فيها بالصف الثاني، بينما يقف المشايخ في الصف الأول فينشدون مثلاً :

إِلَهِي يَا إِلَهِي يَا ذَا الْعُلَا وَالْجَاهِ
صَلِّ عَلَى الْأَوَاهِ مُحَمَّدُ بْنُ عِدْنَانِ
أَوْ : يَا سَاكِنَ الْحُجْرَةِ يَا أَبَا الرَّهْرَاءِ
أَلْمَدَدُ يَا عِدْنَانِي أَبْتَنِي نَظْرَةَ

ثم يقصدون منازل الشيخ التارزي وأبنائه بعرض المصاعبة حيث ينشدون، ثم يأخذون طريق العودة إلى الزاوية بـ"المتداولة" حوالي الواحدة أو الثانية بعد الظهر على أمل اللقاء بعد صلاة العصر. فيجتمعون في الميعاد من جديد بالزاوية ثم يتحولون منشدين نشيد "السير" قاصدين سيدي مصطفى بن عزوز حيث ينشدون بعض القصائد الطرقية التي تتضمن مآثر ومناقب الشيخين سيدي مصطفى وسيدي محمد بن عزوز. ثم يجتمعون حفلهم بالدعاء، وبنفس الطريقة يقع إحياء عيد الأضحى، ويقع فيه إنشاد قصيد للشيخ عبد الحفيظ يتضمن مناسك الحج وشعائره طالعه :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ

أما السهرات : فتبدأ بالدخول أو القدوم ويكون بالمتداولة، ثم تُقرأ سورة الفاتحة، ثم ينشد أحد الشيوخ في نغمة الأصبعين قصيدا طالعه [من البحر الكامل] :

كُلُّ الْقُلُوبِ إِلَى الرَّسُولِ تَمِيلُ عِنْدِي لِذَلِكَ شَاهِدٌ وَدَلِيلُ
أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذَكَرْتُ مُحَمَّدًا صَارَتْ دُمُوعُ الْعَاشِقِينَ تَسِيلُ

1 حَقًّا: ترخيم اسم عبد الحفيظ.

ثم من [بحر الرمل]:

يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْ لِي شَافِعًا وَمُغِيثًا عِنْدَ هَوْلِ الْمُحْشَرِ

ثم من [البحر الكامل]:

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ وَالْآلِ وَالْأَصْحَابِ وَالْأَوْلَادِ

ثم تُنشد قصائد شرقية، ثم قصائد غربية، ثم بقصيدة الشيخ عبد الحفيظ، طالعها:

يَا سَعْدِي بِالنَّبِيِّ زُرْتُهُ بَانَتِ الْأَنْوَارُ سَاطِعَةً

هَذَا الْمَقَامَ نَا دَخَلْتُهُ ذَهَبَتْ الْأَحْزَانُ فَاجِعَةً

رَبِّ أَنَا لِيكَ طَائِعًا

يَا سَعْدِي بِالنَّبِيِّ قَبِلْنِي وَفَرِحْتُ لِي كُلِّ جَارِحَةٍ

يَوْمَ مَا زُرْنَاكَ صَوَّعِيْنِي بَانَتِ الْأَنْوَارُ وَاضِحَةً

وتؤدى في لحن غربي (أي جزائري) مطرزة بمجموعة من الزوارق (زورق أي

عروبي) ويتخللها مجموعة من متداولات تنشيطية مثل:

يَا الْإِخْوَانَ اللَّهُ يُتُوبُ عَلَيْكُمْ زُورُوا دَارَ الشَّيْخِ بِالنَّبِيِّ

فِي نَهَارِ الْجُمُعَةِ يُصَلِّيْ بِبَيْتِكُمْ وَحَتَّى لِلْعَصْرِ تَقْرُوا الْأُمَّةَ

أو: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْإِخْوَانَ رَاهِي جَاتِ تَزُورُ

إِنْتُمَا رَاكُمُ دَرَوْلْتُونَا يَا إِخْوَانَ الْأَخِ بْنِ عَزْرُوزِ

أو: اللَّهُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَالِدِ الْوَحْدَانِي

بَيْنَ عَزْرُوزِ وَلِيِّ اللَّهِ مِنْ سِرِّهِ سَقَانِي

أو: فَصَدْتُ بَابَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا

وَبَيْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ

وينتهي هذا المديح بالصدرية وهو ذكر الجلالة بالصدر (الله) (هو) ثم يغادرون بالمتداولة كما كان الدخول.

ومن هذه القصائد ما هو للشيخ عبد الحفيظ: وتندش في نهاية السهرة قبل المتداولة الأخيرة في الكردي بلهجة جزائرية:

يَا سَعْدِي يَا لَيْي زُرْتُهُ بَانَتِ الْأَنْوَارُ سَاطِعَةً
هَذَا الْمَقَامَ نَا دَخَلْتُهُ ذَهَبَتْ الْأَحْزَانُ فَاجِعَةً
رَبِّ أَنَا لِيكَ طَائِعًا

الله الله * لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ * سُبْحَانَهُ مَا اعْظَمَ شَأْنُهُ

ومنها ما هو للشيخ التارزي ومن تلحين الشيخ عبدالكريم:

الله الله الله * مَا أَحَلَّى لِلْعُشَّاقِ * ذِكْرُ اللهِ
الله الله الله * مُحَمَّدٌ * رَسُولَ اللهِ
الله الله * وَصَلَّى عَلَى رَسُولِ اللهِ * وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ

ومنها ما هو للشيخ عبدالكريم ومن تلحينه:

قصيد التوسل: إِلَهِي يَا إِلَهِي يَا ذَا الْعُلَا وَالْحَاوِ
صَلِّ عَلَى الْأَوَاهِ مُحَمَّدِ الْعِدْنَانِي
متداولة: يَا سَاكِنَ الْحُجْرَةِ يَا أَبَا الزَّهْرَا
أَلْمَدْدُ يَا عِدْنَانِي أَبْتَغِي نَظْرَةَ
شَوْقِ الرَّسُولِ أَفْتَانِي وَتَحْيِيرِ الْقَوَاذِ
لَا صَبْتٌ يَا خِلَائِنِي لِأَمَالٍ وَلَا زَادِ

قصيد [في البحر الوافر]:

أَيَا مَنْ بِالْوَقَا قَدْ عَوَّدُونِي بِحَقِّ جَمَالِكُمْ لَا تَهْجُرُونِي

سَكُنْتُمْ فِي سُودَا الْقَلْبِ مِيّ وَيَالْحِسَّ الْبَدِيعِ مَلَكُومُونِي
بِعِزِّكُمْ... بِذُلِّي فِي هَوَاكُمْ عِدُونِي بِالْوَصَالِ وَمَاطِلُونِي

ومنها ما هو للشيخ المكي :

دور : قُلْ بِالذَّوَامِ * يَا تَارِزِي يَا ذُخْرِي * يَا ابْنَ الْكِرَامِ

عَوَتْ الْأَنَامِ سَائِي الْمَقَامِ

خُذْ بِالرِّضَا وَالْعَفْوِ عَلَى الذَّوَامِ

موشح : رَبَّنَا يَا مُرْسِلَ الْجُدُوى وَمَنْ فَضَلَهُ لَا زَالَ فِينَا مُنْذُ مَنْ

بِالْإِمَامِ التَّارِزِي أَنْ تُسْبِلَنْ سِتْرَكَ الصَّافِي عَلَيْنَا يَنْسِدِلْ

موشح : سَلِّمْ بِقَلْبِكَ * لِأَمْرِ رَبِّكَ * يَكُونُ عَوْنَكَ * فِي كُلِّ شَيْ

الصريقة التيجانية

نسبة إلى مؤسسها أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني

﴿1150 - 1130هـ﴾

الشيخ المؤسس : هو [أبو العباس] أحمد بن محمد الشريف بن المختار بن سالم الحسيني التيجاني [العلواني] وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، [وأمه عائشة بنت الشيخ محمد السنوسي التيجاني المضاوي (نسبة إلى عين ماضي)]، وُلِدَ سنة 1150 هـ [1737-38م]⁽¹⁾ في السفح الجنوبي لجبل "عمور" حيث يقوم قصر باسم "عين ماضي" من إنجازات بعض الشرفاء في القرن السابع عشر للميلاد الحادي عشر للهجرة، حين كثر تأسيس مثل هذه الرباطات المنتشرة هنا وهناك في كامل شمال إفريقيا. والذي جعل هذا القصر مشهورا شهرة الأولياء والصالحين الذين رابطوا فيه، فقد كان يفد إليه العلماء والشرفاء من كل مكان: أما العلماء المشاهير فلنشر علومهم ومبادئهم، والآخرين من أولياء ودعاة لإظهار خوارقهم والدعوة لطرقهم. ووصل القصر إلى القمة في شهرته المتنامية بشهرة هؤلاء الرجال على يد الشيخ سيدي "أحمد بن محمد بن المختار التيجاني" مؤسس طائفة التيجانية. وهو ينحدر من سلالة الولي الذي أسس هذا الرباط بقرية "عين ماضي". "نشأ في عفاف وصيانة وتقوى وديانة محروسا بالعناية محفوبا بالرعاية مقبلا على الجد مائلا إلى الرشد والانفراد متطلبا للدين وسنن المجتهدين

1 نقل عن كويولاني، الطوائف...، ص 413 - 441. وما بين [..] إضافة من الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي لمحمد البوهلي النيال ص 323 - 332.

مشتغلا بالقراءة، معتادا للتلاوة. حفظ القرآن الكريم حفظا متقنا في سبعة أعوام على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن أحمد التيجاني ثم اشتغل بقراءة العلم الشريف، فقرأ على جماعة من العلماء الجلّة من فحول هذه الملة بعين ماضي وغيرها إلى أن تبخّر رضي الله عنه في علم الشريعة، ثم مال رضي الله عنه إلى طريق الصوفية والبحث عن المعارف الإلهية والأسرار الخفية، وسافر في طلب ذلك من بلد إلى بلد، حتّى بلغ غاية ما قصد، بعد أن تلاقى مع جمع من العارفين والأولياء والصالحين رضي الله عن الجميع. وزوجه والداه قبل موتها لما بلغ الحلم من غير تراخ منهما في ذلك اعتناء بشأنه وحفظا من الشيطان وحزبه وصونا لأمره مراعاة للسنة المطهرة بالمبادرة بذلك، وكان تزويجه سنة ثم طلقها حيث رآها شغلته عن مقصوده الأهم من الجدّ والاجتهاد وحيث لم توافقه فيما رامه من العبادة وسلوك سبيل الرشاد.

ولما حصل مقصوده وعلم أن التزويج مطلوب منه بمقتضى الاقتداء بالسنة اشترى .. أمتين مباركتين وتزوج بهما بعد عتقهما¹ فكانتا نعم القرينتين لنعم الزوج، وأنجبتا له الذرية التي كانت صالحة، وقام بنفسه بتربيتها بالحزم اللائق بأمثاله من حرص على الصلاح وحبّ خالص ورعاية كاملة. وكان والداه قد توفيا معا بالطاعون سنة 1166 هـ ودفنا بعين ماضي مع بعض إخوة الشيخ وسنّه ستّ عشرة سنة².

وتاريخ حياة الشيخ أحمد التجاني لا ينفد من المدح والشكر والإجلال بعد عن عجز أتباعه عن وجود أوصاف معبرة لنشر فضائله وذكر خوارقه وتعداد فعائله وسطوع بوارقه، فهو العالم المعلم بالمدرسة الزاهرة من علوم الدين والآخرة الباطنة منها والظاهرة، وهو صاحب الكرامات والأنوار والملمه من النبي المختار ملهمه الوحيد ومعتده العتيد. ولكل هذا أسباب ظهرت بوادرها منذ الصبا، إذ تسلّم مشيخة الرّباط الذي أسسه جدّه في سن السادسة عشرة أي بمجرد وفاة والديه، وجلس يعلم القرآن الكريم والسنة المطهرة³.

ولشغف الشيخ بالعلم، ترك رباطه، وسافر إلى "فاس" لإتمام دراسته على أيدي أجلّ

1 نفس المرجع.

2 أحمد العياشي سكيرج، كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأحاب، المكتبة الشعبية، بيروت- لبنان، ص. 14. بدون تاريخ للطبع.

3 نفس المرجع السابق، ص. 12.

العلماء في عصره، وبعد بضع سنوات رجع إلى "عين ماضي" مصحوبا بإجازات أشياخه، فجلس ليعلمّ عديد الطلبة كل العلوم المعروفة في ذلك العصر، بعد الاستقرار والزواج. ولما بلغ سن السادسة والثلاثين [سنة 1186 هـ] حجّ إلى البلد الحرام فمرّ في طريقه بتونس والقاهرة والمدينة المنورة، ودخل في الطرق القادرية والخلوتية والطيبية. ثم رجع إلى "فاس" وأخذ ينشر الآراء التي كانت ركيزة تعاليمه.

[وفي سنة 1196هـ/1781م خرج الشيخ أحمد التيجاني من تلمسان إلى قصر "بو صمغون"¹ (جنوب "جوفيل") والسلالة بالصحراء الشرقية فقضى له فيها بالفتح، ورأى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقظة لا مناما، كما تقول كُتُب القوم، وعين له الورد مائة من الاستغفار ومائة من الصلاة عليه وأمره بتلقينه لكل من طلبه من المسلمين والمسلمات. وقال له: "لا مئة لمخلوق عليك من مشائخ الطريق فأنا واسطتك وممدك على التحقيق فاترك عنك جميع ما أخذت من الطرق". وفي سنة 1200 هـ كمل له رسول الله صلى الله عليه وسلّم الورد بمائة من الهليلة. ثم طلب التيجاني من الرسول الأعظم وقال: "إن كنتُ أنا بابا لنجاة كل عاصٍ تعلق بي فنعم وإلا فأني فضل لي؟" فأجابته الرسول (صلى الله عليه وسلّم): "أنت باب لنجاة كل عاصٍ تعلق بك"².

ومنذ ذلك التاريخ وهو 1196 هـ [1781 - 82م] وهو تاريخ تأسيس الطائفة، انطلقت الطريقة، فرجع الشيخ إلى "عين ماضي" التي ما زالت إلى الآن المقر الرئيس للطائفة، ووضع القواعد الأساسية لها، ثم خرج يذرع الشمال الإفريقي و"التوات" والصحراء، ويقدم نفسه مرسولا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم لا داعية ولا معلما. وبنى الزوايا وكلف عليها المقدمين وحصل الكثير من "الأحباب" (هكذا يسمى أتباع التجانية). واتسعت شهرته حتى أصبحت طائفته قويّة مهيبة تقلق أمن الحكم التركي الذي حاصر المدينة الصغيرة "عين ماضي" عن طريق باي "وهران" [محمد بن عثمان الذي أزعج الشيخ التيجاني من تلمسان إلى قرية (بوصمغون). فلما مات هذا الباي خلفه ابنه عثمان بن محمد فسُعيّ عنده بالشيخ التيجاني فأرسل إلى أهل أبي صمغون

1 بو صمغون قرية بسجلماسة (المغرب).

2 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 325. وما هو خارج المعقنين لكوبولاني، وذكر مثل ذلك في كشف الحجاب، ص 7.

وتهددهم ليخرجه، فلما سمع الشيخ خرج مع بعض تلاميذه وأولاده وسلك طريق الصحراء حتى اقترب من فاس [حوالي 1783 - 1787].

وتعب الشيخ من المطارقات والملاحقات حتى في رباطه، فاحتمى بـ"فاس" سنة 1211 هـ وتلقى مساعدات السلطان مولاي سليمان الذي بنى له زاوية في حومة "البليدة الغربية" حيث وافاه الأجل في 14 شوال 1230 هـ [19 سبتمبر 1815م] ودفن بزوايته هناك.

أخبار الطريقة: قبل أن يتوفى الشيخ أملى على الأحباب: سيدي الحاج علي حرازم¹ وسيدي محمد المشيري السايبي تاريخ حياته ووصاياه لأتباعه التي أصبحت فيما بعد تسمى "الكتشية" التي أصبحت كتاب الأدعية التجانية، وللطريقة مؤلفات عديدة أخرى من أشهرها "الرمّاح" لعمار الفوتي السوداني و"الجوهرة" تأليف الشيخ أحمد التيجاني نفسه ونسخه الحاج علي حرازم و"الجامع" لمحمد بن المشيري، و"قصة الحربة والسيوف" لعمار الفوتي السوداني، و"انتصارات الشرفاء" لمحمد بن المشيري و"كتاب الياقوتة" لمحمد بن العربي، و"البغية"، وغير ذلك من المخطوطات الأخرى.

وانتشرت الطريقة التجانية بتونس عن طريق الشيخ الحاج علي حرازم بن العربي برادة، الذي [انتهى من تدوين "كتاب جواهر المعاني" في شهر شعبان سنة 1213 هـ. ولما ظهرت عليه بوادر الولاية أمره شيخه أحمد التجاني بالسفر، كما كلّفه بأمر توجّهت عليه بالمدينة المنورة ومكة المكرمة، فأطاع الشيخ علي حرازم، وظهر سنة 1216 هـ بمدينة تونس وتردد على جامع الزيتونة وتعرّف على الشيخ ابراهيم الرياحي²، وكان الشيخ

1 هو أبو الحسن الحاج علي بن العربي برادة المغربي الفاسي، كان من خاصة الشيخ أحمد التجاني، التقى به في مدينة وجدة سنة 1191 هـ حين خرج الشيخ من تلمسان قاصدا زيارة الولي مولانا إدريس، فتوجه معه إلى فاس وأقام بها مدة في زيارة الروضة الإدريسية ثم لقنه الطريقة الخلوئية، ولما استقر المقام بالشيخ أحمد أمر تلميذه الشيخ علي حرازم بجمع "كتاب جواهر المعاني" وترتيب فصوله كما أجازة عامة وكان ذلك سنة 1214 هـ. ولما تم لصاحبنا الفتح أمره أستاذه بالسفر لقضاء أمور توجبت عليه بمكة المكرمة والمدينة المنورة لينوبه في قضائها، فخرج من فاس إلى الحجاز، وعند زيارته لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصابته غيبوبة فظن أصحابه أنه توفي فتركوه. ومّر في سفره بتونس سنة 1211 هـ والتقى فيها بأبي إسحاق إبراهيم الرياحي فلقنه الطريقة التجانية. (عن كشف الحجاب، للعباشي سكيرج بتصرف).

2 لشيخ أبو إسحاق سيدي إبراهيم بن عبد القادر الرياحي الطرابلسي التونسي (1181 هـ/1767م - 1266 هـ/1849م)، كبير المفتين على مذهب إمام دارالهجرة وعالم تونس في أوائل القرن الثالث عشر، وُلد بتستور سنة 1180 - 81، أخذ عن أعلام كالشيخ حمزة الجباس والشيخ صالح الكواش الذي نابه في سفارة المغرب وحسن الشريف وغيرهم. كان أولا على الطريقة الشاذلية أخذها عن الشيخ البشير بن عبد الرحمان الونيسي، وتعرّف على شيخ الرحمانية الشيخ مصطفى عزوز وامتدحه في بعض أشعاره، ولما جاء خليفة التجاني الشيخ علي حرازم إلى تونس

إبراهيم في الخامسة والثلاثين من عمره شاذليا، وكان ذا مكانة في الإفتاء والتدريس... فأعجب بالشيخ علي حرازم غاية الإعجاب حتى أنه أسكنه معه في بيت سكنها بمدرسة بئر الحجار، واستأذن في اتباع طريقته التيجانية فأذن له، وتلقاها من شيخه هذا. وقال فيه قصيدة عصماء بها 34 بيتا، مطلعها: (البحر الكامل)

كُرِّمَ الرَّمَّانُ وَلَمْ يَكُنْ بِكَرِيمٍ وَصَفَا فَكَانَ عَلَى الصَّفَاءِ نَدِيمِي

حتى يقول :

وَأَجَلُّهَا نَظْرِي إِلَى ابْنِ حَرَازِمٍ وَتَمَتَّعِي مِنْ وَجْهِهِ بِنَعِيمٍ

وكان الشيخ إبراهيم منخرطا في سلك الطريقة الرحمانية وشيخها في تونس (آنذاك) سيدي عمر البشير الذي عرفه على الطريقة لا يزال بقيد الحياة. إلا أن براعة الحاج علي حرازم قد حملت الشيخ إبراهيم الرياحي على الخروج من الطريقة الرحمانية والتخلي عن نسختها، ولم يسلك الطريقة التيجانية إلا عن شروط ضمنها له الشيخ علي حرازم وهذه الشروط فيها الضمان المؤكد لنجاح الشيخ إبراهيم في الدنيا بحصول الجاه والكسب وصلاح الذرية وما إلى ذلك، مع ما يضمن له الفوز وسعادة الآخرة... وفي سنة 1218 تمكّن الشيخ إبراهيم من السفر إلى المغرب في سفارة من الأمير حمودة باشا،

سنة 1216 أعجب به واستأذن في ترك طريقته والدخول في التيجانية فأذن له وهو ناشر الطريقة التيجانية بتونس أخذها عن صاحبها بفاس مباشرة عندما قام بالسفارة عن تونس لدى سلطان المغرب، وذلك أنه حدثت مسغبة بالبلاد التونسية سنة 1218هـ فأمر الأمير حمودة باشا الشيخ صالح الكواش بالسفارة إلى سلطان المغرب مولانا سليمان لطلب الميرة، فاعتذر وأشار بالشيخ إبراهيم الرياحي فكلفه الأمير بهذه السفارة، فلما بلغ فاس مشى أولا لدار الشيخ التجاني عملا بوضعية شيخه علي حرازم ففضى منه وطره ثم توجه للسلطان فامتدحه بقصيدة أنشدتها بين يديه مطلعها: **إِنْ عَرَّ مِنْ خَيْرِ الْأَنَامِ مَرَارًا فَلَنَّا بِرِزْوَةِ فَجَلِّهِ اسْتَبْشَارُ** فقول بالترحاب وتحقيق الطلب. ثم حجّ حجّتين... وفي سنة 1254 بعثه المشير أحمد باي سفيرا في مهمة لدار الخلافة والأستانة العلية فمدح بها السلطان محمود بقصيدة مطلعها:

أَعَزُّ بِاللَّهِ لِلْسُلْطَانِ مُحَمَّدٍ ابْنِ السَّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِمَحْمُودٍ

فلقي هناك إقبالا وترحابا. وللشيخ الرياحي شعر رفيع بديع، ومناقبه مفردة بالتأليف. وأسس زاويته المقبور بها بالنهج المعروف باسمه بنهج الباشا، وتوفى بالطاعون قبل إتمام عمارتها في 17 رمضان المعظم سنة 1266هـ، فاتمها المشير أحمد باي سنة 1270 هـ ورثها بها محمد باي ميعاد الطريقة التيجانية التي كان ينتسب إليها أيضا، واعتنى بها محمد الصادق باي على يد الوزير خير الدين فآتم عمارتها "وضريح سيدي إبراهيم الرياحي بمجموعة حوانات عاشور". (الصادق الرزفي، الأغاني التونسية هامش الصفحة 81، وكشف الحجاب للعايشي سكيرج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص 386 عدد 1555.)

1 راجع القصيدة ص 90 من (كشف الحجاب) للعايشي سكيرج.

وأدى زيارة إلى الشيخ أحمد التيجاني واجتمع به في داره وقال عنه: (فرحت كثيرا برؤية السلف الصالح). وفي سنة 1238 هـ أدى الشيخ إبراهيم زيارة للقطب الشيخ الحاج علي التماسيني الذي تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة الشيخ أحمد التيجاني.^[1]

ويظهر أنّ الشيخ إبراهيم تحصّل على إجازة من الشيخ أحمد التيجاني حيث كتب (بنفسه) إجازة قال فيها: "...كما أجازني بها شيخنا أبو العباس رضي الله عنه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقظة لامناما. [1]". وللشيخ إبراهيم شعر كثير مدح فيها الشيخ التيجاني منها في البحر الخفيف ميمته التي مطلعها:

يَا تَرَى مُرْرِي دَرَى بِسُقَامِي فَهَوَّ إِن يَرِضَهُ أَعَزُّ مَرَامِي

ومنها (من البحر البسيط) سينيته التي مطلعها:

صَاخَ ارْكَبِ الْعَزْمَ لَا تَخْلُدْ إِلَى الْيَاسِ وَأَصْحَبْ أَخَا الْحَزْمِ ذَا جِدِّ إِلَى قَاسِ

ومنها في وزن اللاحق:

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَهُوَ حَسْبِي وَقَارَ مَنْ حَسْبُهُ الْحَبِيبُ

ومنها (في البحر الوافر) سينيته التي مطلعها:

كَفَّانِي مِنْ زَمَانِي مَا أَقَابِي وَمَا مِنْ أَهْلِهِ بِالْقَلْبِ رَاسِي²

وزاوية الشيخ إبراهيم الرياحي في تونس معروفة مشهورة قرب حوانيت عاشور.

وللطريقة التجانية زوايا عديدة بالحاضرة منها زاوية "زُقُوم" و"تروجة" و"رحاحية" و"فمارة" و"باب المنارة"، وتوزر زاوية المقدم سيدي عبد الرحمان بن السوداني، وفي القيروان زاوية المقدم سيدي محمد العلّاني، وبالسرّس شرق القيروان زاوية علي بن بلقاسم، وبالسرّس (بالشمال) زاوية الشيخ المنوي، وزوايا بينزرت وجربة، وعدة أماكن أخرى.

وبالجملة فإن الطريقة التيجانية كانت من أبرز الطرق التي نشرت الإسلام بالساحل

1 محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص.ص 329 و330.

2 العياشي سكيرج، كشف الحجاب، ص.ص 137 - 142.

الصحراوي والسودان الغربي من إفريقيا.

أصول الطريقة : هي طريقة ذات هدوء، أتباعها يسمون أحباب الشيخ، ويسمى الشيخ الذي يعطي العهد (مقدما) وجميع التسميات تقع من خلفاء الشيخ بالإجازة أو من بعض أحفاده. وتمتاز بعدة خصائص منها عدم زيارة الزوايا الأجنبية عن الطريقة، وعدم أكل سماتهم، ومنع الأحباب من التوسل في الدعاء بأولئك المشائخ، ولعله من باب توجيه القصد إلى شيء واحد في كل شيء دفعا لاضطراب العزم، فالشيخ كما أسلفنا حريص على أتباعه كأنهم أولاده ويغار عليهم ويخاف عليهم من الضلال.

ونورد هنا القواعد الأساسية مختصرة ومحفوظة بكل عناية في إجازة المقدم التي يقدمها له أحد الورثة الروحيين للشيخ التجاني:

[الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله

من المعلم الشهير الكريم، الكاشف للناس الطريق المستقيم، والمثال المتبع والحاج الورع مولانا سيدي الحاج معمر الإبن الوحيد للغوث الكامل القطب الذي يلدجا إلى بابه كل من أراد القرب من ربه مولانا الشيخ سيدي الحاج علي التيجاني رضي الله تعالى عنه أجزنا لصديقنا الشهير أكبر التلاميذ أن يعطي طريقة مولانا الشيخ أبي العباس سيدي أحمد التيجاني رضي الله تعالى عنه لكل من يطلبها. وتمثل أوراد طريقتنا في التلاوة بين اليوم والليلة الذكر المخصوص الآتي :

(100 مرة أستغفر الله) و(100 مرة تصلية الفاتح: اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم)، ثم (100 مرة لا إله إلا الله). ويمتد الليل من صلاة العصر إلى الفجر وبيتدئ النهار من صلاة الصبح ويمتد إلى صلاة العصر. ويمكن تلاوة الذكر في كل وقت من ليل أو نهار، ومن ترك هذه الأوقات تمر (الصبح والعصر) دون أن يتلو الذكر المكتوب فيمكنه تلافي خطئه. أما تلاوة الوظيفة (وهي دعاء للإخوان بحكم الطريقة خارج الذكر) لازم أيضا مرتين في اليوم لمن دخل في الطريقة. ويكفي لمن منعه

هذا نقل عن المكتوب بالفرنسية من كتاب كوبولاني ورفيقه (الطوائف الدينية الإسلامية).

مانع أو شغله شاغل يجعله معذورا أن يتلو الوظيفة مرة واحدة في اليوم.

وتتمثل هذه الوظيفة في التردد بعد الوضوء (100 مرة أستغفر الله) (30 مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم) و(50 مرة صلاة الفاتح) و(100 مرة لا إله إلا الله) و(12 مرة دعاء جوهرة الكمال)، والذي يتيمم، يجب عليه عوض (جوهرة الكمال): (20 مرة صلاة الفاتح) فذلك يكفيه. كذلك يجب في يوم الجمعة على كل من يدخل الطريقة التيجانية (الهيللة) أن يقول (لا إله إلا الله) ويجب أن يبدأ في هذا الدعاء في اليوم المذكور من صلاة العصر إلى غروب الشمس. ومن له شواغل تمنعه من قول هذه التصليّة من العصر إلى غروب الشمس يقولها بعدد غير محدد لا يقل عن 12 مرة فإن ترك الوقت المحدد يمر فلا يقول الهيللة في وقت آخر ويحسر بذلك جزاء كثيرا من الله. وكل من دخل طريقتنا يحصل له خير بإذن الله ويجب عليه خشية الله سرا وعلانية وأن لا يتهاون بالصلوات الخمس اليومية في صحبة المؤمنين إلا إذا منعه مانع.

كان أجازني شيخي المذكور أن أعطي الطريقة وقد أخذها هو عن شيخي الجليل الشيخ سيدي محمد الصغير الذي أخذها هو نفسه عن المثال المحتذى الشيخ محمد العيد الذي أعطاه إياها الشيخ الولي الجليل سيدي الحاج علي الذي أخذها عن الشيخ الورع العالم الشهير شيخنا ومولانا أحمد التجاني رضي الله تعالى عنه. وقد تلقاها من سيدنا وسيد كل مخلوقات الله تعالى مولانا رسول الله صلوات الله وبركاته وسلامه عليه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه والحمد لله أولا وآخرا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم آمين يا رب العالمين.

طريقة العمل : أعمالهم هي الاستغفار والصلاة على النبي و(لا إله إلا الله) وتسمى مجموعة تلك الأذكار الوظيفة، وهي واجبة القراءة على كل واحد من أحباب الشيخ في كل صباح ومساء بكل سكينه ووقار وخشوع.

وللطريقة حلقات يمدحون فيها الشيخ بالأحان والنغم والنقر على طبلة صغيرة يضربون عليها بالأيدي. وهذه الحلقات لا توجد إلا في الحاضرة وبلاد الجريد. وفي الحاضرة قد يستعملون الطار والنغارات أو يزيدون الكمنجة أو الرباب أو البيانو

ولكن هذه الآلات الثلاث الأخيرة لا يُدخلونها إلى الزاوية ولا يستعملونها إلا في الولائم والأفراح¹.

والطريقة مشهورة بين النساء أيضا، فبالحاضرة قد لا تجد حومة خالية من زاوية تيجانية و"مقدمة" أو اثنتين بكل زاوية. فالمقدمة تعطي العهد إلى النساء مثل الرجال مع بعضهم. وحبوبات الشيخ يجتمعن عند المقدمة ويأتينها بالنذور، ومنهنّ المدّاحات اللّاتي يضعن طبله سيدي أحمد بينهنّ في مساء كل جمعة وينقرن عليها ويمدحن أمداحا كثيرة وطويلة.

ومن العادة في زوايا النساء الرشوق، بأن تهز النخوة بعضهن فترشق (وهو نثر بعض الدراهم) فتتبعها الأخريات فيجتمع فوق الطبله للمدّاحات والمقدمة مال يقلّ ويكثر. وعند ختم المديح تُرفع الطبله وتتلى وظيفة الشيخ، وتوزّع تلك الأموال بين الزاوية والمقدمة والمدّاحات.

وجميع المديح عندهم هو تقليد للأغاني المجونية حتى السمجة الألفاظ ومنها مدائح بلحن جريدي ومنها ما هو بلحن تونسي وهو الذي يأتي على ألحان الأغاني، ومنها مدائح بلحن غربي مخالف للبقية من كونه مهيجا وخفيفا يطرب بإفراط. وقد يعتري النساء بالخصوص منه نوبات عصبية شبيهة بالجنون ولو في دورهن، فيتعلّن لأزواجهنّ أو آبائهنّ بأنهنّ لا يشفين من هذا المرض إلا على طبله سيدي أحمد فيسرحهنّ ويذهبن إلى الزوايا أو دور المقدمات².

ومن أمداحهم نَظَمَ الفاضل الأديب الشيخ أحمد بن سعيد التونسي، وقيل هو حسن بن سعيد ونّاس المتوفّي سنة 1922 وكان مشاركا في عدّة فنون :

رَدّة : رَيِّ سَأَلْتِكَ بِالنَّيِّ الْأَوَابِ وَالْأَلِ وَالْأَصْحَابِ
وَالْتِيَجَانِي وَأَحْبَابُهُ الْأَقْطَابِ أَلْعَوْثُ سَيِّدِي أَحْمَدُ
يَسْرُ أَمْرِي وَأَفْتَحُ الْأَبْوَابِ وَأَصْلِحْ لِي اللَّيِّ فَسَدُ

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية. ص.ص 138 - 151.

2 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص.ص 141 - 142.

بيت 1 : بِسْمِ اللّٰهِ الأَعْظَمِ المَوْجُودِ قَدِيمٍ وَمَعْبُودِ
هُوَ البَاقِي غَيْرُهُ مَفْقُودِ غَنِي عَلَى الأَبَدِ
المُخَالَفِ لِكُلِّ المَوْجُودِ أَلْحِي الصَّمَدِ
بيت 2 : المُرِيدِ العَالِمِ القَدِيرِ سَمِيعِ بَصِيرِ
المُتَكَلِّمِ مِنْ غَيْرِ تَاخِيرِ أَلوَاحِدِ الأَحَدِ
أَلْفَعَالِ إِلَيْهِ المَصِيرِ لَيْسَ مِثْلُهُ أَحَدِ

بيت 3 : وَنُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ والأَلِ مَمَرِّ اللَّيَالِ
وَالصَّحَابَةِ سَلَامٌ لا يَزَالُ دَائِمٌ مُتَجَدِّدٌ
وَعَلَى التَّيْجَانِي وَاصْحَابِهِ الأَمْثَالِ وَالإِبْنِ وَالجَدِّ

بيت 4 : بِاللهِ نَادُوا يَا جَمِيعَ الأَحْبَابِ الَّتِي حَضَرُوا غَابِ
عَلَى بِنِ سَالِمٍ فَكَأَنَّكَ المُصَابِ إِذَا الجُرْحُ نَفِذِ
وَإِذَا ذُكِرْتُمْ الشَّيْخِ المَهَابِ رَأهُ الكَرْبُ شَرْدِ

وهكذا 21 بيتا يختمها :

بيت 21 : نُنْتَمِ نَظْمِي بِصَلَاةِ العَقَّارِ عَلَى النَّبِيِّ المُخْتَارِ
وَعَلَى الأَلِ وَالأَصْحَابِ الأَقْمَارِ سَلَامٌ لا يُعَدُّ
وَعَلَى التَّيْجَانِي وَاحْبَابِهِ الأَخْيَارِ وَأُمَّةُ مُحَمَّدِ

ومن مديحهم مدحة من إنشاء الأديب العربي النجار وهو من مشاهير شعراء

الملحون بالشمال التونسي وهو دفين بلد العالية توفي سنة 1332 هـ وهذه المدحة مشهورة
ينشدونها علنغمات عديدة منها النغمة الجريدية :

ردة : بِسْمِ اللّٰهِ نَبْدَا تَرْتَيْبُ أَوْزَانِي وَبِصَلَاةِ كَنْزِنَا الْمَبْرُورِ
وِنَمَجَّدُ الشَّرِيفِ الْعُوْثِ الرَّبَّانِي بِنِ سَالِمِ الَّذِي مَشْهُورِ
بيت : فِي مَدْحِ نَجْلِ طَهِّ الْهَادِي سِيْدِي اَحْمَدِ نُورِ اَسْهَادِي
فَصَلِّ الْمَضِيْقُ بِهِ نُنَادِي يَفْرَعُ وَيَزِيحُ عَنِّي اَحْزَانِي
وَكَذَا يُجُوْدُ لِي بِاَوْتَادِي نِرْتَاخُ مِنْ كَرْبِي الدَّخْلَانِي

وتتركب هذه المدحة من ستة أبيات على هذا النمط.

ومن مديحهم أيضا مدحة الأديب العربي بن عثمان التونسي وينشدونها على أنغام
عديدة :

ردة : أَلْفَى يَا سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ يَا بَحْرَ الْكَمَالِ
قَدَّاشُ أَنَا عَلَيْكَ نِنَجِبُ رَاهُ الْوَعْدِ طَالِ
بيت 1 : نَبْدَا قَوْلِي بِسْمِ الْقَاهِرِ وَنُصَلِّي عَلَى الْهَادِي الطَّاهِرِ
صَلِّ يَا رَبِّ يَا قَادِرُ عَلَى سَيِّدِ الرَّجَّالِ
بيت 2 : بَعْدَ صَلَاتِي عَلَى مُحَمَّدٍ نِمْدَحُ التَّجَانِي أَحْمَدِ
الَّتِي يَحِبُّهُ مَاذَا يَسْعُدُ يَلْفَى لَهُ عَجَّالِ

وهكذا تسعة أبيات :

بيت 9 : سِيْدِي أَحْمَدُ نَا فِيكَ شَادِدُ رَانِي مِنْ الْأَدْرَاكِ قَادِدُ
تَحْضُرُ لِي عِنْدَ الشَّدَايِدِ رَاهُ اَشْتَدَّ الْحَالِ

الطريقة الدرقاوية

يظهر أن الطريقة الشاذلية الأمّ وجدت مجالاً رَحْباً للتوسّع السّريع بسلطنة المغرب الأقصى، فانتشر المذهب وقسمت الطريقة إلى عدّة تقسيمات متميزة بين الأشراف المعتمدين عادة على أصولهم واحترام الناس لهم، وبدأ العلم الروحاني الذي أسسه الصوفية ونشره أبو الحسن الشاذلي وأتباعه يميل إلى الجمود، ونوع من تقديس الأولياء والصالحين، فرغم اتباعهم للخطوط العريضة التي رسمها الشيخ أبو مدين شعيب المدني والشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبو الحسن الشاذلي، فإن هؤلاء الأشراف منذ ولادتهم ينحازون للدولة الشريفة ولا يراهم أحد يهملون النواحي الدنيوية والمادية رغم تعاليم الزهد ونبذ الدنيا في الطريقة الأمّ.

لكن من كل هؤلاء شدّد أحد العلماء الشهير بفقّهه وترفعه واحتقاره العميق لمباحج الدنيا فقام يريد الوقوف ضدّ التيار، وينادي بالعودة إلى المعين الصافي للتعاليم الصوفية ويهيب بالمتقفين والتقاء إلى الرجوع إلى الطريقة الشاذلية الصرفة إذ هي الوحيدة التي يمكن أن تفتح لهم طريق الجتّة. هذا العالم المتحمس هو أبو الحسن مولاي علي بن

عبد الرحمان الجمل الفاسي¹ الذي أخذ عن الشيخ الطيّب الوزّاني الأنف الذكر، ثم أخذ عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي، فكانت طريقته ورثة الطريقة الطيبية. وفي بداية القرن الثالث عشر للهجرة قام تلميذه ومساعدته الرئيسي مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي بمواصلة العمل فنسبت إليه الطريقة.²

الشيخ المؤسس: هو أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الشريف الحسني³، وُلد سنة 1114 هـ في قبيلة بني زروال، وينسب إلى فرقة الدرقة التي خرج منها جدّه يوسف بوْدُرقة (صاحب ترس) ومن هناك خرجت النسبة درقاوية. أخذ الطريقة عن أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الجمل

الفاسي عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي عن أبيه عن الشيخ الخصاصي عن الشيخ محمد الفاسي عن الشيخ عبد الرحمان الفاسي عن الشيخ عبد الرحمان المجذوب عن الشيخ علي الصنهاجي عن الشيخ إبراهيم إِنْجَام عن الشيخ أحمد زروق بسنده للإمام الشاذلي.

وقام التلميذ العربي الدرقاوي بنشر الطريقة إتماماً لعمل أستاذه، وأخذ عنه خلق كثير وانتفعوا به منهم ابنه محمد الطيّب المتوفّي سنة 1287 هـ والشيخ البركة علي، وأبو عبد الله محمد ابن حسن ظافر المدني، وأبو العباس أحمد زويتن وأبو عبد الله عمر بن الحراق، وتُوفّي سنة 1239 هـ [سنة 1823 م] وله زاوية بـ(بوبريج) على بعد بعض الكيلومترات من فاس في قبيلة بني زروال.⁴

أخبار الطريقة: واصل الشيخ الدرقاوي عمل أستاذه فكان أشدّ صرامة وحملاً، ومال إلى الطهر والتمسك بالفضيلة حتى جعل من أتباعه الشاذليين طائفة من الفقراء

1 هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الجمل الحسني الإدريسي شيخ الطريقة وإمام الحقيقة العارف بالله الدالّ عليه الفاضل، منبع المعارف الولي الكامل. أخذ عن مولاي الطيب الوزّاني، ثم لزم العارف الأكبر الشيخ العربي بن أحمد معن وانتفع به حتى صار مجرّاً زاخراً بالعلم والعرفان وسارت بأخباره الركبان وانتفع به الكثير منهم الشيخ العربي الدرقاوي وقد بالغ في الثناء على شيخه المذكور في كثير من رسائله. توفّي سنة 1194 وسنّه مائة وتسعة أعوام. (شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف ص 358 عدد 1428).

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص 503 - 513.

3 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 381 عدد 1523.

4 نص الترجمة مشترك بين كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 503 - 513 وشجرة النور الزكية لمخلوف ص 381 عدد 1523.

المتحمسين للممارسات الصعبة، فقدّموا المثل المحتذى للعامّة في مجاهدة النفس والوقوف مع الحق ومواجهة كل من لا يدين بمذهبهم ولو كان من أهل الجاه والسلطة. ومنذ أن وُجدت هذه الطريقة أصبح لها يد في كل انتفاضة أو تمرد يقع بالجزائر والمغرب، فهؤلاء الشاذلية الدرقاوية من لابسى الأطمار والمرقعات والمتطهرين من أرجاس الحياة بانسلاخهم عن العالم من جهة وكراهيتهم لرجال السلطة من جهة أخرى، تراهم يسارعون إلى بث الفوضى وروح التمرد في أقرب فرصة تتاح لهم. وهكذا بانزوائهم في جبال "مجاة" مثلاً، استطاع محمد بن علي الذي يعتبر الأتراك مسلمين بدون عقيدة، أن يقود حرباً مقدّسة سنة (1195هـ/1783 م) وأن يحقق انتصاراً رائعاً على العساكر التركية "المخزن" ويغرّق في هدايا باي "وهران" كما قام "بن عرش" في "بني والبان" من القبائل بدحر جيش الباي "عصمان" في سهل الهراس سنة (1222هـ-1808 م) وكذلك قصة "أبو ترفاس" ودور الدرقاوية في اضطرابات المغرب تحت السلطان مولاي سليمان، وأقرب منها انتفاضة عبد الرحمان التوشي والحاج موسى بن علي بن حسين المعروف بـ"بوحمار". وهكذا كلما هُزموا تفرقوا وقتياً ليظهروا من جديد أشد صلابة وأعنف مقاومة مزودين بأحاسيس المقت والثورة والتمرد¹. وقد رأينا سابقاً كيف ورثت الدرقاوية نفوذها بورّان وغيرها عن الطائفة الطيبية.

وانتشر الدرقاوية في كثير من البلدان العربية رغم فقرهم، وبلغوا البقاع المقدّسة، وكانوا يلتقون بأفواج الحجيج، ويعرضون عليهم دعوتهم دون محاولة للظهور بغير أطمارهم ومظاهر زهدهم، مما قد يلجئ بعض الحجيج إلى مدّهم ببعض الصدقات، لكنهم يظهر أنهم ليسوا مرتزقة متسولين رغم مظاهرها الخاصة، بل دعاة للتقشّف الذي هو مذهبهم في الحياة، إذ أنهم يتحدثون عن مبادئهم دون شكوى من المعاناة، وقد ذكر محمد بن الخوجة الكاتب الرسمي ومدير مطبعة الرائد الرسمي بتونس في رزنامته لسنة 1917 قوله: "وفي يوم الأحد رابع أكتوبر [1916م] اجتمعنا ببعض شيوخ الدرقاوية، وكانت أعنة حديثنا معهم بيد الأستاذ الشيخ الجودي، إلا أنه كانت الخاصة بادية على وجوههم مما حمل بعض إخواننا الحجاج على إمدادهم بما سمحت به همهم الأبية."²

1 نحن نترجم ترجمة قريبة من الحرفية عن كربولاني.

2 محمد بن الخوجة، الرزنامة التونسية، سنة 17 طبع مطبعة الرائد الرسمي بمحاضرة تونس سنتي: 1335هـ/1917م، ص 61.

أصول الطريقة: يرى أتباع الدرقاوية أنهم كي يقوموا بواجباتهم، عليهم أن يتشبهوا بالنبيء موسى عليه السلام باصطحاب العصا، وبأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بلبس المرقعة، وبعف بن أبي طالب رضي الله عنه بمصاحبة الذكر وحمد الله بالرقص¹، وبأبي هريرة بأن يضع في رقبته مسبحة، وبالنبي عيسى عليه السلام بحياة العزلة والعيش في الصحراء، وكذلك بالمشي حافيا والرياضة بالجوع وعدم مخالطة غير الصالحين ومجانبة أصحاب الجاه والسلطة والحذر من الكذب وقلة النوم والصلاة بالليل وتقديم الصدقات وإعلام الشيخ بالكبيرة والصغيرة مما يجول بالخاطر أو تقوم به الجوارح وأن يكونوا بين يدي الشيخ كملت بين يدي غاسله².

ولعل من ميزاتهم البحث عن التخلي عن الشهوات والإرادة لتكون إرادتهم هي ما أراد الله سبحانه وتعالى، وهذا ما يظهر في قول الشيخ أحمد العربي الدرقاوي في كتابه (شور الهدية): "أصح وسيلة لسلب الإرادة بالله هي النوم" فهو يريد أن يكون مسلوب الإرادة في هذه الحياة يسير طبق ما يريده الله ولا اختيار له مثل النوم تماما. وببالغون في تطهير النفس من التعلق بأي غرض من أغراض الدنيا كما قال شيخ الدرقاوية في المغرب: "يعرف المرید في جذبته باختياره في ماله فإن فطن للخطأ فيه فهو كاذب"³.

ويرجع الدرقاوية أصول طريقتهم إلى السلسلة الآتية: العربي بن عبد الله عن أحمد بن عبد الله عن قاسم سيدي أحمد اليماني عن قاسم الخزاز عن محمد بن عبد الله عن أبي جمال الدين أبي محصر يوسف بن محمد عن أبي زيد عبد الرحمان الفاسي الوكيل المجدوب عن أبي الحكم علي بن أحمد الصنهاجي الدوار عن يوسف الصنهاجي الدوار عن سيدي الغازي بن بلقاسم عن سيدي علي السوسي عن إبراهيم بن الأجهم عن أبي الأنوار إبراهيم بن علي الزرهوني عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني الرشيد

1 ويظهر أن هذا المبدأ قد ورثته الطريقة المدنية العلاوية، ففي حديث لي مع الشيخ منور المدني خلف الله عندما سألته عن مرجعية الرقص عندهم احتج لي برقص جعفر بن أبي طالب عندما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسليمه الراية بعد زيد بن حارثة في الغزوة التي استشهد فيها وهي غزوة مؤتة، فروى أنه رقص فرحا بالشهادة التي كان يتربص فرصتها. (راجع: خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ)

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 503 - 513.
3 الحارث المحاسبي المتوفى سنة 243هـ، كتاب الوصايا، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1406هـ/1986م، ص 137.

عن سيدي أبي العباس أحمد زروق البرنوسي عن الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي عن أبي العباس حسن القرافي عن تاج الدين بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري المالكي (المتوفى بالقاهرة سنة 709 هـ/ 1309 - 1310 م) عن أبي العباس أحمد بن عمار الأنصاري المرسي عن أبي الحسن الشاذلي.

طريقة العمل : بالمغرب الأقصى يمثل الطائفة الدرقاوية مجموعة من الرجال يُنشدون الحضرة وقوفًا وبدون آلات، ويتولّى الإنشاد ثلاثة أو أربعة، بينما يردد بقية الحاضرين كلمة (الله) على إيقاع 2 من 4 كما نجد في مدينة النساء بالمنستير أثناء أدائهنّ لحضرتهنّ.

وينشط الدرقاوية الآن في جامع سيدي علي السيارى وفي مقرها بعلقمة من مدينة نفطة. ولهم زيارة إلى زاوية الشيخ عبد الكريم بن عزوز في يوم عيد الفطر فيخرجون من مقرهم ويأتون إلى الزاوية المذكورة وهم ينشدون :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ
يَا بَابِي دَارِ الْعُرُورِ عَلَاشِ تُعَلِّيَهَا
لَوْ تَبْنِي فِيهَا فُصُورٌ تِرْحَلُ وَتُخْلِيَهَا

وهي مدحة تقولها مدينة نساء المنستير، التي سنتعرض لها في الفصل القادم. ثمّ يتحوّلون إلى التربة

فيترحمون على أرواح المشايخ، ويتلون فاتحة الكتاب، ثمّ يستأنفون إنشادهم عائدين من حيث أتوا.

أما غير ذلك من العمل فقد ورثه عنهم المدينة كما سنرى فيما يلي.

الطريقة المدنية ﴿الدرقاوية﴾

قد لا تختلف الطريقة المدنية التي نتحدث عنها الآن عن الطريقة المدنية لأبي مدين شعيب المدني، فتلك أمّ تفرعت عنها الشاذلية، بينما هذه متفرعة عن الدرقاوية التي هي نفسها متفرعة عن الشاذلية، فهي إذن نسبة إلى الشيخ الدرقاوي محمد بن حمزة المدني أصيل المدينة المنورة. ومن الموافقات العجيبة اتحاد الطريقة الأم مدنية الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري المدني وهذه الطريقة الفرع المتولدة عن الأم عن طريق المدرسة الشاذلية. والواقع أن الشاذلية نفسها ليست إلا الطريقة المدنية كما نقلها الشيخ عبد السلام بن مشيش عن شيخة أبي مدين شعيب، ونلاحظ غياب استعمال الآلات في كل المدينتين بما في ذلك الشاذلية، بخلاف الطرق التي اصطلحنا على تسميتها "قادرية" التي تستعمل الآلات في عملها كما أسلفنا.

الشيخ المؤسس: هو الدرقاوي أبو عبد الله محمد حسن بن حمزة ظافر المدني أصيل المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، قرأ بها، ثم خرج سنة 1222 هـ، وساح في الأرض مدة 25 سنة حتى انتهى إلى المغرب الأقصى، وهناك التقى بجملة من العلماء فأخذ عنهم، منهم المختار القادري، وأخذ الطريقة التاصرية، واجتمع بالشيخ أحمد التجاني وأخذ عنه، ثم أخذ عن أستاذه حامل لواء الطريقة الشاذلية العارف بالله

الشيخ العربي الدرقاوي وذلك سنة [1224هـ] وانتفع به، وأمره شيخه سيدي العربي الدرقاوي بالرجوع إلى طيبة⁽¹⁾ وقال له: "رُحْ جعلتك وسيلة بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم" فامتثل أمره ورجع إلى المدينة المنورة، ولقن الذكر وانتفع به جماعة، ثم رجع إلى شيخه وأقام عنده سنين إلى أن توفي الشيخ العربي الدرقاوي سنة [1239هـ] وورث سرّه، ثم رجع الشيخ محمد حسن المدني إلى بلده (طابه¹ خير من أم المطي رحابه)، ونشر في طريقه الطريقة، وهي المعروفة بالمدينة، وانتشرت واتسع مجالها بالجزائر وإفريقية وخصوصا في طرابلس.

ولعل ما أورده الشيخ الحبيب عباس في أحد مقالاته عن صديق الشيخ محمد المدني: "محمد بن سعيد الحجري المتوفى سنة 1199هـ/1783م ومن شعره الصوفي ما استزار به صاحبه محمد المدني: (من بحر البسيط): هَلْ فِيكُمْ مِنْ جَزِيلِ الْحُبِّ مَا فِيْنَا ؟ فَإِنَّ شَوْقَكُمْ قَدْ كَادَ يُفْنِينَا،

يَا سَائِرِينَ كَسِيرِ الشَّمْسِ سِيرَتُهُمْ وَالذِّكْرُ يَتَّبَعُهُمْ كَالرَّوْضِ تَلْوِينَا،
تَقَاسَمْتَنَا عَجِيبَاتٌ لِيُعِدَّكُمْ فَالذِّكْرُ يُضْحِكُنَا، وَالْبُعْدُ يُبْكِينَا
لَمْ أَمْلِكِ الصَّبْرَ إِذْ حَانَ الرَّجِيلُ بِكُمْ لَا يَمَكِّنُ الصَّبْرُ مِنْ بُعْدِ الْمُحِبِّينَا"²

وأخذ عنه ابنه محمد ظافر الوارث لسره والخليفة بعده رئاسة الطريقة، ومن أحفاده الشيخ محمد البشير ظافر مؤلف: "اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة" وتوفي صاحب الترجمة (الشيخ محمد حسن) سنة [1268هـ/1852م]³.

أخبار الطريقة: تفرعت هذه الفرقة عن الدرقاوية وهي تمثل الفكر المعاصر الذي يجعلها منافسة لها. وتأسست حوالي 1820م عن طريق الدرقاوي الشيخ محمد بن حمزة المدني، ولم تنتظر طويلا لتصبح من أهم الطوائف بطرابلس بزوايتها الأم بمصرطة مركز العديد من المبشرين الذين يأتون للانضمام إلى قيادة الشيخ المدني، وخصوصا

1 طيبة أو طابة هي المدينة المنورة.

2 محمد الحبيب عباس، كتاباتي، (مخطوط) وقد نشر هذا المقال في مجلة "الفكر" عدد 9 السنة 12 جوان 1967، ص 71. نشر الكتاب سنة 2006 ويراجع المقال بالجزء الثالث ص 29.

3 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 383 عدد 1535.

عندما أصبح الشيخ محمد الظافر بن محمد حسن بن حمزة¹ المستشار المخلص للسلطان عبد الحميد الثاني عدوّ الدرقاويين في الأصل.

ومن ذلك الوقت أصبح المذهب الشاذلي الدرقاوي كما يعلمه هذا الشيخ المدني يُكَيَّفُ على رغبات الشيخ ظافر واحتياجاته السياسية في الدعوة للوحدة الإسلامية للخلافة العثمانية التي نادى بها هو نفسه وكان محركها الأساسي² فقد شرح في كتابه "النور الساطع" المنشور بالقسطنطينية سنة 1885م المبادئ الأساسية لمذهبه. وأنت تلمس بالإضافة إلى الطابع الصوفي ومبادئ التوحيد والتصوّف في الشاذلية الصرفة ما يشير إلى اهتمامات هذا الدبلوماسي ومحاولته لجعل أتباعه دعاة للأفكار الوحدوية.

نقول: إن تلك الفترة الحرجة من حياة المسلمين، وأملهم في الخلافة أن تبعد عنهم شبح الأخطار المحدقة بهم، هو الذي يحدو بأصحاب العقول النظيفة للبحث عن التوحيد ولو في ظل حكم غاشم، فهو على الأقل يحمل الإسلام بين جنبيه وليس الكافر الذي يرمي إلى طمس الاسلام من وراء تحطيم هيكل الخلافة ولو كان مهترًا.

وكانت طرابلس المركز الأصلي للشيخ محمد ظافر، وبعد وفاة الشيخ حمزة، توارثها أبناء أخيه فكانوا أعوانا للسياسة العثمانية، ووصلت حركاتهم إلى أقاليم إفريقيا الوسطى وودّاية وبورنو.

أما في تونس والجزائر فإن هؤلاء الأشخاص هم الذين يترجمون تعليمات سيدهم الروحي والزميني. أما في المغرب والحجاز فلهم مقدّمين يقومون بهذه المهمة. وهم يعتبرون دعاة بالنسبة إلى الشاذلية الصرفة، وبالنسبة للدرقاوية يظهرون بمظهر المتطهرين الزهراء، وبالنسبة إلى الطلبة هم العلماء الأفذاذ، أمّا بالنسبة إلى من لا ينتمي لأي

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 411، " أبو عبد الله محمد ظافر بن الشيخ محمد حسن ظافر المدني... أخذ عن والده وورث سره وكان الخليفة من بعده، وفي أيامه ازدادت الطريقة في الانتشار في كثير من الأمصار، وتحوّل في إفريقية وغيرها، ودخل صفاقس وسوسة والمنستير، وأخذ عنه الكثير منهم الشيخ محمد الجدي بوزفرو واستوطن طرابلس، وله هناك أتباع كثيرون ومن أخذ عنه هناك ابن أخيه محمد البشير ظافر. ثم سافر إلى الأستانة وحصلت له حظوة وبعد صيت مع إقبال خاص من سلطان آل عثمان عبد الحميد وعيّن له جارية وخصّص له تكية باسمه. وحصل له جاه لم يشاركه فيه أحد إلى أن توفي وهو على تلك الحال من الإجلال والإقبال في حدود سنة 1325 هـ ومن تأليفه "أقرب الوسائل لإدراك المعاني ومنتخب الرسائل" في مناقب والده و" الأنوار القدسية" في شرح طرق القوم العلمية في مناقب الشاذلية. وله أدعية وأوراد."
2 نحن الآن ننقل عن كويولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 219 و513-520.

طريقة فهم أولئك الذين يقدمون مساندة لسلطان اسطنبول. فهم يستعملون كل الوسائل لإنجاز مهماتهم: بالوعود للطامحين والبسطاء، وبالرهبة من الله بالنسبة إلى المنخرطين، وبالندور والعطايا للأشخاص الدينيين المستقلين عنهم، وبالتحيل على أصحاب السلطة إن لزم الأمر، فهم لا يتورعون من استعمال أي سلاح ببراعة فائقة.

يعلق "كوبولاني" و"ديبون" فيقولان: إن لم ينجح المدينة في ما راموا فإنهم على الأقل ساهموا في دعم روح التمرد وهذا الأمل المتأجج في المستقبل، أمل الانعتاق الذي تحلم به الشعوب المسلمة هذا من الناحية السياسية. وقد أوردت لطيفة الأخضر في كتابها الاسلام الطريقي: "...من ذلك مراقبة (السلط الاستعمارية) زيارات المسمى حسن باي ظافر المدني شيخ الطريقة المدنية بمسراطة بطنابلس إلى تونس فيما بين سنتي 1915 و1922، والذي نسبت له تقارير البوليس اتصالات بمجموعة الشباب التونسي³. أما من الناحية الأخلاقية والدينية ففي بادئ الأمر لا تمثل التعاليم المدنية أي خصوصية، أما بعد التعمق والبحث فإنك تكتشف الرغبة في الحصول على السلطة الزمنية رغم محاولة إخفائها في العبارات⁴. وهذه إجازة مقدّم مدني :

(بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله * الصلاة والسلام على سيد المرسلين)

الحمد لله الذي جعل أهل المعرفة مصاييح الظلام، ورفعت على خيمة سرهم الأعلام، فسبحان من اختصهم لشراب المدام، ومن أتاها واقفا ببابهم حصل له السكر والهيام، فنحمده على هذه النعم والمزايا، ونشكره شكرا يليق بكماله على ما منحنا من العطايا، كما نطلب منه الزيادة على الدوام، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عبد ظهرت نفعاته، وتوالت أفراحه بمولاه ومسرته، حتى دخل لدار السلام، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، الذي بين لنا الحلال والحرام، واهتدينا بنوره في الأنام، حتى بلغنا المرام، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى، وأيمة الاقتداء، صلاة وسلاما دايمين متلازمين لا نهاية لهما ولو بعد الختام، أما بعد فيقول المتوكل على مولاه خادم أهل الله محمد [بن] أحمد بن عبد الله المداني أني لما أخذت الطريقة عن والدي وهو

3 لطيفة الأخضر، الاسلام الطريقي دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، دار سراس للنشر، تونس: 1993، ص 90.

4 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 514.

العارف الأكبر، والملاذ الأفخر، الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله التونسي منشئا ودارا الصفاقسي تربة ومزارا، المغربي أصلا، الشريف الحسيني نسبة وأصلا، وهو أخذها عن جدّي للأم الغوث الأكبر، والقطب الأشهر، سيدي محمد بن حمزة ظافر المدني وهو أخذها عن القطب الرباني، والعارف النوراني، سيدي ومولاي العربي الدرقاوي الحسيني وهما من فحل إلى فحل كما في السلسلة المدنية الدرقاوية الشاذلية إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم. فلما أخذت الطريقة عن والذي المذكور أمرني بالسياحة مع الفقراء ورباني رضي الله تعالى عنه حتّى رفع عن قلبي الأوهام والستور وأمرني بتقوى الله في السر والعلانية وأن نحسن إلى عباد الله لقول رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: الخلق عيال الله أحبكم إلى الله أنفعكم لعياله، والإحسان يستوي فيه جميع المخلوقات حتّى من الحيوانات فبذلك تتوالى النفحات، وتحصل الفيوضات، وكما أاذني في ذلك فأنا أذنت جميع من قدمته على الطائفة المدنية كما أاذني والذي المذكور فنخص بهذه الإجازة ابننا المشهور، الذي عليه الخيرات تدور، مقدم مقادم أولاد نايل فأجزته إجازة تامة، وجعلته في ذلك نائبا عني وبعضا مني وهو منه مقدم ومنه ناظر عليهم، وهو العارف الرباني والسيد النوراني، من هو واقف في الحد، وملازم للجد، سيدي يحي بن أحمد، وأوصيه هو ومن معه من الإخوان بتقوى الله العظيم ظاهرا وباطنا، سرا وعلانية كما قال صَلَّى الله عليه وسلّم لمن سأله أن يوصيه: اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئات حسنة تمحوها وخالق الناس بحلق حسن وأن يوصي جميع من أخذ علينا الطريقة بهاذه الوصاية لتحصل لهم الترابية، ويفوزوا من الله بالعطايا، وكما أوصيهم أن يعلو همهم عن الناس ولا يتعاطوا إلا في المنفعة الخاصة بالديانة ليحظوا بالصيانة وكما نوصيهم أن يطيعوا للأمر ويتواضعوا للغني والفقير، وأن لا يفرقوا بين عباد الله بشرط أن يكون نظرهم وتعظيمهم لصنع الله وطاعة الأمير لها دليل من قوله تعالى يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم وكما أوصيهم بذكر الله دائما وأن لا يشتغلوا بما لا يعينهم ولا بمجالس الغفلة ولا بالقليل والقال، ولا يلتفتوا إلى أي حال بل يشغلوا قلوبهم بمولاهم ويستغرقوا في محبته ليحصل لهم مناهم، وأن يروا لأدناهم كما يروا لأعلاهم وأن يكونوا من الذاكرين المتّقين إن الله لا يضيع أجر المحسنين والسلام).

1 حاولنا أن ننقل هذه الإجازة بالضبط كما وردت عن كربولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 515 دون تعهد لأخطائها الرسمية أو النحوية التي قد يعثر عليها. من باب أمانة النقل.

من هذه الوصية يتّضح خروج الطائفة المدنية عن الدرقاوية بطاعة ولي الأمر المطلقة، وذلك ما يفسّر اعتراض الدرقاوية بالمغرب على المدنية واعتبارهم هراطقة وخارجين عن الصف وجواسيس للسلطة التركية في أواخر القرن التاسع عشر ويقدمونهم للعمامة على أنهم خونة للعهد.

في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد كثر بتونس المدنيون وزواياهم الرئيسة بصفافس بقيادة الشيخ محمد بن عبد الله المدني، وبتونس الحاضرة مقدمهم عبد الله الغدامسي والصادق الصحراوي، ولهم زوايا أخرى مبثوثة هنا وهناك في العروش والقبائل.

وتعلق الأستاذة لطيفة الأخضر: "وقد استطاع هذا الأخير (محمد ظافر) أن يبعث عدّة زوايا بليبيا ولكنها لم تبرز بصفة خاصّة هناك نظرا للهيمنة السنوسية، كما كانت له زيارة إلى تونس أسّس خلالها زاوية بصفافس. وما تميّز به السلطان عبد الحميد الثاني سياسيا هو دعوته وتحمسه لفكرة الجامعة الإسلامية كمحاولة لخلق حزام إسلامي يسدّ الطريق أمام القوى الأوروبية التي كانت تريد آنذاك تصفية "المسألة الشرقية" واقتسام تركة "الرجل المريض". ومن هنا جاءت العلاقة بين الطريقة المدنية والجامعة الإسلامية ومن هنا أيضا جاء التحقّظ الذي ما رسته السلط الفرنسية بتونس تجاه هذه الطريقة إلى درجة جعلت الأرقام التي قدّمتها حول حجمها حسب تعداد 1925 متناقضة جدّا مع أرقام أخرى قدّمت في نفس الوقت، ففي حين يعطي تعداد 1925 لهذه الطريقة 7 زوايا و271 فقط من الأتباع في كامل البلاد ها أن تعداد المراقبة المدنية لجهة مكث بمفردها يعطينا 587 من أولاد عيار قبالة. 715 من أولاد عون. 206 من أولاد ميمون، وهو يتجاوز بالواضح الرقم الذي قدمته في التعداد العام." هذا التناقض يفسر أن السلط الاستعمارية ترمي إلى تقزيم الفكرة وبالخصوص عندما عجزت الخلافة عن حماية تونس من الاحتلال الأجنبي سنة 1881 ومصر 1882 وليبيا 1911. وهكذا تقلصت الطريقة ولم يبق منها إلا شذرات بالمنستير ورثها آخر الأمر النساء اللاتي لا تعيرهن السلط الاستعمارية انتباهها.

1 لطيفة الأخضر، الإسلام الطريقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، دار سراس للنشر، ص 54.

مكزية النساء بالمنستير ﴿مكزية خافر﴾

هي فرقة نسائية بالمنستير يمكن اعتبارها فرعا للطريقة
أبي عبد الله محمد حسن بن حمزة خافر المكزي

الشيخ المؤسس : في ظروف غامضة وغريبة أسس أبو عبد الله محمد بن علي بوزقرو عرف الجدّي المنستيري هذه الفرقة ... والمعروف أنه ولد بالمنستير وحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى تونس لإكمال دراسته، فأخذ عن الشيخ البنا وهو عمدته والشيخ الرياحي والشيخ ابن ملوكة وغيرهم، وتلقّى الذّكر والطريقة المدنية عن الشيخ ظافر المدني. وتولّى الفتيا بالمنستير سنة 1266هـ ثم القضاء سنة 1269هـ، وحمدت سيرته، ثم امتحن بالإبعاد لصفاقس عقب الثورة المعروفة بثورة ابن غذاهم سنة 1280هـ/ 1864م وذلك بحكم من وزير الحرب أحمد زروق حين قدم الساحل لتمهيد الراحة. قال الشيخ محمد مخلوف في (تتمة شجرة النور الزكية)¹: "وقدم عليه (أي علي أحمد زروق) وفود أهل الساحل منقادين، من جملتهم وفود المنستير يؤمهم العلماء أهل المجلس الشرعي، فقابلهم بشدة، وحكّم الأغلال في أعناقهم وأرجلهم وأوّلهم رئيس المجلس الشرعي الشيخ أبو عبد الله محمد الجدّي بوزقرو وشدّد تنكيله وأمر بإزالة عمامته في المجلس بلفظ مستهجن".

وحصل الشيخ بصفاقس على إقبال فوق ما يقال، وتصدّى لإقراء العلوم، وحصل

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص. 175.

النفع به. وفي حدود سنة 1288هـ فُرِّج عنه وصدر له الإذن بالرجوع إلى مسقط رأسه متولياً رئاسة المفتين بها وإمامتها بجامعها الأعظم، وتصدّى لإقراء العلوم وانتفع به جماعة، وبعُد صيته وقُصد للفتيا من الجهات وكانت فتاويه غاية في التحرير. وتُوِّفِّي أوائل ذي القعدة عقب احتلال فرنسا للإيالة التونسية سنة 1295هـ/1881م ودفن قريبا من قبر الإمام المازري قبلته¹.

زار الشيخ ظافر المدني سوسة والمنستير، واتصل بأهلها في إطار نشر طريقته والدعوة إلى فكرته التي يعمل لها وهي الفكرة الوحودية التي حمل رسالتها عن السلطان عبد الحميد. وأخذ عنه الطريقة الشيخ المفتي محمد بوزقرو الجدّي وقد كانت بينهما مراسلات، وجعل قدوم الشيخ ظافر من ليبيا واهتمامه بالشيخ الجدّي مكانة لهذا الأخير عند الطرابلسيّة. ومن المعلوم أنه كان يقطن بالمنستير الكثير منهم ولهم حومة كبيرة لاتزال باسمهم إلى حدّ التاريخ، وقد ترعرعت فيها الطريقة السلامية أصيلة ليبيا أيضا، فلا عجب أن كان بعض هؤلاء الطرابلسيين ينتمون إلى مدينة ظافر التي لها زاوية كبيرة بليبيا، وانتشرت طريقتهم بين النساء والرجال، إلا أنّ الرجال كانوا أشدّ حماسا للسلامية.

هذه المدينة هي مثيلة ما هو موجود بالعاصمة كزاوية الشيخ الصادق الصحراوي أو صفاقس كزاوية الشيخ محمد بن عبد الله المدني. فالأصل واحد ويرجع إلى الدرقاوية، ويستمدّ أصوله من الشاذلية، ولكنّ الشيخ ظافر المدني الذي أسسها بنفسه أو ترك مهمة ذلك لتلميذه في الطريقة الشيخ محمد بوزقرو الجدّي، جعلها تحمل كلّ خصوصيات الدرقاية ما عدا الفكر السياسي. ويذهب بنا الظنّ أن بعض هذا الفكر هو الذي حرّك الشيخ محمد بوزقرو الجدّي للوقوف وقفته الحازمة في ثورة الساحل أمام الطاغية زروق الذي نفاه إلى صفاقس حيث وجد زاوية المدينة ونشط بها من حيث كان يؤمل تعطيله عن النشاط. وحياة الشيخ محمد الجدّي بوزقرو مليئة بالأحداث السياسية التي جعلها تؤثر حتى في قرارات الباي نفسه بعد العفو.

أخبار الطريقة : نشر الشيخ محمد بوزقرو الجدّي، إذن، الطريقة المدنية الظافرية

1 نفس المصدر السابق.ص.395. وقد عثرنا أن الشيخ الجدي توفي يوم 13 ماي 1881 في حين وقعت معاهدة باردو في يوم 12 ماي، ولعلّ الشيخ تأثر لما بلغه الخبر فمات كمدا بمسوسا في وطنيته التي كافح عنها في حياته.

بعد أن أخذها فعلاً عن الشيخ ظافر المدني نفسه، ومارسها في صفاقس أيام محنته بزواية الشيخ محمد بن عبد الله المدني الموجودة هناك، فلما وقع العفو عنه ورجع إلى مسقط رأسه واطمأنت به الحال نشرها بعد رحيل الشيخ ظافر المدني بين من كانوا قد أخذوها عن مؤسسها، خصوصا ومكانته العلمية والسياسية والاجتماعية تمكّنه من ذلك. وكان بينه وبين الشيخ ظافر مراسلات، وما زال منها لدى أحفاد الشيخ رسالة خطية للشيخ ظافر أرسل بها إلى الشيخ محمّد الجدي يسأله عن أحواله، وقد أخبرنا بذلك الحفيد السيد صالح بن حسن الجدي بوزفرو الذي صرّح أيضا أن الشيخ محمد المدني خلف الله كان يأتي إلى منزلهم بالمنستير، ويقول له: إنّ جدّك للأم (وهو الشيخ محمد بوزفرو الجدي) هو من جماعة الشيخ ظافر.

ويظهر أنّ الطريقة الظافرية انقرضت بعد ظهور الطريقة العلاوية من زاويتي الشيخ الصادق الصحراوي والشيخ محمد بن عبد الله المدني الصفاقسي، ولم يبق منها إلاّ ما احتفظت به نساء المنستير، ونقول هذا نتيجة لما نلمسه من مخالفة في القصائد المغناة وموازين الغناء واختلاف الحضرة بين مدينة نساء المنستير ومدينة قصبية المديوني، إذ تقول النساء في حضرتهنّ (الله) كما عند الدرقاوية بالمغرب الأقصى وليس اسم الصدر (آه) كما عند العلاوية. لذلك اصطلحنا بتسمية مدينة ظافر الدرقاوية للتشابه بينها وبين ما بقي إلى الآن من درقاوية المغرب وقد نجد بعض الأشعار التي تنشدها النساء بها لمسة اللهجة الغربية! وهكذا تأكّد لدينا انفراد نساء المنستير بالحفاظ على مدينة ظافر رغم تشابه بعض القصائد، فإننا بعد أن تثبتنا وجدنا المطالع متشابهة أما الأبيات والموازين والألحان فمختلفة، ولا يمكن الجزم بأنّ النساء أخذن من الشيخ محمد المدني خلف الله كما يروي ابنه الشيخ منور، وتصرفن، بل إنّ الشيخ محمد المدني أخذ عنهنّ وهذّب على طريقته كما وجدناه عنده في بعض القصائد، وتبقى الأدلّة قاطعة بأنّ هنالك اتّصالات وتلاقحاً بين الطريقتين، ولم تزل نساء المنستير يتّصلن بالشيخ محمد حتّى آخر حياته، ومنهنّ من اتّصلت بعد وفاته بخلفائه، حيث لم يكن هنالك من يدقّق ليقف على الفروق بين الطريقتين.

وهكذا يمكننا القول بأنّ مدينة النساء بالمنستير تمثّل وجهاً آخر من الطريقة

1 المقصود بالغبرية: المغربية من المغرب الأقصى.

المدنية، ويمكن لدراسة موسيقية مختصة أن تبين أوجه الاختلاف بين الطريقتين، فالثراء الموسيقي التي تمتاز به مدينة النساء بالمنستير لا يقارن باقتصار مدينة الشيخ محمد المدني خلف الله على بعض المقامات والموازين.

ونوشك أن نتيقن أن مدينة ظافر كانت السلط الاستعمارية لها بالمرصاد ما دامت تحمل النوايا الوجدوية، فعملت بوسائل مختلفة للقضاء عليها وتقزيمها والتخفيف من شأنها ومتابعة أصحابها حتى انقرضت قبل انهيار الخلافة العثمانية سنة 1922م. خصوصا بعد وفاة الشيخ الجدّي في ماي 1881 أي إبان دخول الحماية الفرنسية، وإنما بقيت لدى النساء لأنهنّ كنّ لا يمثّلن أي خطر سياسي على السلطة الاستعمارية.

ويظهر أنّ النساء ورثن الطريقة عن الرجال بتعليم الشيخ الجدّي، ولا غرو أن يكون انتدب للنساء قريباته أو زوجته نفسها، فتعلّمنها واستعملنها في حفلاتهن قبل مجيء الشيخ محمد المدني خلف الله القصبي، فلما قدم هذا الأخير المنستير وجدّهنّ على ذلك فأقرهنّ، وتطعم رصيدهن الغنائى بما عنده، وربما يكون هو أيضا أخذ أو اقتبس مما لديهنّ مما يمكن أن يكون قد رواه له أصدقاؤه من المنستير مثل الشيخ الحاج محمد محو الكفيف، أو ما نقل عن السيدة آمنة مزالية من الجيل الأول من كبيرات المدنيات، فكلتا الطريقتين درقاوية فهما من أصل واحد.

وتكوّنت منذ ذلك العهد، فرقة نسائية ضمّت عددا من النساء، وبقين يتوارثنها إلى اليوم، وهكذا تولّدت ظاهرة بالمنستير: إذا تحدثنا عن حفل رجالي قلنا (سلامية) وإذا تحدثنا عن حفل

نسائي قلنا (مدنية)، فكان كل طريقة منهما أصبحت اختصاصا لأحد الجنسين، ونتأكد أنّ لذلك تأثيرا في الغناء والموسيقى، فلا بدّ أن تكتسي المدنية ثوبا نسائيا بعد طول السنين وخصوصا والفرقة تنتدب لإقامة حفلات من خصوصيات النساء سواء بمناسبة النفاس أو الزواج وما إلى ذلك من احتفالات نسائية بحجة، ولو قام أحدهم بدراسة للنبرات التي تصدرها النساء في غنائهنّ وعدم وجود تلك الذبذبات والنبرات لدى الرجال لكان قد وضع يده على نقطة هامة من نقاط التمييز بين مدينة النساء وما يمكن أن يقوم به الرجال من نفس الطريقة، فلا بدّ من ملاحظة الفرق الواضح بين

"تينور" الرجال و"سويرانو" النساء. أما من حيث الروح الأنثوية التي تضيفها أصواتهنّ على الطريقة فلا يمكن لسامع أن يغفل عنه.

طريقة العمل : عندما نتحدّث عن طريقة العمل لدى الحضرة المدنية النسائية بالمنستير لا بدّ أن نتذكّر أصول الطريقة المدنية كما ورثها الأبناء عن الآباء، وهي عدم استعمال الآلات في الإنشاد، والبعد بالقصائد والانتهاء بالحضرة أي ذكر اسم "الله"، وذلك أصل من أصول الشاذلية كما حافظت عليه الطريقة الدرقاوية وكلّ فروعها من مدنيات مختلفة.

وانتشر غناء المدنية لدى نساء المنستير في دورهن واجتماعاتهن الحميمة، حتى أنّ المرأة لتترنم به في مطبخها أو مشغلها دون غيره من الغناء، ويمكن أن تُرجع ذلك إلى عدّة عوامل: أوّلها أن التّفَسّ الأنثويّ الذي يلتصق بالسمع يجعله قريبا من نفس المرأة أكثر منه موسيقي، فبالإضافة إلى الكلام فالنبر يوقظ فيها الإحساس بأختها التي تنشد فتتفاعل معها في نفس الأحاسيس، وثانيها سهولة دعوة الفرقة لإقامة الحفلات النسائية، فقد كانت الفرقة لا تشتطّ أجرا، ولا تأنف من القيام بعمل ولو في منازل الفقراء ومن ليس لهم ما يقدمون سوى "شكشوكة قرع" أو "شكشوكة فول" دون أيّ أجر آخر، فكانت أعضاء الفرقة مبدّلات محبوبات لدى الجميع، يحظين بالاحترام والتبجيل الكامل، ونتج عن هذا امتلاء أذن المرأة بهذا المغنى أكثر من غيره في غياب الوسائل السمعية البصرية المنتشرة الآن.

وترتقي المدنية بالمفهم والمتدوّق إلى مراتب سامية من الانتشاء والسبح في ملكوت الروح ما يجعل الجسد يهتزّ اهتزازا قد يبلغ درجة العنف أحيانا، وقد لاحظنا ذلك عند نساء بدينات وكبيرات جليلات، يرقصن برشاقة الشابات، كأنهنّ لا يعبان بالبدانة ولا بجلال المظهر.

وتنطلق الحفلة بهذا الموشح في طبع السيكا على إيقاع التّوخت 7 من 4 الذي يغلب عليه الطابع الشرقي، وتطرزه الفرقة بخرجة في طبع الحسين على إيقاع 4 من 4 :

بديتْ بِذِكْرِ الْحَيِّبِ وَهَمْتُ بِعَيْشِي وَطَيْبِ

وَعِشْقِي إِيمَانَ الْحَبِيبِ أَتَاهُمْ بِالسَّرِّ الْعَجِيبِ
أَشْرَبَ يَا حَبِيبِي وَطِيبَ عَلَى قَدْ مَا يَتَعَنَّى الرَّقِيبَا
خُرْجَةٌ : إِشْرَبَ مِنَ الطَّاسَاتِ قُمْ خَلِّي الْكَاسَاتِ
فِي مَقَامِ السَّادَاتِ اسْتَغْنِمِ اللَّذَاتِ
شَرِبُوا مِ الْمُدَامِ * مَعَ سَادَاتِ كِرَامِ * وَصَبِحُوا هِيَامِ
رُجُوعٌ : يَا سَاقِي تَرَفَّقْ بَيْنَا * الْمَوْلَى عَفَّرَ ذَنْبَنَا * وَسَتَّرَ لِينَا عَيْنَنَا
سَقَانَا كَأْسِ الرِّضَا * عَفَا اللَّهُ عَمَّا مَضَى
خُرْجَةٌ : لَمَّا أَنْ دَارَ الْكَاسِ مَا بَيْنَ الْجِلَاسِ
هَبَّتْ لَهُمُ الْأَنْفَاسِ عِنْدَهُمْ زِينِ لِبَاسِ
قَلْبِ اللَّيِّ مَا يَهْوَاهُمْ عُمْرُهُ مَا يِرْتَاخِ
يَا لَوْ كَانَ يَرَاهُمْ تَبْرَى لَهُ الْأَجْرَاخِ
وَحَلَاوَةٌ مَلَقَاهُمْ فَوْقَ غَسَلِ الْأَجْبَاخِ
يُنْبَاهِي بِنَاهَاهُمْ يُجَدِّدُ فِي الْأَفْرَاخِ
يَتَحَطَّى بِحُظَاهُمْ وَمِ الْعَدُوِّ يِرْتَاخِ
يَتَمَنَّى فِي مَاهُمْ يُشْرِبُ مِ الْأَقْدَاخِ

1 نجد في ديوان أبي الحسن الششتري هذا الموشح: ويروى أن أستاذه ابن سبعين أعطاه الطالع وأمره أن يتغنى به فانغلق عليه في اليومين الأولين، ثم انفتح له فأكمل الموشح:

بَدِيتُ بِذِكْرِ الْحَبِيبِ * وَهَمْتُ، وَعَيْنِي بِطِيبِ * وَجُحْتُ بِسِرِّ عَجِيبِ
لَمَّا دَارَ الْكَاسِ * مَا بَيْنَ الْجِلَاسِ * أَحْبَبْتُهُمُ الْأَنْفَاسِ * عَنْهُمْ زَالَ الْبِاسِ
سَقَاهُمْ بِكَاسِ الرِّضَى عَفَا اللَّهُ عَمَّا مَضَى
إِشْرَبَ نَدِيمِي وَطِيبِ وَعِشْ فِي أَمَانِ الْحَبِيبِ
قُمْ خَلِّي الْكَاسَاتِ * وَأَشْرَبْ بِالطَّاسَاتِ * وَأَعْتَنِمِ لَذَاتِ * فِي مَقَامِ السَّادَاتِ
بَرِيقِ الْحَمَا قَدْ أَضَا عَفَا اللَّهُ عَمَّا مَضَى
يَا سَاقِي تَرَفَّقْ بِنَا الْمَوْلَى عَفَّرَ ذَنْبَنَا
إِسْقِنَا مُدَامِ * وَأَنْعِمِ بِالسَّلَامِ * وَنَحْنُ هِيَامِ * مَعَ سَادَاتِ كِرَامِ
وَوَسَّعَ عَلَيْنَا الْفَضَا عَفَا اللَّهُ عَمَّا مَضَى

هَذَا الرَّبِّ عَظَاهُمْ فِي مَقَامَاتٍ مَلَاخَ
 مَحْبُوبِي وَأَنْشَاهُمْ وَالْكُلَّ بَيْنَ أَيْدِيهِ
 حَارُوا فِي أَوْصَافِهِ لَا مَنْ قُوَى يَحْكِيهِ
 وَالسَّادَاتِ يَرَأُفُوا بِالْمَحَابَّةِ فِيهِ
 صَارُوا مِنْ أَشْيَءٍ يُخَافُونَ؟ سَكُنُوا بَحْرَ التَّيِّهِ
 خَاتِمَ بَيْنَ أَكْتَافِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

ويقفلن هذا الموشح في طبع السيكاة عند إعادة البيت الأخير.

ثم ينتقلن إلى هذه المدحة في طبع الحسين على إيقاع 6 من 8 :

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * ذَكَرُ اللَّهُ يَا مَا أَحْلَاهُ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * تَقُولُ عَبَسَلُ
 بَيْنَ اسْتَنَانِي

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَإِذَا نُذْكَرُ مَحْمَدٌ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * تَصْلِحُ يَا
 رَبِّي حَالِي

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَإِذَا نُذْكَرُ مُحَمَّدٌ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * تُسْتُرُنِي وَ
 تُسْتُرُ حَالِي

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * سَيَادِي وَالْعَارَ عَلَيْهِمْ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * سَيَادِي وَ
 نُنَادِي بِيهِمْ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يُجِيبُوا الْمَفَاتِحَ فِي يَدِيهِمْ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يَحْلُوا
 مِفْتَاحَ الصُّدُورِ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يَا مَا أَحَلَّ سَيَادِي فِي الْحَضْرَةِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَالْجُوحَةَ
 وَالْحِبَّةَ الْحَضْرَاءِ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يَا مَا أَحَلَّ الْهِدْبَةَ مَذْرِيَّةَ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يَا مَا أَحَلَّ السَّبْحَةَ
 مِثْنِيَّةَ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يَا وَارِثِي مَالِكِ آيَّهِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَالشَّيْخُ وَابْنُهُ
بِالْقَاسِمِ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * يُعَارَكَ عَلَيْنَا وَيَخَاصِمُ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَبَابَا دِيوَانَهُ
رَاسِمِ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَالشَّيْخُ دَاخِلٌ لِلْحَضْرَةِ * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * بِالْجَوْحَةِ وَالْجِبَّةِ
الْحَضْرَاءِ

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * وَمَعَانَا الشَّيْخُ الْمَدَانِي * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * رَبِّي اللَّيِّ خَلْقِي
وَأَنْشَانِي

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * هُوَ اللَّيِّ سَتْرِي وَرِعَايِي * اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ * رَبِّي اللَّيِّ سَقَانِي
وَارْوَانِي

ثمَّ ينتقلن إلى مدحة أخرى لا يبعد أن تكون جزائرية الأصل أو منقولة بتصرف
عن الدرقاوية الحالية بالمغرب الأقصى، نظرا لبعض تراكيبها المشابهة لهجة الجزائرية أو
المغربية، وهي من طبع الحسين على إيقاع 2 من 4 :

أَشْرُبُ شَرَابَ أَهْلِ الصَّفَا تَرَى الْعَجَائِبَ

مَعَ رَجَالِ الْمَعْرِفَةِ وَالْحَمْرُطَائِبِ

اخْتَارُوا لِي وَاحِدَ النَّهَارِ يَا قَوْمُ خَطْرَةَ

وَزَيْدَهُمْ أَهْلَ الْغَرَامِ لَقِيْتُهُمْ فِي الْحَضْرَةِ

وَعَيُونُهُمْ مُدَبَّالَةَ وَوَجُوهُهُمْ صَفْرَا

وَقُلْتُ لَهُمْ: نُدْخُلُ حِمَاكُمُ يَا أَهْلَ الْمَوَالِي

قَالُوا: تَقْبَلُ شَرْطَنَا وَالشَّرْطُ غَالِي

اصْبِرْ عَلَى حَالِ الدَّوَامِ طَوَّلَ اللَّيَالِي

إِسْهَرْ عَلَى ذِكْرِ الْحَيِّبِ سَبْعِينَ لَيْلَةَ

أشرب كؤوس الخنظل والمر يَحلى
 ترجع سبيكة من ذهب يا من عرفها
 عدت من عمري سنين وأنا في غفلة
 اليوم رجعت لليقين وليست حلة
 وحلة بيها نفتخر بين الرجال
 اغفر لعبدك ما عصى والطف بحالي
 يا لوترى يا لوترى يا بوالجلال
 لينة نرولي في القبر ثبت سؤالي
 وابن لي في الجنة قصر واسع وعالي
 وعالي علاه الكريم مولى الموالي
 عدت عمري في دلال أنا مدلل
 مثل الهلال الضاوي ضوى وتهلل

ثم يدخلن في غيرها بإيقاع أسرع أي دخول براول في طبع الحسين أيضا :

الله الله يكفيني من كأس الحب يزويني

وقلت يا حبيبي فطيب سلم لي على الحبيب
 وكلما يبعد ويغيب يزيد في الوجد تمكيني

دخلنا في بحور الحب والأنوار تهديني
 أنا صبت أيام الحب وهواه والوجد سايني

يَا رَبِّ سَأَلْتُكَ بِالْمِعْرَاجِ وَسَأَلْتُكَ بِالْحَاتِمِ وَالنَّجَاحِ
تُبَلِّغْنِي مَعَ الْحَجَّاجِ لِمَحَمَّدٍ قُرَّةَ عَيْنِي

يَا رَبِّ سَأَلْتُكَ بِالْهَادِي بُمَحَمَّدٍ سَيِّدِ أَسْيَادِي
يَا رَبِّ تَبَلَّغْ مُرَادِي وَنُشُوفِ مَقَامِهِ بُعِينِي

ثم في البحر المتقارب من مقام الحسين على إيقاع 6 من 8 :

أَتَانِي زَمَانِي بِمَا أَرْتَضِي بِاللَّهِ يَا دَهْرُ لَا تَنْقَاضِي
وَيَا لَيْلَةَ الْأَنْسِ عُوْدِي لَنَا لِأَنَّ الْحَبِيبَ عَلَيْنَا رَضِي
سَقَانِي بِكَأْسِ الْهُوَى جَرَعَةً فَعَايَنْتُ فِي الْكَأْسِ نُورًا يُضِي
وَفِي حَالَةِ السُّخْطِ لَا فِي الرِّضَا بَيَانُ الْمُحِبِّ مِنَ الْمُبْغِضِ
وَنَحْنُ عَلَى الْعَهْدِ نَرَعَى الْوِدَادَ وَعَهْدُ الْمُحِبِّينَ لَا يَنْقَاضِي
فَيَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى صَلَاةً تَدُومُ وَلَا تَنْقَاضِي
ثُمَّ : شَفْتُ الْهِلَالَ وَوَجَّهَ الْحَبِيبُ
فَصَارَ اهْلَاكَيْنِ عِنْدَ النَّظَرِ

1 هي أربعة أبيات وقع تلحينها على إيقاع سماعي ثقيل، في مقام الراست ماهور، وذكرها محمد العربي القباني في كتابه (جامع النفحات القدسية في الأناشيد الدينية والقصائد العرفانية والموشحات الأندلسية، دارالخبر، الطبعة الثانية 1419 هـ/1998م بيروت، ص700):

رَأَيْتُ الْهِلَالَ وَوَجَّهَ الْحَبِيبُ فَكَانَا اهْلَاكَيْنِ عِنْدَ النَّظَرِ
فَلَمْ أَدْرِ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا هِلَالَ الدُّجَى مِنْ هِلَالَ الْبَشْرِ
وَلَوْلَا الْوَرْدُ فِي الْوَجْتَيْنِ وَمَا رَاعَنِي مِنْ سَوَادِ الشَّعْرِ
لَكُنْتُ ظَنَنْتُ الْهِلَالَ الْحَبِيبَ وَكُنْتُ ظَنَنْتُ الْحَبِيبَ الْقَمَرَ

وتنشد هذه الأبيات بربولا بموشح (كلي يا سحْبُ تيجان الرُّبِّي) من تأليف ابن سناء الملك وتلحين الشيخ ترنان في مقام راست الذيل، بتغيير في البيتين الثاني والرابع على النحو التالي:

فَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَنَّهُمَا قَاتِلِي هِلَالَ الدُّجَى مِنْ هِلَالَ الْبَشْرِ
لَقَدْ كُنْتُ الْهِلَالَ هُوَ الْحَبِيبَ وَوَجَّهَ حَبِيبِي هُوَ الْقَمَرَ

عن صالح المهدي، التراث الموسيقي التونسي، السفر التاسع، نشر وزارة الشؤون الثقافية، إدارة الموسيقى والفنون

فَلَمْ أَدْرِ مِنْ خَيْرِي فِيهِمَا هَلَالَ الدَّجَمِ هِلَالَ الْبَشْرِ

ومن قصائدهن في مدح الرسول (محمد يا نبينا):

مُحَمَّدُ يَا نَبِيَّنَا يَا شَفِيعَ الْمُذْنِبِينَ
كُنْ شَفِيعِي يَا تَهَائِي يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ
مُحَمَّدُ الْعِدْنَانِي قَدْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
وَدَعَانَا إِلَى الْإِيمَانِ يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ
مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ يَا صَادِقًا فِي الْقَوْلِ
إِشْفَعْ فِينَا يَوْمَ الْهَوْلِ يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ

مُحَمَّدُ الْقُرَيْشِي هُوَ نُورُ الْوَحْيِشِي
يَا إِلَهِي سَهِّلْ لِي نَمِثِي نَزُورَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ

وتختلف كلمات هذه المدحة اختلافا بيّنا تركيبيا وإيقاعا عن المدحة المشابهة
بديوان "أنيس المرید" للشيخ محمد المدني خلف الله.

بعد ذلك ينطلقن في مدحات للرسول صلى الله عليه وسلم:

صَلِّ وَسَلِّمْ يَا مِثْحَنُّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْجُودِ الْمُحْسِنِ
أَحْمَدُ مُحَمَّدَ عَزْ مِثْلَهُ فِي يَوْمِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ فِينَا

صَلِّ وَسَلِّمْ يَا عَالِي الْقُدْرَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ سَمِحِ الْبَشْرَةَ
إِرْضُوا عَلِيَهُ وَاصْحَابَهُ الْعَشْرَةَ فِي يَوْمِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ فِينَا

صَلِّ وَسَلِّمْ عَ الرَّسُولِ هُوَ شَفِيعَنَا فِي يَوْمِ الْهُولِ
أَحْمَدُ مُحَمَّدًا لَهُ مِثْلُ فِي يَوْمِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ فِينَا

ثم يقفن بعد ذلك وينشدن (صَلِّ يَا رَبِّي وَسَلِّمْ) :

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
صَلِّ يَا رَبِّ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ
زُحْرِفَتْ جَتَّةُ عَدْنٍ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ
قَالَ رَبِّي فَأَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ
يَا إِلَهِي بِالْمَشَقِّ صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمَرْقَعِ
لَا تُخَيِّبْ يَا إِلَهِي كُلَّ مَنْ حَضَرَ وَيَسْمَعُ
يَا حَلِيمَةَ يَا أَمِينَةَ قُومِي وَارْضِعِي الْمَبْرُورَ
بِهِ تَنَالِي الْغَنِيمَةَ تَخْتَفِي مِنْهُ الْبُدُورَ
مِثْلُ وَجْهِكَ مَا رَأَيْنَا أَنْتَ يَا نِعَمَ السُّرُورِ
أَنْتَ شَمْسٌ أَنْتَ بَدْرٌ أَنْتَ نُورٌ فَوَقَّ نُورُ
أَنْتَ وَاللَّهُ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ مِفْتَاحُ الصُّدُورِ

ثم : يدخلن في الحضرة وقوفا في مقام الحمدان :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

يَا شَارِبِينَ الْكَاسِ أَسْيَادِي مَحْمُورَةَ
شَرَبُوا مِنَ الْأَقْدَاحِ دَارُوا بِهَا دُورَةَ
بِالْهَادِي وَبِالْيَاسِ رَجَالَ اللَّهِ هُنَا
تَجَيَّنَا مِنَ الْوَسْوَاسِ الْخَنََّاسِ يَا أَللَّهُ

بُحَمَّدٍ وَالْعَبَّاسِ عَمَّ النَّبِيِّ يَا اللَّهُ
 رُحُ يَا الْعُدُو عَنِّي جَانَا الْفُتُوخُ يَا اللَّهُ
 قَدَّمْنَا وَدَخَلْنَا فِي حَضْرَتِكَ يَا اللَّهُ
 يَا مُشَايِخَ الْحَضْرَةِ يَا زُكَايِرَ الْحَضْرَةِ
 هَيَّا يَا فُقْرًا بِالْعَمَلِ يَا اللَّهُ
 الْمَدَدُ الْمَدَدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ
 الْمَدَدُ الْمَدَدُ يَا حَبِيبَ اللَّهِ
 شَوْقًا وَمَدَدَ يَا رَسُولَ اللَّهِ
 عَوْنًا وَمَدَدَ يَا حَبِيبَ اللَّهِ

فيردّدن (الله، الله) بالصدر على إيقاع بطيء ثم يتسارع حتى يبلغ الأوج، بينما
 المنشدة تنشد قصائد، ففي إيقاع سماعي فاخت من أصل تركي تقول :

رُحُ يَا الْعُدُو عَنِّي جَانَا الْفُتُوخُ يَا اللَّهُ
 يَا مَنْ عَلِمَ سِرِّي فِي حُرْمَتِكَ يَا اللَّهُ
 ثَقَدَّمْنَا وَدَخَلْنَا فِي حُرْمَتِكَ يَا اللَّهُ
 يَا دَاخِلَ لِلْحَضْرَةِ بِالْقَلْبِ صَافِي يَا اللَّهُ
 يَا دَاخِلَ بِالنِّيَّةِ دَاوِي الْعَلِيلِ يَا اللَّهُ
 يَا زُكَايِرَ الْحَضْرَةِ بِالْعَمَلِ يَا اللَّهُ

ثم يجلسن. ثم :

سَلَامِي عَلَى الشَّيْخِ سَيِّدِ الْمَرْيَةِ اللَّهُ يُعْطِفُ قَلْبِيهِ عَلَيْهِ

هَيَّا نَزُرُوا الشَّيْخَ يَا فُقْرًا بِالزَّادِ وَالرَّحْلِ جُمْلَةً يَا فُقْرًا

وَإِذَا وَقَفُوا سَيَادِي فِي الْحَضْرَةِ نَعْمَلْ مِدْحَةَ وَلَيْلَةَ هُنِيَّةَ

سَلَامِي عَلَى الشَّيْخِ زَاوِيَتُهُ بُعِيدَةَ مَا بَيْنَ ظُرْبَةِ وَقَصْرِ جَدِيدَةَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَابًا مَا يُطَوَّلُ غَيْبَةَ نَعْمَلْ مِدْحَةَ وَلَيْلَةَ هُنِيَّةَ

هَيَّا نَزُورُوا الشَّيْخَ يَا نَاسَ فَخِرَةَ سَيَادِي مِنْ كُلِّ لُبَاسَ
وَإِذَا وَقَفُوا سَيَادِي فِي الْحَضْرَةِ نَعْمَلْ مِدْحَةَ وَلَيْلَةَ هُنِيَّةَ

قُلْتُ لَهُ: يَا شَيْخُ، هُوَ شَيْخُ الْفُقَرَا يَتَعَرَّضُ لِينَا وَيَفْرَعُ نَعْرَةَ
يَا شَيْخِي، وَيُدْخُلُ لِلْحَضْرَةِ يُدْخُلُ لِلْحَضْرَةِ سَيَدِ الْمَرْيَةِ

سَلَامِي عَلَى الشَّيْخِ هُوَ حَبِيبِي هُوَ ذَوَايَا هُوَ وَطَيْبِي
يُبْرِئِي مِنْ حَرِّ اللَّهَيْبِ نَعْمَلْ لَيْلَةَ وَنَفْحَةَ قُوِيَّةَ

سَلَامِي عَلَى الشَّيْخِ آه يَا فُقَرَا مِنْ جَانَا الشَّيْخِ نُصْحُ وَنَبْرِي
هُوَ الَّذِي يَرْقِيَنِي فِي الْحَضْرَةِ نَعْمَلْ لَيْلَةَ وَنَفْحَةَ قُوِيَّةَ

سَلَامِي عَلَى الشَّيْخِ يَا نُورَ عَيْنِي مِيْعَادِكَ بَابًا مَاذَا يَحْمِينِي
فِي الْحَضْرَةِ إِنَّتَ تَرْقِيَنِي نَعْمَلْ لَيْلَةَ وَنَفْحَةَ قُوِيَّةَ

ثم على إيقاع النوخت التركي 7 من 8 :

هَيَّا يَا حَمَّازَ هَيَّا وَاسْقِنَا كَاسَ الْحَمِيَّا

وَاسْقِنَا كَأْسًا مُصَفًّى أَسْيَادِي عَظْفُهُمْ عَلَيَّ
 اسْقِنَا صَرْفًا وَذُخْرًا حَمْرَةَ صَافِيَةَ زُلَالِيَّةِ
 وَاهِدِ لِلْحَمَارِ دَلْقِي وَالثِّيَابِ الَّتِي عَلَيَّ
 يَا سُقَاةَ الرَّاحِ قُومُوا هَانُوا الرُّوحَ وَالرُّوحَانِيَّةِ

وينتهين بـ(يا راكب البراق) في لهجة العرضاوي على إيقاع 4 من 4 ينتهي بالدرّازي

12 من 8 :

يَا رَاكِبِ الْبُرَاقِ يَا الْأَمْجَدِ يَا نُورَ كُلِّ انْوَارِ
 يَا شَفِيعِ فِي الْخَلِاقِ
 بَجْنَا مِ الْهَمِّ وَالْأَكْدَارِ يَوْمَ الَّتِي نَرْجُو نَقَاكَ
 نَجِّ أَوْلَادِي مِنْ لَهَيْبِ النَّارِ أَنَا صَيْدُهُمْ عَرَّاكَ
 وَعَلَى أَوْلَادِي دَائِمًا فُحْتَارِ مَنْ قَاسَهُمْ هَتَّاءَكَ
 نَقَصَمْ ظَهْرَهُ عَلَى ثَلَاثَةِ اشْطَارِ مَا امْضَاكَ أَوَّشَ دَعَاكَ ؟
 يَا مَعِيَّةَ بِنِزْيِكِ مِنْ هَا الْعَارِ رَاهُمْ ضِيُودَةَ وَرَاكَ
 وَالْمِتَعَرَّضِ يَحْلَفُوهُ رَمَادِ وَالَّتِي وَقِفِ السَّاسِ
 مَا نَعَشَقُ كَانِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ هُوَ طَيِّبُ الْأَنْفَاسِ
 مَا يَعْرِفُ كَانِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ الَّتِي عَرَفِ النَّاسِ
 مِتْمَنَّ مِنْ بَضْمَانَةِ السَّتَّارِ فِي وَسْطِ سُورِ مُحَاسِ
 دَائِرِ بِالْفِضَّةِ سَبْعَةَ ادْوَارِ يَا نَاصِبِينَ السِّيَاسِ
 رِبْتُو شِي مَا رِبْتِ يَا خِيَارِ أَنَا رِبْتِ بَابَا رَقِيَّةِ
 سَيِّدِ الْأُمَّةِ، يَا شَارِقِ الْأَنْوَارِ رُدُّوَا سَلَامُهُ عَلَيَّا
 خَلَى فِي جَاشِي كِي لَهَيْبِ النَّارِ وَلَا صِبْتِ مَهْرِيَّةِ

وَنُوصِلُ بِبِهَا لِلنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ الْأَمَجْدُ بَابَا رُقِيَّةَ
سَيِّدِ الْأُمَّةِ، شَارِقِ الْأَنْوَارِ رُدُّوا سَلَامَهُ عَلَيَّا

وقد ينشدن مدحات أخرى مثل :

نَفَى فِي حُبِّكَ وَنَعِيشُ مُنَعَّمٍ حَتَّى أَنْالَ كُلَّ مَا أُرِيدُ
أَوْ قِطْعَةً أُخْرَى فِي الْمُتَقَارِبِ :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ	اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُحْسِنًا	أَتَيْتَاكَ بِالْفَقْرِ يَا ذَا الْغِنَى
يَدُومُ الَّذِي مِنْكَ عَوَّدَتْنَا	وَعَوَّدَتْنَا كُلَّ فَضْلِ عَسَى
بِحُبِّكَ إِذْ هُوَ أَقْصَى الْمُنَى	مَسَاكِينُكَ الشُّعْتُ قَدْ وَلِهُوا
وَفِي الْفَقْرِ لَا عُصْبَةَ مِثْلَنَا	فَمَا فِي الْغِنَى أَحَدٌ مِثْلَكُمْ
وَلَيْسَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ لَنَا	رَأَيْتَاكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ بَدَا
فَعَنْ حَمَلِ زَادِي أَنَا فِي غِنَى	إِذَا كُنْتُ فِي الْحَالِ أَنْتَ مَعِي
أُمُوهُ فِي الشُّعْتُ وَالْمُنْحَى	سَرَّتْ أَسْمَاكُمْ غَيْرَةً، هَا أَنَا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي: أَنَا. مَنْ أَنَا؟	فَأَنْتُمْ هُوَ الْحَقُّ لَا غَيْرُكُمْ
صَلَاةٌ تَكُونُ أَمَانًا لَنَا	فَيَارَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى

ويتابعن بعض الأناشيد مثل هذه المدحة في مقام الحمدان على إيقاع 2 من 4 :

حُبِّ كَرِيمٍ	وَأَسْقِنَا يَا رَحْمَانَ
يَبْدُوا بِسْمِ اللَّهِ	وَالسِّرِّ وَالْأَعْلَامِ
نَنْظُمُ فِي حُلَّةٍ	تُجَلِّي عَنَّا الْغَمَامِ
يَا شَارِبِينَ الْكَاسِ	أَرْوِيهَا مِ الْحَمْرَةِ

حتى يصلن إلى :

قَدْ أَشْرَقَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ بِمَوْلِدِ الْهَادِي الْبَشِيرِ

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْإِمَامِ * الْمُضْطَفَى بَدْرِ النَّمَامِ * شَفِيعِنَا يَوْمَ الرَّحَامِ * أَرْسَلَهُ
الرَّبُّ الْقَدِيرُ

بُشْرَى لَنَا نِلْنَا الْمَرَامِ * بَطَّةٌ مُعْتَلَى الْمَقَامِ * شَرَّفَهُ رَبُّ الْأَنْبَاءِ * فَلَمْ
يَكُنْ لَهُ تَطْيِيرُ

يَا ذَا الْجَلَالِ يَا مُجِيبَ * عَبْدُ دَعَاكَ لَا يَخِيبُ * بِحُرْمَةِ النَّبِيِّ الْحَبِيبِ * يَسِّرْ لَنَا
الْأَمْرَ الْعَسِيرُ

أَدْعُوكَ يَا رَبَّ الْأَنْبَاءِ * أَمِتْنَا عَنْ حُسْنِ الْخِتَامِ * وَاسْكِنْنَا فِي دَارِ السَّلَامِ * لِبَاسِنَا
فِيهَا حَرِيرُ

أَجِبْ دُعَائِي يَا أَحَدُ * وَاسْمَعْ نِدَائِي يَا صَمَدُ * يَا دَائِمًا عَلَى الْأَبَدِ * أَنْتَ
الْمُهَيِّمُ الْخَبِيرُ

أَهْدِي التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَ * لِلْمُجْتَبَى خَيْرِ الْأَنْبَاءِ * وَالْآلِ وَالصَّحْبِ الْكِرَامِ * مَا أَمْطَرَ
الْقَطْرُ الْعَزِيزُ

ويضفن عدة أناشيد أخرى ويختمن بـ :

جِيئَانَهُمْ جِيئَانَهُمْ وَدَخَلْنَا جِمَاهُمْ

وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَلِّي جِيئَانَهُمْ وَرُزْنَاهُمْ

ويكون هذا الانتهاء عند منتصف الليل أو منتصف الوقت المحدد للحفلة. فيسترحن، ثم يخرجن فعلا من الطريقة المدنية فيستعملن الدفوف والدربوكة والطار، وينطلقن في الأمداح والاستغاثة بالله عز وجل ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأصحاب الطرق وأولياء الله تعالى والصالحين. فتجد النساء الحاضرات فرصة كي

يفرغن بالرقص على ألحان طرق أخرى إلى جانب الحضرة المدنية، شحناً من الهموم اليومية، ويجدن في هذه الحفلات نوعاً من التحرر من الضغط الذي يرضح تحته من تسلط الزوج والحماة والأهل، وهنّ يجدن في مثل هذه المناسبات متنفساً هنّ على غرار ما ذكرناه في التجانية. ولعلّ هذا ما يفسّر لجوء الفرقة النسائية المدنية إلى السلامة وغيرها من الطرق كي يتمكّن من استعمال الدفوف، نظراً للطابع الهادئ الذي يميّز المدنية عند مقارنتها بالسلامية، ولعلّ مثل هذا الطرب هو الذي يفسّر أيضاً عزوف الرجال عن المدنية لفائدة السلامة في ذلك الوقت.

وهكذا نرى أن الطريقة المدنية بالمنستير قد ساهمت في إدخال المقامات والإيقاعات الشرقية إلى البلاد التونسية من خلال الموشحات والمدحات التي ذكرناها مثل مقام السيكاه والبياتي والرصد، والأوزان الشرقية مثل ما ذكرنا النوخت بنوعيه 7من 8 و7من 4 والسماعي فاخت 10 من 8. وكان هذا من بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري التاسع عشر ميلادي. ويفسّر ذلك باتّصال الشيخ ظافر بإسطنبول وتأثره بذلك ونقله إيّاه إلى مريديه من أصحاب الطريقة المدنية.

وللذكر، فإن هنالك عدّة فرق نسائية بأغلب المدن التونسية تقوم بما تقوم به الفرقة النسائية المدنية بالمنستير عدا الأذكار المدنية، وتسمّى حضاري رغم أنها لا تقوم بالحضرة، فتنشد النساء أذكارا وأمداحا للرسول وأمداحا للأولياء والصالحين على نقرات الدفوف والطار والدربوكة، تجد ذلك في سوسة وفي القيروان وفي المهديّة وفي صفاقس وغيرها من المدن التونسية.

الشريقة العلاوية

نسبة إلى الشيخ أحمد العلاوي المتوفى سنة 1353هـ/1934م

الشيخ المؤسس : أبو العباس أحمد العلاوي بن مصطفى بن محمد بن أحمد القاضي بن محمد المعروف بأبي شنتوف بن الولي الصالح الملقب بمذبوغ الجبهة بن الحاج علي المعروف عند العامة بعلوية بن غانم القادم من الجزائر إلى مستغانم. [ولد الشيخ أحمد العلاوي سنة 1291هـ/1873م بمستغانم القريبة من مدينة وهران].

يقول الشيخ أحمد العلاوي: "أول ما ميل كان قد وقع لي لأهل النسبة على الاجمال تعلقي بأحد الرجال من السادات العيساوية، كنت أراه متعففا يظهر عليه أثر الصلاح... إلى أن اجتمعت بالأستاذ الشيخ سيدي محمد [بن الحبيب] البوزيدي [الشريف المستغامي] رضوان الله عليه، فقال ذات يوم وهو عندنا بذكرنا: إنه بلغني أنك تأخذ الحية ولا تخشى من لسعها، فقلت له: نعم! كذلك كنت. فقال لي: هل يمكنك الآن أن تأتيننا بواحدة فتأخذها بحضورنا؟ فقلت له: متيسر. وذهبت من حينئذ إلى خارج البلد، وبعد مرور نصف يوم لم أجد إلا واحدة صغيرة يقرب طولها نصف ذراع، فجئت بها ثم وضعتها بين يديه، وأخذت أقلب فيها كما هي عادتي، وهو ينظر إلى ذلك رضي الله عنه، ثم قال

1 هو الولي الكامل سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي الغماري الحسني [الشريف المستغامي] تلميذ الشيخ قنور عن شيخه أبي عزّة المهاجي عن [مولاي العربي الدرقاوي الحسيني شيخ الأولياء وهو تلميذ القطب الكبير سيدي علي بن عبد الرحمان الجمل الحسيني، [وتوفي الشيخ البوزيدي في 1327هـ/1909م وخلفه الشيخ أحمد العلاوي] (عن الأنوار الرحمانية في الطريقة الكسنزانية، ص 124)

لي: هل تستطيع أن تأخذ أكبر من هذه الحية مما هو أكبر منها جرماً؟ فقلت له: أنها عندي على السواء، فقال لي: ها أنا أدلك على واحدة أكبر وأشدّ منعها بأساً، فإن أمسقتها وتصرفت فيها فأنت الحكيم. فقلت له: فأين هي؟ فقال: نفسك التي بين جنبيك فإن سمّها أشدّ من سمّ الحية فإن أمسكتها وتصرفت فيها فأنت الحكيم".¹

ولزم الشيخ أحمد الشيخ البوزيدي وأخذ عنه العلم والطريقة الدرقاوية، وصدره في حياته وخلفه بعد مماته، وتخرّج على يد الشيخ أحمد العلاوي الشيخ محمد خلف الله المدني صاحب الطريقة المدنيّة

بقصيبة المديوني. وبالجملة فهو شيخ مدني على الطريقة الدرقاوية. وتوفي في غرة ربيع الثاني 1353 هـ [14 جويلية 1934 م]. [ألف الشيخ العلاوي عدّة كتب من بينها رسالة في الردّ على كتاب ألفه الشيخ عثمان بن المكي التونسي أحد المدرسين بجامع الزيتونة أسماها: "المرآة لإظهار الضلالات". انتقد فيه الطريقة العلاوية. والرسالة العلاوية أسماها: "القول المعروف في الردّ على من أنكر التصوف". طبعت في تونس سنة 1339 هـ والرسالة مذيّلة بتقريظ وتأييد من الشيخ محمد عبد الحكي الكتاني حاول فيها أن يُثبت للتصوّف مرجعاً دينياً في الإسلام.²]. كما للشيخ العلاوي كتاب: "المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية". وكتاب في الفلك وديوان جمع بعض أذكاره وأذكار غيره طبع بتونس بمطبعة الشحمي سنة 1407 هـ/1986 م، تتصدّره قصيدة عمودية على قافية اللام للشيخ العلاوي تضمّ أكثر من مائتي بيت في نقيس الطويل إلا أنها غير موزونة، ونحن نعلم أن هؤلاء تلهيهم غزارة المعاني عن مراعاة المباني كما قال الناشر للديوان، مطلعها: (البحر الطويل)

أَيَا أَيُّهَا الْعُشَّاقُ لِلْمَحْضَرِ الْأَعْلَى عِدُونَا بِوَصْلِكُمْ فَفِينَا لَكُمْ وَصَلَاً

ومن قراءة الديوان يتبيّن أنّ الشيخ وشّاح أكثر منه كاتب للقصيد وهذا ينبع عن الذوق الفني ورقة الطبع من جهة، وعن انتشار نظم الموشحات وما شاكلها من

1 أحمد العلاوي، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطلايق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ص6.

2 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص341.

أزجال وتلميع في الطرق الصوفية، ونذكر هذا الموشح التام على سبيل المثال للشيخ أحمد العلاوي المذكور في الديوان ص(51) بعنوان (الذكر أسباب كل خير) :

طالِعَ مَاذَا فَرَطْتُ فِي الْأَوْقَاتِ الْحَلِيَّةِ ضَاعَتْ الْأَيَّامُ كَيْفَ نُدِيرُ؟
 نَغْنِمُ وَفِي الْيَوْمِ نُذَكِّرُ بِالْيَتَةِ نَحْضُرُ بِالْقَلْبِ وَالضَّمِيرِ
 الدَّكْرُ أَحْسَنَ مِنَ التَّجَارَةِ لَوْ كَانَ نَقُولُ آشَ فِيهِ
 أَفْضَلَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْوَزَارَةِ وَالتَّاسِ مُنْحَرَقَةَ عَلَيْهِ
 وَالدُّنْيَا كُلُّهَا خَسَارَةٌ حَاطَتْ بِالْعَدْلِ وَالسَّفِيهِ
 القفل رَبِّي مِنْ حَرِّهَا يُجِيرُ

نَحْشَى نَفْسِي تُصِيرُ لَهَا مُطِيَّةً نَبْقَى فِي يَدِهَا أُسِيرُ
 بَعْدَ التَّوْفِيقِ وَالْأَوْصَافِ الْمَرْضِيَّةِ أَلدَّكْرِ اسْبَابُ كُلِّ خَيْرِ
 الدَّكْرُ أَحْسَنُ مِنَ التَّجَارَةِ لَوْ كَانَ نَقُولُ آشَ فِيهِ
 يَارَبِّ عَمَّتِ الْمَصَائِبُ وَالدَّكْرِ اثْقَالُ فِي اللُّسُونِ
 وَالحُلُقِ اسْعَاتُ فِي اللَّيِّ غَايِبُ وَالتَّاسِ أَحْوَالُهَا فُنُونُ
 تَعْصَى الْمُطْلُوبُ فِي الْمَطَالِبِ وَالصِّدْقِ قَلِيلُ مَا يُكُونُ
 القفل النَّاسَ قُلُوبُهَا ذُكَيْرُ

مَا يَنْفَعُ وَعَظٌ فِي أَرْبَابِ الْمَعْصِيَةِ عَيِّتَ أَنَا مِنَ التَّنْذِيرِ
 أَيْنَ اقْوَالِي مِنْ اقْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالدَّكْرِ سَبَبُ كُلِّ خَيْرِ

الدَّكْرُ أَحْسَنُ مِنَ التَّجَارَةِ وَالدَّكْرِ سَبَبُ كُلِّ خَيْرِ
 كَيْفَاشِ الْقَوْلِ فِيهِ يُمْكِنُ رَانِي نَبِيَّيْ بِلَا سَاسِ
 وَالتَّاسِ أَحْوَالُهَا يَجْنَنُ تَسْعَى فِي مَقْتِ وَفَلَاسِ

مَعْلُومٌ نَهَارَهَا كُبَيْرُ

القفل

كَمْ سَيِّئَةٌ ظَاهِرَةٌ وَخَفِيَّةٌ وَالتَّاسِ تَعَدِّي نَجِيرُ
لَوْ مَا فَضْلِكَ عَمِّي وَظَهْرِي الذِّكْرِ سَبَبُ كُلِّ خَيْرُ

الدور صَيْرٌ كَلَامِي حَقَائِقُ رَاهُ مَنْقُولٌ فِي كُتُبِ
يُظْهِرُ مَلْمُوسٌ لِخَلَائِقِ يَا خِذْ بِالرُّوحِ وَقَلُوبِ
صَاحِبِ الصِّدْقِ لَهُ شَائِقِ يَا رَبِّ تُسْتُرُ الْعَيْوِبِ

الْعَلَاوِي يُظَنَّ الْخَيْرُ

القفل

ومثله موشح (اصطفاك الباري) وغيره . وله على شكل (القسيم المثقبي) :

يَا مَنْ تُرِيدُ تَدْرِي فَنِّي فَاسْأَلْ عَنِّي الْأَوْهِيَا
أَمَّا الْبَشَرُ لَا يَعْرِفَنِي أَحْوَالِي عَنَّهُ غَيْبِيَا
أُظَلِّبُنِي عِنْدَ التَّدْيِي مِنْ وَرَا الْعُبُودِيَا

ومن طرائف الشيخ العلاوي هذا الذي يشبه الموقف على نافرات القوافي الواو الساكنة :

الْوَاوَا الْوَاوَا * سَافِرُوا الْحَبَابَ مُشَاوَا * رَحَلُوا وَارْقَاوَا * لِلْبِسَاطِ الْمَعْتَاوِي
اِظْوَاوَا اِظْوَاوَا * ذَا الْحُجْبِ اللَّيِّ تَرَاوَا * صَعَدُوا وَعَلَاوَا * جَالٌ بِهِمْ سَمَاوِي
أَنْسَاوَا أَنْسَاوَا * نَاسَهُمُ وَاللِّي خَلَاوَا * أَيُّ شَيْءٍ يَرْضَاوَا * فِي التَّعِيمِ الدُّنْيَاوِي
اِضْوَاوَا اِضْوَاوَا * كَالْتَّجُومِ مَنِينِ اِعْلَاوَا * غَابُوا وَخَفَاوَا * رُحٌ رَاحُوا يَنْشَاوِي
اِفْتَاوَا اِفْتَاوَا * حَارَ عَقْلِي بَاشِ اِبْقَاوَا * ذَهَلُوا وَاهْفَاوَا * فِي الْعَنِي نِعْمَ الْقَاوِي
اِغْلَاوَا اِغْلَاوَا * كَالْتَّبْرِ عَادُوا يَسْوَاوَا * بَعْدَانَ مَاجَاوَا * لِلْخَلَائِقِ يَا رَاوِي

أَدُوُوا أَدُوَا * بِالْعُلُومِ الَّتِي يَسَوَا * مَاذَا دَرَا * لِلصِّدِّيقِ الْجَدَّايِ
 مَاذَا صَقَا * مِنَ الْقُلُوبِ الَّتِي صَدَا * قَدَّاشِ هَدَا * مِنْ مُحَيَّرِ دَهْرَايِ
 أَرَوَا أَرَوَا * كُلُّهُمْ سَكُرُوا وَصَحَا * شَرِبُوا وَسَقَا * مِنَ الرَّحِيقِ النَّبَايِ
 أَنْفَا أَنْفَا * كُلَّ حَاجِزِ بَاشِ أَسْرَا * غَنِمُوا وَسَعَا * كُنْتُ مِنْهُمْ دَرَقَايِ
 عِنْدِي خَلَا * كَأْسِ مِنْهُمْ بَاشِ سَقَا * بَعْدَ أَنْ قَفَا * لِلْمَقَامِ الْأَخْرَايِ
 رَأَا نَيْسَا * فِي الصَّوَابِ الَّتِي نَرَا * عَسَى يَرْضَا * بِالضَّعِيفِ الْعَلَايِ
 رَجَالِ امْضَا * عِزُّنَا حَاشَا يُخَفَا * وَنَحْنُ نَرْجَا * يَوْمَنَا مَاذَا حَايِ

أخبار الطريقة : اهتم المستشرقون وعلماء الغرب بالتصوّف الإسلامي لعدّة أغراض منها العلمي ومنها العسكري واتّجه بعض علماء البلاد السكندنافية إلى الطريق العلاوية وحياة الشيخ أحمد العلاوي وكتبوا كتباً في طريقته منها كتاب "Comprendre l'Islam" (لفهم الإسلام) للكاتب FRITHJOF Schuon فريتجوف شوان الذي حلل فيه الطريقة من حيث جذورها العقائدية وممارساتها التعبدية وتأثيرها في سلوك مريديها.

[انتشرت الطريقة العلاوية في بلاد الجزائر والبلاد التونسية وفي بلاد المغرب، وكان الشيخ محمد عبد الحّي الكتّاني (وهو من مشائخ الطرق) من أنصاره ومؤيّديه. وكانت فرنسا في الأقطار الثلاثة تؤيّدهم جميعاً بكلّ الوسائل. وكانت أكثرية أتباعه في البلاد التونسية بالساحل ومركز نائب الشيخ بقرية القصيبة المديونية ولهم أتباع في ولاية السواسي وغيرها. وهم يعرفون بإطلاق اللّحي، والركوب على العجلات وإظهار النشاط والحزم كالآباء البيض.²]

أصول الطريقة : أصول هذه الطريقة درقاوية وتنتمي بالجملة إلى الطريقة الشاذلية الممتدّة إلى مدينة الشيخ أبي مدين شعيب، فليراجع ذلك في مظانّه. غير أنّ الشيخ أحمد العلاوي ألّف من ذاته أدعية وصلوات وأمداحاً، فمن صلواته ما أجرى الله على لسانه وانتشر لدى الناس وواظب عليه جماعة المدينة: "اللَّهُمَّ يَا مَنْ

1 أحمد العلوي، الديوان، تونس، 1986م/1407هـ، ص 51.
 2 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 341.

جَعَلَتِ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ مِنَ الْقُرْبَاتِ أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِكُلِّ صَلَاةٍ صُلِّيتَ عَلَيْهِ مِنْ
أَوَّلِ النَّشْأَةِ إِلَى مَآلِ نَهَايَةِ الْكَمَالَاتِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

طريقة العمل : يقول السيد ساسي السعيدي¹ من زاوية عناية المدنية أن الزاوية
أسسها الشيخ أحمد العلاوي سنة 1928م، وكان الفقراء يأتون كل يوم جمعة بعد صلاة
الجمعة وصلاة العشاء فيلتقون هناك وتلقى لهم دروس وقصائد ويقومون بالعمارة
(الحضرة). وقد زارها الشيخ أحمد العلاوي في حياته خمس مرّات. وفي حضرتهم
يذكرون فيقولون :

الله الله الله الله الله الله يا مولانا

كما يذكرون اسم الصدر (آه) وقوفا والنور منطفىء والعيون مغمضة وتنشد أثناء
ذلك مدحة :

جَمْعٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ جَمْعٌ فِيهِ الْحِكْمَةُ²

1 في زيارتنا للشيخ منور المدني بقصيبة المديوني عشية يوم الجمعة 14 جوان 2002 التقينا بشخص جزائري هو
السيد ساسي السعيدي المذكور أتي لزيارة الزاوية فأخذنا عنه هذا الحديث .

2 في الديوان الموشح :

بُشْرَاكُمْ خِلَافِي * بِالْقُرْبِ وَالْتِدَانِي * جَمْعَكُمْ فِي أَمَانٍ * مَا دُمْتُمْ فِي حِزْبِ اللَّهِ
بُشْرَاكُمْ يَا سَادِي * بُشْرَاكُمْ أَحِبِّي * بَشْرُوكُمْ بِالْإِسِي * أَنْتُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ
جَمْعَكُمْ عَيْنِ الرَّحْمَةِ * جَمْعَكُمْ فِيهِ الرَّحْمَةُ * وَمَنْ حَبَّكُمْ سَمًا * عَلَيْنَكُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ
الرَّضَى مَعَ الرِّضْوَانِ * وَالرَّحْمَةَ مَعَ الْعُفْرَانِ * أَنْتُمْ حِزْبُ الرَّحْمَانِ * أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ
طَرِيقَكُمْ لَا تَغْشُرُ * مُحِبُّكُمْ لَا يَبُورُ * تَاللَّهِ لَكُمْ ظُهُورُ * فِي جَمِيعِ خَلْقِي اللَّهُ

الطريقة المدنية ﴿العلاوية﴾

أسسها الشيخ محمد المدني خلف الله بقصبة المديوني

الشيخ المؤسس : هو الشيخ محمد المدني بن خليفة بن حسين بن الحاج عمر خلف الله ولد سنة 1307 هـ / 1888 م ببلدة قصبة المديوني من ولاية المنستير، كان أبوه خليفة فلأحاً تاجراً ينتقل إلى تونس ويغشى زاوية المدنية التي كان مقدمها الشيخ الصادق الصحراوي الذي أخذ الطريقة عن الشيخ ظافر المدني. كانت زوجة التاجر حاملاً فنذر وقال: "كان ربي عطاني ولد نسميه على اسم اللي أسس الطريقة محمد (حسن بن حمزة) المدني" وربما كان ذلك بإيعاز من الشيخ الصادق الصحراوي نفسه، وكان الأمر كذلك، فكبر الطفل محمد المدني وحفظ القرآن بالجهة، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بالعاصمة، وصار لأمراً في العربية والفقه والأصول، وكان دائم الاتصال بالشيخ الصادق الصحراوي صحبة والده حتى أصبح صديقاً حميماً لابنه علي الصحراوي. وقدم إلى تونس الشيخ أحمد العلاوي من مدينة مستغانم بالجزائر الذي أسس بها الطريقة العلاوية، فاتصل بصديقه الشيخ الصادق الصحراوي الذي يكنّ له احتراماً كبيراً، كي يدلّه على طالب نابه له دراية بالعربية يوكل إليه قراءة وتصحيح كتابه "المنح القدسية في شرح المرشد المعين بالطريقة الصوفية" استعداداً لطبعه، فوقع اختيار الشيخ الصادق الصحراوي على الشاب الطالب محمد المدني خلف الله للاضطلاع بهذه المهمة، فقدمه للشيخ العلاوي.

ولفت انتباه الطالب محمد المدني اختلاف التفسير الذي قرأه في الكتاب مع الشرح الذي درسه في جامع الزيتونة، وسأل المؤلف الشيخ عن ذلك فأجابه أن الشرح نابع من علم رباني وهو علم موهوب، فسأله أن يعطيه منه فأجابه إن الله هو الذي يعطي فقال له الشاب: "خذ بيدي إلى الله" فسمح له بالصحبة حتى أعطاه الطريق ولقنه إياه.

وسافر الشاب بعد إذن والده، مع شيخه الجديد إلى مستغانم سنة 1906م فتعلّم لديه الطريقة العلاوية، وهي طريقة سنّية شاذلية درقاوية، وتلقّى منه الاسم الأعظم، وتجرّد لتعليم أهل تلمسان اللغة العربية والبلاغة والعلوم الشرعية إلى سنة 1327هـ/1910م حين أذن له شيخه في الرجوع إلى بلاده وأن ينشر الطريقة بين الناس باسمه لا باسم الشيخ العلاوي، وذلك بإجازة كتابية في علم التصفّ، بالإضافة إلى بقية إجازاته في الفقه والحديث والتفسير والبلاغة وإجازة خاصّة في قراءة "دلائل الخيرات" والإذن بإقراءها.

رجع الشيخ محمد المدني خلف الله إلى بلدته قصيبة المديوني وعمل فلاحاً إذ كان على ملك أبيه زياتين بالقصيبة ورأس المرج، وأخذ ينشر الطريقة بالقصيبة فاجتمع له بعض شيوخها، وكانت أولى اجتماعاته في زاوية سيدي المراكشي على طريق لمطة زمن وكيلها السيد صالح بوسّة فكان كل واحد يأتي ببعض الطعام فيتكوّن عشاء، ويقومون هناك بأذكارهم ووظائفهم، غير أن الزاوية كانت بعيدة على رجال مسنين مثلهم فاكثروا دكاناً لاجتماعهم.

في هذه الفترة دخل الشيخ إلى المنستير ناشراً للطريقة، وقد كان على اتصال دائم بها إذ هي مركز الإدارة العمومية، وعمل بها مدرّساً، وتعرّف على أهلها أمثال الحاج محمد محو الكفيف من سكان الربط والشيخ محمد السخيري المفتي والشيخ محمود عباس والسيدة آمنة مزالية وكانوا يكتّون له مودّة وصحبة وتبنوا طريقته، فسكن بالمنستير مع زوجته الأولى فاطمة الجمالي وابنه حسين في سنة 1917م، ولم تلبث زوجته فاطمة الجمالي أن توفيت ولحق بها ولدها، فتوسطوا له في خطبة السيدة هثونة ابنة فرج العتيل أخت الشيخ الشاهد محمد الصالح العتيل، كان أبوها ناسجا شهر بالثقة والعفاف، فتزوجها الشيخ المدني سنة 1918م وأنجب منها ابنه منور وكيل الطريقة حالياً بالزاوية الأصلية بقصيبة المديوني.

وغادر الشيخ التدريس بعد خمس سنوات من 1918 إلى 1923م، بإذن من الشيخ أحمد العلاوي حيث أنه أمره بنشر الطريقة بين الرجال لا أن يعلم الأطفال، فأخذ يجوب الأرياف ماشياً ثم اتخذ أتاناً من عند والده ليسيح بها في الأبعاد، وأخذ يستعمل وسائل النقل المتوفرة حتى تمكن من الحصول على مركبة يجرها حصان (برودشينو)، ووصل إلى السواسي بلد تلميذه الشيخ عبد الله بن بلقاسم وغيرها.

وبعد أن كثر مريدوه، كلف بعضهم ممن رأى فيهم الأهلية بنشر الطريقة في جهاتهم: منهم السادة: الطاهر عبد الواحد في صفاقس، وإسماعيل الهادي وعبد الرحمن النيفر في توزر، والحاج رشيد النيفر والحاج أحمد عثمان ومحمد بن مبارك بتونس الحاضرة، والحاج الحيلاني يعقوب بقباس، وعلي العلواني بالسواسي، والبشير الشراحي من شراحل معتمدية المكنين، وعبد العزيز بوزيد ببوحجر، والحاج محمد الغوثي بخوش بطبلبة، والكيلاني زائدة بمنزل تميم، والحاج حسن زينة ببنان، وابنه منور المدني بقصيبة المديوني، هؤلاء ورثوا هذا التراث الروحي عن شيخهم محمد المدني وأصبح عليهم أن ينشروه ويبلغوه للخاص والعام بالدعوة اللينة والخلق الحسن ومحبة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

قضى الشيخ نصف قرن في التذكير بالله ونشر الطريق وتأليف الكتب والأدعية والرسائل وحتى إصدار بعض الفتاوى إلى أن وافاه الأجل المحتوم بأحد مستشفيات سوسة يوم الخميس الثامن من ذي القعدة 1378هـ [14 ماي 1959م] تغمده الله برحمته وأسكنه فراديس جنانه¹.

أخبار الطريقة : الطريقة العلاوية طريقة مدنية حيث إن سلسلة سندها تحتوي على الشيخ العربي الدرقاوي، وحيث إن العلاوية بمستغانم مدنية درقاوية وكذلك مدنية الشيخ الصحراوي بتونس الذي نشأ عنده الشيخ محمد المدني القصيبي المديوني، تكون هذه الطريقة كما جددها الشيخ محمد المدني القصيبي امتداداً للمدنية الأصلية بل ولها صلات بمدنية الغوث أبي مدين شعيب، فقد نجد في الطريقة الغوثية المتفرعة عن هذه المدنية ببلدة "زاوية سوسة" بعض القصائد المنسوبة إلى الشيخ شعيب نفسه.

1 ترجمة مؤلفة من عدة مصادر منها كتاب (المعرفة الواضحة) من تأليف المترجم له الطبعة الأولى سنة 2002م

وعلى كل فإن هذه الطريقة انتشرت في الساحل التونسي منطلقة من قصيبة المديوني مقر الشيخ محمد المدني وزاويته وببوحجر وسوسة والمنستير وخاصة صفاقس وتونس العاصمة وبلاد الجريد أي الجنوب الغربي وحتى تطاوين، وأتباعها في ازدياد مستمر داخل الجمهورية وخارجها. وهي الآن في أوائل القرن الخامس عشر للهجرة والقرن الواحد والعشرين للميلاد من أبرز الطرق الموجودة في البلاد العربية من حيث التنظيم وتوفير الإمكانيات والترتيب الكامل الدقيق الذي يعتمد على التطوع في إسداء الخدمات المتنوعة كل حسب ما يعرف وما يرى أنه أهل لتقديمه، ويوم المولد النبوي الشريف يأتيها الزوّار من عدّة أقطار عربية وأوربيّة وغيرها ويشاركون في الحضرة التي تقام بالزاوية الأم بقصيبة المديوني.

للطريقة المدنية زوايا خارج الجمهورية مثل زاوية باريس بفرنسا يديرها المقدم الحاج البشير ميرة منذ حياة الشيخ المؤسس محمد المدني، والنجل نجم الدين بن الشيخ منور الذي يواصل تعليمه العالي في اللغة العربية بباريس ينشط بها. كما هنالك الشيخ إسماعيل بباريس وهو تابع لزاوية سوسة، ومحمد علي بزاوية مونبلييه (غير أن الذي يأسف له الشيخ منور أن هاتين الزاويتين تقيمان طقوس الحضرة دون دروس أو وعظ) ويعتبر ذلك تفريفا للطريقة من محتواها العلمي.

أصول الطريقة : هي طريقة المحبة تنفّر الناس من الرذائل وتحببهم في الفضائل، وهي طريقة تشجّع على التبخر في كل المعارف الإنسانية دون استثناء إلا ما كان علما ضارًا بنص الشريعة، وكان الشيخ محمد المدني عندما يلتقي بابن أستاذه العلامة الشيخ الفاضل ابن الشيخ الطاهر بن

عاشور يتبادلان الاحترام والتقدير. وهذه الطريقة تشجّع مرديها على التزوّد بعلم الدنيا والآخرة غير أن الشيخين متكاملان فالشيخ الفاضل شيخ فقه غلب عليه العلم، والشيخ المدني شيخ تصوف وذوق.

وأهم احتفالاتها المولد النبوي الشريف حيث يصل الحاضرون إلى أكثر من الألفي نسمة، وكذلك الأعياد والمواسم الدينية وأفراح الأعيان حيث لا يتعاملون بأجر أبداً. وللطريقة وظيفة من تأليف الشيخ محمد خلف الله المدني وأحزاب وأذكار أغلبها

في "ديوان أنيس المريد في التصوّف والتوحيد" للشيخ المؤسس، ولعل أبرز أصولها الحضرة التي تعتمد بالخصوص على اسم الصدر (آه).

وظيفة الطريقة المدنية (شجرة الأكوان) : إثر صلاة الصبح وصلاة المغرب يقرأ أتباع المدنية سورة الواقعة ثم هذه الوظيفة: "بسم الله الرحمان الرحيم، إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى شَجَرَةِ الْأَكْوَانِ الْمُتَفَرِّعِ مِنْ نوره مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ، بَحْرِ نُورِكَ الْمُتَزَهِّ عَنِ التَّحْدِيدِ الْمُبْرَأِ عَنْ رِبْقَةِ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ، عَيْنِ كُلِّ الْأَعْيَانِ الْمُتَدَقِّقِ مِنْ أَصْلِ الثَّقُطَةِ الْأَرْزَلِيَّةِ، الْمُتَجَلِّي بِمَا هُوَ ظَاهِرٌ لِسَائِرِ النَّبِيَّةِ الَّذِي بَرَزَتْ لِأَعْيَانِ حَقَائِقِهِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، الْفَرْعِ الرَّاهِرِ الرَّاهِي، بَلِ الْأَصْلِ الْبَاهِرِ الْإِلَهِيِّ، فَيُضِ الْأَمَّاكِنِ وَالْأَزْمَانَ، وَيُنْبُوعِ الْمَعَانِي وَالْعِرْقَانَ، فَهُوَ جِنَانٌ وَالْأَنَامُ أَثْمَارُهُ، أَوْ رَوْضٌ وَبُرُوقُ الْخَلْقِ أَنْوَارُهُ، بَلْ هُوَ سَمَاءُ الْوُجُودِ أَضَاءَتْ فِي لَيْلِ الْأَكْوَانِ بُدُورُهُ وَأَقْمَارُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ مَا انْتَشَرَ عَلَى لَوْحِ الْوُجُودِ سِرُّ الْأَلْوَانِ وَانْفَلَقَ مِنْ عَالَمِ الْجَبْرُوتِ لَطَائِفِ الْمَلَكُوتِ وَكَنَائِفِ الْأَعْيَانِ، نَسَأَلُكَ بِبُطُونِ ذَاتِكَ عَنِ الشُّهُودِ، وَظُهُورِ آيَاتِكَ لِلْوُجُودِ أَنْ تَجْعَلَ فِي الصَّلَاةِ قَرَّةَ عَيْنِي، كَيْ يَتَحَقَّقَ جَمْعِي وَيَزُولَ بَيْنِي وَتَثْبُتَ فِي شُهُودِي الْعَيْنَ بَدَلًا عَنْ عَيْنِي، وَنَسَأَلُكَ بِوَحْدَانِيَّتِكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ عَلَى التَّكْرُرِ الْأَوَّلِ وَالظُّهُورِ الثَّانِي، قَبْضَةَ نُورِكَ الْأَرْزَلِيِّ وَسِرِّ سَائِرِ الْأَوَانِي. اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مِرَاةِ الْحَقَائِقِ مِصْبَاحِ نُورِكَ الْمُتَمَدِّضِيَاؤُهُ إِلَى أَجْزَاءِ الْخَلَائِقِ، مَنْ تَجَلَّيْتَ عَلَيْهِ بِلَا فَاصِلِ وَلَا فَارِقِ حَتَّى قُلْتُ: إِنَّ الَّذِينَ يُيَايَعُونَكَ إِنَّمَا يُيَايَعُونَ اللَّهَ، فَاسْئَلِ اللَّهَ عَلَيَّ حُلَّةَ سَنَاءِ وَحِلْيَةَ بَهَاءِ كَيْ يُسْقَى عَدَمِي بِمَاءِ وَجُودِهِ، وَتَنْتَعِشَ رُوحِي بِعَذْبِ مَوْرُودِهِ، فَيَنْطَوِي فِي حُضُورِي عَيْنِي فَأَقُولُ: كَقَوْلِهِ: لِي وَقْتُ لَا يَسْغُنِي فِيهِ إِلَّا رَبِّي، صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ عَدَدَ فَيْضِكَ الرَّحْمَانِيِّ الْمُتَدَقِّقِ مِنْ عَالَمِ الْجَبْرُوتِ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْفَنَائِيِّ، فَقُلْتُ: الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، فَاحْتَفَى عَدَمُ الْخَلْقِ فِي وَجُودِكَ وَانطوى، فَقُلْنَا لَا مَوْجُودَ غَيْرِكَ، وَمَا فِي الشُّهُودِ إِلَّا بَرُّكَ وَخَيْرُكَ، فَاحْجُبِ اللَّهُمَّ بَصَائِرَنَا عَنِ الْعَدَمِ وَكَحْلِ أَبْصَارَنَا بِنُورِ الْقِدَمِ، وَأَوْقِدْ لَنَا نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ شَجَرَةِ: "فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ" حَتَّى لَا نَرُضَى بِصُخْبَةِ غَيْرِكَ وَلَا نَرَاهُ، الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا نُورَ الْوُجُودِ وَعَيْنَ الْوُجُودِ وَمِفْتَاحَ الشُّهُودِ، أَيُّهَا الْمَظْهَرُ الْأَتَمُّ وَالنُّورُ الْأَكْمَلُ الْأَعْمُ، يَا مَنْ أُسْرِيَ بِكَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، حَتَّى كُنْتُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَانطوى لَيْلِ الْبَشَرِيَّةِ فِي نَهَارِ تِلْكَ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ، فَأَوْحَى إِلَيْكَ مَا

أَوْحَى وَانْبَعَثَتْ إِلَيْنَا أَسْعَةُ ذَلِكَ النَّهَارِ، وَأَشْرَقَتْ عَلَى عَدَمِنَا الشُّمُوسُ مِنْكَ وَالْأَقْمَارُ، فَوُجُودُنَا وَجُودُكَ وَشُهُودُنَا شُهُودُكَ، وَتَحْمَدُ اللَّهِ حَمْدًا يَلِيْقُ بِجَمَالِهِ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا يُنَاسِبُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى الْخُلَفَاءِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ الْمَطْهَرَةِ الْمُنِيعَةِ وَعَلَى جَمِيعِ الْأَلِ وَالْأَصْحَابِ الْأَوْلَى غَرَفُوا مِنْ بَحْرِ حَقَائِقِهِ الْوَاسِعَةِ الرَّفِيعَةِ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَعَلَى أَرْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَدُرِّيَّاتِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" (إلى آخر آية الكرسي) رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ - رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ - لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا - اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" سورة الإخلاص (3 مرات) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقِ" (مرة واحدة) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" (مرة واحدة) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (إلى آخرها) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وبعد الدعاء وقراءة الفاتحة تقرأ التصلية الآتية (ثلاث مرات) وهي التي أجزاها الله على لسان العالم الرباني والعارف الرحماني سيدي "أحمد العلاوي" المستغامي: "اللَّهُمَّ يَا مَنْ جَعَلْتَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ مِنَ الْقُرْبَاتِ أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِكُلِّ صَلَاةٍ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ إِلَى مَالَا نِهَايَةَ لِلْكَمَالَاتِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثم اذكر "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" (ثلاث مرات) وتختتم بقولك: "محمد رسول الله".

ورد الطريقة المدنية : صفته أن تقول أولاً: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" (مرة) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (مرة) ثم تتلو قوله تعالى: "وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (مرة) ثم (استغفر الله) (100 مرة) ثم قوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (مرة) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ (100مرة) وعند تمامها تزيد: "وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا" ثم

قوله تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (مرة) "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" (100 مرة) ثم اللَّهُمَّ بِجَاهِ اسْمِكَ اللطيف وَنَبِيِّكَ الشَّريفِ الطُّفِّ بِنَا "يا لَطِيفُ" (100 مرة) وفي ختامها تقول: "اللَّهُمَّ يَا لَطِيفًا بِخَلْقِهِ يَا عَلِيمًا بِخَلْقِهِ، يَا خَبِيرًا بِخَلْقِهِ الطُّفِّ بِنَا يَا لَطِيفُ يَا عَلِيمُ يَا خَبِيرُ" (ثلاث مرات) ثم: "اللَّهُمَّ يَا وَهَّابُ" (100 مرة) وفي ختامها تقول: "هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ" (مرة) ثم تذكر: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ" (100 مرة) ثم تقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" سورة الإخلاص (ثلاث مرات) ثم سورة "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" (مرة) ثم سورة "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" (مرة) ثم سورة الفاتحة "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَرَسُولِكَ الْتِيءِ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ" "سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ". ثم تدعو الله لنفسك ولشيخك ولأهل سلسلة الطريق ولجميع المسلمين¹.

طريقة العمل : ليلة الجمعة هي ليلة الميعاد ثم أصبحت ليلة الأحد منذ الاستقلال لأنها ليلة عطلة، وتزدحم الزاوية بالناس فتكون البداية بـ: القرآن الكريم: فيتلى ثمن حزب من القرآن الكريم، ثم تأتي: الصيغ: (وهي القصائد، وتسمى صيغا على أنها صيغ مختلفة في الصلاة على النبي أو في مداخه)، فتنشد بألحان عذبة بدون آلات لا إيقاعية ولا غيرها، ثم يقف الجالسون للحضرة وقوفا فيمسك أحدهم بيد الآخر في حلقة أو في صف وينطلقون في (الزهير) أي القول بالصدر (أه) حيث يعتبرونه اسما من أسماء الله تعالى، والتمايل (وهم يسمونه الاهتزاز ولعله أقرب).

الحضرة : يسمع المستمع للحضرة (أه، أه) وهي على إيقاع 4 من 4 ومعناها طبق ما يقول الشيخ محمد المنور المدني (الله) كما ذكره السيوطي في كتاب (السراج المنير)، وفي حاشية البيجوري على جوهره التوحيد (حتى الأئين في المرض كما نقل)² وهذا الاسم (أه) المخالف لـ (أخ) اسم فقال إبراهيم المارغني الشارح نقلا عن البيجوري في (بغية

1 محمد المدني، أنيس المريد. وكذلك "وظيفة الطريقة المدنية المسماة شجرة الأكوان" نشرية صغيرة مفردة.

2 البيت جاء في معرض الحديث عن [الملائكة] الحافظة في (جوهرة التوحيد) للقاني :

بِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظُونَ وَكُلُّوا
وَكَاثِبُونَ خَيْرَةٌ لَنْ يُهْمَلُوا
مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا فَتَعَلَّ وَتَوَذَّهَلْ
حَتَّى الْأَيْنِ فِي الْمَرَضِ كَمَا نُقِلْ

(المريد) في الصفحتين 82 و83: "...وينبغي للمريض أن يقول (آه) لأنه ورد أنه من أسمائه تعالى ولا يقول: (أخ) لأنه من أسماء الشيطان..."

الشیطان، هو اسم من أسماء الله تعالى التي تعد بالآلاف وليست التسعة والتسعين إلا الأسماء المذكورة في القرآن الكريم، كما ذكر الشيخ يوسف النبهاني في كتابه (أحسن الوسائل) عددا كبيرا من أسماء الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم.

والحضرة ليست العمارة لأن فيها حضورا مع الله سبحانه وتعالى، والمريد الحاضر هو في غاية الوضوح ولا يغيب عن وعيه أبدا، إلا أن المنشد يتدرج به من مدح المحبوب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم فيهم معه المريد، ويرتقي به إلى حمد الله ومدحه، وتلك قمة القمم ونهاية النهايات، فإذا بلغ المنشد الذروة سكت وترك أهل الحضرة في حضورهم مع ربهم جلّ وعلا حتى إذا تراخى الوقع أخذ في تسريعه بالكف حتى يصل إلى أعلى مستوى يمكن بلوغه، ثم يختم بذكر اسم الجلالة (الله)¹. وهكذا العمل في كل الصيغ (القوائد) التي تأتي في الحضرة فتكون على نفس الإيقاع، وتدرج نحو السرعة حتى تصبح 2 من 4.

ويختم العمل بمذاكرة يقوم بها شيخ الطريقة في الموعظة والحث على مكارم الأخلاق والاتصاف بالفضائل والإبتعاد عن الرذائل، وتختتم المذاكرة بتلاوة فاتحة الكتاب. وتندد الأذكار في أغلبها في طبعي الرصد والبياتي إلا القليل منها في الجهاركاه.

المولد النبوي الشريف: أسس الاحتفال بالمولد سنة 1929م، وكان من أهم منشديه الشيخ علي البراق ثم علي الثري (من الثريات) والإخوة الصادق وإبراهيم وحسن بن سعيد والشيخ محمد طقطق وغيرهم. وكان هذا الاحتفال يدوم ثلاثة أيام اليوم الثاني والثالث والرابع للمولد الشريف من كل عام، وذلك لأن اليوم الأول يوم عيد ومن واجب رب الأسرة أن يلتقي بعياله ويوسع عليهم في النفقة ويؤنسهم بحضوره، وأما دوامها ثلاثة أيام فلتمكن الأبعد من اللحاق بالزاوية لبعث الشقة وبدائية المواصلات، فلما تطورت الوسائل أصبح الاحتفال منذ الاستقلال يوما واحدا هو اليوم الثاني. ويشرح الشيخ منور المدني سبب ذلك بأن أئمة المساجد والقائمين عليها

1 رواية شفوية عن الشيخ منور بن الشيخ محمد المدني صاحب الطريقة بتاريخ 14 جوان 2002.

في أغلب المدن هم من أهل الطريقة وهم يقومون بالاحتفالات الرسمية هناك فإذا فرغوا منها جاؤوا إلى زاويتهم ونشطوا بها.

ويقسّم المدنية وظائفهم على أنفسهم بالتطوّع دون تكليف أو رئاسة، فيعقدون جلسة أو جلسات قبل موعد الاحتفال ويقتسمون المهام التي لا يمكن أن يطلق عليها وظائف حيث إنها تنتهي بانتهاء الحفل لتتجدّد في المرة القادمة، فيكونون لجانا لتنسيق الخدمات المقدّمة للزوار الذين يصلون إلى الألفي شخص أو أكثر فتوزع على هؤلاء المتطوعين شارات تشير إلى مهامهم حتى يستعين بها الزوار في طلباتهم، وهذه اللجان تتعدّد بتعدد الخدمات، فهناك لجنة الماء، ولجنة الطعام، ولجنة الشاي، ولجنة النظافة بالمبضأة وغيرها، ولجنة للأحذية وحفظها حيث أن الداخلين يخلعونها، ولجنة الأضواء، ولجنة الاستقبال، ولجنة لوسائل الإعلام والتسجيل من تلفزة وتساجيل وأبواق، ولجنة العسة (للحراسة)، ولجنة المكتبة، ولجنة التنظيم، واللجنة الطّبية للإسعاف. وتحل الجموع بالزاوية في الموالد بدون دعوات لأن صاحب الحفل هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والكل أضيافه بما فيهم أهل الزاوية أنفسهم، ولعلّ هذا التنظيم هو سرّ النجاح الذي تلقاه هذه الاحتفالات. وبعد انتهاء الحفل بيوم أو يومين يقع تقييم العمل ويهتمّ بالخصوص بإبراز السلبيات لتلافيها في المستقبل، وهذا سرّ آخر في النجاح.

وينطلق العمل في اليوم الثاني للمولد أي يوم الاحتفال منذ الصباح على الساعة الثامنة مثلا فيختم القرآن الكريم إلى العاشرة ثم تنطلق مسابقات دينية تشمل أسئلة عامّة حول الدين والتصوف والطريقة، وربما مسابقة في ترجمات بعض فقراء الطريقة المشهورين، وعند الزوال يقدّم طعام الغداء وتقام صلاة الظهر. ثم انطلاقا من صلاة العصر إلى المغرب تقدّم عدّة حضرات وأذكار، فإذا صلّيت المغرب قدّم طعام العشاء بطريقة ذكية بحيث لا تمر نصف ساعة حتى يكون الجميع قد انتهوا. ثم تقام صلاة العشاء، وتبدأ السهرة التي تصل إلى الثلاث ساعات يقع فيها الذكر والحضرة ويتخلل ذلك خطبة المولد.

ومن أشهر قصائدهم المسموعة من تأليف الشيخ المؤسس أو شيخه أحمد العلاوي
فمما ألف الشيخ محمد المدني مدحة :

صَلُّوا عَلَى بَدْرِ التَّمَامِ * شَمْسِ الْمَعَالِي * أَيُّهَا الْكِرَامُ
 شَفِيعُنَا يَوْمَ الرَّحَامِ * عِنْدَ الْأَهْوَالِ * كَاشِفُ الْعَمَامِ
 مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْأَنَامِ * مَوْلَى الْمَوَالِي * عَلَيْهِ السَّلَامُ

وكذلك :

اللَّهُ اللَّهُ يَكْفِينِي وَفَضَّلَ اللَّهُ يُغْنِينِي
 وَتَوَرُّ اللَّهُ يَغْشَانِي وَلَطْفُ اللَّهِ يَقِينِي
 وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَانِي وَحِفْظُ اللَّهِ يَحْمِينِي
 وَمَنْ يَحْفَظُهُ الْإِلَهُ يَكُنْ فِي حِصْنِ حَصِينِ
 فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِيزٍ فَاحْفَظْ لِي يَا رَبِّي دِينِي
 وَظَنِّي فِيكَ جَمِيلٌ وَحُسْنُ الظَّنِّ يَكْفِينِي
 وَحُبُّ اللَّهِ مُرَادِي وَحُبُّ أَهْلِ الْيَقِينِ
 وَعِنْدِي كَنْزٌ عَظِيمٌ شَفِيعِي فِي يَوْمِ الدِّينِ
 بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ شَفِيعُ الخَلْقِ يُنْجِينِي
 وَرَبِّي دَوْمًا غَفُورٌ فَإِنْ عَمِيتْ يَهْدِينِي
 إِذَا أَذْنَبْتُ وَتَبْتُ بِالْحُبِّ رَبِّي يُرْضِينِي
 وَمَنْ يُعْلِيهِ مَوْلَاهُ يَعْطِيهِ خَيْرَ الدَّارَيْنِ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ دَوْمًا عَلَى نَعِيمِ الدَّارَيْنِ

أو :

هَيَّا يَا خَمَّارَهَا وَاسْقِنَا كَاسَ الْحَمِيَّا
 وَاسْقِنَا كَاسًا مُصَفًى مِنْ مُخْمِرَةِ أَرْلِيَّةِ

وَاسْقِنَا مَرْجًا وَصِرْفًا وَانظُرْ بِقَلْبِكَ إِلَيَّ
فَعَطَفًا بِاللَّهِ عَظْفًا سَيِّدِي فَاعْظِفْ عَلَيَّ

أو:

يَا مُحَمَّدُ يَا نَبِيْنَا يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِيْنَا
كُنْ شَفِيعِي يَا إِمَامِي يَا شَفِيعَ الْمُذْنِبِيْنَا

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بِحِمَاكَ الْعَالِي لُدْنَا
تَرْجُو مِنكَ لَمَّا جِئْنَا عَظْفَةً لِلْمُؤْمِنِيْنَ

فَاعْظِفْنَ يَوْمَ الْقِيَامِ وَاشْفَعْ فِي أَهْلِ الْأَثَامِ
قَدْ بُعِثْتُ يَا إِمَامِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ

أو هذا المسدس (الأليف) وهو معارضة لمسدس آخر بنفس المكب :

أَهْلُ اللَّهِ رَاهُمْ حَارُوا يَا سَامِعَ قَوْلِي إِضْعَاةً
يَلْعُغُوا مِنْهُمْ لَمَّا جَارُوا وَقَنُوا عَمَّا سِوَاهُ
شَغُلُوا عُمْرَهُمْ حَتَّى فَازُوا بِإِلَهِهِ إِلَّا اللَّهُ

بِهَا وَضُلُوا لِلْمَطْلُوبِ كَثُرُهُمْ ذَلِكَ الْمَرْغُوبِ
شَاهَدُوا نُورَ الْمَحْبُوبِ تَجَلَّى لِمَنْ يَرَاهُ
حُدَّهَا صِقَالِ الْقُلُوبِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

ويستمر هكذا في تسديسات تنتهي بـ(لا إله إلا الله) إلى نهاية الحروف الهجائية

ويختتم بـ:

يا إلهي حَقَّقْ ظَنِّي وَفِي حِصْنِكَ أَدْخِلْنِي
 ظَنِّي فِيكَ تَعَفُّو عَنِّي فِي يَوْمٍ نَخَشَى قَضَاءَهُ
 عَبْدُكَ الْمَدَانِي فَئِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

ويبرمج الإنشاد في المولد مسبقاً حسب التدرّج في الترتيب على القياس المعنوي فلا يرجع مثلاً من ذكر الله إلى مدح الأولياء والصالحين. أما في هذه السنوات فقد أضيف لهذه الدرجة ترتيب موسيقي عن طريق السيد مراد شبشوب من أتباع الطريقة بصفاقس وهو أستاذ موسيقي ومن أبرز المنشدين الآن، إلا أن الألبان تبقى دائماً ليست هي الأولى بالأساس في الطريقة المدنية فالمهم لديهم الكلمات ومعانيها الروحية السامية.

فرع المدنية: الصريقة الغوثية

نسبة إلى الشيخ محمد بنحوش الغوثي الصلبي

الشيخ المؤسس : هو الشيخ الحاج محمد بنحوش الغوثي، أصله من الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى، قدمت عائلته من هناك واستقرت بطبلبة حيث مقام الصالحين سيدي عياش وسيدي علي شبيل. ولد الشيخ محمد بنحوش سنة 1905 م، وحفظ القرآن الكريم بمقام سيدي عياش، وعند البلوغ فتح دكاكين لنسج الملابس الصوفية، وكان يبيعها في المدن المجاورة ويسافر بها إلى صفاقس، فأحبّه أهلها حتى اشترى بها منزلا. وتزوج الشيخ بنحوش من امرأتين ولدتا له البنين والبنات. وفي سنة 1946م اتّصل بالشيخ محمد المدني القصيبي المديوني ولازمه وأخذ عنه العهد وتوطدت العلاقة بينهما حتى خطب الشيخ محمد المدني ابنة الشيخ الغوثي لابنه منور. وعندما توفّي الشيخ المدني سنة 1959م واصل الغوثي عمل أستاذه فجمع الفقراء وواصل بهم مجالس الذكر في الزاوية المدنية وفي غيرها من المدن والقرى وخاصة مدينة تونس وبلدة زاوية سوسة مقر إقامة مريده الهادي بوكمشة الذي لازمه ونهل من معينه، وامتدحه بعدة قصائد، وتوفي الشيخ بنحوش في 20 أوت 1979م إثر مرض ألمّ به رحمة الله عليه.

الشيخ الوريث : لئن كانت الطريقة تنسب إلى الشيخ محمد الغوثي بنحوش الذي قام

بأعمال جليلة كما ذكرنا، فإنّ مرّوجها ومحبيها وباعث أمجادها هو تلميذ الشيخ بخّوش البارّ ووارث سرّه الشيخ الهادي بن علي بوكمشة الذي ولد بزاوية سوسة في 17 مارس 1935م، ودرس بالفرع الزيتوني بسوسة فتحصّل على شهادة الأهلية في جوان 1955م، ثمّ انتقل إلى العاصمة للكرع من الحياض الفياضة بجامع الزيتونة المعمور سنة 1956م وتحصّل منه على شهادة التحصيل في نهاية السنة الدراسية: 58 - 1959م. إثرها باشر التدريس بالمنستير في أكتوبر 1959م، ثمّ بالكاف سنة 1960م، فبلدة البرجين من ولاية سوسة سنة 1964، وأخيرا بمسقط رأسه بلدة زاوية سوسة سنة 1968. وتلقى الطريقة المدنية حسب تصريجه عن الشيخ محمد بخّوش الطلبي سنة 1969 عندما التقى به ولازمه وكان أقرب المريدين إليه والقائم على خدمته، وفتح هذا التعرّف قريجة الشيخ الهادي وهام قلبه في بحار الوجد فتتالت القصائد حاملة معاني الصوفية ومدائح الحضرة العلية والحضرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وكأنما أحسّ الشيخ الهادي بالمسؤولية قد أُلقيت على كاهله عندما رأى مرض شيخه العضال، وكان لزاما عليه أخذ المشعل ومواصلة الطريق، فتقدّم بطلب التقاعد المبكّر وتحصّل عليه سنة 1979م، وما لبث شيخه أن توفّي إلى رحمة الله تعالى يوم ليلة القدر السابع والعشرين من رمضان سنة 1399هـ، الموافق للعشرين من أوت 1979م، فألقيت المسؤولية بأثقائها على كاهل الشيخ الهادي، فلقّب نفسه بالغوثي انتسابا إلى أستاذه وطريقته، وقام ينقلها بدوره إلى بعض أتباعه الذين واصلوا العمل بها ببلدته التي بنى بها زاويته بإشارة من شيخه، وتوفي ودفن بها في السابع عشر من فيفري 1990م الموافق للعشرين من رجب الأصب 1410هـ، تغمّده الله برحمته، وترك سبعة مؤلّفات: (1) ديوان حادي العشّاق وملهب الأشواق إلى الحضرة التبوّية وحضرة الملك الخلاق (2) كتاب الرسالة السعدية في التعريف بالطريقة الغوثية (3) كتاب الدليل لسالك السبيل (4) كتاب القول المعترى للردّ على الاعتذار بالقضاء والقدر (5) كتاب روضة الأحباب ومنتعة الألباب في تفسير السبع المثاني وأمّ الكتاب (6) كتاب الحقائق لما للطريق الصوفي من دقائق (7) كتاب رسالة المحبّة.

وأقام أتباعه على ضريحه بناء يقوم بأمره ابنه السيد فؤاد بوكمشة مع ثلّة من الإخوان أبناء الشيخ الروحيين يحيون طريقته ويواصلون مسيرته.

روى عن الشيخ الهادي أنه كان شديد الحبّ لأتباعه ينصح لهم أكثر من نصيحة الأمّ لولدها، ويجذب عليهم مثلما يجذب الأب على أبنائه من صلبه، بل أكثر من ذلك لأنهم أحبوه ووضعوا ثقتهم فيه وهو يتحمّل وزرهم إن غشّهم أو أشار عليهم بما لا أصل له في الشرع، وكان يشمل بعطفه أصحاب الحاجات، ويعين من تنزل بهم العاهات، وتلك أخلاق الشيوخ المتصوّفة رحمهم الله.

أخبار الطريقة: ليست الطريقة الغوثية المعروفة بزواوية سوسة إلا الطريقة المدنية التي هي نفسها الطريقة العلاوية التي تنسب إلى الطريقة الدرقاوية حيث إنّ الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي المولود سنة 1114 هـ يمثل حلقة من سلسلة السند التي تعتمد عليها الطريقة المدنية، وقد أسندت للشيخ محمد الغوثي بخوش الطلبي لأنه هو الذي نقلها للشيخ الهادي بن علي بوكمشة الذي لقب نفسه بالغوثي اعترازا بالانتساب إلى شيخه الطلبي. ويروى أنّ الشيخ الهادي المذكور تعرّف على الشيخ بخوش عن طريق أخيه عبد الحميد بوكمشة القاضي بناحية المكنين آنذاك فعرّف أخاه بالطريقة في القصيبة كبقية الناس، لكن الشيخ الهادي يصرّح في كتابه "كتاب الدليل لسالك السبيل" أنه تلقى الطريقة عن شيخه الحاج محمد بخوش المدني الغوثي الطلبي الذي أخذ عن شيخه الحاج محمد بن خليفة بن الحاج عمر خلف الله المدني الذي توفي قبل أن يتعرّف الشيخ الهادي على الطريق.

يقول الشيخ الهادي بوكمشة¹ إن شيخه الحاج محمد بخوش الطلبي ظلّ اثنتي عشرة سنة بعد وفاة شيخه محمد المدني، دون أن يكون له مرید واحد ودون أن يصرّح أو يلمّح بأنه شيخ حتى أدرك بعضهم مقامه سنة 1970م، لكنه رغم ذلك بقي إلى سنة 1975م يوجّه الفقراء إلى الزاوية المدنية الأمّ حتّى اشتدّ عليه الإلحاح فنهض بأمانة الإرشاد دون أن يخرج عن طريقة أستاذه.

ولمّا تولى الشيخ الهادي بوكمشة أمور الزاوية الغوثية بزواوية سوسة بعهد من أستاذه، أنشأ مریدين جدداً بالمكان. ويظهر أن الطريقة فترت في وقت ما بعد وفاة الشيخ الهادي، ووقع إحيائها بتقدمة السيدة (آمال بن رمضان) وهي امرأة رأت أن تنبذ زخرف الدنيا

1 الهادي بوكمشة: كتاب الدليل لسالك السبيل. بلا ذكر طبع ولا تاريخ.

رغم الإمكانيات المتوفرة لديها من علم ومنصب، وتنذر نفسها لإحياء طريقة شيخها الهادي بوكمشة الذي هي إحدى مريداته، وكان لها ذلك فالتفت حولها رجال ونساء من بينهم زوجها (السيد محمد الطيب بن ميلاد)،

وبعثت الحياة في الطريقة، وأصبحت الزاوية نشيطة انتشرت بركاتها في الآفاق وبلغت فرنسا، والمريدون الآن بباريس ومونبلييه ينشطون نشاطا عاديًا حيث أقيمت لهم هناك زاويتان، ودخل الطريقة عدد من الفرنسيين التقينا ببعضهم في بعض السهرات.

أصول الطريقة : الطريقة الغوثية، إذن، ليست إلا فرعًا من الطريقة المدنية مباشرة من مدينة الشيخ محمد خلف الله المدني القصيبي المديوني، تأسست على يد الشيخ الهادي بوكمشة الغوثي بالعهد من أستاذه الشيخ بخوش الطبلي الذي كان تلميذًا من أبر تلاميذ الشيخ المدني. إذن فأصول الطريقة مدنية تمتد جذورها ككل المدينيات إلى طريقة الشيخ الصوفي الشهير شعيب أبي مدين الأندلسي على الطريقة الدراوية العلوية. وتستعمل نفس القواعد سواء، كالبسملة في الصلاة، وتعقيبها بالتهليل، وتلاوة الوظيفة "شجرة الأكوان" إثر صلاة الصبح وصلاة المغرب، وإنشاد الأناشيد التي تستعملها الطريقة الأم بالإضافة إلى قصائد الشيخ الهادي بوكمشة، وكذلك الحضرة واسم الصدر دون تدخل أي آلة كانت.

طريقة العمل : لهم ميعادان في الأسبوع يوم الخميس ويوم السبت ومن عملهم قراءة (وظيفة الشيخ محمد المدني خلف الله "شجرة الأكوان") إثر صلاة الصبح وإثر صلاة المغرب، وينشدون إحدى قصائدهم الكثيرة المنسوب بعضها إلى الشيخ الغوث أبي مدين، وبعضها إلى الشيخ أحمد العلوي، وبعضها إلى الشيخ محمد المداني، وقد أضاف الشيخ الهادي كثيرا من القصائد التي تظهر موازينها العروضية ولغتها الفصيحة ناضجة تركيبا وترنيمًا: كما في قصيد ليلة المعراج للشيخ الهادي بوكمشة [من بحر الرمل]:

لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ قَدْ وَارَاكَ سِرٌّ مِنْ مَعِينِ السَّرِّ.. مِنْ أَسْرَارِ غَيْبِ
شَعَّ نُورُ الْحَقِّ مِنْ لَيْلِ الْمَعَانِي فِي وَثِيقِ الْوُضَلِ فِي أَقْرَبِ قُرْبِ
وَاحْتَوَى مَعْنَاهُ قَلْبُ الْهَادِي ظَهَّ فِي تَجَلُّ مُتْرِعِ قَلْبِ الْمُجِيبِ

عِنْدَهَا يَا سَادَتِي قَالَ الْأَمِينُ
لَمْ يَسْعِنِي أَيُّ شَيْءٍ غَيْرُ رَيِّ
خَاصٍ بِحَجْرِ السَّرِّ فَاسْتَقْصَى حَسَاهُ
وَأَنْصَوَى فِي لُجَّةٍ مِنْ غَيْرِ حُجْبٍ
أَوْ قَوْلِهِ [من البحر البسيط]:

بُحٌّ بِالْغَرَامِ فَمَا عَلَيكَ مِنْ حَرَجٍ
لَأَمِنَ عَشِيقِي عَلَى كَتْمِ الْهَوَى صَبْرًا
فَالْعَيْنُ فَضَّاحَةٌ بِاللَّمْعِ تَسْكُبُهُ
وَالْوَجْدُ نَيْرَانُهُ قَدْ حَرَّقَتْ كَيْدِي
وَالْوَجْدُ نَيْرَانُهُ قَدْ حَرَّقَتْ كَيْدِي
أَوْ قَوْلِهِ [من البحر الطويل]:

بِنَارِ الْهَوَى قَلْبِي وَرَبِّكَ عَالِقُ
وَلَمْ يَسَلْ إِظْلَاقًا لِأَنَّهُ عَاشِقُ
فَمُدُّ لَدَعْتَنِي صِرْتُ أَصْلَى لَهَيْبِهَا
عَلَى رَغْبَةٍ مِنِّي تَرَوْنِي (ي) أَحْرَقُ
وَأَهْلُ الْهَوَى نَارُ الصَّبَابَةِ شُغْلُهُمْ
وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَ الْحُبِّ قَدَّمَ مَهْرَهُ
وَمِنْ أَجْلِهِ أَبْقَى مُعْتَى مُعَدَّبًا
فَمِنْ أَجْلِهِ الرُّوحُ الرَّفِيعَةُ تُنْفَقُ
وَمِنْ أَجْلِهِ كُلُّ دِمَائِي تُهْرَقُ
وَمِنْ أَجْلِهِ لَدَاتُ عَيْشِي هَجَرْتُهَا
وَمَا عَزَّ مِنْهَا فَهَوَ عِنْدِي طَالِقُ

وللغوثة أربعة احتفالات رسمية في السنة وهي: المولد النبوي الشريف ويقع ليلة المولد، ثم لهم احتفال خاص بذكرى الإسراء والمعراج فهم يبدؤون الاحتفال بهذه المناسبة من اليوم العشرين من رجب ذكرى وفاة الشيخ الهادي بوكمشة ويتواصل احتفالهم إلى ليلة السابع والعشرين ليلة الإسراء والمعراج، ثم الاحتفال بليلة القدر في 27 رمضان ويوم عرفة التاسع من ذي الحجة.

ولهم نظام في طريقة العمل في كلِّ المواسم والأعياد، فيبدؤون بعد المغرب بالطعام ولهم فيه إعداد عجيب واجتهاد واضح وعناية بالغة، تدلُّ على حبهم لإكرام ضيوفهم، وعنايتهم بمريديهم وقد صرَّح لنا بعضهم أنَّ من أحبَّ القربان إلى الله عزَّ وجلَّ

لديهم إطعام الطعام. وهو ما يوافق ما كان يحرّض عليه حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والقيام بالليل والناس نيام". فإن انتهوا من هذه الولائم الفاخرة الداعية للشكر والحمد للمنعم، اجتمعوا لصلاة العشاء التي يكون من أهمّ معقباتها التهليل، ثمّ يأخذون مجالسهم، وينطلقون في إنشاد قصائد من تأليف الشيخ الهادي بوكمشة غالباً، ويتخلل هذه الأناشيد إمّا قصائد في شكل العروبي أو الموالي، وإمّا تلاوة جانب من القرآن الكريم، فإذا بلغوا فيها شوطاً يظهر بانتشاء الحاضرين المنشدين، وعلامته تسارع الإيقاع، بدؤوا في ذكر اسم الصدر (آه) والاهتزاز حتّى يبلغ ذلك أوجه الذي يظهر في عنف الاهتزاز وسرعة الإيقاع حتّى يصل بهم الأمر إلى القفز فتفارق أرجلهم الأرض، فإن بلغوا ذلك المستوى توقفوا للراحة وبعد إعادة الكرة مرّات، وفي نهاية السهرة يقدم الشيخ مذاكرة، ويرتاحون فترة يتناولون فيها بعض المرطبات، ثمّ يذهب البعض في حال سبيله، ويواصل الباقيون الإنشاد إلى الصبح، فيصلّون الفجر، ويرجعون إلى منازلهم، وعند الضحى يأتي بعضهم لإقامة عمارة ثلاثة. هذا ما صرّح لنا به السيد فؤاد بوكمشة في زيارة للزاوية يوم الجمعة السادس والعشرين من رجب الأصب 1423هـ بمناسبة ليلة الإسراء والمعراج الموافق للربيع من أكتوبر 2002م. وعند انتهاء الفترة الأولى سمعنا أصواتاً تنشد مثلما كنّا نسمعه ونراه، فقليل لنا إنّها الحضرة النسائية في محلّ آخر من الزاوية يقوم فيها النساء بالعمارة كما قام بذلك الرجال بالضبط بنفس الطريقة.

فرع المكنية: الطريقة الهادفية

هو نسبة إلى الشيخ إسماعيل الهادفي التوزري المكناني
والعديد من أتباعها والذين يعرفونها يسمونها ﴿الإسماعيلية﴾

الشيخ المؤسس : هو الشيخ إسماعيل الهادفي من مدينة توزر من قبيل الهوادف، ولد سنة 1916م، وحفظ القرآن الكريم بالفرع الزيتوني بتوزر لدى أخيه أحمد الهادفي التوزري، ثم انتقل إلى تونس لإتمام دراسته الثانوية بجامع الزيتونة. ولما استقرّ به المقام بإحدى المدارس تعرّف على أحد تلاميذ الشيخ محمد خلف الله المداني صاحب الطريقة المدنية فاتصل عن طريقه بالشيخ وأخذ عنه الطريقة والعهد. كان الشيخ إسماعيل مدرّسا بالفرع الحفصي لجامع الزيتونة يُقرئ بالسنة الثانية حوالي 1947-1946، ويقال إنه كان يقرأ القرآن الكريم بالروايات السبع. وقام ببناء زاويته قبل الوفاة وتركها كاملة، وكان قد بناها مسجدا جامعا بترخيص بلدي. وتوفي سنة 1994م بعد أن ذاع صيته وترك الآلاف من المريدين في كامل أنحاء الجمهورية، وأغدق عليه أتباعه لقب قطب الأقطاب. وله من الذرية ابن أسماه "منور". وخلفه في مشيخة الطريقة الشيخ الفتحي السلامي ومقره بمدينة القيروان.

أخبار الطريقة : انتشرت الطريقة الهادفية في كامل أنحاء الجمهورية التونسية في حياة الشيخ، وعلى ما يذكره لنا الحفيظ بسوسة الحاج عبد الحميد الصويد (اتصلنا به في حدود سنة 2003)، اجتازت الطريقة الحدود إلى مكة والمدينة المنورة وحتى إلى فرنسا وإيطاليا.

أصول الطريقة : الطريقة هي المدنية العلوية، وهم يقومون بنفس الطقوس، إلا أن للهادفية وزدا خاصة يسمونه الورد العام للطريقة الهادفية، ووظيفة من تأليف الشيخ إسماعيل الهادفي بعنوان "مرآة الذاكرين في مناجاة رب العالمين":

الوظيفة : "مرآة الذاكرين في مناجاة رب العالمين": بسم الله الرحمن الرحيم: إلهي
 قَدْ غَمَرْتَنِي أَمْوَاجُ بَحْرِ كَرَمِكَ الرَّاحِرِ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى فَأَحْرَسُنِي فِيهَا حَتَّى لَا أَطْعَمِي بِهَا،
 وَتَبَّتْهَا لَدَيْ بَتَوْفِيقِي لِشُكْرِكَ عَلَيْهَا، فَأَرَاهَا مِنْكَ وَالْيَكِّ، وَأَكُونُ فِيهَا دَاعِيًا بِكَ إِلَيْكَ، إِذْ
 رَحْمَتُكَ جَاءَتْ بِي إِلَيْكَ وَفَضْلُكَ دَلَّنِي عَلَيْكَ، وَالْكَرِيمُ إِذَا أَعْطَى أَجَزَلَ الْعَطَاءِ وَرَفَعَ
 عَنِ عَظِيمِ آيَاتِ جُودِهِ الْعَطَاءَ، وَكَيْفَ لَا وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ. إلهي، مَاذَا عَسَانِي أَسْأَلُ
 وَبِكَ نَطَقَ لِسَانِي، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ أَرْغَبُ وَبِيَدِكَ نَاصِيَةُ جَنَانِي فَأَطْلِقِ اللَّهُمَّ لِسَانِي بِالْقَوْلِ
 السَّيِّدِ وَاهْدِ جَنَانِي لِمَا يَتَكَفَّلُ لَهُ فِي نِعْمَةِ شُهُودِكَ وَالْأُنْسِ بِكَ بِالْمَرْيَدِ، رَبِّ اشْرَحْ
 لِي صَدْرِي، وَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْهَمُهَا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا
 يُسَاعِدُنِي عَلَيْكَ وَيُؤَدِّبُنِي بَيْنَ يَدَيْكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. إلهي أَنْتَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي تَنَزَّهَ
 عَنِ الشَّرِيكِ وَالْتَدَّ تَعَرَّفْتَ بِنَفْسِكَ لِتَفْسِكَ وَمَتَّعْتَ مَنْ قَرَّبْتَ بِلَدَّةِ أُنْسِكَ، وَأَشْهَدْتُ
 مَنْ أَحْبَبْتَ أَحَدِيَّةَ قَدْسِكَ فَأَعْرِفْنِي يَا بَاطِنُ فِي بُطُونِ بَحَارِ أَحَدِيَّةِ ذَاتِكَ، وَاسْقِنِي مِنْ
 حِيَاضِ مَعَالِمِ عَوَالِمِ بَحْرِ نُورِكَ الْأَعْظَمِ وَكَزْبِ سِرِّكَ الْمُطْلَسَمِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِلسَّوَى عَلَى
 قَلْبِي سَبِيلٌ، وَاسْقِنِي مِنْ مَخْتُومِ رَحِيقِ خَمْرِ شُهُودِكَ سَلْسِيلًا، وَأَخْرِجْنِي يَا ظَاهِرُ بِكَ
 لِعَوَالِمِ الْمَظَاهِرِ الَّتِي حَجَبْتَ عَنْهَا مَنْ قَامَ فِيهَا بِنَفْسِهِ، وَأَوْضَحْتَ مَعَالِمَهَا لِمَنْ كَانَ أَكْبَرَ
 هَمِّهِ مَعْرِفَةَ نَفْسِهِ وَالتَّمَتُّعِ بِلَدَّةِ أُنْسِهِ، وَحَقَّقْنِي يَا حَقُّ بِحَقِيقَةِ أَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ حَتَّى
 أَكُونَ لَابِسًا خِلْعَةَ الْخُضُورِ مَعَكَ فِي سَائِرِ تَجَلِّيَاتِكَ، رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي
 مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا. إلهي، إِنَّ كَمَالَ الْعَارِفِ بَدَايَةُ الْكَمَالِ،
 وَالْوُضُوءُ إِلَى نَهَايَةِ نَوَالِكُمْ لَا تُنَالُ وَأَنَا أَعْجَزُ مِنْ أَنْ أَعْرِفَ مَا فِيهِ نَفْعِي وَضُرِّي مِنْ
 مَطَاعِمِ وَمَوَائِدِ الْإِنْعَامِ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ
 فَأَوْهِنِي يَا وَهَّابُ أَعْظَمَ حُلَّةٍ كَسَوْتَهَا لِأَهْلِ النَّسْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ
 بَحْرِ نَوَالِكَ الْأَعْظَمِ، وَكُنِ اللَّهُمَّ سَمْعِي وَبَصْرِي وَيَدِي وَرَجْلِي ثَلْبِي قَوْلِي وَنُجِيبُ سُؤْلِي إِنَّكَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. إلهي إِنَّ بَدَايَةَ الْخِذْلَانِ الْغَفْلَةُ، وَمَعْصِيَتُكَ هِيَ بَدْرَةُ الْعَلَّةِ فَأَعِدْنِي
 مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُنِي عَنْكَ وَيُبْعِدُنِي مِنْكَ، وَسَيِّرْنِي فِي مِنْهَاجِ شَرِيعَتِكَ الْأَقْوَمِ وَالْبَسْنِي

أَعْظَمَ حُلَّةٍ مِنْ نُورِكَ الْأَعَزَّ الْأَعْظَمَ وَمَكَّنِّي فِي تَلْوِينِ تَجَلِّيَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ حَتَّى لَا تَقَعَ عَيْنِي إِلَّا عَنْ ذَاتِ الذَّاتِ وَعَيْنِي فِيهَا بِكَ عَنْهَا، وَتَوَلَّنِي بِالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ وَالتَّأْيِيدِ وَالتَّمْكِينِ وَأَنْتَ تَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِلَهِي أَنْتَ الْأَخِذُ بِنَوَاصِي الْقُلُوبِ إِلَيْكَ أَمْرُهَا وَبِيَدِكَ أَرْزَمْتُهَا فَأَوْفِرْ حَظَّ قَلْبِي مِنْ مَحَبَّتِكَ الْخَالِصَةِ مِنْ شَوَائِبِ الْعِلَلِ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ أُنْسٌ إِلَّا بِكَ وَلَا رَاحَةٌ إِلَّا فِي تَجَلِّيِكَ عَلَيْهِ وَتَعَرَّفَكَ إِلَيْهِ، وَاجْعَلِ اللَّهُمَّ سُكْنَاهُ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّ الْأُنْسِ بِكَ وَالتَّمَتُّعِ بِلَدَّةِ شُهُودِ سَنَّاكَ، وَاسْقِهِ مِنْ مَنَاهِلِ مَعَالِمِ الْمَعَارِفِ اللَّدْنِيَّةِ الْعَذْبَةِ عَلَلًا حَتَّى يَكُونَ مَنبَعًا فَيَاصُ بِكُلِّ ضُرُوبِ الْحِكْمَةِ وَصُنُوفِ الْعِلْمِ يَا عَزِيزُ يَا وَهَّابُ. إِلَهِي كَمْ عَصَيْتُ وَسَتَرْتُ وَكَمْ أَدْبَبْتُ فَغَفَرْتَ، عَظَّمْتَ بِرِدَاءِ سِتْرِكَ عُيُوبِي وَمَحَوْتَ بِيَدِ عَفْوِ رَحْمَانَيْتِكَ ذُنُوبِي وَكَشَفْتَ بِعَظِيمِ لُطْفِ إِنْعَامِكَ خُطُوبِي فَنِعْمَ الرَّبُّ أَنْتَ تَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَتَسْتُرُ الْعُيُوبَ وَتَكْشِفُ الْكُرُوبَ فَارْحَمِ اللَّهُمَّ ضِعْفِي وَأَبْرئِ سَقَمِي وَأَدِمْ عَلَيَّ نِعْمَةَ الْمُعَافَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّكَ عَلَيَّ مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ. إِلَهِي أَنْتَ غِيَاثِي فَعَلَيْكَ تَوَكَّلِي وَبِكَ عِيَاذِي فَأَنْتَ وَقَايَتِي وَأَنْتَ الْمَلْجَأُ وَالْمُرْتَجَى لِكُلِّ مُضْطَرَّرٍ فَمِنْكَ أَسْتَمِدُّ حِمَايَتِي فَأَدِمْ إِلَهِي عَلَى عَبْدِكَ الضَّعِيفِ الْمُسْكِينِ كَرَامَةَ بَرِّكَ وَنَدَاكَ وَلَبَّ نِدَاءَهُ إِذَا مَا نَادَاكَ وَأَجِبْ دُعَاءَهُ إِذَا مَا دَعَاكَ بِإِنجَازِ وَعْدِ قَوْلِكَ الْحَقِّ وَكَلَامِكَ الصِّدْقِ وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. أَغْنِي يَا عِيَاثُ الْمُسْتَعِيثِينَ (ثلاثا) وَأُنَجِّدْنِي يَا رَاحِمَ الْمُسْتَضْعَفِينَ (ثلاثا) وَأَعِذْنِي مِنْ مَكْرِ الْمَاكِرِينَ وَسَطْوَةِ الظَّالِمِينَ وَكَيْدِ الشَّيَاطِينِ وَأَسْكِنِّي فِي سُرَادِقَاتِ حِضْنِ لُطْفِكَ الْحَقِّيِّ كَمَا يَقْتَضِيهِ جُودُكَ وَيَتَطَلَّبُهُ كَرَمُكَ حَتَّى لَا أَشْعُرَ عِنْدَ الْإِفْتِضَاءِ بِمُرِّ الْقَضَاءِ وَأَرْضِنِي اللَّهُمَّ بِمَا قَسَمْتَهُ لِي أَرْزَلًا وَأَوْفِرْ حَظِّي مِنَ الصَّبْرِ فِي مَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ فَلَكَ الْأَمْرُ وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَيَّ مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى مَنْبَعِ الْمَظَاهِرِ الْكُونِيَّةِ قَبْضَةِ نُورِكَ الْأَرْزَلِيِّ الَّتِي تَعَرَّفْتُ بِهَا إِلَيْكَ وَذَلَّلْتُ بِهَا عَلَيْكَ بَعْدَ مَا افْتَضَّضْتُهُ الْحِكْمَةَ مِنْ تَحَوُّلِ كَهَارِبِ الدَّرِّ فِي مَيْدَانِي تَجَلِّيَاتِ جَمَالِكَ وَجَلَالِكَ مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى مَا لَانَهَايَةَ لَهُ فِي عِلْمِكَ وَعَلَى الْآلِ وَالْأَصْحَابِ أَغْلَامِ الْإِهْتِدَاءِ وَنُجُومِ الْاِفْتِدَاءِ وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ كُلِّ تَابِعٍ لَهُمْ وَمُقْتَفٍ لِآثَارِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ سِيمَا تَأَجُّ الْأَوْفِيَاءِ وَنَبْرَاسِ الْأَتْقِيَاءِ بَابُنَا إِلَيْكَ وَشَفِيعَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ مَعَالِمِ مَعَارِفِكَ اللَّدْنِيَّةِ وَعَوَارِفِكَ الرَّبَّانِيَّةِ مَنْ مَنَنْتَ عَلَيْهِ بِالْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِيِّ الْخِلَافَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ الْمَدَانِيِّ، فَأَدِمِ اللَّهُمَّ كَرَامَتَهُ وَأَجْزَلِ ثَوَابَهُ وَكُنِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلَهُ كَمَا

كُنْتُ لِرَسُولِنَا الْأَكْرَمِ وَنَبِيِّنَا الْأَعْظَمِ الْمُعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى
كُلِّ مَنْ افْتَقَى أَثْرَهُ وَسَارَ عَلَى مَنَوَالِهِ مِنَ الْمُتَتَسِّبِينَ لَطَرِيقَتِهِ الْمَدِينِيَّةِ وَكَافَّةِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹.

طريقة العمل : لا يختلف عملهم عن عمل كل الفرق المدنية العلوية. وأهم لياليهم
ليلة المولد النبوي الشريف. ويسمون ميعادهم يوم اللقاء: وهم يجتمعون يوم الجمعة
ويخصصونه للقصائد المحمدية البحتة كالمهزية والبردة. أما لقاء أيام الخميس والسبت
والأحد فيضاف إلى ذلك القصائد الربانية والمحمدية والخمرية، ويقومون العمارة التي
هي الحضرة في المدينة الأم. وعثرنا للشيخ إسماعيل على أربع قصائد: ثلاث منها على
البحر الطويل وأخرى على شكل القسيم المربع (أو هو الزجل الفصيح) ينشدونها بألحان
متعددة ولعلها أحسن القصائد أداء ولحنا وتعبيرا منها:

أُبغِي نَبَاتِي * فِي شُهُودِ بَحْرِ الدَّاتِ * نَغْنِمُ أَوْقَاتِي * فِي رُؤْيَا الدَّاتِ الْعَلِيَّةِ
بِكُمْ حُضُورِي * مَعَ جَمَالِ نُورِ الثُّورِ * فَوْزِي وَسُرُورِي * رُجُوعِي إِلَى الْكُنْزِيَّةِ
تَهْتُ بِالدَّاتِ * مُدْكَانَتْ ذَاتِي وَصِفَاتِي * طَابَتْ أَوْقَاتِي * مِنْ تَجَلِّيهَا عَلَيَّ²

ومن قصائد الشيخ إسماعيل الهادي ما ورد في (أنيس المريد) [من البحر الطويل]

بِهَمَّتِكَ الْعُلَيَاءِ نَلَتْ الْمُؤَمَّلَا سَقَيْتِ بِكَأْسِ الْحُبِّ خَمْرًا مُعَلَّلَا
أَجَلْ، إِنَّ مَنْ يُسْقَى بِيُمْنَاكَ قَطْرَةً يَتِيهِ عَلَى الْأَكْوَانِ حُرًّا مُدَلَّلَا
كَمَا أَنَّ مَنْ يُسْقَى بِكَأْسِكَ شَرْبَةً يَغِيبُ عَنِ الْأَكْوَانِ طُرًّا وَيَدْخُلَا
نَعْمَ! هِيَ خَمْرٌ لَا مَحَالَةَ تُنْعِشُ الْفُؤَادَ بِلَا عَوَّلٍ شَرَابًا مُحَلَّلَا

إلى أن يقول :

أَيَا مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ هَدْيِي نَصِيحَتِي إِلَيْكَ فَبَابُ اللَّهِ قُرْبِكَ قَدْ جَلَا

1 إسماعيل الهادي، معالم معارف الله اللدنية وعوارفه الربانية للسير إلى الحضرة العلية، مخطوط، ص 13.

2 إسماعيل الهادي، معالم معارف الله اللدنية وعوارفه الربانية للسير إلى الحضرة العلية، مخطوط، ص 3.

3 محمد المدني، أنيس المريد، مطبعة الهلال، تونس، أبريل 2002، ص 87.

لورِدِ شَرَابِ الْقَوْمِ قَدْ كَانَ مِنْهَلًا

عَلَيْكَ بِهِ شَيْخِي الْمَدَانِي إِمَامِنَا

ويختم القصيد بقوله :

وَبِالصَّحْبِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلَا

إِلَهِي بِجَاهِ الْمُصْطَفَى وَبِآلِهِ

مَعَ الْأُمَّةِ الْجُمُعَا رِضًا مُتَبَدَّلًا

أَنْلِ شَيْخَنَا وَالْحَاضِرِينَ جَمِيعَهُمْ

لِيُسْقَى سَحَابَ الْفَضْلِ مِنْكَ تَفَضُّلاً

وَلَا تَحْرِمَنَّ مَنْ كَانَ بِالْبَابِ وَأَقْفًا

وله أيضا [من البحر الطويل] :

وَعَدَّتِي فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

إِمَامِي وَذُخْرِي عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ

بِكُمْ أَحْتَمِي لَمَّا بَدَأَ نَفْصُ طَاعَتِي

رَجَوْتُكَ فِي الدَّارَيْنِ حِفْظِي وَإِنِّي

فَأَنْتَ طَيْبِي عَالِمٌ بِالْحَقِّيقَةِ

وَعِنْدِي مِنَ الْأَشْوَاقِ مَا لَمْ أُبْحِ بِهِ

وَتَرَفُّعٌ مِنْ شَأْنِ الْوَضِيعِ بِنَظَرَةٍ

وَأَنْتَ الَّذِي تُعْلِي لِذِي الشَّانِ شَأْنَهُ

إلى أن يختمه :

عَلَى مَنْبَعِ الْأَنْوَارِ فَيُضِ الْحَقِيقَةَ

وَصَلَ إِلَهَ الْعَرْشِ دَوْمًا وَسَلَّمَن

مَعَ الْقَوْمِ أَهْلِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ

وَعُمَّ جَمِيعِ الْأَلِّ وَالصَّحْبِ بِالرِّضَا

فرع العلامية: الطريقة القاسمية

هي فرع عن الفرع، ولعلّ هذا التفرّع مما أوعز به الشيخ أحمد العلاوي لمريده الشيخ محمد المدني عندما أمره بأن ينشر الطريق باسمه، ولعلّ نجاح الشيخ المدني يتمثّل في تفرّع عديد الفروع من طريقته مثل الغوثية والإسماعيلية (الهادفية)، وهاهي الاسماعيلية تتفرّع عنها الطريقة القاسمية. ويظهر أنّ في هذا التفرّع تجديدا للدعوة ونفض الغبار عنها، وتحفيزا على الاجتهاد، وإلاّ فإنّ الطريقة لم تفقد من مميزات أيّ شيء فالأذكار والحضرة أو العمارة كلّها سواء في القاسمية كما في الإسماعيلية كما في الغوثية كما في المدنية الأمّ كما في العلاوية الأصل.

الشيخ المؤسس : وتنسب الطريقة القاسمية إلى وريث الشيخ إسماعيل الهادي الشيخ (بلقاسم بالخيرري) وهو أصيل منطقة الرديف من ولاية قفصة بالجنوب التونسي، من مواليد جوان 1941م، فهو الآن في الستين وتيّف من العمر (سنة 2007).

أخبار الطريقة : وللطريقة القاسمية زاويتها الأمّ بالرديف مقر الشيخ وتتبعها عدّة مجموعات بكامل الجمهورية تصل في العدّ إلى المائة والثمانين مجموعة تعمل بانتظام، وللشيخ بالقاسم بلخيرري زيارات خارج الجمهورية وحتّى في المدينة المنورة، كما تتم زيارته بالمناسبات الرسمية وحتّى غير الرسمية من بقية المريدين بالجهات، منهم جماعة بالمنستير.

أصول الطريقة : الطريقة الفاسمية، إذن، هي مواصلة للهادفية (الإسماعيلية) بقضها وقضيضها بما في ذلك الورد العام.

ومما يحسب للشيخ أبي الفاسم بلخيري صاحب هذه الطريقة إضافته ما يشبه الوظيفة وقد سماها (مواهب الاصطفاء في الصلاة والدعاء)، وتخصيص زي خاص يتمثل في الجبة التونسية والشاشية الحمراء بالكثيطة (النوارة) تلفها عصابة في شكل العمامة بيضاء فوقها لحاف أبيض شفاف في الغالب.

طريقة العمل : مواعيد النشاط لدى الفاسمية ليلة الخميس والجمعة والأحد: ويتمثل النشاط في اجتماع الفقراء بالزاوية لصلاة المغرب جماعة، ثم يأخذون مجالسهم ويجلس أمامهم المقدم وهو نائب الشيخ، وعن يمينه جماعة من قدماء الفقراء يقومون بالتقصيد بينما يقوم البقية بالترديد. ومن قصائدهم :

سَهْرَةَ يَا سَيِّدِي وَلَيْلَةَ هَيْبَةٍ نَمْدَحُ فِي خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

وكذلك : دَارَتْ كُوُوسُ الْعَرَامِ مَا بَيْنَ الْمَوَالِي

فَرَادَتْهُمْ اسْتِيْلَامٌ حَالًا عَلَى حَالِ

وكذلك : يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا سَيِّدِي أَنْتَ بَابُ اللَّهِ مُعْتَمِدِي

فَبِدُ نَيْبِي وَأَخْرَجِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي

وربما اختلفت ألحانهم من فرقة إلى أخرى، حيث تترك في بعض الأحيان للمقدم فيرتلها كيفما اتفق إلا أنها لا تخرج في الغالب عن الطبع المعروفة والأوزان المألوفة في الطريقة الأم.

هرق تسافر وهرق تهاجر

حتمت الحياة العصرية على مختلف شعوب المعمورة التقارب في كل المجالات أكثر من ذي قبل، فعلاوة على الاتصالات السياسية والاقتصادية، قامت وسائل الإعلام بالدور الأكبر في هذا التقارب والتعامل المفروض قسرا على أبناء هذا العصر، وهكذا وجدت بعض العادات المحلية من اجتماعية وثقافية طريقها للانتشار خارج الحدود التي نشأت فيها، وتسلفت إلى شعوب جديدة عليها لم تكن من ممارستها من قبل. وتعدت هذه الظاهرة إلى الطرق الصوفية تعديها لكل ما يمس حياة الإنسان من قريب أو من بعيد، فبحكم التعامل الذي ازداد وثوقا بين مختلف الشعوب لقيت الطرق الصوفية مجالات للانتشار في أقطار الأرض لم تكن تجدها قبل هذا العصر. وهكذا، انتقلت بعض الطرق التونسية إلى خارج حدودها، كالمدينة والغوثة وغيرها، كما استقبلت تونس طرقا خارجية تركزت في أرضها وبدأت تأخذ مكانها بين الطرق المحليّة بل وتحصد الجوائز في المهرجانات الوطنية مثل الطريقة الدسوقية. وقد تنتقل هذه الطرق بفعل ظرف سياسي معين، وقد تهاجر من بلدها الأم تماما مثل الطريقة الساعدية التي هاجرت من تونس إلى ليبيا، ولم يبق منها بتونس إلا الذكري، أو هاجرت جزئيا كالطريقة الشاذلية من تونس إلى مصر.

ولا عجب أن لا تنتقل هذه الطرق عن طريق أشخاص ممن يمثلون طبقة معيّنة في المجتمع، فالقضية غير متعلّقة بدرجة الطبقة الاجتماعية التي ينتسب إليها جالب الطريقة بقدر ماهي متعلّقة بمدى اقتناع هذا الجالب بطريقته ومدى حبه وتعلّقه بها وصدقه في التعامل معها، وهكذا فقد تجد شيخ الطريقة لا يحمل شهادات جامعية أو مدرسية، ولكنّه يحمل بين جنبيه روحا متشعبة بمبادئ الطريقة وممارساتها، مما أهله ليكون شيخها، يلتقّ حوله المريدون من كل الطبقات الاجتماعية ومن كل المستويات الثقافية، ويلمسون لديه ما لا يلمسونه عند حامل أكبر الشهادات الجامعية. ولعلّ هذا هو ميزة هذه الطرق، إذ أنها لا تخضع لمعايرنا المتعارفة بل تخضع لمعايير أخرى ما أجدرنا بالتعرّف عليها كي نفهم خط التفكير الذي يسلكه هؤلاء، فيجعل من حياتهم العادية حياة تختلف في كثير من مظاهرها عن حياتنا نحن، وخصوصا عند اتخاذ المواقف الحاسمة سواء فيما يمسّ الحياة المادية أو العادات السلوكية. ولا يغرنّا تصرف بعض المنتمين إلى هذه الطرق مما نراه على بعضهم، فالفرق واضح بين الشيخ المرّي وبين المرید السالك وبين المتشبهه، وبين من التصق بالطريقة لغرض غير التوجّه إلى الله عزّ وجلّ.

الطريقة الساعدية

من أمثلة الصرق المهاجرة: الطريقة السعدية أو الساعدية

من شيوخها : سيدي أحمد الشارف، سيدي الظاهر الدباني الذي هاجر صحبة مريدي الطريقة من تونس إلى مصراتة بليبيا لمباشرة مهامه القيادية، والشيخ موسى المصري، وسيدي سعد الظاهر الدباني بن سيدي سعد، وسيدي محمد بن عبد الله، وسيدي الشيباني العبدلي.

أخبار الطريقة: لعل الطريقة الساعدية اكتسبت اسمها نسبة إلى أولاد سيدي ساعد بغريان الذين ساندوا الشيخ عبد السلام الأسمر، إذ يقول "كوبولاني": إنها غير معروفة بالجزائر والمغرب وهي ممثلة في طرابلس (ليبيا) بست زوايا وتسعة مقدّمين وألفين وخمسمائة من الإخوان! لذلك يمكن القول بأنّ الطريقة الساعدية ازدهرت في بعض المناطق بليبيا في مطلع القرن العشرين الميلادي، والظاهر أنّها أسّست قبل ذلك بيسير بمدينة زغوان منبع الأولياء والطرق كما اشتهر عن جبل زغوان، وأخذت تمارس نشاطا مشبوها سياسيا، حيث إنها كانت تحرّض الناس على محاربة الكافرين ومنهم الاحتلال الفرنسي نفسه، كما تدعو إلى الاعتماد على الذات ونبد المادّيات، وهذا لا يخدم مصالح المستعمر، إذ أنّ مثل هذا الفكر يمنع التعاون مع الأجنبي، ويدعو إلى مقاطعته وعدم التعامل معه، كما لا يترك فرصة لهذا الأخير أن يستغلّ لهفة وحاجة هذا النابذ، فأحسّت

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 219.

سلطات الحماية بالخطر وأطردت جميع المريدين وأغلقت زوايتهم وشردتهم في كل مكان. فهاجر الشيخ الظاهر الدباني شيخ الطريقة آنذاك إلى مصراته حيث وجد الأمن، واستقر بها وأخذ يجمع شتات مرديه وينشط على طريقته حتى انتشرت في بعض مناطق ليبيا وكثر أتباعها، ولا نرى أي مانع من القول بأن هذه الطريقة قد ساهمت في تغذية الروح الوطنية لدى الليبيين سواء من أتباع الشيخ الصوفي عمر المختار أو غيره. وعندما نقرأ مثلاً القصيد الذي سنورده بعد قليل، قد نفهم الدواعي التي دعت الحماية الفرنسية إلى طرد الجماعة الساعدية فلاجؤوا إلى القطر الليبي الواقع تحت سلطة غير الفرنسيين.

أصول الطريقة : من خصائص الطريقة: التجرد من الماديات وعبادة الله وحده والمداومة عليها وكثرة الذكر والعمل، ومقاومة الأعداء والاعتماد على الذات، وجهاد أعداء الله وأعداء المسلمين. ويسمى أتباعها "فقراء التجريد"، واعتنقها كثير من الناس ومنهم علماء مشهورون من ليبيا.

من أناشيدها : من أشهر قصائد الشيخ "أحمد الشارف" أحد أعلام الطريقة الساعدية ومما يردده ويحفظه الأتباع قصيد [في البحر المتقارب] يحرّض فيه الشاعر على الجهاد، يقول فيه :

رَضِينَا بِمُحْتَفِ الثُّفُوسِ رَضِينَا وَلَمْ نَرُضْ أَنْ يُعْرَفَ الضَّيْمُ فِينَا
وَلَمْ نَرُضْ بِالْعَيْشِ إِلَّا عَزِيْرًا وَلَا نَتَّقِي الشَّرَّ، بَلْ يَتَّقِينَا
وَمَا الْحُرُّ إِلَّا الَّذِي مَاتَ حُرًّا وَلَمْ يَرُضْ بِالْعَيْشِ إِلَّا أَمِينَا

ويقول أيضا [من البحر الكامل]:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْأَهْلَةِ إِذْ بَدَتْ سَهَلَتْ عَنِّي مَسَالِكُ الْحَيْرَاتِ
وَتَعَطَّرَتْ بِقُدُومِهِمْ آفَاقُنَا كَتَعَطَّرِ الْأَزْهَارِ بِالنَّسَمَاتِ
وَكَذَا الْكَوَاكِبُ فِي السَّمَاءِ طُلُوعَهَا مُسْتَحْسَنٌ فِي جَنَدِيسِ الظُّلْمَاتِ
فَهُمُ الْكِرَامُ وَلَا كِرَامٌ سِوَاهُمْ هُمْ سَادَتِي وَأَيْمَتِي وَثِقَاتِي
يَتَعَرَّضُونَ لِتَفْحَةِ الْمَوْلَى وَمِنْ شَأْنِ الْكِرَامِ تَعَرَّضُ التَّفَحَاتِ

الصرقة الدسوقية

ومن الصرق القائمة من مصر إلى تونس الصرقة الدسوقية
نسبة إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة 776هـ / 1374م¹

الشيخ المؤسس : هو الشيخ إبراهيم الدسوقي بن عبد العزيز أبي المجد بن علي قریش ابن محمد أبي الرضا بن محمد أبي النجا بن علي زين العابدين بن السيد عبد الخالق بن محمد الطيب ابن عبد الله الكاتم بن عبد الخالق بن أبي القاسم موسى بن جعفر الزكي بن الإمام علي الهادي بن الإمام محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب من زوجه فاطمة الزهراء بنت محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويظهر أن أصل والده أبي المجد عبد العزيز من قرية "مرقص" الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيل، وانتقل منها إلى "دسوق" وراء مصالحه وكان له عدة معارف بها، كما كان من أصحاب العارف محمد بن هارون السنهوري، فلا يبعد أن يكون اجتمع بالإمام الشهير أبي الحسن الشاذلي وتلقى عنه الطريق. وتوفي أبو المجد عبد العزيز بقريته وله فيها مزار مشهور.

أمّا زوجته أمّ شيخنا إبراهيم الدسوقي فهي السيدة فاطمة بنت الشيخ أبي الفتح

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 337.

الواسطي¹ نزيل الإسكندرية وأحد أجلاء خلفاء الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه. لكن يظهر أن ابنته تلتقت الطريق الشاذلية وأصبحت من أتباعها وكان لذلك أثره على ابنها.

ويصرّ أتباع الطريقة على أن والدة الشيخ إبراهيم هي أخت الشيخ أبي الحسن الشاذلي فيكون هذا الأخير خال إبراهيم الدسوقي نسبا، واعتمدوا في ذلك على ما رواه الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني في كتابه "أنوار الأمين" صفحة 157، حيث ينقل محادثة منامية بينه وبين القطب الدسوقي إذ يقول القطب: "لما كنت في مهدي عندي أقلّ من سنة، جاؤوا بي إلى خالي الشاذلي فأعطاني إيّاه (أي الحزب السيفي) تامّاً، فعندما يلزمي أقرأه مرّة" أو ما ورد في كتابه: "السيرة الذاتية للإمام فخرالدين" مشيرين إلى الفقرة التالية بالصفحة 161 من المخطوط: "كانت سيدتنا فاطمة الشاذلية رضي الله عنها أم سيدي إبراهيم عندما تلد ولداً تبعث به إلى أخيها سيدي أبي الحسن الشاذلي، ولكنه عندما ولدت سيدي إبراهيم مرضت فعاقها المرض عامّاً عن أن تذهب إلى أخيها سيدي أبي الحسن الشاذلي، فأخبرت أباها أبا الفتوح أن يخبر سيدي أبا الحسن بأنّها أنجبت ولداً، ولم تستطع الحضور إليه لمرضها، فذهب سيدي أبو الفتوح وأخبر بما قالت له الشاذلية. فقال له: اذهب وقل لها: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} ² ثم أخبرها بأن تأتي به ليلاً. وذهبت سيدتنا الشاذلية ومعها ابنها سيدي إبراهيم وأخوها سيدي أبو الفتوح إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي، وقد قضى سيدي إبراهيم ليلة واحدة مع سيدي أبي الحسن فسلمه أماناته، وفي الصباح سافر سيدي أبي الحسن لأداء فريضة الحج، بعد أن ودّع أخته سيدتنا الشاذلية وأهله، ورجعت سيدتنا فاطمة الشاذلية بسيدي إبراهيم بعد سفر أخيها. والمعروف أنّ سيدي أبا الحسن تُوفّي وهو في طريقه إلى الحجّ في صحراء مصر." [وكان ذلك سنة 656 أي عندما بلغ القطب الدسوقي ثلاث سنوات من العمر]. وهذا النصّ يضعنا أمام تساؤلات: فكيف يبقى الشيخ أبو الحسن الشاذلي عامّاً كاملاً لا يزور أخته المريضة وهو بذلك يكون في مقابلة الله ولقائه طبق الحديث القدسي {يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا ربّ، كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما

1 يظهر أن السيدة فاطمة تلتقت طريق السادة الشاذلية فكانت من أخلص أتباع الإمام، فلما زار أبو الحسن الشاذلي سنهور زارته ومعها ابنها إبراهيم وعمره 3 سنوات ليباركه الإمام أبو الحسن.
2 الآية 51 من سورة الأنبياء.

علمت أنّ عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما إنك لو عُدته لوجدتني عنده؟ أو هكذا قال، في حين أنّ أخاها الحقيقي أبا الفتوح معها حتى أنّها أرسلته إليه. ثم إن كان أخاها كان من حقها أن تعاتبه لا أن تعتذر إليه بمرضها، ثم كيف يكون عالمًا بأنّ أخته ولدت ولا يذهب لتهنئتها بالمولود الجديد وحسن الخلاص؟ كلّ هذه التساؤلات تبعد هذه الأخوة الدموية بين السيدة فاطمة والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وإتّما تكون هي من أتباع الطريقة الشاذلية، ولها مكانة ما لدى الشيخ لا تصل إلى حدّ الشخوص لعيادتها وهي مريضة، أو السؤال عنها ليعلم بمرضها. ونحن لم نعثر على أخت لأبي الحسن في كلّ ما درسناه عن حياته، كما لم نعرف له أبا اسمه أو يكنى بأبي الفتوح، ولكن مثل هذا الجدل لا يقدم ولا يؤخر.

المهم، أنّ الشيخ إبراهيم وُلِدَ على ما ذكر "كوبولاني" سنة 733هـ / 1332م. فيكون قد عاش حسب هذه الرواية اثنتين وأربعين سنة شمسية، أو ثلاثا وأربعين سنة هجرية. لكن أحمد خلف الله² جعل هذه الولادة سنة 653هـ / 1255م. وهكذا فالفارق بين التاريخين ثمانون سنة وهو زمن ليس بالقليل.

ولده، إذن، ليلة الثلاثين من شعبان أوليلة الفاتح من رمضان سنة 653هـ / 1255م وموضع ولادته هو موضع دفنه وذلك سنة 696هـ / 1298م، ورويت له كرامات ذكرها بنفسه في كتبه.

عني السيد أبوالمجد بتعليم ابنه إبراهيم منذ طفولته، وكان نبوغ الطفل ظاهرا لافتا للنظر، فبعد أن حفظ القرآن الكريم، وتفقه علماالمذهب الشافعي، وبُنيت له خلوة بدُسوق فدخلها وأقام بها عشرين سنة، قال الجلال الكركي³: "ولما أتمّ الأستاذ بخلوته

1 الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تُعُدْنِي. قَالَ: رَبِّ، كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضٌ فَلَمْ تُعُدَّهُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تُسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُسْقِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَهُ ذَلِكَ عِنْدِي).

2 أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة 1419هـ / 1998م، ص 17.
3 الجلال الكركي هو العارف الصوفي البرهامي جلال الدين بن محمد خير الدين من القرن العاشر الهجري. تولى مشيخة المسجد البرهامي مدّة طويلة وكان خليفة السادة البرهامية وله أكثر من عشرة مؤلفات منها (لسان التعريف) الذي كتب فيه ياسهاب عن شيخه إبراهيم الدسوقي (عن أحمد خلف الله).

ثلاثا وعشرين سنة توفي والده، فخرج من الخلوة وصلى عليه، ثم أراد أن يدخلها، فحلف عليه بعض الفقهاء ألا يدخلها. فجلس تجاهها، فقطع الناس أسباب معاشهم واشتغلوا بالنظر إليه، وكيف لا وهو مُفْلِحٌ، ومن لا يقع عليه نظر مُفْلِحٍ لا يُفْلِحُ، فأرخی بُرْقَعًا على وجهه".

كانت علومه وهيبته لا كسبية، ولا توجد رواية واحدة تدلّ على أنه سلك الطريق على يد شيخ للتربية لازمه حتى وصل على يديه وأذنه بتربية المريدين ولو كان والدّه رضي الله عنه¹. ولم يُرَو عنه أنه خرج من دسوق في طلب علم أوشاخ تربية، ولكنه تنقل ناشرا لعلمه وزائرا لمريديه ومن أشهر المدن التي تردد عليها دمنهور².

عاش القطب الدسوقي مشاركا لأبناء جيله في مشاغلهم وكانت له صلوات منها صداقته الحميمة مع شيخ السطوحية الأحمديّة السيد أحمد البدوي بطنطا. وكان مريدو الشيخين همزة الوصل بينهما حتى أخذوا عن بعضهما البعض، ولعلّ ما جعل "كوبولاني" يحسب أن تعاليم الدسوقية مستقاة من السطوحية أو أنها فرع منها ما نجده متشابها في الحزب الدسوقي الكبير وحزب أبي الفتيان القطب أحمد البدوي³، فقد جاء في حزب هذا الأخير ما يلي: "لَوْوَا عَمَّا تَوَوَّا، فَعَمَّوَا وَصَمَّوَا عَمَّا طَوَوَّا. رَبِّ لَاتَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (بسم الله الرحمن الرحيم: سورة الفيل) اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ وَأَذْرًا بِكَ فِي نُحُورِهِمْ، بِكَ أَحَاوِلُ وَبِكَ أَقَاتِلُ، اللَّهُمَّ وَاقِيَّةَ كَوَاقِيَّةِ الْوَلِيدِ بِكِهِيْصِ كُفَيْتُ، بِحَمِ عَسَقِ حُمَيْتُ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ." ونجد في الحزب الدسوقي

1 احمد خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص 49 .

2 نفس المرجع ص 49 .

3 أحمد البدوي شيخ الطريقة الأحمديّة البدوية السطوحية، ولد بفاس من عائلة أصيلة الحجاز، وتوفي بطنطا بمصر سنة 675 هـ/ 1276م كان تلميذا بزوايا بغداد وأم عبيدة (مكان الرفاعية)، وإثر خمرة رأى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الشيخين عبد القادر وأحمد الرفاعي أسس طريقة على ضفاف النيل وكان اجتماع أتباعه على سطح داره لذلك سماوا السطوحية، وكانت له خوارق كدواء العقم عند النساء وبالخصوص قيادته للانتصار على الصليبي لويس التاسع ملك فرنسا سنة 643هـ، وبذلك انتشرت طريقته ولقي مبعوثه القبول الحسن بطرابلس وتونس وسوريا والجزيرة العربية وتركيا، ويتميز أتباعه بالخرقة الحمراء التي اتخذها شيخهم والتي يلبسونها في المواكب الرسمية على شكل عمامة، زاويتهم الكبرى بطنطا. (*تقرأ موصولة بدون فصل (أي وقف) كما تبه عليه في (أنوار الأمين) ص 83.

الكبير ما يلي: "رَبِّ لَا تَدْرِنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ، أَلَمْ * نَوُوا فَلَوُوا عَمَّا نَوُوا ثُمَّ لَوُوا عَمَّا نَوُوا فَعَمُوا وَصَمُوا عَمَّا نَوُوا فَوَقَعَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا ... أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا....، بجم عسق حُمَيْثُ (حمائتنا)، بِكهيصص كُفَيْثُ (كفايتنا)، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (ثلاثا) وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ...". أما نحن فنفسر ذلك بالرابطة القوية التي ربطت بين القطبين وهما يمتحان من معين واحد!

ومما رواه الجلال الكركي من وقائع مع السلطان الملك الأشرف خليل الذي أمر بقتل الشيخ لما انتشر من كراماته ووشاية حساده، ثم أصبح يتبرك به ويلبّي له طلباته وتدخلاته وكانت كلها لرفع المظالم، وقد بشره الشيخ بالاستيلاء على حصن عكا وتحريره من الصليبيين، وقد تمّ ذلك سنة 690هـ أو 693هـ وما تبع ذلك من أن السلطان وقّف (حبس) الجزيرة المواجهة لدسوق على الفقراء والزاوية الدسوقية².

قال الجلال الكركي متحدثا عن وفاة القطب الدسوقي في كتابه "لسان التعريف": "ولما شعر بدنوّ أجله أرسل نقيبهِ إلى أخيه شرف الدين أبي العمران موسى، وكان مدّة حياة الأستاذ يقطن مصر بجامع الفيلة، فأمره أن يبلغه السلام، ويسأله أن يطهر باطنه قبل ظاهره ... فاتفق أن النقيب وصل مصر ودخل المسجد على الشيخ شرف الدين وهو يقرأ على الطلاب كتاب الظهارة فأخبره النقيب برسالة أخيه القطب الدسوقي، فلما سمعها طوى الكتاب وسافر من فوره إلى دسوق فوجد الأستاذ القطب قد قبض وهو ساجد سنة ست وتسعين وستمائة ودفن بدسوق محل مولده"³.

وللقطب الدسوقي أشعار، فما ينسب إليه قوله [من البحر الطويل]:

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعْنَى حَدِيثِكَ لِي يُرَوَى فَلَا مُهَجِّي تُشْفَى وَلَا كَبِيدِي تَرَوَى
نَظَرْتُ فَلَمْ أَنْظُرْ سِوَاكَ أُحِبُّهُ وَوَلَوَآكَ مَا طَابَ الْهُوَى لِلَّذِي يَهْوَى
وَلَمَّا حَلَآ لِي الدُّكْرُ فِي خَلْوَةِ الرِّضَا وَغَيْبْتُ، فَقَالَ النَّاسُ: ضَلَّتْ بِهِ الْأَهْوَا(ء)

1 أحمدخلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص 47 و48.

2 نفس المرجع ص 281.

3 أحمدخلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص: 279.

لَعَمْرُكَ، مَا ضَلَّ الْمُحِبُّ وَمَا غَوَى
وَلَوْ شَهِدُوا مَعِيَ جَمَالِكَ مِثْلَمَا
خَلَعْتُ عِدَارِي فِي هَوَاكَ، وَمَنْ يَكُنْ
وَمَزَفْتُ أَثْوَابَ الْوَقَارِ نَهْتُكَ
فَمَا فِي الْهُوَى شَكْوَى وَلَوْ مَزَقَ الْحَشَا
وَمَا عَلِمُوا لِلْحُبِّ دَاءَ سِوَى الْهُوَى
وَقَدْ كُنْتُ مِنْ خَوْفِ الْهُوَى أَتْقِي الْهُوَى
وله أيضا [من البحر الطويل]:

عَلَى مَذْهَبِي كُتِلَ الْمُجِبِّينَ يَمُّوا
وَكُلُّ مِلَاحِ الْحَيِّ أَرْحَوُ لِثَامَهُمْ
أَنَا الصَّاحِي، أَنَا السَّكَرَانُ مِنْ غَيْرِ خَمْرَةٍ
وله أيضا [من وزن اللاحق (مخلع البسيط)]:

يَأْمَنُ حَلَا الصَّبْرِ فِي هَوَاهُمْ
وَاللَّهِ مَا لِي مَتَى سِوَاكُمْ
وَإِنِّي فِي حُبِّكُمْ وَفَاتِي
حَبِّي دَعَانِي إِلَى التَّدَانِي
بِعِزَّةِ الْوَصْلِ وَالِدَّلَالِ
بِاللَّهِ رِفْقًا بِضَعْفِ حَالِي
مَا لِي وَلِلْحَيَاةِ وَمَا لِي
لَبَّيْكَ، يَا دَاعِيَ الْجَمَالِ

وَلَهُ أَيْضًا [من البحر البسيط]:

كُلِّي بِكُلِّكَ مَشْغُولٌ عَنِ الْبَشْرِ
فَكَيْفَ أُنْسَاكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي¹

1 تلميح إلى الحديث القدسي (مَنْ غَادَى لِي وَنِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَالِفِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصْرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتُهُ وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ { رواه البخاري ومسلم.

وَلَوْ أَنَّ عَيْنِي إِلَيْكَ الدَّهْرَ نَاطِرَةٌ دَنَتْ وَقَاتِي وَلَمْ أَشْبَعِ مِنَ النَّظَرِ

وله تائيتان من البحر الطويل، واحدة مطولة منها هذه الأبيات :

تَجَلَّى لِي الْمَحْبُوبُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ فَشَاهَدْتُهُ فِي كُلِّ مَعْنَى وَصُورَةٍ
وَحَاطَبَنِي مِنِّي بِكَشْفِ سَرَائِرِ تَعَالَتْ عَنِ الْأَعْيَارِ لُطْفًا وَجَلَّتْ
وَأَنْتَ مُنَائِي بَلْ أَنَا أَنْتَ دَائِمًا إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْيَوْمَ عَيْنَ حَقِيقَتِي
فَقَالَ كَذَاكَ الْأَمْرُ، لَكِنَّهُ إِذَا تَعَيَّنَتِ الْأَشْيَاءُ كُنْتَ كُنْصَحْتِي
فَأَوْصَلْتُ ذَاتِي بِاتِّحَادِي بِذَاتِهِ بَغَيْرِ حُلُولٍ بَلْ بِتَحْقِيقِي نُسْبَتِي
فَصِرْتُ فَنَاءً فِي بَقَاءِ مُؤَبَّدٍ لِذَاتِ بَدِيمِ-وَمَةٍ سَرْمَدِيَّةِ
وَعَيَّبَنِي عَنِّي فَأَصْبَحْتُ سَائِلًا لِذَاتِي عَنِ ذَاتِي لِشُغْلِي بِعَيْبَتِي
وَأَنْظُرُ فِي مِرَاةِ ذَاتِي مُشَاهِدًا لِذَاتِي بِذَاتِي وَهِيَ غَايَةٌ غَايَتِي
وَمَا شَهِدْتُ عَيْنِي سِوَى عَيْنِ ذَاتِهَا لِأَنَّ سِوَاهَا لَمْ يُلِمَّ بِفِكْرَتِي
فَأَغْدُو وَأَمْرِي بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَاقِفٍ عَلُومِي تَمْحُونِي وَوَجْدِي مُثْبِتِي
حَبَابُ لَهُ فِي جَنَّةِ الْقَلْبِ مَنْزِلًا تَرَفَّعَ عَنِ دَعْدِ وَهْنِدٍ وَعَلْوَةٍ
أَنَا ذَلِكَ الْقُطْبُ الْمُبَارَكُ أَمْرُهُ فَإِنَّ مَدَارَ الْكُلِّ مِنْ حَوْلِ ذِرْوَتِي
أَنَا شَمْسُ إِشْرَاقِ الْعُقُولِ وَلَمْ أَقْلُ وَلَا غَبْتُ إِلَّا عَنِ قُلُوبِ عَمِيَّةِ
يَرُونِي فِي الْمِرَاةِ وَهِيَ صَدِيَّةٌ وَلَيْسَ يَرُونِي بِالْمِرَاةِ الصَّقِيلَةِ
وَبِي قَامَتِ الْأَنْبَاءُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِمُخْتَلَفِ الْأَرَاءِ وَالْكُلِّ أُمَّتِي
وَلَا جَامِعٌ إِلَّا وَلي فِيهِ مِنْبَرٌ وَفِي حَضْرَةِ الْمُخْتَارِ فُرْتُ بِبُعْتِي

ومنها :

نَعَمْ! نَشَأَتِي فِي الْحَبِّ مِنْ قَبْلِ آدَمَ وَسِرِّي فِي الْأَكْوَانِ مِنْ قَبْلِ نَشَأَتِي

عَلَى الدَّرَّةِ البَيْضَاءِ¹ كَانَ اجْتِمَاعُنَا
وَكُلُّ وَلِيِّ لِيْلَالِهِ مُؤَيَّدٌ
وَفِي قَابِ قَوْسَيْنِ اجْتِمَاعُ الأَحِبَّةِ²
وَيَشْهَدُ أَنِّي ثَابِتٌ فِي وِلَايَتِي
أَنَا القُطْبُ شَيْخُ الوُقْتِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
وواحدة مختصرة نوردها كاملة :

سَقَانِي مَحْبُوبِي بِكَأْسِ المَحَبَّةِ
وَلَاخَ لَنَا نُورُ الجَلَالَةِ لَوْ أَضَا
فَتَيْتُ عَلَى العُشَّاقِ سُكْرًا بِمُخْلُوتِي
لِصَمِّ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَدَكَّتْ
وَكُنْتُ أَنَا السَّاقِي لِمَنْ كَانَ حَاضِرًا
وَنَادَمَنِي سِرًّا بِسِرِّ وَحِكْمَةِ
وَعَاهَدَنِي عَهْدًا حَفِظْتُ لِعَهْدِهِ
وَحَكَمَنِي فِي سَائِرِ الأَرْضِ³ كُلَّهَا
وَفِي الأَرْضِ أَرْضِ الصِّينِ وَالشَّرْقِ كُلَّهَا
أَنَا الحُرْفُ لَا أَقْرَأُ لِكُلِّ مُنَاطِرٍ
وَكَمَّ عَالِمٍ قَدْ جَاءَنَا وَهُوَ مُنْكَرٌ
وَمَا قُلْتُ هَذَا القَوْلَ فخرًا وَإِنَّمَا
وله أيضا :

فَمَعْنَاهُ فِي قَلْبِي وَذِكْرَاهُ فِي فَمِي
وَمَثْوَاهُ عِنْدِي فِي أَجَلِّ مَكَانٍ

1 الدرة البيضاء، أول مخلوقات الله تعالى التي جاء منها بقية الخلق. وهي مخلوقة من نور النبي ص الله عليه وسلم (راجع في ذلك "المعجم الصوفي" لسعاد الحكيم، ويشار بها إلى العقل الأول أو النور المحمدي في حالة الرتب أي قبل انفصال السماء عن الأرض).

2 تلميح إلى الآيتين 9 و8 من سورة النجم: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى؛ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} وهي من أعلى المراتب الصوفية.

3 الأرض في اصطلاح الصوفية هي أرض النفوس.

4 الرعية هي كل قوى الإنسان الوجودية.

5 يظهر أنه أثبت النون لضرورة الوزن رغم وجوب حذفها لأن الفعل منصوب بـ(كي)

دَعُونِي فِلي مَوَلِي إِذَا مَا دَعَوْتُهُ أَجَابَ، وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْهُ دَعَانِي
وَلِي مِنْهُ وَصَلٌ كُلَّمَا رُمْتُ وَصَلَهُ فَتَحْنُ عَلَى التَّحْقِيقِ مُجْتَمِعَانِ

ومن أقواله رضي الله عنه: "لا تقنعوا من الطريق بالوصف دون الذوق، وما تكلم القوم إلا على شيء ذاقوه، فبالله عليكم يا أولادي، إذا سألكم أحد عن شيء من مقامات الطريق فلا تجيبوه إلا إن كنتم متحققين به".

والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة طالبين الله خالصا، ودخلوا تحت أوامره لاستغنوا عن الأشياخ، ولكنهم جاءوا إلى الطريق بعجل وأمراض فاحتاجوا إلى حكيم".

"وَأَعْلَمُ يَا وَلَدِي أَنَّ طَرِيقَتَنَا هَذِهِ طَرِيقَةٌ تَحْقِيقٌ وَتَصَدِيقٌ وَجُهْدٌ وَعَمَلٌ وَتَنْزَهُ وَغَضٌ بَصْرٌ وَطَهَارَةٌ يَدٌ وَفَرْجٌ وَلِسَانٌ، فَمَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهَا رَفَضَتْهُ الطَّرِيقُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا".

"الشريعة أصل، والحقيقة فرع، فالشريعة ما ظهر من الشرع، والحقيقة ما خفي منها، وجميع المقامات مندرجة فيهما، ولكل منهما أهل، والكامل من جمع بينهما".

ترك الشيخ إبراهيم الدسوقي عدّة مؤلفات في الفقه والتصوّف، ومن كتبه: كتب في الفقه وكتاب الحقائق والرسالة والجوهرة.

أخبار الطريقة : معلوم أنّ القطب الدسوقي، بعد وفاته، خلفه أخوه أبو العمران شرف الدين موسى، وبعد وفاته سنة 739 هـ خلفه ابنه شمس الدين الذي اجتمع مع القطب محمد وفا بن محمد الأوسط بن محمد النجم الحسيني عندما قدم دُسوق معزّيا في وفاة شقيق القطب الدسوقي. والطريقة الدسوقية، وتسمى "البرهامية" (نسبة إلى اسم القطب إبراهيم) و"البرهانية" (نسبة إلى لقب القطب برهان الدين) شعبة كبيرة من الشاذلية وإحدى الطرق المشهورة في الديار المصرية منسوبة إلى الولي الكبير والقطب الشهير المرشد للصواب المنقطع عن الخلق في السرداب¹ سيدي برهان الدين إبراهيم بن أبي المجد عبد العزيز بن قريش الحسيني الدسوقي المتوفّي سنة 676 هـ².

1 يقصد بالسرداب: الخلوة، وقد اشتهر الشيخ بذلك لأنه قضى بها أكثر من عشر سنوات مختليا، ولوقال المنقطع عن الخلق في الخلوة كان أفضل لأن لفظ السرداب ملازم للشعبة الإمامية وذكره متصل بانقطاع الإمام.

2 الكلام منقول عن أحمد خلف الله وهو نقله عن الجلال الكركي. وهذه رواية ثالثة في وفاة الشيخ.

وتمتاز الطريقة بالانزواء الذي ظهرت به الطريقة الخلوتية والبدوية والبيومية، وانقسمت الطائفة إلى عدّة فروع مستقلّة وانتشرت، يعدّ منها الزاوية الأمّ بدسوق والشرنوبية (نسبة إلى صاحبها أحمد عرب الشرنوبي بن عثمان بن أحمد سليل العارف علي البرهاني صاحب المزار بشرنوب) وهي فرع من الشهاوية (نسبة إلى السيد محمد الشهاوي الحسيني الشافعي المتوفى سنة 949هـ بقرية نمرّة البصل، وهو من ذرية أبي العمران موسى شقيق القطب الدسوقي) والتهامية¹.

وركزت الطريقة في بعض السنين، ثمّ أحيها الإمام فخر الدين محمد عثمان عبده البرهاني المولود سنة 1902م والمتوفى في 1403هـ/1983م وهو من أصل سوداني (نسبة إلى جمهورية السودان) ويرجع شجرة نسبه إلى الإمام عليّ كرم الله وجهه عن طريق الفرع الحسيني. غير أنّ الغريب في هذه السلسلة وجود نساء هنّ الواصلات لهذا النسب الشريف، فالحاقه به كان عن طريق جدته أم عثمان آسيا بنت السيدة كلثومة بنت السيّدّة تُكّة بنت السيد موسى بن عالم بن خضر الخ ...

[بدأ الشيخ محمد عثمان من سنّ الخامسة يعمل بالمذهب المالكي، والطريقة الشاذلية متبعا سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مقاومة البدع وإطفاء نار الفتنة أينما راح أو غدا، بما رزقه الله من موسوعية العلم وسعة الصدر وحسن الخلق ونور أهل بيت النبوة، وترك من الكتب: "تبرئة الذمّة في نصح الأمة" أو "تذكرة أولي الألباب بالمسير إلى الصواب" وكتاب: "انتصار أولياء الرحمان على أولياء الشيطان" وديوان: "(شراب الوصل)". ولما انتقل إلى الرفيق الأعلى في الواحد والعشرين من جمادى الثانية 1403هـ الموافق للرباع من إبريل 1983م حمل أمانته بعده ابنه البار الولي الكامل سيدي الشيخ إبراهيم محمد عثمان عبده البرهاني، وانتشرت الطريقة في أمريكا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا وأستراليا والبلاد العربية².

كيف دخلت الطريقة إلى تونس : أدخل الطريقة الدسوقية إلى تونس الشيخ الحبيب بن ناجي بن حسين بوزويطة المولود بقصر هلال في 10 جويلية 1959م. تعلّم

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 337.

2 جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي في الفترة ما بين 24-22 ربيع الآخر الموافق لـ 18-16 سبتمبر 1995م. بتصرف.

صناعة النسيج بمعمل سعيان بمسقط رأسه، ثم رحل إلى القطر الليبي في شهر ديسمبر 1979 لممارسة مهنته بمدينة طرابلس حيث يشتغل أخوه رضا في نفس المهنة.

وفي سنة 1980 تعرّف على رجل مصريّ يدعى حسين جَزْرُ من قرية "دَرَاو" من محافظة "أسوان" كان يعمل بنفس المصنع، وهو من مواليد 1952، وكان مريدا للطريقة البرهانية الدسوقية، يقول الشيخ الحبيب: "أخذني معه للزاوية بـ"سوق الجمعة" حيث تنشط الجماعة "البرهانية" وكان هذا أول لقاء لي بجماعة الطريقة بزاوية "صُرمان". وتعلّم معه أخوه رضا وبعض العمّال التونسيين وتلقوا بعض الأذكار. ورجع الشيخ الحبيب إلى قصر هلال في أواخر سنة 1980 وشرع ينشط بمفرده ويعرّف أبناء حيّه بالطريقة وهو حي "بن عياد" موطن مؤتمر قصر هلال الشهير للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في 2 مارس 1934، وانضمّ إليه بعض المريدين ورجع إلى الأذكار. وفي 11 أوت 1991 شرع يعلم الجماعة الذكر وعمل الحضرة، وأول مشاركة علنية رسمية لهذه الطريقة كانت سنة 1998 بالمهرجان الدولي للإنشاد الصوفي بسيدي بولبابة بقباس، وفي سنة 2000 شرعت هذه المجموعة تنشط بانتظام وتشارك في مهرجان سيدي بولبابة كل سنة.

وعلاوة على زاوية قصر هلال، هناك بالجمهورية التونسية زاوية ببني فردان مقدمها السيد سعد زغودود وهي فرقة نشيطة منذ حوالي عشرين سنة، وزاوية ثانية بالشهبانية التي تبعد حوالي 30 كلم عن بني فردان في اتجاه الشمال بطريق مدينين ومقدمها السيد عمّار البخلي، وزاوية بتونس العاصمة ينشطون بها بدون حضرة، ومقدمها السيد جعفر بالضياف وقد تعلّم الطريقة بالكندا. وأخيرا هنالك جماعة بياجة ينشطون بالأورد دون الحضرة تحت إشراف السيد خالد البحري. أما بالسعودية فلها زاوية مجدة وأخرى بالمدينة المنورة¹.

أصول الطريقة: يقول "كوبولاني": (من حيث المبادئ يمكن اعتبار الدسوقية فرعا من البدوية². ولكن في الواقع تأسست هذه الطائفة بإشراف ولي مشهور بصلاحة

1 ما قلناه عن دخول الطريقة إلى تونس ملخص لحديث أجريناه مع السيد الحبيب بوزيطة وأصحابه في زيارات ميدانية لزاويتهم بقصر هلال في غضون شهري سبتمبر وأكتوبر 2003.

2 هي طريقة منسوبة إلى الشيخ أبي الفتان أحمد البدوي المتوفى في 675 هـ مؤسس الطريقة السطوحية الأحمدية ولها فروع في كامل العالم الإسلامي (انظر ترجمته أعلاه) (عن أحمد خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص 26).

وكراماته وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي وهي طريقة شاذلية) فهي، إذن، لا تستعمل الآلات بتاتا في أذكراها وفي حضرتها، وقد قال لنا أحدهم: "بنديره في صدره" وهو كناية عن الإيقاع الداخلي الذي يهزّ النفس والروح أثناء الذكر، فلا يستعين بآلة خرساء لبلوغ ذلك، ولكنهم ربّما استعانوا بالتصفيق إيقاعا فقط. وعملهم عمل يومي وهم يقسمونه إلى ثلاث مراحل:

العمل اليومي: وبهم كلّ مرید بمفرده، فيقوم بـ:

المرحلة الأولى: مرحلة الاستغفار: كلّ مرید يقوم بالاستغفار سبعين ألف مرّة على مدّة غير محددة بلفظ: "أستغفر الله العظيم هو التواب الرحيم"، ثمّ مرحلة التهليل: "لا إله إلاّ الله" سبعين ألف مرّة، ثمّ مرحلة الأساس*: وهي الوظيفة على الطريقة البرهانية وهي: "بسم الله الرحمن الرحيم" (100 مرّة) "أستغفر الله العظيم هو التواب الرحيم" (100 مرّة) "لا إله إلاّ الله" (100 مرّة) "يا دايم" (300 مرّة) "اللهم صلّ على سيّدنا محمد وآله وسلّم" (100 مرّة)، وبعد: يقرأ التحصين الشريف (مرّة واحدة)، ثمّ الحزب الكبير* (مرّة واحدة)، ثمّ: "يا عزيز" (100 مرّة) ثمّ: "يا عزيزا لم أزل بعزك عزيزا يا عزيز" (07 مرات)، ثمّ الحزب الصغير* (3 مرات)، ثمّ "يا باري" (100 مرّة)، ثمّ "يا لطيف" (129 مرّة) "اللهمّ يا لطيفا بخلقه يا عليما بخلقه يا خبيرا بخلقه أطف بنا يا لطيف" ثمّ "يا علیم يا خبير" (7 مرات) و{ياألله} (66 مرّة)، ثمّ "يا دايم" (66 مرّة) "لك الدوام الأزلي والبقاء السرمدي حتى ترث الأرض ومن عليها وأنت خير الوارثين، سبحانه يا دايم أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، سبحانه يا دايم ارزقنا حلاوة محبتك واحشرنا في زمرة المحبين"، "ياودود" (240 مرّة)، ثمّ: الصلاة المحمدية الذاتية* (3 مرات): ثمّ صلاة بن مشيش* (مرّة واحدة). هذا يعتبر أساس الصباح ويعاد نفس الأساس* في المساء.

المرحلة الثانية: تعاد المرحلة الأولى بكاملها.

المرحلة الثالثة: بالنسبة إلى الأساس¹ هو نفسه، ثمّ (1117 مرّة) سورة الإخلاص مع (117 مرّة) الصلاة المحمدية الذاتية*. ثمّ الحزب السيفي* (وهو حزب أي دعاء منسوب إلى

1 ما وضعت عليه النجمة موجود في مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية وشرحها في أنوار الأمين (انظر قائمة المراجع)

الإمام علي كرم الله وجهه) (من 5 إلى 9 مرات) ثم (21 مرة) الحزب الكبير*، ثم (100 مرة) بسم الله الرحمن الرحيم" ثم (100 مرة) استغفار، ثم (100 مرة) "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ"، ثم (6666 مرة) الاسم الأعظم {الله}.

وكُلِّ مرحلة من هذه المراحل تنتهي بالخلوة، فتنتهي المرحلة الأولى بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" (100 مرة)، ثم (100 مرة) "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ" والنهاية بالصلاة على النبيء (100 مرة). وتنتهي المرحلة الثانية بـ: "بسم الله الرحمن الرحيم" (100 مرة) واستغفار (100 مرة) و"اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ". والمرحلة الثالثة مثل المرحلة الثانية.

الخلوة: يختلي المرید بنفسه يومياً في المرحلة الأولى بالاستغفار، وفي المرحلة الثانية بالتهليل، وفي المرحلة الثالثة بالاسم الأعظم. وتكون الخلوة بين صلاة المغرب وصلاة العشاء. وعند انتهاء الخلوة يختتمها بـ(100 مرة) "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ".

والحضرة: عمل جماعي له أدعية وقصائد وترتيبات خاصة نذكرها في طريقة العمل.

طريقة العمل: يقوم الدسوقية بالحضرة الإلهية يوم الخميس ليلة الجمعة بعد صلاة المغرب وبالحضرة النبوية في نفس الموعد ليلة الاثنين موعداً مولد الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي كما يلي:

يجلس المنشدون في نصف دائرة في طرف القاعة تحت الشعار ويصطف الذاكرون صفوفاً تقل وتكثر وتطول وتقصّر لطرفي القوس ويضعون بينهم "الزي" وهو عبارة عن قفص ذي سبعة أضلاع مغطى بعلم أوبيرق في أعلاه أصفر وفي أوسطه أبيض وفي أسفله أخضر وهي رموز للطريقة البرهانية كونها حازت عدّة طرق ويوقد تحت هذا البيرق فانوس. فإذا انتظم الجمع هكذا جالسين ملتزمين بقلّة الحركة والكلام، يقع إنشاد قصيدة أو اثنتين أو ثلاث تسمى قصائد النداء، وهي مذكورة في ديوان (شراب الوصل). ثم يأتي الاستفتاح، فيرفع الزي، ويقع التأمين، ثم تأتي قراءة الفواتح، يعقبها دعاء سرّي، ثم مدح معين في الصلاة على النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الدخول في الذكر بـ"لا إله إلاّ الله" ممزوجة بالأمداد (أي طلب المدد من أهل السلسلة) وعند الوصول إلى مدد "يا أبا العينين" يقف الجميع ويقع إكمال الأمداد مع تمايل الذاكرين يميناً وشمالاً، عند

انتهاء الأمداد يبدأ الإنشاد والدخول في الذكر بالاسم {الله} وبالتمايل أمام وخلف ويقع إنشاد قصيدة أو اثنتين أو ثلاث حتى يشتد الذكر ويصير بذكر الصدر أو المشاهدة لا بالتمايل بل بالتراكم، عند شدة الذكر والانتعاش يقطع فجأة ويبقى الذاكرون في حالة ترنح، ثم يقوم منشدان كل واحد بسماعية مؤثرة، وهي قصائد ترتجل في مقام معين، ثم يرجع إلى الذكر حسب اختيار البسيط (الرسيم)، أما بذكر الدندنة (وهو صيغة من صيغ الذكر بها صوت كالندنة) أو بذكر الليثي وهو أيضا طبقة في الذكر خافتة تشبه الفحيح) أو بذكر الاسم المفرد، ودائما بين الطبقة والطبقة يكون هناك سماعتان، وعند إكمال 4 أو 5 طبقات حسب الأمداد يجلس الجميع على الشكل الذي بدأوا به، ثم ينشدون جميعا توسل السادة البرهانية فالصدر ينشده المنشدون والعجز ينشده الذاكرون، وهو قصيدة شعرية تحتوي على أربعة وسبعين بيتا من البحر الطويل تائية القافية مطلعها:

إِلَهِي بِكَزِّ الدَّاتِ ذِي الأَحَدِيَّةِ بِطَلَسَمِ عَيْبِ العَيْبِ سِرِّ الهُؤْيَةِ

بُنُورِ تَجَلِّيهَا وَحَقِّ صِفَاتِهَا وَأَسْرَارِهَا العُظْمَى بِقُدْسِ وَعِزَّةِ

ويختتمونها، بعد ذكر الأنبياء والصحابة والتابعين والأولياء إلى أن يصلوا إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي وأخيه موسى وجملة من الأولياء والصالحين وكل المنتمين إليهم بالدعاء والتوسل:

وَبِاللُّطْفِ وَالإِحْسَانِ عَامِلِ جَمِيعَنَا وَنَجِّ مِنَ الأَسْوَاءِ فِي كُلِّ حَالَةٍ

وَأَكْرِمِ بِنِقْوَاكَ الضَّعِيفَ وَقَوَّنَا وَسَلِّمْ وَجُدْ وَارْأفْ بِأَلْطَفِ رَأْفَةٍ

وَعَمِّمْ بِخَيْرٍ وَأَكْسِنِي كُسُوءَةَ نَفِي بِأَنْوَارِهَا إِيَّايَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ

وَكَمِّلْ بِنُورِ القُرْبِ حَالِي وَعَمِّنِي بِحُسْنِ وَإِحْسَانِ وَخْتِمِ السَّعَادَةِ

وَفِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ فَاجْعَلْ مَقَرَّنَا وَزِدْنِي دَوَامَ الوُضْلِ مَعَ قُدْسِ رُؤْيَةٍ

وَهَبْ لِي جِوَارَ المُصْطَفَى وَشُهُودَهُ وَصُنِّي مِنَ التَّلَوِينِ يَا ذَا العِنَايَةِ

وَأَوْفِ صَلَاةَ وَالسَّلَامَ مُؤَبَّدُ عَلَيَّ خَاتِمِ الرُّسُلِ الكِرَامِ وَعِثْرَةِ

وَكُلِّ نَبِيٍّ وَالصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ مِنَ الأَلِّ مَا لَآخَ الهُدَى بِأَشْعَةِ

وَمَا شَمَّ عِطْرَ الْقُدْسِ، مَنْ عَرَفُوا بِهِ وَمَا شَمَّ بَدْرَ الْأُنْسِ مَعَ شَمْسِ سَادَةِ

ثم قراءة الفواتح مرّة أخرى، ثم يقع دعاء، ثم يرفع الزي مع الفاتحة، ثم يدار على الحاضرين كأس الشاي ويمنع شرب الماء لأنه يُطفئ نور القلب (حسب زعمهم)، ثم تقرأ الفاتحة لسيدى نوح باب البسط المفتوح وقوفا، ثم يقع تناول طعام العشاء غالبا. هذه هي الحضرة كما وصفها لنا أحدهم كتابيا.

أمّا ما شاهدناه، فلا يختلف عن ذلك كثيرا، ولاحظنا أن الإنشاد ينطلق في مقام السيكا مثلا لينتهي الجميع أخيرا بمقام السيكا ويتخلل ذلك تطرّق للمقامات الأخرى إلا أن القاعدة أنّ مقام الابتداء يكون مقام الانتهاء، فينشد أحدهم بإنشاد بعض القصائد من ديوان "شراب الوصل" وهو ديوان أشعار متينة البناء رائقة التركيب والمعاني بليغة اللغة والنسج، قيل أن الشيخ أملاه بعد وفاته على أحد المريدين فكتبه وليس له فيه أي بيت من عندياته. وعندما يتمّ الإنشاد يطلب الفاتحة للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابنته وزوجتيه خديجة وعائشة (غير أنهم لا يقرؤون الفاتحة) ويكتفون بقول: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ) ثم تطلب الفاتحة لأهل السلسلة الدسوقية، ثم الفاتحة لأهل الصفا والأقطاب، وكذلك لا تقرأ الفاتحة بل يكتفى بالصلاة على النبي، [وسألناهم عن عدم قراءة الفاتحة كلّ مرّة ولماذا يكتفون بالصلاة على النبي، فقال لنا مقدمهم: إن الأصل هو قراءتها كلّ مرّة ولكننا نختصر، ونأمل أن يكون ما بين الصلوات على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المقبول] ثم تطلب الفاتحة لأشياخ الشاذلية، ثم تقرأ الفاتحة، ثم يصلى على النبي: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ فِي الْأَوَّلِينَ وَصَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا

1 محمد السيد بن عبد الكريم الكسنزاني، التصوف الأنوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية، مكتبة مدبولي، القاهرة 1990، ص 102. يقول: "...وأما الثلاثة الباقية التي تأتي بعد الذكر فهي أولا: أن يسكن بعد سكون ويحشع مع قلبه مترقبًا لوارد الذكر فعلمه يردّ عليه وارد فيعمر باطنه في تلك اللحظة أكثر مما يمكن أن تعمره الرياضة والمجاهدة مئة ثلاثين سنة، فإذا ورد عليه وارد الزهد فيصير زاهدا، أو ورد عليه تحمّل الأذى فيصير صابرا، أو وارد الخوف فيصير خائفا من الله تعالى، وهكذا، ويجمع الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة، حاله كحال الهرة المتحرّقة لاصطياد الفأر، وينفي الخواطر ويجري معنى الذكر على قلبه. ثانيا: أن يذمّ نفسه مرارا ويقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس أو أكثر حتى يدور الوارد في جميع حواسه فتتنور بصيرته وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان وتكشف عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم. ثالثا: منع شرب الماء البارد عميق الذكر فإنّ الذكر يورث حرقة وهيجانا وشوقا إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر. وشرب الماء يُطفئ تلك الحرارة. فليحرص على هذه الأداب الثلاثة فإنّ فيها نتيجة الذكر تظهر والله أعلم." وهو ما وجدناه بالطريقة الخلوتية في نصيحتهم: "والثالث شرب الماء منعه العلماء بعد ذكر الأسماء مطفيا للناريا"

محمد في الآخرين وصلّ وسلم على سيدنا محمد في كل وقت وحين وصلّ وسلم على سيدنا محمد في الملا الأعلى إلى يوم الدين وصلّ وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة المقربين وعلى عباد الله الصالحين من أهل السماء والأرضين وبارك على ساداتنا أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وعباد الله الصالحين إلخ ...) ثم يطلب الفاتحة للحسن والحسين وللشيخ أبي العينين وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي وكذلك بقية أشياخ الدسوقية. ثم يأتي ذكر "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وطلب المدد من الرسول بالتصفيق وهم جالسون "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، آه يا حبيب الله" ويبدؤون في التراكع وذكر "آه" من الصدر بصورة بطيئة جداً، ثم يقفون ويبدؤون الالتفات يمينا ويسارا والمنشد يُنشد "لا إله إلا الله" إه إه إه مصحوبة بطرق الكف، والمنشدان يُنشدان ويبدأ التسارع ويشتد الاهتزاز والالتفات على وزن (مُفْتَعِلُنْ أي الوزن الرباعي) ثم يصبح اهتزازا فقط ثم يقفون بذكر خافت {الله} ويخرج منشد ينشد في شكل عروبي والصف وقوف يستريحون، ثم يرجع الصف لذكر {الله} إه إه إه {الله} ومنشد يُنشد، ويقع ذلك صحبة الالتفات يمنا ويسرة، ويعودون كالكرة الأولى إلى الاهتزاز والتسارع، ثم يريحون، ويرجع المنشد إلى سماعية في شكل عروبي كما فعل آنفاً، ويظهر هذا الغناء على النمط السوداني المميز بانزلاقه من أعلى طبقة صوتية مباشرة إلى القرار، ثم ينطلق تنفس أشبه ما يكون بالفحيح قيل أنه النطق بالاسم {الله} بإدخال الهواء داخل الصدر عوض إخراجها، فيكون أرضية لإنشاد كالعادة ويعيدون الكرة كالمرة السابقة. ثم يعيدون كرة أخرى إلخ ... ثم بعد الإنشاد يبدؤون بالأرضية {الله} مع التراكع لا التفات ولا اهتزاز، ثم يرجعون إلى الالتفات والتصفيق، ثم يتسارع الاهتزاز دون التفات ثم يريحون ويجلسون وتضاء الأنوار، ويرجعون للإنشاد جلوسا فيقرؤون جميعا "توسل السادة البرهانية" فالصدر ينشده المنشدون والعجز ينشده الذاكرون مع التصفيق ويقرأ البيت الأخير بصوت بطيء جداً مؤذنا بالانتهاء، ثم تقرأ الفواتح مرة أخرى، ثم يقع دعاء، ثم يرفع الزبي مع الفاتحة، ثم يُدَارُ على الحاضرين كأس الشاي ويمنع شرب الماء لأنه يُطفئ نور القلب (حسب زعمهم)، ثم تقرأ الفاتحة لسيدي نوح باب البسط المفتوح (وهو أحد الأولياء) وقوفاً، ثم يقع تناول طعام العشاء غالباً.

ونورد فيما يلي نماذج من القصائد المغناة وهي من ديوان "شراب الوصل" للشيخ
فخر الدين محمد عثمان عبده البرهاني شيخ الطريقة : يقول في القصيدة الثانية [من
البحر الكامل] وبها 59 بيتا : هَذَا عَطَاءُ اللَّهِ مِنْ عَلَيَّهِ هَذَا اصْطِفَاءُ السَّيِّدِ
الْبُرْهَانِي

مَا كُلُّ مَنْ كَتَمَ الشَّهَادَةَ أَيُّمٌ¹ أَوْ كُلُّ مَنْ وَأَدَّ الْبَرِيْقَةَ جَانِي²
حَارَتْ جَمِيعُ الْإِنْسِ فِي كُنْهِي، كَذَا فِي مَشْرَبِي حَارَتْ مُلُوكُ الْجَانِ
مِنْ آهَةِ الْأَوَاهِ آهًا قَلْتُهَا مِنْ أَوْبَةِ الْأَوَابِ فِي الْوَجْدَانِ
دَانَتْ مَرَاقِي الصَّالِحِينَ لِسِرْوَتِي وَازْدَانَتْ الْعَلِيَاءُ بِالْإِحْسَانِ
عَصَفَتْ رِيَاحُ الْقُرْبِ لَمَّا قَارَبَ الْمَيْقَاتُ عَانَقَ لَوْلِي مَرْجَانِي
ثَوْبًا مِنَ الثُّورِ الْعَلِيِّ لَيْسَتْهُ نِعْمَ اللَّبَاسُ وَجَلَّ مَنْ أَعْطَانِي
إلى أن يقول : لَوْلَا هَوَاهُمْ فِي الْقُلُوبِ وَفِي الْحَشَا مَا ذَاقَ قَلْبٌ لَدَّةَ الْإِيمَانِ

وفي القصيدة 19 [من البحر الكامل أيضا]، يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هُوَ جَابِرٌ وَهُوَ الْجَوَادُ وَإِنَّهُ يَسْعَى إِلَيْهِ الْجُودُ كَيْ يَرَعَاهُ
هُوَ أَحْمَدٌ فِي قَابِ قَوْسَيْنِ انْجَلَى وَلَهُ لِيَوَاءُ الْحَمْدِ، مَا أَسْمَاهُ !
كَرَّمَ بِلَاكُمَّ وَلَا كَيْفِيَّةِ كَفَّ كَرِيمِ أَرْضُهُ وَسَمَاهُ
هُوَ رَحْمَةٌ، وَالْأُمَّهَاتُ بِهِ افْتَدَتْ بَرِّ رَجِيمِ، رَبُّهُ سَمَاهُ
هُوَ قُرَّةُ الْأَعْيَانِ وَهُوَ قَرَارُهَا قَرَّتْ عَيْوُنُ الْكَوْنِ فِي مَرَاهُ

وانظر إلى هذا الاقتباس بالتصرف من القرآن الكريم إذ يقول [من البحر الخفيف]:

قَدْ شَهِدْنَا وَيَا لَطِيبَ شُهُودِ نَاشِئَ اللَّيْلِ وَهُوَ أَقْوَمُ قِيْلًا³

1 تلميح إلى الآية الكريمة 283 من سورة البقرة "...وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آدِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ"

2 تلميح إلى الآيتين الكريمتين 9 و8 من سورة التكويد "وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"

3 اقتباس الآية (6) من سورة المزمل وهي: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيْلًا)

مَوْلِدَ الثُّورِ وَالسُّرُورِ تَجَلَّى كَاشِفِ الْعَمِّ تَتَّخِذُهُ وَكَيْلَا
وَاتَّخَذْنَا الْمَقَامَ فِيهِ مُصَلِّئًا كَاتِّخَاذِ الْمُنْفِيزِ جَدِّي خَلِيلًا
طَابَ يَا حَبِيبِي مَقَامَ حَبِيبٍ قَدْ غَدَا بِالْحَبِيبِ أَهْلًا نَزِيلًا
دُرَّةً عِنْدَمَا أَسْرَّ بِسِرِّ كَانَ لِي بِالنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا

وانظر إليه كيف يجد في حادثة الاسراء والمعراج مجالاً للشطح الصوفي في القصيدة الثامنة والعشرين [من البحر البسيط]:

فِي كُلِّ حِينٍ لَنَا فِي الْمُصْطَفَى أَمَلٌ حَتَّى إِذَا حَانَتِ الْإِسْرَاءُ يُسْرِنَا
وَكَفُّهُ مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ يَمْنَحُنَا وَمِنْ تَدَانِيهِ يُطْعِمُنَا وَيَسْقِينَا
لَمَّا دَنَا الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ جِيءَ بِهِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَازْدَانَتْ مَرَاقِينَا
حَلَّتْ عَلَى أَهْلِ هَذَا الْحَيِّ فَرَحَتُهُ كُلُّ تَحَلُّوْا، فَلَا مَعْنَا.. وَلَا فِينَا
مِنْ أَوَّلِ الْبَدْءِ أَرْوَاحًا إِلَى خْتِمِ فِي حَضْرَةِ الْقُرْبِ. مَا أَبْهَى تَلَاقِينَا!
جَمْعًا إِلَى فَرْدِهِ الْمَجْمُوعُ فِي حُجُبِ وَالْكُلُّ حَشْدًا يُقَرِّبُنَا وَيُذْنِبُنَا
وَقَايَةُ خَلْفِ سِتْرِ الْكِبْرِيَا كَرَمًا كَانَتْ لَنَا فِيهِ أَسْتَارًا تُوَارِينَا
نَلْنَا مُنَانًا، وَمَا فَوْقَ الْمُنَى دُرَّرًا عَهْدًا وَعَيْنَاهُ مِنْ سِرِّ سَرَى فِينَا
لَمَّا بَدَتْ شَمْسُهُ، أَوْ جَنَّ حَالِكُهُ أَقْمَارُنَا دُونَهُ عَادَتْ عَرَاجِينَا²
إِنَّا رِعَاةٌ وَلَكِنْ حِينَ صُحْبَتِهِ يُقَلِّبُ الْكُلُّ فِي عَيْنِ تُرَاعِينَا

1 اقتباس الآية (7) من سورة المزمل وهي: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}
2 اقتباس الآية (39) من سورة يس وهي: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ الْغُرُجُونَ الْقَدِيمَ}

الطريقة النقشبندية

كذلك، من الطرق التي انتقلت إلى تونس عن طريق الطلبة العرب الطريقة النقشبندية نسبة إلى بهاء الدين النقشبندي المتوفى سنة 791هـ/1388م¹.

الشيخ المؤسس : هو الخوجة (الشيخ) العابد بهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي البخاري النقشبندي مؤسس الطائفة الحاملة لاسمه، وُلد بقصر العارفان وهي الهندوان قرية قرب مدينة بخارى من أوزبكستان سنة 718 هـ² حوالي 1317 ميلادياً، وقد تنبأ بميلاده الشيخ محمد بابا السماسي عندما مرّ يوماً من قصر العارفان. وعهد بتربيته إلى عناية سيدي أمير كلال عن طريق شيخه الشيخ محمد بابا السماسي. أمّا التدريب الروحي فقد تلقاه عن أويس بن عمر القرني³ بواسطة روح عبد الخالق العُجدواني⁴.

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 523-521.

2 نقل كوبولاني هذه التواريخ من كتاب "جامع الأصول" للشيخ أحمد الكمشخاني النقشبندي الخالدي فجعل سنة 718 هـ سنة ميلاد الشيخ بهاء الدين وسنة 1388 هـ/1388 م سنة وفاته.

3 أويس بن عمر القرني توفي سنة 37 للهجرة (657-58 م) لم يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو من أهل اليمن وكان مجاب الدعوة وأوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، واتصل به الخليفة عمر بن الخطاب ودعا له نزولاً عند وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو مؤسس الأويسية وقد تلاشت الآن تماماً، وحسب الشيخ السنوسي يعتبر هذه الطريقة أحسن مرتكزاته إذ يتلقى المریدون فيها الإعداد النفسي من روح الشيخ أويس، أما لدى النقشبندية فكل الشيوخ الذين تحصلوا هكذا على هذا الإعداد يسمون الأويسيين. كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية.

4 ولد عبد الخالق العُجدواني بقرية عجدوان القريبة من بخارى ونشأ وتوفي ودفن بها. سأل العُجدواني شيخه

يذكر الشيخ أحمد الكمشخاوي في كتابه "جامع الأصول في الأولياء" المطبوع بالقاهرة سنة 1298هـ/1880م. أنّ شاه النقشبند بهاء الدين كان خليفة للقادرية والسهورودية والكبروية والجشتية وستّ وثلاثين طائفة أخرى عددها الشيخ أحمد. ويقدم كتاب "الحقائق الوردية" تعداد الشيوخ المربين اللاحقين بالطائفة النقشبندية بالقادرية والسهورودية والكبروية والجشتية.

وتوفّي الشيخ بهاء الدين النقشبندي سنة 791هـ/1388م، ودفن ببخارى مسقط رأسه. وترك طريقته المنتشرة في الصين وتركستان والهند وتركيا، وكتاب: "الأوراد البهائية" وكتاب: "سلك الأنوار وهداية السالكين".

يقول "كوبولاني": بهاء الدين محترم في التركستان، ويأتيه الزوّار من أقصى الصين لتقديم التّرحمات على قبره المنصوب في روضة على بعد ثمانية كيلومترات من بخارى.

هذا ما رواه "كوبولاني" ورفيقه "ديبون" في كتابهما "الطوائف الدينية". أما ماورد في "الفتوحات الحقانية في مناقب أجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية العلية" لعنان محمد القبّاني: فإن اسم الشيخ هو محمد بن محمد بن محمد بهاء الدين الشاه

عن حقيقة الذكر الخفي وكيفيته، لأن العبد إذا ذكر جهرا وبتحريك الأعضاء اطلع عليه الناس، وإن ذكر في قلبه فإن الشيطان يطلع عليه لأن الرسول صلى الله عليه وسلّم قال إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق! نا به يحطهم السيد شكري سفة طبيب أسنان لباني الأصل ويقوم ببعض خواتيم الخواجكان والحضرة الجماعية، ين بتونس ولهم اجتماعات بدار. وما لبث أن اهتدى إلى طريقة في الذكر، وهي أن يغطس في الماء ويذكر بقلبه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فكان أول من اشتغل بالذكر الخفي على هذه الطريقة وأزل من أدخل هذا النوع من الذكر في التصوّف. ولازم الشيخ يوسف الهمداني، لكنّ الشيخ أقرّ تابعه على طريقته لأنها طريق الصدق والوفاء ومتابعة الشرع وستة المصطفى صلى الله عليه وسلّم ومجانبة البدع، ومخالفة الهوى. وسافر إلى الشام حيث بنى زاوية وربّي الكثيرين وترك العديد من الخلفاء في مدن وقرى العالم الإسلامي لا سيما في وسط غرب آسيا. ووضع الغجدواني "الختم" النقشبندي وترك عدّة وصايا شرحتها أبو الخير فضل بن روزبهان خواجه مولانا الأصبهاني منها قوله "يا بني أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم الستّة والجماعة، وقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلين، ولازم صلاة الجماعة، وإيّاك والشهرة، فإنّها آفة، وكن واحدا من الناس ولا تميّل لمنصب ولو كان محمودا" (محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص 16)

1 هو أحمد بن مصطفى بن عبد الرحمان الكمشخاوي النقشبندي ولد في كمشخانة بولاية طرابزون سنة 1277هـ/1812م. تعلّم بالآستانة ثم انصرف إلى الوعظ والإرشاد والتأليف، ثم رحل إلى مصر حيث أقام فيها ثلاث سنوات أنشأ خلالها مطبعة طبع الكتب وتوزيعها مجانا على فقراء العلماء. ثم عاد إلى الآستانة وأنشأ فيها ثلاث مكاتب للجمهور وظل ينشر العلم حتى وفاته سنة 1311هـ/1893م. له نحو خمسين كتابا منها "جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأصنافهم وأصول كل طريق" وكتاب "روح العارفين وارشاد الطالبين في التصوّف" (محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص 71).

نقشبند الأوسي البخاري، وأنه وُلد في 14 محرم الحرام سنة 717 هـ. وعندما بلغ سنّه ثمان عشرة سنة أرسله جدّه إلى سماس لخدمة العارف الشيخ محمد بابا السماسي الذي تنبأ بميلاده من قبل وبشّر به، فتلقّى الطريقة عنه [وأخذ عنه السكينة والخشوع والتضرّع]² وبقي معه حتى توفّي، فصحب الشيخ أمير كلال. قال الشيخ بهاء النقشبندي: "ولما توفي حضرة الشيخ محمد بابا السماسي قدس سره أخذني الجدّ إلى سمرقند، فكان كلّما سمع برجل صالح من أهل الله حملني إليه وسأله الدعاء لي فكانت تنالني بركتهم حتّى أتى بي إلى بخارى وزوّجني بها، وكانت إقامتي بقصر العارفان.

ومن العناية الإلهية بي أنّه وصلت إليّ قلنسوة العزيزان³ في تلك الأوقات فتحسّنت أحوالي وقويت آمالي إلى أن حظيت بصحبة السيد أمير كلال قدس سره وأخبرني بأنّ حضرة الشيخ محمد بابا السماسي قدس سره أوصاه بي .." ثمّ صحب من بعده السيد أمير كلال. قال الشيخ متحدّدًا عن نفسه أنه اشتغل في أوائل الطلب والجذبة بجبر الخواطر وخدمة العاجزين والضعفاء الذين لا يكثرث بهم أحد من الناس مع المحافظة على تمام المسكنة والتواضع والانكسار، ثم أمر بخدمة الحيوانات ومداواة أمراضها وجروحها بنفسه مع الإخلاص والتذلّل، ثمّ دخل في خدمة الكلاب حتّى أنه إذا اعترضه كلبٌ في الطريق وقف له حتّى يمرّ، فكان يعمل ذلك بصدق طوية وإخلاص نية حتّى فتح له.

واتصل بأمير كلال⁴ فلقّنه الذكر بالنفي والإثبات خفية وهو قول { لا إله إلاّ الله }

1 هو الشيخ محمد بابا السماسي ولد بسماس على بعد ثلاثة أميال من بخارى، أتقن العلوم العقلية والنقلية، ثمّ صحب العزيزان (علي الراميتي) وأقبل على المجاهدات والرياضات ففاق الأقران، وقد أوصى شيخه بخلافته من بعده، وتوفي محمد بابا سماسي بسماس تاركا عددا كبيرا من المريدين والخلفاء أشهرهم أمير كلال. (محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص131).

2 ما بين [...] إضافة من (محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص18)

3 العزيزان هو أحد أفراد السلسلة النقشبندية من أشياخ شاه النقشبند وهو الشيخ علي الراميتي من قرية راميتين بالقرب من بخارى سلك على يد الشيخ محمود الأنجيرفغونوي وورثه توفي سنة 721هـ/1321م. وعاش مائة وثلاثين سنة، له شعر جيّد بالفارسية وقد عرّب بعضه منه :

مَنْ لَمْ يُفْذِكْ حُضُورَ الْقَلْبِ صُحْبَتَهُ وَعَنْكَ غَيْمَ الْهُوَى وَالْتَفْسَ مَا كَشَفَا
إِنْ لَمْ تُفَارِقْهُ تَحْصِيلاً لِحُضْرِكَ لَمْ تَقْبَلْ رُوحَ الْعَزِيزَانِ الَّذِي عَرَفَا
وَإِذَا رُمْتَ قُرْبَ الْحَقِّ دَخَّ كُلُّ فِرْقَةٍ وَفِرْقَةُ أَهْلِ الْحَقِّ بِالصِّدْقِ قَاصِبِ
وَإِنْ رُمْتَ إِمْدَادَ الْعَزِيزَانِ قَاتَهُ عَلَى الرَّاسِ وَالْعَيْنَيْنِ سَعِيًّا تَقَرَّبِ

(عن محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص115).

4 أمير كلال شيخ شاه نقشبند ولد وتوفي بقرية سوخار القريبة من بخارى، لما شبّ حذق فنّ المصارعة. ولما شاهد الشيخ محمد بابا السماسي المنجذب نحوه ولازم صحبته عشرين عاما، أتقن الذكر وأصول الطريقة، ودخل

وأمره بالاشتغال به، ثم لازم العلماء لاقتباس العلوم الشرعية واقتفاء آثار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم اجتهد بالخلوات والرياضات والتقرب إلى الله حتى بلغ درجات رفيعة، فكان يحضر بالبستان الذي فيه ضريحه مع جماعة فتغلب عليه الجذبات فيغيب ويرى الرؤى، ويبقى هكذا الساعات الطوال، ثم يرجع إليه رشده. وحج ثلاث مرات، ومرّ أخيراً بِمَرَوْ فَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى بَحَارَى وَأَقَامَ فِي قَصْرِ الْعَارِفَانِ وَكَانَ يَعْرِفُ قَبْلَ بِقَصْرِ الْهِنْدَوَانَ، فَطَارَ صَيْتُ إِرْشَادِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَقَصَدَتْ النَّاسُ رِحَابَهُ مِنْ كُلِّ الْبُلْدَانِ.

ولما بلغ سبعا وسبعين سنة مرض مرضه الأخير، فخرج إلى الرباط ودخل خلوته، وطفق أصحابه يتوافدون عليه وهو يوصي كل واحد منهم بما يناسبه، حتى بلغ ليلة الاثنين الثالث من ربيع الأول سنة 794 هـ أخذ أصحابه في تلاوة سورة "يس" فلما أتموها رفع شاه نقشبند يديه بالدعاء، فدعا ثم مسح وجهه ولبي داعي ربه وارتحل إلى الرفيق الأعلى. ودفن ببستانه كما أوصى، وجاء أتباعه من بعده وبنوا على قبره قبة عظيمة وحولوا البستان إلى مسجد فسيح، وبالغ الملوك بعده في الاعتناء بالقبة والمسجد ووقفوا الأوقاف الكثيرة عليهما.

لشاه نقشبند صلوات على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها: "اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الْحَقُّ الْمُبِينُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيَّ رَأْسِ الْأَنْبِيَاءِ وَنَبِيِّ الْأَوْلِيَاءِ، وَزَبْرِقَانَ الْأَصْفِيَاءِ وَضِيَاءِ الْخَافِقِينَ"، كما ترك عدة رسائل منها "الأوراد البهائية" وقد قام أتباعه بشرحها وسموها "منبع الأسرار"، و"تنبيه الغافلين" و"سلك الأنوار" و"هدية السالكين وتحفة الطالبين"، واشتهر بنظم بعض الآيات الحكمية بالفارسية قام مريدوه بتعريبها من ذلك قوله :

أَتَيْنَاكَ بِالْفَقْرِ لَا بِالْغِنَى وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُحْسِنًا [من بحر المتقارب]

أوقوله: مَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ تَبَرَّأ مِنْ فَتَى يُؤَخَّرُ فَعَلَ الْيَوْمَ مِنْهُ إِلَى الْعَدِ [من البحر الطويل]
ومن أقواله، وقد سئل عن اطلاع أهل الله على الخواطر الخفية والأحوال: "بنور الفراسة التي أكرمهم بها الله تعالى كما ورد في الحديث: {اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر

الخلوة وأكثر من النوافل، وكان يزور شيخه في سماس كل اثنين وخميس، ولما توفي السماسي خلفه في مشيخة الطريقة (درنيقة، 74).

بنور الله}“ وطلب منه مريدوه إظهار كرامة فقال: “مَشِينًا على الأرض مع وجود هذه الذنوب أظهر الكرامات” وقال أيضا: “الصلاة والصيام والمجاهدة هي طريق الوصول إلى الله”. وسئل: بماذا يصل العبد إلى طريقكم؟ قال: “بمتابعة سنة رسول الله. إن طريقنا من النوادر، وهي العروة الوثقى، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنّية واقتفاء آثار الصحابة الكرام”. ويقول معللا اقتصره على السرّ في الذكر: “هناك طريقان في الذكر سرّ وجهر، فاخترت منهما السرّ لأته أقوى وأولى”.

وينقل النقشبندية عنه أنه كان زاهدا متقشفا حريصا على الكسب الحلال، فكان يأكل خبز الشعير الذي يزرعه بنفسه، وكان يلبس جبّة من الصوف، وكان محبّا للفقراء يصنع لهم الطعام بيده ويخدمهم ويواسيهم، لذلك أحبّه الجميع واعترفوا بفضله.

أخبار الطريقة: تأسست الطائفة النقشبندية ببخارى حوالي القرن الثامن للهجرة الرابع عشر الميلادي، طبعاً على يد صاحبها محمد بهاء الدين الأوسي البخاري المعروف بنقشبند. وتألّف السلسلة الذهبية لشيخها على هذا النحو: الملاك جبريل عليه السلام فمحمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فسلمان الفارسي رضي الله عنه، فالقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، فجعفر الصادق، فأبو يزيد طيفور بن آدم بن سروشان البسطامي المتوفى سنة 264هـ/877م، فأبو الحسن الخرقاني [لعله المتوفى سنة 425هـ/1033م]، فأبو علي الفارمدي¹ فيوسف الهمداني فعبد الخالق

1 هو أبو علي الفضل بن محمد الفارمدي الطوسي نسبة إلى فارمد من قرى طوس، كان عالماً شافعيًا تفقه على الغزالي الكبير وأبي عثمان الصابوني، وصحب القشيري، وأخذ عنه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، تلمذ لأبي القاسم القشيري ولأبي القاسم الكركاني وأبي الحسن الخرقاني الذي رآه وصبّ في صدره العلم الشريف الذي صبّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صدر أبي بكر الصديق. واتصل بخدمة الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير من بلدة ميهنة وتبعه إلى محلّه، ولتأ سافر الشيخ إلى نيسابور رجع أبو علي إلى خدمة شيخه أبي القاسم القشيري، ثم توجّه إلى طوس لخدمة أبي القاسم الكركاني فتلمذ عليه وأخذ عنه الرياضات وتزوج من ابنته. ثم توجّه إلى أبي الحسن الخرقاني وبقي عنده حتى تحقق بالبقاء في الله بعد الفناء فيه، وانتقل إليه السرّ الأعظم من قلب أبي الحسن الخرقاني وتولى بعده الإرشاد والتسليك للمريدين والطلّابين حتى توفّي سنة 447هـ وخلفه يوسف الهمداني. (بتصرف عن عدنان محمد القباني، الفتوحات الحقانية، ص 126) ويعلق كوبولاني: “من أبي علي الفارمدي تتصل السلسلة بعلي بن أبي طالب عن طريق أبي القاسم الخرقاني فأبي عثمان الغربي فأبي علي الكاتب فأبي علي الروذباري فأبي القاسم الجنيد البغدادي فالسري السقطي فمعروف الكرخي ومن معروف الكرخي، داود الطائي، وحبيب العجمي والحسن البصري، فعلي بن أبي طالب وتتصل السلسلة أيضا إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ومن معروف الكرخي، إذن، علي الرضا [وهو الإمام المقدّس الأجل لدى الشيعة الفرس الذي وقع تعيينه من الخليفة المأمون لخلافته، لكن العائلة العباسية هددت بالثورة وكذلك الجند والموظفون؛ فاضطر المأمون إلى إرجاع الهدوء، ووقع تسميم علي الرضا. والمكان الذي مات فيه وهو مسجد علي مازال مزارا كبيرا

العجدواني فعارف الريكوري فمحمود الإنجبر فغنوي فعزير بن علي الراميتي المتوفى سنة 721 هـ/ 1321 م، فبابا السماسي فأمرير كلال¹ فمحمد البخاري الأويسي شاه نقشبند بهاء الدين.

وتشمل السلسلة التالية شيوخ التربية الذين خلفوا الشاه النقشبندي بهاء الدين وهم: الشاه النقشبندي بهاء الدين محمد البخاري، ثم علاء الدين العطار²، ثم يعقوب السمرقندي الجرخي الحصارى، ثم عبد الله الأحرار السمرقندي، ثم محمد الزاهد بدخشي، ثم درويش محمد، ثم محمد الأمكنكي، ثم محمد الباقي، ثم أحمد الفاروقي السرهندي، ثم محمد المعصوم، ثم سيف الدين، ثم نورالدين محمد البدواني، ثم شمس الدين، ثم حبيب الله، ثم جان جنان مظهر، ثم عبد الله شاه الدهلوي [وهذا هو الشيخ الذي أمدّ الشيخ السنوسي بالورد والإجازة النقشبندية] ثم ضياء الدين، ثم محمد خالد العثمان النقشبندي، ثم الحاج أحمد بن سليمان الطرابلسي (طرابلس الغرب) وعنه أخذ الطريقة أحمد الكمشخاني النقشبندي (طرابلس الغرب) وهو مؤلف كتاب "جامع الأصول في الأولياء" المطبوع بالقاهرة سنة 1298هـ/1880م.

هذه سلسلة الغرب على ما يظهر كما وصفها "كوبولاني". أما عدنان القباني³ فقد سرد سلسلة أخرى تظهر أنها شرقية وهي أنّ خليفة الخواجة بهاء الدين النقشبندي محمد الأويسي البخاري هو محمد علاء الدين البخاري الخوارزمي العطار، ثم يعقوب الجرخي (التشرخي) السمرقندي، ثم ناصر الدين عبيد الله الأحرار الشاشي السمرقندي، ثم محمد الزاهد القاضي، ثم الدرويش محمد السمرقندي، ثم محمد الخواجكي الأمكنكي

للفريس]. علي الرضا، إذن فموسى الكاتم، فالإمام جعفر الصادق، فمحمد الباقر، فعلي زين العابدين فالحسين فعلي بن أبي طالب فمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

1 يعلق كوبولاني في الهامش فيقول: أنه في "الحدائق الوردية" [وهو كتاب كتب سنة 1306 هـ وطبع بالقاهرة سنة 1308هـ/1890م]: بعد عبد المجيد بن محمد الخاني الخالدي النقشبندي نجد أمير كلال قبل بابا سماسي وهو الصحيح فالأول كان تلميذاً للثاني.

2 هو محمد بن محمد علاء الدين البخاري العطار ولد ببخارى وتنازل عن ميراثه لأخويه، وطلب العلم في بخارى، ثم صحب شاه نقشبند وسلك على يديه وتزوج من ابنته؛ وكان من أهل الصحوة، فكان مقرباً من شيخه. توفي سنة 802هـ/1399م. ودفن في جفانين من أعمال بخارى؛ وخلفه في مشيخة الطريقة ابنه حسن المتوفى سنة 826هـ/1422م. ومن أقواله: "لِحَيْرٍ وَأَقَوْمٍ أَنْ تَكُونَ بِجَانِبِ اللَّهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ بِجَانِبِ خَلْقِ اللَّهِ" وقوله: "إِلَامٌ تَعْبُدُ قُبُورَ الْأَوْلِيَاءِ؛ إِشْغَلَ نَفْسَكَ بِأَعْمَالِهِمْ تَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ."

3 عدنان محمد القباني، النضاح الحقانية في مناقب أجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية، ص 37، 38، 39.

السمرقندي، ثم مؤيد الدين محمد الباقي، ثم أحمد الفاروقي السرهندي، ثم محمد المعصوم، ثم محمد سيف الدين الفاروقي المجددي ثم نور محمد البداوني، ثم شمس الدين حبيب الله جان جانان مظهر، ثم عبد الله الدهلوي المعروف بـغلام عليّ، ثم خالد بن حسين الشهرزوري، ثم إسماعيل الأناراني، ثم خاص محمد الداغستاني، ثم محمد أفندي اليراعي، ثم جمال الدين الغموي الحسيني، ثم أبو أحمد عبد الرحمان الصغوري، ثم أبو محمد المدني، ثم شرف الدين الداغستاني، ثم عبد الله الفائز الداغستاني، ثم محمد ناظم عادل الحقاني النقشبندي المولود في 21 أبريل 1922 الموافق ليوم الأحد 26 شعبان الأكرم 1341 هـ بأسكلة-لارنكا مدينة من جزيرة قبرص. كما ذكر محمد درنيقة في كتابه "الطريقة النقشبندية وأعلامها" سلاسل أخرى.

ويقول "كوبولاني": وككل الطرق الأم، تفرعت النقشبندية شيئا فشيئا بحسب تطورها إلى فروع مستقلة، ربما تنقسم هي نفسها إلى جماعات، لكن مركزها الرئيسي هو بخارى.

وحوالي بداية القرن الثالث عشر الهجري، زمن حدوث حركة التجديد الديني الناتجة عن الهجومات التي وجهتها الأمم المسيحية ضدّ الخلافة العثمانية، حاول الشيخ ضياء الدين زين الغنيهين مولانا خالد أن يوحد مختلف الفروع النقشبندية المنتشرة بتركيا في صف واحد. ولكن، مجرد وفاته رجعت كل فروع إلى استقلاله، وبلغت الفرقة ذروتها في أوائل القرن الرابع عشر الهجري.

إذن، الزاوية الأم في بخارى، أما بإسطنبول فنعدّ أكثر من أربعين تكية (زاوية) وتوجد زوايا بكامل تراب تركيا. أما بمصر فليس للنقشبندية هناك إلا زاوية مهجورة، لكن بالسعودية هناك زاوية مجدة وعليها مقدم، وأخرى بالمدينة المنورة.

أما بسمرقند فالزوايا عديدة، وكذلك بمرؤ وخيوه، وطشقند، وهراة، ونجد مردين حتى بالتركستان الصيني وخوخذ بالشرق وفي أفغانستان وفارس (إيران) وبلوخستان والهند؛ وكل هذه الفرق حافظت على التسمية الأم، ولكن بعضها وضع نفسه تحت إشراف الشيوخ التي أسسوها مثل: السليمانية والبقتشية والعلوانية والبيرمية والملامية.

وانتشرت النقشبندية بمبادئها وزواياها بتركيا الأوروبية كما بتركيا الآسيوية، غير أن أصلها واتجاهاتها لم تسمح لها بالانتشار في إفريقيا، فهي ليست معروفة هناك البتة، رغم كونها مثل بقية الطوائف الأخرى التي نجحت في نشر تعاليمها لدى الجموع الشعبية، ففتنتها وأدخلتها تحت نفوذها. هذا ما ورد عن "كوبولاني" أي حوالي 1890م، أما الآن فيظهر أنها انتشرت بمصر والعراق وسوريا وكامل الشرق الأوسط وهي تتسلسل إلى المغرب العربي، وقد يكون لها في مستقبل الأيام انتشار أكبر.

ونورد فيما يلي أشعار بعض النقشبندية وأخبارهم:

فنبداً بالشيخ إلياس كرم، قال [من البحر الطويل]:

وَحَقُّ الْهَوَىٰ إِنِّي بِمُحَبِّكَ مُغْرَمٌ وَفِي الْقَلْبِ أَشْوَاقٌ وَفِيهِ تَضَرُّمٌ
مَشُوقٌ لِدَيَّاكَ الْجَمَالِ وَإِنِّي أَسَامُ بِهِ نَفْسِي وَمَالِي وَأَعْدَمٌ
وَفَاجَأَنِي هَذَا الْعَرَامُ وَإِنِّي فَقِيرٌ وَفِي شَرَعِ الْهَوَىٰ لَسْتُ أَعْلَمُ
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَلَكَتْ طَرِيقَةً أَدِلًّا وَهَذَا كُلُّ شُمُوسٍ وَأَنْجُمُ
طَرِيقَتُنَا لِلنَّقْشَبَنْدِ وَخَالِدٍ² طَرِيقُ وَصُولِي، لَا كَمَا يُتَوَهَّمُ

فَشَاهَدْتُ أَنْوَارًا وَحُزْتُ مَعَارِفًا وَمِلْتُ عَنِ الدَّارَيْنِ أَنْ تَمَّ أَكْرَمُ
فَأَصْبَحْتُ ذَا شَوْقٍ لِرَبِّي وَلَمْ أَكُنْ كَذَاكَ، قَائِنَ المُنْكَرُونَ؟ لَقَدْ عَمُوا!

1 إلياس كرم المتوفى سنة 1383هـ/1963م أسلم على يد الشيخ ذي الفقار (الكردي الأصل) وسلك عليه النقشبندية. كان الشيخ إلياس غزير النظم لاسيما في المناجاة الإلهية وفي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح شيخه النقشبندي (درنيقة، 139).

2 هو خالد بن حسين الشهرزوري العثماني الشهير بذي الجناحين ولد سنة 1193هـ/1779م بقرية (قره داغ) القريبة من السلیمانانة شمال العراق. حفظ القرآن ودرس الصرف والنحو والفقہ على المذهب الشافعي، ومال منذ نعومة أظفاره إلى الزهد والإقبال على الجوع والسهر منقطعاً للعبادة والتبذل، ثم قام برحلات عديدة، ورجع إلى وطنه ودرس على مشائخ منهم عبد الكريم البرزنجي وشقيقه عبد الرحيم. وسلك الطريق على يد الشيخ عبد الله الدهلوي النقشبندي حتى نصبه شيخه خليفة له. وساح في عديد البلدان ودرّس وحاضر. وتوفي عام 1242هـ/1826م ودفن بسفح جبل قاسيون. أفرد له محمد أحمد درنيقة في الطريقة النقشبندية وأعلامها ترجمة حافلة بالصفحة 79.

ويقول محمد الحامد¹ [من البحر الكامل]:

يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ مَا لِي حَيْلَةٌ إِلَّا الرَّجُوعُ إِلَيْكَ يَا رَبَّنَا!
 أَنَا قَدْ أَسَأْتُ وَأَنْتَ رَبُّ غَافِرٍ غَوَّنَاهُ مِمَّا قَدَّ عَرَا غَوَّنَاهُ!
 يَا سَيِّدِي يَا مَنْ إِلَيْهِ شِكَايَتِي أَوَاهُ مِمَّا نَابَنِي! أَوَاهُ!
 أَذْرِكُ بِلُطْفِكَ نَادِمًا ذَا حَسْرَةٍ مُسْتَغْفِرًا مِمَّا جَنَّتُهُ يَدَاهُ
 مَا لِلضَّعِيفِ إِذَا أَلَمَّتْ كُرْبَةٌ إِلَّا الدُّعَاءُ: اللَّهُ يَا اللَّهُ!

ويقول من [البحر الخفيف]:

خَطَرَاتُ الْهَمَى تَرُوحُ وَتَعْدُو وَلِقَلْبِ الْمُحِبِّ حَلٌّ وَعَقْدُ
 وَأَخُو الْحُبِّ بِالْوَفَاءِ مُوَافٍ أَمْرُهُ فِي الْعَرَامِ صِدْقٌ وَعَهْدُ
 شَوْفُهُ طَائِرٌ إِلَى الْحُبِّ مَا لِلشَّوْقِ فِي مَذْهَبِ الْمُحِبِّينَ حُدُّ
 رَبِّ! عِذْ بِالْحَتَّانِ وَارْحَمْ عُيَيْدًا مَا لَهُ مِنْ سُؤَالِ عَفْوِكَ بُدُّ
 وَأَذْفُهُ مِنَ الرِّضَا نَفْحَاتٍ مَا إِلَيْهِنَّ فِي الْمَدَاقَةِ شَهْدُ
 صَلَّى رَبِّي دَوْمًا عَلَى قَلْبِ حَبِي وَعَلَى الْآلِ مَا تَرَدَّدَ حَمْدُ
 مَعَ سَلَامٍ تَهَنَّا بِهِ الرُّوحُ مِنْهُ مَا تَعَنَّى حَادٍ وَأَقَمَرَ سَعْدُ

ويقول محمد جميل الخطيب² [من البحر البسيط]:

يَا ذَا الْجَلَالِ! وَيَا مُتَعَالِ! يَا أَبَدِي! أُمْنُنْ بِفَضْلِكَ ... بَلِّغْنِي مَا رَبِّي

1 محمد الحامد ولد بحماة سنة 1328هـ/1910م وعندما بلغ ست سنين توفي أبواه في الحرب العالمية الأولى حيث الجوع والخوف. تلقى دروسه الابتدائية بحماة، وفي سنة 1343هـ/1924م دخل المدرسة الشرعية بحماة وكان يحضر حلقات العلم بمساجد المدينة. وفي عام 1347هـ/1928م سافر إلى حلب لإتمام دراسته الشرعية، فالتقى بالشيخ أبي نصر خلف الحمصي وسلك عليه الطريقة النقشبندية. وسافر إلى مصر للدراسة العليا في الأزهر حيث أنهى دراسته سنة 1362هـ/1942م ورجع إلى حماة ليناضل ضد الاستعمار والصهيونية ويدرس ويحاضر حتى وافاه الأجل عام 1389هـ/1969م ودفن بحماة تاركا كتباً.

2 محمد جميل الخطيب كان حياً في حدود سنة 1376هـ/1956م. وكان يكتب نفسه محمد جميل آل الخطيب الأشعري اعتقاداً الشافعي مذهباً النقشبندي طريقة الطائشماني مولداً وموطناً (درنيقة، ص 134).

رَبَّاهُ! رَبَّاهُ! يَا غَوَّاهُ! جُدْ كَرَمًا عَلَى عُبَيْدِكَ فِي حَرْبِ الْمَحَابِبِ
يَا غَافِرِ الذَّنْبِ! يَا سَتَّارِ الْعَيْبِ يَا كَاشِفِ الْكَرْبِ إِمْنَحْنِي مَطَالِبِي
أَتَيْتُ إِلَيْكَ أَشْكُو الْحَالَ، يَا أَمَلِي أَحِبْ سَوَائِي لُطْفًا فِي أَسَالِبِي
عِلْمُكَ بِحَالِي، إِلَهِي! يُغْنِ عَنِّي فَأَنْتَ وَهَّابُ! عَجَّلْ لِي مَوَاهِبِي

ويقول أيضا [في شكل التلميح]:

صَلَوَاتُ الرَّحْمَانِ * وَسَلَامُ الْحَتَّانِ * عَلَى مَنْ بِالْهُدَى * جَاءَنَا وَالْقُرْآنُ
الرُّسُولُ النَّبِيُّ * مَدْحُهُ مَكْسَبِي * نَسَلُهُ عَرَبِي * مِنْ أَوْلَادِ عِدْنَانَ
إِنَّ اللَّهَ أَمْرٌ * فِي الْقُرْآنِ الْبَشَرُ * أَمْرُهُ مُعْتَبَرٌ * بِالصَّلَاةِ يَا إِخْوَانَ
يَا إِخْوَانِي صَلُّوا * عَلَيْهِ لَا تَمَلُّوا * بِالصَّلَاةِ حَلُّوا * ذِكْرُهُ كُلَّ أَنْ
فَصَلَاةٌ مَرَّةٌ * مِنْكُمْ مَسْرَةٌ * عَلَيْكُمْ عَشْرَةٌ * مِنَ اللَّهِ الْمَنَّانِ

ويقول الشيخ عمر بن عبد الغني الراجعي الفاروقي¹ [من البحر الخفيف]:

وَأَخِ لِي فِي اللَّهِ لَمَّا رَأَيْتَنِي خَالِيًا مِنْ مَشَاغِلِ الْكَسْبِيَّةِ
قَالَ لِي غَيْرَةً مَقَالَةَ حَقِّ اشْتَغِلْ بِالطَّرِيقَةِ النَّقْشِيَّةِ
أَيُّ شُغْلٍ لِلْعَبْدِ مِنْ دُونِ ذِكْرِ اللَّهُ يُعْلِيهِ لِلسَّمَاءِ الْعَلِيَّةِ
كُنْ مَعَ الْحَقِّ لِأَمَعِ الْخَلْقِ تَرَقَّى كُنْ مَعَ اللَّهِ فَهَيَّ خَيْرُ الْمَعِيَّةِ

1 عمر بن عبد الغني الراجعي الفاروقي ولد سنة 1299هـ/1881م في صنعاء باليمن، درس في طرابلس (لبنان) ثم في بيروت، ثم درس الحقوق في استنبول وسافر إلى القاهرة لتكملة الدراسة في الأزهر. وفي سنة 1324هـ/1906م. أراد أن يصدر جريدة فلم يحصل على الإذن، فرجع إلى طرابلس واشتغل بالمحاماة ثم موظفا بنظارة العدلية بالدولة العثمانية. وفي الحرب العالمية الأولى حكم عليه الإتحاديون بالإعدام ثم خففوه إلى المؤبد، وأطلق سراحه عند انهزام الإتحاديين عام 1337هـ/1918م. وعين قاضيا للتحقيق في بيروت ثم صيدا فعدة مدن أخرى... وأحيل على التقاعد سنة 1349هـ/1930م. فاعتزل المناصب ومال إلى النقشبندية، واتصل بالشيخ ذي الفقار بطرابلس وسلك عليه بالزاوية الشمسية قرب الجامع المنصوري الكبير [فقال من البحر الطويل]:

إِلَى ذِي الْفُقَارِ الْخَالِدِيِّ شَيْخِنَا الْكُرْدِي تَقَرَّبَ وَلَدُّ بِالْمُرْشِدِ الْفَرْدِ
وَأَيْقِنَنَّ أَنَّ الشَّيْخَ قُطِبُ زَمَانِهِ كَمَا كَانَ شَيْخُ الْحَيْدِ مُحَمَّدًا الْكُرْدِي
فَيَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْكُرْدِ كُلِّهِمْ إِذَا كَانَ قُطِبُ الْوَقْتِ مِنْ أَفْقِهِمْ يَهْدِي

وعند وفاة الشيخ عمر رثاه كبار الأدباء والشعراء (درنيقة، 118 - 120).

وكان رضي الله عنه يحاول تقريب وجهات النظر وعدم التفريق وإزالة الفوارق وذلك أصل من أصول النقشبندية فقال [من البحر الحفيف]:

لَا تَقُولُوا سُنيَّ وَشيعيَّ لِأَفْتَرَقَا لَا تُبِيحُوا الْمَقَالَ وَهُوَ حَرَامٌ
نَحْنُ فِي الدِّينِ إِخْوَةٌ إِي وَرَبِّي إِنَّمَا الدِّينُ عِنْدَهُ الْإِسْلَامُ

كيف دخلت الطريقة إلى تونس : في العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي، كان بعض طلبة كلية طب الأسنان بالمنستير من عراقيين ولبنانيين ومشاركة يجتمعون في غرفة أحدهم، لإقامة حضرات نقشبندية، ودعوا لها بعض الطلبة من التونسيين، فأخذوا عنهم الطريق وربّما تعرّف بعضهم بالشيخ محمد عثمان الملقب بسراج الدين الثاني بتركيا عن طريق الهاتف، وقد يكون الشيخ أذن لهم بالذكر والدخول في الطريقة، من هؤلاء الجماعة: السيد شكري سफطة والسيد محمد الدقدوق والشيخ محمد الشتيوي مدير كلية الشريعة وأصول الدين بتونس، ولهم اجتماعات بدار أحدهم بالوردانين، ويقود الفرقة طبيب أسنان لباني الأصل ويقوم ببعض خواتيم الخواجكان والحضرة الجماعية، غير أنهم لم يتمكنوا من إحداث جماعة يعتدّ بها خصوصا وقد انقطع اتّصالهم بالشيخ إثر وفاته منذ بضعة أعوام تقريبا.

ووالد محمد عثمان واسمه علاء الدين العثماني هو الذي أحيا الطريقة بتركيا، في هذه السنوات القريبة، بعد خممول، وتركها في يد ابنه سراج الدين الثاني الذي توفي منذ بضع سنوات تقريبا فانقطعت بموته الرابطة الروحانية التي يستحضرها المرید ساعة بدء الذكر. وقد عثرنا في كتاب "أعمال ملتقى التصوّف الإسلامي العالمي" الصادر بالجماهيرية سنة 1995 على أسماء بعض شيوخ الوقت منهم الشيخ عثمان سراج الدين بتركيا، والشيخ أحمد كفتارو مفتي سورية ومجمعه الشهير، والآن الشيخ رجب ديب أدام الله بقاءه وهو المدرس بإدارة الإفتاء، والشيخ أحمد حسونة بسوريا، والشيخ محمد جوسي بسيريلنكا، وممثل الشيخ علاء الدين النقشبندي وغيرهم ... وهكذا تكون عادة الاتصال بالروحانية الحيّة ما زالت بصدد الممارسة وكأنها استعمال ما يسمّى بالتليباثيا (Télépathie). غير أنّ الواقع هو محاولة التلميذ استحضار صورة أستاذه حتّى إذا تمثّلها أصبح يشعر بأنّه مراقب ويخجل من عين أستاذه أن يخرج عن المعقول أو أن يغفل عن

الواجب، وهو تدريب على المراقبة وتطبيق لـ {أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك}، لذلك قال المريد بعد أن توفي الشيخ: "لقد انقطعت الآن الرابطة"، ولكنها ستربط من جديد مع الله تعالى الحيّ الدائم الذي لا يموت.

أصول الطريقة : (نقشبند) كلمة فارسية تتألف من شقين، (نقش) وهي النقش أو الطبع و(بند) الجسد أو القلب وقيل معناه (الذكر) ف(نقشبند) هي (النقش على الجسد) أو (الطبع الذي لا يُمحى). وأورد عدنان محمد القباني في كتابه "الفتوحات الحقانية" ابتداء من الصفحة 347 من النسخة التي بين أيدينا دليلاً للمريد النقشبندي به آداب وأوراد وأذكار الطريقة النقشبندية، فليراجع ذلك هناك.

وترمي تعاليم النقشبندية إلى إحياء تعاليم الإسلام بمجاهدة بدع المبتدعين والرجوع بالمسلمين إلى مبادئ أبي بكر الصديق. وحسب كتاب "جامع الأصول" أركان الطريقة ستة وهي: 1- الرجوع إلى الله بالتوبة والندم. 2- التخلي عن الدنيا. 3- كراهة الغنى، والتقشف والأخذ بالصرامة في الأخلاق. 4- خوف الله وخشيته. 5- القناعة، والتحكّم في الشهوات. 6- الخضوع الكامل للأوامر الإلهية.

وتعتمد هذه الأركان على أصول ستة هي :

1- العلم. 2- الرفق. 3- الصبر. 4- الرضا بكل ما يأتي من عند الله. 5- الإخلاص. 6- إظهار الرضا الفطري عند الاستسلام لمأمورات الله ولو ضد ما يحب المريد. وقواعد الطريقة ست أيضاً مثل أسسها وأصولها، وهي :

1- المعرفة. 2- اليقين. 3- المروءة والكرم. 4- الصدق. 5- الحمد. 6- التفكير في خلق الله. وهكذا تكون مقتضيات الطريقة ستة أيضاً وهي: 1- الذكر. 2- التخلي عن الرغبات الدنيوية. 3- التخلي عن الدنيا. 4- مراقبة الدين. 5- فعل الخير مع مخلوقات الله تعالى. 6- عمل الصالحات.

وحقائق قوة النقشبندية¹ ست أيضاً: 1- حقيقة الجذبة. 2- حقيقة الفيض. 3- حقيقة الإرشاد. 4- حقيقة الطي. 5- حقيقة التوسّل. 6- حقيقة التوجه.

1 عدنان محمد القباني، النضجات الحقانية في مناقب اجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية، ص 41. بدون تاريخ ولا مكان نشر.

فمداراً الطريقة يقوم على: التحقق بكمال الإيمان بالله وبرسوله، والتحقق بكمال الإسلام بالتزام العبد بجميع الأحكام الشرعية مع إظهار العجز والافتقار والذل والانكسار والتسليم والتحقق بكمال الإحسان أي تصفية العمل من طلب عوض أو قصد غرض أو رياء أي أن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى. هذا وقد وضع عبد الخالق الغجدواني وشاه نقشبند كلمات تعتبر الأصول الأولى للطريقة النقشبندية وهي:

وقوف زماني : وهو عبارة أن تكون واقفاً على أحوال نفسك فإن كانت موافقة للشريعة مرضية لله تعالى فاشكره وإلا فاستغفره. (أي التفتد الناقي المستمر)، ويقول الشيخ رجب ديب السوري المولود سنة 1931 أن الزمن واللحظات إما أن تكون لحظات تذكّر أو لحظات غفلة عند كل نفس يختلج في الصدر فإن كان الوقت مشغولاً بالذكر فعلى المرء أن يحمد الله وإن شغل بغير الذكر فهو زمن غفلة وتجب التوبة منه بالاستغفار. و**وقوف عددي :** وهو شعور الذاكر عند ذكره بعدد الذكر وهو أول درجة من درجات العلم اللدني.

وقوف قلبي : وهو توجه قلب الذاكر إلى المذكور بحيث لا يغيب عن مراقبته ولا يلتفت إلى غيره.

ونظر بر قدم : وهو أن يكون نظر السالك إلى قدميه عند سيره وأن لا ينظر إلى الأفاق وهي حالة تورث التواضع.

وهوش دردم : أي العقل في النَّفس أي أن يحفظ العاقل نَفْسَه من الغفلة الأمر الذي يؤدي إلى حضور القلب مع الله.

وسفر در وطن : وهو السفر في الوطن أي يقصدون أن السالك يتوجه بكليته إلى الحقّ جلّ وعلا، ويكون السفر من بلد إلى بلد سعياً وراء المرشد الكامل أو السفر الباطني أن يترك السالك شهواته وينتقل من الصفات الخسيسة إلى الصفات الحميدة.

و خلوة درانجمن : أي الخلوة في الجلوة أي وسط الناس يقول شاه نقشبند: (أن يكون العبد في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق :

فَقِي بَاطِنٍ كُنْ صَاحِبًا غَيْرَ غَافِلٍ وَفِي ظَاهِرٍ خَالِطٍ كَبَعْضِ الْأَجَانِبِ)

وياد كرد : وهو (الذكر) وهو أن يغمض الذاكر عينيه ويُطبق الفم ويجعل السن على السن ويلصق اللسان بعرش الفم ويحبس النفس ويذكر بالقلب لا باللسان (لا إله إلا الله) ويقول بعد ذلك في القلب (محمد رسول الله) ويكررها على قدر قوة النفس.

وباز كشت : وهو الأساس : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) ولهم عبارة لطيفة: (ما ذكرناك حقّ ذكرك يا مذكور).

ونكاه دشت : وهو الحفظ وهو أن يُقصر الذاكر قلبه على ملاحظة النفي والإثبات ويحفظه من دخول الخواطر.

ويا داشت : وهو حضور القلب مع المذكور ومشاهدة أنوار الذات الأحدية.

والرابطة: عندهم من أعظم أسباب الوصول وهي عبارة عن استحضار روحانية أئمة رجال السلسلة النقشبندية للاستفاضة من روحانيتهم لدفع الخواطر الشيطانية، وهذه الرابطة ذات وجهين: الأول التأسي وهو أنها تجعل المرید مرتبًا بشيخه أي بطريقته فلا يتبدع ما ليس منها فينجو من خواطر الشيطان، والوجه الثاني زجري وهو الإحساس بالمراقبة فيضبط المرید نفسه ولا يفعل ما لا يليق. وهي على ما ذكره الشيخ رجب ديب على مراتب أربعة تتبدئ بالتخيّل، فيتخيّل المرید محبوبه الذي هو شيخه، حتّى يمتلئ خياله به فيكون مصاحباً له فينتقل إلى مرتبة التصوّر فيتصوّر صورة شيخه حتّى أنه يراه سواء في المنام أو اليقظة حاضرًا معه ثم تأتي مرتبة الروح وهي التقاء روح الشيخ بروح المرید فيصبح كلامه يجري على لسانه، ثم تأتي مرتبة السرّ وهي بلوغ المرید مرتبة الفناء في محبوبه حتّى يكون كأنه هو، فيفنى فيه وتمّجى صورته أي شخصيته فيصبح كأنه امتداد له.

1 محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص 28: "يستحضر المرید صورة شيخه على أكمل الأحوال ليحصل له المدد، فإنّ شيخه بآئه إلى حضرة الله تعالى ووسيلته" [نقل عن حسين الخطيب، الدرّ اللطيف (حصص 1342هـ) ص121. وهو قول عبد الغني النابلسي النقشبندي] وطريقته أن يُغمض المرید عينيه ويتخيّل صورة شيخه بتعظيم ومحبة زائدين حتّى يستفيد من صورته كما يستفيد من صحبته. أمّا إذا كان شيخه يُقيم حلقة الذكر فعلى المرید أن يفتح عينيه وينظر بين عيني الشيخ [عن أحمد شاه ولي الله، القول الجميل في بيان سواء السبيل. 1290 هـ دون ذكر مكان الطبع].

والمراقبة: وهي استدامة العبد التذكر باطلاع الرب عليه في جميع أحواله وهي إطراق السريرة بالحياء من ارتكاب الجريرة. وهي ذات فروع وتفصيل. وأخيرا:

الذكر: يرتب كتاب (جامع الأصول) ذكر النقشبندية إلى أنواع رئيسية: أحدها:

ذكر القلب: ويسمى الخفي القلبي [وقبل بهاء الدين كان شيوخ التربية يعرفون هذا الذكر الذي يتلى سرًا، بينما في الحضرة يتلى جهرا] وهو الاسم {الله} الذي يردده المجذوب بدون عناء أو إجهاد مبتدئا بخمسة آلاف مرة، ثم بخمسة وعشرين ألف مرة، ثم متى شاء أو باستمرار.

وقبل الوصول إلى تلاوة هذا الذكر الذي يُتلى من أعماق النفس يتلقى المريد تربية روحية يطهر أثناءها قلبه وجسمه. هذه التربية الوقائية تتميز بإحضار بعض التصورات الرمزية في ذهن المريد كالموت المنتظر والقبر الذي يرى نفسه موضوعا فيه. ثم يقرأ ثلاث مرات الفاتحة وسورة الإخلاص ويهدي ثواب ذلك إلى روح بهاء الدين وكل شيوخ التربية الذين تتألف منهم السلسلة الروحية.

هذا الذكر الخفي يقود المريد بإثارة عصبية إلى عدم القدرة على التخلي عن توسلاته وابتهالاته التي تصبح حالة مستمرة، لكن مع التدرج من القلب إلى الروح إلى الروح السرية إلى الروح الخفية إلى الروح الأخفى الموجودات رمزيا على يسار أو يمين الصدر، وأخيرا النفس ذلك العنصر الحياتي الموجود رمزيا في الدماغ، هذه الأرواح هي التي ستواصل التلاوة والابتهاال.

هذه الأذكار الروحية تدعى الأذكار النافذة أو الدقيقة وكلها موجودة في ذكر النفس الذي له كثافة قوية على الاتصال بالمادة الجسدية بطريقة تجعل الكائن بسائره جسدا وروحا لحما وعظما يمارس الذكر، هذا الابتهاال وهذه الصلاة تعرف باسم الجلالة.

وهناك ذكر ثان يسمى أيضا ذكر القلب ويتمثل (إثباتا ونفيا) في تلاوة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

1 محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص 30. المراقبة هي: "استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله. وقيل هي اجتماع القلب لاطلاع الرب، وقيل هي إطراق السريرة والحياء من ارتكاب الجريرة. وقيل هي ملاحظة الأوقات بملاحظة الصفات." [عن محمد سليمان، الحديقة الندية في آداب النقشبندية، القاهرة 1313هـ].

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) دون تنقّس، وتقول الرواية أنّ روح الشيخ عبد الخالق الغجدواني شيخ شيوخ بهاء الدين هو الذي أوصاه بتوحيد الدّكرين، ومن هنا يكون هو الذكر الوحيد (ذكر القلب).

وهكذا يتّضح تفسير معنى كلمة "نقشبند" فالذكر الأنف يُحدث في قلب المريد مفعولا هائلا يسمى "النقش" أو الطبع، والذكر نفسه يسمى "بند" ومعناه هنا الارتباط. فيكون المعنى العام للعبارتين مجتمعتين هو التثبيت في قلب المريد من غير إمكانية الفسخ. وهي نقوش تمثّل الكمال الحقيقي للحياة الروحية، "اه عن كتاب الحقائق الوردية". فالتلميذ الذي يتابع الوحدة الروحية عن طريق الجذبة ليصل إلى النشوة، عليه أن يحافظ على أول الذكرين. أمّا السالك الذي يتّبع تعليمات الطريقة فعليه بالذكر الثاني الذي يبحث فيه عن سيرته وحياة التنسك والتأمل.

وذكر ثالث: ويسمى أيضا (نفي وإثبات) أي {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} يجب أن يُتلى على الأقل خمسة آلاف مرّة والأكثر موكول لإرادة المريد، فإذا حصل هذا المريد بمجهودات مبذولة في التلاوة على اليقين بحقيقة النفي والإثبات في ذكره وأصبح من النتائج المفروغ منها، أصبح على وعي بأنه مرئي وملاحظ ومراقب من الله وأتّه في عداد عباد الله تعالى.

وذكر رابع يسمى ذكر "التهاليل".

وذكر خامس: ذكر المراقبة (المراقبة المستمرة من الله).

وأخيرا ذكر سادس: ذكر تعليم الحقائق الإلهية (حقيقة القرآن والكعبة والصلاة).

وذكر سابع حول حقائق الأنبياء وهو الذي يختم قائمة التلاوات التي لم نقم إلا بتعدادها.

ومهما كانت الوضعية التي فيها المريد فإن عدد الصلوات والأدعية وطريقتها المميّزة تجرّ تدريجيا الذين يسلكون الطريق للإحساسات التي يبحثون عنها.

وعلاوة على الصلوات الشفوية السريّة والروحية، والأولى التي تُتلى في الحضرة وتعاليم النظام الذي يعتمد في النظريات الروحية على الفناء في الله، يقدّم للحصول على

1 نحن ننقل بتعريب شخصي عن كتاب كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية.

هذا الهدف وسيلتان:

الأولى: بالنسبة للذي تأخذه الجذبة والانتشاء طبيعيا بعد التهيئات والاعدادات الرمزية التي يصفها الشيخ السنوسي في روح شيخه.

الثانية: على حالة المراقبة (وعي الإنسان بأنه مراقب ومرئي من الله) ويُتوصّل إلى ذلك بممارسات خاصّة وعقيدة راسخة وتصميم لا يتزعزع، وهي ممارسات وصفها أيضا الشيخ السنوسي في كتاب المستندات.

وعندما نمنع النظر في تعاليم هذه الطائفة نجدها انتقائية، فأهمّ هدف لمؤسس النقشبندية هو إحياء الإسلام، وهذا الهدف جعله يأخذ في حسابه عديد العقائد السائدة قبله، كما جعله يتسامح مع بعض ممارسات الباطنية ذات الجذور العميقة في فارس. وكانّ بهاء الدين تبنّى جميع مبادئ الطوائف الدينية في عصره سواء ما أخذه هو حقيقة بعنوان خلافته لأربعين طائفة، أو ما أضافه له أتباعه فيما بعد، إلا أنّه من المحقّق أنه رغم تعلقه بالأصول وتمسّكه بقواعد التطهير، فإن الطريقة الأولى شاهدت كيف التصق بتعاليمها كل الممارسات الحلولية المتطرّفة لتمكّن من إرضاء الجميع فردا فردا. ولعلّ هذا هو سبب نجاحها، فهي تقدّم للبعض الطريقة الروحانية البحتة للتأمّل كما تقدّم للبعض الآخر نظاما فيزيولوجيا عن طريق الصور المرسومة في خطّ رمزي تمكّنهم من رؤية أنفسهم مندمجين في روح شيخهم. وفي أماكن أخرى أقلّ تقبّلا لهذا التطهّر الأخلاقي فإن الذكر الخفي هو الذي يفتح الآفاق للانتشاء والسبح.

وأخيرا عندما لا تكفي الطرق التأملية والفيزيولوجية والجسدية المتنوعة المظاهر يقول "كوبولاني": إن لم تكف كلّ هذه الأشياء أو تكون عاجزة عن اختراق الجماعات، فإنّ الجماعة النقشبندية، رغم حظر الاستعمال، يلجؤون إلى المخدّرات (بنج أو مستحضر القنّب) ليحصلوا على السكّر الذي لا يوقره الذّكر والتأمّل بنفس الدرجة. ويضيف "كوبولاني" قائلا: وهكذا يبلغ طرفي التنسك من هذا الذي أخذ من الحلول

1 القنّب (بالتونسية: القرنب) هو جنس نبات سنوي زراعي ذو سوق كالخوص (القصب) يصل ارتفاعه إلى أكثر من مترين اثنين ويستعمل لأليافه التي تصنع منها الخيوط والحبال. ومنه نوع القنّب الهندي يستخرج منه المخدّر المعروف بالحشيشة وهو مسحوق يُستخرج من ساق النبتة الذّكر وله فوائد طبّية ويرغب فيه المدمنون على المخدّرات.

الهندي لدى أبي يزيد البسطامي¹ الذي يقول في بعض مقولاته: (عندما يتصوّر الناس أنهم يعبدون الله، فذاك هو الله يعبد نفسه) وكان يقول أيضا: (أنا البحر بلا قرار، بلا بداية ولا نهاية). ويصل الناس إلى حالة السكر والانتشاء الهستيري الذي يثيره الغناء والرقص والكيف (الحشيش)² المستعمل عند بعض الطوائف أو الفرق المتفرعة عن القادرية والرفاعية والسعدية والعمارية، إلخ... وعندما يصلون إلى هذه النهاية من الانتشاء والسكر الصوفي مصدر كلّ شذوذ وهوس، حسب "كوبولاني"، ومجازة كلّ حدّ، يفقد النقشبندية الوعي فيرقصون ويصرخون كلماخوذيين، وقد شوهدوا بسمرقند يقفزون على حجارة مدببة دون توقّف مثل المجانين،

والدم يشخب من أرجلهم، فلا يضع ذلك حدّا لجنونهم، ولا يتوقّفون إلاّ عندما يسقطون على الأرض فاقدين وعيهم. هذا التطوّر يبيّن أن الطائفة النقشبندية، رغم كل التحفّظات، تأثّرت بالعوامل المحيطة بها وخاصّة المنقولة إلى الصوفية حيث ترعرعت في قلب آسيا الوسطى.

وفي هذا الصدد بالذات، يضيف "كوبولاني"، لم يقف النقشبندية عند تقديس

1 هو أبو يزيد الطيفور بن عيسى بن سروشان يدعى البُسطامي لأنّه أصيل بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) ولدهبا سنة 188هـ/804م وتوفي بها سنة 261هـ/874م عن سنّ تصل إلى 73 سنة. كان جدّه سروشان مجوسيا فأسلم. وتتبع البسطامي أحكام الشريعة. ومما يروى أن أبا يزيد البسطامي اجتمع بالسندي الذي كان يجهل الفقه لكنه عارف بطريق الوصول إلى الله، في الحج فكان البسطامي يعلم السندي مناسك الحج والسندي يعلمه طريق الوصول إلى الله (النيل، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 180). ومارس أبو يزيد زهدا صارما، كما ظلّ حتى وفاته حريصا على أداء واجباته الدينية وكان يطلب من مردييه التسليم لله في جميع أمورهم ويحثهم على التوحيد الخالص وخصوصا: لسان لا يكذب، وقلب لا يحقد، وبطن لا يأكل الحرام، وحركات لا بدعة فيها. وكان له شعر لطيف نورد منه:

عَرَسَتْ الْحُبَّ عَرَسًا فِي فُوَادِي
جَرَحَتْ الْقَلْبَ مِنِّي بِاتِّصَالِ
سَقَانِي شَرِبَةً أَحْيَا فُوَادِي
فَلَوْلَا اللَّهُ يَحْفَظُ عَارِفِيهِ
فَلَا أَسْأَلُو إِلَى يَوْمِ التَّنَادِي
فَشَوْفِي زَائِدٌ وَالْحُبُّ بَادِي
يَكْأَسُ الْحُبَّ فِي نَجْرِ الْوَدَادِ
لِهَامِ الْعَارِفُونَ بِكُلِّ وَادِي

ومنه قوله:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ: ذَكَّرْتُ رَبِّي
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأَسَا بَعْدَ كَأَسِي
وَهَلْ أُنْسَى فَأَذْكَرُ مَا نَسِيْتُ؟
فَمَا نَفَدَ الشَّرَابُ وَمَا رُوِيْتُ

2 لا غرابة في استعمال الحشيش وقد كان منتشرا، ولم تكتشف مضرته الكبيرة ولم يقع تحريمه بالإجماع إلاّ في أواسط القرن العشرين، وهو إذ يساعد على الخروج من الواقع إلى عالم آخر قد يصلح للانتشاء الصوفي، ولعلّ الحالة الهستيرية التي يصورها كوبولاني ليست إلاّ نتيجة تناول الحشيش دون أن يتفطن إليه السادة النقشبندية في ذلك الوقت.

الحلول المتحصّل عليه بكل هذا العنف، فقد بحثوا عن إكمال تصوّفهم بنظريتهم العجيبة حول وجود الروح الداخلية، فاتحين بذلك ألباز المطالب العقلية، فجددوا بذلك خوارق الفقير والدويجة الهندي، بل ذهبوا حتّى إلى قبول فكرة التناسخ الحي لفائدة روح الولي، وقد قبل هذه الفكرة من بعد ذلك شيخ الحادرية عبدالعزيز بن دباغ. وفي هذا الصدد يكونون هم الأساتذة الكبار للصينيين المحمّدين، فعلمهم وسلطتهم التي أمدهم بها الواحد الحق تسمح لهم باستعمال قوى الطبيعة ووضعها على الذمّة. وهكذا، يقول "كوبولاني"، نفهم كم رفع هذا النفوذ من تأثير دراويش النقشبندية، وهؤلاء هم بدون شك أولئك الذين بلغوا درجة من اللاوعي القريبة من الجنون [ربما تكون ما يسمّى الغيبة]، وهم الذين يذرعون أدغال آسيا الوسطى، فيوزعون أحجار الشفاء، ويهدون النفخة المعيدة للحياة لبعض المرضى الذين يدعونهم للاستطباب، وهم الذين يباركون القوافل دون أن ينسوا مدّ الكفّ بالسؤال.

قد يكون هذا حال الناس في عهد "كوبولاني"، وهو الظرف الذي هيأ للغزو الاستعماري الأوروبي، إذ كثرت المظالم في تلك العهود الظلماء، ولا مندوحة للناس من البحث عن الارتزاق بأي وسيلة، فاندس بعضهم على الطرق الصوفية فظهروا بهذا المظهر المزري. أمّا الوقت الحاضر فترك الكلام عنه للدكتور أحمد مبارك من أندونيسيا إذ يقول: "من خصائص أعمال أصحاب الطرق الصوفية السعي في مصالح الناس، وخاصة خدمتهم في علاج النفس، ومن بينهم شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية في أندونيسيا اكتشف كيفية العلاج النفسي باستعمال طريقة الذكر في علاج مدمني الأدوية المنوعة، وهذا العمل قرّب شيوخ الصوفية من رجال الحكومة لأن كثيرا من هؤلاء رجال أغنياء مدمنون لهذه الأدوية المنوعة، وللطريقة النقشبندية عيادات لعلاج مدمني المخدرات سمّيت بعيادات (الإنابة) منتشرة في مدن أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وفي مدينة (مكين) شيخ من الطريقة النقشبندية طوّر كيفية علاج النفس باستعمال طريق الأوراد، وله عيادة تسمّى عيادة (التوكّل)".¹

طريقة العمل: طريقة العمل الفردية، كما أسلفنا تنطلق بقراءة الفاتحة (قل هو الله أحد) ثلاث مرات، ثم الصلاة على النبيء سبع مرات، ثم استغفار سبع مرات، ويهدى

1 أعمال ملتقى التصوف الإسلامي، ص 92.

ثواب ذلك إلى روح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى جميع الأنبياء والمرسلين وبقية الأولياء والصالحين إلى أن يصل إلى الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني شيخ الوقت. هذا الذكر القلبي يسبقه رابطة (وهو الاستحضار بالقلب لروحانية الشيخ) يأخذ منها المريد المدد على حد قولهم: (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة)، فيستحضرها المريد بقلبه ويأخذ منها الأنوار والمدد، ويقوم بالتركيز الذهني. وبعد هذه الرابطة وما يأخذ من الشيخ يحس المريد بأنوار داخلة إلى قلبه. والآن انقطعت هذه الرابطة بموت الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني بن علاء الدين بن سراج الدين الأول وهو من أصل كردي ودفن الجميع بتركيا. ولعل هذا الانقطاع هو التفسير للفظة (التناسخ الحي) الذي ذكره "كوبولاني" أنفاً ونقصد استحضر روح الحي لا روح الميت. وبانتهاء هذه الرابطة يدخل المريد، إذن، مباشرة في الذكر فيقلب لسانه كمن يهم بنطق الراء وينطق {الله} وهو يجتذب الهواء إلى صدره عوض أن يخرج، فيحس هكذا بأنوار داخلة إلى قلبه، فيعمل ذلك وتراً مرةً أو ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً وتراً دائماً. وهذا عمل فردي غير محدود بوقت.

أما العمل الجماعي، فطريقة منه تسمى ختم الخواجان وهي :

ختم الخواجان : أي ختم المشايخ وقد وضعه الشيخ عبد الخالق الغجدواني: يجتمع الصوفية فلا يخلو جمعهم من رجل صالح مستجاب الدعوة وفي هذا الاجتماع ربط للقلوب ببعضها ويستند الختم إلى سبعة أركان:

- 1- الخضوع والخشوع والحضور. 2- قراءة الفاتحة سبع مرات عن يمين الشيخ. 3-
- الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة. 4- تلاوة سورة الانشراح تسعا وسبعين مرة. 5- تلاوة سورة الإخلاص 1001 مرة (ألف مرة ومرة). 6- قراءة الفاتحة سبع مرات على يسار الشيخ. 7- الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مائة مرة.

وهم يحرصون على أن لا يزيد العدد ولا ينقص لأنّ العدد في الأذكار كالأسنان في المفتاح إن زاد سنّ أو نقص بطل عمل المفتاح.

ويختم الختم بدعاء: (بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، إمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. اللَّهُمَّ يَا مَفْتَحَ الْأَبْوَابِ، يَا مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ، يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، يَا خَالِقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،

يادليل المتحيرين، يا غياث المستغيثين أغثنا. توكلنا عليك يا أرحم الراحمين. وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد بألف لآف لآحول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم).

والطريقة الثانية وهي :

الحضرة : يذكرها المريدون مع بعضهم وهي ليست مرتبطة لحد الآن بموعد، ويقومون بها بدون استعمال آلات فيقع الذكر جماعيا بين أفراد الفرقة، وقد يسمونه الحضرة، وهو الآتي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (3 مرات) أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا، وَلِلْعُيُوبِ سِتْرًا، فاتحة شريفة مع إخلاص شريف. [أي قراءة سورتي الفاتحة والإخلاص].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ} وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {اذْكُرُوا هَازِمَ اللَّذَاتِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي كَثِيرٍ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا فِي قَلِيلٍ إِلَّا وَاجِزٌ} رابطة الموت. [استحضار صورة الموت والدفن].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} رابطة شريفة رابطة حضرة الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني.

صَلَوَاتُ شَرِيفَة: صَلَّى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (3 مرات كل مرة 100-300 مرّة تقسم على الجماعة).

لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ (5 مرات كل مرّة 100-500 مرة تقسم على الجماعة).

صَلَوَاتُ شَرِيفَة (3 مرات كل مرّة 100-300 مرّة تقسم على الجماعة).

فاتحة شريفة مع إخلاص شريف. (أي قراءة الفاتحة والإخلاص).

1 النص الحرفي كما أمدنا به بخطهم السيد شكري سفة.

صَلَوَاتُ شَرِيفَةٍ: صَلَّى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (3 مرات كل مرة 100 300 مرة تقسم على الجماعة).

يَابَاقِي أَنْتَ الْبَاقِي (5 مرات كل مرة 100-500 مرة تقسم على الجماعة).

صَلَوَاتُ شَرِيفَةٍ (3 مرات كل مرة 100-300 مرة تقسم على الجماعة).

فاتحة شريفة مع إخلاص شريف (أي قراءة الفاتحة والإخلاص).

ورد في الأثر الشريف: (عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تُنْزَلُ الرَّحْمَةُ) الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُؤَافِي نِعْمَهُ وَيُكَافِي مَزِيدَهُ، اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ حَقُّ حَمْدِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ حَضْرَةَ فَاتِحِ أَبْوَابِ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعِنَايَةِ وَالْيَقِينِ سَيِّدِنَا وَمَلَاذِنَا وَشَفِيعِ دُنُوبِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ نَبِيًّا وَأَدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ وَعَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنْ حَضَرَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ بَلِّغْ وَأَوْصِلْ مِثْلَ ثَوَابِ هَاتَيْنِ الْحُتْمَتَيْنِ الشَّرِيفَتَيْنِ بَعْدَ الْقَبُولِ مِنَّا بِالْفَضْلِ وَالكَرَمِ هَدِيَّةً وَاصِلَةً وَتُحْفَةً كَامِلَةً إِلَى رُوحِ وَضَرِيحِ مَنْبَعِ الصَّدَقِ وَالصَّفَا أَشْرَفِ الْخَلَائِقِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِلَى أَرْوَاحِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْأَنْقِيَاءِ الْحُنَفَاءِ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْنَا بِبَرَكَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَحُصُوصًا إِلَى رُوحِ صَاحِبِهِ فِي الْعَارِ وَالطَّرِيقِ وَخَلِيفَتِهِ بِأَمْرِهِ الْوَثِيقِ أَفْضَلِ الْأَتَامِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينَ عَلَى التَّحْقِيقِ الصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ وَالْعَلَمِ الْأَشْهَرِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ الْأَمِيرِ الْأَوَّابِ النَّاطِقِ بِالصَّوَابِ مُزَيَّنِ الْمِنْبَرِ وَالْمِحْرَابِ أَبِي الْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ صَاحِبِ الْحَيَاءِ وَالْعِرْفَانِ، أَمِيرِ الزَّمَانِ، جَامِعِ الْقُرْآنِ، حَضْرَةَ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ أَسَدِ اللَّهِ الْعَالِبِ عَلَى الْكُفَّارِ، ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمُخْتَارِ، حَضْرَةَ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْحَيْدَرِ الْكَرَّارِ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ.

وإلى رُوح السُّبْطَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ زَيْنَةَ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ الْحَسَنِ
وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإلى رُوح الصَّحَابِيِّ الْمَعْدُودِ مِنْ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ
الْمُكْرَّمِ الْمَقْبُولِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإلى رُوح الْحَادِمِ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ الْهَادِي لِلرُّشْدِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ.

وإلى رُوح مَجْمَعِ الطَّرَائِقِ وَمَعْدِنِ الْحَقَائِقِ الْعَاشِقِ الْفَائِقِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ جَعْفَرِ
الصَّادِقِ.

وإلى رُوح الْعَوَاصِ فِي بَحْرِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَسَامِي سُلْطَانَ الْعَارِفِينَ حَضْرَةَ
سَيِّدِنَا أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ.

وإلى رُوح مَحْرَمِ السَّرِّ السُّبْحَانِيِّ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْحَالِقِ الْعُجْدَوَانِيِّ.

وإلى أَرْوَاحِ سَادَاتِنَا سَادَاتِ الطَّرَائِقِ الْعَلِيَّةِ التَّقَشِبَنْدِيَّةِ وَالْقَادِرِيَّةِ وَالسُّهْرَوْرْدِيَّةِ
وَالْكَبْرَوِيَّةِ وَالْحَشَنِيَّةِ، وَعَظِيمِهَا مِنَ الطَّرَائِقِ الْعَلِيَّةِ قَدَّسَ اللَّهُ أَسْرَارَهُمُ الْبَهِيَّةِ وَأَنْفَعَنَا
اللَّهُمَّ بِبِرْكَهَ أَنْوَارِهِمُ الْقُدْسِيَّةِ. (ثم يقرأ للتبرك هذا الإهداء: وَإِلَى رُوحِ أَبِي الْعَلَمَيْنِ
حَضْرَةَ سَيِّدِنَا أَحْمَدَ الرَّفَاعِيِّ، وَإِلَى رُوحِ أَبِي اللَّثَامَيْنِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا أَحْمَدَ الْبَدَوِيِّ، وَإِلَى
رُوحِ إِمَامِ الشَّامِ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ عَبْدِ الرَّحْمَانِ الْأَوْزَاعِيِّ، وَإِلَى أَرْوَاحِ سَادَاتِنَا الشَّاذِلِيِّ
وَالدُّسُوقِيِّ وَالْبُرْهَانِيِّ وَالْتَّجَانِيِّ).

وْخُصُوصًا إِلَى رُوحِ صَاحِبِ الطَّرِيقَةِ بِالْإِسْتِقْلَالِ ذِي الْفَيْضِ الْحَارِيِّ وَالثَّوْرِ
السَّارِيِّ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَوْسِيِّ الْبُخَارِيِّ الْمَشْهُورِ بِشَاهِ نَقْشِبَنْدِ الْمَلْقَبِ
بِحُجُوجَا بَهَاءِ الدِّينِ.

وإلى رُوحِ الْقِنْدِيلِ الثَّوْرَانِيِّ جَامِعِ الْأَسْرَارِ وَالْمَعَانِي مُحَمَّدِي الدِّينِ أَبِي مُحَمَّدٍ بَارِئِ اللَّهِ
الْأَشْهَبِ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْحِيلَانِيِّ.

وإلى رُوحِ مَخْرِنِ أَسْرَارِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَالسُّورِ الْمُجَدِّدِ لِلأَلْفِ الْقَانِي حَضْرَةَ مَوْلَانَا
الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْفَارُوقِيِّ السَّرْهَنْدِيِّ الْمَشْهُورِ بِالْإِمَامِ الرَّبَّانِيِّ.

وإلى رُوحِ صَاحِبِ السَّرِّ الحَفِيّ وَالثَّورِ الحَبِيّ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الدَّهْلِيِّ
المُدْعُوِّ بِغُلَامِ عَلِيٍّ.

وإلى رُوحِ نُورِ المَشْرِقَيْنِ وَضِيَاءِ الحَافِقَيْنِ ضِيَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ
خَالِدِ ذِي الجُنَاحَيْنِ.

وإلى رُوحِ قَمَرِ العِرْقَانِ وَشَمْسِ اليَقِينِ شَيْخِ المَشَايخِ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ عُمَانَ
المُلَقَّبِ بِسِرَاجِ الدِّينِ الأوَّلِ.

وإلى رُوحِ القُطْبِ الأَرشِدِ وَالعَوثِ الأَمجدِ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ مُحَمَّدِ المُلَقَّبِ بِبَهَاءِ
المِلَّةِ وَالدِّينِ.

وإلى رُوحِ المَتَوَاضِعِ لِلْفُقَرَاءِ المُرَوِّجِ لِلشَّرِيعَةِ العَرَاءِ، المَجَدِّدِ لِلطَّرِيقَةِ المُنِيفَةِ
البَيْضَاءِ كَاشِفِ أَسْرَارِ آيَاتِ القُرْآنِ وَالسُّورِ، ضِيَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ حَضْرَةَ مَوْلَانَا
الشَّيْخِ عَمَرَ.

وإلى رُوحِ المُنْتَحَلِيِّ بِأَخْلَاقِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ المُرَوِّجِ لِأَحْكَامِ الشَّرْعِ المَتِينِ، مُحْيِي
سُنَنِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ نَجْمِ سَمَاءِ فَلكِ الهِدَايَةِ وَاليَقِينِ قُطْبِ العَارِفِينَ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ المُلَقَّبِ بِنَجْمِ الهِدَايَةِ وَالدِّينِ.

وإلى رُوحِ خَادِمِ العُلَمَاءِ وَالفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ المُرَوِّجِ لِأَحْكَامِ الشَّرْعِ المَتِينِ إِمَامِ
الوَاصِلِينَ عَوَثِ المُسْتَعِدِّينِ سُلْطَانِ الأوْلِيَاءِ الكَامِلِينَ صَاحِبِ الضَّمْنِيَّةِ الكُبْرَى الأَتَمِّ
حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدِ المُلَقَّبِ بِعَلَاءِ الدِّينِ العُثمَانِيِّ.

وإلى رُوحِ صَاحِبِ الحَيَاءِ وَالوَفَاءِ وَالثَّمَكِينِ سُلْطَانِ الأوْلِيَاءِ الكَامِلِينَ بُرْهَانَ
الأَصْفِيَاءِ الوَاصِلِينَ القُطْبِ الأَعْظَمِ وَصَاحِبِ الضَّمْنِيَّةِ الكُبْرَى الأَتَمِّ شَيْخِ الإنْسِ وَالجِنِّ
وَخَادِمِ المَحَاسِنِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ شَيْخِنَا وَمَلَاذِنَا وَمُرْشِدِنَا وَوَسِيلَتِنَا العُظْمَى إِلَى اللَّهِ
المَلِكِ الحَقِّ المُبِينِ حَضْرَةَ مَوْلَانَا الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عُمَانَ المُلَقَّبِ بِسِرَاجِ الدِّينِ الثَّانِي.

أَدَامَ اللَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَةَ بَقَائِهِ عَلَيْنَا وَأَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى تَرْوِيجِ الشَّرِيعَةِ
وَالتَّرِيقَةِ، وَجَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَنَا لَهُ الفِدَى، وَأَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ قُلُوبَنَا وَقُلُوبَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَوْلَادِهِ
- آمِينَ - وَإِلَى أَرْوَاحِ مُرِيدِيهِ وَمُحِبِّيهِ وَمَحْسُوبِيهِ وَمَنْسُوبِيهِ وَإِلَى رُوحِ كُلِّ مَنْ يَعْتَقِدُ بِهِ

وَيَنْتَسِبُ إِلَيْهِ وَلَنَا وَلَهُمْ وَلِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ إِنَّكَ يَا
مَوْلَانَا سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قرآن كريم.

يَا رَبُّ يَا عَظِيمُ، يَا خَالِقَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، بِفَضْلِكَ الْعَظِيمِ صَلَّى عَلَى مَوْلَانَا مُحَمَّدٍ
صَاحِبِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَاةً تُرْضِيكَ
وَتُرْضِيهِ وَتَرْضَى بِهَا عَنَّا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَعِنَّا يَا مُعِينُ، يَا عَظِيمَ الْجَاهِ وَالشَّانِ وَالْمَقَامِ عِنْدَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

مَدَد يَا اللَّهُ، مَدَد يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَدَد يَا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ، مَدَد يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، مَدَد يَا آلَ بَيْتِ
رَسُولِ اللَّهِ، مَدَد يَا شَاهِ عَثْمَانَ سِرَاجَ الدِّينِ الْغَانِي.

بِإِجَازَةِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَبِإِجَازَةِ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ رَسُولِ اللَّهِ حَبِيبِ اللَّهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: (أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالتَّيْبُونُ مِنْ قَبْلِي: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}). لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ دَائِمٌ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ. مَنْ قَالَ {اللَّهُ} وَفِي قَلْبِهِ قَالَ {اللَّهُ} فَمَعِينُهُ وَمُعِيثُهُ فِي الدَّارَيْنِ: اللَّهُ.

اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الفاتحة.

اللَّهُمَّ يَا دَائِمَ الْفَضْلِ عَلَى الْبَرِّيَّةِ، يَا بَاسِطَ الْيَدَيْنِ بِالْعَطِيَّةِ، يَا صَاحِبَ الْمَوَاهِبِ السَّنِيَّةِ،
يَا دَافِعَ الْبَلَايَا وَالْبَلِيَّةِ، يَا غَافِرَ الذُّنُوبِ وَالْخَطِيئَةِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى سَجِيَّةً، وَاعْفِرْ
لَنَا يَا رَبَّنَا فِي الصُّبْحِ وَالْعِشِيِّ (3 مرات).

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ (3 مرات).

جَزَى اللَّهُ عَنَّا سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هُوَ أَهْلُهُ (3 مرات).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

لَبَّيْكَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بَعْدَ كُلِّ دَاءٍ وَدَوَاءٍ وَبَارِكْ
وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كَثِيرًا (3 مرات).

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ ذُنُوبِنَا حَتَّى تُغْفَرَ، وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى حَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ
عَدَدَ حَسَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ حَيْدَرِ صَلَاةِ تُرْضِيكَ وَتُرْضِيهِ وَتَرْضَى بِهَا
عَنَّا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. الفاتحة.

أشباه هرق وعلامات

يقول "كوبولاني": "بصرف النظر عن الجمعيات المنبثقة عن القادرية والجمعيات ذات الممارسة الخارجية المماثلة لها، هناك مبعوث في العالم الإسلامي عدد من طوائف المشعوذين والدجالين والحوّائين والعزّامين الممكن ذكرهم على سبيل التوثيق، فإنهم ليسوا جمعيات بمعنى الكلمة إذ ليس لهم نظام داخلي ولا أي مذهب أساسي يميزهم. ولكن يتميّزون بوجود القدرات العجيبة التي يلحقها السّدج بممارساتهم الفجّة ودور المرسل الذي يقوم به أعضاؤهم فإننا نعتقد أنه يجب أن نذكر بالخصوص الفرق المعروفة بالجزائر". وعدد منهم: "أولاد موسى: المدينون في قوتهم الغيبية (الكرامة) إلى شيخهم أحمد موسى الولي الشهير (المرابط) بمراكش حيث دفن، وهم كثيرون بولايات السوس والذراع وينتقلون إلى أسواق المغرب ووهران والجزائر، ويمكن ملاقاتهم جماعات في أقصى الجنوب المغربي والحماشة: (حمدوشي) وإخوتهم الدغرورية بمكناس الممكن تشبيههم بالعيساوية في منطقة زمورة على صخرة تشرف على وادي مينا توجد قبة الشهر سيدي محمد بن عود، وهي مشهورة بالأسود المتسولين الذين يرسلهم خدام هذا الرجل عبر القبائل وفي القرى الجزائرية في ذكرى شيخهم المقدس الذي يحميهم من قبره من غضب ملك الوحوش (الأسد). وبني عباس: وهم المذكورون في القبائل بقسنطينة وقد قويت حركتهم في تونس وطرابلس إلخ

والحال بالبلاد التونسية لا يختلف عن ذلك كبير اختلاف، فقد تألفت جماعات على هامش الطرق لم يكن لها أصول مثلها، أو أفكار أساسية تنطلق منها، وإنما هي فرق تنسج على منوال غيرها وتملاً الفراغ عندما تجده.

هذا وإن كانت الطريقة الشطبية مثلاً، تأخذ كل ما لها من الطريقة العوامرية رغم وجود الشيخ سيدي عمر الشطبي الذي كان معاصراً للشيخ عامر المزوغي، فإنه يمكن أن نرى ناساً ينتمون إلى أولياء آخرين ليسوا من أصحاب الطرق ذلك لأن الانتماء إلى ولي هو صكّ القبول عند جماهير الشعب الذين تروج عندهم هذه الطرق الفتيّة ويحتاجون إليها في أفراحهم وأتراحهم، فيصبغون هالة من التقديس عليها وينسجون حولها جملة من الأساطير والحكايات منها ما له جذور في الواقع ومنها ما هو محض خيال.

وهكذا برزت العديد من الفرق والعادات، مثلما تبرز الفرق الفتيّة في المجتمع للحاجة إليها وتطور الحياة لدى الناس. فمن بين الفرق المتشبهة بالطرق تكوّن ما سمي بوجق دار شعبان الفهري. ومن الطوائف التي أرادت تمييز بعض الأولياء ممن ليس لهم طرق خاصّة، طائفة من الطريقة الشاذلية تقوم بعادات خاصّة تسمى المنوبية (نسبة إلى السيدة عائشة المنوبية معاصرة الإمام الشاذلي) أو الحطايية (نسبة إلى سيدي علي الخطاب صاحب الإمام الشاذلي) ويمكن اعتبارها تفرعاً غير واضح أو امتداداً للشاذلية. وقد تتكوّن حول شخص بارز جمعية من هذه الجمعيات أو تتكوّن حوله عادة مثل (العادات والنوبات) التي تكوّنت حول زاوية أم الزين البوهلية، رغم أن العديد من الطرق الأخرى لا ترى ما يمنعها من التغيّب بها مثل العوامرية.

وهكذا لإتمام الفائدة رأينا أن نذكر هذه العادات لأنها تمثل جزءاً من هذا التراث الشعبي الذي ما زال إلى الآن يجد قبولاً من الجماهير العريضة.

وجق دار شعبان الفهري

هي مجموعة من الفرق تسمى كلها بوجق دار شعبان وكلّ واحدة لها مقرّها. والنسبة متداخلة، فالاسم (شعبان الفهري) تركيب مزجي بين علمين: شعبان مشماش وأحمد الفهري.

العلمان : 1) شعبان مشماش: كان (مشماش) هذا حاكماً إسلامياً على جهة الوطن القبلي من قبل الدولة الأموية، وهو من سلالة الحارث بن زياد بن معاذ بن الربيع من بني حمير من عرب اليمن. وكان الحارث بن زياد هذا قدم مع معاوية بن حديج سنة 34 هـ إبان الفتح الثاني لإفريقية، واستقر بهذا المكان وتولّى حكمه الذي بقي في عقبه إلى أن بلغ إلى شعبان هذا.

2) أحمد الفهري: هو أحمد بن محمد بن الفضل بن عتبة بن إسحاق الخزرجي النجاري الضبي بن وهب والد أمنة أمّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وُلد بالساقية الحمراء الغربية ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم. ثم انتقل إلى العلام بالمغرب الأقصى وتلقّى العلوم الشرعية عن الشيخ أحمد بن داود. ثم ارتحل إلى فاس حيث لقي مولاي إدريس الأصغر الذي حباه بالتبجيل، ثم انتقل إلى العرائش ثم إلى وهران فالجزائر فالقيروان التي دخلت تحت سيطرة الشيعة وهناك عرف بمناهضته لهم، ثم انتقل إلى

تونس والتقى بالولي الصالح محرز بن خلف، وسلك سبيل الصوفية إلى أن بلغ درجة القطابة في ليلة الجمعة من شهر رجب سنة 392 هـ، ورابط بجبل المنار لحماية الشجر، ثم انتقل إلى الدخلة (الوطن القبلي) وانقطع إلى التعبد بجبل الزاوية مرابطا لحراسة البحر. وفي الآخر استقر به المقام قرب قصر شعبان مشماش، فالتفّ حوله الطلبة يأخذون عنه، وذاع صيته وظهر فضله، وهو رجل أعزب غريب فخيف منه وعليه، وفكر صولة ابن شعبان في تزويجه، فاقترح الموضوع على أبيه فلما لم يجدوا التي يتزوجها وترضى به على غربته، فكر صولة في تزويجه أخته خديجة فاستشار أباه فوافقوه وزوجوه إياها، فأقطعه شعبان نصف المنطقة الجنوبي من الزاوية إلى البحر، واستأثر شعبان بالشمال من القصر إلى الجبل. وبقي الشيخ يُدرّس العلوم حتى أصبحت المنطقة تزخر بالعلماء والعارفين، وتوفي الشيخ سنة 396 هـ ودفن بالتربة المعروفة بمقامه الحالي. وعلى هذه المصاهرة بنيت العلاقة بين الفهري وشعبان وأحفادهما، فنشأت بلدة عرفت بزاوية الفهري جنوب قصر شعبان كما نشأت حول القصر بلدة باسم دار شعبان. وإثر التخلص من الاستعمار الفرنسي توحد الاسمان لتسمية البلدة المندمجة بهذا الاسم المزدوج.

طريقة العمل: طريقة العمل عندهم فيها كثير من التداخل مع العيساوية سواء في المدحات والألحان أو الآلات، فهم يستعملون الزكرة والنغارات والبنادر. ولهم خرجتان مشهورتان في السنة: الأولى: رابع عيد الفطر، فيقومون بحضرة وجولة في المدينة ويختمونها بمقام أحمد الفهري. والثانية: خامس عيد الأضحى.

وتخرج مع هاتين الخرجتين قصعة من الكسكس واللحم ومختلف الخضراوات وهي مغطاة بسنق أحمد الفهري سبيلا للجائعين، ويُسمى هذا الاحتفال (حضرة الفهري).

ويقومون بمبيته (أي سهرة) فيها عدّة نوبات وأمداح، وفي آخر السهرة تختم بأغان فولكلورية تونسية، ويعملون مثل ذلك في المناسبات الدينية والوطنية والخاصة سواء بالزواج أو الختان أو خروج الحاج أو رجوعه.

وأغلب مدحاتهم نقل عن العيساوية مع بعض التطويع لموافقة ذكر الشيخ أحمد الفهري، أو النسج على منوالهم. كما تشتمل مدحاتهم على شيء من المألوف الأندلسي. فمن أمثلة التطويع: نجد في العيساوية:

بِيكَ الْعَرَامُ دَعَانِي يَا كَاغِلِ التَّنْعِيسَةِ

حُبُّكَ سَكَنَ فِي كُنَانِي يَا شَيْخِي يَا بِنَ عَيْسَى

ويقول وجق الفهري: بِيكَ الْعَرَامُ دَعَانِي يَا شَيْخِي يَا الْأَنْصَارُ

حُبُّكَ سَكَنَ فِي كُنَانِي شَعْلُ فِي النَّارِ

و من عملهم المعروف "فاح السرفاح" في محير العراق:

فَاحِ السَّرْفَاحِ وَغَرَامِي دِيمَا مُجَدِّدُ

بِالْفَهْرِيِّ الْأَنْصَارِي حُبَّهُ فِي قَلْبِي مُؤَبَّدُ

كُلُّ مَسَاءٍ وَضَبَاحُ نَارُهُ فِي مَكُونِي تُوَقَّدُ

وِثْبَتُ الْأَرْيَاحِ وَيَجِينَا بَابَا أَحْمَدُ

يَسْقِينَا أَفْدَاحُ وَتَعُودُ الْحُضْرَةُ تُرْعَدُ

بِبِنَادِرِ اضْحَاحِ وَبِرَاوِلِ بَعْدِ مَجْرَدُ

يَا مِتْعَرِّضِ حَاحِ وَسَعِ لِلْفُقْرَا وَبَعْدُ

تَهَيَّاتِ الْأَرْيَاحِ خَلَّيْنِي بِهِمْ نَسْعِدُ

مكب: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَدَّيْنَا بِسْمِ اللَّهِ مِفْتَاحِي

زِيدُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ نَيْبِنَا ذِكْرُهُ مِضْبَاحِي

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ الْبَشَرِ أَنَا خَاطِرِي حَيْرَانِي

كَيْفَ حَالِي حِينَ دَخُولِي لِلْقَبْرِ وَجَاوِنِي الْمَلَكَانِ

يَسْأَلَانِ هَكَذَا صَحَّ الْخَبْرُ عَنْكَ يَا سُلْطَانِي

يَا خَالِقِي أَحْفَظْ لِسَانِي مِنْ كُلِّ شَرِّ وَأَنْطِقْهُ بِالْبَيَانِ

يَشُدُّ بِأَنَّ اللَّهَ بَاقِي مُسْتَمِرٌّ وَكُلُّ شَيْءٍ فَانِي

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ خَيْرُ الْبَشَرِ أَرْسَلَهُ الْوَحْدَانِي
صَادِقٌ مُصَدِّقٌ بِالِدَّلِيلِ مُشْتَهَرٌ دَلِيلُهُ قُرْآنِي¹

تبدیل اول :

يَا مُحَمَّدُ، فِي حُرْمَتِكَ، يَا مُحَمَّدُ	يَا مُحَمَّدُ، وَنُطُوفٍ بِالْبَيْتِ وَنُسْعِدُ
صَلُّوا عَلَيْهِ	وَأَنَا قَلْبِي شَائِشٌ لِيهِ
نُظِّلُوا لِرَبِّي	أَنْ شَاءَ اللَّهُ مِ الْخَوْضِ نِزْوِي
صَلُّوا يَا نَاسَ	عَلَى النَّبِيِّ طَيِّبِ الْأَنْفَاسِ
يَسْفِينَا الْكَاسِ	وَالصَّلَاةُ عَلَى الْهَادِي
سَيِّدِ الْأَسْيَادِي	مُنِّيَّتِي، يَا رَبِّي الْهَادِي
طَالِبِ زَادِي	وَالصَّلَاةُ عَلَى الْهَادِي
سَيِّدِ السَّادَاتِ	عَلَى النَّبِيِّ زَيْنِ الصِّفَاتِ
كَامِلِ الدَّاتِ	وَالصَّلَاةُ عَلَى الْهَادِي
اسْمُهُ مُحَمَّدُ	خَلَقَهُ رَبِّي مُجَّدُ
مَنْ زَارَهُ يَسْعِدُ	وَالصَّلَاةُ عَلَى الْهَادِي
بِاسْمِ السَّتَّارِ	نُظِّلِبُ مِنْ عَالِي الْأَقْدَارِ
لَيْلًا وَنَهَارَ	وَالصَّلَاةُ عَلَى الْهَادِي
نِزْحَلُ بِالرَّزَادِ	وَنَرْكَبُ مِنْ حَلْقِ الْوَادِ
مَجْمَعِ الْأَسْيَادِ	وَالصَّلَاةُ عَلَى الْهَادِي

تبدیل ثان :

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِي الْمُخْتَارِ اللَّهُ يَرْحَمُ شَيْخَنَا الْفُهْرِي الْأَنْصَارِ

1 سبق أن رأينا هذا البحر من تأليف الشيخ عبدذ السلام الأسمر، راجع سفينة البحور السلامية.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُ، اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، اللَّهُ، اللَّهُ
 برول : بِاسْمِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
 لَيْسَ هَادِي إِلَّا هُوَ لَيْسَ هَادِي إِلَّا هُوَ

ومن الأرجال التي يتغنون بها، زجل (دمعي جرى على صحن خدي كالمطر) ووزنه بطايحي على غرار أوزان العيساوية.

طالع : دَمْعِي جَرَى عَلَى صَحْنِ خَدِّي كَالْمَطَرِ وَالرُّوحُ مِنْ فَرْطِ الْهَوَى فِي هَاوِيَةِ
 لَمَّا رَأَيْتُ الْغَيْدَ مَا بَيْنَ الشَّجَرِ عَقْلِي مَضَى وَالرُّوحُ مِنِّْي فَانِيَةِ
 بيت : عَنَّا فِي بُسْتَانٍ وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ وَأَنَا نَعَايِنُ مَا شَفِيَتْ مِنْهُمْ غَلِيلُ
 رِكْزُوا الشَّمْعَ وَالْكَاسَ يَدُورُ بَيْنَاتِهِمْ وَأَنَا شَرِبْتُ الْحُبَّ وَالصَّبْرُ جَمِيلُ
 هَبَّ النَّسِيمِ تَحَبَّلَتْ رَشَقَاتِهِمْ وَأَنَا مَعَ الْأَغْصَانِ أَيْنَ مَالُوا أَمِيلُ

وهذا الزجل يوجد لدى نساء حضاري سوسة يدرجون به العروس بعد لبسها ثياب الجلوة الثانية في بيت والدها لتخرج أمام الحاضرات من النسوة، ويتغنى في طبع الحسين وإيقاع دخول براول كما في وجق دار شعبان، ويتغنى أيضا في القطر اللبي بنفس اللحن مع تغيير بسيط من منطقة إلى أخرى.

وقد يخلطون في النوبة الواحدة بين الطبوع المتقاربة، فمن نماذج عملهم :

يستفتحون بمثل هذا النظم الجميل على ما به من تضمين واقتباس من القرآن

الكريم :

اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ رَبَّنَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ حَسْبُنَا
 إِنَّ يُصْنِي الدَّهْرُ يَوْمًا بِكَمَدٍ فَأَعْتِمَادِي " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ"
 وَإِذَا مَا حَادِثٌ يَطْرُقُنِي أَرْتَجِي فِي دَفْعِهِ " اللَّهُ الصَّمَدُ"
 وَأُنَادِي بِأَنْكَسَارٍ فِي الدُّجَى يَا عَلِيَّ الشَّانِ يَأْمَنُ " لَمْ يَلِدْ"
 وَهُوَ لَمْ يُولَدْ وَلَا وُلِدَ لَهُ مَا لَهُ فِي خَلْقِهِ كُفْرٌ وَأَحَدٌ

إَكْفِينِي يَا ذَا الْعُلَا مَا هَمَّنِي مِنْ عَدُوٍّ وَحَسُودٍ مُذْ حَسَدُ
أَنْتَ كَهْفِي وَمَلَاذِي سَيِّدِي لَيْسَ لِي إِلَّا عَلَيْكَ الْمُعْتَمَدُ
(ثم على طريقة العيساوية) :

يَا رَسُولَ اللَّهِ عَوْثًا وَمَدَدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ الْمُعْتَمَدُ
يَا رَسُولَ اللَّهِ فَرِّجْ كَرْبَنَا مَا رَأَاكَ الْكَرْبُ إِلَّا وَسَّرَدُ
برول (في طبع الحسين) مَا صَبَبْتُ لِلْوَصْلِ حِيْلَةَ شَيْلُونِي يَا أَهْلَ الْفَضِيْلَةَ
قَصْدِي لَوْيْلَةَ بَلِيْلِي تَفُورُ عَلَيَّ كُلَّ حِيْلَةَ
برول (في طبع العراق) : يَا عَاشِقِينَ! بُعْدُ الْحَبِيْبِ قَدْ زَادَنِي عِشْقًا
وَأَعْمَلُ عَلَيَّ غَيْظُ الرَّقِيْبِ فَعَلَهُ مَعِي يَبْقَى
برول (في طبع الحسين) : نَوَارِ اللَّوْزِ فَتَّاحُ وَجَبَّ الْعِشْقُ عَلَيَّ
أَدْرَهَا رَاحًا بِرَاحٍ يَأْسَاقِي إِمْهَلْ عَلَيَّ
وكذلك فعلهم في نوبة الإصبعين :

مِنْ عِنْدَ سَيِّدِنَا * جِيْنَاكُمْ زِيَارُ * يَا أَهْلَ الطَّرِيْقَةِ الرِّيْتَةَ
مِنْ عِنْدَ سَيِّدِنَا جِيْنَاكُمْ وَالْقَلْبَ وَالصَّمِيْرَ مَعَاكُمْ
يَا لَوْ نُمُوتُ مَا نِنْسَاكُمْ أَنْتُمْ سَادَاتُنَا يَا مَجْمَعِ الْأَحْيَارِ
ثم (طالع) : بِحُرْمَتِكَ يَا مُحَمَّدُ نَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَنِسْعِدُ
ثم (برول مالوف) : دَخِيْلَ اللَّهِ أَنْظُرُ مَا تَصْنَعُ الْعِشْقَاقُ
وَإِحْدٌ فِي تَقْلِيْقِي وَالْآخِرُ مِسْكِيْنَ يَعْشَقُ
...إلخ.. ثم (ختم) يَا سَاقِي الْحَمِيَّا.....

كما أخذوا عن العوامرية بعض المدحات منها في نوبة الحسين :

كُلُّ مَنْ يَهْوَى وَلَا يَهْوَى الرَّسُولَ كَيْفَ يَهْوَاهُ يَا عِبَادَ اللَّهِ؟
هُوَ بَابُ اللَّهِ مَا فَمَّةٌ دُخُولُ إِلَّا مِنْ بَابِهِ... يَا اللَّهُ
حُبُّهُ فَارْضُ عَلَيْنَا لَا يَحُولُ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ يَا اللَّهُ
إِسْقِنِي بِاللَّهِ كَوَيْسُ يَا مُحَمَّدَ ذُشْرُبُ مِنْهُ عَلَى غَيْظِ الرَّقِيبِ...

ونجد في العوامرية : على قول إحدى الفرق :

كُلُّ مَنْ يَهْوَى وَلَا يَهْوَى الرَّسُولَ كَيْفَ يُعْبَاهُ بِهِ كَيْفَ يُعْبَاهُ بِهِ
هُوَ بَابُ اللَّهِ مَا فَمَّةٌ دُخُولُ إِلَّا مِنْ بَابِهِ... إِلَّا مِنْ بَابِهِ
حُبُّهُ فَارْضُ عَلَيْنَا لَا يَزُولُ اللَّهُ أَوْصَى بِهِ اللَّهُ أَوْصَى بِهِ
إِسْقِنِي شَرْبَةَ آتِنِي كَأْسُ بِاللَّهِ يَا حَبِيبِي ذُشْرُبُ مِنْهُ عَلَى غَيْظِ الرَّقِيبِ

وهناك فرقة أخرى تقوله أقرب إلى العوامرية.

ويقول الشيخ الطيب محفوظ في حديث معه وجماعته: وتختتم السهرة بإذشاد في مقام

المزموم :

دُمُ يَا زَمَانَ الْمُنَى فَالْعَتَا قَدْ رَحَلْ
وَالسُّرُورُ قَدْ بَدَا لَنَا وَالْهَنَاءُ حَلْ
فِي ظِلِّنَا لِلسَّلَامِ هُنَا الْهُمَامُ دُوَالْكَرَمِ
مَنْ بِهِ اازْدَهَى قَدْرُنَا وَحَدَّ إِلَى الرَّشْدِ
خُذْ بِهِ يَا صَابِرٍ مِنْ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدْ
سَادَتِي لَمَّا أَتَيْتُمْ وَنَظَرْنَا لِبَهَاكُمِ
وَسَأَلْنَا اللُّطْفَ مِنْكُمْ وَاقْتَبَسْنَا مِنْ أَحْيَاكُمِ
قُولُوا قَوْلًا بِاخْتِصَارِ أَسْعَدَ اللَّهُ مَسَاكُمِ

وفي آخر السهرة يقولون ثلاث مرات (خْتِمْتُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ). ومن أعمالهم

كبقية الطرق الأخرى :

دورة المطهر والعريس والحاج : نوبة خاصة في الطريق يمشون بها (ولكل فرقة نوبتها الخاصة) فيقومون بها أثناء ذهاب أو رجوع :

مِنْ عِنْدِ سَيِّدِنَا * جِيْنَاكُمْ زِيَارَ * يَا أَهْلَ الطَّرِيقَةِ الزَّيْنَةَ

وإذا ما زالت الطريق طويلة يضيفون نوبة المزموم :

لِيكَ الْعَرَامُ دُعَانِي يَا شَيْخِي يَا الْأَنْصَارَ
حُبُّكَ سَكَنَ فِي كُنَانِي سَامُورُ شَعْلُ نَارَ

ولهم نوبة يسمونها نوبة الدرج في مقام الحسين منها :

إِذَا هَاجَ عَرَامِي مَرَّقُ مَا كَانَ عَلَيَّ
قُولُوا لِي هَنِيئًا رَأَيْتُ الْحَبِيبَ بُعِينِي
يَبْعُونِي يَبْعُونِي وَأَشْ قِيمْتِي؟ يَبْعُونِي
وَأَنَا مَا يَشْرِينِي إِلَّا أَبَا الْفَهْرِي الْأَنْصَارَ

برول، ثم : دَمْعِي جَرَى عَلَى صَحْنِ خَدِّي كَالْمَطَرِ وَالرُّوحُ مِنْ قَرِطِ الْهَوَى فِي هَاوِيَةِ

برول، ثم : بَحْرُ سِرِّكَ مَا خَفَى مِنْ نُورِ السِّرِّ الْعَجِيبِ

برول، ثم : يَا رَبِّ تَرْجُوكَ يَا كَرِيمَ وَأَجَلَ عَنَّا كُلَّ عَيْمِ

ثم : مُحَمَّدٌ مَوْلَى الشَّقَاعَةِ نِتَوَسَّلُ بِبَيَانِهِ

فهي نوبة مطرزة بإيقاع البطايحي، والبرول يعاد، فالدرج هو وزن البطايحي .

الدخول إلى الدار : يدخلون بالعادة في نوبة المحير سيكاه مطلعها :

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَتَا خَيْرِ الْبَشَرِ أَنَا خَاطِرِي حَيْرَانِي

كَيْفَ حَالِي حِينَ دَخُولِي لِلْقَبْرِ وَيُجِئُونِي الْمَلَكَانَ

ثم برول : يَا مَنْ يُرِيدُ مَسْرَةَ وَالْقَلْبُ يُبْرَى

يُدْخُلُ وَسَطِ الْحَضْرَةِ * يَا بَابَا * يَا بَابَا

ويزور شيخ الفقرا يَا شَيْخِي نُصْرَةَ

الْفَهْرِي شَائِشُ خَبْرَهُ * يَا بَابَا * يَا بَابَا

يَا مَوْلَى غَيْثِي * طَالِبٌ مِنْكَ احْسَانَ * يَا بَابَا الْأَنْصَارِ

ومن المدحات العيساوية :

هَيَّا نَزُورُوا شَيْخَنَا يَا فُقْرَا آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

بَابَا الْأَنْصَارِ نُشَوْفُهُ نِبْرَى آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

هَيَّا نَزُورُوا شَيْخَنَا جُمْلِيَّةَ آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

يَا شَوَّاشِ لُمُوا الْأَزْرَجِيَّةَ آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

وَالْمَلْقَى فِي الزَّوَايَةِ الْفَهْرِيَّةِ آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

هَيَّا نَزُورُوا شَيْخَنَا وَارْكَائِهِ آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

بَابَا الْأَنْصَارِ (ي) يُكُونُ مَعَانَا آه آه يَا بَابَا يَا بَابَا

إِسْقِيُونِي يَا عَمْدَتِي إِسْقِيُونِي يَا سَادَتِي

إِسْقِيُونِي وَأَنَا عَظْشَانُ * يَا بَابَا * أَنَا سَقَانِي الْأَنْصَارِي

إِسْقِيُونِي وَأَنَا عَظْشَانُ يَا بَابَا

ثم يجلسون ويقروون الفاتحة.

ثم يقومون بنوبة الاستفتاح : بطايحي ودخول وبرول فيبدوون مثلا في طبع الحسين بـ :

اللَّهُ حَسْبُنَا اللَّهُ رَبُّنَا

لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ شَيْءٌ أَبَدًا

ثم استفتاح ثان في مقام المزموم (يَاكُلْ عَاشِقُ) وربما أنهوه بـ (أَلْف يَا سُلْطَانِي)
 وبراول من المألوف التونسي. ثم استفتاح ثالث في مقام العراق التونسي: (قَصْدِي أَنْظُرْ
 إِلَيْكَ)، ثم نوبات: الحسين والسيكاه .. وغيرها. ثم يأتي دور المدحات الخاصة بأحمد
 الفهري حتى يصلون إلى الخمرة. ولهم نوبة خماري (في وزن المربع التونسي):

خَمْرِيَا خَمَّارُ خَمْرَةَ شَادِلِيَّةَ

وَالْفَهْرِي الْأَنْصَارُ مَا اعْرُزْهُ عَلَيَّ

خَمْرِيَا خَمَّارُ خَمْرَةَ الصُّبْحِيَّةَ

وَالْفَهْرِي الْأَنْصَارُ مَا اعْرُزْهُ عَلَيَّ

ثُمَّ : إِرْفَعْ رَاسِكَ لَا يَقُولُوا غَابَ

يَا فَهْرِي يَا حَطَّابَ

ثُمَّ : لَوْ كَانَ يَقْبَلُ لِينَا وَيَجِي عَلَيَّ مُكْنَسَ

بَابَا أَحْمَدِ يَا فَهْرِي يَا مُخْلِصِ وَحَلِّ النَّاسِ

ثُمَّ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ

اللَّهُ يَرْحَمُ شَيْخَنَا الْفَهْرِي الْأَنْصَارِ

برول :

شَوْقِي دَعَانِي * يَا أَهْلَ اللَّهِ * وَهَمْتُ يَا فُقْرَا

دِيرُو الْأَوَانِي * يَا أَهْلَ اللَّهِ * اسْقُونِي خَمْرَةَ

خَمْرَةَ غَزَالِي * يَا أَهْلَ اللَّهِ * مَكْحَلِ الشُّفْرَةَ

يَاهُ وَيَا هُوَ * يَا أَهْلَ اللَّهِ * مَا قَمَّةَ أَحَدٍ غَيْرَهُ

رَبِّي تَعَالَى * يَا أَهْلَ اللَّهِ * فِي قَلْبِي سُكْنَاهُ

حَاشَا وَكَلَا * اللَّهُ يَا أَهْلَ اللَّهِ * عُبَيْدُهُ يَنْسَاهُ

نَمْدَحُ نَبِينَا * يَا أَهْلَ اللَّهِ * أَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ
 مَوْلَى الْمَدِينَةِ * يَا أَهْلَ اللَّهِ * وَالنَّاجِ وَالْحَلَّةِ
 يَا حَاضِرِينَ * يَا أَهْلَ اللَّهِ * صَلُّوا عَلَيْهِ جُمْلَةً
 بَرَوْلٍ آخِرٍ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَحْسَنُ مَا يُذْكَرُ
 صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ شَارِقِ الْأَنْوَارِ
 إِذَا نِدَهْتَ لِكَ تَحْضُرُ يَا شَيْخُ يَا صَدَّادُ
 يَا صَاحِبِ الْمِيْعَادِ يَا فَهْرِي

نوبة راست الذيل : شَعْرُكَ مِنْ جَنَاحِ الْغُرَابِ وَخَدَّكَ يَأْقُوثُ

ثم : الْهُوَى قَدْ مَلَكَ فُؤَادِي بِاللَّهِ فِي الْهَجْرِ لَا تَزِيدُ

ثم : يَا عَاذِلِي بِاللَّهِ دَعْنِي أَرِدُ عِشْقًا

ثم : هَبَّ النَّسِيمُ * خَلَّخَ الشُّمَيْعَةَ * لَمَّا بَدَا الصُّبْحُ وَظَهَرَ

ثم : يَا مَنْ هُوَ عَنِّي نَقْرُ

والملاحظ في عمل هذه العادة تزواج الطرق ببعضها مثل العيساوية والعوامرية والسلامية وحتى العادة الحطابية والمالوف التونسي.

عائشة السيدة عائشة المنوية

هي عائشة بنت الشيخ أبي موسى عمران بن الحاج سليمان المنوي، وأمها فاطمة بنت عبد السميع، ومولدها [في حدود سنة 589هـ] بمنوبة غربي مدينة تونس. نشأت رضي الله عنها في حجر أبيها وقد اعتنى بتربيتها، فعلمها القرآن الكريم حتى أحسنت حفظه، ثم لاحت عليها علائم الزهد والصلاح، ويروى أنها كانت مجذوبة (والجذب في عرف الصوفية هو تفضّل الله تعالى بالولاية للشخص من غير أن يجشمه أتعاب السلوك) [وكانت السيدة عائشة جميلة الذات حتى قيل عنها أنها كانت أجمل عباد الله، وأن النظر إليها فتنة].¹ فأراد أبوها تزويجها من أحد أقاربها فلم تقبل وبقيت على عزوبتها، وقيل إنها تزوجت ثم ارتحلت إلى سكنى الحاضرة بقصد الانقطاع للتبتّل، فقطنت منزلاً خارج ربط (رياض مسعود) وهو المعروف عندنا اليوم بالمركاض حيث المقام المشتهر الآن باسمها.

وكان شأنها العبادة وغزل الصوف، وهو مورد حياتها، حُكي في مناقبها أنها ختمت القرآن الشريف في حياتها ألفاً وخمسمائة وعشرين مرّة. [كانت كثيرة التردد على جامع الصفصافة وجبل الزلّاج ومقبرة بني خراسان (بالقرب من باب المنارة) ومغارة الشاذلي،

1 محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 252.

وتجتمع بأصحاب الشاذلي أو غيرهم من الصّالحين وكان محمد بن محمد الأربصي من خدامها، وكان من أصحابها في الصلاح سيدي عثمان الحداد بو فبرين وهي تُلازمه في التلاوة والذكر⁽¹⁾. وكانت رضي الله عنها تَبَرّ بالفقراء والمساكين وتكرم المحتاجين، فما تحصّل عليه من عمل يدها تصرفه في سبيل الله. يُروى أنّها إذا بات في جيبها درهم ولم تتصدّق به تقول: "الليلة عبادتي ناقصة". وهذا ما يدلّ على خيرها وحنانها. وكانت ربّما تنقطع أيّامًا عن الذكر، وعندما تُسأل عن ذلك تُجيب: "لاخير في ذكر اللسان مالم يكن القلب حاضرًا". وأخذت السيّدة عائشة علوم اليقين عن الصالح الجليل وحبر الصوفية الكبير الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، ولها مع شيخها أخبار مذكورة وأحاديث مشهورة يرويها محبّوها خلفا عن سلف. [قالت: أنا رأيت أبا الحسن الشاذلي وأعطاني خاتمه من إصبعه وقال لي: أنا أوليتك طريقي. وقالت: رأيت الشاذلي مرّة أخرى وأعطاني علمه وصبره.]

وشاع خير صلاحها بتونس وقطرها فلم تزل معظّمة مكرّمة إلى أن أجابت دعوة ربّها ضحوة يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب سنة 665 هـ على عهد السلطان المستنصر بن أبي زكرياء الحفصي، وحضر جنازتها غالب علماء تونس في ذلك العصر، وآخر كلام سمع منها عند احتضارها: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}. توقّيت رضي الله عنها في سنّ عالية في السادسة والسبعين من عمرها ولم تُدفن بمنزلها بل دُفنت بروضة الفرجاني خارج شرف المراكض كما في التصريف القديم. فما أشبه حياتها وخلالها بالسيدة رابعة العدوية العابدة الشهيرة وما أحقّها بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}!

طريقة العمل: يقول الشيخ علي بوثرّة: ميعاد السيدة يوم الاثنين، ومن كانت على ميلاد (أي مخاض) أو وعدة (نذر) أو تريد الترويح على النفس، يكثر لها زوجها كروسة (عربة مجرورة بجواد) وتأخذ معها سماطا (أكلا) وبخورا وشمعا، وتجد هناك الربايبية (أي عازفة الرباب) ومعها بندير ودربوكة، وعوّضت الكمنجة الرباب وتسمّى العازفة: الجراينية (من الجرانة أي الكمنجة)، فتغني هؤلاء النسوة أغاني ومدحات

1 حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، طبعة ثانية، مكتبة المنار، تونس، ص: 117.

السيدة المنوبية. ثم اضمحلّت هذه الفرق النسائية وتلقف اليهود هذا اللون من الفنّ، ومكثوا يغنونه في منازلهم وسهراتهم الخاصة. ويقول الشيخ علي بوفرة: أنّه اشتغل معهم عوآدًا وعازف بندير، فيغنون نفس الغناء غير أنّ الكلام يتغيّر، فمثلا (عدّالة يا عدّالة) لعبد السلام الأسمر لا تُنشد هكذا إلّا في دار المسلمين أو في مقام السيدة المنوبية، أمّا في دور اليهود فتعوض بـ"هجالّة يا هجالّة" مثل عيساوية البلوط¹ اليوم. ويقول الشيخ علي بوفرة أنّ هذا النوع اضمحلّ من تونس وقال أنّه في عهد المرحوم قدّور الصرار في أراد تسجيله في الإذاعة لكنّ المنية عاجلت المرحوم قبل ذلك وعندما فقد سي قدّور فقدت معه الربايبية.

وفي استجواب للدكتور صالح المهدي² قال: إن العمل في الزاوية المنوبية وزاوية سيدي علي الخطاب، صاحب الإمام أبي الحسن الشاذلي هو نفسه. فيقع عمل بالزاوية المنوبية يوم الاثنين تقوم به الفرق النسائية، وآخر حضرة كانت للسيدة بيّة الحولة وكانت ممثلة وتعزف على آلة الكمنجة.

أما في ليلة الجمعة فالعمل للرجال فيقومون في قهوة الخميس بالطريقة الشاذلية مثل قهوة السبت. وكل جماعة لهم طريقتهم في تقديم العادة، فيدخلون بها وتكمل بطريقة الكانون (CANON) فيفترقون إلى حلقتين واحدة من هنا تقول، والأخرى من هناك ترجع. والذي كان يسيّر الجماعة هو الشيخ الشاذلي خلاص الذي كان قائما بجميع الطرق الموجودة بتونس حتّى بالطرق الزنجية.

والخطايبية والمنوبية نفس اللحن ونفس الكلمات مع تأثيرات بسيطة وتغيير جزئي، فجماعة الخطايبية ينسبونها إليهم وجماعة المنوبية كذلك.

زياراتها : وذكر الصادق الرزفي في الصفحة 90 من (الأغاني التونسية) أنّ خلوة السيدة المنوبية خارج باب الفرجاني (بالعاصمة)، فيتشارك في زيارتها النساء والرجال، وفي ليلة الجمعة من كل أسبوع تأتي طائفة من جماعة الطريقة الشاذلية فيذكرون شيئا

1 انظر فصل حزب البلوط في آخر كتابنا هذا.
2 استجواب قام به الأستاذ حسين الحاج يوسف يوم الإثنين 17 فيفري 2003 بنادي زرياب بنهج فلسطين بتونس العاصمة.

من الإسم ويمدحون بنغمات بسيطة خفيفة لا تمجّها الأذواق بعض المدائح منها هذه المدحة وتؤدّي على إيقاع المجرّد 5 من 8 مثل العيساوية تماما :

ردة: نَسْتَفْتَحُ بِإِسْمِ اللَّهِ يَا مَا أَحَلَّى ذِكْرَ الْجَلَالَةِ
 مُحَمَّدَ رَسُولِ اللَّهِ هُوَ ضَامِنِ الْعَزَالَةِ
 بيت: يَا لَلْأَيُّ نُورِ الْعَيْنِ خَبْرِكَ شَائِدٌ فِي الْوُطَيْنِ
 مِيْعَادِكَ جَمْعَةٌ وَأَثْنَيْنِ مَا هُوَ يُسْمُوكِ الْعَدَالَةَ
 بيت: يَا لَلْأَيُّ نَا جِيْتِكَ شَاكِي مُضَامٌ وَمَهْمُومٌ وَبَاكِي
 دَبَّرَ كَيْفَ يُكُونِ سَلَاكِي مَا هُوَ يُسْمُوكِ الْعَدَالَةَ
 بيت: يَا لَلْأَيُّ مَا أَحَلَّى مَقَامِكَ فِي تُونِسَ مَشْهُورَةَ اِعْلَامِكَ
 أَنْتِ بَيَّةٌ تَحْمِي خُدَامِكَ دَارِكَ تَغْلِي بِالرَّجَالَةِ
 بيت: عِنْدِ الْخِصَّةِ دَارِ الدُّورِ وَمَقَامِكَ بَاهِي مَشْكُورِ
 يَا بَيَّةٌ وَعَلَيْكَ التُّورِ مَا هُمْ يَقُولُوا الْعَدَالَةَ
 بيت: يَا لَلْأَيُّ نَا جِيْتِكَ نَشْكِي مَدْرُوكٌ وَمَهْمُومٌ وَنِيكِي
 قَعْدُ لِي حِمْلِي مَتِّكِي يَا فَايَزَةَ فِي كُلِّ عَمَالَةِ

ومثل ذلك يفعلون في عشية كلّ أحد وليلة كلّ إثنين، فيذهبون إلى مدينة متّوبة ويذكرون الاسم ويمدحون. ومن العادة المتّوية :

جِيْنَاكَ يَا كُونِيَّةَ بِصِدْقٍ وَنِيَّةَ
 جِيْنَاكَ يَا عَدَالَةَ نَبْعُوا مِنْكَ دَالَةَ
 وَاللِّي تَضِيْقُ أَحْوَالَهُ يُنَادِي عَلَى الشَّرْعِيَّةِ
 جِيْنَاكَ يَا مُحْبُوبَةَ نَبْعُوا مِنْكَ نُوبَةَ
 حَجَّةٌ وَمَعَاهَا نُوبَةَ وَزُورَةَ لِسَيْدِ رُقِيَّةِ

جِيْنَاكَ نَحْنُ عَلَيْنَا بَالِكَ تُقَرِّطُ فِينَا
يَاسِيْدَةٌ وَاسْقِيْنَا خَمْرَةَ رَبَّانِيَّةِ
جِيْنَاكَ نَبْعُوا اسْرَارِكَ حِنِّي عَلَي زِيَارِكَ
مَعْلُومٌ تَحْمِي جَارِكَ وَالْحَاجَةُ مُقْضِيَّةِ
جِيْنَاكَ يَا مَشْهُوْرَةَ يَا فَايْزَةَ بِالصُّوْرَةَ
مَقَامِكَ مُشْعَشَعُ نُورِهِ يَضُوِي مِثْلَ ثُرَيَّا
وَمِنْهَا : يَا زِيَارِ الْمُنُوْبِيَّةِ زُرْهَا وَالْحَاجَةُ مُقْضِيَّةِ

زُرْهَا رَاهِي مُسْرَارَةَ، مَحْبُوبَةَ عِنْدِ الدَّكَارَةِ، وَاللِّي يَغِيْبُ تَحِيهِ لُدَارِهِ، وَنَحِيْبُ عَلَي كُلِّ ثُنِيَّةِ
زُرْهَا رَاهِي نَفَاعَةَ، مَنْ جَاهَا يَشْكِي بِاَوْجَاعِهِ، يَنْضَرِّعُ كَثِيْرٌ فِي سَاعَةِ، هَلُمُّو يَا اَهْلِي التِّيَّةِ
زُرْهَا رَاهِي مَحْبُوبَةَ، وَالْحُدْمَةَ فِيهَا مَطْلُوبَةَ، حَضْرَتُهَا لَلْأَمْنُوبَةَ، نَعَمُ الْحَضْرَةَ الشَّاذِلِيَّةِ
يَا دَاخِلُ فِي هَا الْحَضْرَةَ، تَسْعِدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، يَحْضُرْ لِكَ وَقْتِ الْعُسْرَةِ، الْعُوْثُ اِمَامُ الصُّوْفِيَّةِ
الشَّاذِلِي مُوَلَى الْعِنَايَةِ، لَا تُحْصَى لِيهِ مَزَايَا، يَكْفِيهِ فَخْرُ الْوَلَايَةِ، جَدُّهُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ
يَا رَبِّ صَلِّ وَبَارِكْ، عَلَي الْمُصْطَفَى الْمُبَارِكِ، وَعَلَى الْآلِ كَذَلِكَ، وَالصَّحَابَةَ وَالدُّرِّيَّةِ
وَالْأَزْوَاجِ الطَّاهِرِيْنَ، اَهْلِي الْبَيْتِ اَجْمَعِيْنَ، وَجَمِيْعِ التَّابِعِيْنَ، لِلشَّرِيْعَةِ الْاِسْلَامِيَّةِ
وَلَهَا عِدَّةٌ مَدَائِحٍ اُخْرَى سِوَاءِ مَنْفَرْدَةٍ اَوْ مَعَ اَوْلِيَاءِ اٰخَرِيْنَ كَأَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِي
وَالشَّيْخِ عَلِي الْحَطَّابِ، اَوْ غَيْرِهِمَا.

العلامة الشاذلية

نسبة إلى سيدي علي الخطاب من أصحاب الإمام الشاذلي توفي سنة 671 هـ ودفن بزاويته المعروفة قرب المرنافية وهي في المكان المسمّى سابقا "شاذلة" حيث نزل أبو الحسن الشاذلي عند قدومه من المغرب وإليها نسب¹، والشيخ الخطاب هو أول من تعرّف بأبي الحسن حين قدومه حين كان يبيع حملا من الحطب فلقى الشيخ أبا الحسن فصحبه إلى شاذلة ومن هناك لازمه. وذكر من ضمن أصحابه وهو الرقم 35 في الصفحة 345 من مختصر الإمام الأجد لأحمد بن المهدي الغزال، إذن، فهو من معارف السيدة المنوية أيضا ومن نفس المدرسة.

يقول السيد محمد الكحلاوي الصحفي أستاذ تاريخ المسرح بالمعهد الأعلى للموسيقى بسوسة أنّ هنالك مهرجانا باسم "مهرجان سيدي علي الخطاب" يقام في الأسبوع الأخير من شهر ماي، فيشارك الزوّار من الفرق الصوفية في الأيام الأولى بما لديهم، وفي اليوم الأخير يقع تقديم أمداح "سيدي علي الخطاب" ويختتم الكلّ بعمل الشاذلية وقراءة أحزابها. وبعد أسبوع من اختتام المهرجان ينطلق العمل الشاذلي كلّ مساء خميس بعد صلاة العصر حتى الفجر. ويتوزّع هذا العمل على المقام الشاذلي ومقام سيدي ماضي بن

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص 89.

سلطان الذي هو نموذج مصغر من المقام الشاذلي بالإضافة إلى العمل الشاذلي الذي يقع طيلة السنة صباح كل سبت.

والخطابية والمنوية نفس اللحن ونفس الكلمات مع تأثيرات بسيطة وتغيير جزئي، فجماعة الخطابية ينسبونها إليهم وجماعة المنوية كذلك. وهناك جماعة من الشاذلية تذهب في ليلة كل جمعة إلى سيدي علي الخطاب فيذكرون الاسم ويمدحون أيضا، ومن مدحاتهم في الشيخ علي الخطاب :

حَطَّابُ يَا ابْنَ عَلِيٍّ عَلَيْكَ الْعَدَاذُ طَوَّلْتَ الْغَيْبَةَ وَزَادْتَ الْأَبْعَادُ

صِيدِ الْبُحَيْرَةَ شَعَشَعُ نُورِكَ بَحْيِبِهِ رَبِّي سَاكِنَةُ الْبِلَادُ

حَطَّابُ يَا أَبِي نَائِيَا وَلِيْدَهُ مُحَالٌ يَغْضَبُ وَيَعْمَلُ تَنْكِيْدَهُ

ارْزُقْ بِالرَّاسِ وَخُذْ بِيْدَهُ نَا خُدَيْدِكَ يَا سَيِّدَ الْأَسْيَادُ

مدحة أخرى: ارْزُقْ رَأْسِكَ لَا يَقُولُوا غَابَ يَا عَلِيَّ يَا حَطَّابُ

طَيْرٌ وَعِزٌّ فِي السَّمَاءِ جَلَّابٌ يَا عَلِيَّ يَا حَطَّابُ

طَلَيْتُ مِنَ الْهَنْشِيرِ رِيْتِ الْقُبَّةِ مُبَيَّضَةَ الْحَيْرِ

بَالِكَ يَقُولُوا الصَّيْدَ عَنِّي غَابَ يَا عَلِيَّ يَا حَطَّابُ

طَلَيْتُ مِنَ الزُّهْرُونِي قُبَّةَ سَيِّدِي مُقَابَلَةَ عَيْونِي

الِّي قَصْدِكَ لَا يُغْلَابُ يَا عَلِيَّ يَا حَطَّابُ

إِجْبَانِي كَيْفَ الْبَيْ وَعَسَاكِرُ تَدْوِي دِي

دُخَيْلِكَ بِاللَّهِ افْتَحْ لِي الْأَبْوَابُ يَا عَلِيَّ يَا حَطَّابُ

وللخطابية خرجة يقولون فيها :

يَا سَمِ اللّٰهَ وَيَا اللّٰهَ وَيَجَاهِ رَسُوْلِ اللّٰهَ

بِالسَّادَةِ أَوْلِيَاءِ اللّٰهَ فَضْلِكَ يَا نِعَمَ الْمَوْلَى

بِاسْمِ اللّٰهِ سَمِيْنَا
بِعَدِّ الْحَمْدِ صَلَّيْنَا
بِاسْمِ الْعَظِيمِ بَدَّيْنَا
صَلَاةَ تَبَلَّغْنَا لِلّٰهِ

ومن مدحات سيدي علي الخطاب :

اللّٰهُ اللّٰهُ
اللّٰهُ اللّٰهُ
أَلْحَطَّابُ رَيْنِ اللَّغَامِ
أَلْحَطَّابُ مِنْ فَضْلِ رَبِّي
مِنْ أَجَاوِيدِ الْخِيَامِ
شَوْفُوا فَضْلَهُ يَا كِرَامِ
فُضِّلَ الْقُدُومَ عَلَيْهِ
جُزْتُ مِنْ بَابِ السَّلَامِ
نُورُهُ يَلُوحُ عَلَيْهِ
وَسَطَ الْحَرَمِ وَالْمَقَامِ
إِرْضَ يَا رَبَّ عَلَيْهِ
لَيْلَةَ جَمْعِ الْمَفَاخِرِ
هِيَ ذُخْرِي وَاسْتِنَادِي
بِمَقَامٍ قَدْ تَسَاى
بِالْوَلِيِّ قُظْبِ الْبِلَادِ
صَاحِبِ الْفَخْرِ الْمَعْلَى
فِي رِضَا رَبِّ الْعِبَادِ
يَا شَيْخِي عِنْدَ اعْتِمَادِي
أَنْتَ يَا حَطَّابُ ذُخْرِي

وَالْجَالِي بِكُمْ يُنَادِي

أَقْبَلَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا
مِنْ تِنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
مَا دَعَا لِلّٰهِ دَاعِ
أَيُّهَا الْمُبْعُوثُ فِينَا
جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ
صَلِّ يَا رَبَّ عَلَيْهِ
مَا دَعَا لِلّٰهِ دَاعِ
أَقْبَلَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا
وَاخْتَفَتْ مِنْهُ الْبُدُورُ
مِثْلَ وَجْهِكَ مَا رَأَيْنَا
قَطُّ يَا وَجْهَ السُّرُورُ

نوبات الأولياء الصالحين من غير أصحاب الصرق

لا شك أننا لم نقف على جميع ما وجد فلا بد أن يكون قد غاب عنا ما لم نعثر عليه أو لم يصل إلى علمنا عنه شيء، ولكن لا يمكن أن نمرّ دون لفت النظر إلى أنّ العديد من البلدان والقرى تنسج للولي الموجود بجهتها أو ما يسمونه الأب الروحي بعض النوبات والمدحات التي لا تصل إلى الشهرة حدّ الانتشار، أسوق من ذلك بعض ما يوجد بالمنستير من تغنّ بأولياء الجهة كمدائح للسيدة أمّ ملال ذات الرباط القريب من رباطي هرثمة وسيدي ذويب :

يَا سَيِّدَةَ يَا نَعَّازَةَ	رُدِّي الْغُرَيْبِ لَأَوْكَازَةَ
يَا غُرَيْبِيَّةَ	لَا تَقْصُرْ جَاهِكِ عَلَيَّ
إِنِّي وَلَلْأَخْلَوِيَّةَ	دَبَّرْ عَلَيَّ يَا جَارَةَ
نُورِكَ يَعْجِبُ	يَا لَأَيْسَةَ كِسْوَةَ مَذْهَبُ
وَالثُّورَ عَلَى أُمَّتِي يَعْجِبُ	وَهِيَ عُرُوسَةَ حَضَّازَةَ
جِيئَتْ نَزُورِكَ	حَبَّتْ شَمْعُكَ وَبُخُورِكَ

يَا لَلَّاءِ وَيَشْعَشَعُ نُورِكَ جِبْتِ الدَّوَاءِ مِنَ الْمُحَارَةِ
 مَوْلَاةِ الْبِيْرِ مَوْلَاةِ السَّنَجِقِ وَالْبِنْدِيرِ
 يَا أُتْمِي جَيْتِ عَلَيْكَ دُخَيْلُ دَبَّرَ عَلَيَّ بِدَبَّارَةِ
 سَاكِنَةِ السُّورِ يَا لَابَسَةَ الْحَرَامِ الْمُورِ
 وَيَجْعَلُ حَالَنَا مَسْتُورِ وَهِيَ عُرُوسَةَ حَضَّارَةِ
 غَطَّنِي بِكُمِّكَ سَيْدِي ذُوَيْبِ وَخَيْكَ مِنْ أُمَّكَ
 يَا سَيِّدَةَ حِلِّي فُؤُوكِ دَبَّرَ عَلَيَّ يَا جَارَةَ
 جَيْتِكَ نَجْرِي جِبْتِ بُحُورِي فِي حَجْرِي
 يَا أُتْمِي أَطْلُبْ لِي رَيِّي جِبْتِ الدَّوَاءِ فِي الْمَعَارَةِ

أو نوبة المازري التي منها :

يَا مَازِرِي حِلِّ الْبِيْتَانِ وَاعْرُضْنِي وَافْرَحْ بِيهِ

أو سيدي منصور بيزيد :

عِنْدَ أَبِي مَنصُورِ خَلَّيْتُ عَفْلِي
 وَإِذَا رَادَ اللَّهُ عُذْوَةَ نُوْلِي

أو سيدي أبي بكر الحنفي :

بُوبَكْرِي يَا بُوبَكْرِي يَا حَزْرِي يَا كَامِلِ السَّرِّ
 بُوبَكْرِي وَلَا عَافِيَةَ مُوَالِي التَّيَّةِ الصَّافِيَةَ
 لَا تَخْفَاهُمْ خَافِيَةَ يَقْضِي الْأَشْوَارِ الْكُلَّ

أو سيدي سالم التباسي :

سَالِمُ هَا يَا تَبَّاسِي بَابَا يَا عَصَابَةَ رَاسِي

وَيَا بَابَا قَلْبِي مَعْرُومٌ لَا تُرْقُدْ لَا يُجِينِي نَوْمٌ
يَا تَبَّاسِي وَعَلَيْكَ اللُّومُ آه يَا بَابَا وَاحْضَرِّي

أوسيدي فرج وسيدي جابر (بالمهدية) :

بَابَا فَرَجٌ وَبَابَا جَابِرٌ وَهُونِيَّةٌ نَضَبُوا الدِّيَوَانَ
مَعَاهُمْ الْأَسْمَرُ وَلِدٌ سَلُومَةٌ وَمَعَاهُمْ عَشْرَةٌ فُرْسَانَ

أو :

بَابَا جَابِرِيَا أَبِّي يَا عَزَّ الزَّيَّارُ
بَابَا جَابِرِي فِي الْمَهْدِيَّةِ يَا شَيْخَ يَا فَحْتَازُ
بَابَا جَابِرْهَا يَا تُرْكِي يَا بَاشَا مُصَدَّرَعِ الْكُرْسِي
يَا مَن هُوَ مُضَامٌ بِشِكِي يَقْضِي لِي الْأَشْوَارُ
بَابَا جَابِرْ مَاكِ حَنِينِي يَا بَاشَا يَا قُرَّةَ عَيْنِي
مِيْعَادِكِ مَاذَا يَحْمِينِي آقِفْ عَلَيَّ جَاهَا
بَابَا جَابِرْ مُوَلِي الْمَاجِلِ يَا طَيْرِ مَهْوَدٍ بِجَلَا جِلِ
طَيْرِ الْبُرْنِي عَرْضْنِي عَاجِلِ مُرُوحِ عِ الْآفَجَارُ
بَابَا جَابِرِي يَا مَشْهُورُ يَا حُوْتَةَ فِي سَبْعَةِ بَحُورُ
مَدْفَعِيكَ يَضْرَبُ بِالْكُورُ يَضْرَبُ خَافِي وَجْهَارُ
بَابَا جَابِرِي فِي الْمَهْدِيَّةِ يَا حُوْتَةَ فِي وَسْطِ مِيَّةِ
وِينُهُ بَعْلِي هُوَلِيَّ يَبْعُدُ عَنِّي الْغِيَارُ

أوسيدي شيبيل :

يَا وَلَدُ شَيْبِلِ اعْطِينِي دَالَةَ وَاجِيَا فِي اللَّيْلِ يَا عَلِي يَا بَابَا

زَيْنِ الْبَرْتُوْصِ وَاعْرُضْنِي عَلَيَّةِ كَأَيْنُهُ عُرُوسُ يَا عَلِيَّ يَا بَابَا

أوسيدي المديوني :

يَا مَدْيُونِي يَا سُلْطَانَ يَا تَأْخُذُ بِدَيْدِي
 خَبْرُهُ شَائِدٌ فِي الْأَوْطَانِ قُبَّةٌ بِيضًا مَبْنِيَّةٌ
 مَدْيُونِي يَا مُوَلَى الْخَيْرِ مُوَلَى السَّنَجِقِ وَالْبُنْدِيرِ
 وَأَنَا حَيْثُ عَلَيْكَ دُخَيْلٌ بَابَا رَائِسِ الْبَحْرِيَّةِ
 مَدْيُونِي مُوَلَى الْأَبْحَازِ وَيُعَوْمُوا فِيهِ الصَّغَارُ
 اللَّهُ لَا يُورِّثُكَ غِيَارُ بَابَا مَا يُخَلِّي بِيَّ يَا
 يَا بَابَا مُوَلَى الْقَدَرِ سَاكِنٌ عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ
 مَا يُخَلِّي لِي فَمِّي مُرُ بَابَا وَيُنُوبُ عَلَيَّ يَا
 مَدْيُونِي يَا مُوَلَى الْهَيْبَةِ سَاكِنٌ عَلَى شَطِّ الْقَصِيْبَةِ
 رَانِي عَظْشَانَ اعْطِينِي شَرِيْبَةً صَافِيَةً وَزُلَّالِيَّةً
 مَدْيُونِي مُوَلَى التَّابُوتِ يَنْحِي فِيهِ الْبُوتَاغُوتُ
 يَنْحِي فِيهِ الْبُوتَاغُوتُ بَابَا يَأْخُذُ بِدَيْدِي
 مَدْيُونِي عَلَى الْكَيْيَاسِ وَمَا تُشْمَتُّشِي فِي التَّيَّاسِ
 وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ نُرَوِّحُ لَا بَاسَ بَابَا يَأْخُذُ بِدَيْدِي
 بَابَا مُوَلَى الْحُضْرَةِ يَا لَبَّاسِ الْكُشْطَةِ الْحُضْرَا
 يَا سَيْدِي دَاوِيْبِي نِيْرِي بَابَا مَا يُخَلِّي بِيَّ يَا

أوسيدي الناصر :

يَا حَمْرِي الْعَيْنُ يَا بَابَا التَّاصِرُ
 يَا حَمْرِي الْعَيْنُ وَأَنَا التَّادِي

أَنَا نُنَادِي وَأَنْتَ وَيُنْ يَا بَابَا النَّاصِرُ
يَا قَحْتَارَ وَالْفَقْرَاجَاتِ عَلَى بَابِ الدَّارِ
أَحْكُمْ خَافِي وَجَهَارَ أَحْكُمْ يَا سَيِّدِي حَكْمَ سُلَاطِينِ
زَيْنَ الْبِرْنُوسِ دَاخِلَ لِلْحَضْرَةِ
كَأَنَّهُ عَرُوسَ شَوْشَةَ عَلَى اِكْتَاْفِهِ
مَنْجِي الْكَبَّوسِ وَاعْدِلْ يَا بَابَا
حَكْمَ سُلَاطِينِ يَا بَابَا النَّاصِرِ
زَيْنَ الْمَنْتَانِ دَاخِلَ لِلْحَضْرَةِ
كَانَتْهُ سُلْطَانِ شَوْشَةَ عَلَى اِكْتَاْفِهِ
مِثْلَ الرَّمَانِ أَحْكُمْ يَا سَيِّدِي
وَكُونِ فَطِينِ يَا بَابَا النَّاصِرِ
وَعَلَيْهِ الْوَهْرَةَ يَا مَا أَحْلَى النَّاصِرِ
دَايِرِي فِي الْوُزْرَةَ وَافْزِعْ لِي نَفْرَةَ
رَانِي مَضَامَةَ وَحَمَلِي عَلَيَّ ثَقِيلَ

أو أم دلال :

يَا لَأَيَّامٌ ذَلَالٌ شَرَعَ اللهُ تَعْفُو بِالْحَالِ

لَلْأَيَّامِ جَارِثَنَا اللَّيْلَةَ اعْطَيْنَا بَرَهْتْنَا
تَعْلَى وَعَلَى عَدُوَّتْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ نَبَاتُوا عَالِكَمَالِ

لَلْأَيَّامِ سَاكِنَةِ السُّورِ اللَّيْلَةَ جِيَّتِكَ نُزُورِ

أَعْطَيْنِي الْوَهْرَةَ وَالثُّورَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ نَبَاتُوا عَالِكَمَالَ

لَلْأَيَّاسَاكِينَةِ الْبُرِّ يَا لَابِئْسَةَ حُرَامٍ فَمُرْ
مَا تَحَلَّى لِي فُمِّي مُرْ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ نَبَاتُوا عَالِكَمَالَ

لَلْأَيَّاصَافِيَةِ التِّيَّةِ سَاكُنْهُ حَوْمَةَ طَرَابِلَيْسِيَّةِ
وُخَيْهَا مُحَمَّدُ بْنُ قَرْوِيَّةِ جَارَهَا عُمَرُ الْقَلَّالُ

لَلْأَيَّامَوْلَاةِ الْبَيْرِزِ مَوْلَاةِ الْحَضْرَةِ وَابْنِ دِيرِ
وَإِنَّا حَيْثُ عَلَيْنَا دُخَيْلٌ تُجِيحُكَ الْوَعْدَةُ بِالْكَمَالِ

لَلْأَيَّاسَاكِينَةِ الْمُرِّ يَا لَابِئْسَةَ الْحُرَامِ أَحْمَرُ
مَا تَحَلَّى لِي أَفِينِي مُرْ تُجِيحُكَ الْوَعْدَةُ بِالْكَمَالِ

أوسيدي عمر مخلوف، أو أبي الفضل الغدامسي، وبلغ بعضها انتشارا كبيرا كنبوة أم الزين الجمالية التي نجد العديد من الطرق لا تغفل عن التغنى بنوبتها، لذلك رأينا أن نفرد لها فصلا خاصا للثراء التي تمازبه من طريقة إلى طريقة.

وهكذا اكتفينا بما نجد بالمنستير، والأکید أن كل قرية وكل مدينة وكل جهة لها أولياؤها، ولهم نوبات مثل النوبات التي ذكرناها، وإن تمكنا يوما من جمعها سوف نقوم بذلك ولكننا نهيب بأبناء كل جهة أن يجمعوا ما لديهم فهو مجد وفخر لجهتهم ومدينتهم وقربتهم، ونعتقد جازمين أنه لا تخلو بقعة من الجمهورية التونسية تخلو من مثل هذه النوبات.

أم الزين العمالية

"هي الجليلة الصالحة السيدة أم الزين بنت سعيد بن محمد بن صالح بن إسماعيل بن عثمان ابن علي بن تليل، فهي حفيدة سيدي إسماعيل¹ الولي الصالح نزيل زمردين بالساحل الذي له ضريح يزار هناك"² يمكن تحزير ميلادها سنة 1734 تقريبا حيث إنها في ثورة جمال على الرشيد باي كان لها من العمر 25 سنة، وقد وقعت الثورة سنة 1759، فيكون ميلادها في السنة المذكورة. تُوفِّي والدها وترك معها أخوين أحمد وسالما، فماتا وتركا عقبًا. أمّا هي فماتت عن غير عقب، وقد عاشت في القرن الثالث عشر في عصر الباي حمودة باشا أي حوالي 1280 هـ وقبلها أي أوائل القرن ولها زاوية بجمال³.

وقيل إنها من نجح سعيد، عاشت بين 1736 و1799م، كانت من المجاذيب جاء أهلها من فريانة من سلالة سيدي (تليل) الذي جاء مع الدولة الحفصية حوالي 1433م، من جبال أوراس بالجزائر فترك عائلته بفريانة، ورجع إلى أوراس بعد أن تحصل على مرسوم سلطاني بتبجيله حيث إنّه يرجع بالنسب إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان، "وفي

1 هو إسماعيل بن الشيخ محمد صاحب زاوية قصر زمردين كان حيًا سنة 1003 هـ وقد حبس أملاكه على أولاده محمد وأحمد وعلي وعمر وأبي بكر وعلي أعقابهم وذريتهم وهي أغلب سكان زمردين. عن النيال، الحقيقة التاريخية، ص 319.

2 محمد الطاهر اللطيفي، أعلام ومناقب سيدي تليل وأبناؤه، مطبعة الحيواوي، القصرين، ماي 2006، ص 53.
3 النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 317.

القرن السابع عشر الميلادي استقرت عائلات منهم (أي أولاد تليل) ببلدة فريانة وسكنتها حيث كان جامع سيدي عباس بن عبد اللطيف أول بناية شيدت بفريانة الحديثة، ثم بنى أولاد تليل بفريانة - في فترات لاحقة - الزاوية ودورا لهم ومتاجر¹ تروي الذاكرة الشعبية على لسان السيد رئيس جمعية صيانة مدينة جمال: أنّ نجع (تليل) خرج من فريانة في طلب الرزق حتى وصل إلى المهديّة فاستقرّ بها، وتوفّي ميلاد سعيد أبو السيدة أمّ الزين بجهة السبالة بالمهديّة، كما توفّي أخوها علي بن ميلاد تليل بنفس المكان ثم نقلوه إلى الفصرين بمعتمدية العيون. فلما أتت سنون عجاف خرجت مع أخيها أحمد وبقية النجع من المهديّة إلى جمال، ونزلوا في حمى زاوية سيدي فرج الأنصاري بزاوية قنطش. وصادف أن أشارت على مريّ الإبل بكّي جمالم، فضحكوا منها إلاّ واحدا كوي جماله حسب إشارتها، وجاء وباء فأخذ الإبل ولم ينبج منها إلاّ جمال الذي كوي، فأصبح الاعتقاد في (أمّ الزين) راسخا.

ودخل أخوها في التجارة بالجمال وضربت قوافله إلى نفطة، فلما عزم على السفر حبسها، فقالت له: إذا أتاك همّ فصلّ ركعتين وقل: يا أمّ الزين. فضحك من قولها وخرج. فلما بلغ مزونة (وهي معتمدية تابعة لولاية سيدي بوزيد تقع بينها وبين مدينة صفاقس). كسّر بعيه، فتركته القافلة هناك وسارت، ولما ابتعدت تذكّر قول أخته، فقام فصلّي ركعتين ثم نادى باسمها فإذا ببعيره واقف صحيحا، ولحق القافلة، وسبقها في الرجوع إلى جمال، فما أن حلّ ركبها حتى ذهب بعض رجالها إلى منزل أحمد بن ميلاد أخ السيدة لإعلام أهله بعبطه فإذا به هو الذي يفتح لهم الباب.

كان علي باشا وأخوه محمد الرشيد ابني حسين بن علي يحنّان المتصوّفة وأهل الفن، ويكرمان أولاد (تليل). وعندما ثارت جمال علي محمد الرشيد باي المتوفى سنة 1759 نقلوا أمّ الزين إلى سوسة لأنها من عائلة شريفة، فأبت أن تتركب إلاّ حمارا عوضا عن الفرس وعمرها إذ ذاك خمس وعشرون سنة. ثم نقلوها إلى الحاضرة فأنزلوها في زنزانة صحبة أسدين، فلما أصبحوا وجدوا الأسدين واضعين رأسيهما على ركبتيها وهي تعبت بشعرهما، فاعتقدوا فيها، وأمر الأمير علي بن حسين بن علي باشا² ببناء الزاوية الحالية

1 محمد الطاهر اللطيفي، أعلام ومناقب سيدي تليل وأبناؤه، مطبعة اليحياوي، القصرين، ماي 2006، ص 05.
2 بويع محمد الرشيد بن حسين بن علي بايّا، ثم خلفه شقيقه علي باي، وفي عهد هذا الأخير حاول اسماعيل

لها وجعل لها جارية شهرية. وبالطبع فإنّ هذه الرواية هي رواية الذاكرة الشعبية.

في سنة 1759م احتفى الناس بزوايتها أثناء الحملة الباشية على جمال، وقامت بالشفاعة لدى الباى فى القائد جعفر بن خضر المتواطى مع الثائرين وقالت: (يا باى العسكر اشفع فى جعفر) وقد كان متصرفا عامّا فى الولايات وعاملا على المنطقة. ومن أجلها شفع فى كلّ الجمّالين وأرجع إليهم أراضيهم وأموالهم، وكرّم أمّ الزين.

لم تتزوج أمّ الزين، وعندما تسأل عن عدم زواجها تقول بأنها متزوجة بسيدى عامر المزوغى وهو طبعا من الخيال. وعاشت مبعّلة، وقد أهدى إليها المشير أحمد باشا باى مصحفًا ما زال إلى الآن بمتحف مدينة جمّال. وتوفيت سنة 1799م، ومنذ وفاتها وضع لزوايتها شيخ يسمّى بأمر عي من الباى نفسه وحذفت الآن هذه الوظيفة وأصبح مكانه حفيظ.

بنيت الزاوية، إذن، بأمر من على بن حسين بن على باشا الحسينى فى أواسط القرن الثامن عشر، ورُمّت سنة 1962، ثم سنة 2001 - 2002 والناس الذين يريدون أن يتبرّكوا بأمر الزين يأتونها للزاوية. وكان الاعتقاد فى التّراث الشعبى للاستشفاء بها والاستغاثة.

زياراتها: كلّ يوم خميس، وحدد هذا الموعد لأن جيش على باشا دخلها يوم الخميس وشفعت لديه يوم الخميس فبعّجها الأعيان، وأصبحت الزيارة كلّ يوم خميس، فتأتى من قصر هلال والمهدية و صفاقس وهناك فرق نسائية تقوم بورد أمّ الزين فتذبح الذبائح وتقام الأختان (الطهورات) وبالزاوية مسكن للمرضى ليوم أو يومين للاستطباب، إذ يعتقدون أنّها طيبية وينادونها بهذا اللقب فى بعض مدائحهم. وتقع حضرة نسائية تنشد فيها أمّادح أمّ الزين. وأحيانا تزور الزاوية فرق نسائية من المهدية، ورجالية من ماجل بن عباس وفرقة مدنية النساء بالمنستير وعائلات من زغوان والكل ينشد مدائح أمّ الزين. وكان الشيخ بودية يقوم بزيارات من صفاقس ويعمل فيها عملا بالزّكرة، هذا مع

بن يونس باشا افتكك السلطة فتسلل فى 19 أوت 1756 إلى مدينة جمال التى آوته ونصرته، فبعث إليه على باى جيشا بقيادة الحاج على بن عبد العزيز العوادى، فنزلت المحلّة بالساحلين قرب قرية معتمر وجلبت المدافع من سوسة، وانهرم الجمّالّيون وخربت بلدتهم. وأما اسماعيل ففرّ إلى جبل وسلات فلما حاصر على باى الجبل فرّ الثائر هاربا إلى تركيا سنة 1762. وتم فى ذلك التاريخ إخلاء جبل وسلات من ساكنيه نهائيا، وتفرق الوسلاتية فى كافة مناطق البلاد (محمد الصغير بن يوسف الباجى، المشرع المالكي فى سلطة أولاد على تركى، ترجمه إلى الفرنسية فكتور سراس ومحمد الأصرم تونس 1900).

التذكير بأن أحزاب صفاقس بعد زيارتها كل سنة لمقام سيدي عامر المزوغي لا بدّ أن تعرّج في طريق الرجوع على مقام السيدة أم الزين.

ولأمّ الزين الآن لجنة تضامن تقوم بما يقرب عن 50 عائلة بإعانات مستمرة. دون الإعانات العارضة، ونظّم لأمّ الزين مهرجان يقام بمدينة جّمال باسمها.

نوباتها: لأمّ الزين عدّة نوبات تتحد وتختلف في الكلمات وحتى في الألحان من فرقة إلى أخرى ومن طريقة صوفية إلى أخرى، وقد تنشّد القطعة الواحدة على طبع مختلف باختلاف الفرق المادحة. ويُقال إن لها أكثر من ثلاثين مدحة من بنزرت حتى صفاقس الكل يتغنّى بأمّ الزين. ومن مدحاتها المشهورة: تنطلق بعروبي في (العرضاوي) حسب فرقة زهرة الكافية النسائية (وزهرة الكافية هذه بلغت التسعين سنة الآن من العمر) (2004م)، وهي ما زالت تغنّي وتقود فرقها القديمة، (والآن 2012) توفيت وورثها ابنتها):

يَا سَيِّدَةَ حَرَمِكَ مَنْوَّرَ بِالذِّكْرِ وَحُسْنِ الْمَعَانِي

يَا سَيِّدَةَ قَلْبِي مُعَيَّرَ نَجِّي الْعَدُوِّ مِنْ قُدَائِي

ثم ينطلق الانشاد في المدحة الأولى في العرضاوي :

يَا لَلْأَمْرِ مَرِيضٌ عَلِيْلٌ إِنَّا دِي عَلَى أَمِّ الزَّيْنِ

يَا لَلْأَمْرِ مَرِيضٌ عَلِيكِ أَنَا دِي حَرَمْتُ نُوْمِي رُقَادِي

يَا طَبِيْبَةَ سَأَلْتِيكَ بِالْبَغْدَادِي يَا أُمَّ ذُرَاعِ طَوِيْلِ

يَا لَلْأَمْرِ مَرِيضٌ عَلِيكِ اللُّوْمُ يَا زَيْنَةَ الْحَرْطُوْمِ

يَا طَبِيْبَةَ رَأَيْتِي مَضِيُوْمُ نَعَاغِي نَهَارَ وِلِيْلِ

يَا لَلْأَمْرِ مَرِيضٌ عَلِيكِ أَنَا دِي حَرَمْتُ نُوْمِي رُقَادِي

يَا طَبِيْبَةَ سَأَلْتِيكَ بِالْبَغْدَادِي وَجَدَّ الْحَسَنَ وَحَسِيْنِ

ثم يقع تطريز في (الصالحي) :

يَا لَلْأَمْرِ جِيْنَاكِ اللَّيْلَةَ فِي لَيْلَةِ جَمْعَةِ وَفُضِيْلَةَ

1 للآ: ياسيديتي أويامولاني بالعامية التونسية، وأصل الكلمة تركي.

يَا مَ الرِّينَ عَلِيكَ الحِيلَةَ وَأَحْضَرَ يَا بِنِيَّةَ جَمَّالَ
 وَيَرْجِعُ : يَا لَلَّآ يَا زِينَةَ المَثَبَّآكِ وَيَا سَعْدِ اللَّيِّ رَاكِ
 يَا طَيِّبَةَ حُذَا الحَدِيثِ مَعَاكَ يَا سَعِيدِيَّةَ بُوْمُنْدِيلِ
 يَا لَلَّآ يَا زِينَةَ الخُلُويَّةِ يَا نَدَهَةَ كُلِّ وِلِيَّةِ
 يَا طَيِّبَةَ أَعْظَفُ وُزُوفِ عَيِّ يَا أَمَ ذُرَاعِ طَوِيلِ
 يَا لَلَّآ يَا زِينَةَ التَّآبُوثِ يَا اللَّيِّ خَبْرِكَ مَنَعُوثِ
 يَا مَسِيَّبَةَ المَرْبُوطِ فِي حُدَيْدِ وَسَكَكِينِ
 يَا لَلَّآ زِينَةَ الجُبَّآلَةِ يَا بِيَّةَ فِي كُلِّ عَمَالَةِ
 مَعَ الشَّيْخِ بُودِرْبَالَةِ وَجَدَّ الحَسَنِ وَالحَسِينِ

وكذلك من مدحاتها :

مَاذَا عَطَاكَ العَالِي * يَا لَلَّآ * قُطَبَ جِيَّةِ وَسِرُّهَا رَبَّآني
 مَاذَا عَطَاكَ وَزَادِكَ * يَا لَلَّآ * حَصَّنَ عَلَيَّ حَرَمِكَ وَسَالَ أَوْلَادِكَ
 اللَّيِّ قَصْدَ مِيْعَادِكَ * يَا لَلَّآ * وَبُحُورَهَا عَنَبْرَ وُغُودِ قَمَارِي
 مَاذَا عَطَاكَ أَلْوَهْرَةَ * يَا لَلَّآ * وَبِنِيَّةَ أُمِّ الرِّينِ بِنَجْبَةِ حَضْرَا
 اللَّيِّ وَقِفْتَ فِي الحَضْرَةِ * يَا لَلَّآ * وَبُحُورَهَا عَنَبْرَ وُغُودِ قَمَارِي
 مَاذَا عَطَاكَ الثُّورُ * يَا لَلَّآ * يَا حَلِيمَةَ يَا زِينَةَ المَضْفُورِ
 رَوَّحْتَ عَلِيكَ نُدُورُ * يَا لَلَّآ * فِي مَكَّةَ رَاوُوكِ مَعَ الجِيَالَانِي
 مَاذَا عَطَاكَ أَلْهِيَّةِ * يَا لَلَّآ * حَصَّنَ عَلَيَّ حَرَمِكَ وَدَارِ زُرِيَّةِ
 مِنْ بَحْرِكَ نَاخِذِ شَرِيَّةِ * يَا لَلَّآ * وَأَسْقِيْنِي مِنْ كَاسِكَ الرَّبَّآني

ومن مدحاتها أيضا (في امتزاج بين العرضاوي والصالحي) :

قُولُوا لَأُمِّ الرَّزِينِ حَالِي فَايَ يَا خَمْرَةَ مِنْهَا قَوِيَّةُ
 دَبَّرَ وَاشْ بِصَبْرِي فِي بَرِّيَانِي يَا طَيْبَةَ فَرَجِ عَلَيَّ
 يَا لَلَّأُ سَأَلْتِكِ بَرِّي بِمُحَمَّدٍ عَزِيزِ قَلْبِي
 يَا طَيْبَةَ يَخْلِفُ عَلَّ صَبْرِي (هَا يَا بَيْتَةَ) سَافِرِ مُعَانَا وَخُذْ ثَنِيَّةُ
 يَا لَلَّأُ سَأَلْتِكِ بِالْعِشْرَةِ مُحَمَّدًا يَا سَمِحَ الْبَشَرَةَ
 يَا طَيْبَةَ دَاوِنِسِي نَبْرِي (هَا يَا بَيْتَةَ) وَمَا تَرَخِيثِي عَيْنِكَ فِيَّ
 يَا لَلَّأُ حُبِّكَ يُدْرِي سَاكِنِ فِي جَاشِي وَقَلْبِي
 يَا طَيْبَةَ يَخْلِفُ عَلَّ صَبْرِي (هَا يَا بَيْتَةَ) سَافِرِ مُعَانَا وَخُذْ ثَنِيَّةُ
 وَالْبَيْتَةَ مَا أَحَلَى قَعْدَتُهَا وَالْكِتَابَ عَلَيَّ رُكْبَتُهَا
 وَالْبَيْتَةَ مَا أَعَلَى قِيمَتُهَا (هَا يَا بَيْتَةَ) سَافِرِ مُعَانَا وَخُذْ ثَنِيَّةُ
 يَا لَلَّأُ مَا جِئْتُ فِي خِلَاعَةِ زَايِدِي فِي قَلْبِي وَلَا عَاةُ
 وَاللَّهِ مَا غَابُوا اِرْبَاعَهُ (هَا يَا بَيْتَةَ) سَافِرِ مُعَانَا وَخُذْ ثَنِيَّةُ
 يَا لَلَّأُ يَا بِنْتَ بِلَادِي يَا مُوَلَاةَ الْمُدْفَعِ صَادِي
 يَا لَلَّأُ بَلِّغْ مُرَادِي (هَا يَا بَيْتَةَ) وَمَا تَرَخِيثِي عَيْنِكَ فِيَّ

وما تغنت به الفنانة حبيبة مسيكة لأُم الزين في النوع الثاني من راست الذيل :

قُدَّامَ دَارِكِ نَضُبُوا الْمُحَلَّةُ طَبَّالٌ يَضْرِبُ زُكْرَةَ وَرَنَّةُ
 عَلَيَّ اُمَّ الرَّزِينِ مَعْرُوفِكَ لِلَّهِ يَا سَاخِلِيَّةُ
 عَلَيَّ بَيْتَةَ الْوَصْلِ يَا جَمَّالِيَّةُ
 يَا لَلَّأُ قَدْ كُذِّبَ عَجِيبُ أَحَلَى مِنْ سُكَّرِ وَحَلِيبِ
 الِّي يُطَلِّبُ رَيِّي مَا يُخَيِّبُ يَا جَمَّالِيَّةُ
 ظَبَلٌ يَضْرِبُ فِي كُلِّ عَشِيَّةُ

كريقة أولياء العشان

نسبة إلى سيدي العشان ضريه بقرية منزل عبد الرحمان
بالشمال الشرقي من شاليه بجمرة بنزرت

أصول الطريقة: أتباع هذه الطريقة بالحاضرة¹ من سفلة الدخلاء ومن هم في خدمة الأغنياء أو خدمة الوقد بالحمامات "الفرانقية"². وتعدّ هذه الحرفة عندهم صناعة معتبرة، حتّى أنّ المرأة الورفلية إذا أرقصت صغيرها تغنّت له بهذا الصوت :

تَكْبِرُ مِيّ وَتُوَلِّي قَرْقُوسَ (قرقوش) تَكْبِرُ يَا مَعْمِي وَتَحْمِسُ المَحْمُوسَ (المحموش)
تَكْبِرُ يَا مَشْكِ يَا شَيْدِ (سيد) الرِّياس وَتُحَمَّرُ الشَّاوي (الجاوي) فِي مُنَاخِرِ الأَكْبَاسِ

وليس لهم وظيفة ولا أذكار خاصّة ولهم مديح مضطرب ويستخدمون الدف والزرّة والطبلة وليس لهم زوايا خاصّة. وهكذا لا يظهر أن لهم شيخا مؤسسا وإنما ألقوا بأحماهم على أحد الأولياء حتّى يكون لهم احترام كبقية الطرق الأخرى.

طريقة العمل: وظائفهم مختلطة نساء ورجالا، ويسمّون شيخهم "المقدم" وشيختهم "المقدمة" وهما عندهم باعتبار واحد، وعملهم مختلط بين النساء والرجال يمدحون معا ويتراقصون معا ولا يبيحون لأجنبي عنهم الحضور معهم إلا إذا انتسب إليهم، أو كان عملهم خاليا من النساء.

1 الصادق الرزفي، الأغاني التونسية، ص: 155.

2 الفرانقية نسبة إلى الفرناق، وهم من يوقدون النار فيه وهو المحل المعد للوقد خلف كل حمام لتسخين الماء.

الخرجة : ولهم خرجات تمشي فيها النسوة ملتحفات وراء حلقة المديح وليست بكبيرة النظام. ولهم آراء في مسألة الجانّ والصالحين، فهم يعتقدون أن الجانّ الذي في رؤوسهم من الجنس الأسود فيسمّونهم السُمران. ومن معتقداتهم أن كل حَمَام يسكنه أولاد الحشّان والسُمران من الجن، وأن كل حشانية برأسها واحد منهم، كما أن كل حشاني برأسه واحدة منهم، وربما لبست المرأة الراقصة لباس رجل بدعوى أن الساكن برأسها هو الذي فعل ذلك رغما عنها. ولهم عدّة خرافات أخرى. وهناك من أهل الذّكر من يعتبرونها لاشيء. أو كما يقولون: (هدرة فارغة) والظاهر أنهم يقصدون الموسيقى .

الصرق الزنجية

لم يُفرد الصادق الرزفي فصلا للطرق الزنجية بكتابه (الأغاني) ولكنه ذيل فصل (أولاد الحشان) بفقرات عن أعمال السودانين في المزارات بدءا من الصفحة 156، فذكر أنّ عددهم قليل وكلهم من سلالة الأرقاء الذين جلبوا من (عفنو) و(برنو) [وهي مقاطعة غربي التشاد كانت دولة في العهد الحفصي وعاصمتها كوكة] و(بزيفا)، وأخذوا بعد تحرير العبيد في إظهار عوائدهم شيئا فشيئا مستترين في القيام بها تحت اسم سيدي سعد الشوشان، وفي هذه العوائد كثير من الوثنية والتوحش. ويبرز فيها اعتقادهم في تقمص بعض الصالحين والجان في رؤوس الأدميين وبعض الحيوانات، ويذكرون لهم أسماء مثل: بابا ياريمّا، بابا سيركي، بابا جاطو، أُجّي يِنّة. وهم يقربون لهم القرابين وينسبون لهم التأثيرات وجميع العوارض الإنسانية. وهكذا جعلوا لهؤلاء الجنّ مقامات يزورونها ويقدمون لها التذور ويسمّون كل مقام منها (داركوبا)، وتمتاز بقبة صغيرة وقصيرة يقيمونها وسط الدار ويحفرون أرضها قرابة المتر ويقولون أنّ ديوان الجنّ لا يجتمع إلا هناك فهم يهرقون فيها دماء قرابينهم من التيوس أو الدجاج.

ولهم مواكب أسبوعية وسنوية، فينصبون أمام هذا الحفير صورة من أقمشة مزدانة بالدوع (قواقع حلازين بحرية) والعقيق والأحجار الملونة. ويذبحون في بعض هذه

الاحتفالات التّيوس وفي بعضها الآخر الدجاج، ولا يذكرون اسم الله في جميع أعمالهم ولا على ذبائحهم لزعمهم أنّ الجانّ تفرّ بذكره، وهكذا فهم من مردة الشياطين، وتكون الطريقة شيطانية وثنية.

وتكون داركوكفا تحت نظر امرأة يسمونها (العريفة) وهي محل احترام وتقدير. هذا، ولا ترتقي السودانية إلى رتبة (عريفة) إلاّ بإجراء عمليات عديدة منها أكل (الجنفلا) أيّاما عديدة وهو أن يضعوا اللحم في أنية محكمة السدّ، ويتركوها أيّاما إلى تحقّق تعفّنها وتوتنتها وتكوّن الدود فيها، فإذا تأكدوا من ذلك أخرجوه وطبخوه فتأكل منه المرشحة لهذه الرتبة، ومن ذلك أن يضعوا شيئا من نبات سوداني يسمّى (الثوروي) في أحناكهم يمتصّونه مدّة إجراء أعمالهم.

ويستعملون من الآلات (القندفة) و(الدندفة) وهما طبلتان متفاوتتا الحجم كالطبل المستعمل في أفراح البادية إلاّ أن هاتان تستعملان عند السودانيين، و(الشقاشق) وهي صنوج تمسك بالزوجين واحد في الإبهام والآخر في بقية الأصابع و(القمبري) وهو جنس آلة وترية ذات وترين و(القصعة) وهي قصعة كبيرة يقلّبونها ويضربون على ظهرها، ورقصهم هو الصطمبالي.

وتتميّز أعمالهم بالضجيج المزعج في بعض الأحيان مع مديح قليل جدّا بلغتهم، لكنهم إذا طرق ذلك العزف مسامعهم تأخذهم نوبات من الجنون فيتراقصون رقصا فادحا، ويعطون الكلام (أي يتكلمون بالضماثر)، ويسجدون للعريفة ولتلك الصورة التي اصطنعوها، وإذا ذاك يُذبح التيس فيشربون من دمه ويشوون لحمه.

[وفي حديث مع الدكتور صالح المهدي ذكر لنا أنّ الطرق الزنجية طرق وثنية، مثلا يقصدون وادي ملبان ويذبحون تيسا ويَشربون من دمه ويصبّون بعضه في الوادي، فتخرج الضفادع، فيقولون: (الجنون جات) أي جاءت الجانّ. ومن هذه الطرق: سيدي منصور في صفاقس وأولاد مرزوق في نفطة وكذلك أولاد فناوي بجهة مطماطة من ولاية قابس. وهناك سيدي سعد في مرناق: له خرجة كبيرة كباقي الطرق، ويقيمون زردة كبيرة بعد الحصاد تدوم ثلاثة أيام. فعلاوة على احتفالاتهم بالحاضرة فإنهم يذهبون في كلّ عام

1 زردة: (وليمة) بالعامية التونسية، وأصل الكلمة تركي.

مرّة أو مرّتين لزاوية سيدي سعد الشوشان بمرناق كما مرّ، ولزاوية سيدي فرج بسُكّرة. وهذه الخرجات غير منتظمة وتختلط النساء فيها بالرجال ويصطحبون فيها تيسا يزينونه بالملابس والحلي. وطبعا سيدبحونه كما ذكرنا آنفا. وذلك مما رواه الدكتور صالح المهدي [.

وروي لنا بعض شيوخ من المنستير: أنّ لسيدي سعد هذا قبة صغيرة بمجزيرة قوريا، وقد يذبح بعضهم بها جديا كوعدة أو مجرد تقليد عادة. وروت لنا إحدى النساء عن فرقة اصطمبالي (سيدي سعد) بسوسة: أنّ بعض المريضات تأتي، وقد أخذ منها الجنون مأخذا عظيما، فينحر التيس وتتمرغ المريضة في دمه وتنهض للشطح حتّى تنقطع، فتبرأ من الصرع الذي أصابها والغريب أنها شبهته لنا بما يقع في العوامرية.

وسوسة نجد بنقة سيدي السوداني، ويظهر أنه كان سوداني الأصل جاء أبوه إلى تونس في أوائل القرن العشرين واستقرّ بسوسة وسكن في زاوية سيدي سعد في الباب الغربي، أمّا أم الشيخ السوداني فيظهر أنها بيضاء تونسية من جهة بنزرت كانت هي نفسها مغرمة بالبنقة وعُرف باسم "بنقة فوفو". أمّا الشيخ سعد فهو أسود كان يعمل أجيرا في مرناق يعمل في الفلاحة وذا يوم رآه أحدهم نائما الدواب تجر المحراث وحدها فعجب من ذلك وأخبر مجره الذي أراحه من العمل وخصص له مكانا في منزله للعبادة وعندما كبرت به السن وحضر أجله ركب حصانا وأمر أن يدفنوه حيث يقف الجواد فكان في منطقة مرناق قريبا من شاطئ وادي مليان.

كانت فرقته (أي فرقة الشيخ السوداني) تعزف على الثمبيري وآلات إيقاعية منها الطبل النقارات ويسمونها "الكوركوتو" والشقاشق وهي الصنوج السودانية. ويعالجون المصروعين ومن ركبتهم الجنون كما روت لنا المرأة الأنفة الذكر فأصبحت عندهم كالعبادة النفسية. ومن أغانيهم:

سيدي منصور

ها الله الله يا بابا

وسلام عليك يا بابا

سيدي منصور يا بابا

ونجيك نزور يا بابا

ولد النخلات يا بابا

ونجي ونبات يا بابا

ولد العجمية يا بابا

ويعز علي يا بابا

ولد العكروثة يا بابا

في بجره حوته يا بابا

بو عكروثة

هيا ولي الله سيد سعد ولي الله

هيا ولي الله سيد سعد حج بيت الله

هيا ولي الله سعد بو عكروثة

بوسعدية

ها الله الله بوسعدية

ها الله الله بوسعدية

ها الله الله للأبيّة

ها الله الله ولد فناوة

ها الله الله جلدد نمورة

ها الله الله ولد فناوة

ها الله الله يسلم سيدي

ها الله الله يرحم جدي

ها الله الله ولد غزالة

ها الله الله جلود صيودة

ها الله الله بوسعدية

وبالقيروان نجد فرقة "البنفة" وهي من موسيقى الزوج بقيادة الشيخ حسونة الشهبوي وهي تستعمل من جملة استعمالاتها في العلاج النفسي أي لطرد الجنّ من الأجساد وهي موسيقى راقصة يرجعونها إلى الولي الصالح سيدي سعد، وفي غمرة الرقص قد يتخمر البعض ويأكل النار، وقد يدق مشط الصوف أو السّداية في بطنه دون أن يخرج منه دم. ولهم كل سنة "وَعْدَة" لسيدي سعد، فتنتظم سهرة يقع إحيائها "البنفة"، وتقدّم أثناءها القرايين من بين ديكة وجداء.

وهكذا فلا غرابة أن نرى هذه الطرق تنقرض شيئا فشيئا من جهتين من جهة عدم تلاؤمها مع العقيدة الإسلامية، ومن جهة أخرى لمجبتها وبعدها عن التمدّن، فلم يبق منها إلا الصطمبالي كرقصة تقليدية فولكلورية انتشرت في أغلب أماكن الجمهورية من الجنوب إلى الشمال بهذه الصفة.

أحزاب الفكاهة

لكي نصنع عالمًا نحتاج إلى كل شيء. وهكذا فوجود المتناقضات وجود لازم لإقامة دعائم هذا العالم، وإنما تُعرف الأشياء بأضدادها.

قدكنا رأينا في أعطاف ما مرّ من دراساتنا انقسام المألوف، إلى مألوف جدّ ومألوف طرب ولكنّ الطرب نفسه في واقع الأمر، هو اهتزاز النفس لسماع شيء أو تذكّره، وينصرف إلى كلّ ما يهزّ الكيان سواء للفرح أو للحزن، للانشراح أو للشجن، فكلّ ذلك يسمّى في تدقيق اللغة طربًا وشجّي، فهنالكَ كما نلاحظ غناء للأفراح، وغناء للأحزان، وغناء للحماسة، وغناء لكلّ ما يطرأ على الإنسان من طوارئ. فالطرب، إذن، فيه من الجدّ نصيب وافر ما دام يلبس لباس الوقار ويعالج فعلا مواضيع شائكة في حياة الناس، هي أقلّ جدّية وصرامة من الحياة الروحية الصوفية، ولكنها تتخذ من العواطف السامية كالحبّ والرضا والهجر والقلّي ما تتخذه الحياة الصوفية نفسها مع الفارق في المحبوب، كما نجد بعض الأغاني تعالج مواضيع اجتماعية وسياسية واقتصادية أحيانا.

ويبقى هنالك جانب آخر من الحياة، هو مَنْشَطُ للروح، وراحة للنفس، واسترخاء للجسد، ولا بدّ له هو الآخر من البروز على الساحة، وهو من شأنه أن يضفي بعض الانشراح والنشاط بما يُجدّته من اللهو والمجون الخفيف والضحك والسُرور على نفس

الإنسان فيخفف عنها ثقل الجديّة التي تواجهها مع مصاعب الحياة مادياً وروحياً وعاطفياً وتصادمها بالأوامر والكوابت والحدود، هو الدعابة والفكاهة.

أقول، إنّ الحاجة تأكّدت في عصرنا الحاضر في بداية القرن الخامس عشر الهجري الواحد والعشرين الميلادي إلى الفكاهة، فقد أضفت قتامة الحياة على نفوس الناس مسحة داكنة من الكآبة والقلق والسأم من كلّ شيء حتّى أصبحت بحاجة ماسّة إلى الضحك ... الضحك الصرف لنفسه لا ليكون مركباً لإلقاء المواعظ والدروس، كما صرّح الفنّان الظريف سمير غانم مرّة في أحد الأحاديث التلفزية، وفي هذا الصدد بدأت تنتشر في فرنسا نوايدٍ لا مهمة لها ولا اختصاص لنشاطها سوى الضحك للضحك بأي صورة كانت وفي أي صيغة كانت مادامت لا تجرح شعور أحد.

أما شعوبنا المغربية أو العربية فإنّها عاشت هذا الضيق الحضاري منذ ما لا يقلّ عن ثلاثة قرون من الزّمن، وكان لزاماً عليها أن تجد متنقّساً لها في ممارسة من الممارسات التي تخرجها من هذا الضيق الخانق والضغط الأليم، فكثر الالتفاف حول الطرق الصوفية التي أدخل فيها الطرب بصفة غريبة ومتزايدة حتّى بدأت تخرج عن أصلها الديني إلى ممارسة موسيقية وفرجوية متنوّعة المظاهر والألوان، وأصبحت تستغلّ في المواكب والأفراح، غير أنّ جدّيّة التصوّف خيّمت حتّى على هذه المظاهر الفرجوية، فبرز نوع من التناقض بين المظهرين لنفس الممارسة: المظهر الجدّي لكونه تصوّفاً، والمظهر الماجن من كونه طرباً. وبدأت فكرة الفولكلور تطفو على الساحة حتّى أصبحت هذه الفرق الصوفية تستدعى للمواكب الاحتفالية بصفتها فولكلوراً فرجويّاً أكثر منها ممارسة ونشاطاً دينياً وعقائدياً.

وهكذا، إلى جانب جدّيّة هذه الطرق الصوفية بغثّها وسمينها، وأساليب الغناء مطربها وشجيّها، وجدت طرق فكاهية فرجوية فرصة الظهور فاتخذت الشكل الفنّي للطرق الصوفية، ولكنها استعملت كلاماً مضحكاً ونقداً مسليّاً في نفس الوقت، دون تحميل نفسها مهمّة الوعظ والإرشاد، ولكن الجمهور يجد فيها متنفساً لكوابته، ولعلّ طريقة (بوسعدية) من هذا القبيل، إلّا أنّه برز حزبان لهما جميع ما للطرق الصوفية الجدّيّة من الهيئته والخرجات، وحتى اللون الموسيقي: من ذلك :

حزب الفليون

الفليون نسبة إلى محمد بن محمد الشادلي، كان يدعى (القبروص) وكذلك (الفليون) وهو الذي أسس هذه الطريقة الفكاهية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالمنستير ومن المرجح أنه توفي سنة 1919، ولعلّه عن غير عقب إذ لا نعرف له نسلا، ومن نعرفهم من قرابتهم هم أبناء أخيه الصادق.

وطبقا لرواية أوردها المرحوم الشيخ عبد السلام عفير فإنهم كانوا يسمونها أيضا بحزب سيدي شيحة، وهم لا يقصدون بـ"شيحة" شيخ العيساوية المعروفة زاويته بتونس، وإنما نبتة الشيخ البرّية، وهذا الحزب يظهر على شكل العيساوية والعوامرية به أشخاص معروفون منهم: أحمد بشير وعلي شقير وشقيقه محمد يوقعون على البنادر، ومحمد بوجبة يدعى فطيس ومحمد بن محمّد العتيل يدعى البرّكيس على آلة الدربوكة.

ويقدّمون ألعابهم أثناء رواح العريس مثلا: منها لعبة الجمل وهي أن الفليون يشكّلون له جملا بالخطب والقماش ويحشونه بالنخالة فيرقص به ويخيف الحاضرين كأنه سيعضهم، فيخافون لأوّل وهلة، ثمّ يكشف لهم السرّ فيضحكون، أو غير ذلك من الألعاب، ويرقص أمامه رجل عاري الصدر والظهر إلا من السراويل ويمثّل هذا الدور في ذلك الزمان المرحوم علي جهر.

أما الخرجة فكان لهم سفينة (بابور) تُحمل على شريط يجره حيوان، وتُحفظ بمقر لهم بالربط (أحد أحياء المنستير القديمة) ومعدّات بحرية، وهي قارب حقيقي بمدخنة (شاروق) فيتصاعد الدخان منه، وبه سخّابة (طري) لجرّ الشباك والأثقال وكل لوازم الصيد، ويقوم الميكانيكي بإيقاد النار لدفع المركب البخاري فيتلطف وجهه بالسواد والدخان، فيظهر في مظهر يثير الضحك، وكان يمثل هذا الدور (المرحوم محمود التوي والد المرحوم الهادي النكس).

ويروي الحاج المختر سلامة الذي كان زكّاراً بالفرقة القومية للفنون الشعبية أنه كان لهذا الحزب خرجة سنوية لسيدي الفضلين بطبلبة، وكان مسلكه على الشاطئ، فيصل إلى خنيس ثم قصبية المديوني ثم صيادة ثم السُكرين ثم طبلبة، وقد يزور القيروان في بعض المرّات إن وقعت دعوته. ويقول الشيخ عبد السلام عفير أنه أثناء الخرجة يقوم أحمد بشير الملقب بطماطم بغناء أغنية "الهندي" والحاضرون يردّون عليه: يا الهندي

ومن أغانيهم الفكاهية أغنية طويلة يذكرون فيها كل أنواع السمك على هذا النحو:

قَرْنِيظُ يَا بُؤْضُوبِيعُ يَا سَاكِنِ الْحَجْرِيَّةِ
يَتَلَمَّؤْا لِيكَ جُمَاعَةَ يَمْشِيؤْا لِيكَ بَكْرِيَّةِ
بُؤْفْرِيرَةَ وَسِيدي الأَعْوَرُ وَفَرَجَ وُلْدِ العَرَبِيَّةِ
كُلُّ وَاوحدٍ فِي يَدِهِ قِصْبَةَ تَلْقَاهُمْ فِي سُورِيَّةِ²

ويقوم السيد سعيد الزدّام ضابط الدربوكة بإنشاد عروبي بكلمات مضحكة مثل:

سِي الهِنْدِي³ حَارَ البِيَايَةِ⁴ عَلَى كُرْسِي زُمُرْدٍ يَفْصَلُ فِي الأَحْكَامِ
اللِّي يَضْرَبُ⁵ مِنْهُ مِائَةَ هَاكَّةَ حَدِ النِّهَايَةِ بِأَذْنِ اللّهِ يَنْسُدُ سَدَانِ

1 قرنيظ: هو حيوان الأخطبوط.

2 سورية: القميص بالعامية التونسية.

3 الهندي: الخين الشوكي.

4 البياية: منصب الباي أي الملك.

5 يضرب: يأكل.

يَبْدَا يَنْشَقُّعٌ وَيَنَادِي بِالْوَلَايَا لَا يَنْفَعُهُ لَا وَزِيرٌ وَلَا سُلْطَانٌ

ثم يشرع في غناء الأغنية :

الْهِنْدِي يَا الْهِنْدِي يَا الْهِنْدِي وَاللِّي عَصْمٌ¹ التُّرْمَبَةُ² عِنْدِي

هِنْدِي فِي رَفْرَافٍ الْكَعْبَةُ³ قَدَّ الْعَرَّافُ⁴

عَبِّي جِلْدِكْ لَا تَخَافْ وَايْدَا عَصْمْتْ نَادِي بُجْدِي

هِنْدِي فِي مَكْنَسٍ الْكَعْبَةُ قَدَّ الْكِسْكَاسُ

عَبِّي جِلْدِكْ يَا نَسْنَسْ وَايْدَا عَصْمْتْ نَادِي بُجْدِي الخ...

ولهم بالإضافة إلى ذلك شعر العكس.

ومن بعض أغانيهم في مقام السيكاة مثلا :

الشُّمْبَانِيَا وَالْكِيفُ⁵ يَارَبِّ جَيْبِ الصَّيْفِ

وَفُلُوكَةُ بِلَا شِي رِيحٌ (يَا عَذَاي) وَبُحْرٌ صَافِي نُظَيْفِ

طَلِعْنَا عَلَى فُلُوكَةِ نِصْطَادُوا اللَّمْبُوكَةَ⁶

وَطَارَ وَدَرُبُوكَةَ (يَا عَذَاي) بِهِمْ عَمَلْنَا كَيْفِ

طَلِعْنَا لِلْبَيَاضَةِ⁷ عَمَلْنَا فِيهَا رِيَاضَةَ

1 عصم : أنسد مخرجه بيزور الهندي .

2 الترمبة : المنفاخ الذي بواسطته يزال الانسداد .

3 الكعبة : الحبة .

4 الغراف : المغرفة الكبيرة التي يغرف بها الطعام من القدر .

5 الشمبانيا نوع من الخمر الرفيعة تنسب إلى ولاية شمبانيا بفرنسا. والكيف هو الحشيش من المخدرات .

6 اللمبوكة: جنس سمك أزرق مفلطح، موسمه آخر الصيف وبداية الخريف، يتنوع المنستيريون في طبخه.

7 البياضة: هي القرعة في قاع البحر ليس فيها نبات وقاعها رمال بيضاء.

وَحَاكِيَةٌ فَضْفَاضَةٌ (يا عذابي) مِنْ بَجَّازٍ وَصِيفٌ

وَلَقُورِيًّا مُشِينًا نِصْطَاذُوا فِي السَّرْدِينَةِ
الرَّيْحُ ثَقْوَى عَلِينَا (يا عذابي) ¹ وَرَجَعْنَا بِالسَّيْفِ ²

وكذلك في وزن بورجيلة مثنى في لهجة حسين :

يَارَايِسْ فُلُوكِتْنَا تَعُومُ
إِرْمُ الْمُخْطَافِ ³ فُلُوكِتْنَا تَعُومُ
شِدَّ الدَّمَانِ ⁴ فُلُوكِتْنَا تَعُومُ

زِينِكَ مَا صَارَ فِي تُونِسَ عِنْدِ الثُّجَّازِ
حُلْخَالِكَ عَلَى الكَعْبَةِ دَارَ وَمَقَامِكَ غَالِي فِي السُّومِ

مَهْرِكَ يَا زِينَةَ فُلُوكَةَ لَمَبُوكَةَ وَسَرْدِينَةَ
يَا بَنِيَّةَ يَا غَزِيرَةَ عَلِينَا وَيَعْيِشُ بُوِكَ الدَّمْدُومِ ⁵

زِينِكَ حَبَّيْنَهُ حَتَّى لِأَحَدٍ مَا تَعْطِيهِ
لِلَّيْلَةِ عَرْسِكَ تُدْخُلُ بَيْتَهُ وَتُبْعِدُ عَلَيْنَا اللُّومَ

1 قوريا: جزيرة تبعد شرقا عن شاطئ المنستير أحد عشر كيلو مترا.

2 بالسيف: بالكاد، أي كدنا لا نرجع.

3 المخطاف: المرسة.

4 الدمان: الدقة، مقود السفينة.

5 الدمدموم: الكريم وصاحب الفضل.

أو:

يَا سَلَامَ يَا سَلَامَ يَا سَلَامَ بَحْرِيَّةٌ وَخِدْمَةٌ وَنِظَامٌ
جِبْنَاهَا وَجِينَا (يَا سَلَامَ) سَكْمَرِي وَسَرْدِينَةٌ
سَكْمَرِي وَسَرْدِينَةٌ يَا رَبِّ مُحَسِّنُ الْأَسْوَامِ

أو:

عِنْدِكَ بَحْرِيَّةٌ * يَا رَايِسُ * وَالْمَوْجَةُ قُوِيَّةٌ
الْمَوْجُ جِبَالٌ * يَا رَايِسُ * قَطَّعَ الْأَحْبَالَ

أو:

شُوفْ آشْ عَمَلْتْ هَا السَّرْدِينَةُ فِي هَا الْمَاكِينَاتْ
رَاجِلْ قَاعِدْ فِي تَرْكِينَةُ تَخْدِمْ كَانِ الْبِنَاتْ
فِي مَآكِينَةُ سِي الدَّرْمُونِي شَيْ دُونِي رَاتَهْ غِيُونِي
فَمَّةَ اللَّيِّ تَلْبِيسِ بِالسُّورِي جِيبْ مَعْ سُوْكَاتْ
وَفَمَّةَ اللَّيِّ تَلْبِيسِ خَلَّالَةَ تِرْعَى بِالْمِعْرَاتْ

حزب البلّوط

يقول الأستاذ الحبيب شيبوب أنه يصعب تحديد تاريخ لبداية حزب البلّوط، وذكر أنه لايسمى حزبا بل (مبيّنة البلّوط) أسسه بيرم الميلي أصيل مدينة جمّال من ولاية المنستير، كان يقطن بجي باب الجزيرة بالعاصمة، وكانت لهم دار يسهرون بها ويغنّون الأغاني الفكاهية التي قد تصل إلى الفاحش من القول خصوصا في سهرة توديع العزوبة بالنسبة إلى العريس.

وفي حديث أجري مع السيد محمد الرصايصي² صرّح أنّه أدرك الشيخ بيرم الميلي الجمالي وأن هذا الحزب أسس سنة 1919 لظروف استعمارية وهي معارضة بعض مشايخ الطرق الذين اختلفوا في استقبال رئيس فرنسا بالميناء، فكان ذلك كالمقاومة السلمية.

ويروي الدكتور صالح المهدي أن هذا الحزب تكوّن سنة 1931 بالعاصمة، وسمّي (حزب البلّوط) أي الكذب فهو ليس حزبا بالمفهوم الطرقي، وإنما سمى نفسه بذلك كي يسخر من أحزاب الطرق الصوفية ويقلل من احترامها لدى الناس. والسبب في تكوينه، أنه في سنة 1931 تقرر أن يُقام الاحتفال بمرور خمسين سنة على احتلال

1 البلوط، لا علاقة له البتّة بشجر البلّوط أو ثمره إنما هو (الكذب) في العامية التونسية.

2 محمد الرصايصي من مواليد 1926 اتبع هذه الطريقة بعد أن كان سلاميا أخذنا عن المشايخ الأجلاء الشاذلي خلاص والعروسي بن خميس وحمادي التميمي وعزوز بن محمود وابنه حمادي مشايخ السلامة.

فرنسا للإيالة التونسية، فخرجت جميع الطرق والأحزاب من الزوايا في استعراض كبير لاستقبال رئيس فرنسا الذي زار تونس بالمناسبة، وكان شيخ زاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي يتقدم هذه الوفود، فغضب الشباب وفعلوا شيئا ضد ما كان يُسمع، فأخذوا كلمات من العيساوية وركبوا على غرارها كلاما عن المآكل والمشرب والملاهي عبثا بمشايع هذه الطرق. وسموها (عيساوية البلوط) سخرية بأصحاب الطرق الذين خرجوا لاستقبال رئيس فرنسا. وكان شيخ العمل بها البشير بن صابر وعمل بها دور عكاشة الأستاذ حسن الزمري، أما شيخ الحزابة فكان المرحوم عثمان الكعك.

يقول الرصايصي: هناك ألحان في شكل صنایع على مدحات السلامية والعيساوية تركب على كلام قريب في جرسه مختلف في معناه بنفس اللحن الذي تغنى به الأغنية الأصلية، وهناك أغان من إنتاج الفرقة الخاص منها:

يَا شَيْخُ يَا مَرْيُخُ خَلِّي الْأَوْلَادِ تُشِيخُ¹

الشَّيْخُ يَحِبُّ فُطُورُ قَصْعَةَ وَعَلِيهَا تُورُ
الدَّلَّاعُ بَانِي سُورُ وَمَدَافِعُهُ بَطِيخُ

الشَّيْخُ مَايَ قُدْرِي مَرِيضُ مَايَا كَلِشِي
جَيْبُوَالُهُ جَمِيلٌ مَحْشِي وَيَفْضِّخُهُ تَفْضِيخُ

الشَّيْخُ شَاهِي حَاجَةَ قُلَّةُ سَمْنٍ مِنْ بَاجَةَ
قَارَانُ بَالْفِ دُجَاجَةَ بَعْدَ الْعَشَا تَحْرِيشُ

1 تُشِيخُ: فعل (شاخ) في اللسان العاتي التونسي معناه (تمتع)، فهو يدعو الشيخ لترك الأولاد يتمتعون.

الشَّيْخُ يَجِبُ يَمَمٌ عِشْرِينَ حَارَةَ عَظَمٌ
الشَّيْخُ عِنْدَهُ الدَّمُّ مَا تَعَصَّبُوشِي الشَّيْخُ

ثم عروبي (في محير عراق) :

تَعَدَّيْتُ عَلَيَّ سَيِّدِي غَلَبٌ وَأَنَا قَاصِدِ الْمَدِينَةِ
عُرْضِي الشَّيْخِ الْبَلُوطِ مَرِيضٌ فَانِي بِالْغَيْبَةِ
حَلِيفُ عُمَرُ لَا يُصُومُ حَتَّى يَرَى السُّفْرَةَ بَعِينَهُ

وقلدوا الخطب المنبرية مثل :

الحمد لله الذي كما أمر، بأكل الرفيصة والمسفوف بالتمر، ويُرجح من الدَّلَّاعِ الأحمر،
وقليلٍ من مقروض القراوة، مجمع البنة واللذة والحلاوة.

أيها الناس ! قال الشيخ ابن عصبانة: روى عن جدّه ابن الدوّارة أنه سمع بُريك
الحليبي يقول: (من تصدّق على بطنه بشقالة من المحلّبية كتب من الشبعانين القانعين،
ومن نهى نفسه عنها، أيها السادة، كتب من الجائعين المحرومين الذين لا حظ لهم فيها،
اللَّهُمَّ أطعنا وإياكم من هذه الخيرات والمأكولات واحرم الشيخ البلوط من هذه
المأكولات والمشروبات.

وتعاد الخطبة الكثير من المرات، ثم يأتي دور :

هِيَ الْبَقْلَاوَةُ بَقْلَةٌ بَقْلَةٌ بَقْلَاوَةُ

ثم يأتي عروبي :

بِاللّهِ يَا فُقْرَةَ الْبَلُوطِ جِيبُوا لِي صِينِيَّةَ الْبَقْلَاوَةِ
مَضْلُوعَةَ ابْرَاجِ ابْرَاجِ مَضْنُوعَةَ ابْرَاجِ ابْرَاجِ

ثم ينطلق في الأغنية (في محير عراق) :

يَا جَيْعَانُ وَأَشْ جَابِكُ لِيَا بَرًّا عَلِيًّا مِنْ هُنِيَّا

قُولُ لَهُمْ شَاهِيَهُمْ يَاسِرُ رِشْتَةٌ وَخَلَائِمٌ وَنَوَاصِرُ
وَالشُّرْبَةُ بِالْقَارِضِ يَاسِرُ يَامَا الْقَاهُمْ عَ الصُّبْحِيَّةِ

قُولُ لَهُمْ شَاهِي الْمَقْرُونَةِ الَّتِي بِالسَّمَنِ مَذْهُونَةٌ
جِيبُوا لِي مِنْهَا فَاؤُونَةٌ بَسْرَدَاوِي نُخَلَّلَ سِنِّيَا

قُولُ لَهُمْ نَا شَاهِي الْخَوْتُ عَلَيْهِ نَفْتَى عَلَيْهِ نُمُوتُ
جِيبُوا لِي مِنْ كُلِّ شَطُوطٍ سَبْعَةَ مَرَكَبٍ مِتْعَبِيَّةِ

قُولُ لَهُمْ شَاهِي الْمَحْكُوكَةِ الَّتِي بِالسَّمَنِ مَذْلُوكَةٌ
جِيبُوا لِي مِنْهَا فَلُوكَةٌ بَسْرَدَاوِي نُخَلَّلَ سِنِّيَا

قُولُ لَهُمْ شَاهِي الدَّلَّاعِ الَّتِي بُرْجُهُ قَدْ ذَرَّاعُ
يَعْطِي سَخْطَةَ لِلْبَيَّاعِ كَيْفَ يُبَيْعُ بِالْهَمْجِيَّةِ

ثم مجرد مركب على العيساوية :

مَاكِ الشَّيْخِ الْهَامِلِ يَهْرُكُ الْوَادِ الْحَامِلِ
إِنْتَ الشَّيْخِ الْقَلَّابِ وَاطِي، وَسُفِيهِ وَكَذَّابِ
يَا شَيْخِ زَمِيمِ السُّرَّاقِ يَاللِّي مَا نُحِبُّ كَانِ الْعِيَّاقِ
يَا شَيْخَنَا رَانَا نَعْرُوكِ فِي قَاعِ الْبَيْرِ نُحِبُّو نَرْمُوكِ

يَا شَيْخَنَا نُحِبُّو نُودُوكْ فِي بُودَقَّة نَحِبُّو نُزُورُوكْ
 فِي بُودَقَّة نَحِبُّوكْ ثَبَات بِالصَّحَّة لِيكْ تَأْكُلْ وَحَدَاتْ
 تَأْكُلْ وَحَدَاتْ بِالصَّحَّة لِيكْ نُودُوكْ دِيمَا وَلَا نُشَهِّيَكْ
 لَأَيْشْ تُلُومُوا قَلْبِ الْكُؤَاشْ حُبِّ الخُبْزَةِ مَا يَدَاوَأَشْ
 حُبِّ الخُبْزَةِ يَسْبِي الْعُقُولْ يَعْطِيَكْ صَحْفَةَ قَارِضْ وَقُولْ
 هَا يَا شُمْنَكَّة فِي حِمَاكْ يَعْجِبْنِي زِينِكْ وَبُهَاكْ

ومن الصنایع مثلا : نجد لدى العيساوية هذه المدحة على إيقاع المجرّد :

الكَاسْ يَدُورِ الْكَاسِ يَدُورِ الخُمْرَةُ لِأَهْلِ الْحَقِيقَةِ
 يَا حَمَّارُ وَيَا عَمَّارُ اسْقِنَا خُمْرَةَ شَرِيقَةِ
 يَا سَتَّارُ وَيَا جَبَّارُ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

فجعلوها على نفس اللحن :

الْكَبِيشْ يَدُورِ الْكَبِيشْ يَدُورِ وَقُرُونُهُ نَطَّاحَةَ
 يَا جَزَّارُ وَيَا عَمَّارُ ادْبُحْهُ بِالرَّاحَةِ

خاتمة

انتهينا من النظر في الطرق الصوفية إلى كونها فقدت فيضها الروحي العقائدي ولم يبق منها إلا هذا التراث الموسيقي والذي لا يزال حاضرا بقوة ومؤثرا في الحياة المعاصرة بشكل لافت تتعاطاه شرائح مختلفة مهما تباينت درجات الثقافة لديهم ولا أدل على ذلك من تواصل الحضرة الصوفية وقد أضححت بعد فقدان فيضها الديني إنشادا ورقصا في نوبات تستهوي الناس من غير أهل الطريقة أو أتباع التصوف والرياضة الروحية.

كما انتهينا إلى أن الجانب الرئيسي المؤثر هو الإيقاع في كامل هذه الطرق، فلم يكن الكلام دائما موزونا على الطريقة العروضية أو حتى موازين الشعر الشعبي رغم لطائف معانيه وعمق مراميه.

وقد ينسج الراوي على منوال شيخه الأبيات التي ينسجها أو يخترع أبياتا تنماشى مع الحال على نفس المنوال، ويمكن توارث الألحان والطبوع والنوبات لما لها من التأثير في النفس وذلك لأن الإيقاع هو روح الأشياء وقوة تأخذك عن طريق الحواس إلى جذور الوجود. إن الإيقاع هو هذه الذبذبة تقع في الحواس موقعا سحريا يقودها إلى أعماق النفس الإنسانية...فتتأهب للإنسجام مع الوحدة الوزنية بالإهتزاز الرفيق ثم يدخل الإنسان في حالة من الإنتشاء.

إن الإيقاع لغة كونية إذ يتفاعل الإنسان مع رقصات الصينيين والهنود وهو لا يتقن لغتهم ولا يفهم كلامهم... لأن الضابط الإيقاعي يسمو بالوجدان والروح وقد انسلخا عن المادة.

فلماذا بلغ هذا التراث الموسيقي للطرق الصوفية هذه الأهمية وكانت له هذه الجاذبية؟ وهل لذلك علاقة بالتداوي بالموسيقى؟

إن هذا ليس غريبا في الثقافة التونسية حيث قامت الأميرة "عزيزة عثمانة" بالإنفاق على المطربين الذين كانوا يعزفون بمارستانات تونس، وكانت "دار الدراويش" مارستانا أحدثتهحومة العزافين بتونس العاصمة. ويقوم فيه العزافون كل صباح بعزف نوبة من الموسيقى المألوفة مدة ساعتين ترويضاً ولألائك المصابين وتهدئة لأعصابهم.

لقد أثبت الطب الحديث أن أنجع الطرق لمعالجة المصابين بأعصابهم هي الألحان الموسيقية، يقول الأخصائي الأستاذ بيرند: ط من الممكن معالجة كل خلل عضوي بواسطة الموسيقى إذا كان هذا الخلل صادرا عن الجهاز العصبي.

أما الدكتور أحمد مبارك من أندونيسيا فيقول: "من خصائص أعمال أصحاب الطرق الصوفية السعي في مصالح الناس وخاصة خدمتهم في علاج النفس ومن بينهم شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية في أندونيسيا اكتشف كيفية العلاج النفسي باستعمال طريقة الذكر في علاج مدمني الأدوية المنوعة، وللطريقة النقشبندية عيادات لعلاج مدمني المخدرات... في مدينة (مكلين) شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية طوّر كيفية علاج النفس باستعمال الأوراد وله عيادة تسمى عيادة التوكل".

ويؤكد العياشي في كتابه "نظرية إقاع الشعر العربي" أن للإيقاع تأثيرا ومفعولا في ميدان التطبيب والتمريض وأن معالجة الأمراض بالإيقاع أمر قديم عمدت إليه الشعوب البدائية وأحرزت فيه نتائج باهرة. ويضيف أن "بعض الأقوام تعمل به إلى اليوم كالشامان المقيمين في بعض مناطق سيبيريا والذين هم قوم من السحرة يعالجون الأمراض بالإيقاع ويحققون في ذلك من النتائج ما يبعث على التعجب والإندهاش".

فكيف يؤثر الإيقاع في النفس حتى يحصل شفاؤها وتتمتع بالعاقية؟

تشير دراسات عديدة إلى أن الإيقاع هو روح الأشياء، ذلك أن الصورة الشعرية "لا تحرك إحساسنا ولا تززع كياننا إن لم تكن موزونة فالإيقاع هو تلك الرجة المتواترة، تلك القوة التي تأخذك عن طريق الحواس إلى جذور الوجود".

إن الإيقاع نظام ذبذبات يرسلها للآخرين هي التعبير الصافي لقوة الحياة... وعماد الموسيقى ذلك الضابط الإيقاعي الذي يسمو بالوجدان والروح إلى أعلى درجات السمو والانسلاخ عن المادة حتى لكانَّ الإيقاع أصبح خدرا للأعصاب فتصبح طيعة في كَف الروح وتنسجم الأشياء مع بعضها البعض وينهار سلّم المفاضلات المادية في الحياة العادية فلا نعجب من شيخ قد أثقلته السّنون وضعفت حركته كيف يتجاوز ضعفه ذاك وتأتيه قوّة من حيث لا ندري فإذا به يخف طربا ويقوم للرقص كأنه شاب في ريعان شبابه.

فما الذي يجر العاطفة إلى التّسامي والوجد والذويان في نشوة الروح؟

يتدرج العازفون في الطرق الصوفية من الأوزان الثقيلة إلى الأوزان الخفيفة كما يتدرج شيخ الإنشاد من مقام إلى آخر في الإرتفاع حتى يصل بالمنشدين إلى طبقة حادة فتندجر العاطفة إلى أسى درجات التّشوة.

يكون ذلك عندما يقع الانسجام الناتج عن تكرر الوحدات الزمنية مختلفة الطول والامتداد موقع القبول في الأذن فيحرك الجسم للرقص ويسرّح الخيال من ريقه المنطق والواقع إلى دنيا الخيال والأحلام ويدخل المرء في مرحلة الجذب فينطلق أولا بالبهت ونوع من الدهول ثم يرتقي إلى الإنفعال وتوتر الأعصاب ثم التّشنج والتأهب إلى الانسجام مع الوحدة الوزنية بالاهتزاز الرفيق ثم يدخل الإنسان في حالة الانتشاء ثم ينتقل إلى الغيبوبة الذهنية والاندماج الكامل في مختلف مكونات الكون فينصهر انصهارا في المسيرة الوجودية بعد أن كان يراقبها بالعقل. وقد ورد عن الغوث عبد السلام السمر أنه كانت تأخذه عاطفة جيّاشة عند سماع هذه الأنغام ويصبح في فتنه وجذب صوفي لا يوصف.

هذه النشوة تبرز كوا من الطاقة المخزونة في الجسم لوقت الحاجة لذلك فإنّ المصاب بانكماش العضلات أو تقلص الأعصاب عندما يشل عن الحركة مثلا ثم تهيج منه الكوا من بواسطة الإيقاع فيسري تيار ذلك في الأعضاء المرتخية أو العضلات المنكمشة

فيطلقها فيقوم ذلك الأشل وينطلق كأنه صحيح معافى، أو أن يصيب الإنسان انقباض نفسي وكبت للعواطف فتطفو على الكيان حالة مرضية فإذا حضر بعض هذه الحضرات ينطلق ذلك الإنقباض إلى انشراح يذهب همّه وينشرح عندما يغيب عن الوجود "كيف يغيب يتسرّح" على حدّ عبارة يرددها البوعليّة.

ومن المثلة على ذلك ما أورده "راجي عنایت" في كتابه معجزات العلاج متحدثا عن الشامان (قوم من السحرة في سيبيريا يعالجون الأمراض بالإيقاع)، يقول: "كان الشامان في أساسه عرافا تكشف له بصيرته التشخيص السليم للمرضى كانت هذه المواهب تأتيه في بعض الأحيان عفويا... وفي أحيان أخرى كان يحتاج إلى التركيز حتّى يصل إلى حالة الغيبوبة أو التجلي حيث يستطيع أن يرى ويسمع الإجابات عن أسئلته. وكان أيضا يسعى في بعض الأحيان إلى دفع المريض هو الآخر إلى حالة التّجلي هذه حتّى يطلق غرائزه من عقالها، وكان الشامان يحقق هذه الأهداف بالموسيقى والرقص والعقاير التي تأخذ المرضى خارج نفوسهم... كان الأثر يختلف من شخص إلى آخر إلا أنّ التّمط العام كان دائما واحدا: التّشنج وفقدان التحكم في الأعصاب ثم حدوث الانفصال عن الجسد والتحدث بأصوات غير الأصوات الطبيعيّة ثم السقوط في غيبوبة يصبح كل من الجسم والعقل بعدها في حالة تجدد ونشاط."

وقصارى القول أن الطرق الصوفية مازالت تعبّر عن رأي إجتماعي وفلسفة حياة أثرت وتؤثر في المجتمع التونسي ولا يمكن للدراسات الأنثروبولوجية أن تنكر أن للطرق الصوفية من التأثير الواضح في حياة الناس وطرق تفكيرهم ما هو واضح منذ حياة الآباء والجداد... إنه مظهر ثقافيّ مميّز يمكن استغلاله وتطويره لحياتنا المعاصرة وتهذيب ما يجب تهذيبه لتوظيفه كمنتوج ثقافيّ في التّنشيط السياحي عبر تنظيم الملابس والرّقصات والكورغرافيا طما ورد في "الحضرة" أخيرا بقيادة "سمير العقربي" الذي أخذ شذرات من أغلب الطرق ونظمها تنظيما كورغرافيا ووزّعها توزيعا موسيقيا وأدخل فيها العديد من الآلات غير التقليدية فأصبح للحضرة مظهر فرجوي يتمثل في الألبسة والعرض والتنظيم الموسيقي.

وكذلك أصبحت "الزرد" مهرجانات مقنّنة ومنظمة وفي ذلك كله نوع من التّأصيل للميراث التونسي ضمن التراث العالمي وثقافته.

قائمة المراجع والمصادر

﴿تمت ألف بائنا مون اعتمار ابن وأبو﴾

- لطيفة الأخضر، الإسلام الطريقي دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، سراس للنشر، تونس أبريل 1993.
- طارق حسون فريد، التراث الموسيقي والموروث الموسيقي، مقال صفحة 51 مجلة المؤثرات الشعبية السنة الأولى العدد الرابع أكتوبر 1986 الصادرة عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج: الدوحة. قطر.
- علي الحشيشة؛ السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس، مطبعة سوجيك صفاقس 2000.
- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى 1401 هـ/ 1981م.
- محمد درويش الحوت البيروتي، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، طبعة مصطفى الباي الحلي بمصر، صفر سنة 1346 هـ.
- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- حسين الخطيب، الدر اللطيف، حمص 1342 هـ.
- ابن الخطيب، أوضح التفاسير، الطبعة 7، المطبعة المصرية.
- فصل ابن الخطيب، بعنوان: روضة التعريف بالحب الشريف، من تحقيق الكتاني، الدار البيضاء، الجزء الأول.
- أحمد عز الدين عبدالله خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، القاهرة: 1419/1998، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جمهورية مصر العربية.
- محمد بن الخوجة، الرحلة الفليارية بالملكة التونسية، طبع المطبعة الرسمية العربية 1330 هـ/ 1912م. تونس.
- أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة.
- محمد بن الخوجة، الرزامة التونسية، السنة 17، مطبعة الرائد الرسمي بحاضرة تونس سنة 1335 هـ/ 1917م.
- الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. طبعة تونس، فيفري 1978.
- محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، سلسلة التصوف الإسلامي جروس برس، طرابلس. بدون تاريخ.

- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة الأولى، مطبعة الدولة التونسية سنة 1286هـ.
- الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، الدار التونسية للنشر، 1967، تونس.
- أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2000.
- أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، المكتبة الأدبية، حلب، سوريا، بتاريخ 15/8/2001.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، المطبعة العربية بمصر، 1345هـ/1927م.
- الشيخ أحمد زروق، قواعد التصوف، تحقيق الشيخ عثمان الحويمدي، المطابع الموحدّة شارع عبد الرحمن عزّام، تونس، الطبعة الأولى 1407/1987.
- الشيخ أحمد زروق، كتاب مختصر النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، المطبعة السلفية ومكاتبها القاهرة 1348هـ.
- محمد الصغير بن يوسف الباجي، المشرع المالكي في سلطة أولاد علي تركي، ترجمه إلى الفرنسية
- فتحي زغندة، الطريقة السلامية في تونس (أشعارها وألحانها)، نشر المؤسسة الوطنية بيت الحكمة بتونس سنة 1991 م.
- عبد الله الزنّاد، المنستير عبر العصور، مطبعة لابراس تونس 1987.
- يوسف محمد طه زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، طبعة دار الجليل بيروت.
- طه عبد الرؤوف سعد، 300 قصة وقصة من قصص الصالحين والصالحات، مكتبة الصفا، القاهرة، 1420 هـ/2000م.
- تاج الدين أحمد ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
- محمد سليمان، الحديقة الندية في آداب النقشبندية، القاهرة 1313هـ.
- أحمد شاه ولي الله، القول الجميل في بيان سواء السبيل. 1290 هـ دون ذكر مكان الطبع.
- أبو الحسن الششتري، ديوان أبي الحسن الششتري، تحقيق الدكتور علي سامي النشار الطبعة الأولى منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960.
- أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963.
- أبو نصر عبد الله بن السراج الطوسي، الملع في تاريخ التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- عبد السلام بخوش الغوثي، نفحات صوفية، المطبعة الجديدة بالساحل قصر هلال، بدون تاريخ.
- محمد الحبيب عباس، كتاباتي، مؤسسة سعيدان للنشر، سوسة، تونس، 2006.
- عبد العزيز بن عبد الجليل، الموسيقى الأندلسية المغربية (فنون الأداء) سلسلة عالم المعرفة عدد 129 الكويت.
- الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تحقيق الشيخ محمد ماضور طبع الشركة التونسية للنشر 1970.
- حسن حسني عبد الوهاب، الإمام المازري، طبع دار الكتب الشرقية بتونس.

- حسن حسني عبد الوهاب، شهرات التونسيات، الطبعة الثانية، مكتبة المنار، تونس.
- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، الناشر مكتبة المنار بتونس 1966، القسم الثاني.
- الشيخ إبراهيم [بن] الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني، أنوار الأمين في شرح الأوراد عن سيدي فخر الدين، بدون تاريخ ولا مكان الطبع.
- الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني، السيرة الذاتية للإمام فخر الدين. مخطوط.
- محي الدين بن عربي، تفسير القرآن الكريم، دار الأندلس بيروت، 1401 هـ/1981 م.
- لطفي عزيز، الساحلين، نقوش عربية، الطبعة الأولى 1998.
- عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، سلسلة دراسات إسلامية، نشر وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت، توزيع دار القلم بيروت لبنان.
- أحمد بن مصطفى العلاوي المستغامي، ديوان أحمد بن مصطفى العلاوي المستغامي، مطبعة الشحي، تونس، 1986 م/1407 هـ.
- راجي عنایت، معجزات العلاج، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة 1413 هـ/1993 م.
- أبو زيد العياشي، الأنوار السنوية على الوظيفة الزرقية، المطبوع في ذيل (تنقيح روضة الأزهار). نشر مكتبة النجاح، طرابلس-ليبيا.
- الحاج أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، كشف الحجاب عن تلاق مع الشيخ التجاني من الأحباب، المكتبة الشعبية - لبنان.
- محمد العياشي؛ نظرية إيقاع الشعر العربي، 1976. المطبعة العصرية، تونس.
- أحمد بن المهدي الغزال، مختصر الإمام الأجد، الطبعة الثانية سنة 1349 هـ بتونس.
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1402 هـ/1982 م.
- الشيخ محمد الغمري، قواعد الصوفية، تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي 2003، دارالصفوة للطباعة، القاهرة.
- حنا الفاخوري وجيل الجري، تاريخ الفلسفة العربية، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1963.
- أبو نصر الفارابي، الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة محمد أحمد الحنفي، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. دت.
- إشراف بوتونة، فرقة الحوامد الصوفية بمنطقة المنشية (ولاية قبلي)، رسالة لختم الدروس الجامعية بالمعهد العالي للموسيقى بجامعة سوسة السنة الجامعية 2005 - 2006.
- هنري جورج فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، تعريب جرجيس فتح الله المحامي، منشورات دارمكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- إسماعيل سعيد القادري، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، طبعة المكتبة الشعبية بيروت.
- السفينة القادرية، طبع ونشر مكتبة المنار-تونس.
- عدنان محمد القباني، النفحات الحقانية في مناقب أجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية العلية، بدون تاريخ ولا مكان طبع.

- محمد العربي القباني، جامع النفحات القدسية في الأناشيد الدينية والقصائد العرفانية والموشحات الأندلسية، دارالحير، الطبعة الثانية 1419 هـ/1998م بيروت).
- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. سنة 2001
- محمود قطاط، التراث الموسيقي الجزائري، مقال بمجلة الحياة الثقافية عدد خاص بالجزائر عدد 23/1984.
- محمد بن يوسف الكافي التونسي، الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية، الطبعة الأولى 1354 هـ/1935م، مطبعة حجازي بالقاهرة.
- محمد السيد بن عبدالكريم الكسنزاني، الأنوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية، مكتبة مديولي القاهرة، 1990.
- الهادي بوكمشة الغوثي، كتاب الدليل لسالك السبيل، طبع المطبعة العصرية، تونس.
- عبد الله بن عمر البيضاءوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، طبع المطبعة العثمانية سنة 1329 هـ.
- جلول لّس مدير المعهد الوطني للموسيقى بالجزائر والحفناوي أمقران المستشار الثقافي للمعهد الوطني للموسيقى، الموشحات والأزجال الجزائرية، الجزء الأول، نشر وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر.
- محمد الطاهر اللطيفي، أعلام ومناقب (سيدي تليل وأبناؤه) مطبعة البحياوي، القصرين، تونس. ماي 2006.
- محمد الطاهر اللطيفي، الشعر الشعبي التونسي، شعر وشعراء، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس 2004،
- إبراهيم المارغني، بغية المرید لجوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني، الطبعة الثانية سنة 1938 بتونس.
- أبو عبد الله المالكي، رياض النفوس، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.
- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، طبعة بيروت-لبنان.
- عبدالعزيز المجذوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر. 1395/1975 تونس .
- الحارث المحاسبي، الوصايا، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: 1406 هـ/1986م.
- عبد الحليم محمود، قضية التصوف (المدرسة الشاذلية) دار المعارف بمصر سنة 1988.
- محمد بن محمد مخلوف، مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم (تنقيح روضة الأزهار لكريم الدين البرموني) نشر مكتبة النجاح، طرابلس - ليبيا.
- أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1422 هـ/2002م.
- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، في الطبقات المالكية، نشر دار الكتاب العربي بيروت -
- الشيخ محمد المدني، ديوان أنيس المرید في التصوف والتوحيد. مطبعة الهلال. أبريل 2002، تونس.
- الشيخ محمد المدني، المعرفة الواضحة في تفسير سورة الفاتحة، الطبعة الأولى 2002م 1423 هـ.

- فويدو مدينة، المنستير أرض من تونس، تعريب محمد الصالح مزالي ومحمد البدوي، طبعة دار المعارف بسوسة، تونس، سنة 1999.
- لطفي المراجعي، إنشاد الديني في العالم الإسلامي، طبع أضواء للإشهار، تونس.
- محمّد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، سنة 1967.
- أحمد فريد المزيدي، الإمام الجنيد سيد الطائفتين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 2006.
- صالح المهدي، الموسيقى العربية تاريخها وأدبها، نشر الدار التونسية للنشر وديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، الطبعة الثانية، نوفمبر 1986.
- صالح المهدي، التراث الموسيقي التونسي، السفران الثالث والتاسع، نشر وزارة الشؤون الثقافية، محمد الحبيب نورية، وثائق حول مدينة المنستير، مطبعة فرشيو المنستير، 14 أبريل 2011.
- أحمد العلاوي بن عليوة، المنح القدسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطريق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت 2009.
- محمد البهلي النيّال، الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي، نشر مكتبة النجاح تونس 1965م.
- إسماعيل الهادي، ديوان معالم معارف الله اللدنية وعوارفه الربانية للسير إلى الحضرة العلية. مخطوط.
- ملتقى خميس الترنا، الإنتاج الموسيقي العربي قديما وحديثا، نوفمبر 1978، الدار التونسية للنشر.
- جامعة الدول العربية، الموسيقى العربية، مجلة تعنى بالموسيقى العدد 5 أكتوبر/تشرين الأول 1985.
- جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، أعمال ملتقى التصوّف الإسلامي العالمي للفترة بين 16 - 18 سبتمبر 1995، إصدار جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية.
- منظمة المدن العربية، كنوز القدس، طبع بإيطاليا في مطابع SAGDOS, Brugherio (Milano) في إدارة الموسيقى والفنون الشعبية، مطبعة الدار التونسية للنشر سنة 1979.
- فكتور سراس ومحمد الأصرم تونس 1900. لبنان (طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى سنة 1349 هـ. بالمطبعة السلفية ومكتبتها بمصر). نوفمبر 1983.

المصادر غير العربية

- Octave DEPONT & Xavier COPPOLANI, les confréries religieuses musulmanes, Algérie :1897. .
- 1997 Encyclopédia Universalis France:
 - A - Maraboutisme, ARNALDEZ Roger .
 - B - Soufisme, CHABBI Jacqueline.
 - C - Confréries musulmanes, AGERON Charles-Robert
- AFRIQUE AFRICAINE de Michel HUET ; édit : Suisse
- Comprendre l'Islam . FRITHJOF Schuon
- TOUMA (Habib Hassan), La Musique arabe, éd. Buchet/Chastel, Paris 1977
- MEDINA (Guido), Monastir Terre de Tunisie, éd. Bouslama. Tunis
- INTERNET ; La voie du Coeur de l'Islam

حسين الحاج يوسف

من مواليد 10 جوان 1946 بالمنستير، تعلّم الموسيقى العربية على يد صالح المهدي، وآلة العود على يد الهادي الجويني قبل أن يختصّ في آلة الكلارينات.

أسّس المعهد الجهوي للموسيقى بالمنستير سنة 1983 وكان أول مدير له، كما أسّس وأطر عديد الفرق الموسيقية الوطنية والجهوية.

عمل كأستاذ بالمعهد العالي للموسيقى بسوسة (تونس) وبالمعهد التكنولوجي للموسيقى بباتنة (الجزائر).

أنتج عدّة برامج بإذاعة المنستير مثل «من تراثنا الشعبي» و«نماذج حيّة من الفنون الشعبية» وأعدّ برنامج «رحلة مع التراث» على التلفزة الوطنية التونسية وعديد البرامج بالإذاعات الوطنية بصفاقس والكاف وفقصة.

ملحن وشاعر ومؤطر بيداغوجي، تُعتبر أعماله الوثائقية مصدرا هاما لجلّ الباحثين في الموسيقى التونسية.

عضو لجنة التحكيم بالمهرجان الوطني للطرق الصوفية بقباس والمهرجان الوطني للشعر الشعبي بدوز والمهرجان الوطني للمالوف بتستور وشهادة الموسيقى العربية بتونس.

عبد الوهاب بوزفرو

من مواليد 31 مارس 1946 بالمنستير، توفي في 25 جويلية 2013. زاول تعليمه الابتدائي بالمدرسة القرآنية بالمنستير ودرسته الثانوية بالمعهد الثانوي للذكور بالمنستير ومنه تخرج سنة 1966. بديبلوم ترشيح المعلمين.

قضى تربصا بيداغوجيا بدار المعلمين بتونس سنة 1966 و 1967.

درّس الفرنسية والعربية ببعض مدن ولاية المنستير.

انقطع عن التعليم سنة 1970 وكوّن لنفسه مشروع المكتبة العربية.

التحق سنة 1975 بإدارة بلدية المنستير حتى خرج منها على التقاعد سنة 2006.

وهو من أول أصحاب البرامج بإذاعة المنستير.

له عدة مؤلفات مثل «روسبينا الملاحم» (قصيدة شعرية من بحر البسيط تعد 1600 بيت تروي تاريخ مدينة المنستير) و«هيام» (ديوان شعر) و«البنذور والجليلة» (مسرحيتان تعالجان مشكلة الحرب) و«الرحلة الكبرى» وعدة مؤلفات أخرى مخطوطة.

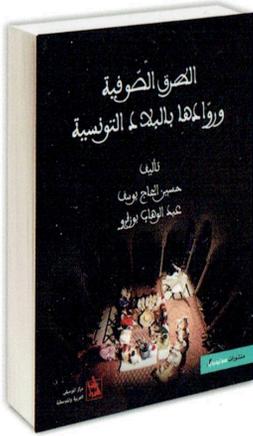


المغربية لطباعة وشهار الكتاب

21. دوح العارفين - المنطقة الصناعية الشرقية - الرباط - تونس
هاتف : 216 70 837 683 - فاكس : 216 70 838 975

هذا الكتاب

حسين الحاج يوسف
عبد الوهاب بوزفرو



الصق الصوفية ورؤاؤها بالبلاغ التونسية

تحمل كلمة التصوف بين طيّاتها عالما فريدا من الرّؤى التّورانية الشّقافة، كما تتفرد عن غيرها بما اعتبره البعض تجربة دينية شعورية وجدانية صرفة، كما اعتبره آخرون «الإسلام بالذوق»، وهي خاصية استحوذ عليها التصوف.

وكلمة الدّوق هنا تحملنا إلى معان أخرى، فلا يمكننا الحديث عن الدّوق دون التطرق إلى الفنّ، وهذا ما أدركه مشايخ الصوفية، فالجمال المودع في الفنّ ورحلة الفنّان التي تمثل كذلك رحلة وتجربة تأملية مطردة ومتكررة قد تتطابق في بنية هيكلها التفكيري ورؤية الصوفي أو المتصوف للكون والوجود التي يتخذها مطية وسلما قصد الاتصال بالعالم العلوي الروحاني المنشود.

ومظاهر استعمال وإقحام الفنّون داخل الزوايا عديدة قصد إضافة مسحة جمال تساعد مرتادها على الترقّي في تهذيب الدّوق، فنجد تنظما في الإجماعات، ووحدة في اللباس، ورقصا جماعيا منظّما، وموسيقى وألحان شجيّة تُوقض الوجدان وتهيج الجنان وتهزّ الأركان طربا وانتشاء وشوقا ونداء وهياما ورجاء .

وفي هذا الإطار يتنزل مجئنا هذا، فالزوايا الصوفية في تونس أثّرت وتأثّرت بشكل جلي في تراثنا الموسيقي كما سنراه في طيات هذا الكتاب، وساهمت مساهمة لا لبس فيها في كتابة سطور تاريخ موسيقانا المحلية بما تحمله من خصوصية هوياتية تونسية صرفة تستحق منا عناية البحث والسفر والتنقل لعين المكان في شتى أنحاء الجمهورية لتسليط الضوء على تنوع الطرق الموسيقية الصوفية في تونس.

الثلثم: 45 د.ت



منشورات سوتيميديا

مركز الموسيقى
العربية والمتوسطة

